

من الشرق والغرب

الفتوحات العربية الكبرى

بمقام
جنون باموت هاروت

تدوين وتعليق
غيتري صمان

« على الزمن ألا يمحو الماضي من تاريخ الإنسانية ، وعلينا
ألا ننكر على الأعمال العظيمة الرائعة حقها في الشهرة »

هيودتس

تقدمة العرب

عندما صدر هذا الكتاب في لندن قبل زهاء شهرين أو ثلاثة تساءلنا نحن الذين عرفنا مؤلفه جلوب عندما كان في بلدنا الحبيب الاردن ، يعمل رئيسا لأركان جيشنا وينفذ عن طريق مركزه هذا مخطط بلاده الاستعماري في الوطن العربي كله - عما قصده جلوب من كتابه . وقلنا لأنفسنا ترى هل مل جلوب من كثرة ما شوهه قولاً وعملاً في تاريخنا الحديث فأراد أن ينتقل الآن الى تاريخنا القديم يعمل فيه معاول الهدم والتشويه ، لينثف سموم حقه الاسود على الشعب الذي مل الاعييه الاستعمارية وحيله الماكرة في تنفيذ مخطط بلاده . فأخرجه من بلادنا شبه مطرود مما حملة حقداً أسود على كل ما هو عربي ، بالاضافة الى ما كان يحمله في الماضي من عواطف عداثية للعرب بسبب تأثيره بسياسة بلاده الاستعمارية .

وصدر الكتاب . وطلعت صحف الغرب تلقاه بالاطراء والتقريظ فجلوب في نظرها خير كبير في الشئون العربية بل لعله أعظم هؤلاء الخبراء فلقد صرم زهاء ثلاثين عاماً أو يزيد من عمره ، يجوب الصحاري العربية وينتقل بينها مختلطاً ببدوها ومتحكما في حضرها وناشراً سلطان بلاده على ربوعها . وقد تعلم اللغة العربية ولاسيما لهجات البدو منها فأجادها وعاش مع العرب في خيامهم يشاركونهم طعامهم . وينام نومهم ملتحفا السماء ومقترشاً الغبراء ثم بعد أن عاد الى بلاده متقاعداً مطروداً جعلت منه الدوائر المسئولة خبيراً تشاوره في كل ما يمت الى البلاد العربية بصلة . وصيرت منه الصحافة اخصائياً ترجع اليه في كل مشكلة تتعلق بالعرب ، تسأله الرأي والتعليق . واغتنم هو بدوره هذه الفرصة فأخذ ينشر المقالات تلو المقالات ، ويصدر الكتاب تلو الكتاب وكلها عن تجاربه واختباراته في الوطن العربي . وما مر به من خواطر وذكريات راعى فيها جانب التضليل وتشويه الحقائق ليحجى ما يسرده معبراً عن حقه الاسود ومنسجماً مع سياسات بلاده الاستعمارية وغاياتها .

ولكن عندما صدر هذا الكتاب . وقرأنا عنه في صحافة الغرب ما

قرأناه من اطراء وتقريظ وثناء، خيل اليـنا - وان كنا لانعرف عن جلوب أنه مؤرخ أو بحاث أو متعمق في دراسة التاريخ الاسلامي - أنه قد يكون في كتابه هذا قد بحث تاريخ العرب من الزاوية العسكرية • وحلل أحداث هذا التاريخ ووقائعه وفسرها على ضوء معلوماته العسكرية وخبرته بالبلاد التي وقعت فيها هذه الاحداث • وقلنا لعل جلوب قد عثر في بعض الكتب الرومانية أو البيزنطية على أشياء نجهلها أدرجها في كتابه وربط بينها وبين روايات التاريخ العربي ليخرج لنا من كل ذلك بشيء جديد • وتوقعنا بعد ما قرأنا من تقريظ لهذا الكتاب أن نجد فيه منحنى جديدا في قراءة التاريخ العربي مستمدا من الوقائع العسكرية ، وقائما على أساس المفاهيم في فنون الحرب ، من سوقية وتعبوية •

ووصل الكتاب اليـنا فقرأناه • وكلما أوغلنا في قراءته رأينا العجب العجيب فالكتاب مستمد في وقائعه من كتب التاريخ والسير العربية ليس الا ، كسيرة ابن هشام وتواريخ الطبرى والبلاذرى والخضرى • وكل ما فيه من جدة هو الربط بين الاحداث وصوغ قصتها على أساس الاتساق الزمنى • مع بعض الاستنتاجات والآراء الخاصة التي لا تتطلب خبرة « جنرال » عسكرى ، أو عالم بفنون الحرب وخطتها وانما يمكن أن يصل اليها كل باحث يتوخى فهم الاحداث وتفسيرها •

ولكن أهم ما فى الكتاب هى المحاولة البارزة فى كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصور الزائفة التى تشكك القارئ فى الشخصيات العربية العظيمة ابتداء من النبى صلى الله عليه وسلم وانتهاء بصغار القادة ، عبورا بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وخالد وأبى عبيدة وعمر بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهم • وقد استند فى عمليات التشويه هذه على ذكاء نادر فى فن التضليل ، وعلى روايات ابتكرها من خياله ، أو وجد أثرا منها فى بعض الكتب الصغرى التى وضعها الشعوبيون فى مختلف العصور • تنفيذا لغايات لا تقل فى مكرها عن الغايات التى ساورت المؤلف وهو يضع كتابه هذا •

ولقد اتضح لنا من قراءة الكتاب ناحية كانت كما أعتقد خافية على الجميع من الذين عرفوا جلوب أثناء عمله فى بلادنا • وهى تشييعه لليهود والصهيونية تشييعا كاملا لا شك فيه ولا لبس ولا غموض • وانى أقول ان هذه الناحية كانت خفية على الجميع • ذلك لان جلوب كان يتظاهر بحب العرب حبا شخصيا قويا جعل الكثيرين يخدعون به ، فيعتقدون رغم ايمانهم بأن جلوب ينفذ سياسة بلاده الاجتماعية فى وطننا وان

اخلاصه لهذه السياسة هو الذى يدفعه أحيانا الى الظهور بمظهر المؤيد لليهود ، يعتقدون انه لو ترك وشأنه لعواطفه الشخصية لكان مع العرب ضد اليهود قلبا وقالبا . ولكن لا حيلة له ، فهو منفذ للسياسة الاستعمارية التى وضعتها فى الاردن حاكما بأمره ، رغم وجود الحكم الوهمى فيه .

لكن كتابه هذا أزال ذلك القناع الزائف الذى وضعه جلوب على وجهه والذى خدع به الكثيرين من سليمى النية من العرب . فهو يظهر فى كتابه مؤيدا لليهود . كل التأييد وان لم يعلن تأييده هذا صراحة . فهو مثلا يروى قصص اجلاء النبی لليهود من يثرب (المدينة المنورة) ومن خيبر كبنى النضير وبنى قريظة وبنى القينقاع دون أن يذكر الاسباب التى دفعت النبی الى اتخاذ هذه الخطوات ، ومنها ، نقضهم لعهودهم معه وخياناتهم لاتفاقاتهم ومحاولتهم طعن المسلمين فى ظهورهم ابان غزوة الاحزاب وحصار المدينة أو أثناء معركة أحد . على الرغم من وجود اتفاقات معقودة بينهم وبين النبی . أو سعيهم الى اغتيال الرسول ، وما شابه ذلك من الخيانات التى تستحق أكثر من عقوبة الطرد والاجلاء عن الديار لانها تشابه ما قام به رجال « الطابور الخامس » ابان الحرب الكونية الاخيرة . ولا ريب فى أن تجاهل جلوب الحديث عن كل هذه الامور واكتفاءه بالحديث عن اخراج النبی لليهود من ديارهم ، انما هو عمل مقصود لاثبات ان العرب بمظهر المضطهدين لليهود ، وتصوير النبی صلى الله عليه وسلم على أنه هتار آخر .

وفكرت طويلا . . هل أنقل هذا الكتاب بما فيه من تضليل وتشويه للتاريخ العربى الى العربية أو لا أنقله . ووصلت الى نتيجة واحدة . وهى أن نقله ضرورة قومية . وضرورة دينية أيضا . فاغفاله وتجاهله أمر لايجوز اطلاقا اذ أنه طبع ووزع فى كل مكان فى العالم الناطق بالانجليزية وقراؤه كثر ، اذ أن جلوب كما قلت يعتبر خبيرا فذا فى الشؤون العربية عند الغربيين ، وسيحمل هؤلاء القراء كل ما قاله على محمل التصديق والثقة . ناهيك عن أن أجيالا ستنقض وسيعتبر هذا الكتاب بعدها مرجعا من المراجع لان أحدا لم ينبر فى حينه للرد عليه .

وقلت لنفسى أيضا ان كثيرين من العرب قد يقرءونه فيصدق بعضهم على الاقل ما جاء فيه ، كما قد ينبرى عربى فيترجمه ترجمة أمينة دون أن يعلق أو يرد عليه ردا علميا صحيحا . وبذلك يكون المؤلف قد حقق الغاية التى توخاها من وضع كتابه . وهكذا تم العزم على تعريب هذا الكتاب . وتوزيع ترجمته على أوسع نطاق ممكن . مع الرد عليه حيث يقتضى الرد ،

وتصحيح ما فيه من أخطاء وتشويه حيث يتحتم التصحيح ، وتقرر أن يصدر عن دارين للنشر • الدار القومية في القاهرة والمكتب التجارى في بيروت وكلى أمل أن نوثق فى ترجمة الردود والتعليقات والتصحيحات الى اللغة الانجليزية لتنتشر مع الاصل الانجليزى • وبذلك تتحقق الغاية الكاملة من الرد عليه • وبذلك أيضا يتاح المجال لكل قارئ من قراء الكتاب ليرى الحقيقة التى حاول المؤلف اخفاءها بذكاء وبراعة • ويحكم على ضوء تفكيره ووعيه على صحتها أو زيفها ، كما نحفظ للأجيال القادمة من القراء وثيقة تبين أن هذا الكتاب قد صدر وصدر الرد عليه احقاقا للحق والحقيقة •

وقد راعيت فى التعريب الامانة كل الامانة لأبين لكل قارئ - قديكون لايزال مخدوعا بجلوب حقيقة هذا الرجل الذى عاش بين ظهرانينا قرابة ثلاثين عاما ، كان فيها المنفذ لسياسة الاستعمار البريطانى فى بلادنا • والمخطط أحيانا لهذه السياسة • وسيكون هذا الدور الذى مثله على مسرحنا موضوع كتاب خاص أعتمزم وضعه فى حلقة « أعمدة الاستعمار البريطانى السبعة فى الوطن العربى » ، وهى الحلقة التى أصدرت منها أول كتاب عن « عبد الله فيليبى » وسأبجعه عما قريب باذن الله بالكتاب الثانى وعنوانه « أسطورة لورنس » •

وكلى أمل أن أكون قد حققت الغاية التى توخيتها من تعريب هذا الكتاب الطريف برغم ما فيه من تشويه ، والمهم كل الاهمية برغم كل ما فيه من تضليل •

القاهرة فى ١٥/٦/١٩٦٣

خبرى حماد

« أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد ، على صعيد
عالمى ، بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى • ولهذا
لا يقل تفهم شئونهم ضرورة ان لم يزد عن تفهم أى شعب
من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الامبراطورية
الرومانية فى طريق الانحلال » •

سيمون أوكلى ••• تاريخ العرب

« قد نعجز عن الفهم ••• الا اذا كنا راغبين فى أن
نضع نصب اعيننا حقيقتين اضافيتين أولاهما ما فى
الطبيعة البشرية من تشابه أساسى على مر الدهور
وثانيتهما ما فى الأجواء الانسانية من اختلاف وافتقار
الى التماثل ••• ولازيب فى أن هاتين الحقيقتين توحيان
ما يبدو عند أصحاب الشخصيات المثلى من ايمان ذاتى
موموق وما يصدر عن الجماهير من لامبالاة يشير اليها
عدم نفاذ التعاليم الدينية لديها بعيدا الى الاعماق الا
فيما ندر ••• »

جى • جى • كولتون - صورة جلوية للعصور الوسطى

مقدمة

بعثت قبل أيام الى رئيس تحرير احدى الصحف بمقال عن بلد عربى
ضمنته صورة جانبية سريعة عن تاريخ هذا البلد فى فقرتين أو ثلاث
فقرات . انتقلت منها الى شرح أوضاعه على النحو الذى هى عليه اليوم .
وقد رد رئيس التحرير المقال الى مرفقا اياه بمذكرة قصيرة قال فيها انه
على استعداد لنشره اذا حذفت منه مقدمته التاريخية . وأنهى مذكرته
قائلا : « لم يعد الناس يهتمون اليوم بالتاريخ وكل ما يدور معرفته هو
رأيك فى الوضع السياسى اليوم » . واذا ما حكمنا على الامور على ضوء
الاطياء المفجعة التى ارتكبتها فى الشرق الاوسط فى السنوات الاخيرة ،
تبين لنا ان هذا الرأى لا يحمله هذا الصحفى وحده ، وانما يسود على
أوسع نطاق ممكن . وتشترك فيه حكومتنا مع الرأى العام فى بلادنا .

ولعل من الغريب كل الغرابة ، ان يكون هذا هو الواقع فى عصر
يكثر من الحديث عن علم النفس ، وينفق الكثير من الاموال فى اعداد
اطباء التحليل النفسى وتمكينهم من أداء تجاربهم . ولا يقتصر تأكيد الخبراء
المستمر فى هذا الميدان على أهمية خصائص آبائنا واسلافنا التى قد نكون
ورثناها عنهم . وانما يتعداها الى الأوضاع التى نشأنا فيها والتى أحاطت
بطفولتنا وصبانا . وكثيرا ما سمعنا أن الظروف التى عشناها فى الأيام
الاولى من حياتنا تؤثر على عقليتنا ما تبقى من هذه الحياة . واذا صح
ما سمعناه فان مما يثير الدهشة حقا أن نرفض تطبيق هذه الاعتبارات
نفسها على الامم الاخرى وأن نرفض دراسة تاريخها . فى الوقت الذى
نبدل فيه كل جهد لتفهم الاسباب التى تدعوها الى سلوك ما تسلكه اليوم .

ولو كان للتاريخ من معنى . فان هذا المعنى يجب أن يتناول وبكل
تأكيد تطور الجنس البشرى منذ أيامه الاولى حتى أوضاعه الراهنة . ولضمان
فهم هذه العملية وادراكها يجب أن يتوافر فيها عنصر الاستمرار والاتصال .
ولو حصرنا أنفسنا فى تسليط أضوائنا الكاشفة على بلد أو بلدين ، وعلى
عهد أو عهدين ، وقعت فيهما الاحداث بشكل يتفق مع أهوائنا وعقائدها
وتركنا ما يتبقى من سير تطورها يقبع فى غياهب الظلمات ، فان الصورة

التي سنحصل عليها . ستخلو حتما من كل انسجام وتناسق ، ويظل موضوع التطور البشرى كله ، وكأنه لا معنى له . وهى حقيقة يحس بها طلاب المدارس . والاكتفاء بتعلم فترة قصيرة من التاريخ الرومانى ينتهى بالامبراطور أوغسطس، ثم القفز منها الى تاريخ انجلترا ابتداء بعام ١٠٦٦م انكار لفكرة التطور البشرى المستمر كلها . ومع ذلك فان الاغلبية الغالبة من أبناء بريطانيا والولايات المتحدة لم تسمع قط الا فيما ندر شيئا عن امبراطورية البيزنطيين أو الفتوحات العربية . ولكننى أرى ان القصة التى سأسردها فى هذا الكتاب تنطوى على مفتاح من المفاتيح الرئيسية لتفهم العالم المعاصر الذى عاد المسلمون يلعبون فيه دورا أساسيا بارزا .

ولقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الاولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع الانفاس حله . فعندما اندفع العرب فى القرن السابع للميلاد من جزيرتهم ليقبضوا امبراطورية . كانوا لا يزالون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة . ولما كان جل اهتمامهم منصرفا الى العمل ؛ فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه بل لم يكتفوا أنفسهم عناء تدوينه . وكان أبناء الجزيرة العربية ، هم وحدهم الذين قاموا بهذه الفتوحات العظيمة الاولى ؛ وكان جلهم من أبناء البادية الرحل . أما الشعوب التى فتحو بلادها فكانت فى غالبيتها غير عربية . وكان معظمها وارثا لحضارات عربية تليدة وظل أبناء الجزيرة يحتلون مركز الصدارة فى الامبراطورية العظيمة التى أقاموها طيلة المائة عام الاولى بعد الفتوحات (١) . ولكن مع انقضاء هذه المدة ، فقد احتلوا العرب الاصليون مكانتهم بتأثير أحد عاملين اما عامل الإقامة فى البلاد المحتلة والتزاوج مع أهلها المتباينى الاجناس ، والضياع وسط هذه الشعوب المختلفة أو عامل البقاء على حياة البادية فى الجزيرة العربية وما يتبع هذه الحياة من جمود ، ومن عزلة عن مراكز النشاط والحياة فى الامبراطورية التى أقاموها .

فلقد انتقل السلطان الى الخلافة العباسية فى عام (٧٥٠) ميلادية . أى بعد مائة وثمانية عشر عاما من وفاة محمد . ومنذ ذلك التاريخ . وبعد

(١) اعتقد أن تحديد هذه المدة بمائة عام خطأ تاريخى وقع فيه المؤلف فالمعروف أن عهد الفتوحات العربية بدأ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سنة (٦٣٢) ميلادية . والمعروف أن السيطرة العربية على الامبراطورية الاسلامية ظلت قائمة بشكل كامل حتى بداية عهد الخليفة العباسي المأمون فى عام (٨١٣) ميلادية عندما شرع الامام فى التدخل فى شئون الامبراطورية وتبين من هذا أن السيطرة العربية المطلقة ظلت قائمة (١٨١) عاما لا مائة عام كما قال المؤلف . (العرب)

نقل العاصمة الى بغداد ، اكتسبت الامبراطورية طابع الشعبوية ولم يعد أساسها القومية العربية وانما الاسلام . ولم يظهر المؤرخون (العرب) الكبار الا بعد نحو قرنين من وفاة النبي وبعد أن تحولت السيطرة فى الامبراطورية الاسلامية من أيدي العرب الى أيدي الشعوبيين .

ومن هنا نستطيع انقول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت اسلامية أكثر منها عربية . ويضاف الى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربى صميم . وقد نشأوا فى بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الاندلس وبعضهم الثالث من فارس . ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة . ومن هنا يتبين أن مؤرخى العصر العباسى ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التى عاشها الفاتحون الاول . كما انهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية . ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والارقام والحقائق ، وهى المظاهر التى يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا . وكانوا يكتفون فى وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن يهزم الكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التى أوردوها الى الدقة . وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر ، فى تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل . وكثيرا ما لف الغموض والابهام تقديراتهم للقوات المتجاربة . وعلى الرغم من ميلهم الى اعطاء الارقام القريبة من الصحيحة بالنسبة الى قوات المسلمين ، الا أنهم كانوا ميالين كل الميل الى المبالغة فى تقدير قوة أعدائهم (١) .

وبالاضافة الى افتقار هؤلاء المؤرخين الى الاهتمام بالعمليات العسكرية فانهم دونوا تواريخهم ، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك . فبالنسبة اليانا نحن ألفنا النظر الى الخرائط

(١) ليس ثمة من شك فى أن هذه الحملة التى يشنها جلوب على المؤرخين العرب مستمدة من وحى مايحس به الغربيون من كراهية عامة للعرب ولو كان فى حملته هذه موضوعيا ينحو المنحى العلمى لاورد على ماقاله الأدلة والشواهد ، دون أن يكتفى بالاحكام العامة التى تجعل كتابه مفتقرا الى النقل العلمى . ولربما اندفع الى حملته هذه برغبته فى ارضاء قرائه الذين يعرف انهم يستعرون كل حملة على العرب بالنظر الى جلدور الكراهية المتأصلة في اعماقهم منذ أيام الحروب الصليبية متجاوبا في الوقت نفسه مع حزازاته الشخصية التى لا بد وان تكون قد تضاعفت بعد خروجه من الوطن العربى على النحو الذى خرج فيه .

منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الاماكن • نرى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هذا الحديث • ومن الواضح حقا ان المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التي يتحدثون عنها • وكل مابقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك • تناقلته القصص والروايات القديمة • وما زال قيد الاستعمال حتى يومنا هذا متيحاً المجال للمؤرخ المعاصر العثور على أثر أو علامة تصل به الى الحقيقة •

وأرى لزما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الاولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح في ترديد أسماء مصادرهم أو في الرجوع بهذه المصادر الى أولئك الذين شهدوا هذه الاحداث التي يدونونها هم عند وقوعها • وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادرهم أن مهمته قد انتهت • فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتحقق مما اذا كانت الاحداث التي يصفها ويسردها قد وقعت حقا • وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها • سائدا كل رواية منها الى مصادرهم ومراجعها • وتاركا للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة •

وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضي جنبا الى جنب مع متاعب لا تقل عنها أهمية نشأت في العصور الحديثة • فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون في انجلترا ، وهذه هي الصعوبة الاولى وكأنها احدى اللغات الميتة • وقد قام المستشرقون الاوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الادب العربية القديمة الى الانجليزية ؛ وإن كانوا قد ركزوا عملهم على النواحي الدينية والسياسية والعلمية في المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحي العسكرية • ولم تكن الفرصة لتتاح الا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة •

أما الصعوبة الثانية فهي أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الاخيرة منيعة الاختراق الا لاكثر المكتشفين جرأة ومخاطرة، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة الى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك • أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التي أدت الى هذه الفتوحات العظيمة •

أما الصعوبة الثالثة فهي أن أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات

الاسلامية كوارث رهيبة • ولم يكن ثمة مسيحي يود أن يذكره الناس بها وليس المؤرخون الا بشرا • ولذا تثبط عزائمهم اذا لم يجدوا من يقرأ لهم فلقد كتب سيمون أوكلي ، وهو أحد المؤرخين الانجليز الاوائل الذين ارخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن في كمبردج وفاء لدين عليه • ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من اعالة أسرته • ولقد كتبت الوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الامبراطورية الرومانية • أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية فى اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة • وليس غريبا والحالة هذه اذا ما ارتكبنا هذا العدد الضخم من الاخطاء الجذرية فى سياستنا نحو العرب • طالما أن موقفنا منهم يرتكز على مثل هذا الاساس الواهى من المعرفة •

ولكن اذا كان مؤرخ الفتوحات العربية يمارس عمله أمام مثل هذا العدد الكبير من المتاعب فانه أيضا يحبى بنعمة من النعم الممتازة • فما زال هناك بعض البداة فى قلب الجزيرة العربية ، يعيشون على النحو الذى كان يعيش فيه أسلافهم فى القرن السابع الميلادى دون أى تبدل أو تغيير (١) • ولا ريب فى أن مثل هذا الوضع فريد فى نوعه فى العالم وهناك بالطبع أجناس بشرية غير متحضرة وبدائية لم يطرأ على نمط حياتها أى تبدل منذ الوف السنين • ولكن هذه الاجناس لا تمثل شعوبا لعبت دورا قياديا فى تاريخ الحضارة العالمية كالدور الذى لعبه العرب •

ترى ألا يكون من الانباء المثيرة كل الاثارة لو عثر فى احدى الجزر الضائعة على جماعة من الجمهوريين الرومان ، يعيشون اليوم على النحو الذى كان يعيش فيه اسلافهم فى أيام ماريوس وصولا ، أو بومبى وقيصر ؟ ومع هذا فان مثل هذا المجتمع موجود فى الواقع فى قلب الجزيرة العربية • اذ ما زالت القبائل هناك تعيش على النحو الذى كان يعيش فيه أبناء قبيلتى هوازن وبكر ، فى القرن السابع •



(١) ان هذه النعمة التى يشير اليها المؤلف • هى فى الواقع ادانة قاطعة على نظام الحكم السعودى الذى يسود الجزيرة العربية • فلقد عمل هذا النظام على الرغم من مئات اللامين من الجنيحات التى يدرها الزيت فى كل هام على هذه البلاد ، على ابقاء اهلها يعيشون فى اوضاع القرن السابع اى قبل الف وللمائة عام لان هذا النظام ينفعه على لهو الملك والامراء ومبازلهم ولا يابه لاحوال الشعب • (العرب)

وكان الحماس الدينى هو الحائز على الفتوحات العربية ولكن أثر
 مطراً على الاندفاع العاطفى الاول من خفوت تدريجى . أخذت طبيعته
 الامبراطورية الجديدة فى التبدل . وقد تحولت من دولة دينية ثيوقراطية
 مثالية الى امبراطورية علمانية ، ما لبثت أن لجأت الى سياسات القوة
 للدفاع عن نفسها ولتوسيع حدودها وسيطرتها ، واستغرقت عملية
 التحول هذه عددا من السنوات . ولقد كان هدفى من هذا الكتاب بصورة
 عامة أن أعرض عصر الحماس الدينى . وكل أمل فى أن أتمكن فى كتاب
 آخر من الحديث عن قصة الامبراطورية العربية كدولة عظمى فى ظل
 الخلافة الاموية ومستهل عهد الخلافة العباسية . ويبدو أن خلافة معاوية
 تمثل عهد الانتقال من نظام يقوم على الاساس الدينى الى نظام سياسى
 عالمى بصورة رئيسية . وعلى الرغم من أن الحكومة فى هذا العهد كانت
 تستوحى أعمالها على الغالب من حوافز دنيوية الا أن الروح الدينية
 الصادقة كانت لا تزال سائدة أوساط الجنود والشعب ولهذا فقد
 أثرت انهاء كتابى هذا بوفاة معاوية .

ولقد سبق لى أن أوضحت فى هذه المقدمة أن العسكريين المحترفين
 ماكانوا يجدون الفرصة لتعلم لغة صعبة ميتة . وانى لأبدو بهذا الاعتراف
 وكأنى قد حكمت على هذا الكتاب بالموت سلفا . ولكن سلسلة بارزة من
 الاحداث المتزامنة شجعتنى على كتابته ، وأول هذه الاحداث اننى تعلمت
 العربية لا كلفة ميتة ، بل بالعيش مع الشعب الذى يتكلمها الى الحد الذى
 جعلنى أنطقها بنفس السهولة التى انطق بها الانجليزية . أما الثانى فهو
 اننى قدت بالفعل ولمدة ثلاثين عاما جنودا جمعوا من نفس تلك القبائل
 التى قام أبناؤها بتلك الفتوحات العربية العظيمة ، والتى لم يطرأ عليها
 أى تبدل منذ ثلاثة عشر قرنا . يضاف الى هذا اننى خضت مع هؤلاء الجنود
 عمليات عسكرية فى نفس تلك المناطق التى حاربت فيها الجيوش العربية
 القديمة .

وتحتل بعض المعالم الطبيعية فى أى بلاد كالجبال والمضايق والانهار
 والصحارى ، أهمية كبرى بالنسبة الى العمليات العسكرية ؛ ومع ذلك ؛
 فمن الممكن أن يعيش المرء حياته كلها على مقربة منها دون أن يوليها
 أهمية بارزة . ولكن عندما يجد المرء نفسه خائضا فى عمليات عسكرية
 على نفس هذه الاراضى . فان تلك المعالم الطبيعية ذات الاهمية
 الاستراتيجية ، سرعان ما تقفز أمام عينيه . وعندما يقرأ المرء بعد
 مروه بهذه التجارب وصفا للحملات العسكرية القديمة التى دارت فوق
 تلك الاراضى فانه يدرك على الفور كل ما كان ينتويه القادة العسكريون

الاولئ الذين قادوا تلك الحملات • وكانت هذه هى الطريقة التى قفزت بها الفتوحات العربية القديمة فجأة أمامى لتحتل جماع تفكيرى •

وانى طبقا لمعرفتى لا أعتقد أن مؤلفا سبقنى سواء آكان عربيا أم أوربيا تمكن من اخراج قصة معقولة وواضحة للفتوحات العربية التى وقعت فى العشرين سنة الاولى بعد وفاة محمد • وكلئ أمل فى أن تكون ظروفى المواتية التى شرحتها قد حققت لئ النجاح فى تحقيق هذه الغاية • ومن سوء الحظ (طبعا !) ان المزاياء الهائلة التى أتيت فى لحسن طالىعى لن تتكرر لائ كاتب آخر باللغة الانجليزية • ولم يكن أى قائد عسكري بريطانى قد حارب حتى نشوب الحرب الكونية الاولى على أرض هذه البلاد • وقد لا تتاح هذه الفرصة لائ قائد بريطانى فى المستقبل أبدا (١) • يضاف الى هذا ان استقلال هذه البلاد أدى الى عدم احتمال تولى أى ضابط بريطانى قيادة القوات العربية فى هذه المناطق فى المستقبل • وأخيرا فان تصنيع الجزيرة العربية سيؤدى قريبا الى اختفاء الطريقة البدوية فى الحياة • وهى الطريقة التى احتفظت الجزيرة بها ألوف السنين وكانها « متحجرة » مطمورة فى الأرض •

واعتمادا على هذه الظروف المواتية لا على معرفتى وعلمى ، أجد نفسى مضطرا الى المغامرة باصدار هذا المؤلف الى القراء متحدثا عن حقبة من أكثر الحقب أهمية فى التاريخ وهى حقبة الفتوحات العربية العظيمة • ويسن دود سنت دونستان

جون باجوت جلوب

ميفيلد — سيسكس

(١) يكاد جلوب يقض نفسه فى مقدمته • ويفضح نيائه الاستعمارية والدور الذى كان يؤديه فى المنطقة العربية • فهو يعتبر أن من سوء حظ بريطانيا طبعا أن آيا من رجالها لن يحتل فى المنطقة المركز الذى احتله هو • وهو لا يرد أن يجرم بأن أى قائد بريطانى لن يحارب فى المستقبل على أراضيها ، لان احلام الامبراطورية مازالت تراءوده وتغنيه هو أو من هم على شاكلته بالعودة الى المنطقة وقيادة الجيوش العربية فيها • ولكننا نود أن نجزم لجلوب ونؤكد له انه لن يعود لا هو ولا غيره من أمممة الاستعمار البريطانى الى أرضنا العربية التى طهرها وسيطر عليها شعبنا العربى من مخلفاته وعملائه • ونود أن نشترك معه فى قوله بأن ما أتيت له لن يتاح لغيره أبدا لان هذه هى ارادة الشعب العربى •

(العرب)

إيضاح للمؤلف

لجأت فى أسماء المواقع فى معظم الحالات الى اللفظ العربى للاسم
اما بالنسبة الى المواقع المعروفة الى القراء الانجليز فقد استعملت الاسم
الشائع المعروف عندهم ، كأسماء القاهرة مثلا ودمشق والقدس ودجلة
والفرات . وقد أطلقت على استمبول أحيانا اسم القسطنطينية وأحيانا
أخرى اسم بيزنطية .

وتحتاج بعض الاسماء العربية الشخصية الى بعض الايضاح فالعرب
يلجئون الى طريقة غريبة تثير الבלبله والخيرة . وهى تسمية الشخص
باسم أبوته لولده الاكبر ويبدو أن هذه العادة كانت أكثر شيوعا فى القرن
السابع للميلاد منها فى وقتنا هذا حتى ان الاسم الاول الشخصى للرجل
كثيرا ما ينسى ولا يذكر أبدا وكثيرا ما تتضمن الكنية اسم الولد الاكبر
الذى يكون قد مات فى طفولته ، وهكذا فقد يكنى الرجل طفيلة القسم
الاكبر من حياته باسم «أبى القاسم» مع أن «القاسم» ولده الاكبر توفى
فى الشهر الاول من عمره ولم يسبق لأحد أن رآه أو سمع باسمه . ويفسر
هذا المألوف الغريب تسمية عدد كبير من الاشخاص فى كتابنا هذا ،
باسم أبى فلان . وهناك نقطة أخرى وهى أن عبارة «أبو» تصبح «أبى»
فى حالات الجر أما الابناء الآخرون لأبى القاسم والذين قد يعيشون
فيكونون بأسماء فلان « ابن أبى القاسم » .

وعند تدوين الكلمات والاسماء العربية راعيت تهجنتها بحيث يتمكن
القارئ الانجليزى من لفظها فى صورتها العربية الصحيحة . وتكتب
العربية بحروف تختلف عن حروفنا ولهذا يصعب أحيانا نقل الاسماء
العربية الى الحروف الانجليزية عن طريق وضع الحرف الانجليزى محل
ما يعادله من لفظ عربى . وليست لبعض الحروف العربية حروف
انجليزية تماثلها . وقد راعيت على الغالب حذف ال التعريف العربية من
اول الاسماء مع العلم أنها تسبق جميع أسماء الاماكن والاشخاص .

وقد حاولت بكل ما لدى من جهد أن أحصل على قصتى من مصادرها

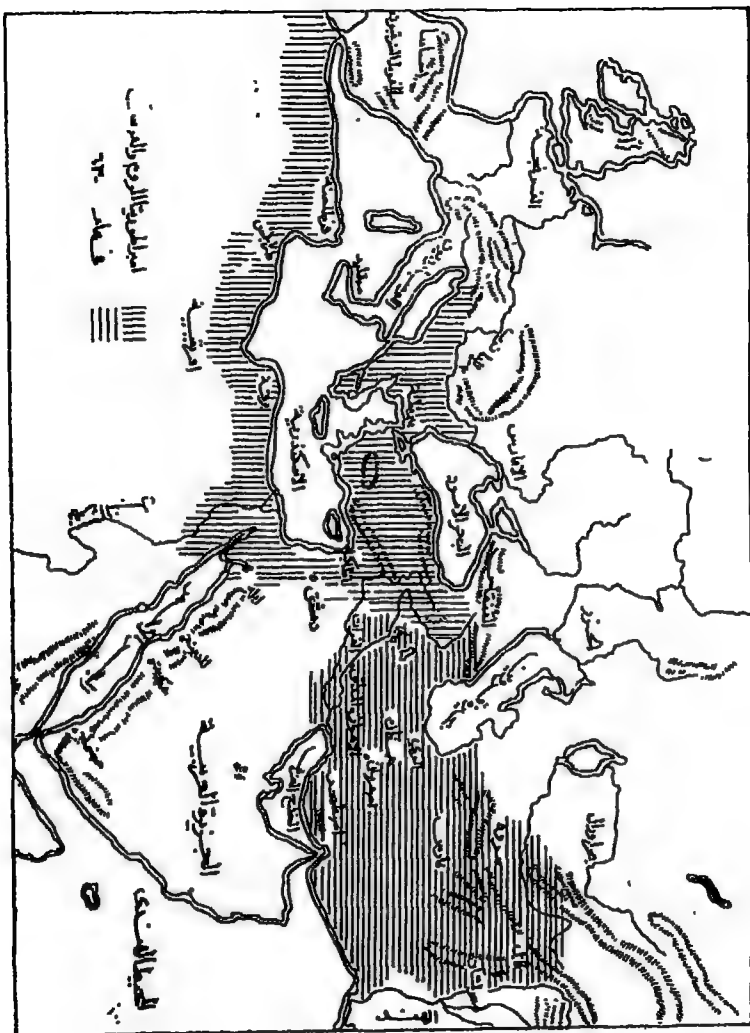
العربية الأصلية مباشرة . ولعل أهم هذه المصادر تاريخ الطبرى الذى يسمى كثيرا «بليقي» العرب (١) . ولكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائما بالوضوح . ولا أعرف ان هناك ترجمة انجليزية كاملة لتاريخ الطبرى . وقد أفدت كذلك من عدد من الترجمات الاربوية الرائعة لبعض الآثار العربية ولا سيما فى الانجليزية والفرنسية ولم الجأ الى مضايقة القارئ بالاكثار من الهوامش والشروح والاشارة الى مصادر كل واقعة أو حكم . وقد لا أزعج ان كتابى هذا مؤلف علمى دقيق . ولكننى أجرو فأقول اننى حاولت تطبيق القسواعد العلمية المعروفة على الحقائق الواقعة وأن أفسر النصوص التاريخية على صعيد التجارب العملية التى مرت بها .



وأود أن أقدم قبل ختام ايضاحى هذا بالشكر العميق الى أمين مكتبة معهد الدراسات الشرقية والافريقية فى جامعة لندن المستر جى . دى . بيرسون . والى نائبه المستر . آر.جى هوى . اللذين لولا مساعدتهما القيمة لى لما صدر هذا الكتاب . وأود أن أقدم بالشكر أيضا الى أمين المكتبة العامة فى معهد تونبردج ويلز المستر آر جى . بيرد ، وكذلك الى الاستاذ أى . جى اربيرى أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج على المساعدات القيمة . ولا سيما تلك التى قدمها الى الاخير لايضساح بعض النقاط الغامضة فى العربية التى كانت خافية على .

(١) تيتوس ليفى (من ٥٩ قبل الميلاد الى ١٧ بعد الميلاد) مؤرخ روماني مشهور ولد في بادوا من أسرة طيبة ودرس دراسة عالية متخصصة في أدب الأفريق والمنطق والفلسفة . كان من مؤيدي الحرب الجمهوري أثناء الحرب الأهلية ورفض التملق للإمبراطور أوغسطس على الرغم من المحاولات التى بذلها هذا لاجتذابه متنبأ له بسقوط الإمبراطورية الرومانية مات في مزرعته في اكتيوم . أشهر كتبه التاريخ المروى باسمه والذى اعتمده مكيفلى في كتابه «مطرحاته» التى قمت بتعريبها ولا تعتبر حقائقه التاريخية صادقة دائما على الرغم من وفرة المصادر التى اعتمدها .

(المرب)



الجاهلية

« وقد اغضى الله عن أزمته هذا الجهل فيبشر الآن
جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا • لأنه قد عين
يوما فيه يدين العالم بالعدل » •

أعمال الرسل - الفصل السابع عشر - الآية الثلاثون

« علينا لكي نترك طبيعة ما أحدثه محمد من
تبدلات ، وطبيعة نتائجها ، أن نفهم تفهما كاملا حقيقة
الأوضاع التي وجدها قائمة عند ظهوره في بلاده العربية
وفي امبراطوريتي الرومان والفرس المجاورتين لبلاده ،
وهما الامبراطوريتان اللتان احتلت قوات خلفائه
المنتصرة ثانيتهما احتلالا كاملا ، واحتلت أجزاء كبيرة
من اولاهما » •

اي • اي • فريمان - تاريخ العرب •

كانت الجزيرة العربية تحتل في مستهل القرن السابع للميلاد ،
مركزا في السياسات العالمية ، لا يختلف عن المركز الذي تحتله اليوم .
وكان ما ندعوه اليوم بالشرق الاوسط ، موضع التنازع آنذاك ، كما هو
اليوم بين كتلتين دوليتين ، احدهما شرقية والاخرى غربية . وكانت
امبراطورية البيزنطيين الرومانية - الاغريقية تمثل كتلة الغرب ، بينما
كانت فارس تمثل كتلة الشرق . وكانت اعالي دجلة والفرات تمثل
بصورة عامة الحدود الفاصلة بين الكتلتين . وكان العرب يسكنون على
مقربة منهما الى الجنوب ، وعلى اتصال مباشر بالكتلتين . وكانت التجزئة
والفرقة تسودان العرب آنذاك كما تسودانهم اليوم . وكان هؤلاء يحاولون
كما يحاولون اليوم الافادة من التنافس القائم بين الدولتين الكبيرتين في
حين يسعون هم الى البقاء على الحياد (١) .

ويعود النزاع بين رومة وفارس الى عدة قرون خلت . فقبل ثلاثة
وخمسين عاما من ميلاد المسيح منى كراسوس القائد الروماني - وكان على
رأس عشرة فيالق رومانية - بهزيمة شنيعة في « قرهي » ، وكانت هذه
الهزيمة كارثة ، لم يخف أثرها الا بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، عندما تمكنت
دبلوماسية الامبراطور أوغسطس من اقناع ملك البارثيين باعادة التسور
الرومانية التي سلبها المنتصرون واذلوا كل الاذلال . وتمكن الجندي
الامبراطور تراجان في عام ١١٥ هيلادية ، من الزحف على رأس جيوشه
الرومانية الظافرة ، عبر سهول العراق حتى وصل بها الى مياه الخليج
العربي ، حيث تطلع الى مياهه ، متمنيا لو عاد الى شبيبائه كالاسكندر
المقدوني ليواصل زحفه الموفق الى الهند .

ولكن هنا على سهول العراق المحرقة ، أصيب الامبراطور الروماني
جولييان في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ٣٦٣ للميلاد
بجراح مميتة في معركة يائسة خاضها مع الفرس ، واضطرت رومة وهي
صاغرة الى عقد صلح ، وافقت بموجبه على التنازل عن خمس مقاطعات من

(١) يشوه المؤلف هنا صورة الحياد العربي فيحاول ان يرسمه على شكل انتهاز
يهدف الى استغلال التنافس القائم بين الشرق والغرب والافادة منه ، بينما الحقيقة ان
هذا الحياد نابع من فكرة اصيلة قوامها الايمان بالسلام العالي ، والايمان بالا شأن
للغرب بهذا النزاع الذهبي والصلحي بين الشرق والغرب . (العرب)

امبراطوريتها الى العدو المنتصر . وما أوردته هنا ليس الا لمحة خاطفة من هذا الصراع الذى طال بين الدولتين . اذ استمرت المنافسة الحادة على اشدها مدة خمسة قرون ، بين حرب باردة وأخرى ساخنة ، وبين مد وجزر ، ينقلب فيهما التيار أحيانا الى مصلحة هذه ، ليعود فينقلب بعد حين الى مصلحة تلك ، وأخيرا وفى عام ٤٧٥ للميلاد ، سلم روميولس أوغستولوس ، آخر أباطرة الرومان فى الغرب ، مظاهر الابهة الرومانية الى البرابرة . مقدما اوروبية الغربية بأسرها فريسة لهم . وظلت منذ ذلك التاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى بيزنطة وحدها ، تحتل أعباء الصراع مع الفرس ، وهو الصراع الذى استنزف من رومة طيلة خمسة قرون كاملة مواردها كلها ، وهى فى عنقوان قوتها وسلطانها .

وارتقى جوستينيان بعد نحو من خمسين عاما من زوال الامبراطورية الغربية ، عرش بيزنطة ، واشتبك وهو محجج فى حرب من تلك الحروب التى لا نهاية لها مع فارس ، ليبتاع بعد خمس سنوات من الاشتباكات غير الحاسمة فى عام ٥٣٢ للميلاد هدنة مهزوزة ، دفع ثمنها جزية كبيرة . وقد وقع هذا الاتفاق عن الجانب الفارسى كسرى أنوشروان ، الذى كان قبل عامين ليس الا ، قد ارتقى عرش فارس . وقد أطلق عليه الموقعون على الاتفاق اسما متحذلقا هو اسم « الصلح الازلى » .

وسأوضح غما قريب ان كلتا الامبراطوريتين كانت قد عقدت أحلافًا مع الامراء العرب المقيمين على حدودهما الجنوبية . ولم يستسغ الغزاة العرب الذين دأبوا على السلب والنهب ، مذاق هذا « الصلح الازلى » حتما ، ولم يمض طويل عهد حتى كان خالد بن غسان أمير الغساسنة الحليف لبيزنطة ، يسارع الى خرقه بغزوه مملكة المنذر فى الحيرة التابعة للفرس .

ونار كسرى لنقض العهد ، وهرع الى السلاح يجعله حكما بينه وبين أعدائه ، وزحفت جيوشه تحتاج الامبراطورية البيزنطية ، فاحتلت مدينتى حلب وحمص ونهبتها . واضطر البيزنطيون الى شراء الصلح من جديد بعد أن تنازلوا عن جميع المدن التى احتلتها جيوش كسرى . لكن توقف العمليات الحربية لم يخفف الا قليلا من غلواء التنافس بين الشرق والغرب ، وتابع الفريقان السعى لتحقيق أطماعهما المشتركة ، بأساليب نعرفها اليوم حق المعرفة ، تضم الدسائس وحرب الدعاية والتنافس التجارى .

ومات كسرى أنوشروان فى عام ٥٧٩ للميلاد ليخلفه ولده هرمز



الرابع ، الذى ما لبث ان خلع عن العرش فى عام ٥٩٠ ليعخلفه عليه كسرى ابرويز . وثار الجيش الفارسى على الملك الفاصب الجديد ، واضطر هذا الى الفرار ناجيا بحياته الى سوريا حيث استنجد ببعده ومنافسه الامبراطور موريس البيزنطى . وتمكن كسرى ابرويز بمساعدة الجيش البيزنطى من استعادة العرش ، واصبح الامبراطور ان حليفين لفترة قصيرة ، ساد فيها السلام العالم المعروف آنذاك .

لكن فترة الهدوء هذه لم تطل . ففي سنة ٦٠٢ ميلادية ، أعلن الجيش البيزنطى بدوره العصيان ، وخلع امبراطوره موريس . وسرعان ما هب كسرى ابرويز يعلن استعداده للثأر لحليفه الامبراطور الذى كان قد نصره فى محنته المائلة . وزحف كسرى بجيوشه على الاراضى البيزنطية التى اجتاحتها ونهبها ودمرها ، دون أن يلقى مقاومة وظلت جيوش فارس تحتل مدة خمسة وعشرين عاما ، امارات مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى التابعة لبيزنطة . وكان العصاة قد ذبحوا الامبراطور موريس بعد الفتنة . وقدر لحليفته «فوقاء» وهو ضابط فظ كان معروفا بادامانه شرب الخمر ، أن ينزل بسبعة الامبراطورية عن طريق عهره وفجوره وغلظته الى الحضيض .

وأخيرا أعلن هرقل نجل الحاكم البيزنطى فى افريقيا الثورة فى عام ٦١٠ ، وراح يبحر على رأس أسطول ضخم يحمل جيشا كبيرا الى العاصمة ليحتلها . وجر «فوقاء» الشريد من العرش جرا ، ليلقى العذاب والموت ، وأعلن هرقل نفسه امبراطورا ، هلى الشعب له ، وصفق معربا عن فرحه بانقاذه من الطاغية .

وكان كسرى ابرويز ، قد تظاهر بالرغبة فى الثأر لمصرع موريس صاحب الفضل عليه ، متذعرا بهذه الحجة لاحتلال ما احتله من اراضى الامبراطورية البيزنطية ، وها هو ذا هرقل يحقق له الآن هذه الغاية . وسرعان ما حشرت الجهود المضاعفة التى بذلها ملك الفرس الآن لتشنيد قبضته على الاراضى البيزنطية التى يحتلها ، كذب المبررات التى تذرع بها لتفطية مطامحه العسكرية واخفائها اذ راح فى عام ٦١٣ للميلاد ، وقبل أن يتمكن هرقل من اعادة الامن الى ربوع الامبراطورية الداخلية ، يحتل دمشق ليتبعها فى عام ٦١٤ بالقدس ، وليحمل منها الى بلاده خشبة الصليب المقدسة التى شهدت صلب المسيح . وغزا كسرى فى عام ٦١٦ مصر وآسيا الصغرى فى وقت واحد ووصلت جيوشه الى مقربة من أسوار بيزنطة .

(وبينما كانت هذه الأحداث العظيمة ، تهب أركان أكبر امبراطوريتين

فى العالم ، كان هناك طفل يتيم ، يدب على معارج الحياة والنمو فى بلدة صحراوية نائية من بلاد الجزيرة العربية . فى العشرين من آب (أغسطس) عام ٥٧٠ للميلاد ولد محمد فى مكة . وكان الامبراطور جوستينيان قد مات قبل ولادته بخمس سنوات ، بينما قدر لكسرى انوشروان ان يعيش حتى كان محمد قد بلغ التاسعة من عمره . وفى عام ٦١٢ طلع محمد النبى العربى برسالته ، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش فارس تحتل عدة مقاطعات بيزنطية .

الحرب الباردة :

وبينما كان التنافس مستمرا على هذا النحو بين بيزنطة وفارس، ليتخذ شكل الحرب والسلام فترات متراوحة على حدودهما ، كانت مظاهر البغضاء التى لا تنتهى بينهما ، تمتد على شكل حرب باردة الى الجنوب ، باتجاه الجزيرة العربية وشرق افريقيا . وقد اتخذ التنافس بينهما هنا شكل سباق تجارى من ناحية ، وشكل صراع على مناطق النفوذ تتخلله بعض الحروب الموضعية الصغيرة والمعاهدات السلمية من ناحية اخرى .

وكانت أهمية الجزيرة العربية ونفوذا آنذاك مستمدين كما هما اليوم من موقعها الجغرافى كفاصل بين المحيط الهندى وجنوب آسيا وبين البحر الابيض المتوسط وأوروبا . وكانت التجارة مع الشرق لا تقل فى أهميتها بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية فى القرنين السادس والسابع عن أهميتها اليوم وفى القرن العشرين بالنسبة الى أوروبا الغربية . وكانت هذه التجارة تسير هينة سهلة ، او صعبة تقوم امامها العوائق تبعا للدولة التى تسيطر بنفوذا على الجزيرة العربية والبحر الاحمر .

وكان المرشد البحرى الاغريقى هيبالوس قد اكتشف منذ عام ٤٥٠ بعد الميلاد سر الرياح الموسمية ، وسارت التجارة منذ ذلك التاريخ وباستمرار نشطة بين الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، اذ اخذت السفن تبحر مباشرة من بومباى او من سواحل الهند الجنوبية . ولقد روى بلىنى (١) فى عام ٧٧ بعد الميلاد ، أن باخرة أبحرت الى الهند

(١) غالوس بينيوس سيكوندوس (بلىنى الكبير ٢٣ قم - ٧٩ ب . م) كاتب رومانى فى التاريخ الطبيعى . عمل فى أماكن عدة فى افريقيا وألمانيا واليونان وتابع دراساته الى آخر أيام حياته . واشتهر امره بأنه أعظم علماء مصر . يعتبر مؤلفه «التاريخ الطبيعى» من أعظم الكتب القديمة فى الموضوع . (العرب)

فوصلتها في مدة لا يكاد يصدقها العقل وهي خمسة عشر يوما . ولكن معظم البحارة ، كانوا يتجنبون الملاحة في البحر الأحمر ، لأن مياهه كانت في الغالب تحت سيطرة القرصان ، ولأن سواحله كانت تفتقر الى الموانئ الصالحة ، وعسيرة على الملاحة بسبب الصخور المرجانية المنتشرة فيها . ولهذا كانت البواخر كلها أو معظمها تفرغ شحناتها التجارية في عدن أو على الساحل اليمني ، لتفيد في عودتها السريعة الى الهند من هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي .

وكانت قوافل الابل تحمل هذه الشحنات التجارية من طرف الجزيرة الجنوبية الى ميناء أيلة (العقبة) ، في شمال البحر الاحمر ، على طول الساحل الشرقي لهذا البحر . ومن أيلة كانت القوافل تنفرغ فبعضها يتجه الى دمشق شمالا ، وبعضها الآخر الى غزة ومصر غربا ، ومنها تنتشر السلع الى عالم البحر الابيض المتوسط ، وقد أدت تجارة الشرق هذه منذ أقدم العصور الى قيام ممالك متحضرة في جنوب الجزيرة العربية والى ازدهارها ، كممالك العيسيين والسبئيين والحميريين . وتحدثنا التوراة عن ملكة سبأ التي زارت سليمان و « أسرت اليه بكل ما في قواده » . وكانت التهم بتولد الغرام اللاهب بين الملكين قد انتشرت وذاع أمرها . لكن السبب في الزيارة ، كما أرى ، لم يكن الغرام ، وإنما التجارة ؛ لأن سليمان كان قد وسع ملكه فشمّل شرق الاردن من العقبة الى دمشق ، وبات في وضع يمكنه من التدخل في طرق قوافل سبأ التجارية . ولا ريب في أن سبب رحلة الملكة يعود الى رغبتها في الحصول على وعد من سليمان بعدم اعتراض طريق هذه القوافل .

وقبل قرنين من ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك قبيلة عربية تدعى الأنباط يبدو أنها عملت أيضا في هذه التجارة المربحة . ولا ريب في أن السبئيين كانوا قد بدعوا في الانحلال آنذاك ، أو أنهم شرعوا . يصلون بالقوافل الى موقعي « العسلا » و « تيمة » في الحجاز ، حيث يسلمون البضائع التي يحملونها الى تجار الشمال . وقد وصلت دولة الأنباط بعاصمتها الوردية الحمراء والاسطورية في البتراء الواقعة في الاردن الحديث قمة ازدهارها في القرن الاول للميلاد ، وفرض ملوكها سلطانهم شمالا حتى حدود دمشق . ويحدثنا بولس الرسول في الآية الثلاثين من الفصل الحادى عشر من رسالته الثانية الى أهل كورنث ، كيف « كان الحاكم بدمشق تحت أمرة أرتاس الملك يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض على » مما أدى الى أن يدلى الرسول « من كوة في السور في

طرق التجارة في القرن السابع



زنبيل لينجو من يديه » . ولم يكن ارتاس الا الاسم الاغريقي
« للهارث » ملك الأنباط ، واحتل الامبراطور الروماني تراجان في عام
(١٠٦) للميلاد البتراء عاصمة الأنباط ، بعد أن حطم مملكتها ، وحول
ارضها (شرق الاردن الحديث) الى امارة العرب الرومانية وأدت
هذه الكارثة التي حلت بالأنباط ، الى اختفاء تجارهم وقوافلهم من
الميدان .

وشيد ملوك العرب في الجنوب في القرون الثلاثة الأولى للميلاد
امبراطورية عسكرية ، وراح الملك أسعد أبو القرب يغزو العراق في
عام (٢٠٦) بعد الميلاد بجيش لجب ، هزم به الفرس متوغلا في مملكتهم .
وبالطبع لم يكن هذا ممكنا ، لولا أن فارس كانت في ذلك الحين تمزقها
الحروب الأهلية (١) . ومع ذلك فالواضح أن هذا الملك العربي أصبح
بلا منازع الحاكم المطلق للجزيرة العربية .

ويبدو أن جميع القبائل العربية قد خضعت لسلطان ملوك
الجنوب في اليمن وظلت خاضعة له حتى عام (٥٢٢) للميلاد ، عندما
غزا الاحباش أرض اليمن كما سنرى بعد قليل . ويظهر من هذا كله ،
أن العرب لقرون طويلة قبل محمد ، شهدوا دولا عدة ، لها شأنها
في القوة والحضارة ، وأن لم تصل الى نفس المنزلة التي وصلت اليها
فارس ورومه .

ومن المعتقد أن سد مأرب العظيم الذي كان يؤمن الرى لقسم
كبير من الأراضي في جنوب الجزيرة العربية « قد أنهار في عام (٤٥٠)
او حوالى هذا التاريخ . وأدى انهيار السد الى ازمتات اقتصادية
ضخمة ، مما حمل عددا من القبائل الى الهجرة شمالا وأسفر عن نقل
العاصمة من مأرب الى صنعاء ، عاصمة اليمن اليوم . واختفى اسم
السبئيين منذ ذلك التاريخ ليحل محله اسم الحميريين .

(١) لا أدري كيف يسمح جلوب لنفسه وهو يزعم أنه يضع تاريخا للشوكلات
الاسلامية أن يطلع بمنل هذا الحكم العام الذي لا يتيم عليه الدليل أو البرهان . فالمعروف
أن العرب كانوا من خيرة المحاربين ، وقد هزموا الفرس في الجاهلية أكثر من مرة ولعل
معركة ذي قار التي انتصر فيها بنو شيبان على الفرس خير دليل على ما نقول وإذا كانت
قبيلة واحدة انضم اليها بعض الاحلاف من القبائل الاخرى المجاورة قد تمكنت من هزم
الفرس في « ذي قار » يصعب عليهم وكانت الجزيرة العربية كلها متحدة في ظل ملك اليمن
كما يتعرف المؤلف ، أن يهزموا الفرس ؟ نتيجة لا ريب في أن جلوب لم يشأ أن يضمها
نصب عينيه .

(العرب)

وعلى كل حال فانه مهما كانت الأوضاع الاقتصادية او الأوضاع السياسية الداخلية التى سادت مملكة الجنوب العربى ، فان هذه المملكة لعبت دورا بارزا فى الحرب الباردة بين البيزنطيين والفرس . فلقد كانت المستودع الرئيسى للتجارة الوافدة من الشرق ، وكانت المستقر الذى تصل اليه السفن القادمة من الهند .

وكانت اليهودية والمسيحية آنذاك تسيران فى طريق الانتشار . فلقد ضمت نجران فى الجنوب العربى مجتمعا مسيحيا مزدهرا له كاتدرائيته وله مطرانه . وتقول الأساطير ان ذا نواس ملك الحميريين فى صنعاء ، تحول الى اليهودية فى مطلع القرن السادس . وراح مدفوعا بالحماس الدينى المألوف عند من يتحول الى دين جديد يلبح نصارى نجران . ويقال ان أحد هؤلاء الضحايا تمكن من الفرار والوصول الى بيزنطة ، حاملا معه نسخة محروقة من الانجيل ، وناشد امبراطور البيزنطيين التدخل لحماية اخوانه النصارى . ولم يكن فى وسع الامبراطور ان يبعث بحملة عسكرية او بحرية الى الجنوب العربى ، فراح يسلمه رسالة الى امير الحبشة المسيحى ، يحثه فيها على أداء واجبه فى انقاذ بنى دينه .

وكانت الحبشة تطمع فى الجزيرة العربية وتشهاها منذ امد طويل . ويحدثنا التاريخ عن محاولات بدأتها منذ القرن الرابع لفرض نفوذها وسلطانها على هذه البلاد وكان بينها اقامة أسطول بحرى ، حاول السيطرة على مضيق باب المندب . وتشجع الاحباش الآن برسالة الامبراطور . واعتمدوا على ما زودهم به من ستمائة مركب لنقل الجنود (١) ، فراحوا يفزون الجنوب العربى فى عام (٥٢٢) للميلاد وخلعوا ذا نواس عن عرشه ليقيموا بدله حكما حبشيا مباشرا فى البلاد .

وهكذا ينسب المؤرخون تدخل الاحباش فى البلاد العربية الى

(١) لايحاول المؤلف هنا ان يشرح لنا كيف تمكن امبراطور بيزنطة من اىصال هذه المراكب الستمائة الى امير الحبشة ، واكتفى بأن روى الرواية التى لم يبتكرها وانما جاءت فى بعض كتب التاريخ دون ان يناقشها . مع العلم انه لم يكن ثمة سبيل للاتصال البحرى بين بيزنطة والحبشة . وهناك من يقول انها نقلت عن طريق النيل ولكن وجود منطقة الشلالات تستبعد هذا الاحتمال . وهناك من يقول انها نقلت من غزة الى ابله (خليج العقبة) على ظهور الجمال ثم مخرت فى البحر ولكنها فرضية اخرى مستبعدة . ولعل هذه المهفة من المؤلف تبين الحقيقة العلمية للكتاب . (الحرب)

الدوافع الدينية ولكننى لا أستبعد على أى حال أن تكون سياسات القوة وتوازن القوى ، قد لعبت دورا فى هذا التدخل . اذ المعروف أن الفرس كانوا يحاولون نشر نفوذهم جنوبا على الساحل العربى فى منطقة الخليج وعمان . وكانت الدولتان الشرقية والغربية تحاولان فى الحقيقة تمهيد الطريق أمامهما للسيطرة على طرق التجارة الشرقية . وكانت الحيشة النصرانية حليفة لبيزنطة ، واذا ما أصبح الأحباش مسيطرين سيطرة وطيّسة الاقدام على الجنوب العربى ، فإن التجارة بين الهند وبيزنطة تصبح فى مأمن . ولكن هذه التقلبات السياسية قد أدت الى افتقار كبار التجار الحميريين . ولهذا فاننا نرى تجارة القوافل تنتقل فى هذه الآونة الى أبهى تجار مكة ؛ وهى مدينة كانت منذ أمد طويل محطة استراحة على الطريق التجارى الرئيسى .



للحلفاء العرب :

كانت هذه هى الصراعات العسكرية والتجارية والسياسية التى تدور فى الجنوب العربى فى القرن الذى شهد مولد محمد . أما فى الشمال فقد كان العرب فى غصون ذلك يلعبون دورا أكثر نشاطا وحيوية فى الحربين الباردة والساخنة بين بيزنطة وفارس .

تتألف الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية من شبه جزيرة تقوم الى الجنوب من خط يمتد من رأس الخليج العربى الى ايلة (العقبة) ومن مثلث يكون هذا الخط قاعدته وتقوم مدينة حلب فى رأسه . وكل هذه المنطقة صحراوية الطبيعة . ويتألف المثلث الشمالى من سهول فسيحة دوارة ، أما القسم الجنوبى فيتألف من هضبة عظيمة تمتد من قمم جبال الحجاز لتأخذ فى الانحدار بصورة متدرجة حتى تصل الخليج العربى . وتقوم داخل هذه المنطقة صحراوان من الكثبان الرملية صفراهما تسمى صحراء النفود فى الشمال وكبراهما تسمى الربع الخالى فى الجنوب . وتنتشر فى شبه الجزيرة الواسعة هذه ، الواحات والمدن الصغيرة والقرى ، ولكن القسم الأكبر منها يتألف من مراعى فسيحة تجول فيها القبائل البدوية الرحل (١) . وكانت الابل هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات عبر الصحراء .

(١) أطلقت معان كثيرة على اسم البدو . أما فى هذا الكتاب فيعنى بعبر البدو

(العرب)

قبائل البادية الرحل التى تعيش على رعاية الابل .

وكان العرب محتكرى هذا الحيوان النافع . وهكذا لم يكن فى وسع البيزنطيين أو جيوش الفرس أن تجوز الصحراء وتعبسرها ، أو أن تجرى أى اتصال بينها إلا الى الشمال الشرقى من حلب حيث تنتهى حدود الصحراء . وهنا كانت تقوم حدود ثابتة بين الفريقين تمتد من نهر الفرات الى القفقاس . وقد يكون البحر عقبة أمام أولئك الذين لا يملكون السفن . ولكنه بالنسبة الى الشعوب التى آلفت الملاحة ، طريق لتجارة والحرب فى آن واحد . وكان العرب على ظهور ابلهم ، ملاحى هذه الصحراء ، بينما كان الفرس والبيزنطيون من رجال البر لا يملكون السفن .

وانتشرت على الحدود الفارسية - البيزنطية الممتدة من الفرات الى القفقاس سلسلة ضخمة من القلاع ، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت مكشوفة من ناحية الجزيرة العربية ، الاولى على خط الفرات الذى يضم ما يسمى اليوم بالعراق والثانية على خط الحدود من دمشق الى ايلة (العقبة الحديثة) .

وقد احتفظت الدولتان ببيزنطة وفارس بدولتين عربيتين تابعتين لهما لحماية جناحيهما الجنوبيين المكشوفين . ففى الغرب كان ملوك الفساسنة حلفاء للامبراطور البيزنطى ، بينما كان ملوك اللخمين العرب على الفرات يتولون حماية الجناح الجنوبى لامبراطورية الفرس . وكان امراء الاسرتين العربيتين يحتلون منزلة رفيعة فى الامبراطوريتين اللتين يتبعونهما ، فكان الامير الفسانى يحتل منزلة الشريف الرومانى فى بلاط بيزنطة ، وكان الحاكم اللخمى يحتل منزلة الامير الاقطاعى فى ظل العرش الفارسى (١) .

وقد شغلت الاسرتان العربيتان المتنافستان نفسيهما فى حروب صحراوية دائمة ، وكانتا تتبادلان الغزوات . وقد سبق لنا ان راينا ان « السلم الأزلى » بين جوستينيان وكسرى انوشروان ، قد انتهى قبل اوانه فى عام ٥٣٢ ميلادية اثر هجوم شنه الفساسنة على منافسيهم اللخمين .

(١) اعتقد أن جلوب وهو يكتب هذه الفقرة ، كان يرى أمامه صورة الملوك والامراء العرب ، الذين اقامهم الاستعمار البريطانى فى المنطقة أو دعاهم فى القرن العشرين لخدمة اهدافه . وكان يرى فى هؤلاء الملوك والامراء صورة مجسدة لامراء لخم وعسان . حقا ان التاريخ يعيد نفسه . وكما تحرر العرب وانتهى عهد الابعاد من لخم وعسان ، فسيتحررون مما قريب وينتهى عهد الابعاد من الملوك والامراء . (العرب)



وبلغت أسرة اللخمين أوج قوتها في أواسط القرن السادس أيام المنذر الثاني ، وعندما عقد « الصلح الأزلي » بين ييزنطة وفارس في عام (٥٣٢) ميلادية دفع الامبراطور جوستنيان التعويضات النقدية المباشرة الى المنذر بالإضافة الى ما دفعه الى كسرى . ولكن المنذر ما لبث أن وقع أسيرا في أيدي الرومان ، الذين أبعدوه الى صقلية حيث لقي حتفه فيها . وكان قد خلفه على عرش الحيرة النعمان الخامس .

وسبق لنا أن ذكرنا أن الاحباش قضوا على دولة الحميريين في الجنوب العربي في عام ٥٢٢ ميلادية بتحريض من الامبراطور البيزنطي . ولكن عرب اليمن مالبثوا بعد خمسين عاما من حكم الاحباش أن ملوا هذا الحكم . وقام وفد من الحميريين في عام ٥٧٣ أو ٥٧٤ ، بزيارة الحيرة عاصمة اللخمين ليشكو الى النعمان من ظلم الاحباش . واستصحب النعمان الوفد لمقابلة كسرى . ولم يتردد الفرس في استغلال الفرصة ، لاكتساب الشهرة عن طريق الاشتراك في « حرب التحرير » (١) وأوفدوا قوة الى الجنوب العربي تولت طرد الاحباش . واختار كسرى بعد فترة من الاضطراب نائبا له في الجنوب العربي في عام ٥٩٧ ، وأصبح الجنوب الذي ساطق عليه منذ الآن اسم اليمن مستعمرة فارسية . وكان محمد النبي المنتظر ، قد بلغ في ذلك الحين السابعة والعشرين من عمره .

ووقع نزاع في عام ٦٠٥ بين النعمان وكسرى ، الذي قضى على مملكة اللخمين ولكن عرب الفرات والخليج ظلوا منذ ذلك التاريخ في حالة تشبه العصيان على الفرس حتى جاء المسلمون في الفتح الاسلامي (٢) وأدت هذه الأوضاع الى ضعف النفوذ الفارسي الذي كان

(١) اختلف مع المؤلف في تحديد الدافع الى ارسال قوة فارسية الى اليمن لطرد الاحباش منها . فلم تكن الغاية مطلقا الاشتراك في حرب التحرير ، وانما كانت ، اخراج الاحباش وهم حلفاء الروم من اليمن التي تبدأ منها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، واضعاف نفوذ الروم ، امداء الفرس في كل مكان .

(٢) تجاهل المؤلف هنا كل التجاهل معركة ذي قار ، مع أن تواريخ العرب كلها تجمع على أنها من أبرز أيام العرب في الجاهلية ، إذ انتصرت قوات العرب لصرا مينا على الفرس . ولا ريب في أن هذا النصر ، اضعف شوكة الفرس في نظر العرب ، وازال منهم حالة القوة ، مما شجع العرب بعد نحو من أربعين عاما على مهاجمة امبراطورية الفرس وازالتها من عالم الوجود . يضاف الى هذا أن المؤلف وقع في خطأ تاريخي ضخم . فهو يصور أن مملكة الحيرة قد أزيلت من الوجود بعد نزاع كسرى والنعمان ولم تعد ابداً =

قد بلغ في مرحلة من المراحل درجة الحكم الاستعماري في الخليج وعمان واليمن ، وقامت القبائل العربية الثائرة في جنوب الفرات ، بعد أن حرمت من حكاهما العرب ، بقطع طرق المواصلات بين فارس وبين مستعمراتها في الجنوب العربي (١) .

وقد ألف العرب بعد ظهور الاسلام ، أن يطلقوا على الفترة التي سبقت رسالة محمد اسم الجاهلية ؛ ولا يمكن تطبيق هذا التعبير تطبيقا عادلا الا على الصعيد الديني . فلقد كان بعض العرب قد تثقفوا على صعيد الثقافة والسياسة ، قبل ظهور الاسلام بأمدة طويلة ، وكانوا قادرين على أداء دورهم في حقول الدبلوماسية والسلام والحرب مع الدول العظمى في أيامهم (٢) .



العوامل الدينية :

ووقفت الامبراطورية الرومانية لأول مرة في عام ٣٣٠ ميلادية ، موقف التسامح ، رسميا من المسيحية ، التي باتت في عام ٣٧٥ الدين الرسمي للدولة . وبدأ في هذه الفترة بالضبط تحول العرب على حدود سوريا الصحراوية الى النصرانية . واعترف الامبراطور جوستنيان في عام ٥٢٩ بالحادث الرابع الفسائي اميرا قبليا برتبة شريف روماني ، مع العلم أن نحو من مائتي عام كانت قد انقضت على ظهور الاسرة الفسائية ، وكان الفساسنة وجميع غرب الحدود السورية قد تحولوا قبل ذلك التاريخ الى النصرانية .

بينما الحقيقة أن الروال كان مؤنثا وان دولة اللخمين عادت الى الوجود بعد الصلح بينهم وبين الفرس وكانت جيوش الفتح الاسلامي هي التي قضت على دولة اللخمين القضاء النهائي .

(١) ليس ثمة من دليل تاريخي مطلقا يؤيد وجهة نظر المؤلف في أن الفرس قد استعمروا الجنوب العربي . وكل ما في الامر انه على اثر المساعدة التي تلقاها الحيريون من الفرس لطرد الاجاش من بلادهم ، حاول الفرس استعمار اليمن وحكمه ، ولكن أيامهم فيه كانت معدودة ، ولذا لا يمكن القول بأن الجنوب العربي كان في وقت من الاوقات مستعمرة فارسية .

(٢) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة مايعنيه التعبير العربي من الجاهلية . فالجهل لا يقتصر على الناحية الدينية مطلقا وانما يعتمداها الى النواحي السياسية والاجتماعية . ولقد جاء الاسلام فانار الطريق للعرب لاني شئون دينهم فحسب ، بل في شئون دنياهم ايضا ، ومن هنا يتبين لنا مايعنيه بعض المفكرين العرب ، عندما يصفون العصر الذي سبق الوثبة العربية المعاصرة ، بالجاهلية الثانية .

(العرب)

ومزقت الخلافات والانشقاقات في القرنين الخامس والسادس ، ولم أعقبهما من قرون ، الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية . وبينما كانت الخلافات السابقة منحصرة في محاولة تحديد طبيعة الثالوث المقدس ، أخذت الهرطقات الجديدة تتركز على تحليل العقيدة المتعلقة بتجسد الاقنوم الثانى وعلى التعبير عنهما في الاصطلاحات الفنية المألوفة لدى الفلسفة الاغريقية . ولا ريب في أن المنافسات الحادة التي استغزتها هذه المناقشات التي أولع الاغريق بعقولهم الذكية والماكرة بها ، كانت من الاسباب الرئيسية التي أدت الى هذه السرعة الهائلة التي تمت بها الفتوحات العربية (١) .

وراح القديس نسطور يبشر في عام (٤٢٠) للميلاد برأى جديد في موضوع تجسيد الاقنوم الثانى ، ولكن المجمع المقدس الذي عقد في مدينة افيزوس في عام ٤٣١ استنكر هذا الرأى وحمل عليه أشد الحملات . وتلت ذلك حملة اضطهاد رهيبه ، واضطر عدد كبير من النساطرة الى اللجوء الى فارس ، حيث حظوا برعاية الشاهنشاه وكريم ضيافته . وبالطبع كان هؤلاء النساطرة أكثر ثقافة من الفرس ولا سيما في علم الطب وارتقى بعضهم أعلى المناصب في بلاط الشاه الذي تظاهر بالعطف عليهم نظرا لما عانوه من احن وظلم على يد غريمه امبراطور بيزنطة . وكان النساطرة من أنشط المبشرين بالنصرانية وقد تمكنوا من تحويل كثيرين من عرب الفرات والخليج الى المسيحية .

ولم يكد النساطرة يطردون من الامبراطورية ، حتى ظهرت فيها هرطقة جديدة فقد خرج في بيزنطة راهب يدعى يوتيسر ، أخذ يبشر بأن العنصر البشرى في المسيح يتألف من الجسد بعقله وروحه ، ولكن عندما حلت فيه الروح القدس ، امتصت الروح البشرية منه ليصبح جزءا منها . وأعلن المجمع المقدس الذي عقد في كلدونيا في عام ٤٥١ تحريم تعاليم هذا الراهب . وقد أطلق على الهرطقة الجديدة اسم « الطبيعة الواحدة » ومعناه ان للمسيح طبيعة واحدة ، وهى الطبيعة الالهية . وتؤمن الكنيسة الارثوذكسية ان هذه الطبيعة جماع من الطبيعتين الالهية والانسانية .

(١) قد يكون هذا السبب الذى ذكره المؤلف ، من الاسباب الثانوية لسرعة الفتح الاسلامى ولكنه ليس من الاسباب الرئيسية كما يدعى المؤلف ، مدفوعا بالرغبة الواضحة في الانتقاص من شأن العبقريّة العسكرية العربية . ومثلوا أن سبب هذه السرعة ، هو مجرد انقسام الرومان داخليا . ولو كان هذا السبب رئيسيا كما يدعى جلوب ، لتمكن الفرس مثلا من تحطيم الامبراطورية الرومانية في الحقب الاخيرة التى سبقت الاسلام ، لكن غرض المؤلف واضح .

(العرب)

ويبدو ان جميع أتباع الكنيسة في مصر قد تحولوا الى المذهب الجديد كما تحول اليه أيضا غالبية الناس في فلسطين وسوريا ولأسيما من الفساسنة . وأفراد القبائل البدوية . وشرع جهاز الحكم في الامبراطورية البيزنطية ، يعمل بشدة وعنف على اضطهاد أتباع المذهب الجديد الذي كانوا حوالى عام (٥٤٠) ميلادية فى حالة ثورة تقريبا فى كل مكان .

وهكذا فى الوقت الذى كان فيه كسرى القرس قد أثار عدااء حلفائه من العرب وسخطهم ، عن طريق اضطهاد النعمان ملك الحيرة كان الامبراطور البيزنطى أيضا قد دفع بالفساسنة الى موقف المعارضة عن طريق اضطهادهم كأتباع مذهب « الطبيعة الواحدة » . واتبعت الكنيسة الحبشية أيضا نفس المذهب ، كما اتبعته على الغالب كنيسة نجران التى أشرنا اليها فيما سبق . واعتقل أمير الفساسنة فى عام ٥٨١ ، واقتيد أسيرا الى القسطنطينية . وشق أولاده عصا الطاعة ، ولكن جيوش الروم تمكنت من اخضاع ثورتهم ، وسحب الرومان اعترافهم بالاسرة الفسانية الحاكمة ، كما منعوا عنها الجرايات والمساعدات . وظل عرب الحدود البيزنطية منذ ذلك التاريخ فى حالة عصيان وشبه ثورة ضد القسطنطينية ، تماما كما كانت حالة اخوانهم عرب الفرات ضد القرس . وكان محمد نبى المستقبل قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، عندما تحول العرب من حماة الحدود البيزنطية الى موقف العداء .

وعلى الرغم من الجوار الذى كان قائما بين الاغريق والعرب فى سوريا الا أن فجوة هائلة كانت تفصل بين العقليتين . ولقد كان الاغريق دائما من الفلاسفة ورجال الخيال وأصحاب النظريات الفكرية . أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك رجالا عمليين لا يعنى التفكير الادراكى لهم شيئا كبيرا . وكانت عبقريتهم تتمثل فى الفعل لا فى القول وفى العمل لا فى الخيال . وبينما كان الاغريق غارقين فى محاولاتهم تعريف طبيعة الله ، كان العرب أكثر اهتماما بمعرفة ما يريد الله منهم أن يفعلوا . وكانت اليهودية والمسيحية فى الواقع ديانتين عمليتين فى البداية ، تعنيان بالطريقة التى يطبع فيها الانسان ارادة الله ، وذلك لان كلتا الديانتين نشأت بين القبائل السامية والفلاحين الذين يمتون الى أصل واحد مع العرب . ولكن المسيحية لم تصل الى العرب عن طريق اليهود الذين طردهم تيتوس الرومانى من القدس فى عام ٧٠ للميلاد (١) ، وانما وصانتهم بعد

(١) الصواب عام ٧١ ميلادية . وهى السنة التى يؤرخ اليهود فيها خراب هيكل

(العرب)

عدة قرون متسللة اليهم عن طريق خبث الاغريق ، وبراعتهم العقلية ولا ريب في أن نصرانية الاناجيل ، كانت تستهوى العرب كما استهوت صيادى بحيرة طبريا ، ولكن النصرانية التي وصلت اليهم في القرنين الخامس والسادس لم تكن تلك العقيدة البسيطة التي بشر بها المسيح على الجبل . أما الاسلام فكان من الناحية الأخرى ، عقيدة واضحة ومستقيمة في عمليتها ، ومتحررة من كل ما في الفلسفات من خبث ودهاء . فلا بدع ان استهوت هذه العقيدة عقول العرب البسطاء ، الذين رأوا فيها أساسا مرضيا للحياة ، يفوق تلك العقائد المتزمتة والمماحكة التي نشرها الاغريق . وكثيرا ما أطلق على الاسلام تعبير « هرطقة مسيحية » ولكن الهرطقات تكون دائما ردود فعل مغرقة في العنف لسوء التصرف في الاصل (١) . ومن هنا قد يكون الاسلام احتجاجا عنيفا ضد الحقيقة الواقعة . وهي ان الرسالة الحقيقية للمسيحية كانت قد غرقت في تعقيدات التزمت الاغريقي .



وكانت هناك عدة جاليات يهودية أقامت في الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ، بالإضافة الى المسيحيين . وكانت الجماعات اليهودية التي تعيش في حوضى دجلة والفرات منذ أيام سبى بابل ، تحظى بالتسامح الدينى فى ظل ملوك الفرس . وسبق لنا أن رأينا أحد ملوك الحميريين فى اليمن يتحول الى اليهودية فيضطهد نصارى نجران . وظل عدد كبير من اليهود يعيش فى اليمن حتى عام ١٩٤٨ عندما هبط هذا العدد كثيرا اثر هجرتهم الى فلسطين المحتلة .

وكانت هناك فى القرن السادس بالإضافة الى يهود اليمن ، عدة جاليات يهودية تقيم فى شمال الحجاز ولا سيما فى تيمه وفدك وخيبر ويثرب (المدينة المنورة) . ولم تتوافر الأدلة الواضحة على المكان الذى جاء منه هؤلاء اليهود ، وهل كانوا يهودا من العبرانيين أو عربا دانوا باليهودية (٢) . ولكننا عندما نشرع فى التعرف اليهم فى حياة محمد ، نرى أن لغتهم كانت العربية وأنهم كانوا منظمين فى قبائل تماما كالقبائل العربية .

(١) لاأدرى من أين جاء جلوب بهذه التسمية . وقد تكون إحدى شطحات الخيال .

(٢) يقول الرحوم الخضرى في محاضراته ان اليهودية جاءت الى الحجاز مع اسرائيليين فارقوا الشام اثر اضطهادهم هناك . ويضيف أن بعض القبائل العربية قد تهودت على أيدي هؤلاء الوافدين . ومن هنا انتشرت اليهودية . (المرب)



عبادة الأصنام :

لم يعرف الا القليل عن ديانة العرب القديمة ، وذلك لان المؤرخين ، المسلمين لم يروا فيها شيئا يستحق التسجيل . ويبدو ان العرب كانوا يعبدون في الاصل نصبا حجرية وأشجارا على الرغم من أن هذه الاشياء المقدسة لم تكتسب قداستها الا من الاعتبار ، لا من واقعها ، أى من اعتبارها . المستقر الذى تأوى اليه بعض الارواح .

ويبدو أن عبادة الاصنام المنحوتة ، جاءت تطورا متأخرا . فعبادة الاصنام الحجرية المنحوتة فى شكل مخلوقات يشرية ، كانت الى حد ما ، انحرافا فاصدا نقل الى الاشياء المادية الاحترام والتوقير اللذين كانا يوجهان فى يوم ما الى الارواح النقية الصافية . ومن المحتمل أن تكون الاصنام المنحوتة قد نقلت كما تشير التقاليد من سوريا حيث كانت تماثيل آلهه الاغريق والرومان منتشرة فيها ، ولا ريب ، قبل انتشار المسيحية .

وكان العرب البدائيون يعتقدون ان فى مكنتهم الحصول على البركة عن طريق تقبيل شئ مقدس أو لمسه أو دعهه بأصابعهم . وما زال أبناء القبائل حتى يومنا هذا يقومون بلمس أضرحة الاولياء المحليين عند زيارتهم لها بأيديهم أو تقبيلها بشفاهم ، ثم يمسحون وجوههم بأيديهم طلبا للبركة .

ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه الاصنام المنحوتة ، مخلفات عصر قديم من عصور «الطواطم» . حيث كانت كل قبيلة تضع لنفسها شعارا (طوطما) تستمد رموزه من الطبيعة ، أو تربطه بالاقوال المتناقلة عن أسلافها . وكثيرا ما ارتبطت الاصنام بمكان مقدس ، لتكون الروح الامينة الحارسة لينبوع من الينابيع أو مجموعة من الآبار . وكانوا يعتبرون الصنم الاله أو الروح الذى يتولى حراسة القبيلة طيلة اقامتها الى جانب هذا ينبوع أو تلك البئر . ولكن عند ماتسبب الحروب أو المجاعات أو تزايد السكان ، هجرة القبيلة الى مناطق أخرى للرعى ، فان القبيلة الجديدة التى تحل محلها تجعل من أرواح الآبار المحلية أو الاشجار أو الصخور الآلهة الخاصة بها .

وكانت جماعات بنى صخر فى شرق الاردن حتى الحقبة الثانية أو الثالثة من القرن الحالى ، اذا مامرت بآبار (باير) (١) فى وسط الصحراء

(١) مكان فى صحراء الاردن ، فيه معتقل صحراوى ، كثيرا ما استخدمه جلوب وغيره . من حكام الاردن سجنوا ينفون اليه الاحرار للتكيد بهم . (العرب)

تتولى ذبح بعير من أباعرها تكريما لضريح جد القبيلة «أسد» ، الذى يقال انه موجود فى هذا المكان ولا ريب أن هذه الآبار موجودة منذ ألوف السنين . ومن المحتمل أن تكون هى التى أشار إليها سفر العسدر فى التوراة فى الآية السادسة عشرة من الفصل الحادى والعشرين اذ قال : «ورحلوا من ثم الى البئر وهى البئر التى قال الرب فيها لموسى اجمع الشعب حتى أعطيه ماء .. بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها اشراف الشعب » • تكن قبيلة بنى صخر لم تغد الى شرق الاردن الا منذ نحو من ثلاثة قرون • ومن هذا يبدو أن أسد ، الذى يرجع تاريخه الى ما قبل الاسلام لم يكن الا الروح المقيمة فى هذه الآبار ، ثم بنى الضريح الذى يستعقل هذه الروح بعد قرون طويلة ، ليرمز الى جد بنى صخر ، عندما احتلت القبيلة هذه المنطقة وسنرى بعد قليل كيف أن مكة نفسها انتقلت من قبيلة الى أخرى ، بطريقة لا تختلف عن هذه كثيرا •

ويبدو أن عبادة الاجرام السماوية التى انتقلت من الكلدانيين فى العراق ، قد اختلطت فى هذه الآونة بعبادة هذه الأرواح المثلة للسمول والصخور والاشجار • ولا ريب فى أن وفرة عدد من كانوا يسمون «بعبد شمس» فى اليهود التى سبقت الاسلام ، تقوم دليلا على صحة هذه الحقيقة •

وكان الشعر هو أعظم ماتميز به العرب فى العهد الذى سبقت الاسلام • ولما كانوا محرومين من التأثيرات الروحية ، ومفتقرين الى الايمان بالحياة الثانية ، فان جل اشعارهم كانت تتناول موضوعات الحرب والفخر والنساء والخمر • فقد جاء فى ديوان الحماسة •

ان شواء ونشوة (١)	وخيب البازل الامون
يجشهما المرء فى الهوى	مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدمى	فى الربط والمذهب المصون
والكثر والخفض آمننا	وشرع المزرهر الحنون
من لذة العيش والفتى	للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسر والفنى	كالعدم والحى للمنون

(١) اخطأ نيكولسون المستشرق المعروف بعض الاخطاء فى ترجمة هذه الابيان الى الانجليزية فذكر الخمر مثلا • وقد استعدها من النشوة • مع أن معنى النشوة هنا الجمر وهى الخشب ضرب من سحر الابل • كما قال ان الانسان هو حماقة الدهر او الزمن مع أن القصد كما يبدو فى البيت أن الانسان هو ملك الدهر يتصرف فيه كيف يشاء •

(العرب)

ويقال أن الكعبة في مكة كانت تضم في عصر الجاهلية نحو من (٣٦٠) صنما ، ومن اشهر هذه الاصنام العزى واللات ومناة ، وثلاثتها من الآلهات، وهبل وهو كبير الاصنام المذكورة ، ويقال انه جاء من سوريا . وقد تصدق الروايات التي قيلت في هذا الصدد . اذ عثر في كتابات الأنباط في البتراء في شرق الاردن والتي يعود عهدها الى عدة قرون خلت على اسم «هبل» بين الآثار المكتوبة .

ولكن على الرغم من أن العرب كانوا يصيدون كما يبدو ، أو ييجلون عددا كبيرا من الأوثان والاصنام قبل ظهور الاسلام ، الا أنهم كانوا على علم كما يبدو بفكرة «الله» كالمهيمن المطلق على الكون . واني لأرى أن من واجبتنا أن نحذر من الاستنتاج بأن العرب كانوا قوما من المتوحشين الجهلة لأنهم عبدوا الاصنام والأوثان . فلقد بات الدقيق الذي كانوا يعتنقونه صحيحا في مجاهل التاريخ ، بحيث اصبح من العسير علينا أن نشرح حقيقة ما عناء هذا الدين لهم . ولقد رأينا أن اجلال الاصنام في التاريخ سار جنباً الى جنب مع المقاييس الرفيعة للثقافة والفكر . ولقد رأينا رومة في عهودها الذهبية في أيام أوغسطس والأباطرة الانطونيين ، تعيش في عصر الوثنية وذلك بعد قرون طويلة ، من الافكار الرفيعة التي جاء بها افلاطون وسقراط .



و. الخلاصة . . .

لا يمكن مطلقاً أن يتكون لدينا الانطباع بأن العرب في عهود ما قبل الاسلام كانوا قبائل متوحشة تعيش على النهب والسلب . فلقد كانت الجزيرة العربية ، تقع كما تقع اليوم بين المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ، وكانت أهم طرق التجارة العالمية التي لم يتغير حالها منذ الأزل تمر عبرها أو حولها . وقد أدى هذا الموقع السوقي الهام الى نتيجتين أولاهما أن التجار العرب ، وكثيرون منهم من الاغنياء والناجحين ، كانوا يؤمون أسواق فارس وسوريا ومصر ، وكانوا يؤلفون ولا ريب مجتمعاً مختلطاً يسوده الرخاء والثراء ، أما النتيجة الثانية فهي أن دولا عربية غنية ومتحضرة نمت وازدهرت قبل قرون طويلة من ظهور الاسلام على الطرق التي تسير فيها تجارة الشرق . ومن هذه الدول دولة سبأ في الجنوب العربي والانباط في شرق الاردن ، والغساسنة في سوريا واللخمين في الحيرة . وكان أمراء الدولتين الاخيرتين يعرفون حق المعرفة بلاطات القياصرة والاكاسرة .

ومن الصحيح أن يقال إن الجزء الأكبر من داخل الجزيرة العربية ، كان يتألف من سهوب شبه صحراوية يضطر ساكنوها الى كسب قوتهم اليومي كقبائل رحل من انتجاع الكلأ للابل والماعز والاغنام التي يربونها . وتجعل حياة البدو التي تتطلب الترحال الدائم المستمر من العلم وحتى من مجرد القراءة والكتابة ، أمرا يكاد يشبه المستحيل . ولم تفتح ثقافة الشعوب الغربية الطريق أمام توفير العلم للجميع الا في عصرنا هذا . فقبل نحو من مائتي عام كان الفلاحون وأهل الارياف في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا ، وهي أكثر بلاد العالم حضارة آنذاك ، أميين ويؤمنون بالخرافات والإشباح ، فلا بدع ان عاشت الثقافة والهمجية في القرون القديمة جنبا الى جنب في بلاد واحدة .

وكانت المسيحية واليهودية منتشرتين الى حد كبير بين العرب في حقل الدين وكان بين المؤمنين بهما عدد من القبائل البدوية التي يدين بعضها بالنصرانية اسما على الأقل . أما الغالبية فكانت لاتزال تعبد أرواحا لا عد لها ولا حصر ، تقيم في الصخور ومسائل المياه والأشجار . وتقدم تقديسها الى حد ما الى الشمس والقمر والنجوم ولكنها تعترف في الوقت نفسه وبطريقة يشوبها بعض الغموض بوجود ديان سماوى أعظم يهيمن على الكون .

وقدر لهذا الشعب - المتميز بالقسوة والتعود على شظف العيش ، وعلى إثارة الفتن والذي يضم مجموعة من العقائد الدينية المختلفة وتسوده الغربة والجزلة نتيجة فروق شاسعة على الصعدان الثقافية ، أن يخلق تيارا عاصفا من المحاربين الملتهمين حماسة والمتقدين حيوية وإيمانا والذين شاء لهم قضاؤهم أن يبدلوا تاريخ العالم بأسره . وقدر لهذا التفجر البركاني أن يتزامن مع عهد من الضعف المتزايد والاضطراب في كل من امبراطوريتي فارس وبيزنطة . وقد نجمت هذه الحالة من الاجهاد التي أصابت الدولتين الكبيرتين من الدمار الذي لحق بكليتهما من جراء الحروب التي لانهاية لها والتي شنتها الواحدة منهما على الاخرى ، تماما كما حدث اليوم بالنسبة الى الدول الكبرى في أوروبا . أما بالنسبة الى بيزنطة ، فقد تزايد هذا الضعف الخارجى ثمرة للفتن التي أثارتها الخلافات والاضطهادات الدينية .

تواريخ بارزة

(سنلحق قائمة عامة بالتواريخ فى نهاية الكتاب)

بعد الميلاد

٥٢٢	• • • • •	احتلال الاحباش لليمن
٥٧٠	• • • • •	مولد محمد
٥٧٤	• • •	طرد الاحباش من اليمن بمساعدة الفرس
٥٨١	•	الامبراطورية البيزنطية تقضى على دولة الغساسنة
		كسرى ابرويز يغزو الامبراطورية البيزنطية ليثار
٦٠٢	• • • • •	للامبراطور موريس
٦٠٢	• • • • •	القضاء على دولة المناذرة
٦١٠	• • • • •	هرقل يصبح امبراطورا
٦١٦	• • • • •	كسرى يحتل مصر وآسيا الصغرى

قائمة الملوك

التاريخ	الاسرة الفرس	التاريخ (الارتقاء)	الباطرة القسطنطينية
ب • م		ب • م	
	كسرى أنوشروان	٥٢٧	جوستينيان
٥٧٩	هرمز الرابع	٥٦٥	جوستينيان الثانى
٥٩٠	كسرى ابرويز	٥٧٤	طيبيريوس
		٥٨٢	موريس
		٦٠٢	فوقا
		٦١٠	هرقل

فَرِيش

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم
يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ،
ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »

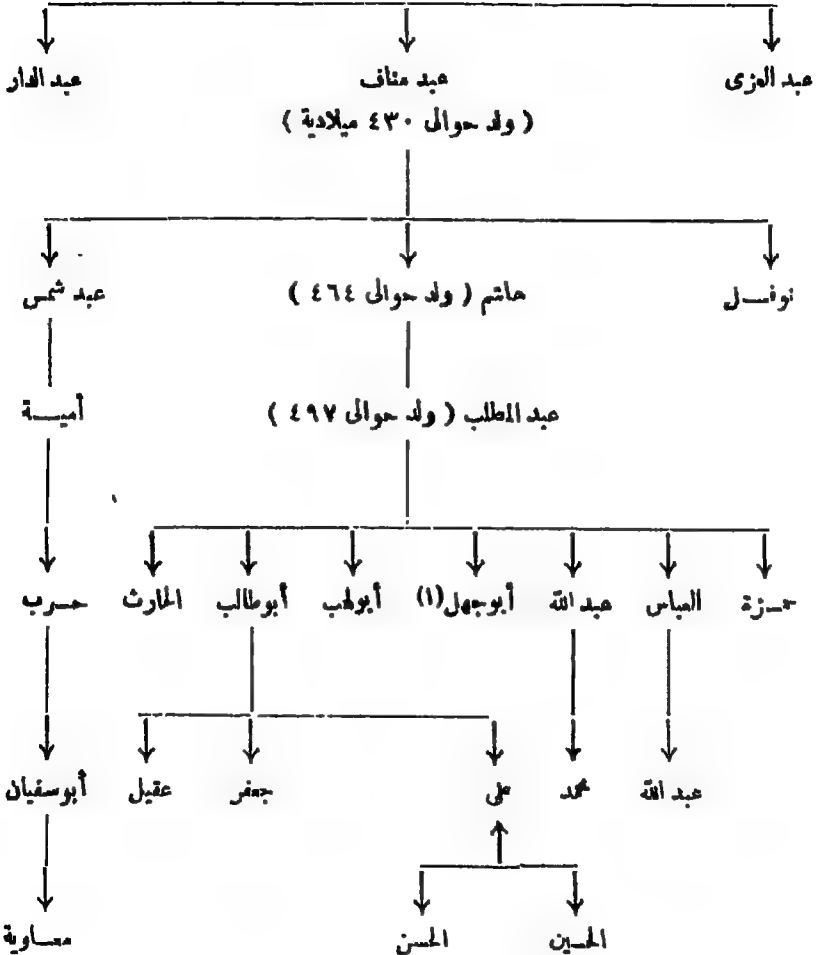
(القرآن الكريم - سورة الفيل)

« لا يلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ،
فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف » •

(القرآن الكريم - سورة قريش)

نسب قریش

قصى (ولد حوالى ٤٠٠ ميلادية)



(١) أخطأ المؤلف خطأ كبيرا إذ جعل أبا جهل من أبناء عبد المطلب مع أن أبا جهل واسمه عمرو بن هشام من بنى عبد الدار لا من بنى هاتم بن عبد مناف . وهذا خطأ يظهر حقيقة قيمة الكتاب من الناحية التاريخية والعلمية . (العرب)

رأينا في الفصل السابق كيف أن تجارة الشرق والتوابل ، ظلت تمر طيلة نحو من ألف عام قبل القرن السادس للهجرة من الجنوب العربي حيث تحملها السفن الى الشمال عن طريق القوافل التي تبدأ مسيرها من مملكتي سبأ وحميز الى مصر وسوريا فرومة وبيزنطسة . وكانت مكة تقع تقريبا في منتصف الطريق بين مملكة الجنوب العربي وبين مراكز التوزيع على البحر الابيض المتوسط في مصر وغزة وسوريا . وكانت طرق القوافل تنفرع من مكة أيضا الى الشمال الشرقي باتجاه الجرمة (القطيف المحاصرة) (١) الواقعة على الخليج ومنها باتجاه الشمال الى الحيرة على الفرات متجنية صحراء الربع الخالي وصحراء النفوذ . ويتبين من هذا أن مكة ظلت قرونا طويلة ، مركزا مهما من مراكز القوافل .

وكانت تضم منذ أقدم العصور بناء الكعبة التي كان يؤمها أبناؤها القبائل الدانية والقاصية من كل فج عميق لأداء الحج ، نظرا لما تحتله من مكانة القداسة في عيونهم . ويبدو أن بئر مكة وكعبتها أضحتا منذ عام (١٠٠) قبل الميلاد ، في رعاية قبيلة عربية تدعى بنى جرهم . ومن المحتمل أن تكون هذه القبيلة قد أخرجت من أرضها في القرن الثالث للميلاد أمام الهجرات المألوفة نحو الشمال الناجمة عن الفاقة التي أحاقّت بدولة سبأ وأن تكون قبيلة خزاعة ، وهي فرع من قبائل الأزد التي هاجرت من اليمن نحو الشمال قد حلت محلها .

وكانت هناك قبائل عدنانية من نسل اسماعيل بن ابراهيم قد أقامت في شمال الحجاز ، وكانت بينها قبيلة قريش (٢) . ويقال ان فهر زعيم قريش بنى في عام ٢٣٥ للميلاد بامرأة من خزاعة ، هي ابنة شيخها

(١) اختلف مع المؤلف في اعتباره القطيف اسما حديثا . فالقطيف اسم قديم وقد اوردته البلاذري في أكثر من مكان من كتابه « فتوح البلدان » كما اوردته ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » . ونقل الاستاذ الخضري الاسم نفسه في كتابه . (العرب)

(٢) يتفق المؤرخون العرب على تقسيم الجنس العربي الاصلى الى مجموعتين اولاهما شمالية والثانية جنوبية . ويرد اصل المجموعة الشمالية الى اسماعيل بن ابراهيم ويقال انها نشأت فيما يؤلف الآن شمال الحجاز وجنوب الاردن . وتتألف المجموعة الثانية من تلك القبائل التي هاجرت شمالا من اليمن الى اواسط الجزيرة العربية حيث تم الاختلاط بين المجموعتين وكانت قريش تنتمي الى المجموعة الشمالية . (المؤلف)

الذى كان يتولى سدانة الكعبة ، وعاد قصى وهو من ذرية فهر فتزوج فى عام ٤٢٠ ميلادية بابنة رئيس خزاعة • ويبدو أن الحزاعى أعجب كثيرا بصهره قصى فأسلمه مفاتيح الكعبة ، وانا به عنه فى سدانتها وخدمتها • ولما توفى الرئيس الحزاعى ، أراد قصى أن ينقل هذا الشرف أصالة الى نفسه لا وكالة عن خزاعة ، ولكن رجال القبيلة عارضوه فيما أرادوه ، ومع ذلك فقد تمكن قصى الذى أعد للأمر عدته • واستنجد بأبناء قبيلته من قريش ، من تحقيق ما أراد • ودارت رحى معركة عنيفة فى عام (٤٤٠) ميلادية هزمت فيها خزاعة ، وأصبح قصى سادن الكعبة وحارسها ، فى حين تحولت خزاعة الى مركز ثانوى •

ويبدو أن قصيا هذا ، كان رجلا بارزا فى شخصيته وذكائه • اذ لم يكن يسيطر على مكة سيطرة كاملة حتى شرع ينظم أمره فيها • ولم تكن هناك حتى هذا التاريخ أية أبنية فى المدينة باستثناء بناء الكعبة والمصلى أما العرب فكانوا يقيمون فى خيام فى الوديان المحيطة بشعابها • وقد أصدر قصى أمره الى قريش ببناء البيوت حول المصلى • وكانت القبائل العربية هنا تسير على السنة القمرية ، نظرا لسهولة هذا الحساب بالنسبة الى الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة لقدرتهم على تمييز الدورة القمرية فى مراحلها المختلفة • لكن السنة القمرية تقل أحد عشر يوما وجزءا من اليوم عن السنة الشمسية • وهكذا فان موسم الحج الى الكعبة المحدد فى الشهر الاخير من السنة القمرية يرتد كل سنة أحد عشر يوما الى الوراء تقريبا وبذلك يطوف جميع فصول السنة الشمسية وأيامها مرة كل ثلاث وثلاثين سنة • ولما كان قصى قد أدرك أن الحريف هو أفضل فصل لاداء موسم الحج ، فقد أفلح فى اقناع العرب بقبول ضم شهر ثالث عشر الى السنة القمرية مرة كل ثلاث سنوات • وكانت هذه المحاولة جريئة للتوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية ، وان كان هذا التوفيق لا يتم على نحو دقيق تماما • (ولكن النبى محمدا الامر نجعله ، وهو من احفاد قصى ، أمر بالغاء هذا الشهر الاضافى ، مما أدى الى بقاء فرق الأحد عشر يوما وكسور اليوم بين السنتين الشمسية والقمرية منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا • لكن الحادث يوضح لنا على أى حال ما اتصف به قصى من ذكاء واقدام) •

أما وقد انتهى الزعيم من تحديد الموسم السنوى للحج ، فقد شرع فى تنظيم الترتيبات السنوية الخاصة به • وكانت الواجبات المرتبطة بالحج مثلثة الشكل ، فهى تشمل سدانة الكعبة ، وتأمين الغذاء للحجاج طيلة أيام الفروض الدينية الثلاثة ، وتأمين السقاية والماء لهم ، وهو عمل

كان يعتبر شاقا الى جدا ، و يبدو أنه قرر أن الشرف الرفيع الذى تحظى به قريش من سداثة الكعبة ، يجعل من المحتوم عليها ، أن تتولى رفادة الحجيج وسقايتهم بلا مقابل طيلة الايام الثلاثة . وليؤمن هذه النتيجة فرض قصى ضريبة على أهله من قريش بدلا من أن يفرض رسوما على الحجيج .

وقد يتساءل المرء ، كيف كان بالامكان إيجاد الموارد الكافية لمثل هذا الانفاق الضخم . لكن أسواقا تجارية كانت تعقد فى موسم الحج فى مكة وفى الشعاب المجاورة لها . فعندما كانت القوافل تمضى الى سورية ومصر محملة ببضائع الشرق ومنتجاته كانت تتوب من هناك الى مكة مثقلة بما تحمله من بضائع تطلق عليها اليوم اسم السلع الاستهلاكية ، مصنوعة فى منطقة البحر الابيض المتوسط . وفى وسعنا أن نفترض أن قريشا حافظت على مكانتها عن طريق التجارة التى تحملها هذه القوافل وبيع سلعها الى الحجيج فى هذه الاسواق المحلية . ومن هنا يظهر أن خدمة الحجيج المجانية ، على الرغم من ظاهرها الورع التقى ، كانت حافزا فى الوقت نفسه على تنشيط تجارة قريش عن طريق زيادة عدد المتعاملين معها . وأرى لزما على أن أذكر إجراءين آخرين ابتدعهما قصى أولهما انشاء مجلس لثسيوخ قريش شيد له مقرا على مقربة من الكعبة . وثانيهما العادة التى جرى عليها وهى أن يسلم الى قائد أية حملة عسكرية تبعث بها القبيلة ، رمحا يعقد هو بنفسه على رأسه قطعة بيضاء من القماش لتكون راية القبيلة ، يلتف حولها المحاربون . وقد قدر لبعض هذه العادات التى استنتها هذا الرجل المتفوق اللامع لابناء عشيرته انصاف العراة المقيمين فى أكوأخهم الطينية حول هذه البئر الصحراوية ، فى منطقة مجدبة وغير ذات زرع من الجزيرة العربية ، أن تعمر قرونا طويلة ، كطقوس مبهجة فى امبراطورية تعتبر من أعظم ما شهده العالم من امبراطوريات .

وقد غدا قصى رجلا له مكانته المرموقة ، عن طريق هذا التنظيم الفعال فى الميدانين الدينى والتجارى ، وطارت شهرته الى أقاصى الشمال والجنوب ، يحملها تجار القوافل ، والى صحارى الجزيرة العربية ينقلها الحاج من أبناء القبائل الذين كانوا يفدون الى الكعبة المقدسة من كل فج عميق .

وتوفى قصى حوالى عام ٤٥٠ أو ٤٦٠ ميلادية مخلقا مركزه المرموق الى أكبر أولاده عبد الدار . وتبدو الاهمية التى كان قصى يعلقها على التزاماته الدينية فى الأسماء التى اختارها لاولاده وهى عبد الدار أى خادم الدار والمعنى بالدار «الكعبة» ، وعبد مناف وعبد العزى ، ومناف والعزى صنمان.

من أصنام الكعبة • وانجب عبد مناف عددا من الاولاد ومنهم عبد شمس ، ونوفل وهاشم • واستعرت الاحقاد والغيرة بين ذرية عبد الدار وذرية عبد مناف ، مما أدى الى تجزئة مسئوليات القبيلة بين الاشراف • واحتفظ آل عبد الدار بسدانة الكعبة والحق في عقد الراية أيام الحروب ، وتسمى اللواء وكذلك بالندوة في حين كان من نصيب آل عبد مناف الحق في سقاية الحجاج ورفادتهم •

وكان هاشم أبرز أبناء عبد مناف • وكان أخوه عبد شمس قد تولى الحق الوراثي في قيادة قريش في حروبها ، بينما كان هاشم الذي أثرى من تجارة القوافل قد اكتسب الشهرة وذيب الصيت بجوده وبالعكرمه في رفادة الحجيج القادمين من مختلف أطراف الجزيرة العربية • وبني هاشم أثناء رحلاته التجارية بامرأة من يثرب وهي بلدة تقع على بعد نحو من مائتين وخمسين ميلا الى الشمال من مكة • وكانت سلمة التي تزوجها هاشم من قبيلة بنى النجار التي تقيم على مقربة من البلدة وقد امتازت بشخصيتها البارزة وقد وضعت في عام ٤٩٧ غلاما أسماه أبوه «عبد المطلب» وقد تولى عن أبيه ، بعد بلوغه سن الرشد مسئوليات رفادة الحجيج وسقائتهم في مكة •

وسرعان ما ذاع صيت عبد المطلب في كل مكان ، حتى بن صيت والده هاشم ، وكاد يضارع شهرة جده قصي • وكان بنو عبد الدار قد هروا في المنزلة الى الرتبة الثانية وان كان حرب بن أمية ، حفيد عبد شمس قد حاول منافسة عبد المطلب في مكانته وشهرته • لكن محاولاته باءت بالفشل ولكن قدر لهذه المنافسة التي قامت بين هاتين العشيرتين العربيتين وما قام بينهما من حزازات أن تهز العالم المتحضر بعد نحو من قرن من الزمان • ولكن من الواجب أن نلاحظ هنا أن قريشا لم تعد تدين لرئيس واحد ، فلقد كان لكل عشيرة رئيسها ، وكان لكل واحدة منها في بعض الحالات ، وإيجياتها الخاصة بها وامتيازاتها • ولقد نمت المنافسة بصورة خاصة بين ذرية هاشم وذرية أمية •

وقد تحدثنا في الفصل الاول عن احتلال الاحباش للجنوب العربي في عام ٥٢٢ • وكان قد سبق لنجران في أيام الوثنية ان ضمنت كعبة ، يحج اليها الناس • فلما تحولت نجران الى النصرانية ، تحولت هذه الكعبة الى كاتدرائية • وتقول الاساطير ان ابرهة ، نائب ملك الحبشة في اليمن ، أراد بدافع تعلقه بالنصرانية أن يدمر كعبة قريش في مكة ، ليحول الحجيج من أبناء القبائل العربية الى نجران النصرانية • ومهما

كانت دوافع ابرهة ، وسواء آكانت دينية أم استعمارية فانه زحف على مكة فى عام ٥٧٠ ووصل الى نقطة لا تبعد الا بضعة أميال عن المدينة • وكانت قريش أضعف أو أجبن من أن تقف أمام الجيش الحبشى ، ومضى عبد المطلب على رأس وفد لمفاوضة ابرهة • وأعلن الجيش للوفد انه لا يقصد تدمير المدينة ولكنه يريد أن يدمر الكعبة الوثنية ، وهو طلب رفض المكيون باصرار الاذعان له •

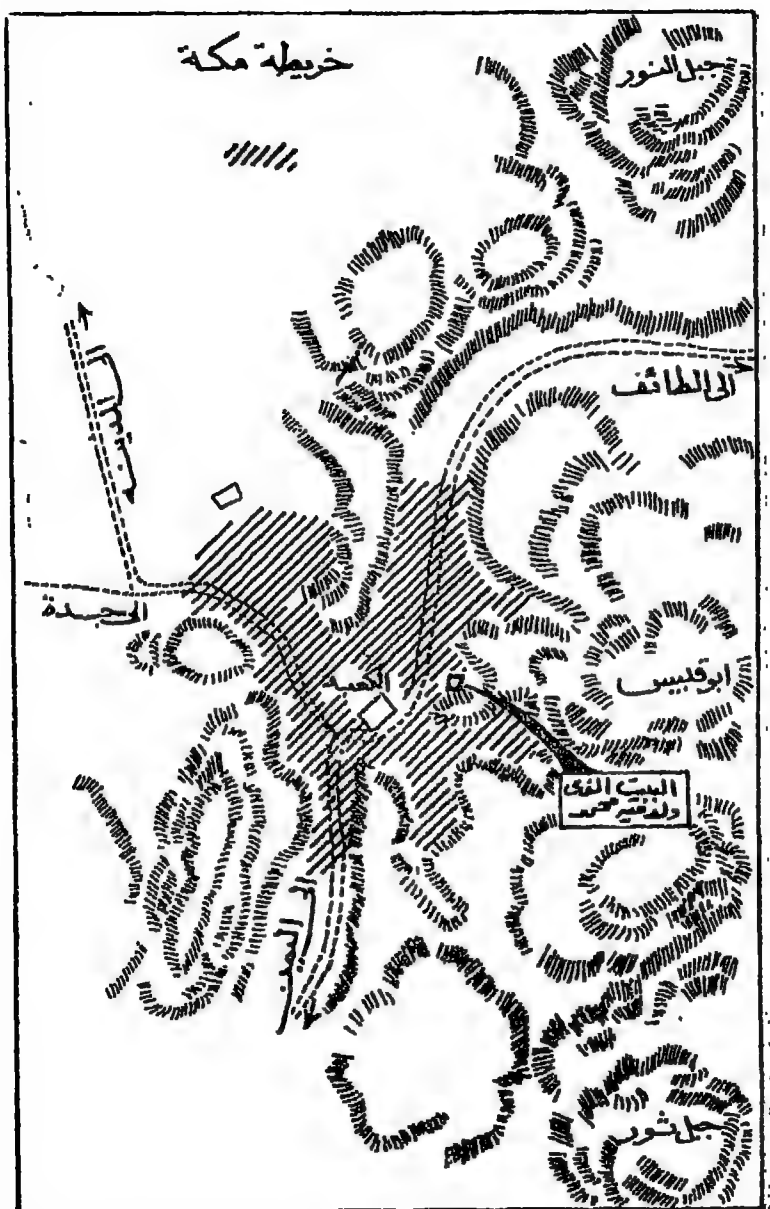
وعاد الوفد الى المدينة ، وقلوب أفرادها مثقلة بالهموم والاعباء • ونصح عبد المطلب أفراد شعبه بأن يجلوأ عن مساكنهم وأن يلجأوا الى الكهوف القائمة فى الجبال القريبة ويقال انه قبل أن يغادر المدينة أمسك بقضبان الكعبة وراح يصلى الى الله طالبا حماية بيته • ويستحيل علينا هنا أن نقرر ما اذا كان دعاؤه يحمل حقا هذا المعنى من الوحدةانية ، أو أن المؤرخين المسلمين اللاحقين هم الذين نسبوا اليه دعاءه لكن الصورة كلها تعكس على أى حال اخلاص أهل مكة لكعبتهم • اذ أثروا أن يهجروا مدينتهم ودورهم لجيش العدو على أن يوافقوا على هدم الكعبة التى يقدسونها •

ويبدو فى غضون ذلك ان الجدرى قد انتشر بسرعة بين رجال الجيش الحبشى ونسى الجنود هدف الحملة ، وتخلي ابرهة عن هدفه فى هدم الكعبة ، وشرع الجيش فى عملية انسحاب هى أقرب الى الهزيمة ، ليموت ابرهة بعد وصوله الى صنعاء • وكان الاحباش قد جاءوا معهم بفيل الى مكة ، ولهذا فقد أطلق على عام ٥٧٠ ، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا اسم عام الفيل الذى ورد فى صفحات القرآن أيضا (١) •

وشهد عام ٥٧٠ حادثا آخر أكثر أهمية من الكارثة التى أحاقت بالجيش الحبشى • ففي العشرين من أغسطس (٢) من تلك السنة ولد محمد نبي الاسلام المنتظر فى مكة • وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفى قبل بضعة أشهر من ولادته • أما أمة أمته فهى من

(١) تقول رواية سيرة ابن هشام أن الجدرى والحصبة قد انتشرا بين الاحباش •

(٢) يقول المرحوم الخضرى فى تاريخه ان الرسول ولد صبيحة الاثنين التاسع من ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ، وهو الموافق العشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ ميلادية • اما المؤلف فقد استقى روايته من برسيغال فى كتابه « العرب قبل الاسلام » (العرب)



عشيرة زهرة التي كان جدّها أخا لقصى الشهير . ولما كان الطفل يتيم الأب ، فقد احتضنه جده عيد المطلب ، شيخ العشيرة الوقور وكان قد جاوز الآن السبعين من عمره . وكانت عادة قریش قد جرت على التماس المراضع لأولادهم في البادية عند نساء القبائل المجاورة ، ليستنشقوا هواء البادية النقي الصافي مما في المدن من عفونات وغبار . وهكذا عهد برضاعة محمد الى امرأة من بنى سعد النازلين على مقربة من مكة .

وعاد الطفل الى أمه في مكة وكان في السادسة من عمره (١) ولكن لم تمض قرابة سنة حتى توفيت بعد أن تركته يتيم الابوين ، وإن كانت هناك أمة لجدّه تسمى أم أيمن ظلت تعنى به وترعاه . ونقله عبد المطلب الى داره وغدا شديد التعلق به ، وكثيرا ما كان يداعبه ويلهو معه . ولكن جدّه ما لبث أن توفي وهو في الثالثة من عمره ، وعاد مستقبل الطفل من جديد عرضة للاقدار ، وإن كان الزعيم المحتضر قد أوصى وهو على فراشه الموت ، بحفيده الى غناية ولده أبى طالب عم محمد .

وهكذا أصيبت حياة الطفل من جديد بانهقلاب كلي . ولكن المشاعر القبلية كانت أقوى بكثير من أن تسمح باهمال طفل أو التخلي عنه ، وإن كانت هذه التبدلات المستمرة في المكان الذي يعيش فيه الطفل قد ولدت لديه مشاعر من عدم الاستقرار والاحساس بالوحدة ، مما يخلق عادة عند ذوى هذه المشاعر مزاجا دائم التأمل كثير التفكير . ولكن الحامي الجديد الذي تولى رعايته كان على أى حال لطيفا كل اللطف ، وكان ذا شخصية نبيلة ، وسرعان ما غدا شديد التعلق بمحمد ، واستصحبه معه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، في إحدى رحلاته طلبا للتجارة الى سورية ، وهى رحلات كان يعتمد عليها تجار مكة فى كسب أودهم .

وإذا ما استثنينا هذه الرحلة ، فإن الحياة ظلت على وتيرة واحدة . بالنسبة الى محمد الفتى ، الذى كان يعيش كواحد من أسرة عمه . لكن أبا طالب على الرغم من لطفه وكرمه لم يكن بالرجل الثرى . وكان عند أولاده آخذنا فى التزايد هما استنزف موارده وأنضبها . ولم تكن لمحمد موارد خاصة ولذا فكان يقنع بأن يكسب ما يستطيع اما عن طريق بعض الصفقات التجارية أو عن طريق رعاية الماشية . وظل فى فتوته يتميز بطابع الهدوء والتحفظ والجدية والوقار ، وكلها صفات قد تكون ناجمة عن

(١) تقول جميع السير وكتب التاريخ ان محمدا ماد من البادية وهو في الرابعة

(المعرب)

من عمره .

أوضاع يتمه ، وعما عاناه في طفولته من رزايا • واقترح عليه عمه أبو طالب عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أن يستصحب إحدى القوافل المسافرة إلى سورية • وكانت هناك أرملة ثرية موفورة الحال من قريش تدعى خديجة تتعهد شئونها بنفسها ، وتقوم على تصريف مشروعاتها التجارية التي تشمل الاشتراك في تجارة القوافل • وكانت خديجة في حاجة إلى وكيل أمين موثوق به ليصحب رجالها في القافلة المسافرة إلى الشمال وليشرف على بيع بضائعها وعلى شراء شحنة من البضائع السورية بما يتجمع من عملية البيع الأولى ، لبيعها في مكة • وقد تمكن أبو طالب من تعيين ابن أخيه في هذا المنصب ، ولانسيما ، وأن محمدا نال شهرة عظيمة بما عرف عنه من صدق وأمانة •

ومن المحتمل أن تكون هذه الرحلة قد استفزت تفكير الشاب الكثير التأمل • ويبدو أن العملية نجحت كل النجاح من الناحية المالية ، مما أَرْضَى خديجة كل الرضى وجعلها تعجب بوكيلها الجديد • ولم تمض بضعة أسابيع على عودته من رحلته حتى كانت توفد إليه من يقتصر عليه الزواج بها • ويقال أنها كانت في ذلك الحين في الأربعين من عمرها في حين كان محمد في الخامس والعشرين • وإذا ما استثنينا فارق السن فإن الزواج كان مرضيا للفريقين من جميع النواحي • فلقد كان خويلد والد خديجة من وجوه مكة ويزمت في نسيه أيضا إلى قصي • وقبل محمد الاقتراح وتم الزفاف •

وعلى الرغم من فارق السن فلقـد كان الزواج موقفا كل التوفيق وحملت خديجة لمحمد بولدين توفيا في سن الطفولة وبأربع بنات هن زينب وورقية وأم كلثوم وفاطمة وقد يثير حملها لستة أولاد الشك في الرواية التي تقول بأن خديجة كانت في الأربعين من عمرها عندما بنى بها محمد ، ومن المحتمل أن تكون جاهلة لحقيقة سنها كما هي الحال بالنسبة إلى كثيرات من بنات القبائل العربية حتى يومنا هذا •

وحزر ثراء خديجة زوجها محمدا من العوز ، وأتاح له المجال لاحتلال مركز اجتماعي مرموق في مجتمع مكة الذي كان يقدر الثراء (١) • لكنها واصلت على أي حال إدارة أعمالها التجارية بنفسها وبذلك حررت من

(١) لم يكن المركز المرموق الذي احتله محمد في مجتمع مكة بفضل ثروة خديجة وإنما كان بفضل أخلاقه التي أجمع المؤرخون على أنها ضمت صدق الحديث والأمانة حتى سموه بالأمين والامتناع عن الشر وعن حياة اللهو ، والوفاء • (المعرب)

المتاعب المالية ليجد الوقت الكافي لاشباع رغباته فى الوحدة والتأمل وهى رغبات ازدادت قوة مع نضوج سنه • وعلى الرغم من أن محمدا كان موزونا ومتحفظا ، صموتا ميالا الى الهدوء ، الا انه كان يحس بالراحة الى العشرة الطيبة فتتفرج أساريره فى مثل هذه الحالات ويندو انسانا سمحا رقيق المعشر ميالا الى المزاح البرى •

وعندما أحس محمد بالاستقرار فى حياته شرع - مدفوعا بحبه لعمه أبى طالب الذى احتضنه ورعاه - يحاول التخفيف من ضائقته وعرض على عمه أن يهون عليه بعض نفقاته ، وأن يحتضن أحد أولاده ليتولى الانفاق عليه • • ووقع الاختيار آنذاك على على ، وكان فى السادسة من عمره فنشأ فى كف ابن عمه محمد وكأنه أحد أولاده •

وكان لخديجة عبد يدعى زيد بن حارثة ، وهو ينتمى الى قبيلة أضره (١) العربية المسيحية التى كانت تقيم فى جنوب سورية فسرقه بعض اللصوص وهو طفل ثم باعوه عبدا فى أسواق مكة الى أن وصل أخيرا الى يد خديجة • وقد أولع محمد ولعا شديدا بهذا الخادم وتعلق به فاندبته خديجة ليتولى خدمته الشخصية • ولم يمض طويل وقت حتى كان والد زيد الذى ظل يبحث عنه السنوات الطوال قد وصل الى مكة متقيفا أثر ولده فعرض على خديجة مبلغا كبيرا من المال يفتدى به حريه ولده من الرق • واستدعى محمد زيدا أمام أبيه وخيره بين اللحاق بأبيه فى الشام أو البقاء معه فى مكة ، ولكن الشاب كان قد تعلق بمحمد تعلقا شديدا فى حين لم يكن يعرف أباه الذى فارقه وهو طفل • واختار زيد البقاء مع محمد • وسر محمد بهذا الوفاء النادر فقاد الفتى من يده الى الكعبة حيث أعلن فى حرما عتقه له وتبنيه إياه •

وعلى الرغم من أن أوثان الكعبة كانت موضع العبادة الرسمية فى مكة الا ان كثيرين من أهلها كانوا قد فقدوا إيمانهم بمثل هذه العبادة الفطرية الجاهلة • ولقد سبق لنا أن بينا ان عددا كبيرا من العرب كان قد اعتنق النصرانية وأن الجاليات النصرانية كانت منتشرة فى كل مكان • ولم تخل قريش نفسها من رجال تحولوا الى النصرانية وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم لخديجة من أولئك الباحثين عن ديانة روحية أعمق من

(١) أجمع مؤرخو العرب على أن زيدا من بنى كلب لا من بنى أضره كما يقول المؤلف.

ولذا كان يسمى زيد بن حارثة الكلبى •

(العرب)

ديانة قريش ، ويقال ان رجلا آخر يدعى زيد بن الطفيل(١) وهو من قريش ، وقد توفى في هذا الوقت تقريبا ، اثر على محمد الشاب في تطلعاته وبحثه عن الله . .

واقترب عام (٦١٠) ميلادية وكان محمد قد بلغ الاربعين من عمره وازداد ميله الى الوحدة والتأمل . وكان يهرب من طرقات مكة المحرقة المغبرة ويلجأ الى كهوف الجبال القريبة من الوادى العتيق الذى تقبع فيه المدينة ليقتضى فيها أحيانا أياما متوالية . وتسرح أفكار الرجل متأملا فى هذه القمم الجرداء الداكنة التى يراها أمامه من فتحات الكهوف والتى لا تظهر عليها نامة حياة ، ولا تفصلها بعضها عن بعض الا شعاب عميقة ضيقة من الاخايد والوديان الجافة وتعود فتتركز على فلسفة الحياة الاخرى التى كان قد سمع نتفا عنها من اليهود والنصارى ، وعلى وجود اله واحد أحد ، قوى صمد عنده الجنة السرمدية والحياة السعيدة الأزلية يمنحها للمؤمنين من عباده ، وعنده جحيم جهنم بما فيها من عذاب لا نهاية له ينزله بالكفرة وغير الصالحين . وكان يعود الى بيته وقد أثقلته هذه الافكار فيبوح بها الى زوجته الوفية خديجة التى ما برح يجد عندها المستقر والمراح والحث والتشجيع وقد مزجت فى رعايتها له بين حب الزوج وحنان الام .

وألّف محمد اللجوء الى الغار فى الجبال فى فترات معينة من شهر رمضان طلبا للتأمل والتعبد والتفكير والتهجد . وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ نزل عليه جبريل رأس الملائكة . . وروى محمد . . قائلا : وجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال . . اقرأ ، قلت ما اقرأ . . ثم غشيني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قلت ماذا اقرأ ، وعاد فغشيني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ . . قلت ما اقرأ ، فقال : «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم» . .

وقرأ محمد ما قاله الملاك ، وانتهت الرؤيا وهب من نومه فزعا ويكاد عقله يضطرم . . ويمضى محمد فيقول : « وخيل الى أن أذهب الى الجبل وأقذف بنفسى منه لأستريح . . فإذا ما كنت فى الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) فرفعت

(١) زيد بن عمرو بن ثعلبة العدوى . . لا زيد بن الطفيل . . . وهو الاسم الذى أورده البلاذرى في « فتوح البلدان » وابن هشام في سيرته (العرب)

رأسى الى السماء أنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قسميه فى أفق السماء .

وهزته هذه الرؤيا وعاد محمد الى بيته وأتى خديجة ليروى على مسامعها كل ما وقع له فقالت : أبشر يا بن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الأمة (١) ، وكانت خديجة أولى المؤمنين برسالة محمد . وكان ابن عمه على بن أبى طالب ثانى من آمن وكان فى العاشرة من عمره ليتبعه ابن محمد بالتبني زيد بن حارثة .

وكان بين تجار مكة المعتبرين تاجر يدعى عبد الله أو عتيق ، أبو بكر بن أبى قحافة وينتمى الى فرع من فروع قريش . وكان أبو بكر من الرجال المحبوبين ذوى المنزلة لما عرف عنه من خلق طيب ودماثة وكرم . وكان يصغر محمدا بسنتين وجاء ترتيبه الرابع بين من آمنوا برسالته . ولا ريب فى أن مما يقيم الدليل على صدق محمد وإخلاصه أن يكون المؤمنون به الأوائل زوجته ولديه بالتبني وصديقه الحميم اذ ان هؤلاء الاربعة كانوا على اتصال وثيق به فى كل يوم بحيث كانوا أعرف الناس بمنى صدقه .

ولم يرب عدد من آمن بالرسالة فى أيامها الاولى على حفنة من الناس ، نذكر منهم عثمان بن عفان من خلفاء المستقبل والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وهى أسماء قدر لها بعد بضع سنوات أن تصبح مدوية معروفة فى العالم المتحضر بأسره ، وكانوا جميعا من قريش فلقد كان عثمان من بنى أميه الذين يذكر القارئ ولا شك انهم كانوا يناقسون بنى هاشم على الزعامة فى قريش . أما الزبير فكان من أقارب خديجة ومن الذين يتصل نسبهم بنسب محمد أما سعد فكان قريبا لمحمد عن طريق أمه .

وظلت الدعوة فردية ثلاث سنوات صدر الامر بعدها لمحمد بأن يجهر بدعوته الى الدين . وكان محمد فى الثالثة والاربعين عندما انتهى تردده وخرج الى ساحة المدينة التى تقوم الكعبة فى وسطها يدعو الى دينه متحديا المشركين من عبدة الأوثان (٢) . وكانت خطوط دعوته متناهية فى

(١) يقول المؤلف انه نقل هذه الرواية من ترجمة الاستاذ جيوم لرواية ابن اسحق وقد قارنتها مع رواية ابن هشام فوجدتها قريبة منها كل القرب . واذا كان قد وقع بعض التحريف فى اللفظ وهو قليل نادر فانما مصدره ترجمة رواية جيوم . (الحرب)
(٢) كانت إنجلترا لا تزال فى ذلك الحين وثنية . فقد هبط القديس أوفسطين =

بساطتها فهو يقول للناس ان هناك الها واحدا وان الاوثان شرك لا نفع منها ولا ضرر ويجب أن تزال ، وانه رسول الله جاء مبشرا ونذيرا ، وأن يوم الحساب قريب حيث يخرج الناس من قبورهم اشتاتا فيمضى منهم الى فراديس النعيم الصالحون المؤمنون ، ويمضى الى غياهب الجحيم الاشرار المشركون حيث يصلون سعيها الى أبد الآبدين .

وذكر محمد ليعزز أقواله ان الوحي الالهى يهبط عليه مباشرة . وقال ان جبريل كان ينزل عليه بسور القرآن متحدنا اليه كما يتحدث الرجل للرجل وقيل أيضا ان الوحي كان يهبط عليه أحيانا على شكل صوت داخلي يوحى له بما يقول .

وسرعان ما تمكن القريبون منه من تمييز علائم الرسالة فيه . فلقد كان يبدو قبل مجيء الوحي بلحظات متوتر الاعصاب قلقها تنتابه حمى وبرداء ولا ينقصم عنه التنزيل الا وجبينه يتفصد عرقا وقد أضيف الى القرآن فصل جديد . ولم يكن هذا هو المألوف الدائم لنزول الوحي . فكثيرا ما جاءه على شكل احياء ابان حياته العادية .

وكان مذهب ابراهيم الاساس فى تعاليم الرسول الجديدة . وكان يقول ان الرسالة الصافية النقية التى نزلت على ابراهيم تعرضت لتشويه اليهود الذين أفسدوها وجاء عيسى بن مريم رسولا من عند الله ليظهر الدين مما أدخله اليهود عليه من هرطقة وتشويه . وقد آمن محمد بطهارة العذراء وميلاد عيسى وقال ان المسيح من روح الله وانه جاء رسولا يدعو الى رسالة ابراهيم النقية الصافية . ولكنه يعود فيقول ان المسيحيين أيضا شوهوا العقيدة الصافية كما فعل اليهود من قبل ، فجاء هو رسولا من الله الى الناس جميعا يدعوهم الى الدين النقي الصافى .

ومن هنا يظهر ان النبى لم يدع الى دين جديد لا علاقة له بالديانات الاخرى وانما دعا الى الدين النقى بشر به من قبل ابراهيم وموسى وعيسى . وقد روى كثيرا من القصص التى رواها العهد القديم وان كانت رواياته تختلف أحيانا عنها فى التفاصيل على الاقل ، ولما كان المعروف ان محمدا لا يقرأ ولا يكتب فمن المحتمل انه سمع هذه القصص وأعاد تلاوتها معتمدا

= ارض انجلترا في عام ٥٩٧ ليعمل على تحويلها الى المسيحية اى قبل ستة عشر عاما من بداية رسالة محمد .
(المؤلف)

على ذاكرته (١) . ويمكن القول ان تعاليمه كانت تحمل شبيها من طابع العهد القديم . فمثلا هناك آيات في القرآن تأمر المؤمنين بأن يحاربوا الكفرة والمشركين ، وفي الامكان مقارنة معانيها بما ورد في العهد القديم عندما صور الرب «يهوه» وهو يأمر بآبادة العمالة (٢) . ويبدو ان اطلاع محمد على اليهودية لم يكن أوسع من اطلاعه على النصرانية فقد آمن مثلا بأن عقيدة التثليث تتألف من الله والمسيح والعذراء (٣) .

وكان يقول ان القرآن كلام الله أنزله عليه . وكثيرا ما تسبق الآيات والاوامر والنواهي بكلمة «قل» وهي الامر الالهى لمحمد بأن يقول ويتكلم . وكثيرا ما يبيته الوحى محذرا اياه مما قد يثيره المشركون من مسائل واعتراضات أو ما قد يثيره المؤمنون من أسئلة فيبين له طريق الرد عليها . . كما جاء فى سورة المائدة «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» أو كما جاء فى سورة يونس «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم اليها مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، وانزل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ، يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت . .» .

وكان أقوى حافز دفع العرب الى فتوحاتهم العظيمة وعد الله لهم بأن كل من يستشهد فى الحرب ضد الكفرة يروح الى فرديس النعيم فوراً . يضاف الى هذا ان الوصف المسهب للجنة بما فيها من جداول وأنهار . وماء عذب سلسبيل وثمار تتشهاها الانفس والاعين وما فيها من حور عين عذارى أبكار فى منتهى الجمال وفى شباب دائم كان مغريا للبداءة الحفاة ، العراة والجفاة ، الذين ألفوا شظف العيش والذين كانت حياتهم صراعا لا ينتهى مع الطبيعة وما فيها من مشاق لا تطاق . وتسرد جميع كتب المسلمين ما كان يسود المسلمين الاوائل من رغبة عارمة فى الوصول الى النعيم المقيم عن طريق الاستشهاد . وحتى فى عام ١٩٢٠ كانت هتافات الوهابيين وهم يقذفون بأنفسهم فى اتون المعركة على أعدائهم . . الجنة يامسلمين الجنة . . يا حواري الجنة . . جينا . . ونحن فى الطريق .

وأخذ الاسلام فى الانتشار ولكن ببطء برغم كل ما بذله الرسول

(١) لاستغرب هذه الطريقة فى الكتابة من المؤلف الذى لا يؤمن بالاسلام . ولذا فان مناقشة اقواله فى هذا الصدد لاتجدى فتيلا لانه غير مؤمن بالرسالة المحمدية .

(٢) سفر الملوك الاول - الفصل الخامس عشر - الآية الثالثة .

(٣) كذب صراح . فالاسلام لم يؤمن بالتثليث ، ولا يؤمن الا بالواحد الاحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد . . . اما المسيح فهو من روح الله ليس الا . (العرب)

من جهد • ولم يكن عدد المسلمين قد تجاوز الخمسين حتى بعد أربع سنوات من بدء الرسالة • لكن سخط الكثيرين في مكة اشتد وتعاضم على هذه البدعة • فالمدينة وقریش نفسها مدينتان بالكثير من أهميتهما الى ما يبديه العرب في كل مكان من اجلال لکعبتهم وما فيها من اصنام وأوثان ، وهو اجلال سبق لى أن أشرت اليه عند الحديث عن غزو الاحباش لها في ذلك العام المسمى بعام الفيل • وقد اشتدت المعارضة لمحمد عند قریش عندما راح يعلن لهم • ان آباءهم وأسلافهم يصلون السعير ونار جهنم لاشراکهم بالله • فالمعروف عن العرب انهم يوقرون جدودهم توقيرا شديدا ويجلونهم اجلالا جما • وكثيرا ما سمعت بعض البدو يقولون حتى في أيامنا هذه وهم يحاولون تعزية رفاق لهم أو التسرية عنهم • • رحم الله أباك وجعل الجنة مثواه •

ولكن على الرغم من نقمة الكثيرين من القرشيين على تعاليم محمد فان العرف البدوي كان يحميه من غضبهم ونقمتهم • ومن الواجب علينا هنا أن نؤكد عاملا يصعب علينا اليوم فهمه تمام الصعوبة وهو عدم وجود أية حكومة في الحجاز في ذلك الحين أى في القرن السابع للميلاد • ويصعب علينا أن نتصور مجتمعا لا سلطة مهيمنة فيه توجهه ولا قوانين تحكمه ولا شرطة ولا أية وسائل أو اجراءات تفرض العقاب • وكانت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية بالطبع منظمتين غاية التنظيم على نحو ما نعرف ولكن شيئا من هذا النوع لم يكن موجودا في الجزيرة العربية الا عندما كانت اليمن تابعة اما للاعباش أو للفرس (١) •

وكان الناس في مثل هذه الظروف يجدون الامان والملجأ في رحاب القبيلة التي ينتمون اليها • وكانت القبيلة تمنع جميع أفرادها وتحميهم من كل اعتداء خارجي ولكن لم يكن هناك أى تعريف محدود للقبيلة • فالقبائل الكبرى التي تعد الواحدة منها عدة ألوف من الناس قد تشتبك في معارك الواحدة منها مع الاخرى في حين قد تشتب المنازعات وأحيانا الحروب وان كان على نطاق أضيق داخل القبيلة الكبرى نفسها بين العشائر والاسر المختلفة • ولم تكن الحماية التي تضيفها القبيلة أو

(١) لاأدرى لم هذا الالتكاس من جانب المؤلف ؟ لقد كان للعرب دول في اليمن كدولة حمير وقبلها دولتا سبأ ومعين • وكان لهذه الدول أنظمتها أيضا • فلايجوز أن يقول ان العرب لم يعرفوا التنظيم الا عندما كانوا مستعمرين للاعباش أو للفرس الا اذا أراد ان يطبق قوله على حاضرتنا فيزعم أن العرب لم يعرفوا النظام الا عندما كانوا مستعمرين له ولدولته بريطانيا ...
(العرب)

العشيرة على أعضائها تعتمد على ما فى أعمالهم من تطابق مع الاخلاق أو نبو عنها • فالقبيلة تحمى ابنها اذا كان قاتلا أو سارقا تماما كما تحميه اذا كان بطلا أو قديسا وهو ما تفعله شركات التأمين عندما تعوض نلى الخسارة الناجمة من حادثة سيارة سواء كان صاحب السيارة المؤمن عليها هو المستول عن الحادث أو ضحيته •

فحيث تنعزم السلطات العامة لا يكون ثمة مجال لعقوبة على جريمة • وجل ما يمكن الحصول عليه من المسء هو التعويض أو اعادة الحق الى صاحبه • وتعين القبيلة أو العشيرة ابنها على ضمان حقوقه على هذا النحو أو على أن ينزل بخصمه ضررا هو عين الضرر الذى أنزله هو به • ويعترف العرب بالحسق فى الثار • العين بالعين والسن بالسن والروح بالروح •

وكان حق الانسان الذى لحق به الاذى فى أن يثار ، ناجما عن عدم وجود أية سلطة عامة قادرة على حمايته •

كان محمد ينتمى الى بنى هاشم • وهم أحد البيوتات التى تضمها قريش والتى تسلسلت عن هاشم • وسواء آكان بنو هاشم مؤيدين لما يقوم به من نشاط أم معارضين له • فقد كان العرف القبلى يفرض عليهم حمايته من التعرض الى أى اذى بدنى أو عنف ، وكذلك حماية مريديّة الشابين على بن أبى طالب وزيد بن حارثة ابن محمد بالتبني • وكان غير هؤلاء من المسلمين القرشيين يلقون الحماية نفسها من البيوتات التى ينتمون اليها • لكن بعض المسلمين كانوا على أى حال من العبيد أو الخدم ولم يكونوا يحظون بأية رعاية قبلية • ونفثت قريش سمنوم غلها وحققها فى هؤلاء • ويقال أن قريشا أمسكت ذات يوم بعبد حبشى طويل القامة نحيل العود يدعى بلالا كان قد اعتنق الاسلام فطرحه سيده أرضا فى وهج الشمس وحرارته وقد أثقل صدره بالحجارة الضخمة لتحول بيته وبين الوقوف أملا فى ارغامه على الارتداد عن دينه • وعلى الرغم من العذاب الشنديد الذى عاناه من الظما فقد ظل يهتف « أحد ، أحد ، أحد صمد » متحديا مضطهديه من المشركين • وكان أبو بكر الصديق الرجل الثرى التقى الذى وقف نفسه وروحه لدعوة محمد يستخدم ماله فى شراء العبيد المسلمين من ساداتهم المشركين ليعتقهم ومع ذلك فقد ظل عدد من فقراء المسلمين يعابون العذاب والاضطهاد • وعلى الرغم من أن محمدا كان فى منجاة من الاغتيال إلا أنه كان يتعرض دائما للعدنية من المزعجات والاهانات • وكانت النسوة المشركات يقلفن الرمنسول بالنفايات من

أسطحة منازلهم ، وأولادهن يلقونه بالأهانات فى الشوارع فى حين تضع امرأة عمه أبى لهب الاشواك على عتبة داره لتلقى بها قدماها عندما يخرج حافيا .

وراح محمد ينصح أتباعه فى عام ٦١٥ ، أى بعد خمس سنوات من نزول الوحى بالهجرة من مكة بعد أن عجز بما عرف عنه من طيبة خلق عن رؤيتهم وهم يعانون ويلات العذاب وصنوف الاضطهاد . وكانت الحبشة المملكة النصرانية قريبة لا يفصلها عن الجزيرة العربية الا البحر الاحمر وتمكن أحد عشر رجلا وأربع من النساء من الخروج من مكة والابحار الى الحبشة وبينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة محمد (١) .

وبدت آمال الدعوة المحمدية فى أسوأ أوضاعها . فلقد انقضت خمس سنوات على الدعوة ولم تحقق الا نجاحا جزئيا اذ لم يتحول الى الاسلام الا حفنة من الناس بعضهم عاد فارتد عنه (٢) فى حين اضطرت غالبية الباقين الى الهجرة من البلاد وبدأ ان محمدا قد ظل وحيدا باستثناء بعض ذوى قرباه من أمثال خديجة وعلى وزيد وصديقه الوفى المخلص أبى بكر . وعلى الرغم من أن مكة شهدت أناسا يبحثون عن عقيدة روحية سامية الا ان معظم هؤلاء كانوا من الفلاسفة الذين ينشدون معرفة الله لانفسهم ، وكان محمد قد أثار معارضة قريش له بهذه الحملة العنيفة التى شنّها على الاوثان القائمة فى الحرم المكى ، وبتأكيداته التتوالية من أن اسلاف قريش يصلون نار جهنم وان الذين يتكرون دعوته من المواطنين ويرفضون رسالته سيصلون العذاب الدائم . وقد أدت معارضتهم هذه وسخطهم الى النكمة على الحركة كلها . أو ليس ثمة من مجال لتفاهم أو ترضية ؟ لو انه خفف من غلواء هجومه على عقيدتهم فلربما تمكن من أن يقود أهله وأبناء مدينته بأساليب المهادنة التدريجية الى طريق البحث عن اله واحد .

ولا يقضى الناس فى أجواء الجزيرة العربية الحارة وقتا طويلا داخل بيوتهم . وكانت باحة الكعبة المكان الذى يلتئم فيه شمل أهل مكة

(١) تؤكد كتب التاريخ العربى ان عدد الذين هاجروا الى الحبشة كانوا ثلاثة ولثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة وعددا من الاطفال ويمثلون جميع بطون قريش .
(العرب)

(٢) لم يرد فى كتب السير أو التاريخ العربى أى ذكر لمسلمين أوردوا عن الاسلام فى هذه الآونة ولا أدرى من أين جاء جلوب بهذه الرواية الغريبة التى لا أصل لها فى كتب العرب .

ويعقدون اجتماعاتهم • فالبسط تنشر على الارض ويجلس شيوخ القبيلة فى حلقات يتذكرون شئون اليوم • وعندما تشتد الهاجرة تنقل البسط الى ظل الكعبة أو ظلال البيوت المجاورة • وكانوا لا يفتحون ندوة قصي الا فى الحالات النادرة وعندما يتساقط المطر أو تهب الزواجع الرملية ولم يكن فى هذه القاعة التى تطل على ساحة الكعبة أى فراش أو أثاث • وانما هى مجرد بناء من الحجر المقسوى بالطين والمسقوف بالاغصان والاخشاب والتراب •

وكان وجوه مكة وشيوخها يجلسون ذات يوم فى العراء على مقربة من الكعبة عندما اقترب منهم محمد واقتعد مجلسه معهم ، وبعد صمت قصير بدأ النبي يتلو على مسامعهم سورة النجم ، فيحدثهم عن الوحي والتنزيل وكيف وقف الملك جبريل على بعد خطوتين منه ثم حدثهم عن زيارة الملك الثانية « عند سدره المنتهى » ثم مضى يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى • افرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى • الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى » ورأى سادة قريش الرسول وهو يشهد لهذه الالهة الثلاث ثم رأوه فى نهاية السورة وهو يسجد فى صلاته فسجدوا معه جميعا وأخلوا يصلون معه (١) •

ولا ريب فى أن هذا الحادث يقيم الدليل على أن أهل مكة كانوا يعترفون بصورة عامة بوجود اله عظيم واحد • ولكنهم كانوا يرون أن آلهتهم المحلية هذه هى سبيل للوساطة عنده • وكانوا يقولون انهم على استعداد لاتباع النبي فى عبادة الله شريطة أن يكون على استعداد للاعتراف

(١) لاأدرى من أين جاء جلوب بهذه القصة المختلقة التى يظهر اختلافا جليا واضحا في وقوعه عند هذا الحد من السورة الكريمة دون أن يكملها ثم انتقله فجأة الى حادث السجود وهو يود أن يظهر وكان الرسول قد سجد لاصنام الكعبة ... حقا انه اختلاق معيب .. فبعد الآيات الكريمة التى أوردتها جلوب ووقف عندها مضي السورة الكريمة قائلة .. « ان هى الا اسماء سميتوهن أنتم وآبائكم ماأنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى • أم للانسان مائتى • لله الاخرة والاولى ... » الى أن تصل السورة الكريمة الى نهايتها .. « فاسجدوا لله وامبدوا » وهنا سجد الرسول لله تعالى لا لاوثان الكعبة كما يحاول جلوب أن يقول .. ومن هنا يظهر اختلاق القصة كلها •

بدور آلهتهم الصغرى • وسرعان ما وقعت مهادنة آنية وتوقفت حملات العذاب والاضطهاد (١) •

ولكن الرسول ما فتىء ان عاد الى داره وشعر بضميره يعذبه فهل من الحق أن يهادن الشرك حتى ولو كانت غايته انقاذ اتباعه من الاضطهاد ؟ وظهر له جبريل من جديد وأخذ يعاتبه • وأحس بالالم والخوف من الله • انه لا يرضى عن تراجعهم وقرر أن يتراجع عن موقفه السابق وأن يواجه من جديد غضب قومه • وعاد الى القوم فأكمل على مسامعهم السورة على النحو الذى يبدو فى القرآن • وأثار هذا التراجع سخط أهل مكة واستفزهم فعادوا الى اضطهاد المسلمين(٢) •

واستدعى القرشيون فى سورة غضبهم أبا طالب وناشدوه أن يتخلى عن نصرة ابن أخيه وأن يتراجع عما تفرضه عليه التقاليد القبلية وأن يسمح لهم بمحاسبة محمد • ورد الرجل الشيخ عليهم مهددا ثم بعث فى طلب ابن أخيه سرا اليه بمخاوفه وقلقه ولم يكن أبو طالب من المسلمين ، ولكن لم يكن فى وسعه أن يسحب حمايته لابن أخيه وهى الحماية التى تفرضها عليه التقاليد القبلية لا سيما وأنه يحبه حبا جما • أولا يمكن لمحمد أن يفعل شيئا ليساعده وذلك بسلوكه سلوكا يحمل طابع التهادن والتفاهم ؟ ولكن النبى عانى كثيرا فى قرارة ضميره منذ المحاولة السابقة فرد على عمه قائلا : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته » • ثم انخرط مجهشا بالبكاء • وقد تأثر عمه العجوز من بكائه واستندعاه الى جانبه مؤكدا له أن فى وسعه أن يمضى فى دعوته كما يشاء فهو لن يتخلى عنه •

وبينما كانت أوضاع المسلمين على هذا النحو من السوء تحول

(١) هناك ناحية أخرى تكذب هذه القصة • وهى القصة التى أوردتها جميع كتب السيرة والتاريخ الاسلامى عن مجيء أبى طالب الى النبى (صلعم) بعد أن هددته قريش إذ قال له • يا ابن أخى ان قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبقى على وعلى نفسك ولا تحملنى مالا أطيعك الرسول ان عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله يأمم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته • ثم استعبر ويكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : اقبل يا ابن أخى ، فلما اقبل عليه قال له « اذهب فقل ما أحببت فوالله لأسلمك لشيء أبدا » • (العرب)

(٢) هذه هى تكملة القصة المختلفة التى لم أجد لها اثرا فى كتب السيرة ، وأنا أعتقد ان جلوب قد نقلها من بعض الكتب الغربية وحتى لو صح هذا الاعتقاد فان جلوب هو المولوم لانه لم يتثبت من صحتها من الكتب التاريخية • (المغرب)

شخصان الى الاسلام فأدى اسلامهما الى تحسن الوضع مؤقتا وأولهما حمزة عم النبي ، وهو محارب معروف مشهور بالفتوة والنجدة وقوة البنية وقد فرض مهابته على الناس ، ونانيسهما عمر بن الخطاب من بيت آخر من بيوت قريش وكان معروفا بحدة الطبع كما كان حتى لحظة اسلامه من أشد أعداء الدعوة المحمدية .

وتروى القصة ان عمر مضى ذات يسوم الى دار شقيقة له متزوجة وعندما دخل من الباب الخارجى سمع صوتا يقرأ شيئا لا يعرفه . واقتحم عمر الغرفة فرأى صهره وشقيقته يجلسان معا فبادرهما قائلا وهو غاضب «ما هذا الصوت الذى سمعته ؟» فرد الاثنان معا «لاشىء» مع انهما كانا يتلوان فى الحقيقة سورة «طه» من القرآن . وانبرى يوجه اليهما السباب، وقد استشاط غضبه فضرب صهره وركله بقدمه ثم لطم شقيقته على وجهها . وفجأة رأى الدماء تنزف من أنفها وفمها وسرعان ما هدا غضبه وراح يقول لهما بهدوء وحنان انه يود أن يرى ما كانا يقرأانه وانه تأثر بالغ التأثير بما سمعه منهما . وأمسك صهره بيده ومضى به الى محمد الذى تقبل اسلامه ولم يمض عشرون عاما على هذا الحادث حتى كان عمر ابن الخطاب قد غدا أعظم حاكم فى العالم .

وعلى الرغم من ان اسلام هذين الرجلين قد شجع النبي الا انه فى الوقت نفسه حفز كبراء قريش على أن يوسعوا من نشاطهم ضد الدعوة الاسلامية . وخافوا أن يؤدى اغتيالهم المسلمين من القرشيين الى منازعات دموية فى المدينة ولا سيما مع بنى هاشم . وقررت قريش مقاطعة بنى هاشم . ويبدو ان كل عشيرة كانت تقيم فى حى خاص بها فى مكة . ويبدو ان بنى هاشم كانوا يحتلون واديا ضيقا يقبع وراء صنخور أبى قبيس الشاهقة التى تطل على المدينة . وقد أقام بنو هاشم فى هذا الوادى أو الشعب حيث قاطعتهم قريش بعد أن التزموا فى صحيفة كتبوها بالآل يشتروا شيئا من بنى هاشم أو لا يبيعوهم شيئا ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم وأن يتجنبوا الحديث اليهم . ويبدو ان المشاعر القبلية كانت قوية الى الحد الذى دعا بنى هاشم جميعا الى الانحياز الى أبى طالب والاذعان للمقاطعة . على أن يتخلوا عن محمد على الرغم من أن معظمهم لم يكونوا قد آمنوا بدعوته ولم يخرج عليهم الا أحد أعمام الرسول وهو أبو جهل(١) الذى انضم الى قريش وظاهرهم وأوقدت قريش الى الحبشة

(١) أخطأ المؤلف ثانية فذكر أبا جهل وهو ليس بعم الرسول والمقصود فى الحقيقة

(المعرب)

عمه أبو لهب .

رجلين(١) من رجالها لاقتناع النجاشي برد مهاجري المسلمين الى بلادهم ولكن البعثة منيت بالفشل . وهكذا انقضت السنة السادسة منذ بدت الدعوة والرسول مازال عرضة في كل مكان للزراية والسخرية والاضطهاد من قومه ، في حين كان قسم من أتباعه لا يزالون يقضون حياتهم في المنفى في الحبشة أما الباقيون فمحاصرون في بيوتهم في مكة .

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات ولم تؤد في النهاية الا الى تحول المشاعر نحو بنى هاشم والعطف عليهم ولا سيما أن بعض هؤلاء المحاصرين لم يكونوا من المسلمين وان لم تتبدل مشاعرهم تجاه الرسول نفسه فقد تقرر في النهاية الغاء المقاطعة . واصبح محمد ثانية حرا طليقا في الانتقال في المدينة حيث يشاء . وفي هذا الوقت بالذات أعلن النبي ذات صباح انه أسرى به في الليلة الفائتة من مكة الى القدس حيث عرج منها الى السماء والتقى بالانبياء والرسل كآدم وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم حتى وصل الى سدرة المنتهى . وقوبلت هذه الرواية بالسخرية من المشركين من أبناء قريش وبالايمان العميق من أتباعه وفي مقدمتهم أبو بكر .

وفجع الرسول وهو يعاني في دعوته كل هذه الآلام بفجعتين شخصيتين ففي ديسمبر (كانون الاول) عام ٦١٩ توفيت شريكة حياته الامينة خديجة ففقد بوفاتها ماكان يلقاه عندها من حب وحنان وعطف وتشجيع . ولم يمض الا شهر واحد على هذه الفجيعة حتى كان عمه وحامييه أبو طالب الوقور ينتقل بدوره الى الرفيق الأعلى ، وأحس محمد بهول الفاجعة فلقد ظل هذا العم له نحو من أربعين عاما بمثابة الوالد الحنون والحامي الأمين . وعلى الرغم من أن أبا طالب لم يقتنع برسالة ابن أخيه السماوية الا انه احتمل الوعيد والتهديد والخطر والحسائر المادية في سبيل وقاية محمد من غل أعدائه وحقدهم .

وبدا مركز الرسول واهنا ويائسا في هذه الآونة . فلقد كان نفوذ أبى طالب هو الذى وحد بنى هاشم في الدفاع عن محمد ، وانقضى طويل وقت دون أن يتحول الى الاسلام نفر جديد . والمسلمون مهدزون بالفجار غضب قريش في أية لحظة من اللحظات وقد يؤدي هذا التفجر الى ابادة

(١) يقول المؤلف ان احد الرجلين هو عمرو بن العاص الذى فتح مصر فيما بعد وهذا صحيح اما الرجل الثانى ولم يذكره المؤلف فهو عبد الله بن أبى ربيعة .
(العرب)

المسلمين المنشقين على قريش • وبدأ أن مناعة قريش على الدين الجديد من النوع الذي لا يمكن أن يخرق •

وكانت مدينة الطائف تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة في واد في سلسلة جبال الحجاز العالية • وتقيم قبيلة ثقيف في هذه البلدة • وراح محمد يرتحل راجلا الى هذه البلدة لا يصحبه الا زيد ولده بالتبني ليدعو أهل البلدة الى الاسلام • وقصد اول ما قصد ثلاثة من رؤساء الطائف • ولكن حديثه اليهم لم يترك أثرا في نفوسهم وانما ردوا عليه ساخرين : « اذا كان لابد لله أن يبعث رسولا أو لم يستطع أن يجد من هو خير منك لحمل رسالته ؟ » وعاد يجرب حظّه مع أهل البلدة في شوارعها فهزئوا به وسخروا منه وراحوا أخيرا يرشقونه بالحجارة مما اضطره الى مغادرة البلدة ناجيا بروحه والدماء تنزف من جراحة الكثر ولا معين له الا رفيقه الامين زيد الذي أصيب بدوره بعدة جراح • ولا ريب في أن الرسول شرب في ذلك اليوم كأس الأذى حتى الثمالة ويقال انه هتف بربه شاكيا له أذى الناس وطالبا رحمته وعونه • ولا ريب في أنه عاد مرتعدا الى بيته في مكة • ولم يخرج منه بعد ذلك الا فيما ندر الى الشوارع والاماكن العامة (١) •

وكان موسم الحج قد بات وشيكا وفي مثل هذا الموسم يفد الناس افواجا من انحاء الجزيرة العربية الى مكة ليحجوا الى كعبتها • ولما يثس من هداية أهله من قريش انصرف يحاول هداية بعض الوافدين من الحجاج • وانتهاز فرصة لقائه بسبعة رجال من يثرب (المدينة المنورة) فدعاهم الى الجلوس معه في ناحية ليتحدث اليهم في هدوء عن أمرهم (٢) • وكان أهل يثرب أخواله اذ يذكر القاريء أن جده الاول هاشما كان قد بنى بامرأة من أهل تلك المدينة • وأعرب الرجال السبعة بعد أن استمعوا طويلا اليه عن اقتناعهم بصحة رسالته • هنا سألهم

(١) رواية كاذبة مختلقة تجمع على كذبها كل كتب السيرة • فقد روت كلها ان الرسول عندما عاد الى مكة أرسل الى المطعم بن عدي يخبره انه يدخل مكة في جواره ، فأتجابه الى ذلك ثم تسلم المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث الى رسول الله أن ادخل ، فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله وفي ذلك يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول في وثاء المطعم لما توفي :

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا هيبك مالبي مهل واحرما

(٢) ستة رجال لا سبعة ... بذلك قالت كتب السيرة •

(العرب)

الرسول عما اذا كان ممكنا أن يهاجر الى يثرب ليعيش في حمايتهم (١) . ولكنهم ردوا عليه ردا حذرا وكان أهل المدينة يتفرعون الى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكانتا في حالة نزاع مستمر ، ولم يكن قد مضى أربع سنوات على نشوب معركة حامية الوطيس بينهما وهكذا لم تكن الحياة قد استقرت بعد في المدينة وتردد هؤلاء في أن يعددوا محمدا بحمايتهم .

وقد وقع هذا الحديث مع رجال يثرب في مارس عام ٦٢٠ ميلادية وانقضى عام آخر في حالة من القلق والترقب . وحل موسم الحج أخيرا واجتمع اثنا عشر رجلا من أهل يثرب الى النبي في واد ضيق في الجبال الواقعة الى الشرق من مكة . وقد أعلن هؤلاء ايمانهم بمحمد واقسموا على ألا يعددوا الا الله والا يطيعوا الا أمر نبيه . وان يمتنعوا عن نواهيهِ وبينها السلب والزنا وأد البنات والكذب . كان الرسول يعدهم بأنهم اذا عملوا بهذه الشروط فان مثواهم الجنة في الحياة الاخرى وقد اُسِميت هذه البيعة ببيعة العقبة (٢) ، وهو اسم الشعب الصغير الذي تم فيه أخذ الموائيق .

ولم يكن كسب اثني عشر رجلا الى الاسلام في بلدة تقع على بعد مائتين وخمسين ميلا عن مكة بالشئ المثير حقا . ولكن هؤلاء المسلمين الجدد عادوا الى يثرب يلهمهم حماس الايمان وشرعوا يكسبون الى صفوفهم المزيد من المسلمين من رجال الأوس والخزرج . يضاف الى هذا ان حالة الامن في البلدة قد تحسنت . فلقد ارتضت القبيلتان برئيس واحد هو عبد الله بن أبي ووضعتا بذلك حدا لعدائهما المستمر وأوفد النبي مصعب بن عمير من قريش وهو أحد المسلمين الأوائل الى المدينة ليعلم أهلها الدين الحنيف .

(١) هذه رواية كاذبة اخرى . فالرسول كما تجمع كتب السيرة لم يطلب الهجرة الى المدينة ولا سيما في ذلك اللقاء الاول فقد وقع بعد ذلك اللقاء بعام أي في موسم الحج التالي لقاء ثان مع اثني عشر رجلا من أهل المدينة في العقبة يبايعوه على الاسلام ببيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وبعث معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وفي العام التالي أثبل مصعب على رأس جمع كبير من المسلمين واجتمعوا في الشعب عند العقبة الى النبي (ص) وكان عددهم (٧٢) رجلا وامرأتين . وجاءهم النبي ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو لا يزال على دين قريش . فدعا المسلمون من أهل يثرب النبي الى الهجرة الى المدينة فلم يقبل بها الا بعد أن أخذ عليهم اليهود والموائيق وبعد أن أكدها (١٢) تقييما من الأوس والخزرج كانوا بمثابة الكفلاء .

(٢) هذه بيعة النساء وليست بيعة العقبة كما أوردنا في الهامش السابق .

(الحرب)

وانقضى عام طويل آخر فى مكة • لكن اليأس لم يعرف طريقه الى محمد فقد تركزت أفكاره الآن على يثرب • ولم يقم بأية محاولة جديدة فى مكة فى هذه الآونة للتبشير بديانته جهرا (١) • وهدأت سورة قريش بعض الشيء وانصرفوا من جديد الى أمور تجارتهم وتكديس ثرواتهم •

وحل موسم الحج من جديد فى مارس عام ٦٢٢ • ووفد مصعب من يثرب الى مكة قبل الحج بأيام لينقل الى النبى انباء النجاح الذى حققه • وتم اعداد اجتماع بين النبى وبين أهل المدينة فى اليوم الاخير من الحج • وكانت طقوس الفريضة قد انتهت • وكان من المقرر أن تنفر قوافل الحجاج خفافا عند الفجر تضرب الصحراء طولا وعرضا عائدا الى بلادها • ووقع الاختيار على نفسه الشعب الصغير نفسه المسمى «بالعقبة» والواقع على بعد نحو من أربعة أميال من مكة وسط الجبال ليكون مكان اللقاء على أن يتم الاجتماع قبل ساعة من منتصف الليل • ووصل النبى راجلا يصحبه عمه العباس • وهنا تتجلى العصبية العائلية من جديد اذ ان العباس الذى كان الرفيق الوحيد لمحمد فى هذه المخاطرة الغريبة كان لا يزال من المشركين • وأقضى الرجلان على بساط الصحراء فى هداة الليل العميق • ولم تمض هنيهة حتى أخذ أهل يثرب يتوافدون أزواجا أزواجا ليتجنبوا العيون والارصاد • واجتمع ثلاثة وسبعون رجلا فى الوادى المدلهم الذى لا يضيئه الا قمر الصحراء يبعث بشعاعه الفضى • وراح احدهم يروى فيما بعد قائلا «...» « أخذنا ندب الى المكان كالقطا لنجتمع الى رسول الله » •

وبعد ان خطب النبى فى القوم دعاهم الى ان يقسموا على الاخلاص له وعلى أن يتولوا حمايته فى يثرب اذا وفد اليهم • وكان البراء بن معرور وهو من سادة يثرب من أول الدين اقساموا على أن يمتنعوا الرسول وسرعان ما لحق به الرجال الاثنان والسبعون يمرون فرادى بمحمد فى ظلمة الليل فيمسك الواحد منهم بيده ويهزها قائلا «... أنا منك وانت منى...» ورد النبى فى النهاية هاتفا «أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم » • واختير اثنا عشر رجلا من صفوة القوم ليكونوا كفلاء على عهد قومهم ، تقليدا كما يظهر ، لحواصلى عيسى بن مريم وكان ثلاثة منهم من الاوس وتسعة من الخزرج • وتفرق المسلمون بهدوء بعد ذلك وعادوا

(١) ليس ثمة من دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تقاسم عن دموته اذ ترانى فيها ولكن استجابة قريش لها كانت بطيئة ومن هنا كان العدد القليل من المسلمين الذين أقبلوا على الدين الجديد فى هذه الفترة • (العرب)

كما جاءوا أزواجاً ، وأطلق على هذه البيعة في التاريخ الاسلامي اسم بيعة العقبة الثانية . وقدر لهؤلاء السبعين بدويًا عربيًا الذين اجتمعوا على مسيل ماء في مكان ناء من ارض العرب ان يغيروا مجرى التاريخ العالمي .

تواريخ مشهورة

بعد الميلاد

٤٤٠	تم الأمر لقصى في مكة
٤٩٧	ولد عبد المطلب جد النبي
٥٢٢	احتل الأحباش اليمن
٥٧٠	عام الفيل - ولادة النبي
٥٧٨	وفاة عبد المطلب - محمد في رعاية عمه ابي طالب
٥٩٥	زواج محمد بخديجة
٦١٠	نزول الوحي
٦١٥	هجرة المسلمين الى الحبشة
٦١٩	وفاة خديجة
٦٢٢	بيعة العقبة الثانية

شخصيات مشهورة

جد النبي	عبد المطلب
عم النبي	ابو طالب
زوجة النبي	خديجة
ابن عم النبي نشأ في بيته	علي بن ابي طالب
ابن النبي بالتبني	زيد بن حارثه
صديق النبي	ابو بكر الصديق
شخصيات	عمر بن الخطاب
اسلمت ولعبت	عثمان بن عفان
دور في التاريخ الاسلامي	الزبير بن العوام
	حمزة
	سعد بن ابي وقاص

دلو البئر

« وجد النبي الذي لا كرامة له في عشيرته الولاء
والاجلال في مدينة الهجرة . واخذ النبي يظهر تكريجيا
في صورة جديدة . قال النبي المصطهد يتحول الآن الى
معارب ظافر . واذا فشلت نذر النبي وبشائره في
اقتناع قريش فان سلطان الفاتح سسيهم على
الاقتناع »

فريمان - تاريخ العرب

* * *

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالرف
من الملائكة مردفين »

القرآن الكريم - سورة الانفال

* * *

« قد كان لكم آية في فتنتين التقتا ، فئة تقاتل في
سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ،
والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي
الابصار » .

القرآن الكريم - سورة آل عمران

أصدر محمد أمره بعد أيام من بيعة العقبة الثانية إلى اتباعه بالهجرة سرا وفي جماعات صغيرة إلى يثرب . وكانت غالبيتهم من الفقراء ولم يتمكن الا قلة منهم من الحصول على الابل فكان يركب البعير الواحد منهم رجلا . واضطر الكثيرون منهم إلى قطع المسافة التي تقع في (٢٥٠) ميلا راجلين . ولم تنقضى سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبي بكر الصديق . وارتد عن الاسلام نفر خوفي من أهلهم ، بينما حال هؤلاء دون هجرة نفر آخر (١) . وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمدا أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبي طالب كبير بني هاشم الذي انتقل كما روينا إلى الرفيق الأعلى .

وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون في يثرب الآن مجتمعا متلاحم الوشائج خارجا على نفوذهم وبعيدا عن متناول أيديهم ، وأنهم شرعوا يكسبون الانصار إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش ، واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد . ورأى بعضهم أن محمدا هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب وإن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب . وأعد أبو جهل عم النبي (٢) والذي كان قد خرج على بني هاشم أبان المقاطعة وكان من أشد خصوم النبي واعدائه خطة لقتل النبي والحلاص منه . واقترح أن تختار كل قبيلة من قريش شابا من فتياتها ، وأن يشترك هؤلاء جميعا في قتله ليتفرق دمه في القبائل كلها فلا يستطيع بنو هاشم حرب القبائل مجتمعة ثارا لمحمد ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع النبي فخرج من داره إلى أبي بكر ، وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابته إليها ثم هيا ما يلزم لهذا السفر . وأمر

(١) ليس هناك أي تأكيد لادعاء المؤلف بأن نفرا من المسلمين قد ارتدوا عن الدين في هذه الأونة .

(العرب)

(٢) يمر جلوب على خطته الكبير في الخلط بين أبي جهل وأبي لهب وتسمية الأول

(العرب)

بعم النبي .

النبي ابن عمه عليا وكان قد بلغ الآن العشرين من عمره بأن يتسجى ببرده وان ينام مكانه لتلا يرتاب أحد في وجوده بيته ٥ وعندما جن الظلام خرج النبي وصاحبه أبو بكر من خوخة لابی بكر فى ظهر بيته وراحا يتسلقان الصخور فى بطن الجبل المسمى بجبل ثور ، والواقع بأسفل مكة حيث قررا أن يلجئا الى غار هناك يقيمان فيه حتى تهدأ الضجة وتعدل قريش عن طلبهما . وكان أبو بكر قد أعد للامر عدته وأمر ابنته أسماء أن تاتى اليهما بالطعام فى كل مساء بعد ان يجن الدجى كما أمر ابنه عبد الله بالبقاء فى مكة يتسمع لهما الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر واتماما للخطلة امر مولاه بأن يرمى غنمه نهاره مارا بها أمام الغار ليعفى اثر عبد الله وأسماء ، وهيا فى غضون ذلك راحلتين على استعداد فى كل لحظة للسفر . وحمل أبو بكر وهو التاجر الحصيف معه كيسا من النقود أما محمد فلم يحمل معه شيئا لأنه لا يحسب للمال أى حساب . وكان الرجلان من أبناء المدينة ولا علم لهما بالصحراء ودروبها ، ولم يكن من السهل عليهما أن يعرفا طريقهما الى المدينة إلا اذا اتبعا طريق القوافل المالوف ولهذا قرر أبو بكر أن يستاجر دليلا يرشدهما الى الطريق وهو من الذين سبق لهم التعامل مع أبى بكر وان كان من المشركين .

ولم يكد رجال قريش يسمعون بفرار محمد حتى هاجوا وماجوا وبعثوا بالرسل فى طلبه الى كل مكان وجعلوا لمن يأتهم به حيا أو ميتا مائة ناقة . وكان فى مكة العائلة البدوية الواحدة ان تعيش على خمس نياق ، ولهذا كانت الجائزة كافية لخمس أسر . ولم يكن المكيون أنفسهم خبراء فى الصحراء ومسالكها ومجاهلها بحيث يستطيعون القيام بالبحث عنه بأنفسهم . واستمرت ضجة البحث ثلاثة ايام بلياليها . وجاء عبد الله ابن أبى بكر فى نهاية اليوم الثالث ينبئهما بأن الطلب فى أثرهما قد هدا وأن فى مكنتهما أن يبادرا بالرحيل فأمره أبوه بأن يأتى بالراحتين فى اليوم التالى .

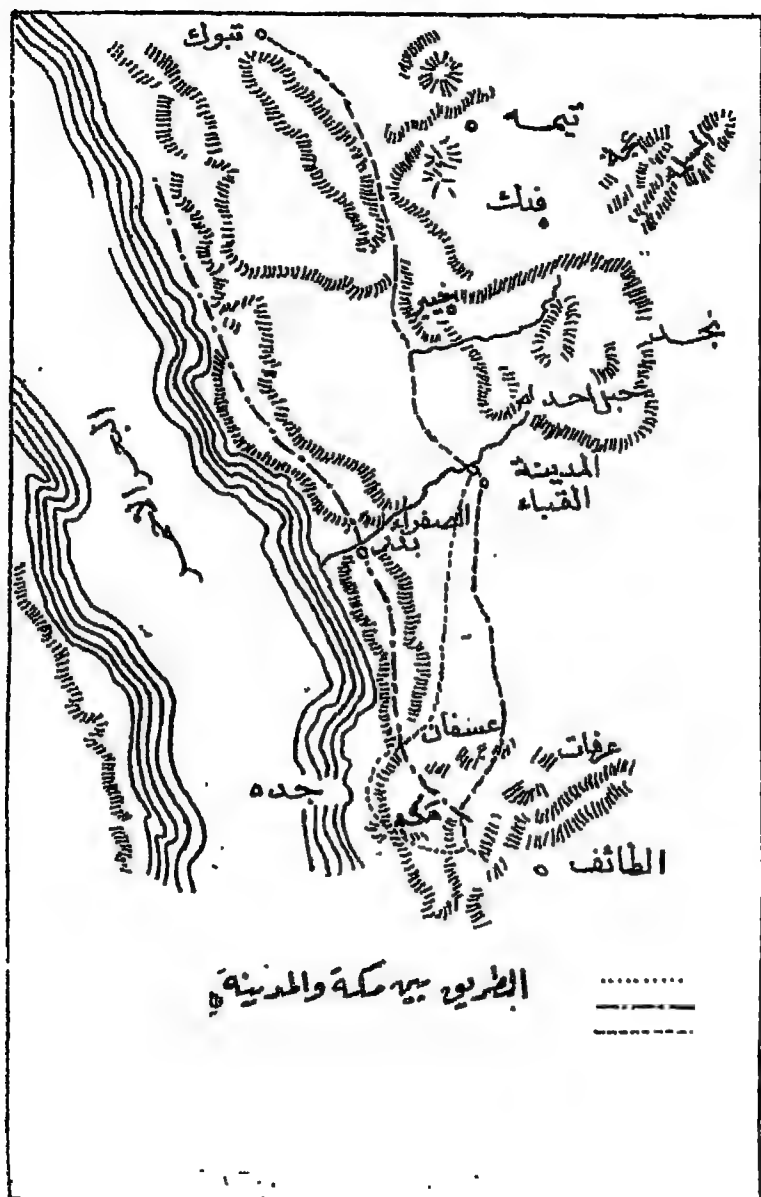
ووصلت ثلاث رواحل فى المساء التالى بعد أن جن الليل الى فتحة الغار وكانت أسماء قد حملت معها بعض الطعام وحزمته الى احدى الرواحل بنطاقها وامتطى الدليل بعيره . وحمل أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة خلفه واستقل النبي البعير الثالث . ومضى الركب فى طريقه يهبط مع الجبل نحو الساحل، وقد سار الدليل فى المقدمة وبعد مسيرة طويلة نحو الغرب تحرك الركب نحو الشمال مع الساحل ليعود من جديد فيقطع طريق القوافل عند عسفان ويتبع طريقا غير مطروق عبر التلال . ويقال ان فارسا

من العرب قد تمكن من اللحاق بالركب • وكان يطارده طمعا فى الجائزة التى رصدها قريش ولكن النبی ورفيقه تمكنا من اقناعه بعدم افشاء طريقهما الى قريش • على أى حال لم تكد أنباء الطريق التى سلكها الركب تصل الى مسامع قريش حتى كان النبی وصاحبه قد أصبحا فى نجوة من المطاردة •

وكانت أنباء خروج الرسول من مكة قد حقيقته الى المدينة ولم يكن المهاجرون قد عرفوا بأمر اختفائه فى الغار أربعة أيام فلما انتهت المدة التى قدروها لوصوله الى المدينة ولم يكن قد وصل بعد عمهم القلق • وكانوا يخرجون فى كل يوم فيرتقون الجبل الى الجنوب من المدينة يتطلعون بلهفة الى الافق البعيد فى الطريق الداهب الى مكة يحرقهم الشوق الى رؤية الركب • وما كانوا ليعودوا الى المدينة الا فى الهاجرة عندما يشتد وهج الشمس ويكثر السراب قاطما الرؤية الى مسافات بعيدة • وبعد ظهر الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) عام ٦٢٢ ميلادية (١) قطع المسافرون المجهدون المرحلة الأخيرة عبر الجبال الصخرية الجرداء التى تغطى سفوحها فى هذا المكان صخور بركانية سوداء لانبات فيها ولا طير ولا عشب ولا شجر •

وعندما اجتازوا أخيرا المضيق امتدت أمامهم مناظر وروى مختلفة كل الاختلاف فبدلا من مكة القاحلة التى الفوها بشعابها الصخرية الجرداء رأوا أمامهم يثرب وقد أحاطتها الآبار والينابيع وأبصروا بواد تقع فيه المدينة وقد اكتظت فيه أشجار النخيل وامتدت على مرأى البصر الحقول المزروعة الخضراء تبعث المراحة فى النفس والطمأنينة الى البصر بعد أن كاد يعشى من وهج الصحراء • وامتدت فوق ذلك الوادى الواسع مساكن لا عد لها ولا حصر تقع فى مجموعات تقيم فى كل مجموعة منها تكاد تشبه القرية القائمة بنفسها عشيرة من العشائر التى تؤلف أهل المدينة • وقد أحاطت كل منها قريتها بالحصون والقلاع المبنية من الحجر والطين • ولا ريب فى أن هذا الوادى الخصيب يوحى بعد الصخور المحرقة والقمم الجرداء السامقة بالوفرة والامن والطمأنينة والرضا • ومضت القافلة الصغيرة خبيبا الى قباء ، الواحة الأولى من واحات يثرب كانت المدينة مأهولة عندما هاجر اليها النبی بقبائل عدة منها العربية ومنها اليهودية • (أرى من الاسهل التمييز بينها على هذا النحو ، وان كان من يدعون باليهود قد لا يخرجون عن كونهم عربا تحولوا الى

(١) يجمع مؤرخو العرب على أن وصول النبی الى المدينة كان يوم الجمعة فى الثانى عشر من ربيع الاول المصادف ٢٤ سبتمبر (ايلول) عام ٦٢٢ ميلادية .
(العرب)



اليهودية) . وكان اليهود ينقسمون الى ثلاث قبائل تعمل الثنتان منها في الزراعة وتعيش على زراعة النخيل والحبوب أما الثالثة فتضم فنيين يعملون في صياغة الذهب والفضة وصناعة الاسلحة . أما العرب فكانوا قبيلتين ، الأوس والخزرج ولم تكن قد انقضت أربع سنوات على توقف الحرب بينهما ليحل محلها السلام وليصبح للقبيلتين رئيس واحد هو عبد الله بن أبي يتولى قيادتهما وزعامتهما معا .

وهكذا كان عبد الله بن أبي عند وصول الرسول أقوى زعيم عربي في واحة يثرب كلها ويبدو ان ابن أبي هذا لم يعترض على مجيء النبي في البداية اذ كان مهاجرا لا حول له ولا طول . وعلى الرغم من أنه ينتمي الى الخزرج فلقد رفض عندما نشبت الحرب بينها وبين الأوس ان يشترك مع قبيلته وظل يعمل من أجل السلام والتفاهم ، ولا ريب في ان الشهرة التي اكتسبها بحياده واعتداله هي التي اقنعت القبيلتين بقبوله رئيسا لهما معا . ولكن عبد الله هذا ما لبث ان وجد نفسه بعد ان اخذ نفوذ النبي في التزايد والقوة وقد انتقل الى مرتبة ثانوية . ومن المحتمل ان تكون الغيرة قد لعبت دورها في نفسه . ولكن الشيء الثابت ان حقدًا خفيا تولد في نفسه على المسلمين وعلى الرغم من أنه تحول الى الاسلام بعد قليل الا ان النبي كثيرا ما ساورته الشكوك فيه وبأنه ينشر الشائعات والدسائس ضد المسلمين . ويبدو ان الاشارات الكثيرة عن المنافقين التي وردت في أوائل السور القرآنية المدنية انما كانت ترمز الى عبد الله ابن أبي ومؤيديه .

ولم تجهر قبائل اليهود بعدائها للنبي منذ بداية الامر ولا سيما أن محمدا كان قد أعلن أن العقيدة التي يبشر بها ويدعو اليها ليست الا ملة ابراهيم حنيفا . وكان المسلمون حتى تلك الساعة يتوجهون في صلاتهم الى القدس ، كما كان النبي ميلا كل الميل الى التواد معهم ولذا فقد عقد معهم اتفاقا يقضى بالتعاون المتبادل .

وعم الفرع المهاجرين بوصول النبي سليما معافي وهو فرح سرعان ما اشترك فيه عرب الأوس والخزرج الذين كان معظمهم لا يزال على الشرك . ولم يكن في وسع اليهود ان يرفضوا ايواء المسلمين في يثرب فحق الجار في المنعة والحماية حق مقدس يفرضه الشرف على جميع القبائل العربية . وانتشرت الانباء السارة بوصول النبي سالما كالبرق بين المهاجرين والأنصار . وهرع الناس من كل فج والفرجة تعلق وجوههم يهتفون بصوت واحد . . . «لقد أقبل . . . لقد أقبل» وانتقلت هذه العبارة من شفة الى شفة وكأنها الرسالة السحرية .

وعلى الرغم من هذا الاستقبال الودى والسعيد فإن الرسول كما يبدو كان على علم بطبيعة وضعه الغريب فى المدينة ولم يكن عدد المهاجرين يربو على السبعين رجلا . أما عدد الانصار من أهل المدينة فكان يزيد على عددهم . وكان معظم المهاجرين لا يملكون شيئا فقد نجوا من بلدتهم بجلودهم مخلفين وراهم كل ما يملكونه . وقد يقع الاحتكاك بسهولة بين الجماعتين ، ورغبة من محمد فى عدم وقوع أى خلاف آخر بين المهاجرين والانصار كتب عهدا بينهم كما كتب عهدا للمجتمع الاسلامى الجديد أكد فيه أن جميع المسلمين يؤلفون جماعة واحدة وان على كل مسلم أن يقف الى جانب أخيه المسلم والانصر مشركا عليه . وعنى هذا التنظيم الغاء العصبية العائلية والقبلية القوية وان يستعاض عنهما بتضامن يشمل المجتمع الاسلامى كله .

وابتاع أبو بكر بأمواله بعد أيام بستانا من بساتين النخيل على مقربة من وسط الواحة . وبدأ العمل فى بناء المسجد وبناء دار (لا نعتقد أنها أكثر من مجرد بيت صغير عادى) يقيم فيها الرسول . وراح المهاجرون والانصار يعملون معا فى بناء المسجد وهم ينشدون وهم يضعون الطوب واحدة فوق أخرى وعلى رأسهم النبى وقد تعالى انشادهم قائلين : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة ... اللهم أرحم الانصار والمهاجرة » .

وأراد محمد أن يضرب المثل لرجاله فشرع ينشد معهم ويشترك فى البناء ويتولى على بن أبى طالب قيادة الجمع فى النشيد .

والحداء عند العرب أثناء العمل كأغاني البحر عند الملاحين ، عادة قديمة قدم التاريخ كله . ويبتكر كل واحد من الذين يعملون بيتا ينشده فيرده الآخرون معه وكأنهم أفراد جوقة موسيقية الى أن يقوم آخر فيطلع ببيت جديد ينتقل اليه المنشدون ولا ريب أن كل من رأى جماعات من العمال العرب ينشدون ابان ادائهم العمل يستطيع ان يتخيل او يتصور هذا المنظر الجميل .

وكان النبى ذا مزاج رقيق ومولعا باطلاق النعوت والاسماء ولذا فقد أطلق على مسلمى المدينة اسم الانصار وعلى لاجئى مكة اسم المهاجرين وقد قدر لهذين الفريقين اللذين لم يرب عدد أفرادهما على بضع مئات أن يؤلفا ولعدة قرون الطبقة الارستقراطية فى الاسلام وان تتردد أسماءهم على كل شفة ولسان فى العالم الذى يضم ملايين المسلمين .

ولم يمض طويل وقت على وصول النبي الى المدينة حتى كان يبني بعائشة ابنة صديقه أبى بكر الذى رافقه فى هجرته من مكة ، وتقول كتب التاريخ العربى : انها كانت فى التاسعة من عمرها عندما تزوجها النبي وكان فى الثالثة والخمسين . وقد تزوج الرسول قبل وفاته بأحدى عشرة امرأة لكن هذه الحقيقة يجب ألا تعزى مطلقا الى ان النبي كان مغرقا فى حياته العاطفية فلقد ظل خمسا وعشرين سنة الزوج الوفى المخلص لامرأة واحدة هى خديجة مع أنها تكبره سنا وانما لأسباب أخرى بعضها سياسى وبعضها شخصى ، فلقد كانت عائشة هى الشابة الوحيدة التى اختارها . أما الباقيات فكن أرامل . وقد اختارهن الرسول كما يبدو لدوافع سياسية لتوثيق الصلات بينه وبين الاسر التى ينتسب اليها . وتظهر الحقيقة الواقعة وهى أن معظم زيجاته قد تمت فى خمسينات حياته ، ان من الدوافع أيضا رغبته فى أن تلد احدهن له ولدا يظل على قيد الحياة اذ من المعروف عنه انه كان مولعا بالاولاد .



وكان النبي قد أظهر طيلة الاثنى عشر عاما التى انصرفت منذ بلده الرسالة فى مكة درجة غير عادية من الصبر والاحتمال لكل ما وجه اليه من أذى وسوء معاملة . . أما الآن فقد تحولت طبيعته تمام التحول . وراح يقول للمسلمين ان الوحي قد أمره بفرض الجهاد على المسلمين ضد المشركين . وكان موقع المدينة من الناحية السوقية (الاستراتيجية) يمكنها من أن تكون قاعدة صالحة للعمليات الحربية ضد مكة .

ولقد سبق لى أن أوضحت ان مكة كانت تعيش فى هذا الوقت بالذات على تجارة القوافل بين اليمن وسوريا أما أهل المدينة فكانوا يعيشون حياة مغايرة تماما لحياة أهل مكة : اذ بينما تقوم المدينة الاخيرة فى واد ضيق تحرقه أشعة الشمس اللاهية بين سلاسل التلال الصخرية الجرداء من كل نبات ، كانت المدينة تقبع فى منخفض أوسع ترويه مياه الآبار وكان أهلها يعيشون على ما تنتجه حقولهم الخضراء وبساتينهم فى حين كان أهل مكة القاحلة يعيشون على مغامراتهم التجارية التى تمتد الى مسافات بعيدة .

ولقد وقع حادث بعد وصول النبي الى المدينة يشرح لنا شرحا وافيا جهل أهل مكة بالشتون الزراعية . فالمعروف ان أشجار النخيل على نوعين منها الذكر ومنها الأنثى . ويتسلى الزارع فى كل عام الشجرة الذكر فيأخذ منها لقاحها ليطعم به الأشجار الاناث . ولم يكن النبي قد سمع

بهذه العملية من قبل وعندما وصل الى المدينة راح يأمر بمنعها وبالطبع لم تثمر أشجار أولئك الذين أطاعوا أمر الحظر مما دعا النبي الى الغائه والاقرار بعدم معرفته بالشتون الزراعية (١) .

وتتألف السواحل الغربية للجزيرة العربية من سهل ساحلي يضيق عرضا ويتسع طولا وتقوم وراه سلسلة من الجبال الجرداء ذات القمم العالية تقوم وراهها هضبة نجد الفسيحة الواسعة التي تمتد نحواً من ستمائة وخمسين ميلا لتهبط بصورة متدرجة باتجاه الخليج العربي . وكانت قوافل المكيين تتجه شمالا الى سوريا على طول الطريق الممتد في السهل الساحلي مارا بين المدينة وساحل البحر الأحمر وهي فجوة لا يتسع عرضها أكثر من ثمانين ميلا . ومن هنا كان مسلمو المدينة على مرهمي تستطيع القوات الضاربة استخدامه لقطع شريان الحياة التجاري الممتد بين مكة وسوريا .

وكانت الخطط السوقية التي اتبعها النبي بين عامي ٦٢٣ و ٦٣٠ هي عين الخطط السوقية التي أتبعها فيصل ولورنس في الحملة بين عامي ١٩١٦ ، ١٩١٨ . فلقد احتفظ الاتراك في الحرب العالمية الاولى بحاميات ضخمة في مكة والمدينة وكانت هذه الحاميات تعتمد في بقائها لا على قوافل الابل بل على الخط الحديدي بين المدينة ودمشق . وقد عزز الامير فيصل ولورنس مواقعهما الى الشمال من المدينة حيث كانا في وضع يمكنهما من قطع شريان حياتها مع سوريا .

لكن عمليات النبي العسكرية لم تبدأ على الفور على أى حال . فلقد انقضت ستة أشهر على الأقل قضاهما محمد في توطيئ المهاجرين في المدينة وفي تثبيت مكانته الشخصية بين أهلها .

لكن بعض المهاجرين كانوا قد أصبحوا في غضون ذلك في أمس الضيق والحاجة ، وكان بعضهم قد ترك أهله في مكة ولم يكن يجد مكانا يأوى اليه لينام الا في ساحة المسجد المكشوفة . وكان عدد منهم يعمل لحساب أهل المدينة وإن كانوا كما ذكرنا من قبل يجهلون كل ما يتعلق بالشتون الزراعية . وقد أحس النبي نفسه بما يعاينه اتباعه من ضيق وجوع . وكان في استطاعته بالطبع أن يحيا حياة أسعد ولكنه لم يكن

(١) لم ترد هذه القصة الا في كتاب واحد من كتب التاريخ الاسلامي في حين لم تثر اليها كتب السيرة الصحيحة ، مما قد يوحي باختلالها من قبل بعض الشعوبيين الذين تظاهروا بالاسلام ليحاولوا افساده .
(المغرب)

ليُربغ في أن يعيش في رخاء ودعة في حين أن أتباعه يتضورون جوعاً • ولقد ذكرت عائشة بعد سنوات طويلة أن بيت النبي كان يخلو اسبوعاً بعد اسبوع من الحطب اللازم لاشعال النار كما لم تكن هناك حاجة الى اشعال النيران اذ لم يكن في البيت ما يصلح لان يطهى وكان غذاؤه وأهل بيته التمر والماء •

وكان الغزو بالنسبة الى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز • ولقد تولت القيام بالغزوات الصغيرة الاولى جماعات صغيرة من المهاجرين • ولم يشترك أهل المدينة في هذه المشروعات لكن أهل مكة والمدينة على السواء لم يكونوا قد ألفوا العمليات الحربية • وهى العمليات التى يقضى فيها البدو الرحل أوقات فراغهم • ولا تعرفها الجماعات التى تعمل فى التجارة أو الزراعة • لكن أيا من الغزوات الاولى لم تحقق نجاحاً مذكوراً فلقد كانت أنباء الحملة تصل الى قريش قبل وقوعها فى حين كانت الانباء التى تصل الى المسلمين اما متأخرة أو مفترقة الى الدقة • وفى خريف عام ٦٢٣ ميلادية مرت قافلة كبيرة تضم نحواً من ألف بغير محملة بالبضائع التى تملكها قريش ويتولى قيادتها أبو سفيان أحد كبار أعداء النبي فى مكة قاصدة الشمال الى غزة • وقد حاول المسلمون قطع الطريق عليها فى ذهابها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك •

ولكن بينما كان رجال مكة والمدينة يعيشون فى هاتين المدينتين كانت الصحراء الفسيحة المكشوفة مأهولة بقبائل متفرقة من البدو وتعيش على الرعى • وبدأ النبي يدرك ان مساعدة هؤلاء البدو ضرورية لنجاح حملاته الصحراوية ولذا فقد شرع بصورة تدريجية يقيم علاقات معهم ولا سيما مع قبيلة جهينة التى كانت تقيم آنذاك كما تقيم اليوم بين المدينة والبحر •

وكان من المتوقع فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٢٤ ميلادية أن تمر قافلة أبى سفيان على مقربة من المدينة فى طريق عودتها من الشمال وقرر النبي أن يضع يده عليها • ولكن خطة النبي سرعان ما عرفت ووصل التحذير الى أبى سفيان وهو على مقربة من الزرقاء (فى شرق الاردن على بعد ١٠٠ ميل الى الجنوب من دمشق) فى طريق عودته من سوريا • وسرعان ما أوفد أبو سفيان رجلاً الى مكة يستنفر قريشاً الى حمل السلاح ويطلب اليهم أن يرسلوا قوة ملاقاته على مقربة من المدينة تتولى حراسة القافلة وحمايتها من الخطر •

وفي الثامن من يناير (١) (كانون الثاني) عام ٦٢٤ ميلادية خرج محمد على رأس قوة قوامها (٣١٤) رجلا منهم ثمانون من المهاجرين ومائتان وأربعة وثلاثون من الانصار من المدينة لقطع الطريق على القافلة . وكان المسلمون على درجة من الفقر بحيث لم يستطيعوا توفير أكثر من سبعين بعيرا وجوادين لاستخدامهما في الحملة ففي آمام الصحراء الفسيحة لم يكن في وسع المحاربين أن يقاتلوا راجلين وكان الافتقار الى الحيوانات يحد كثيرا من قدرتهم على الحركة .

وعندما وصل النبي بجيشه الى الصفراء التي تقع على بعد ستين ميلا الى الغرب من المدينة أوفد رجلين من عيونه يستطلعان أحوال الآبار في بدر على طريق القوافل الى سوريا وهي الطريق التي لابد لقافلة أبي سفيان من سلوكها . وسمع الرجلان من بعض النسوة وكن يملأن الجرار من البئر بأن من المتوقع وصول قافلة كبيرة في اليوم التالي فعادا بسرعة الى النبي ينقلان اليه ماسمعه ليتمكن من نشر قواته قبل الموعد المنتظر .

وبينما كان محمد على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقي من بدر ينتظر وصول كشافيه وتقريرهما كانت قافلة أبي سفيان على بعد مماثل من الآبار الى الشمال الغربي وكانت تسير ببطء نحوها مصحمة على الوصول اليها للسقاية من ماءها . لو واصل الفريقان سيرهما على النحو الذي كانا يسيران فيه آنذاك لالتقى المسلمون بالقافلة المكية على الآبار في اليوم التالي . ولكن أبا سفيان كان قائدا مجربا ومحكما للقوافل . وكان القلق قد استحوذ عليه اذ لم تصل اليه أنباء من الرجل الذي أوفده ولا عن الحامية التي طلبها من مكة لتتولى حراسته وأيقن ان الساعات الاربع والعشرين القادمة ستكون حرجة كل الحرج وخطرة كل الخطورة . وكانت بدر أقرب نقطة الى المدينة على الطريق التي يسير فيها . فقرر أن يمضي قبل القافلة الى بدر ليستطلع الوضع بنفسه . وعندما وصل الآبار وجد شيخ جهينة القبيلة البدوية التي تقيم في الناحية فسأله عما اذا كان قد رأى غرباء في المنطقة ورد البدوي بالنفي قائلا انه لم ير سوى رجلين على ناقتيهما غادرا المكان قبل قليل بعد أن وردا البئر . وترجل أبو سفيان عن ناقته كما يفعل أي مسافر في الصحراء ومشى حذرا الى البئر متطلعا الى الارض بامعان الى أن عثر على آثار البعيرين

(١) يقول الاستاذ الخضرى طبقا لتقويم محمد مختار الحري ان خروج النبي من المدينة كان في الخامس من مارس (اذار) عام ٦٢٤ . (العرب)

وهدهاء بحثه الى العثور على بعض روئهما ففركه بين أصابعه ووجد بعض نوى التمر فيه وسرعان ماميزه بأنه من أنواع التمر التى يثمرها نخيل المدينة . فلقد كان يعرف أن ليس فى البدو من يطعم بعيره تمرا . وقرر على الفور أن الرجلين لابد وأن يكونا من أهل المدينة وانهما من عيون محمد . الذى لابد وأن يكون قد نصب كمينه على مقربة لاصطياد القافلة . وراح أبو سفيان يمتطى بعيره ليغذ به السير عائدا الى قافلته التى تسب فى طريقها الى بدر ليلقاها قبل أن تصل .

وكان الرسول الذى أوفده أبو سفيان من سورية الى قريش قد وصل الى مكة وان لم يعلم بوصوله محمد أو أبو سفيان . وكان أهل مكة قد فزعوا على أموالهم فراحوا الى سلاحهم ينتصونهم والى ابلهم يركبونهم ليسرعوا الى انقاذ القافلة وخرجت من مكة قوة تضم سبعمائة وخمسين رجلا من راكبي الابل ومائة من الفرسان المدرعين بالزرد (١) وراحت هذه القوة تغذ سيرها على طريق القوافل الى بدر قادمة من الجنوب وهكذا كانت الفئات الثلاث تتقدم الى المكان نفسه والواحدة منها لاتعرف شيئا عن الاخرى .

والتقى أبو سفيان الداهية بقافلته على بعد بضعة أميال الى الشمال من بدر وأمر بتحويل اتجاهها غربا نحو الساحل وأخذ بعد ذلك يتابع السير فى الليل والنهار دون توقف مارا على بعد اثنى عشر ميلا الى الغرب من بدر ومتجها الى الجنوب بأقصى ما أمكنه من سرعة الى أن غدا فى نجوة من الخطر .

وبينما كانت القافلة تغلج فى الافلات من الخطر كانت قوة النبى المؤلفة من ثلثمائة رجل يتناوبون الركوب على السبعين بعيرا التى ترافقهم تتقدم ببطء نحو بدر انتظارا لوصول القافلة الضعيفة الحراسة اذ لم يكن يتولى حراستها أكثر من ثلاثين رجلا يواجهون ثلثمائة محارب من المسلمين ، ولكن قبل أن يصل المسلمون الى بدر قابلوا بعض المسافرين الذين أبلغوهم ان قوة من قريش تضم نحو من ألف رجل هى فى طريقها لانقاذ القافلة . وكان هذا أول نبأ وصل الى النبى عن أن قريشا قد استنفرت رجالها لحماية قافلتها المعرضة للخطر . وفزع النبى من هذه الأنباء ولا سيما أنه لم يكن قد عرض ولاء مسلمى المدينة لمحك التجربة

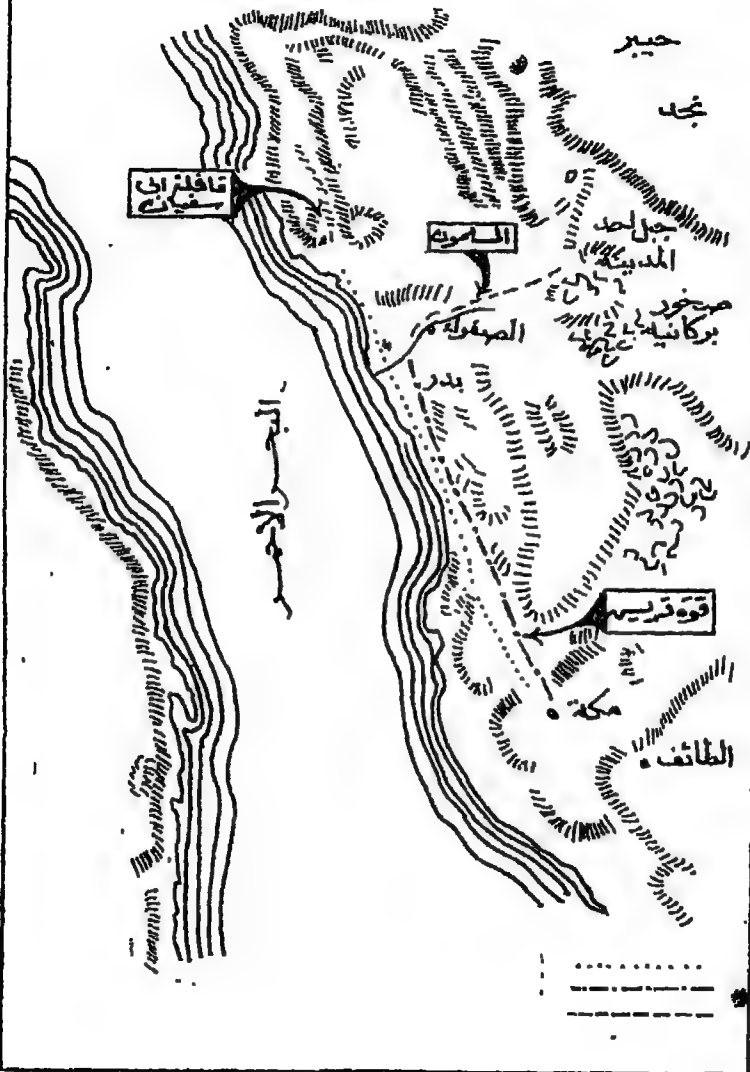
(١) قدرت كتب التاريخ العربى عدد محاربى قريش بألف ما بين فارس وهجان .
(العرب)

العملية بعد فعقد مجلسا عسكريا للتشاور فى الامر فأيدوا جميعا رغبتهم فى المضى الى القتال .

وعندما اقترب النبي من بدر أوفد على بن أبى طالب على رأس جماعة من الكشافين لاستطلاع الوضع فلما وصلوا البئر باعثوا رهطا من قريش كان يستقى الماء . وقال لهم هؤلاء ان رفاقهم قد وصلوا فى هذه اللحظة الى مسافة بضعة أميال فقط من البئر وانهم يقيمون على خط وراء التلال الرملية القريبة وهكذا وجد المسلمون امامهم بدلا من القافلة الكبيرة المغرية بثرواتها العظيمة قوة عسكرية تبلغ ثلاثة أضعافهم . ورابط المسلمون على أقرب بئر من العدو ضامنين لانفسهم السقاية من الماء ، ومانعين الماء عن قريش . وتراعى الجيشان ولم يكن من الحرب بد فى الصباح التالى وكان لابد للقوة المسلمة الصغيرة من أن تخوض المعركة مع قريش ، وسلمت راية المعركة بالنسبة الى المهاجرين الى مصعب بن عمير الرجل الذى كان النبي قد أوفده الى المدينة قبل سنتين لتعليم مسلميها الدين الحنيف . أما راية الخزرج فقد حملها الحباب بن المنذر فى حين حمل سعد بن معاذ من زعماء الأوس راية قومه .

وانتشر الاضطراب فى غضون ذلك فى معسكر قريش . وقد سبق لى أن أوضحت ما للعصبية القبلية من أثر عند العرب وبينت أن محمدا كان يلقي الحماية وهو فى مكة من بنى هاشم على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون من المشركين . وكان رسول أبى سفيان قد وصل الى مكة ليقول لاهلها ان القافلة قد أضحت فى نجوة من الخطر وانها تغدو السير فى طريقها الى مكة . وأشاد عدد كبير من القرشيين بالتراجع بدلا من أن يسفكوا دماء أبناء عموماتهم من المهاجرين . ولم تكن قوافل مكة التجارية ملكا خاصا للتجار الاثرياء فلقد كان فى وسع كل رجل من أبناء المدينة يستطيع أن يؤمن مبلغا من المال مهما صغر هذا المبلغ ، ان يبعث به مع أحد الموثوق بهم من أصحاب القافلة على أمل استثماره فى صفقة تجارية رابحة . وهكذا فان أى تهديد للقافلة يعنى تعريض كل ما وقره المكيون جميعا من أموال للخطر . أما وقد أصبحت ثروتهم الآن فى مأمن من الخطر فلم يعد هناك أى مبرر للقتال . فالمهاجرون الذين لحقوا بالرسول ينتمون الى جميع عشائر قريش وبطونها . ومن هنا كان تردد القرشيين فى خوض معركة لا ضرورة لها وتسفك فيها دماء اخوانهم وأولاد عموماتهم . لكن الفريق المؤيد للقتال ما لبث أن تغلب على المترددين وذلك بفضل

موقعة بدر



ما أبداه أبو جهل عم النبي (١) من اصرار ومن حماسة في حديثه ،
لمحاربة المسلمين .

وهكذا تقدمت قريش الى المعركة وهي موزعة بين الاقبال والاحجام
كما أن بنى زهرة اخوال النبي رفضوا القتال وعادوا الى مكة . أما نفسية
المسلمين فكانت على التقيض من ذلك تماما فلقد كان المهاجرون يائسين ،
تخلوا عن كل مايملكونه في مكة ولا يحملون الا سيوفهم ، يضاف الى هذا
ان المسلمين تخلوا عن العصبية القبلية والعائلية التي تربطهم بعد أن
أكله لهم النبي ان المسلمين هم اخوانهم فقط فالخوف من سفك دماء الاقرباء
وهي النزعة التي كبححت جماح قريش وحدث من اقبالهم على المعركة ، والتي
لا تزال مهيمنة على عقلية البدو من العرب حتى اليوم لم تكن معروفة
عند المسلمين الاول ، الذين قيل أن بعضهم قتلوا آباءهم أو اخوانهم اذا
كانوا من المشركين . يضاف الى هذا أن تعودهم الوقوف في صفوف
منتظمة خمس مرات في اليوم لاداء فريضة الصلاة يؤتمن بقائدهم قد
أوجى الى عقولهم الباطنة بشيء من الانضباط ومن الروح العسكرية المنظمة .
يضاف الى هذا أن المهاجرين والانصار كانوا تحت تأثير حمية دينية طاغية
وهم يشهدون قائدهم محمد وسطهم يشترك معهم في القتال (٢) .

وكانت التلال العالية تقوم الى الشمال والشرق من الوادي الذي يضم
آبار بدر . اما الى الجنوب فتقوم نتوءات صخرية تحد من الرؤية وتضيق
من نطاق المجال للمناورة في حين كان هناك الى الغرب حيث تنحدر الارض
باتجاه البحر سلسلة خفيضة من التلال والكثبان الرملية التي تغلق
الوادي . وتقدم المكيون ثوق هذه الكثبان باتجاه المسلمين الذين وقفوا
في صفوف أمام الآبار يرفعون راياتهم القبلية الثلاث . وكان أبناء عبد الدار
وفقا لتقاليد قريش يرفعون رايات المكين في قلب الجيش وجناحيه .
وعندما ظهر جيش المكين من وراء الكثبان دعا النبي ربه طالبا نصرته على
أعدائه وأعداء رسوله الذين ينكرون رسالته ويحاربون كلمة الله .
ويبدو لي أن من التشويه للحقيقة عند الحديث عن هذه المعارك

(١) اصرار جديد من المؤلف على جهله وتسمية أبي جهل بعم النبي . مع انه لا تربطه
به اية رابطة سوى رابطة القرابة في قريش . (المعرب)

(٢) يبدو لي أن المؤلف اراد التأكيد على قوة العصبية القبلية عند قريش ليظهر
قريشا بمظهر العازف من القتال المتردد فيه رغبة منه في تقليل أهمية النصر العسكري
الذي حققه المسلمون في هذه المعركة الفاصلة في التاريخ الاسلامي وان كان لرايه بعض
الامر لو كان صحيحا . لكن كتب السيرة والتاريخ الاسلامي اكثت أن قريشا اقبلت على
المعركة بحماسة متقطعة النظر وتصميم على قتال المسلمين . (المعرب)

الاسلامية الاولى أن نتكلم كما تكلم بعض المؤرخين الاوربيين بلغة الجيوش والقادة العسكريين والجنود . فلقد كان من المتوقع فى الجزيرة العربية أن يحارب كل رجل فى اوقات الطوارئ دفاعا عن قبيلته . أما فى الاوقات التى لا أزمات فيها ولا طوارئ فليس نمة من جنود نظاميين وليس نمة من تدريب يعتبر ضروريا وكان المقاتلون يحاربون لا فى سرايا أو افواج وانما فى جماعات قبلية أو عشيرية يقود كل جماعة منها رئيس القبيلة أو العشيرة . وكانت المعارك تبدأ فى العادة بمبارزات فردية بين أبطال المتحاربين تقف قوات الفريقين موقف التطلع اليها ومشاهدتها . وأخيرا يكر الفريقان فى شكل هجوم ويقرر مصير المعركة فى اشتباك عنيف ينطوى على عدد كبير من حالات الصراع بالأيدي وكان السيف هو السلاح الرئيسى فى القتال ولكن المتحاربين كانوا يلجئون أيضا الى الأسنة والرماح وكانت النبال تؤلف نار التغطية كالمدفعية فى يومنا هذا ، وكانوا يستعملون أيضا الحراب والرماح التى تقذف، وهى أسلحة قليل ان المرتزقة من أبناء القبائل البدوية التى كانت قريش تستأجرها لحماية قوافلها يؤثرونها(١) . أما الاسلحة الدفاعية فعالية التكاليف . وكان العرب يستوردونها من البلاد المتقدمة تقنيا كفارس وبيزنطة . وتتألف هذه الاسلحة عادة من خوذ فولاذية ودروع من الزرد مصنوعة من الحديد . لكن العرب بما كانوا عليه من فقر كانوا أعجز من أن يستطيعوا شراء الدروع والاسلحة الدفاعية .

وتقدم من صفوف القرشيين ثلاثة قادة هم شيبه وعتبة والوليد بن عتبة وتحدوا المسلمين أن يخرجوا اليهم ثلاثة لمبارزتهم، فخرجوا اليهم ثلاثة من الانصار ولكن محمدا أمرهم بالعودة وهتف بالمهاجرين طالبا أن يخرج اليهم ثلاثة من بنى هاشم . وتقدم ثلاثة كانوا مدرعين بالدروع أولهم حمزة عم النبي وثانيهم على بن أبى طالب ابن عمه وربيبه وثالثهم عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه .

واشتبك الشبابان أولا ، على والوليد ولم تمض لحظات على المبارزة حتى كان الوليد يسقط مضرجا بدماائه بضربة سيف قاتلة من على واشتبك حمزة عم النبي مع شيبه فضربه بسيفه ضربة بترته نصفين . أما عبيدة ابن الحارث البطل المسلم الثالث فكان قد أربى على الستين وتقدم منه عتبة فأصابه بسيفه فى فخذه وأوقعه على الارض ولكن بعد أن أصيب

(١) كانت القبائل البدوية تسخر من قريش وتقول ان رجالها يغشون الخروج الى الصحراء دون حراسة مسلحة من قريش . (العرب)

بجراح من سيف عبيدة • وهوى المتبارزان على الارض • فتقدم حمزة وعلى وأجهزا على عتبة ثم حملا عبيدة الى صفوف المسلمين حيث توفي متأثرا من جراحه (١) •

وكان النبي قد أصدر أوامره الى المسلمين بأن يثبتوا في مواقعهم حتى تهاجم قريش على أن يحرسوا على جناحيهم نظرا لان صفوف قريش كانت أطول من صفوفهم وذلك تحت حراسة الرماة ، وتقدمت قريش مهاجمة ، لكنها عانت من عدة عوامل ضعف تعبوية (تكتيكية) • فلقد ارتفعت الشمس آنذاك في كبد السماء وكانت تواجه المسكين المهاجمين وبينما تقطعت أنفاسهم وهم يخوضون الكثبان الرملية للوصول الى المسلمين كان هؤلاء ثابتين في أماكنهم وقد خلقوا الشمس وراعهم • وكان الصباح عاصفا اثر مطرة ليلية شديدة وعندما أصبح الفريقان على وشك الالتحام هبت زوبعة رملية شديدة في وجوه المكين وهتف النبي بحماسة دافقة يقول ان الفا من الملائكة يقودهم جبريل قد هاجموا العدو •

وحمل وطيس القتال وامتلأ المكان بهتافات الحرب وصراخ المتحاربين وصليل السيوف ، وظلت المعركة معلقة في كفة القدر بعضا من وقت دون أن يضعف أحد الفريقين • وكان محمد قد أقام مع أبي بكر في عريش بناء له المسلمون في الليلة الماضية حيث راح يصلى الى الله مبتهلا اليه أن ينصر جنده ويعز دينه • وكان يردد القول بأن خسارة المسلمين تعنى انعدام من يعبد الله • وظل النبي يمد يديه متضرعا الى الله مناشدا اياه نصرته الى أن هوت عباته من فوق كتفيه دون أن يحس بها • وهنا أمسك به أبو بكر قائلا : كفى يا رسول الله فلا بد أن يصدق الله ما وعده المؤمنين •

وخرج محمد مع أبي بكر من العريش يرقبان المعركة • • وكان يردد وعده للمسلمين بأن كل من استشهد اليوم دفاعا عن دين الله فمأواه الجنة • وكان هناك شاب يقف الى جانب النبي يلهو بكل حفنة من التمر فعندما سمع ماقاله النبي صرخ هاتفا • • أبينى وبين الجنة أن أقتل في المعركة ؟ وانتضى سيفه بعد أن قذف بما يحمله من تمر وهجم على صفوف قريش وظل يعمل فيهم قتلا الى أن استشهد متأثرا بجراحه • هذا هو الايمان المجرد البسيط الذي غمر المسلمين الاوائل •

(١) تختلف رواية المؤرخين عن رواية المؤلف • • فلقد ذكرت كتب السيرة أن عبيدة ومتبة اخلافا ضربتين كلاهما أثبتت من صاحبه ثم حمل حمزة وعلى على عتبة لقتلها عليه واحتملا عبيدة وهو جريح الى صفوف المسلمين •
(العرب)

وانحنى النبي على الارض يلتقط حفنة من الحصى وقذف بها في اتجاه العدو مبتهلا الى الله أن يوقع الارتباك في صفوفه . وبدأت قريش تترنح من شدة ضربات المسلمين فازداد هؤلاء حماسة وضراوة في هجومهم وأخذ العدو في التراجع . وكان من المحال أن يتم تراجع منظم من قبل قوات كهذه تقتقر الى نظام . وسرعان ما تحول التراجع الى هزيمة ساحقة . وقتل من قريش تسعة وأربعون وأسر المسلمون منهم عددا مماثلا (١) . وكان أبو جهل أشد أعداء النبي بين القتلى وبعث الرسول مولاة فقطع هذا رأس أبي جهل وعاد به الى النبي ليقتف به أنامه فهتف الرسول فرحا . . . وهذا رأس عدو الله . الحمد لله ولا اله الا الله .

وبلغت حماسة المسلمين حدا ضاريا حتى ان بعضهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب طالب الرسول بقتل الاسرى . لكن النبي أمر بإبقائهم على قيد الحياة طلبا للفدية ، وهو حل أكثر عملية من الذبح ، اذ أن المهاجرين كانوا في أشد حالات الفقر والضعف . وكان العباس عم النبي والذي صاحبه في بيعة العقبة بين الاسرى ولكن النبي أصر على أن يدفع أهله فديته . وأمر الرسول بدفن الموتى ثم عاد على رأس المسلمين تكلل هاماتهم أكاليل النصر الى المدينة .

وجدير بنا أن نذكر هنا ان بعض الاسرى شرعوا وهم ينتظرون الفدية من أهلهم في تعليم أهل المدينة القراءة والكتابة . وجدير بنا أن نذكر أيضا أن تجار مكة كانوا يرون في الكتابة على النقيض من مزارعي المدينة أمرا ضروريا لتصريف أعمالهم .

وكان انتصار بدر حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام . فلو قدر للمسلمين أن يهزموا أو لو قدر لمحمد أن يستشهد في هذه المعركة لما ظل الإسلام قائما ولاختفى هذا المذهب الجديد من عالم الوجود ، بدلا من أن يكسب كما كسب بالفعل انتصارا جديدا . ولم يتردد محمد في أن يعزو هذا النصر على عدد يعد ثلاثة أضعاف قواته الى عون الله وأن يعتبره دليلا ساطعا على هذه النصر الاولية ومن هنا كان قراره في أن يكون انتصاره هذا وسيلة جديدة لتوضيح سلطانه .

وقد سبق لي أن ذكرت شيئا عن وجود قبائل يهودية في المدينة وسبق لي ان بينت أيضا ان النبي اتبع مع هذه القبائل أول وصوله الى المدينة سياسة ودية وعقد نوعا من الاتفاق معها . ولم يكن قد انقضى على

(١) تجمع كتب السيرة على ان عدد الاسرى بلغ سبعين رجلا .

وجوده في المدينة حول كامل عندما نشب الاحتكاك بين المسلمين واليهود فقد رفض هؤلاء الاقرار بنبوته محمد وراحوا يعربون عن زرايتهم بالمسلمين واستهانتهم بهم . ونشب شجار بعد معركة بدر بين أحد المسلمين وأحد اليهود فقام النبي بحصار بني القينقاع . وهم الذين ينتمي اليهم ذلك اليهودي في الحى الذين يقيمون فيه الى أن استسلموا لحصاره . وخشى اليهود أن يأمر النبي بذبحهم عن بكرة أبيهم إلا أن عبد الله بن أبى الزعيم الأكبر للأوس والخزرج تشفع لهم بقوة عند النبي فعفا عنهم واكتفى بأن يصدر أمره اليهم بالهجرة من المدينة الى سوريا بعد أن وزع مساكنهم وأموالهم على المسلمين . وهكذا ارتحل بنو القينقاع الى سوريا حيث أقاموا في ناحية درعا (١) .

وأثارت غلبة محمد على بني القينقاع واجلاؤهم من المدينة الفرع عند جميع أولئك الذين كانوا يعارضون النبي في المدينة سرا أو علانية . وكان عبد الله بن أبى زعيم الأوس والخزرج قد توقع تضائل شهرته ونفوذه بصورة متدرجة بالنسبة الى شهرة محمد ونفوذه الأخذيين في الارتفاع والازدياد . وأدى فزع من تبقى من اليهود الذين كانوا لا يتورعون عن اظهار سخريتهم بما يقوله النبي عن الوحي الذى ينزل عليه الى أن يسكتوا مرغمين . يضاف الى هذا ان أموال بني القينقاع ومساكنهم كانت نافعة ومفيدة في سد حاجات المهاجرين المادية الذين وجدوا فيها ما أغناهم عن الحاجة المذلة الى العيش على حساب اخوانهم من الانصار وجودهم . وهكذا تجدهم يخطون في الواقع خطوات في طريق الثراء (٢) .

وتعزز سلطان محمد في المدينة بوقوع عدد من الاغتيالات فيها . وكان شديد الحساسية من قصائد الهجو التى يقولها بعضهم فيه والتى ينشرونها بين العرب بصورة مستمرة ولذا فقد حمل على الشعراء حملات عنيفة . وكان قول الشعر وتناقله شغويا من فم الى فم سواء أكان في

(١) لم يذكر المؤلف أن بني القينقاع هم الذين نقضوا عهدهم للنبي وانهم هم الذين قتلوا المسلمين عندما امتدى رجل منهم على امرأة من العرب تمديدا مبيها فصاحت مستغيثة فلماهاها رجل من المسلمين قام الى اليهودي قتلته فقام اليهود على المسلم قتلوه . ولا ريب في أن افقاله للسبب مقصود لاطهار المسلمين بمظهر المتدينين . (الحرب)

(٢) يكثر جلوب ، رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامي من الحديث من فقر المهاجرين وميشهم على حساب الانصار . ولئن كان الانصار قد قدموا العون الى اخوانهم اول هجرهم فان هذا العون أمر تفرضه الشريعة الاسلامية على المسلمين وليس فيه من منة — يضاف الى هذا ان المهاجرين ما لبثوا ان اخذوا يعملون وسرعان ما أصبحوا في غنى عن العون . (الحرب)

المديح أم الهجاء أهم وصيلة من وسائل ما نسميه اليوم بالدعاية عند العرب الذين تنتشر الامية بينهم . وعندما قتل اثنان من هؤلاء الشعراء الذين دأبوا على هجاء المسلمين فان من تبقى منهم من ناقدين قد أرغم على السكوت . وكان بين الذين أعتلوا امرأة طعنت وهى نائمة فى فراشها مع أطفالها . (١) .

وكان الحادث الذى أثار الناس فى المدينة أكثر من غيره من الاحداث اغتيال كعب بن الاشرف هو رجل ينتمى الى قبيلة طيء وان كانت أمه يهودية من بنى النضير . وقد عاش الرجل مع اخواله من يهود المدينة ونشأ فى كنفهم . وكان كعب بن الاشرف قد نصر محمدا فى بداية الامر ولكنه ما لبث ان ارتد عن نصرته وقد قام بزيارة مكة بعد موقعة بدر ويقال انه شجع القرشيين على حرب المسلمين وتقرر أن يمضى خمسة من المسلمين لاغتياله . وقد مضوا الى بيت كعب بعد أن خيم الدجى ويقال ان النبى قد رافقهم جزءا من الطريق ثم تمنى لهم التوفيق عائدا وحده . وقد استخدم أخ لكعب فى الرضاع وهو من المسلمين لخداع كعب واخراجه من منزله حيث هاجمه المتآمرون . وقطعوه اربا اربا بسيفوفهم . ومثل هذا الحادث أخذ يهود المدينة يعيشون فى رعب دائم (٢) .

(١) سورة مشوهة أخرى . فليس فى الموضوع اغتيال مطلقا . وانما هناك عداو لنظام ودين يظهر احيانا على شكل هجاء مقلدغ يعيب نسله المسلمين وامراضهم وليس من الغريب والحالة هذه أن يكون نصيب من يمس الامراض ويقاوم النظام القتل من مؤمن متحمس للعقيدة لكن رواية الاغتيال هذه لم ترد الا فى كتاب أو كتابين من كتب التاريخ القديمة ولعلها لا تخلو من الغرض من الشعوبيين . (المغرب)

(٢) يخرج القارئ البريء الذى لا يعرف شيئا من تاريخ الاسلام من هذه القصة التى يروها جلوب بمد أن وضع حقائقها فى الصورة التى يريد بها بالانطباع بأن اليهود كانوا ضحية للمسلمين وان اغتيال - كما شاء أن يسمى القصص المادى - كعب بن الاشرف عمل بعيد من سنن الاخلاق . ولا ريب فى أن المؤلف يكشف عن خبيثة نفسه فى هذه القصة ويعرض مظهره على اليهود الذين دفعه حبه لهم الى تزييف الوقائع . فالقصة الحقيقية كما تروها جميع كتب التاريخ والسير النبوية هى على النحو التالى :

« كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيء مم بنى ثبهان وأمه من بنى النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حادفة وعبد الله بن رواحة يشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش قال كعب : « والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها » ولا يتقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب ابن ابى وداعة السهمى فانزلته امراته واكرمه وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاضمار ويبكي اصحاب القلب من قريش الذين اصيبوا ببدر فقال : =

ولجأ النبي بالاضافة الى اغتيال أعدائه من الشعراء الى استئجار آخرين يتولون الدفاع عنه . وكان من أشهر هؤلاء حسان بن ثابت وهو شاعر من أهل المدينة (١) ويقال انه عندما نعى اليه أن النبي في حاجة الى خدماته مد لسانه قائلا : « ليس هناك من درع يصمد أمام هذا السلاح » . ويقال ان النبي استوضح منه عن الطريقة التي يمكنه فيها أن يهجو قريشا دون أن يسيء الى النبي وهو منهم فرد الشاعر قائلا : « لا تخش يارسول الله ففى وسعى أن أستلك من وسطهم كما أستل الشعرة من العجين » .

وكانت قريش في غضون ذلك تعيش في متاعب ومشاق بالغة فلقد كانت حياتها تعتمد على تجارة القوافل وقد أصابها الفزع بعد معركة بدر من ايفاد قافلة أخرى الى سوريا . وأخيرا قررت قريش في سبتمبر عام ٦٢٤ أن توفد قافلة الى الشمال عن طريق نجد بدلا من طريق ساحل البحر الاحمر . ولكن أنباء عزهم هذا وصلت الى المدينة فأوفد محمد ربيبه زيد بن حارثة على رأس قوة لتهاجم هذه القافلة وتقطع عليها طريقها ونجحت المحاولة تمام النجاح ، واستولى المسلمون على القافلة بكاملها وغنموا غنائم كبيرة من الحرير والدمقس والسلع التجارية واقتسموها بينهم .

وعلى الرغم من أن العداء كان في هذه الفترة قائما بين مدينتي مكة والمدينة الا أن القبائل البدوية التي تعيش في الصحارى المجاورة لعبت دورا هاما في المشاحنات التي قامت بين المدينتين . وكان هؤلاء البدو يتجوالهم المستمر بين المدينتين يؤدون دورا بارزا في نقل الاخبار والمخابرات وهي ضرورة عسكرية كان المسلمون مفتقرين اليها أشد

طحن رحا بدر لهلك أهله . ولئلا بدر تستهل وتدمع
قتلت سراً الناس حول حياضهم لا تبعدوا ان الملوك تصرع
كم قد أصيب به رفيق ماجد ذو بهجة تأوى اليه الفسيح

الى آخر القصيدة .. ثم رجع الى المدينة فثبب بنساء المسلمين حتى اذا هم فارسل له عليه السلام نفرا من الانصار لقتلوه جزاء خيائته العهد .

(الحرب)

(١) غريب أمر جلوب هذا فقد جيل من الشعراء أعداء المسلمين أناسا يداومون من عقيدتهم اما الشعراء من المسلمين وبينهم حسان بن ثابت شاعر الرسول فهم اجراء استأجرهم النبي ليدافعوا عنه - حقا انه عداء ظاهر بجمل جلوب بعيدا من صفوف المؤرخين ويجيز لنا أن نعامله في تعليقاتنا على اقواله بما يستحقه من نقد لاذع

(الحرب)

الافتقار في البداية ، يضاف الى هذا أن هذه القوافل كانت تحتل الصحراء المكشوفة وكانت قادرة عن هذا الطريق على حماية القوافل أو نهبها وكانت قريش واثقة من أنها لو استطاعت ضمان ولاء هؤلاء البداءة فإن قوافلها تستطيع أن تنجو من الغزاة المسلمين . أما اذا افاج النبي في كسب ولاء هذه القبائل فإن أهل مكة سيصبحون محصورين داخل مدينتهم ويتعرضون للتضور جوعا . وكان المسلمون قد فازوا بصداقة قبيلة جهينة التي تقيم في السهل الساحلي لكن قبيلتي غطفان وبنى سليم المقيمتين الى الشرق من المدينة ظللتا حليفتي قريش . ودفعت هذه الأوضاع المسلمين الى القيام بغزوات صغيرة عدة ضد هاتين القبيلتين لارهابهما واقناعهما بأن صداقة محمد خير لهما من التحالف مع أهل مكة .

وبدا العام الثالث من هجرة المسلمين الى المدينة بداية سيئة ففي يناير (كانون الثاني) ٦٢٥ (١) خرجت قريش من مكة بقوة تضم نحو من ثلاثة آلاف رجل وقد صممت على التآمر لهزيمة في بدر وعلى فتح طريق القوافل أمام تجارتها . وكانت الطريق الى المدينة من ناحية الجنوب تمر عبر جبال جرداء قاحلة وهكذا مرت القوة المكية الى الغرب من المدينة ثم اتجهت الى اليمين لتدخل واديا واسعا الى الشمال من المدينة عند سفح جبل احد الذي تكثر فيه الصخور . وهنا انتشرت القوة القرشية منتظرة أن يبدعوا هجومهم .

ولم يكن القلق الذي اثاره وصول هذه القوة الضخمة التي تبلغ في عددها ثلاثة أضعاف القوة التي خاضت معركة بدر قليلا أو تافها . وكان من رأى محمد وعبد الله بن أبى وعدد من شيوخ المدينة البقاء فيها وعدم الخروج منها للقاء قريش . وكانت كل عشيرة سواء اكانت من الاوس أم الخزرج أم من قبائل اليهود تعيش في حيها الخاص بها حيث تقوم البيوت مجتمعة داخل أسوار تجعلها أشبه ما تكون بالقللاع عسكية على الاقتحام من رجال لا سلاح لهم الا السيوف والسهام . ولما كان الجيش المكي قوة تفتقر الى تنظيم الجيوش وما تحتاج اليه من تموين فانها كانت ولا ريب عاجزة عن فرض حصار طويل على المدينة . لكن الشبان من المسلمين وقد اثلهم انتصار بدر ضجوا مطالبين بالخروج لمقابلة قريش في معركة مكشوفة مما حمل النبي أخيرا على

(١) يختلف هذا التاريخ عن التاريخ الاسلامي فقد كان خروج قريش في الثالث عشر من شوال الذي عاد له تقويم مختار المصري بالتاسع عشر من مارس سنة ١٩٢٥ .
(العرب)

التسليم برأيهم . وخرج الرسول بعد أداء صلاة الظهر على رأس أتباعه للقتال . وحاول بعض اليهود أن يلحقوا بالقوة الإسلامية كرديف لها يقدم العون ولكن النبي ردهم معلنا أن المسلمين وحدهم أصحاب الحق في الدفاع عن دين الله واتخذت القوة الإسلامية مواقعها في الليل لتشرع في التقدم نحو العدو عند فجر اليوم التالي ، وهنا وفي هذه اللحظة الحرجة انخزل عبد الله بن أبي بنحو من ثلثمائة رجل عائدا إلى المدينة متأثرا بغيرته من سلطان النبي ومن رفضه العمل بمشورته وهي البقاء في المدينة. وهكذا تقدم المسلمون وقد خذلهم ابن أبي وصحبه في هذه اللحظة الشديدة الخطر بنحو من سبعمائة رجل ليحاربوا عددا يعد نحو من ثلاثة آلاف يضاف إلى هذا أن القوة الإسلامية كانت تفتقر إلى الجنود من أصحاب الدروع إذ لا يزيد عدد المتسربلين بها عندهم على المائة وتفتقر أيضا إلى الجياد بينما حشدت قريش وحلفاؤها نحو من سبعمائة رجل بدروعهم ومن مائتي فارس.

ولم يكن ثمة من شك في أن المسلمين وقد شعروا بقلّة عددهم إزاء العدو ردوا لو حموا ظهورهم بالجبل وبالفعل جعلوا أحدا وراء ظهورهم وخلف جناحهم اليمين بينما ظل جناحهم اليسر مكشوفًا ومعرضًا لهجوم يشنه فرسان العدو واحتاط محمد لهذا الخطر فوضع خمسين شخصا من الرماة لحماية هذا الجناح مصدرا أمره إليهم بالابتعاد عن مواقعهم مهما حدث . إذ أن هذه المواقع تحمي جناح الجيش من فرسان قريش .

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية يتولى قيادة أهل مكة وحرى بنا أن نتذكر هنا أن التنافس كان قويا قبل الإسلام بين بنى أمية وبنى هاشم على البروز والنفوذ ، وأن بنى أمية كانوا يتولون بالورثة قيادة جيوش قريش بينما يتولى بنو هاشم رفادة الحجاج وسقايتهم ولهذا فقد تولى أبو سفيان قيادة الجيش المكي بحق الورثة بينما حمل بنو عبد الدار الراية على مآلوف عاديهم . وعهد النبي براءة المهاجرين إلى مصعب بن عمير الذي حملها في موقعة بدر والذي يمت إلى بنى عبد الدار أيضا . وأصطف الكييون يواجهون المسلمين الذين جعلوا جبل أحد في مؤخرتهم ففصلوا بذلك بين المسلمين وبين المدينة .

واشتمل النبي بدرعين من الزرد ثم استل سيفه وهتف بالمسلمين قائلا : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وخرج من صفوف المسلمين رجل يدعى أبو دجانة فسأل الرسول قائلا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال



أن تضرب به العدو حتى ينحني ، وتسلم أبو دجانة السيف من النبي
واخذ يختال بين صفوف الجيش قائلا :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
الا اقوم الدهر في الكيول (١) أضرب بسيف الله والرسول

وراح النبي يقول وهو يرى أبا دجانة يتبخر في مشيته . . . انها
لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الموطن .

وكانت قريش قد حملت معها الى المعركة عددا من النسوة
يحملونهن في هودج ، وهى عادة ظلت قائمة عند بدو نجد حتى بداية
القرن العشرين . وعندما اقترب الفريقان بعضهما من بعض ، شرعت
نساء قريش فى إيقاد الحماسة فى صدور رجالهن بقرع الدفوف
وانشاد افانى الحرب وارخاء شعورهن الطويلة . وكان أبو سفيان قد
استفز حماسة بنى عبد الدار بتعييرهم بأن جنهم كان السبب فى
هزيمة بدر ، وهنا خرج طلحة بن عبد العزى من صفوف قريش -
وهو من بنى عبد الدار - يحمل راية قريش ويتحدى المسلمين طالبا
ان يخرج اليه أحدهم لمبارزته . وخرج اليه على بن أبى طالب وسرعان
ما ضربه بسيفه ضربة اسقطته مضرجا بدماؤه . وخرج أخو طلحة على
الفور ويدعى عثمان من صفوف قريش ورفع الراية الساقطة بينما
ارتفع التكبير من صفوف المسلمين . وأعاد عثمان تحدى أخيه القتيل
للبراز فخرج اليه حمزة عم النبي ، وبعد اشتباك قصير هوت راية
قريش من جديد الى الأرض وعاد حمزة ظافرا الى صفوف المسلمين
بعد أن صرع خصمه . ولم تأت عشية ذلك النهار حتى كان خمسة
من بنى عبد الدار قد خروا قتلى فى ميدان المعركة وهم يحملون راية
قريش .

وكانت فترة المبارزات الفردية قد انتهت الآن وكر المسلمون على
رجال قريش بعزيمة ومضاء . وحمل عبد حبشى لآل عبد الدار راية
قريش بعد أن رفعها من الرغام وظل يقاتل حتى قطعت يداه فهوى
على ركبتيه وهو يحمل الراية بينهما الى صدره الى أن قتل مشحنا
بالجراح وكر المسلمون بعزيمة يؤمنون بأن الاستشهاد فى سبيل الله
هو سبيلهم السريع الى الجنة . وأخذت صفوف قريش تترنج أمام
ضربات المسلمين القاصمة وظل أبو دجانة وقد لف متديلا أحمر على لামته
بضرب بسيف النبي ضربات قاتلات أما حمزة فكان يصول ويجول فى

(١) الكيول آخر الصفوف فى الحرب .

الميدان فتتهاوى الرعوس أمام ضرباته يمنة ويسرة . وحاول فرسانه قريش الالتفاف حول جناح المسلمين ولكن رماة المسلمين الخمسين صدوهم على أعقابهم . وظل على بن أبي طالب يواصل الضغط على صفوف العدو وعادت معجزة بدر الى الظهور فالمسلمون لا يقهرون .

وظلت نساء قريش تقودهن هند زوجة أبي سفيان ينشدن ويهزجن وراء الخطوط ويعزفن على الدفوف وهند تقول :

نحن بنات طارق . . .

الى أن تقول . . .

أن تقبلوا نعلاني ونفشر النمارق
أو تدبروا نفاارق فراق غير وامق

وفجأة انطلق أبو دجاجة يضرب بسيف الرسول يمنة ويسرة فاخترق صفوف قريش حتى وصل الى النسوة فرحن يتبعثرن هنه وهناك ينشدن الخمار .

ولكن الفرور سرعان ما استخف ببعض المسلمين . فقد تاهوا: اعجابا وفخارا وخيل اليهم أنهم حققوا النصر فاقبلوا على النهب (١) . وكانت الحماسة التي رافقت هجومهم قد فرقت صفوفهم وبددتها . ولعل ما هو اسوأ من ذلك ان الرماة الخمسين أو قد تصوروا أن المعركة قد انتهت ، تخلوا عن موقعهم على الجناح الايسر طلبا للنهب . وكان بين البارزين من رجال قريش في ذلك اليوم رجلان قدر لهما أن ينالا شهرة: خالدة كقادة عسكريين للمسلمين وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وقد رأى هذان القائدان الفرصة التي اتاحها تخلي الرماة المسلمين عن موقعهم فقادا فرسانهما والتفيا بهم حول الجناح الايسر للمسلمين، ثم اتجها الى اليسار ثانية وهاجما خطوط المسلمين من مؤخرتها (٢) . وكان النبي يرافقه عدد من الصحابة يقومون على حراسته يسير وراءه.

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية المشوهة فلقد أجمعت كتب السيرة وفي طلبيتها سيرة ابن هشام نقلا عن الزبير بن العوام قوله يصف تحول المعركة : ولقد رأيته انظر الى هند بنت عتبة وصواحبها مشعرات هوارب وما دون أخذهن قليل ولا كثير اذ مالت الرماة الى المسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيال فأتينا من خلفنا وصرخ صارخ الا ان محمدا قد قتل فاتكفأنا واتكفأ علينا القوم .

(٢) تجمع كتب التاريخ العربي على ان خالد بن الوليد وحده هو الذي قاد فرسان قريش اما عمرو بن العاص فكان قائدا في المعركة .

— العرب —

الصف الزاحف من المسلمين يرقب سير المعركة عند ما داهمته من المؤخرة ثلثة من فرسان قريش اقتحمت طريقها متجهبة الى الامام واستشهد مصعب بن عمير وهوت راية المهاجرين وبوشت المسلمون بهذا الهجوم الصاعق من المؤخرة وتمزقت صفوفهم وتفرقوا شذر مذر وارتفع صوت النذير يقول ان محمدا قد قتل وراح الناجون من المسلمين يولون الادبار لينجوا الى سفوح احد وراهم . وكان المسلمون يملكون بالرسول في طريق فرارهم فيهتف بهم قائلا : أين تذهبون ؟ .. عودوا انا رسول الله ولكن دون جدوى (١)

وكانت راية قريش لا تزال ملقاة على الثرى منذ قتل المحاربين من بنى عبد الدار واسرعت فتاة شجاعة تدعى عمرة بنت علقمة فرفعت الراية التي التفت حولها قريش بعد ان اعادت تنظيم صفوفها وأخذت تهزج باهازيج العزى وهبل من الاصنام وعادت قريش الى الهجوم على المسلمين . وعندما سمع بعض المسلمين النداء بأن محمدا قد قتل هب رجل منهم يدعى أنس بن النضر فهتف قائلا : « قتل رسول الله ، فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله » ثم استقبل القوم فظل يقاتل يمئة ويسرة حتى قتل . وتقول الروايات ان المسلمين وجدوا بعد المعركة في بدنه سبعين ضربة .

وسرعان ما ضيق العدو الخناق على الفئة القليلة العدد التي تتولى حراسة النبي وانهالت الحجارة والنبال كالأمطار على حراس النبي . وأصحاب حجر رسول الله في وجهه فشججه وأصاب شفته وثناياه . ووقعت ضربة على ربايعته فوق هامته ... وهتف النبي يطلب العون بعد ان وقع في الحفرة . وسرعان ما هب خمسة من المسلمين لنجده اذ سمعوه يقول : « من يشري لنا نفسه » . وظل هؤلاء الخمسة يدافعون عن النبي حتى استشهدوا عن آخرهم .

(١) هذه رواية أخرى من روايات المؤلف المشوكة . فلقد دافع المسلمون عن النبي دفاع الإبطال ولم يروا رواية ان النبي قال لهم هذا القول فلقد روى ابن هشام ان ام عمارة نسيبة بن كعب المازنية قاتلت يوم احد دليفا عن الرسول الى ان أصيبت . وروى ابن اسحاق ان ابادجانه ترس دون رسول الله يقع النبل في ظهره وهو منح عليه حتى كثر قيح النبل . واضاف ان سعد بن ابى وقاص روى دون رسول الله كما روى عنه قتادة بن النعمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثر من صحابة الرسول ومن هنا تظهر رواية المؤلف المشوكة .

وتمكن فارس مشهور من قريش يدعى ابن قمئة من الوصول الى النبي فضربه بسيفه ولكن طلحة بن عبيد الله من أقارب النبي درا الضربة بيديه فتحطمت أصابعه . ووقع النبي على الأرض والدم ينزف من وجهه بينما واصل ابن قمئة صراخه معانئا قريشا انه قتل محمدا . ومن الغريب أن يفكر المرء اليوم كيف كان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ لو أن ضربة سيف ابن قمئة قد أصابت هدفها قبل ألف وثلاثمائة عام .

وكان نفر من المسلمين قد تحلقوا حول النبي في غضون ذلك ومن المحتمل أن يكون ادعاء ابن قمئة بأنه قتل محمدا قد خفف من عزيمة قريش ودعاهم الى الاسترخاء اذ أن نضالهم كان مع محمد وحده ، واغتنم طلحة بن عبيد الله فرصة هذا الاسترخاء فرفع النبي برغم جراحه من الحفرة التي وقع فيها ، والتف حول النبي أبو بكر وعلى وغيرهما من الصحابة القريبين يحملونه ويدفعون عنه الأذى حتى وصلوا به الى صخور احد حيث أنزلوه مكانا آمينا ، ومضى على يطلب ماء ليمسح به جراح النبي بينما هتف الرسول قائلا : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ !

وهكذا انتهت المعركة وباتت قريش مسيطرة على ميدانها تمام السيطرة ولجأ من تبقى من المسلمين الى شعاب أحد يرقبون منها رجال قريش دونهم في سفح الجبل وأصبحت المدينة نفسها مفتقرة الى من يدافع عنها لو أراد المشركون غزوها . لكن المكين اشتغلوا في غضون ذلك في نزع الملابس عن قتلى المسلمين وتشويه جثثهم فلقد قتل نحو من خمسة وسبعين من المسلمين بينما لم تخسر قريش الا عشرين رجلا (١) . وقد حزن الرسول أكثر ما حزن على عمه حمزة . فقد استأجرت هند زوجة أبي سفيان رجلا حبشيا يدعى وحشيا اشتهر بمهارته في قذف الحربة ليقتل حمزة ثارا لوالدها الذي قتله حمزة في موقعة بدر (٢) . وكمن وحشيا لضحيته الذي لا يشق له غبار في

(١) روت كتب السيرة ان شهداء المسلمين بلغوا (٧٠) وإن قتلى قريش كانوا

(٢٢) .

(٢) تؤكد كتب السيرة وفي طليعتها سيرة ابن اسحاق ان حبشيا كان غلاما لرجل يدعى جبير بن مطعم وكان مع هذا ويدعى طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش الى احد قال له جبير ان قتلت حمزة مع محمد بمعنى فانت عتيق . ولمضي الرواية وهي على لسان حبشي تقول . . فخرجت مع الناس انظر حمزة وأبصره وليست لي بقية سواه الى ان قتله .

(العرب)

شجاعته وشدة بأسه حتى لاحت له منه صانعة وهو يبارز قرشياً
فضربه بحريته فوقعت في ثنيته حتى خرجت من بين رجله وخر صريعاً
التوه . وعثرت هند على الجثة بعد المعركة فثارت لنفسها بجذع أذنيه
وانفه وراحت بعد ذلك تفتح بطنه لتنهش من كبده .

- وعندما انتهت قریش من التمثيل بجثث المسلمين وأرادت
الانصراف تقدم أبو سفيان فأشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته
ليسمعه المسلمون القابعون فوقه بين صخور الجبل : « أنعمت فعال
وان الحرب سجال . يوم بيوم . أعل هبل ، ان موعدكم بدر للعام
المقبل » ، وامتنطى المكيون اثر ذلك ابلهم وراحوا يقادرون المكان وخشي
النبي أن تكون وجهتهم المدينة وأن يحتلوها بسهولة لعدم وجود قوة
تدافع عنها ، فأوفد على بن أبي طالب في أثرهم لينقل اليه أخبارهم
وحركاتهم ، وسرعان ما عاد « على » ليقول ان قریشا اتجهت الى الجنوب
ففي طريق مكة وانها جاوزت المدينة وفرغ المسلمون بعد ذلك لقتلهم
يدفنونهم . وقيل : ان محمدا غضب غضبا شديدا عندما رأى ما رآه
من تمثيل قریش بشهداء المسلمين ولا سيما بجثة عمه حمزة وتوعد
قریشا ان اظهره الله عليها في موقعة من المواقع ان يمثل بثلاثين رجلا
منهم . ولكن الرسول سرعان ما ندم على قوله وأصدر امره بتحريم
المثلة بالأموات .

وبالنظر الى أننا الفنا فكرة الحرب الجماعية بكل ما فيها من
قسوة وخسونة ووحشية فان الأساليب العرضية والمتنافرة التي
يتبعها العرب تبدو لنا غير مفهومة اطلاقا فنحن نرى في الوحشية التي
أبدتها قریش في التمثيل بجثث قتلى المسلمين شيئا يرمز الى الكراهية
التي لا تنطفئ ولا تخمد ، ومع ذلك فان قریشا تقاعست عندما بات
النصر الكامل في متناول يديها عن طريق احتلال المدينة عن هذا العمل
وعاد رجالها الى بلدهم مكتفين بتحدي المسلمين للقتال في بدر في العام
المقبل . ويبدو أن مثل هذا التحدي لمعركة في كل سنة كان شيئا
تقليديا بالنسبة الى عرب تلك الايام ، فلقد نشبت الحرب قبل سنوات
عدة بين قریش وهوازن ، عندما كان محمد لا يزال فتى غض الاهاب .
ودارت خمس معارك سنوية كانت الواحدة منها تقرر في السنة التي
تسبقها ويتلاقى الفريقان على موعد بالقتال وذلك قبل أن يعقد الصلح
النهائي بينهما .

وقد استمرت طرق الحرب بين القبائل البدوية في وسط
الجزيرة العربية على هذا النحو والى حد كبير حتى القرن العشرين .

فلقد كانت هناك قبائل معينة تخوض باستمرار المعارك بعضها ضد بعض دون أن يرغب أحد الفريقين أدنى رغبة في قيام الصلح النهائي بينهما . وكانت أوضاع هذه الحروب التي لا تنتهى تؤمن المواقف الإبداعية الرومانطيقية التي تمكن فتيان العرب وبواسلهم ومغامريهم من أداء أعمال البطولة التي أضفت على شعرهم ذلك الرونق والمجد الذي لا يؤمنه لهم حياتهم الرتيبة التي يعيشونها . وصحيح أن قريشا لم تكن قبيلة بدوية وكانت مصالحها الأساسية معتمدة على التجارة ولكنها عندما تخوض حربا من الحروب كانت تميل الى اتباع العادات الحربية المألوفة في عصرها حتى ولو كانت هذه العادات والتقاليد ناشئة في أجواء بدوية .

لكن المنازعات الدموية كانت تنفذ خلال هذه المشاحنات العارضة والرومانطيقية لتؤدى في أحيان كثيرة الى المزيد من الكراهيات ومن أعمال الانتقام الوحشية ، ومن هنا كان التناقض يبرز كل البروز . فالحروب تدور في صورة عرضية وتتبع فيها أنظمة الفروسية وتخاض المعارك بمواعيد مسبقة تسبقها مبارزات فردية ولكن عندما يصبح من المعروف أن هذا الفارس قد قتل الفارس الآخر اذ لا يصرف في الاشتباكات الدموية من القاتل ومن القتيل ه فان حزازات دموية سرعان ما تنشأ لا بين القبيلتين المتقاتلتين فحسب بل وبين أسرتي القاتل والقتيل في كل حادث معين . ولم يكن التمثيل بجثة حمزه ناشئة من تعصب ديني بل من الحقيقة الواقعة وهى أن حمزة قد قتل والد هند في معركة بدر (١) .

وقد استمرت عادات القبائل العربية في القتال كما سبق لى أن اوضحت حتى القرن الحالى . ولكن من الطريف أن نبين أنه في غضون الثلاثة عشر قرنا الماضية كانت الاندفاعات الدينية تنشب من وقت الى آخر وكان آخرها قيام الوهابيين بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٠ ، وكانت هذه التفجرات الزمنية من الحماس الدينى لا تستمر في كل مرة أكثر من ثلاثين عاما تقريبا . وفي هذه الفترات كان المتقاتلون يخرجون جزئيا أو كليا على التقاليد القبلية القديمة وكان أصحاب الدعوة الجديدة يقاتلون بقصد الفوز والكسب . والأساليب التي تتجنب سبل الرحمة حتى وان كانت التقاليد البدوية القبلية لا تسمح بها .

(١) سبق لنا أن ذكرنا في هامش سابق الرواية الصحيحة التي أوردها سيرة ابن هشام من مقتل حمزة هم النبي .

تصبح مبررة اذا كان القصد منها خدمة الله ، وسنرى في الصفحات المقبلة كيف انه في الوقت الذي كانت فيه قريش والقبائل الاخرى تتبع الاساليب القديمة العرضية كان محمد يقا تل ليفوز ويربح .



ولم تكن حظوظ العرب في صعود وهبوط وكانها دلو في بئر في الجزيرة العربية وحدها فلقد كانت الامبراطوريتان العظيمتان في ذلك العهد تمران بشرور مماثلة . ولقد سبق لنا ان راينا كيف ان هرقل قد ارتقى عرش القسطنطينية في عام ٦١٠ وكانت أولى الانباء التي استقبلته بعد ارتقائه العرش من جبهة فارس فقد جاءه نبأ سقوط انطاكية في أيدي أعدائه واحتلت جيوش كسرى مدينة القدس في عام ٦١٤ كما احتلت مصر في عام ٦١٦ ، واكتسحت جيوش فارسية أخرى آسيا الصغرى ، ووصلت الى ابواب القسطنطينية على مضيق البوسفور ، وترامت أمامها أبراج بيزنطة وأسوارها . وفي غضون ذلك كان شعب من البرابرة يدعى الافارس قد زحف من مناطق روسيا الجنوبية على البلقان فاحتل شبه الجزيرة حتى وصل الى أسوار العاصمة . وراى هرقل أن الأعداء يحيطون به من كل جانب وان هؤلاء الأعداء أشداء ولا حول له ولا طول على قراعمهم ففكر في الجلاء عن بيزنطة والرحيل بحكومته الى قرطاجنة في الشمال الافريقي . ولكن البطريق حمله على البقاء وراح يوفد البعثات والسفراء الى كسرى مناشدا إياه السلام ولم ينج من الموت والاغتتيال الا بأعجوبة عندما سعى بنفسه الى لقاء زعيم البرابرة . ورفض كسرى في بداية الأمر عروض الامبراطور ولكنه وافق في النهاية على عقد هدنة مقابل جزية سنوية قدرها الف طالن (وزن قديم) من الذهب وألف طالن من الفضة وألف رداء من الحرير وألف جواد وألف فتاة من الابدكار . وقد انحنى المؤرخون على هرقل باللوم لانه فشل في الاثنى عشر عاما الاولى من حكمه في طرد الغزاة من أراضيه . لكن بعضهم وجد له العذر في الصراع الداخلي الذي نشأ بينه وبين مجلس الشيوخ على السلطان مما أدى الى استحالة قيام سياسة قومية جريئة . واني لأرى أن المعلومات المتوافرة لنا عن الموضوع اقل من أن تمكثنا من الوصول الى حكم سليم فيه .

وسلم الامبراطور بعد يومين من عيد الفصح في عام ٦٢٢ مقاليد الامور في القسطنطينية الى البطريق والى مجلس الشيوخ . وعلى الرغم من أن الحصار على المدينة كان شديدا من ناحيتى الشرق والغرب

أى من جانب الفرس والافارس فان البيزنطيين كانوا مسيطرين على البحر وحمل هرقل جيشه على أسطوله ومر به عبر الدردنيل لينزل به على الساحل الشمالى من خليج الاسكندرون حيث سيطر فوراً على المضيق المعروف فى جبال طوروس ببوابة كليكية . وأقام هرقل معسكره على مقربة من أضنة (ايسوس) التى كان الاسكندر الأكبر فيها قد قهر جيش « دارا » ملك الفرس قبل نحو من ألف عام . وهزم هرقل جيشاً فارسياً جاء لمحاربته واجتاح كبادوكيا قاطعاً مواصلات الجيش الفارسى المربط أمام القسطنطينية ، وخلف جيشه مربطاً على نهر هاليس ليقضى الشتاء فيها . وعاد فى نهاية عام ٦٢٢ الى القسطنطينية وكان النبى محمد قد غادر فى يونيو (حزيران) من العام نفسه مكة مهاجراً الى المدينة .

وأبحر هرقل فى ربيع عام ٦٢٣ من بيزنطة الى البحر الأسود يفود جيشاً مختاراً قوامه خمسة آلاف رجل ونزل هذا الجيش فى طرابزون ثم زحف جنوباً الى أن التقى بجيشه المربط طيلة الشتاء فى كبادوكيا . وراح يحتاج بعد ذلك أرمينيا الى أن وصل الى نهر أراكسيس حيث قضى الشتاء التالى داخل الامبراطورية الفارسية على سواحل بحر الخزر (قزوین) الجنوبية . وكانت معركة بدر قد وقعت آنذاك فى عام ٦٢٤ ويقال ان الامبراطور وصل فى صيف عام ٦٢٤ الى قزوین التى تبعد مائة ميل الى الشمال الغربى من طهران الحالية ، لكن المعلومات الجغرافية عن هذه الحملات ضئيلة وغامضة . ويبدو أن « هرقل » قضى شتاءه الثالث فى بلدة أميده (ديار بكر الحالية) وعاد فى عام ٦٢٥ فهزم الفرس من جديد فى كليكية وعاد فى خريف ذلك العام وبعد أن قضى ثلاثة أعوام يشن حملاته داخل الاراضى الفارسية الى سواحل البحر الاسود .

وكان كسرى قد اتفق مع الافارس فى غرضون ذلك على ضرورة احتلال القسطنطينية ، واضطر هرقل الى امادة « ١٢ » ألف رجل الى عاصمته لتعزيز الدفاع عنها . وراحت الامواج المتلاحقة من جيوش البرابرة تقذف بنفسها لمدة عشرة أيام فى صيف عام ٦٢٦ على أسوار القسطنطينية . وكان الافارس قد برعوا فى فنون الحرب فنصبوا الابراج الخشبية على مقربة من الاسوار وعبروا الخنادق والحفر وتمنطقوا بالدروع والزرذد الحمايتهم من الصواريخ البيزنطية . ولكن بعد عشرة أيام من القتال المرير العنيف اضطر الافارس الى الانسحاب تعبين مجاهدين . وكان هرقل قد أفلح فى غرضون ذلك فى مواجهة الحلف بين كسرى والافارس بحلف عقده مع شعب الخزر التركى المقيم على



مصعب الفولجا • واجتمع رئيس هذا الشعب مع هرقل في «تفليس» وقدم الى جيشه نجدة قوامها أربعون ألف رجل .

وزحف هرقل في صيف عام ٦٢٧ جنوبا من جديد عبر أرمينيا وحرز في الاول من ديسمبر (كانون الاول) نصرا حاسما على الفرس في «دينوى» • ولم يكتف الفرس بالانسحاب من ضفاف البوسفور بل انسحبوا ايضا من مصر وسوريا وبدأت مملكة الفرس في التفسخ والانحلال . وقام شرويه باغتيال والده كسرى أبرويز في عام ٦٢٨ ميلادية وعمت الفوضى جميع أنحاء المملكة . وتم أخيرا الوصول الى الصلح وعقدت معاهدة بعد ستة وعشرين عاما من القتال والدمار أعادت الحدود بين الامبراطوريتين الى ما كانت عليه في عام ٦٠٢ . وقد لحق الخراب بكلتا الامبراطوريتين وخلت خزائنها من المال وأصاب الدمار أراضيها ألغنية وشلت تجارتها وصناعاتها •

ولقد رايت من الضروري أن أقدم هذا التحليل لسببين أولهما واهمهما : أن مآصبا الدولتين من انهالك في هذه الحروب التي استمرت ستة وعشرين عاما قد فتحت الطريق أمام الفتوحات العربية العظيمة • وثانيهما : ان الخطة السوقية التي اتبعها هرقل في حروبه هذه عاد فحاول تطبيقها ولكن بنتائج مغايرة تماما أدت الى كارثته وذلك ضد الغزو العربي لامبراطوريته •

وقد لا يلام المسلمون اذا رأوا في هذه المذابح المتبادلة الحمقاء بين بيزنطة وفارس قضاء من الله ونصرة لهم ولا سيما انها وقعت في السنوات نفسها التي كان المسلمون فيها يوثقون من وحدتهم ويبنون قوتهم قبل أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربية لاحتلال الامبراطوريتين العظيمتين اللتين تحيطان بهن والاستيلاء على معالم حضارتهما العريقة •



تواريخ مشهورة

عيد الفصح عام ٦٢٢	هرقل يبحر من بيزنطة
٢٨ من يونيو (حزيران) ٦٢٢	وصول النبي الى المدينة
يناير (كانون الثاني) ٦٢٤	معركة بدر
يناير (كانون الثاني) ٦٢٥	معركة أحد
صيف عام ٦٢٦	هجوم البرابرة على بيزنطة
أول ديسمبر (كانون الاول) ٦٢٧	معركة نينوى
	اغتيال كسرى ابرويز وعقد الصلح
فبراير (شباط) ٦٢٨	بين بيزنطة وفارس

شخصيات مشهورة

ابن عم الرسول وقد نشأ في كنفه	علي بن أبي طالب
ابن الرسول بالتبني	زيد بن حارثة
أصدق صديق للنبي	أبو بكر
زعيم من زعماء المدينة (كبير المنافقين)	عبد الله بن أبي
قائد قریش ضد المسلمين	أبو سفیان
امبراطور بيزنطة	هرقل
ملك الفرس	كسرى

النَّصْرُ وَالْوَفَاة

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتهموهم
واخرجوهم من حيث اخرجوكم • »
سورة البقرة - القرآن الكريم

« انا فتحنا لك فتحا مبينا • ليغفر لك الله ماتقدم من
ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا
مستقيما • وينصرك الله نصرا عزيزا • هو الذى انزل
السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ،
ولله جنود السموات والارض وكان الله عليهما حكيما •
ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار
خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله
فوزا عظيما • ويعلب المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات الظانين بالله ظن السوء » •

سورة الفتح - القرآن الكريم

« سواء سميتهموه نبيا او مصلحا او اى شىء آخر فان
راعى الابل فى مكة وفاتح المدينة يفوق اى انسان آخر
عرفه تاريخ الشرق وليس ثمة فى تاريخ العالم رجل
واحد نستطيع ان نعزو اليه مباشرة آثارا عظيمة كالآثار
التي تعزى الى هذا الرجل • »

اى • افريمان - فتوحات العرب

« امامه يجثو اهل البادية واعداؤه يلحسون التراب •
ملوك ترشيش والجزائر يحملون اليه الهدايا • ملوك
شبا وسبا يقربون له العطايا »

الزهور الحادى والسبعون - سفر الزمير

أصابته هزيمة «أحد» الدعوة الإسلامية بما يشبه الجزر بعد المد الذي حققه نصر بدر ولما كان النصر في بدر قد عزى إلى نصره الله وعونه للمؤمنين فقد صعب على هؤلاء أن يفهموا لماذا ضنت العناية الإلهية عليهم بالنصرة في أحد • وتوالت الآيات منزلات على النبي • لتعينه في الحفاظ على الروح المعنوية القوية عند المسلمين • وسورة آل عمران في القرآن طافحة باللوم والتثريب على عبد الله بن أبي واتباعه لتخاذلهم وبالوعد للمسلمين بالنصر النهائي والتأكيد لهم بأن الله أراد لهم الانكسار ليبتليهم ويمتحنهم •

ولم يكد المسلمون ينالون قسطا من الراحة من عناء ما ألم بهم في أحد حتى كان محمد يعاود السعى لبسط نفوذه ونشر سلطانه • وغزا المسلمون بنى أسد وهى قبيلة من أشد القبائل بأسا تقيم في نجد على مودة لقريش ونهبوا أهلها وخيلها وقتلوا شيخ بنى لهيان وكان قد أظهر العداء للمسلمين وقطعوا رأسه وحملوها معهم إلى المدينة • ولكن بنى لهيان خطفوا ستة من المسلمين ثارا لشيخهم وقتلوا أربعة منهم ثم باعوا الاثنين الباقين إلى قريش ليقتلها أقرباء قتلى بدر من المشركين (١) ويعتبر هذان وهما زيد وخبيب من الشهداء عند المسلمين ويقال إن أهل مكة عندما شرعوا يجلدون خبيبا بسياطهم بعد أن صلبوه هتف قائلا : « اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا » وعندما شد القرشيون وثاق الرجلين سلمت الرماح إلى أبناء قتلى بدر وطلب إليهم أن يطعنوهما

(١) تشويه آخر في الروايات من جانب المؤلف فكتب السيرة تجمع على أن رهطا من غفل والقارة وهما بطنان من خزيمة (لا لهيان كما يقول المؤلف) قدم على رسول الله (صلم) بعد أحد فقالوا يارسول الله ان فينا اسلما فلو ارسلت معنا نفرا من اصحابك يفتقوننا في ديننا ويقرئونا القرآن ويعلموننا الاسلام فبعث معهم ستة من اصحابه اميرهم مراد بن ابي مراد الفتوى لخرجوا معهم حتى اذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هديلا فلم يرع القوم في رجالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد فشروهم فاخذ المسلمون اسياهم ليقاتلوهم فقالت لهم هديل : انا لا تريد قتلكم ولكننا نريد ان نصيب بكم شيئا من اهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه الا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم لقاتلوا حتى قتلوا واجاب الى العهد ثلاثة فقتل احدهم بالطريق والاخران بيما بمكة فقتلا هناك .

(العرب)

بها حتى يموتا • ويظهر تراجع قريش بعد معركة أحد دون استغلال نصرهم والوحشية القاسية فى قتل زيد وخبيب بعد صلبهما عفوية العرب فى أساليب قتالهم من ناحية وقسوتهم التى لا تعرف الرحمة فى النار لقتلهم من الناحية الاخرى

ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين فى هذه الفترة من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما امتاز به المسلمون من نشاط لا حدود له وما اتسمت به قريش من سلبية وجمود • وظل المسلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع ، من قاعدتهم فى المدينة وضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو ، أما الافراد الذين يظهرون عدااء شديدا للمسلمين أو للنبي فكان مصيرهم القتل فى معظم الحالات وبوسائل من النوع الذى نسميه اليوم بالوسائل الارهابية (١) • وأود النّبي فى هذه الآونة رجلا الى مكة لاغتيال أبى سفيان ولكن الخطة لم تنجح (٢) • ومشت الدعوة الاسلامية جنبا الى جنب مع الاغتيالات ومع الدعاية كمحاولة للتأثير على عقول عدد آخر من الناس • ولعل كون محمد نبيا وحاكما وقائدا عسكريا فى آن واحد هو الذى أدى الى ترابط فى وسائل القوة ووسائل الاقناع السياسى والتأثير الدينى التى اتبعتها •

وكانت هذه الاعمال تصرف عند الجماعات القديمة ومنها قريش بالطبع من قبل جهات عدة لعدم وجود زعيم واحد لها مما أدى الى الافتقار الى التنسيق بين التعاون الكامل والوثيق للدعاية السياسية وبين التهديد باستخدام القوة العسكرية • وهكذا فان محمدا كان يتمتع بالنسبة الى

(١) يظهر المؤلف فى هذه اللهجة حقه الاسود الدفين على الاسلام والمسلمين فهو يتهم المسلمين بأعمال الاغتيال دون أن يشير الى ما قام به أعداؤهم من أعمال الاغتيال والفكر بالمسلمين وبينها محاولات عدة لاغتيال النّبي نفسه • وهذه الحوادث كثيرة منها غدر أبى براء بالبعثة التى طلب من النّبي ايافاها الى نجد لتعليم التجديدين ثلثون الدين ومنها قدر عامر بن الطفيل برجلين مسلمين من بنى سليم وغدر بنى النضير برجلين مسلمين ومحاولتهم اغتيال الرسول وغير ذلك من الحوادث التى لاحد لها ولا حصر • وإذا ما أخذ البرء كل هذه المحاولات والاعمال الاجرامية بعين الاعتبار تبين له مافي ابتعاد المؤلف عن الموضوعية من تحيز ضد المسلمين كما وجد الجور لثأر المسلمين من القادريين •

(العرب)

(٢) لم أجد في كتب السيرة اى تأييد لهذه الرواية التى جاء بها المؤلف

(العرب)

المكيين بالمزايا نفسها التي يتمتع بها الديكتاتوريون المعاصرون في تعاملهم مع الديموقراطيات القديمة (١) .

وفي امكاننا المضي بهذه المقارنة الى مدى أبعد فلقد كان في مكة المسلمين - كالشيوعيين اليوم - أن يضمّنوا حماسة عظيمة تثيرها العقيدة الجديدة ولاسيما عند الشبان . واضطرت قريش بطريقتها القديمة في الحياة الى أن تلجأ الى موقف الدفاع وبدلاً من أن تكون كمحمد مشتبكة بصورة دائمة في عمل هجومي لا يستقر على حال نراها سلبية جامدة لا نشاط لها الا في الازمات الموسمية الطارئة .

وكان اجلاء بني النضير أهم حادث وقع في السنة التي تلت معركة احد وتعتبر هذه القبيلة ، القبيلة اليهودية الثانية في المدينة وكانت تعيش في قرية منفصلة تحيط بها بساكني النخيل الى الجنوب من المدينة. وقد اذعنّت القبيلة في سبتمبر (أيلول) عام ٦٢٥م وبعد حصار دام خمسة عشر يوماً - الى أمر الرسول بالجلء عن بيوتها والهجرة الى سوريا حيث أقامت في أريحا وفي منطقة درعا . وبينما كان بقو القينقاع وهي القبيلة اليهودية الاولى التي أجلاها المسلمون من الصاغة وصناع الاسلحة فان بني النضير كانوا من الفلاحين وتوزع المسلمون دورهم وحدائقهم وحقولهم (٢) .

وهكذا واصل النبي على رغم الهزيمة في أحد بسط نفوذه طيلة العام الذي انقضى بعد هذه الغزوة . وكان بغاراته على البدو يأمل في اقناعهم بأن من الخير لهم لو انضووا الى جانبه بدلاً من جانب قريش وهي جماعة

(١) مقارنة سخيفة باطلة . لا وجود لاي مقومات التشابه فيها . فليس أبعد من الاسلام من الديكتاتورية وليس أبعد من تصرفات النبي عن أعمال الديكتاتور . فلقد نص الاسلام على أن الامر شورى بينهم وليس أبعد من الشورى من الديكتاتورية . وكان النبي لا يقدم على عمل سياسي أو عسكري الا بعد التشاور مع صحابته الا اذا كان هناك امر صريح من الله عز وجل . وقد رأينا كيف نفذ النبي رأى الاغلبية في معركة أحد بالخروج للقاء قريش مع أن رغبته هو كانت في البقاء في المدينة . - العرب -

(٢) تحيز واضح سافر لليهود فقد تحدث المؤلف عن جلء بني النضير دين أن يذكر السبب الذي دعا اليه وذلك عن قصد سييء وهو أن يظهر لقرائه ظلم المسلمين لليهود ولو كان منصفاً للذكر السبب الذي اجتمعت عليه كتب السيرة . وهو تأمرهم على حياة النبي عندما مضى اليهم ليحدثهم في أمر مسلمين قتلها بنو عامر حلفاء بني النضير وأرادوا القاء صخرة على راسه وهو متكئ على جدار في أرضهم ليقتلوه لوفاء الله منهم .

(العرب)

تجارية لاتعرف الغارات والغزو وتوخي من اجلاء بنى النضير أضعاف قوة الجماعات غير الموالية له فى المدينة ، وايجاد وسيلة أكثر رخاء ليعيش المهاجرون الذين خلفوا ممتلكاتهم فى مكة •

وبعد انقضاء الحول على « أحد » أى فى يناير عام ٦٢٦ حلت الساعة اللازم لتقبل التحدى الذى كان أبو سفيان قد وجهه الى المسلمين للقاء فى بدر بعد عام - وكانت السنة سنة أمطار شحيحة وهى حالة تجعل الحركة والتنقل متعذرين فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا نظرا لاعتماد الابل والخيل (وهى وسائل التنقل) فى غذائها على ما ترعاه من الارض • وأوفدت قريش رجلا الى المدينة ليذيع فيها أن المشركين يقومون بأعدادات واسعة لالقاء الذعر فى قلوب المسلمين ومنعهم من المضى الى الموعد المضروب • وكادت المكيدة تحقق نجاحها الا أن تصميم النبى أفلح فى النهاية فى حشد نحو من ألف وخمسمائة رجل للمعركة وهو عدد يقارب ضعف العدد الذى خاض به معركة أحد • وكانت النتيجة ان قريشاً هى التى تخلفت عن الموعد وظل المسلمون يرابطون ثمانية أيام فى بدر دون أية مقاومة وحققوا نصراً أبيض لم يسفكوا فيه قطرة •

واستمرت سياسة توسيع الغزوات والغارات القبلية طيلة السنة الخامسة للهجرة واتسعت شمالا حتى وصلت الى الحدود البيزنطية وكان هدف احدى هذه الغزوات قبيلة صغيرة تسمى « بنى المصطلق » وقد وقع ابانها حادث مؤسف • فلقد ألف الرسول أن يصطحب احدى زوجاته فى هذه الحملات وكانت رفيقته فى هذه الحملة ، زوجته عائشة بنت أبى بكر وفى الليلة الاخيرة من الحملة - وكان الناس قد بدءوا فى الرحيل - خرجت عائشة لبعض حاجتها بعيدا عن المعسكر وعندما عادت الى الرجل افتقدت عقدا كان فى عنقها فرجعت الى المكان الذى كانت فيه فى ظلمة الدجى ، وعندما كانت تبحث عن عقدها الضائع كان الركب قد ارتحل مخلفا اياها وراءه دون أن يحس بها أحد • وحمل الناس هودجها وهم يظنون انها فيه اذ كانت ستائره مسدلة • وعندما عادت الى المعسكر رأت القوم وقد ارتحلوا فتلفت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها متصورة انهم سيفقدونها ويعودون للبحث عنها •

وبينا هى فى نومها مر بالمكان شاب يدعى صفوان كان على بعيره قاصدا المدينة • ولما رآها فى حالها هذه حملها على جملة وأخذ برأسه وانطلق به يقصد الناس • وأثار وصول زوجة النبى على بعير يقوده شخص فريب { الاقاويل وأحاديث الافك •

وأخذ أعداء النبي يروجون الشائعات بسرعة للظعن في شرفهسا
والاضرار بسمعتها واثارت في نفس النبي الشكوك . ويقال ان عليا اقترح
على محمد أن يستخلف عائشة قائلا له ان النساء لكثيرات .

وبعد شهر من القلق نزل الوحي ببراءة عائشة وعاد الانسجام الى
صفوف المسلمين لكن موقف «علي» أحدث جفاء بينه وبين عائشة قدر له أن
يتترك آثارا مفعجة بعد وفاة الرسول . وكان من نتائج هذه القضية أيضا
نزول سورة «النور» التي تشترط وجود الشهود الاربعة لاثبات جريمة
«الزنا» والتي تفرض عقوبة الحد الشرعي ثمانين جلدة على كل من يطعن في
«النساء المحصنات دون إقامة الدليل بوجود الشهود الاربعة» (١) .



وساد الذعر قريشا من رؤية نفوذهم يتقلص أمام نفوذ محمد الذي
يلجأ الى أساليب سياسية يجهلون بها فقررت الا أن تضع نهاية للمسلمين
في المدينة . وحشدت في عام ٦٢٧ قوة لا يقل عددها عن العشرة آلاف
أي ثلاثة أضعاف ماكان لهم من قوة في معركة أحد . وكان نحو من أربعة
آلاف من هذه القوة من قريش أماالبقيةفمن قبائل غطفان و«بنى سليم»
و«بنى كنانة» وهي قبائل حليفة لهم . واثارت أنباء هذاالجيش الضخم
المتأهب للغزو قلعا كبيرا في المدينة .

وحدث أن ضمت المدينة في هذه الايام فارسيا اعتنق الاسلام اسمه
«سلمان» وكان هذا الرجل كما يبدو قد مرتجارب علمته شيئا من الاساليب
الحربية الفنية المتبعة في الامبراطورية الفارسية . وقد اقترح هذا الرجل
تحصين المدينة بحفر الخندق لدفع الاعداء عنها . ويبدو أن القسم الأكبر
من محيط المدينة كان محميا بالاسوار والبيوت لكن الجانب الشمالي منها
كان مكشوقا معرضا للاعداء . وشرعت أيدي المسلمين جميعا في الحفر
وعلى رأسهم محمد الذي حفر بيديه والتراب يعلوه منشدا مع المسلمين
والمعول في يديه لاستثارة الحمية في نفوسهم . وتم حفر الخندق في
ستة أيام أي في الوقت المناسب قبل وصول العدو اليها لاقتحامها بهجوم
كاسح .

(١) المقصود هنا الآية الكريمة .. «والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة
شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون»
(العرب)

وتظهر محافظة العرب على أساليبهم القديمة فى الحرب من الحقيقة الواقعة وهى أن قريشا لم تكثر مطلقا بهذا التطور غير المتوقع الذى وضعته والزراية تنضح فى نظرتها اليه بأنه عمل غير عربى وبعيد عن الشجاعة والشرف . وعسكرت قريش أمام الخندق دون أن تقوم بأية محاولة لشن هجوم عام على المدينة على الرغم من أن عددها كان يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين . واقتحم أربعة من فرسان قريش الخندق مدفوعين بهذا الايثار النموذجى لأعمال البطولة الفردية ووجدوا أنفسهم وسط المدافعين عن المدينة متحدينهم الى مبارزات فردية . وخرج على بن أبى طالب كعادته من صفوف المسلمين فبارز قائدهم وقتله مما أرغم الثلاثة الآخرين على الفرار فوق الخندق .

ولم يكن حلفاء قريش من قبائل البادية يستسيغون طعم الحرب الثابتة وسرعان ما أخذت المؤن تنضب والاحتكاك ينشب بين الأحزاب . وقد أثار الكثير منه رسل محمد الذين أخذوا يبدون الخلافات سرا فى صفوف المشركين وراحت ابل قريش وجيادها تنفق لنقص المرمى . وعلى الرغم من أن أبا سفيان كان القائد العام للحملة اسميا الا أن الأحزاب اتبعت نظاما غريبا للقيادة وهو اسناد أمرها فى كل يوم الى واحد من رؤسائهم . وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ضروريا لتهدئة حوافز الغيرة والحسد بين مختلف القادة الا أن مثل هذا الترتيب جعل أية عمليات منظمة للحصار أمرا مستحيلا .

وكان القلق فى غضون ذلك قد استشرى فى المدينة . وفزع الرسول نفسه من تخاذل بعض أتباعه فشرع يفاوض سرا رؤساء غطفان عارضا عليهم ثلث محصول المدينة فى كل عام من التمر شريطة السحاب غطفان من الحصار والعودة الى أراضيها . وقد قبل شيوخ غطفان هذا العرض ولكن قبل أن يعقد محمد الاتفاق النهائى معهم بعث فى طلب رئيسى الاوس والخزرج ليستشيرهما فى الخطة التى اعتزم تنفيذها . وراح الزعيمان يسألانه : «أهو أمر نحبه فنصنعه أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيء تصنعه لنا ؟» ورد الرسول قائلا : «بل شيء أصنعه لكم . ورد الزعيمان قائلين : «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله .النا بهذا من حاجة والله لا نعطيه الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» وكانت هذه إحدى حالات كثيرة أثبت فيها المسلمون

إنهم كانوا أكثر تصميمًا على القتال من النبي نفسه (١) .

وبعد انقضاء عشرين يوما من الحصار هبت عاصفة شديدة ذات ليلة باردة على الواحة وأخذت الريح المربدة المزمجرة تعصف بخيام المحاصرين وتطفئ نيرانهم وتكفأ قدورهم بينما ظل المطر ينهمر مدرارا . ولم تكد تنقضى العاصفة حتى استدعى أبو سفيان رجال قريش وزعمائها الى اجتماع عاجل وأبلغهم أنه قرر الرحيل والعودة الى مكة . ولم تكد قريش ترتحل حتى راح حلفاؤهم من البدو يتفرقون بددا نى الصحراء وهكذا ارتفع الحصار وزالت الغمة عن المسلمين .

وبينما كان الاعداء يختفون من ظاهر المدينة عائدين الى مكة انصرف محمد عائدا الى بيته وهو مجهد وبدأ المسلمون فى وضع سلاحهم وفجأة أتى جبريل رسول الله على بغلة عليها رحالة وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد . ومارجعت الآن الا من طلب القوم . ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمززل بهم . فأمر النبي مؤذنا يؤذن بالناس طالبا اليهم العودة الى سلاحهم والمسير الى بنى قريظة ومضى على ابن أبى طالب يقود الزحف على بنى قريظة وقد حمل راية الرسول ، وهى مقيمة فى قرية مجاورة للمدينة ، وكانت هذه القبيلة آخر قبيلة يهودية ظلت فى واحة المدينة . وقد لا يكون غريبا أن تقف القبيلة موقف العداء من المسلمين الذين كانوا قد أخرجوا اخوانهم اليهود من ديارهم (٢) . وكان وصول قريش على رأس تلك القوة الضخمة الى المدينة قد شجع بنى قريظة على الثار ولذا فقد اتصلوا بقريش وعندما انسحبت قريش فجأة رافعة الحصار عن المدينة ظل اليهود وحدهم يواجهون نقمة المسلمين وسخطهم .

(١) صورة أخرى من صور الكراهية التى يحملها المؤلف للرسول . أيجوز له وهو يدمى الموضوعية أن يقول هذا القول لمجرد أن النبي رأى رأيا غير ما رأى صحبه ؟ ان هذه القصة على أى حال دليل على دحض اتهام المؤلف للنبي بالديكتاتورية اذ انه عمل برأى انصاره .

(٢) تجاهل المؤلف مسابقة منه لمواقفه الواضحة مع اليهود ادراج الحقيقة التى اجمعت عليها كافة الروايات وهى ان اليهود هم الذين حرضوا قريشا وفطفان على حرب « الاحزاب » وان بنى قريظة تكثت بمبهدا وحلفها للمسلمين عندما وصلت قوات المشركين الكبيرة أمام المدينة وراحت تعمل على طعن المسلمين من خلفهم فهم والحالة هذه خونة وجزاء الخائن القتل ولا سيما فى أيام الحروب ولا ريب فى أن تجاهله هذا يزيل كل ادعاء له بالموضوعية .

(العرب)

ودام الحصار على بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة • ونزل اليهود أخيرا على حكم النبي دون قيد أو شرط • وكان هؤلاء قد أقاموا فى المدينة منذ عهد طويل حلفاء لاهلها وأصدقاء ووافق الرسول على أن يولى أمرهم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الأوس ليقول كلمته فى مصيرهم • وكان سعد من المؤمنين الاوائل من أهل المدينة، وقد حمل راية الخرج فى موقعة بدر وكان يحضر الآن من جرح أصابه به سهم ابان معركة الخندق • ويبدو أن جرحه هذا قد أحفظ فؤاده على اليهود حلفائه فأعلن قراره وهو يقضى بقتل الرجال وتقسيم الاموال وسبى الذرارى والنساء • ورضى الرسول بحكم سعد بن معاذ وأمر بتنفيذه • وحفرت الخنادق فى الليل فى سوق المدينة ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم فى جماعات صغيرة وهم قابعون فى الخنادق ، وقد ربطت أيديهم • وقد عرض عليهم الاسلام قبل تنفيذ حكم الموت فيهم وكان فى مكنتهم عن طريق الشهادة أن يتحولوا من مجرمين حكم عليهم بالموت الى مسلمين لهم من الحقوق مالمسواهم ولكنهم رفضوا ذلك •



كانت قريش قد بذلت جهدا هائلا فى حشد ألف رجل لحصار المدينة ولذا فقد وصلت مكانة محمد بعد فشل المشروع العظيم الى الارجح وكان مصير بنى قريظة انذارا كافيا للخونة والمارقين •

ورأى النبي فى نومه فى مطلع عام ٦٢٨ انه دخل مكة دون مقاومة وانه أدى فريضة الحج فى كعبتها • وراح يعلن على الفور عزمه على ذلك • ولا تؤدى فريضة الحج الا فى موسمها المحدد له وقت معين من كل عام ، أما العمرة وهى الحج الاصغر ، فيمكن أن تؤدى فى أى وقت من اوقات السنة • وقد ارتأى محمد أن يؤدى العمرة وكان العرب فى الجاهلية قد جروا على اعتبار أربعة أشهر فى السنة من الاشهر الحرم التى لايجوز القتال فيها ولا الغزو • وهكذا قرر الرسول ان يزور مكة فى هذه الفترة من السنة التى تفرض التقاليد الهدنة فيها • ولم يكن من حق قريش من الناحية النظرية أن تعترض سبيله وأن تحول بينه وبين زيارة الكعبة •

وفى فبراير (شباط) عام ٦٢٨ ، أى بعد عام من حصار المدينة خرج النبي يريد مكة معتمرا على رأس ألف وخمسمائة من أتباعه • لكن قريشا لم تقف على بنيات الرسول السلمية • فسارعت تسليح نفسها وتتخذن مواقعها على طريق المدينة للدفاع عن مكة • ولم يكن المعتمرون من المسلمين يحملون الا السيوف ولم يكونوا فى وضع يمكنهم من خوض القتال ويبدو أن محمدًا

بحركته هذه مع جماعته نصف مسلحين قد ارتضى المغامرة وكانت مغامرة من طراز نادر . وعندما وجد المسلمون طريق مكة مغلقا فى وجوههم انحرفوا ناحية اليمين ومروا الى الغرب من مواقع العدو واقتربوا من مكة من الطريق المؤدى اليها من ساحل البحر ثم توقفوا عند الحديبية وهى على مسيرة يوم الى الغرب من مكة .

وعندما سمع أهل مكة بأن محمدا قد التف حول جناح مواقعهم الدفاعية تراجعوا مسرعين الى مكة وراحوا يوفدون الرسل لمفاوضته وكان يدبل بن ورقاء شيخ خزاعة وهى القبيلة التى كانت تقيم فى مكة قبل قريش أول هؤلاء الرسل . وقد أوضح له النبى أنه جاء لا يريد حربا وانما لزيارة البيت ثم عرض عليه - ليؤكد له نياته السلمية - الماشية التى جاء بها المسلمون ليدبحوها اكراما للبيت العتيق . وتوافد الرسل بعد ذلك على محمد من قريش وقد خلف ننا أحدهم فى تقريره الى قريش عن نتائج بعثته صورة ناطقة عن المكانة التى يحتلها محمد عند صحابته اذ قال ... « لقد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » . وعندما ندهش من الاسباب التى أدت الى رفعة الاسلام علينا أن نذكر هذه السطور القليلة . وفى وسعنا فقط أن نقدر العوامل المادية التى كانت سببا فى انتصار المكيين أو فى انتصار المسلمين . أما الهالة التى كانت تحيط بشخصية النبى فهى فوق مستوى مداركنا وأفهامنا وان كان هناك ولا ريب فى هذه الشخصية شئ يوحى بهذا الاخلاص الكلى عند اتباعه وهو ايهاء يؤلف أحد الاسباب الرئيسية التى أدت الى نجاح الاسلام . وحرى بنا أن نذكر أن روح الحركة كلها قد تبدلت فور وفاة آخر صحابى من صحابة الرسول .

وعاد رسل مكة الى قريش يحدثون قادتها بما رأوه وسمعوه وأوفد

النبى عثمان بن عفان لمقابلة قادة قريش ، وكان عثمان من المسلمين الاوائل وأحد المهاجرين الاول الى الحبشة . وكان قد تزوج من رقية ابنة النبى فلما توفيها الله بنى بشقيقتها أم كلثوم فصاهر الرسول بذلك مرتين . ولكنه ينتمى الى بغي أمية وهو البطن من قريش الذى يرأسه أبو سفيان . وهكذا كان عثمان قريب أقوى رجل فى قريش وأكثرهم ثراء .

وكانت الحديبية قريبة من مكة ولذا فقد توقع المسلمون عودة عثمان فى غضون بضعة ساعات ، ولكن الساعات مرت متناقلة وعثمان لا يعود ، وفجأة وصل الى محمد نبأ لم نعرفه مصنزه يقول ان قريشا قتل عثمان .

ولو صح أن قريشاً قد قتلت عثمان متجاهلة بذلك ما تؤمن به من عصبية قبلية نظراً لانتمائه إلى بنى أمية فإنها بعملها هذا تكون قد قررت القيام بأجراءات حاسمة متطرفة وإن اجراءاتها هذه لابد وإن تكون قد حفزتها على حشد قوة ضخمة للهجوم على المسلمين وإبادتهم مرة وإلى الأبد . ولما كان المسلمون يفتقرون إلى السلاح ولا يحملون إلا السيوف فقد وجدوا أنفسهم في وضع غريب وشاذ ، وعندما أخذت الساعات تمر بطيئة مثاقلة دون وصول أية أنباء عن عثمان أدرك جميع الحاضرين خطورة الوضع الذي يواجهونه .

ويبدو أن النبي نفسه فكر في أن الحرب واقعة لا محالة ووقف النبي تحت شجرة من تلك الأشجار الشائكة التي تطلع هنا أو هناك في هذه الجبال الصخرية الجرداء ودعا جميع الحاضرين إلى بيعته على الموت . ولا ريب في أن عمل النبي هذا يدل دلالة واضحة على إدراكه خطورة الوضع الذي كان فيه . وأخذ المسلمون في جو من التوتر الكبير يمرون بالنبي فيصافحونه مبايعين تماماً كما فعل الحجاج من الانصار قبل سبع سنوات في بيعة العقبة الثانية . وكان المسلمون في هذه اللحظة في غمرة من الايمان الطاغى والحماسة . وبعد سنوات طويلة عندما كانت جيوش المسلمين قد تمكنت من إقامة الامبراطورية الاسلامية العظيمة وكان الرفاق السابقون يتحدثون كما يتحدث العسكريون دائماً عن التجارب التي مرت بهم مستعبدين ذكرى أمجاد الأيام الاولى ، كانوا يظهرون دائماً أعظم الاجلال للذين حاربوا في بدر والذين بايعوا النبي في الحديبية . وتظهر هذه الذكريات الطويلة الدائمة مدى القلق الذي أحس به المسلمون في تلك الفترة الطويلة من الانتظار المتلهف .

ولجأة ظهر رجل يستقل بعيراً قادماً من ناحية مكة واتجهت الأعين كلها إليه . وكان القادم سهيل بن عمرو وهو مبعوث آخر من المبعوثين الذين أوفدتهم قريش وعندما تبينه النبي من بعيد هتف قائلاً وقد اطمانت نفسه وسرى عنه . . . « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . وكان سهيل من أبلغ المتكلمين ومن أبرع الدبلوماسيين وأقواهم حجة ومنطقاً . وطال أمر المفاوضات قبل أن يصل مع المسلمين إلى صيغة اتفاق ورفض سهيل إدراج عبارة « محمد رسول الله » في مقدمة العقد وأخيراً تم عقد الاتفاق بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وتقررت الهدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات وأن يعود المسلمون عن مكة هذا العام دون أداء الحج على أن يسمح لهم بالحج في العام المقبل . ونص الاتفاق على

السماح للطرفين المتعاقدين بعقد الأحلاف مع القبائل التي يريدانها وان اشترط اعادة أى مكى من المدينة اذا ترك مكة قاصدا المدينة دون اذن من وليه .

ولم يكد التوقيع على الاتفاق يتم حتى وصل أبو جندل بن سهيل بن عمرو المفاوض القرشى قادما من مكة طالبا اعتناق الاسلام . وهنا طالب والده بتنفيذ الاتفاق الذى تم توقيعه وراح النبى يأمر الرجل الذى جاء يطلب الاسلام بالعودة الى مكة وهو متألم لامره ، هذا وعندما جىء بالشاب وهو يرسف فى قيوده ليقاد الى مكة . ويقال : ان عمر بن الخطاب النارى المزاج سار الى جانبه وهو يحمل سيفه بيده ويدنيه منه . ويقال : ان عمر قال فيما بعد وهو يذكر الحادث « وكنت أرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه » . ولكنه ضن بأبيه ونفذ الميثاق .

وتوضح المادة - التى اشترطت فيها قريش على محمد أن يرفض من يأتيه من قريش طالبا الاسلام من غير اذن وليه مع الحادثة التى وقعت لابن سهيل بن عمرو - السبب فى ضعف قريش على الرغم من قوتها المادية الظاهرة ، فمما لا ريب فيه أن قريشا كانت تحس بعدم الولاء فى صفوفها ولا سيما بين الشبان . اذ تعددت الحوادث طيلة سنوات الهجرة الطويلة عن وجود شبان فى صفوف المسلمين ما زال آباؤهم يحاربون الى جانب قريش . ويقال ان ابن عبد الله بن أبى شيخ المنافقين طلب من الرسول السماح له بقتل أبيه ومن هذا يبدو أن العرب باتوا أكثر نضوجا لتقبل هذا الدين التقدمى الجديد الذى كان الشبان على استعداد للترحيب به وقبوله بينما كان كبارهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الايام الغابرة .

وقد أصيب كثيرون من المسلمين بخيبة الأمل اثر صلح الحديبية وذلك لرجوعهم عن مكة دون الطواف بالبيت وكانوا يتوقعون الدخول ظافرين اليه . وراح عمر بن الخطاب - على مألوف عادته - يعلن سخطه على هذا الصلح قائلا لأبى بكر: «ياأبا بكر أليس برسول الله؟» قال أبو بكر الهادى الوديع بلى، قال عمر «أولسنا بالمسلمين؟» قال بلى ، قال «أوليسوا بالمشركين؟» قال بلى ، قال «فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟» قال أبو بكر ، وهو هادى يا عمر الزم غرزه (أى الزم أمره) فانى أشهد أنه رسول الله ، ثم انصرف الرسول بالمسلمين قافلا الى المدينة حتى اذا جاءت نهاية اليوم الاول من العودة هبط الوحى على النبى بسورة الفتح التى صورت الصلح على أنه نصر عظيم ومن الصعب علينا نحن ألا نتصور أن المسير الى الحديبية بهذه القوة الصغيرة التى لا سلاح لها الا السيوف لم يكن

خطأ عسكريا خطيرا • ولو كانت قریش أكثر جرأة أو كان لها قائد واحد حازم لكان في إمكانها أن تلحق بالمسلمين هزيمة خطيرة أو أن تزيل بالمسلمين من عالم الوجود إذ ان المسلمين الذين اشتروا في المسيرة كانوا مجموعة من اعتنق الاسلام • ولم يكن محمد في الحقيقة قائدا عسكريا ذا مواهب عسكرية بالغة ، ولم يكن يشترك بنفسه في المعارك بل يظل في الصفوف الخلفية لا يشترك في القتال اشتراكا فعليا • ولا ريب في أن هذه الناحية جديرة بالملاحظة إذا أخذنا بعين الاعتبار ان العادة في تلك الايام كانت قد جرت على أن يسير القائد على رأس جنوده شخصيا ويحمل الراية الحربية بيديه (١) •

ومن الصحيح انه استخلم وسائل الاغتيال والقتل أو رتب حوادثهما ولكنه تمكن في الغالب من التأثير تأثيرا مطلقا على اتباعه الأكثر ميلا منه الى سفك الدماء (٢) • فلقد عاش في مجتمع لا يعرف الرحمة وكان كل فرد منا الى حد كبير ثمرة عصره ومحيطه • لكنه بطبيعته كان ميسالا الى التأمل والى اللين والرافة لا الى الشدة ولعل من المفارقات ان هذه الشخصية البعيدة عن العسكرية بطبيعتها قد جاءت بالاسلام دين الجندية والقوة •

(١) لا ريب في أن جلوب دفعه كرهه للاسلام والمسلمين الى الخروج من الوضعية تماما مخالفا بذلك حتى الكثيرين من المؤرخين الغربيين الذين افترقوا بالحقيقة برغم كرههم للاسلام فقد أئزر على محمد (صلم) مهارته كقائد عسكري وزعم انه كان خلوا من المواهب العسكرية لكن الواقع القلبي، اذا تركنا أى اعتبار آخر، يقيم الدليل على سفه «رأى جلوب هذا» فلقد اثبتت الحروب الصغرى التى خاضها النبى انه كان الى جانب رسالته النبوية قائدا عسكريا بفطرته اذ استطاع ان يخلق من السلم نواة جيش قام بعدئذ بفتح عسكري لم يشهد له التاريخ البشرى مثيلا. ناهيك عن ان اختلاف الخطط الحربية التى كان النبى يتبعها في كل معركة من المعارك بحسب طبيعة المعركة وارضها والقوات المشتركة فيها يدل دلالة واضحة لا تقبل الشك ولا الجدل على أن محمدا كان مبقرىا في شئون الحرب كمبقريته في شئون السياسة ، وانه قاد امته الى النصر ووالى العظمة بشكل وقف له التاريخ كله اعجابا •

(العرب)

(٢) عاد المؤلف هنا ثانية الى نكت سموه ولقد سبق لى أن أوضحت في هامش سابق كذب هذا الادعاء ولو شئنا تعداد كل من قتلهم المسلمون تبين لنا أن جميع هؤلاء كانوا من أشد أعداء المسلمين ومن أكثرهم تعريضا بهم وبأعراضهم • ناهيك عن أن هذا القصص الذى كان ينزله المسلمون بأعدائهم كان الوسيلة الوحيدة لمقاب الجرمين الذين لا يتوعدون من القتل بالمسلمين ، نظرا لانتقار المجتمع العربى آنذاك الى الحكومات التى تتولى مثل هذا المقاب •

(العرب)

وهكذا كما أزال النبي ما أحس به المسلمون في أحد من خيبة أمل بغزو اليهود من بنى التضيق فانه بعد ستة أسابيع من صلح الحديبية أزال ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل ، ورد اليهم معنوياتهم بالسير في حملة في يونيو (تموز) من عام ٦٢٨ على خيبر وهي واحة يهودية تقع على بعد ثمانين ميلا الى الشمال من المدينة (١) . ولقد أبدى اليهود بعض المقاومة ولكن المسلمين تمكنوا من اقتحامها حصنا بعد حصن . ولم يقيم النبي باجلاء اليهود الزارعين هذه المرة وانما أبقاهم على أرضهم اذ أراد الإبقاء على أتباعه الى جانبه في المدينة . ولهذا لم يرغب في أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم دورا في خيبر وأسفرت خطة الرسول هذه عن الإبقاء على اليهود في أراضيهم شريطة أن يدفعوا للمسلمين نصف ثمارها جزية . أما المنقولات والاموال والجواهرات والابل والماشية ومخزونات التمر والزيت والقمح فقد حملها المسلمون غنيمة لهم وسلبوها (٢) .

(١) مرة أخرى يظهر المؤلف تشبعه الظاهر لليهود فهو لا يذكر السبب الذي حمل النبي (صلم) على القيام بغزوة خيبر مكتفيا بأن يقول انه أراد منها أن تكون وسيلة لرفع معنويات المسلمين بعد خيبة الأمل التي منوا بها في صلح الحديبية. لكن وقائع التاريخ تؤكد وجود اسباب أخرى منها اشتراك يهود خيبر في تحريض قريش على حملة الأحزاب وحصار المدينة، ومنها انهم لم يتطخوا بمصر يهود المدينة فراحوا يستعدون لحرب يعلنونها على المسلمين . ومنها أن سلام بن مشكم وهو من زعماء يهود خيبر أعلن لقومه أن خطرا يهدد كيان اليهود في شمال الحجاز وأن عليهم أن يبادروا لتأليف اتحاد يهودي يجمع يهود خيبر ووادي القرى ولذلك وتيماء ، ثم يوحون على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية المشتركة. وقد علم النبي بكل ذلك وعلم ما هم عليه من قوة بأس ووفرة مال وسلح. ولم يكن هناك كما يقول الأستاذ محمود الدرة في كتابه « تاريخ العرب المسكوي » أي أمل في أن يعتنقوا الاسلام ولما كان الغرض الذي يرمى اليه النبي جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد وجد أن عليه أن يقضي على هذا الخطر الجديد الذي بدأ يتعمق للانقضاض عليه قبل أن يفكر في غزو بلاد الروم والفرس ، وهو ما بدأ يفكر به النبي جديا في هذه الايام كما يظهر من رسالته الى ملوكهم داعيا اياهم الى الاسلام .

(العرب)

(٢) تظهر الطريقة التي يعرض فيها المؤلف الموقف، الحقد الدفين والخروج على الموضمية ولو كان المؤلف منصفاً بعض الانصاف لما سمي غنائم المسلمين نهبا اذ انها شرعة الحرب ، ولعل المؤلف لم ينس ما فرضته دولته بريطانيا بعد انتصارها وحلفائها على ألمانيا في نهاية الحربين العالميتين من غنائم حربية على الشعب الألماني . كما نتقد انه لم يكن لينسى مطلقا ما كانت تبتره بلاده من الاراضي التي تحتلها أو تستعمرها في افريقية وآسيا .

(العرب)

وكان النبي قد زوج ابنته فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان قد رباه وكانه ولده وقد وضعت فاطمة ولدين هما الحسن والحسين اللذان قدر لمصيرهما المفجع أن يؤثر تأثيرا عميقا في التاريخ الاسلامي ولكن في هذه الايام المبكرة لم يكن هناك أى تكن بالمصائب التي ستحل في المستقبل ، ولما كان النبي من أكثر الناس ولوعا بالاطفال فانه كان دائم اللعب مع حفيديه . وكانا حتى في الاوقات التي يؤدي فيها صلاته لا يتورعان عن الطلوع الى ظهره فينزلهما بكل رقة وحنان ويمضي في صلاته وعبادته

وتقول الروايات : انه في هذه الفترة في عام ٦٢٨ بعث برسله الى ملك الفرس وامبراطور الروم وحاكم مصر ونجاشي الحبشة يدعوهم الى الاسلام . ويقال : ان كسرى الفرس مزق رسالة النبي وأساء الى حاملها أما هرقل امبراطور الروم فقد تسلم الرسالة بشيء أقل من الغضب سائلا عن هوية مرسلها ، أما المقوقس حاكم مصر فقد تلقى الرسالة بقبول حسن ورد عليها معتذرا عن قبول الاسلام ، ولكنه حمل الرسول هدية الى النبي تضم جوادا جميعا وبغلة وحمارا للركوب وجاريتين كانت احدهما مارية القبطية التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وهو الولد الذي توفي في سنى طفولته .

وتقول الروايات بالنسبة الى هرقل : ان أبا سفيان سار بعد صلح الحديبية على رأس قافلة تجارية الى الشام فالقت شرطة الروم القبض عليه في دمشق (١) . وكان هرقل قد أصدر أوامره بأنه راغب في لقاء أى قادم من الحجاز وهكذا نقل أبو سفيان الى القدس ليقابل الامبراطور فيها . وراح الامبراطور يسأله عن تفاصيل ما يقال عن اضطرابات في الحجاز وعن هذا النبي الجديد . ورد أبو سفيان بأن اتباع هذا النبي هم الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وان معارضيه هم ذوو الأسنان والشرف من قومه . ولو صحت هذه الرواية فانها لا تقيم الدليل على أن الامبراطور قد تسلم رسالة من محمد ، فلا بد أن يكون هرقل - وهذا شيء

(١) تقول رواية أبي سفيان نفسه ان لقاء القبض عليه تم في غزة لا في دمشق كما يقول المؤلف . وفي هذا دليل على افتقار المؤلف للدقة التاريخية .

طبيعي - قد تلقى معلومات من مخابرات حكومته عن الحركة الجديدة في
الحجاز ولا بد أن يكون قد رغب في سؤال أى قادم من مكة عما سمعه
للحصول على ما يريده من تفصيلات جديدة .

لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع
الرسائل فليس هناك فيما حفظ عن حياة النبي ما يشير الى أن النبي قد
تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة
التي حققها العرب بعد وفاة النبي ، المسلمين أنفسهم وهي انتصارات
ما كانت لتتحقق لو أن النبي قد تنبأ بوقوعها لكن مارية القبطية كانت من
الناحية الأخرى شخصية تاريخية . ولا ريب في أن صورة بدوى بسيط
حافى القدمين يتحدى ملك الملوك في قصره بفارس ، تعتبر صورة درامية
مسرحية (١) .



(١) لا أدري هل هذا التشكيك في الرسائل ، فلقد اجبعت كتب التاريخ الاسلامي
على وجود هذه الرسائل ونقلت نصوصها وأسماء الذين حملوها ورويت كيف استقبل كل
منهم في المكان الذي قصده . فقد حمل دحية بن خليفة الكلبي الرسالة الى ملك الروم
وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم :
السلام على من اتبع الهدى . أما بعد اسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مريم وان تتول فان
ائم الاكارين عليك » . وتضيف الروايات وهي صحيحة ان قيسر عندما تسلم رسالته
جمع بطارفته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فآظفروا كراهة ذلك ولا رأى
تفويدهم قال انما قلت ماقلت لاختر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد
الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة
مؤته كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الامر قبل استفحاله .

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب الى النذر بن الحارث بن ثمر الفسائي
صاحب دمشق وكتب اليه « سلام على من اتبع الهدى وآمن بى وانى ادعوك الى أن تؤمن
بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » . ولما وصله الكتاب قال : « من ينزع ملكى
منى أنا سائر اليه » ولم يسلم .

وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ويطلب
منه أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجرى الحبشة لفعل النجاشي ما طلب منه فأرسل
جعفرًا وأجاب الى الاسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ومعه كتاب فيه « بسم الله الرحمن
الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن
بالله ورسوله وشهد الا اله الا الله وانى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان
حيا . اسلم تسلم فان ابيت فائما عليك ائم المجوس » فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك
رسول الله (صلعم) قال « مرق الله ملكه » ، ثم كتب كسرى الى باذان عامله على اليمن
« ابئت الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك فليأتياى به » ولكن أمره لم
ينفذ .

أراد المسلمون في السنة السابعة للهجرة • أي بعد عام واحد من صلح الحديبية أن ينفذوا الحق الذي نص عليه هذا الصلح وهو الحج إلى مكة • وخرج نحو من ألفين من المسلمين ينتهزون الفرصة لأداء العمرة. وراحت قريش رغبة منها في اجتناب الصدام المسلح مع المسلمين أو خشية منها في أن يتمكن الرسول ببليغ قوله وفصيحه كلمه من هداية عدد جديد من أبنائها وتحويلهم إلى الاسلام تجلو عن مكة جلاء كاملا وتنتشر على سفوح الجبال المطلة على المدينة وقد استبد بها الفضول لرؤية ما سيفعله المسلمون • وظهرت أخيرا طليعة الراكب مطلة من الوادي الضيق المليء بالغبار والذي تسير فيه الطريق المؤدية إلى المدينة • وكان النبي على رأس الراكب وقد أحاط به أبو بكر وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ورهط من صحابته وسار وراءه وسط عاصفة من الرمال نحو ألفين من المسلمين بعضهم يركب الإبل والبعض الآخر يمشي على الأقدام واتجهه النبي فورا إلى الكعبة فلمس الحجر الأسود ثم طاف بالبيت سبع مرات • وكان هذا الطواف من التقاليد التي عرفت في عهد الجاهلية ثم سار عليها الاسلام •

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي قد بقي في مكة ولم يبرحها مع قريش وإن لم يكن قد أشهر اسلامه بعد • وكان قد بعث برسالة سرية إلى ابن أخيه قبل معركة أحد يحذره فيها من نيات قريش • وراح يرحب به. الآن وهو يدخل إلى مكة مبلغا إياه أنه قد أعد له عروسا يبنى بها على الفور محاولا بذلك أن يكسب مودة ابن أخيه الذي بدا له الآن جديرا بالتقرب والود (١) • وقد اختلف المؤرخون في سلوك العباس اختلافا

= وبعث خاتب بن أبي بلتعة إلى القوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث إلى رسول الله (صلم) « بمارية القبطية » أم إبراهيم فكان بذلك الرحم الذي بين العرب وأهل مصر •

وبعث سليط بن عمرو المامري إلى هوزة بن علي الحنفي وبعث العلام بن الحضرمي إلى النذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيش وأخيه مياد الأزديين هذه حقائق تروى كتب التاريخ العربي وتروى أسماء خاتمي الرسائل فهل يمكن لمؤرخ يدعى الموضوعية أن ينكرها إلا إذا كان يريد المغالطة ويريد التشكيك في صحة التاريخ الإسلامي !! (المعرب) :

(١) يناقض المؤلف نفسه فهو يقول قبل قليل بأنه كان على أن يصل إلى النبي منذ أمد طويل مما يظهر أخلاصه له ثم يعود فيحاول تصويره بالإنسان الأنهازى الذي يال إلى التقرب من النبي بعد أن قويت شوكة وأصبح جديرا بالتقرب • أما التفسير الصحيح لسلوك العباس في رأي فهو أن العصية القبلية عنده كانت أقوى من

كبيراً فادعى بعضهم انه كان قد أسلم منذ أمد طويل وانه كان مخلصاً في
 إسلامه ولم يبق كل تلك المدة في مكة متظاهراً بالشرك الا لخدمة مصالح
 ابن أخيه . ورأى بعضهم انه كان صورة مبسكرة لراعى أبرشية برى
 (The vicar of Bray) (١) متظاهراً بالاخلاص لقريش ومتصلاً سرا
 بالمسلمين . وقد قدر لهذا العربي الذكى ان لم نقل هذا البدوى الماكر أن
 يكون جد أسرة أضحت من أقوى الاسر الحاكمة فى تاريخ العالم ومن هنا
 تنشأ الصعوبة اليسوم فى الحكم على شخصيته وسلوكه . فلقد رأى
 المؤرخون العرب بعد نحو من قرن وبعد أن أصبح أحفاد العباس خلفاء ان
 مصلحتهم تقضى بأن يصوروه فى أحسن صورة .

وكان من أهم النتائج التى حققها اتساع نفوذ محمد وانتشار
 شهرته الآن تحول عدد من أبرز قادة قريش العسكريين الى الاسلام وفى
 طليعتهم خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة . ولقد سبق
 لنا أن رأينا ان خالدًا وعمرًا كانا السبب فى انتصار قريش فى أحد .
 وذلك بالتفافهما على رأس الفرسان حول جناح المسلمين وقدر لهما أن
 يصبحا من أعظم قادة المسلمين العسكريين بعد قليل . أما عثمان بن طلحة
 فكان من أبرز رجالات قريش اذ بيده سدة الكعبة وهو حق وراثى فى
 آل عبد الدار أبرز بطون قريش ، وهكذا تحول سادن كعبة المشركين الى
 الاسلام ، وليس ثمة من شك فى أن تحول هؤلاء البارزين الى الاسلام
 وسلوك المسلمين الرائع فى مكة فى أيام الغزوة الثلاثة قد تركا أثراً
 ملحوظاً عند أهل المدينة .

وعلى الرغم من أن خروج العام المنصرم الى الحديبية كان عملاً سابقاً
 لأوانه الا أن فكرة النبى فى أداء فريضة الحج كانت فكرة رائعة حقاً فلقد

= إيمانه بأصنام الكعبة وان لم يكن قلبه قد امتدى حتى تلك اللحظة بنور الاسلام ،
 ومن هنا فان مساعدته للنبى كانت ثمرة ارتباطه العائلى به لا ثمرة انتهازية او نفاق كما
 يحاول المؤلف ان يصوره .
 (العرب)

(١) راعى ابراهيمية «برى» فى انجلترا .. هو وصف يطلق على كل انتهازى متناق
 لا مبدأ له ولا عقيدة ويدعى هذا الرجل « سيمون الين » وكان راعياً لكنيسة برى فى
 عهد هنرى الثامن ملك انجلترا . وتمكن من المحافظة على منصبه رغمًا عن التقلبات الدينية
 فى انجلترا فى تلك الايام طيلة عهد ادوارد السادس ومارى والىصابات عن طريق تكيف
 عقيدته طبقاً للعهد الحاكم اى بالتقلب من الكاثوليكية الى البروتستانتية وبالعكس وكانت
 شخصيته الفكرة التى صورتها قصيدة « فى العصر الذهبى أيام شارل الثانى الطيب »
 وأضحت بعد ذلك مثلاً يضرب للانتهازية والتلون العقائدى .
 ١١

(العرب)

كان من أهم أسباب مقاومة قريش للإسلام اعتقادهم بأن تقبل هذا الدين الجديد سيؤدي إلى الخط من شأن الكعبة ويضع نهائية لمركزها المبجل. كمدينة مقدسة ، أما وقد أظهر النبي أنه يحترم هذه الكعبة وأن الإسلام يفرض على أتباعه أداء طقوس الحج القديمة ، فإنه بضمه هذا أقنع المكين بأن الإسلام لن يؤدي بأية حالة من الأحوال إلى الخط من شأن مدينتهم وقد تأيد هذا الاجراء بالقول بأن ابراهيم النبي هو الذي بنى الكعبة وأن رسالة محمد هي بعث دين ابراهيم حنيفا . وكان النبي يقول : ان اليهود والنصارى قد انحرفوا عما فى دين ابراهيم الجدد من طهر ونقاء كما أن قريشا يجعلها الكعبة مستودعا للاصنام والوثان قد انحرفت أيضا عن دين ابراهيم . لكن شرك قريش لم يؤد على أى حال إلى الانقاص من قداسة الكعبة بيت الله العتيق وكل ما يطلب الآن هو تطهيرها من رجس هذه الوثان . وكانت هذه الأقوال كافية لاقتناع أهل مكة بأن الإسلام لا ينتقص من قدرهم ولا من قدر كعبتهم .

يضاف إلى هذا أن محمدا قد غدا الآن وعلى الرغم من اعتباره رسمياً العدو الأول لمكة صاحب قوة وسلطان يفرضان على العرب فى جميع أنحاء الجزيرة احترام صاحبهما، وأخذ القرشيون يتساءلون فى قرارة ضمائرهم ترى هل من الحكمة أن يناصبوا العداء أعظم من أنجبته قبيلتهم من رجال؟ وليس ثمة من شك فى أنهم كانوا يتابعون بشيء من الحسد والغيرة هذه الوفود وهى تتجه من جميع أنحاء الجزيرة إلى محمد لتعرض عليه احترامها واجلالها . وسرعان ما غدا هذا التحول فى الرأى العام فى مكة ظاهراً يتسلط على أغلبية الناس فيها .

وأوفد النبي فى عام ٦٢٩ عددا من الحملات العسكرية والغزوات . وكان النصر من نصيب بعضها كما كان الفشل نصيب بعضها الآخر . وقد يكون من الطريف كل الطرافة أن نقارن هذه الأساليب بتلك التى اتبعها الوهابيون فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فلقد وضع الوهابيون مخططهم عن سابق عمد واصرار على الأسس نفسها التى اتبعها المسلمون الأول ولم يكن النبي قد وجه أية قوة ضخمة كبيرة لمحاربة قبائل البادية إذ ركز عملياته العسكرية الكبيرة على محاربة قريش أما الحملات على البدو فكانت من النوع الارتجالي ، وتقوم بها قوات صغيرة وبهذا يمكن تفسير نجاح بعضها وفشل بعضها الآخر وإن كان تكررها يحمل طابع الفائدة إذ يقنع القبائل البدوية بالأخلاص لها من هذا الازعاج إلا بالاذعان لارادة محمد .

ويبدو لي أن أساليب الوهابيين التعبوية كانت أكثر كفاية ونشاطا
 إذ بينما كان ابن سعود يسمح لرجالہ بغزو القبائل غير الوهابية متى
 شاءت فإنه كان يحشد قواته كاملة من وقت إلى آخر ليهاجم بها هجوما
 كاسحا قبيلة كانت ترفض الاذعان له باعثا بما يوجهه إليها من ضربات.
 عنيفة ، الفزع والرعب في قلوب القبائل الاخرى ، مما يدفعها إلى
 الاستسلام له فورا وسنرى فيما بعد كيف ان الخلفاء اتبعوا هذه الاساليب
 بعد وفاة النبي ، ولا ريب في ان عدم لجوء النبي إلى هذه الاساليب يمكن
 أن يعزى إلى أن النبي لم يكن واسع الاهتمام بالشئون العسكرية ولم يكن
 يوليها الكثير من تفكيره . يضاف إلى هذا ان شخصية النبي كانت طاغية
 بما عرف عنه من قدرة على الاقناع والتأثير بحيث استطاع أن يكسب
 الانصار دون الحاجة إلى اللجوء إلى نظام عسكري فعال . وأصبح من
 الضروري بعد وفاته اللجوء إلى استخدام القوة بصورة أكثر تنظيما وذلك
 بضبط المسلمين والسيطرة عليهم .

• ومع كل هذه العوامل فقد أعد النبي في شهر سبتمبر (ايلول) عام
 ٦٢٩ حملة عسكرية كبيرة الاهمية وكثيرة التنظيم وكان القصد منها غزو
 بعض الاراضي الخاضعة للسيطرة البيزنطية ، وتقول الروايات العربية : ان
 القصد من الحملة كان الثار لبعض الرسل المسلمين الذين أوفدهم النبي
 إلى المنطقة (١) . وكان الثار دافعا أقسوى في الحروب العربية من الفتح
 والاحتلال . وكان النبي قد بلغ الواحدة والستين من عمره في هذه الآونة
 وخطط الشيب فوديه ولذا لم يرافق أيا من الحملات التي أوفدها في تلك
 السنة الثامنة للهجرة .

وأقام النبي معسكرا على بعد بضعة أميال إلى الشمال من المدينة
 وأمر المتطوعين من المسلمين بالتجمع فيه وولى زيد بن حارثة ولده بالتبني
 قيادة الحملة التي ضمت نحو من ثلاثة آلاف رجل . وكانت هذه هي
 الحملة الاسلامية الاولى على هذا النطاق الضخم التي خرجت إلى هدف
 بعيد عن المدينة . وتطلب اعداد مثل هذه الحملة وقتا طويلا ولذا فان
 أنباءها بلغت ما يسمى الآن بشرق الاردن قبل تحركها .

(١) تروى كتب السيرة أن شرحبيل بن عمرو أمير القساسنة كان قد قتل الحارث .
 ابن عمير الأزدي الذي أوفده النبي عليه السلام إلى هرقل وان مقتله سبب لما شديدا .
 للنبي فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله .

ويبدو أن المسلمين وكانوا لا يزالون يعتمدون في نصرهم على النصرة
 الإلهية وعلى معنوياتهم العالية قد أهملوا إيفاد العيون لرصد حركات
 العدو وتنقلاته ولم تبلغهم أنباء حشد العدو لقوة عسكرية ضخمة في موآب
 (الكرك) من أرض إبلقاء حتى كانوا قد وصلوا إلى معان • وأمر القائد
 بقوته بالتوقف وانقضى يومان في نقاش بين قادة المسلمين ليقرروا إما
 المضي في حملتهم أو الرجوع إلى المدينة • وكان موقف عبد الله بن رواحة
 وهو أحد المسلمين الأوائل ومن أشد المسلمين حماسة وتعصبا هو الذي
 قلب الوضع تماما فقد انبرى يقول : « يا قوم والله إن التي تكرون للتي
 خرجتم تطلبون الشهادة • وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة
 وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي آكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي إحدى
 الحسنين أما ظهور وأما شهادة » وصدق الناس ابن رواحة ومضوا على
 التوفيق زحفهم للقاء الروم •

واتجه الغزاة شمالا وقد جعلوا سلسلة جبال إبلقاء العالية والطويلة
 إلى يسارهم بينما انحدرت سفوحها نحو الشرق لتدوب في هذه الآماد
 الفسيحة من الصحراء وعبر المسلمون هذه السفوح على بعد خمسين ميلا
 إلى الشمال من معان ليجدوا أنفسهم وجها إلى وجه أمام قوة تبلغ أضعاف
 أضعافهم جلها من القبائل البدوية الموالية للروم وتعززها كما تقول
 الروايات العربية بعض قوات الروم ، ولعلها كانت تؤلف بعض الحاميات
 الرومانية المرابطة في المنطقة • وهناك على مقربة من قرية مؤتة الصغيرة
 سهل صغير يقبع بين هذه السلاسل الجبلية المسماة بجبال إبلقاء • وقرر
 المسلمون أن يخوضوا المعركة في هذا السهل • والتقى الناس واقتتلوا
 وقاد زيد بن حارثة ، ورأية النبي في يده ، هجوم المسلمين مقتحما صفوف
 الروم حتى قتل برماهم ، وانبرى جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي
 يحمل الراية من زيد الشهيد ويقتحم صفوف الروم قائلا ...

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وباردا شرابها
 والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
 على أذ لاقيتها ضاربها

ويبدو أن عرف العرب بأن يحمل القائد نفسه الراية ويخوض بها
 المعركة لم يكن يصلح للمعارك المنظمة وإن صلح لطراز الحروب العربية •
 وأطبق العدو على جعفر البطل وسرعان ما وقع مثخنا بالجراح • وتقول
 الروايات العربية : أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله

فقطعت فاحتضنه بعضده حتى قتل على يد جندي روماني ، وراح عبد الله ابن رواحة يحمل الراية فورا وعندما نظر الى صفوف المسلمين وقد علاها الاضطراب اقتحم صفوف العدو وهو يقول :

يا نفس الا تقتلى تمسوتى هذا حمام الموت قد صليت وما تمنيت فقد أعطيت ان تفعل فعلهما هديت وظل يقاتل ويتقدم حتى قتل وهو ينشد الجنة التي طالما تلهف اليها .

وكان خالد بن الوليد وقد تحول أخيرا الى الاسلام يقاتل بين المسلمين . وكان أكثر خبرة في القيادة العسكرية من زيد أو جعفر وقد يكون أقل تشوقا منهما الى الجنة (١) . وعندما تولى القيادة في هذه اللحظة من الانكسار أفلح في أن يسيطر بشخصيته القوية الأسرة على من تبقى من المسلمين . وثبت أحد الانصار الراية في الارض فالتف حولها المسلمون . وأخذ خالد يتأخر بهم قليلا قليلا مع الاحتفاظ بالنظام حتى انسحب من الميدان دون أن يلحق به الروم الذين كانوا قد أجهدوا كل الاجهاد (٢) .

ويقوم مسجد الآن في أرض مؤتة وله مئذنتان عاليتان وفي هذا المسجد ضريح جعفر بن أبي طالب وكان الضريح مهديا ومهملا في عشرينيات القرن الحالي واني لأعتز كل الاعتزاز لان الجيش العربي الاردني هو الذي تولى اصلاح الضريح وبناء مئذنتيه (٣) ومازال أهل مؤتة يعتقدون حتى

(١) محاولة مأكرة من المؤلف للتشكيك في صدق اسلام خالد بن الوليد مع ان اى تفكير في طبيعة هذا القائد الكبير تجعله أبعد الناس عن الريف ولا سيما أنه لم يكن مرفعا على الاسلام لو لم تكن نيته صادقة فيه . مع العلم بأنه كان يحتل منزلة رفيعة في قريش بسبب مهارته العسكرية .

(العرب)

(٢) تقول احدى الروايات العربية ان الروم لم يلحقوا بجيش المسلمين لانهم ظنوا ان خالدا يخدمهم حتى يرى بهم في الصحراء .

(٣) دليل واضح واعتراف صريح من المؤلف بالدور الذي كان يؤديه في الاردن بتولييه قيادة الجيش العربي الاردني الذي كان يعتبره جلوب جيشه الخاص او جيش بلاده بريطانيا التي يتولى خدمة مصالحها ، فهو يعلن اعتزازه لان الجيش الاردني هو الذي بنى المسجد ، وأنا لا أفهم هذا الاعتزاز اذا كان جلوب يعتبر نفسه مجرد قائد لهذا الجيش لكن اعتزازه هذا ناجم عن اعتباره الجيش ملكا له ومن هنا نستطيع ان نفهم حقيقة الدور الذي اداه جلوب في قيادته لهذا الجيش ابان حرب فلسطين وفي جميع المعارك العربية التي تلت هذه الحروب الى ان أخرج شباطه الاحرار جلوب من قيادته ليمروا الجيش ويحولوه الى جيش عربي يخدم العروبة ليس الا .

(المغرب)

يومنا هذا ان جيشنا من أشباح المسلمين يزحف عند فجر كل يوم من أيام الجمعة عبر السهل متجها الى الشرق حاملا رايته البيضاء ليشن هجوما عنيفا كاسحا على المكان الذي كان يقف فيه جنود الروم .

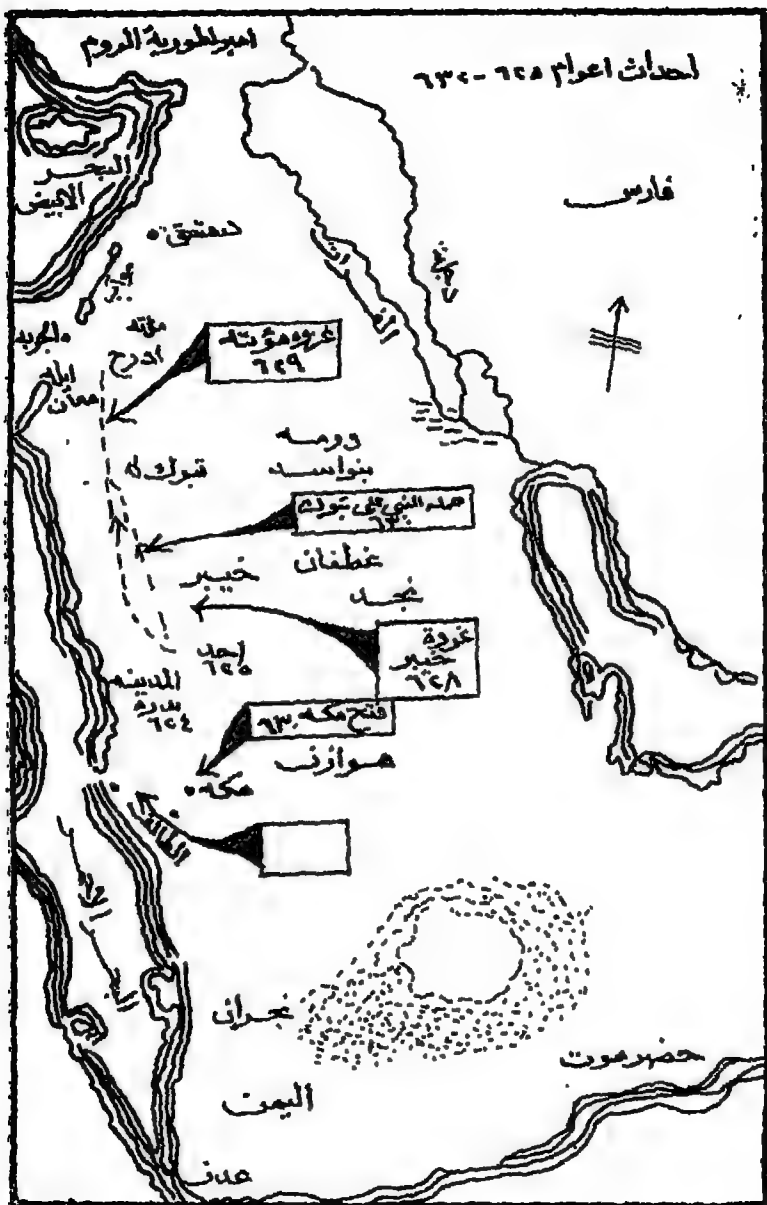
وعندما اقترب المسلمون المتراجعون من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون في خارجها وأخذ الناس يحثون على الجنود التراب ويقولون « يافرار فررتم في سبيل الله » ولكن محمدا بتلك الابوة الرحيمة التي عرفت عنه والتي كان يحسن استعمالها راح يقول : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى » . وأسرع النبي الى بيت ابن عمه جعفر حيث احتضن أولاده وعيناه مفرورقتان بالدمع ثم قصد بيت زيد حيث احتضن طفله الصغيرة التي جاءت الى النبي مهرولة وقد أشرق وجهها بالدمع ، وراح النبي يعلن في المسجد في اليوم التالي انه رأى في نومه شهادة مؤتة في فراديس النعيم على سرر من ذهب ، وكان جعفر على هيئة ملاك له جناحان خضبتهما دماء الشهادة . ولعل هذا هو السبب الذي دعا الناس فيما بعد الى تسمية جعفر بالطيار .

وعلى الرغم من نكسة مؤتة فان عددا من القبائل العربية أوفدت رسلها وبعوثها طيلة عام ٦٢٩ تنشد صداقة النبي والتحالف معه .



وكان الرأي العام في مكة قد تحول في هذه الآونة تحولا واضحا الى جانب المسلمين وأدرك النبي ان الوقت قد حان لتوجيه ضربته النهائية الى قريش . وسرعان ما أمنت له القبائل البدوية الذريعة أو المبرر . وكانت هناك قبيلتان احدهما تسمى خزاعة والآخرى بنو بكر تعيشان متجاورتين خارج مكة وبينهما ثارات قديمة منذ عهد الجاهلية . وكانت خزاعة حليفة للنبي بينما كان بنو بكر حلفاء لقريش . وحدث في هذه الآونة أن أرادت بكر الثار من خزاعة فخرج نفر منها لمباغطة أعدائهم على ماء خارج مكة وأوقعوا بالخزاعيين عددا من الإصابات القاتلة . وخرج بديل بن ورقاء أحد شيوخ خزاعة والذي قام بدور الوساطة في الحديبية على رأس وفد من قومه الى المدينة فأخبروا النبي بنقض قريش لعهدا وان غدر بنو بكر حلفاء قريش يعتبر خرقا لمعاهدة الحديبية .

ويبدو أن النبي قرر ان الفرصة جد مواتية للقيام بعمل حاسم ازاء قريش وراح في يناير (كانون الثاني) عام ٦٣٠ يأمر المسلمين بالتحارب والمحرب وسيطر العرب على زعماء قريش الذين كانوا يدركون ولا شمسك



ما بلغ اليه نفوذ محمد وسلطانه وراح أبو سفيان قائدها في معركة أحد ، وأحد كبار أعداء النبي ومعارضيه يسرع الى المدينة ولكن هذا القائد المتعطر وسزعيم قريش لم يستطع مقابلة النبي اذ رفض السماح له بمقابلته واضطر الى أن يرجو أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب الوساطة والشفاعة عند محمد فضنوا بها عليه وعاد الى مكة مخذولا مهانا (١) .

(١) في رواية المؤلف بمضى الخطأ فلقد قابل أبو سفيان النبي (صلم) ولكنه لم يستمع اليه كما ان سفارة أبي سفيان لم تكن نتيجة علم قريش بما اعترمه النبي اذ حافظ النبي أشد الحفاظ على سرية الحملة ولم يطلع عليها حتى أشد الناس قربا اليه ، وانما كانت نتيجة خوف قريش من النبي بعد نقضها لعهدها في النزاع الذي وقع بين خزاعة وبنى بكر . وهذه هي الرواية الصحيحة كما نقلها ابن اسحق وابن هشام .

خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله (صلم) في المدينة فدخل على ابنته حبيبة زوج النبي فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول (صلم) طوته منه فقال يابنية ما ادري اوقبت بي من هذا القراش ام وقبت به عنى قالت بل هو فراش رسول الله ، وانت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله (صلم) قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى ثم خرج حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب الى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله (صلم) فقال ما أنا بفاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال أنا أشفع لكم الى رسول الله (صلم) ؟ فوالله لو لم أجد الا الدرع لجاهدكم به . ثم خرج الى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت النبي (صلم) وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها ، فقال يا علي انك أمس القوم بي رحما ، وانى قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا فاشفع لى الى رسول الله . فقال على : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد هزم رسول الله (صلم) على امر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت الى فاطمة وقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بتيك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر . قالت : والله ما بلغ بنى ذلك أن يجبر بين الناس وما يجبر أحد على رسول الله . قال : يا أبا الحسن انى أدري الامور قد اشتدت على فانصحنى قال : والله ما أعلم لك شيئا يفنى منك شيئا ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا قال : لا والله ما أظنه ولكنى لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال : ايها الناس انى قد أجزت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك قال جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علي شيئا ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أملى المدو ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار على بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يفنى ذلك شيئا أم لا ؟ . قالوا : وبم أمرك قال أن أجبر بين الناس ففعلت قالوا هل أجار ذلك محمد ؟ قال لا : قالوا ويلك ! والله ان زاد الرجل على أن لعب بك فما يفنى منك ما قلت .

(العرب)

وخرج محمد في عشرة آلاف من المسلمين قاصدا مكة في يناير عام ٦٣٠ . وكان المهاجرون والانصار يسرون خلقه مسيرة رجل واحد ولكن معظم القوة كان من أبناء القبائل (١) وانضم اليه بنو سليم وكانوا لا يزالون معادين له وهو في طريقه الى مكة ومضى الجيش في زحف سريع حتى بلغ «مر الظهران» في خارج مكة ولم تكن قريش قد عرفت بعد بما فعله المسلمون . وأدرك العباس عم النبي . ان النهاية غدت قريبة وحتمية فهجر مكة أخيرا وانضم الى جيش المسلمين الزاحف (٢) .

وجاء أبو سفيان نفسه في تلك الليلة طالبا الاستسلام لمحمد . وهب عمر بن الخطاب يطلب من النبي السماح له بقتله ولكن النبي دعاه بلهجة رقيقة الى الاسلام وراح هذا المحارب العجوز الكبير حتى في موقفه هذا وهو وحيد بين عشرة آلاف مسلم يعترف بوحدانية الله ويظهر بعض الشكوك في رسالة النبي ولكن شكوكه هذه ما قتلت ان زالت عندما راح العباس يقول له بحماسة من أسلم حديثا « ويحك أسلم وأشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك » . ولم يكن في وسع أبي سفيان أن يناقش فأشهر اسلامه فورا (٣) .

(١) تروى كتب السيرة ان قوة المسلمين ضمت سبعمائة من قبيلة سليم والفا من مريضة وأربعمائة من بنى غفار وأربعمائة من بنى أسلم ونفرا آخر من تميم وقيس . واسد .

(٢) يحاول المؤلف مرة أخرى التشكيك في اسلام العباس مع أن السياق التاريخي . للقصة يشير الى أن العباس كان على اتصال بالنبي قبل أن يسلم علنا . وهذا الاتصال هو وحده الذي يفسر كيف علم العباس بمسيرة المسلمين الى مكة في الوقت الذي لم تكن قريش تعرف عنها شيئا كما ستروى في الهامش اللاحق وكيف ذهب الى لقاء محمد . قبل أن تعرف قريش شيئا عن مجيئه .

(٣) في قصة اسلام أبي سفيان بعض الأخطاء . وأرى أن أروها كما رواها ابن هشام في سيرته : « لما نزل النبي مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب واصباح قريش . والله لئن دخل رسول الله (صلم) مكة حنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه فانه لهلاك قريش الى آخر الدهر . وخرج العباس على بافلة الرسول البيضاء حتى وصل الأراك فلعله يجد بعض الخطابة أو صاحب لين أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم حنوة . وبينما هو في طريقه سمع كلاما تبينه بأنه كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وسمع ابا سفيان يقول : « ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا مسكرا وبديل يرد عليه : هذه والله خزاعة خستها الحرب ، ويرد أبو سفيان قائلا خزاعة أقل من أن تكون هذه نيرانا ومسكرا ، وهتف العباس بهما قائلا : ويحك ايا ابا سفيان هذا رسول الله في الناس واصبناخ قريش والله وقال . أبو سفيان فما الحيلة ؟ فذاك ابي وامى . قال العباس والله لئن ظفر بك ليضربن =

وأملى النبي شروطه • وأمر أبا سفيان بالعودة سراعا الى مكة ليعلن
فى الناس ان من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابيه فهو آمن
ومن دخل المسجد (الكعبة) فهو آمن •

وراح جيش المسلمين الذى يضم عشرة آلاف مقاتل يخرج من بطون
الجبال متجها الى مكة وقرر النبي تقسيم قوته الى أربعة ارتال أولها رتل
يقوده أبو عبيدة بن الجراح الذى سمنسمع عنه كثيرا فيما بعد ويضم
المهاجرين وبينهم النبي نفسه ليدخل المدينة من شمالها الغربى • والى
اليسار رتل يقوده الزبير بن العوام ويسير فى خط مواز لخط الرتل
الاول • أما الرتل الثالث فيقوده سعد بن عبادہ شيخ الخزرج ويدخل من
الناحية الغربية بينما يقود خالد بن الوليد الرتل الرابع الذى يضم فئات
من مختلف القبائل ومهمته الالتفاف حول المدينة والدخول اليها من
الجنوب • وأمر النبي قادة الارتال بشيء من الصرامة بالا يقاتلوا ولا يسفكوا
دما • وأقيمت للنبي قبة على أرض مرتفعة تطل على المدينة التى كان النبي
قد غادرها قبل ثمانى سنوات فرارا من بطش أهلها تحت جنح الظلام
والتي اختفى منها فى غار ثور القريب منها ثلاثة أيام وهو الغار الذى
يراه الآن من قبته • أما الآن فهناك ثلاثة آلاف محارب يسرون تحت
أمرته لاقتحام مدينته التى نشأ فيها والتى تقف الآن جاثية أمام ارادته •

وبعد استراحة قصيرة ركب النبي ناقته القصواء ودخل المدينة الى
أن جاء البيت قطاف به سبعة على راحلته ثم وقف على باب الكعبة وأمر

عنك ، فاركب في عجز هذه البفلة حتى أتى بك رسول الله فاستأمنه لك • فركب
أبو سفيان خلفه ورجع صاحبه وجاء به الرسول لم يدخل عمر بن الخطاب قائلا : يا رسول
الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير مقد ولا عهد فدمنى فلاضرب عنقه • ورد
العباس •• يا رسول الله انى قد أجرته • وجلس العباس الى رسول الله (سلم)
فاخذ براسه وقال : والله لايناגיעه الليلة دونى رجل فلما أكثر عمر في شأنه قال العباس:
مهلا يا عمر وقال النبي •• اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به • فذهب
به وبات عنده ولما أصبح غدا به الى رسول الله •• فلما رآه الرسول قال •• ويحك
يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ قال : بآبى أنت وأمى ما أحلمك
وما أكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنى شيئا
بعدقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ؟ قال بآبى أنت وأمى
ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك أما هذه والله فان فى النفس عنها حتى الآن شيئا فقال
له العباس • ويحك اسلم وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب
عنقك فشهد أبو سفيان شهادة الحق واسلم •

(الحرب)

بتطهيرها من الاصنام والقذف بها من أماكنها . ثم أمر مؤذنه بلالا الحبشى بأن يؤذن للصلاة ووقف المسلمون وراء أنبى يؤمهم فى صلاته ويؤدون الفريضة . وعاد فأمر المتادين بأن يسادوا فى الشوارع بتحطيم جميع الاصنام والتمائيل فى البيوت .

ولم يخطر ببال محمد المنتصر الفاتح أن يثار أو ينتقم فقد أعلن لأهل مكة . . « اذهبوا فانتم الطلقاء » ولم يستثن من هذا العفو العام الا عددا قليلا دون العشرة أمر النبى بقتل أربعة منهم فقط لكثرة ما كان منهم من أذى للمسلمين . وفر عكرمة بن أبى جهل الى اليمن فتشفعت له زوجته عند النبى فعفا عنه وعاد بعد أن ذهبت اليه هذه المرأة الباسلة لتستدعيه وبات عكرمة بعد سنوات قليلة من أبرز قادة المسلمين . وكانت هند زوج أبى سفيان المرأة المتوحشة التى مثلت بجثة حمزة فى معركة أحد بين اللاتى أهدر الرسول دماءهن ثم عاد فعفا عنها .

وكانت الخطوة التالية التى قام بها النبى استدعاءه أهل مكة جميعا الى الكعبة لأداء يمين الولاء له . وراح الرجال يمرون بالنبى أولا ، وكل منهم يصافحه ويمسك بيده برقة ودماثة ويبايعه تماما كما بايعه السبعون الاول من الانصار من أهل المدينة فى بيعة العقبة قبل ثمانى سنوات . وعندما انتهت بيعة الرجال جىء بالنسوة الى ساحة الكعبة وجاءت هند امرأة أبى سفيان مع النسوة وقد اختمرت لتخفى وجهها عن النبى وبدأ النبى حديثه اليهن بخطبة قصيرة أعلمهن فيها أنه يريد منهن أن يبايعنه ويقسمن على الولاء للإسلام ويشهدن شهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان النبى قد اكتفى بطلب البيعة من الرجال فهبت هند والنبى لا يعرفها تقول : « انك تطلب إلينا ما لم تطلبه من الرجال » . وعرف النبى على الفور هوية التى قاطعته فسألها أر لست هندا ؟ قالت بئس من الجراة « أجل أنا هند . فأكد لها النبى بصوته الهادى الوقور انه قد عفا عنها لان الله غفور رحيم (١) .

وعاد النبى يواصل حديثه اليهن عن عادات الجاهلية وأن يحصن فروجهن ولا يثنن بناتهن . وراحت هند تقاطعه قائلة : « لقد أنشأنا أولادنا وجئت تقتلهم بعد أن شبوا فى بدر » ولا ريب فى أن هذه المرأة

(١) لم أستطع العثور على تأييد لهذه الرواية فى كتب السيرة .

كانت من النوع الذى لا يحتمل لعنفوانها وغطرستها • ومن حقنا أن نرثي
لأبى سفيان احتماله العيش معها •

وأمر النبى عمر بن الخطاب بأن يتلقى البيعة من النسوة نيابة عنه
اذ عرف ان النبى لم يلمس فى حياته يد امرأة غريبة عنه • ولا ريب فى
أن هذه الحشمة قد تكون موضع الاستغراب عند الاوربيين نظرا لسماعهم
بأن النبى قد بنى باحدى عشرة زوجة وجارية واحدة. ولكن هذا الاستغراب
يزول اذا عرفت الاسباب التى أدت الى زواج النبى من هذا العدد الكبير
من النسوة، يضاف الى هذا ان هناك ناحية فى الاسلام يصعب على الغرب
فهمها ، فللمسلم اذا شاء أن يتزوج من أربع نسوة ولكن عقاب العلاقات
الجنسية غير المشروعة صارم فى الاسلام كل الصرامة • ويعتز الغرب كل
الاعتزاز بأن نظامه يقوم على الزواج بواحدة ولكن الغربى يلهو بعدد من
العلاقات غير الزوجية • ويظهر هذا الحادث ان نساء المسلمين الاول لم يكن
من النوع الذى يقبع فى الجحور وان العرب لم يعرفوا ظاهرة « الحريم »
التي تلصق خطأ بالعرب وقد عفا النبى عن هند ولكنه لم يعف عن قينة
كانت تنشد الاغاني فى هجاء النبى والمسلمين •

وهكذا تم فتح مكة دون اراقة دماء الى حد كبير • وقد قتل خالد بن
الوليد الحاد المزاج بعض الناس عند باب المدينة الجنوبى وأنبه النبى
تأنيبا حادا على ما فعله (١) • وعلى الرغم من ان النبى كان قد عانى
الاضطهاد فى مكة وعلى الرغم من أن عددا من الد أعدائه كانوا لا يزالون
يعيشون فيها الا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو فى
يوم انتصاره. ولا ريب فى أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التى
اتصف بها النبى كرجل دولة كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة

(١) يحاول المؤلف هنا أن يعطى صورة مشوهة من الحقيقة ليظهر أن خالد بن
الوليد عصي أمر الرسول بقتله بعض الناس وأن النبى أنبه على عصيائه ، أما الحقيقة
التي رواها كتب التاريخ العربى فهي أن بعض مقاتلة قريش اعترضت رتل خالد بن
الوليد عند أسفل مكة ومنهم نفر من بنى بكر والاحابيش وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل
وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وكانوا قد اتخذوا موقعا على جبل يدعى الخندمة
ولما اقتربت طلائع رتل خالد وشقوها بوابل من النبال فلم يمهلم خالد لحظة ، وفي كرة
واحدة شنت شملهم بعد أن قتل منهم اثني عشر رجلا وانهمز الباقون وفيهم زعماء
الحركة ولم يقتل من رتل خالد الا رجلان وقد أسف محمد (ولم يؤنب خالد كما زعم
المؤلف) على ما حدث اذ كان يتمنى لو لم يسفك دم بدخول مكة ولكنها مشيئة الله •

(الغرب)

الانتقام من خصالهم ومزايهم • وقد حقق النصر الكبير بسياسته
ودبلوماسيته أكثر منه بعمله العسكري • ولا ريب في أن عظمته تقوم في
أنه أدرك في عصر يسوده العنف وسفك الدماء ، أن الافكار أقوى من القوة
والعنف •

يذكر القارىء ان النبي زار الطائف ابان ذروة الاضطهاد في مكة قبل
الهجرة وهي بلدة تقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من مكة وانه قوبل
ابان هذه الزيارة بالازدراء ، وقذفه أهلها بالتراب والحجارة ولكن سقوط
مكة في أيدي المسلمين ملأ قلوب أهل الطائف رعبا وذعرا ، فقرروا أن
يأخذوا زمام المبادرة وأن يبادروا المسلمين في مكة بالهجوم قبل أن تصل
جيوش محمد اليهم ، وكانت قبيلة ثقيف هي التي تقيم في الطائف ولكنها
تحالفت مع هوازن وهي مجموعة من البطون تعيش في الصحراء المجاورة
لمكة وتنتهي مع ثقيف الى أصل واحد هو قيس عيلان • وأجمعت القبائل
على المسير الى حرب المسلمين وحشدوا رجالهم استعدادا لمهاجمة مكة •

وعلم النبي الذي كان قد أتقن الآن صناعة الحرب وأدرك أهمية
المخابرات العسكرية بأمر هذا الاستعداد من عين له كان قد أوفده الى
المنطقة وقدم اليه تقريراً عن تأهب القبائل فخرج اليها للقائها على رأس
جيش يضم عشرة آلاف محارب انضم اليهم ألف محارب من قريش بعد
أن رأوا من النبي في فتح مكة ما رأوه من رافة ورحمة •

وكانت كثرة المسلمين العددية وثقتهم من النصر سببين - كما يبدو -
في اظهار ماأظهروه في هذه المعركة من افتقار الى الاستعداد والحيطة • فلم
يكد المسلمون يتحركون عند الفجر عبر وادي حنين الضيق حتى باغتهم
العدو من جميع الجهات بعد أن كمن لهم في شعاب الوادي • وكانت
المباغطة كاملة تمام الكمال ولم يتح لهم الوقت للثبات وتنظيم صفوفهم •
وتراجعت طلائعهم فزعة لاتلوى على شيء وسرعان ماذب الذعر في الجيش
كله وراح ينهزم محاولا الفرار من الوادي الضيق وقد سادته الفوضى •

وكان النبي في مؤخرة الجيش فلما رأى الناس لا يلوون على شيء
انحاز الى جهة اليمين وثبت عند منحدر الجبل الذي يحده الوادي الضيق
محواله النخبة الممتازة من صفوف الرجال أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب
وعلى بن أبي طالب وعمه العباس وأسامة بن زيد نجل قائد مؤنة الشهير،
وأخذ يهتف عاليا •• أين أيها الناس ؟ هلموا الى أنا رسول الله ، أنا محمد

ابن عبد الله ، يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا • يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة وراح أبو سفيان العجوز وكان مرافقا للنبي في حملته هذه يهمس في أذن من حوله بمكر قائلا « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » •

وكان في مقدمة هوازن رجل يتولى مطاردة المسلمين المنهزمين وقد امتطى جملا أحمر اللون يحمل راية سوداء في يده ورمحا طويلا وكان ان أدرك أحد الفارين ، طعنه برمحه في ظهره ثم رفع رمحه لمن وراه فاتبعوه ، وراح علي بن أبي طالب يتبع ذلك الهوزاني صاحب الراية وضرب عرقوبي. الجمل فوق على عجزه ووثب أحد الانصار على الرجل فقتله •

وكان المسلمون قد بدعوا في غضون ذلك يفيقون من ذهول المفاجأة. ويعودون الى الالتفاف حول النبي ومعظمهم من الانصار. وسرعان ما التفت حوله نحو من مائة رجل من المسلمين فعبأهم أمام المشركين يصدون سيلهم الجارف وظل العباس وهو جهر الصوت يصرخ بأمر من النبي • • « يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمرة ! » وتوقف هجوم هوازن ورجع المسلمون. الذين كانوا قد ولوا عن المعركة الى الميدان • ولم يكن في وسع المشركين أن يصمدوا أمام هذا العدد الطاغى من المسلمين وشن بنو سليم وهم قبيلة من البدو اعتنقت الاسلام حديثا ، هجوما كله حماسة ، وبدأت هوازن. ترتد على أعقابها ، ثم سرعان ما انقلب ارتدادها الى هزيمة وأخذ المنهزمون ينشدون الملاح في الجبال المحيطة ، وانسحب أهل الطائف الى مدينتهم. وأغلقتوا على أنفسهم أبوابها وكان أى بناء من الحجر يؤلف عقبة كاداء في طريق أية قوة عربية لا سلاح لها الا السيوف والرماح والنبال ولذا فقد أمر. النبي بعد خمسة عشر يوما من الحصار على المدينة برفعه دون فائدة •

وكان انتصار المسلمين في حنين كاملا حتى انهم كسبوا غنائم كثيرة بينها أعداد وفيرة من الابل والغنم كما أسروا عددا ضخما من الاسرى. معظمهم من نساء هوازن وأطفالها وعندما عاد النبي عن الطائف دون أن يتمكن من فتحها شرع يقسم الغنائم والاسلاب بين رجاله • ووصل اليه وفد من هوازن المهزومة على أمرها يرجوه اطلاق سراح النسوة والأطفال. من الاسرى ، وسرعان ما لبى النبي الطلب بما عرف عنه من دماثة وتسامح ، فلقد كان ينشد من جديد في ذروة انتصاره أن يكسب الناس أكثر من نشدانه عقابهم وقصاصهم • وحدث ان كانت قبيلة بني سعد التي حضنت. الرسول في طفولته ، اذ رضيع من حليمة وهي إحدى نساءها ، بين القبائل المهزومة في صفين وساقوا الى النبي الشيوخ بنت الحارث بن عبد العزى •

أخت الرسول في الرضاعة فعنفوا عليها في السياق فقالت للمسلمين : تعلموا والله أني لأخت صاحبكم في الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى الرسول قانت : يا رسول الله • اني أختك في الرضاعة قال : وما علامة ذلك ، قالت غضة عضضتها في ظهري وأنا متوركتك «جاملتك على وركي» وبتلك الروح الديموقراطية السمحاء التي عرفت عنه والتي اكتسب بها قلوب الناس نشر النبي عباته على الارض وأجلسها الى جانبه متحدثا اليها عن الايام القديمة الطيبة وراح يردّها الى قومها بعد أن أنعم عليها بالهدايا والهبات •

وبينما كان النبي يرد سبايا حنين الى أهلها من هوازن كان اتباعه ينتظرون تقسيم الغنائم بفارغ الصبر وعندما رأوه يقصد خيمته أتبعه الناس يقولون • يا رسول الله أقسم علينا فيثنا من الإبل والغنم ، حتى ألجئوه الى شجرة فاخبطفت عنه رداءه فقال : «ردوا على رداي أيها الناس فوالله ان لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم » ومثل هذا المنظر يعتبر شيئا ممتعا لكل من عرف قبائل البدو في يومنا هذا فهو يجسد لنا رغبة أهل القبائل في غنائم الغزو ممزوجة بموقفهم الذي ينطوي على الإجلال والحب والاعجاب والانطلاق مع القائد القريب الى قلوبهم • ان أوضاع الصحراء على حالها لم تتبدل برغم انقضاء هذه القرون الطويلة •

وعندما شرع في تقسيم الاسلاب والغنائم أخذ منها الخمس لنفسه كما تنص الشريعة الاسلامية ولكنه لم يحتفظ بشيء من حصته وانما وزعها على المكيين الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا وعلى شيوخ قبائل البدو ليكسب قلوبهم وعلى الرغم من أن النبي كان ينظر الى نفسه كرسول وكمصلح ديني أولا وأخيرا الا انه كان يلجأ الى الاساليب العلمانية أيضا ليفوز بقلوب الناس ، وليفرض نفوذه عليهم • وكان يؤكد للمسلمين المؤمنين ان لهم النعمى في الدارين الاولى والاخرة ، ولم يكن يطلب من الاثرياء الشبان أن يبيعوا كل ما يملكونه وأن يتبعوه • وقد تلقى أبو سفيان وولده يزيد ومعاوية هدايا ممتازة •

وليس ثمة من مشقة أبلغ وأشد من توزيع الاسلاب على البدو الكثيري الضجيح والعجيح اذ اننى جربت ذلك بنفسى وان كانت تجربتى على نطاق أضيق ، ولا ريب في انه محمدا كان يظهر أقصى ما يمكن من الكياسة والاناة والصبر والدماثة حتى ينال كل رجل نصيبه • فقد أعاد لمالك بن عوف شيخ هوزاف والرجل الذي قاد قبيلته لحرب المسلمين كل ما كان

له من ماشية وابل مقابل اعتناق الاسلام(١) . وسرعان ما طبق مالك بن عوف سنة البدو المعروفة ، بالانقلاب من جانب الى آخر بسهولة وأخذ على عاتقه محاربة حلفائه السابقين من ثقيف فشرع يغيث على المأهل الطائف من ماشية ويهاجم من يخرج منهم من المدينة(٢) واستخلف النبي أخيرا رجلا على مكة وعاد الى المدينة(٣) .

لكن النبي لم ينج على أية حال من النقد على الطريقة التي وزع فيها غنائم حنين ، فليس ثمة من شك في أنه لجأ الى اغراء الهدايا والاموال الدنيوية لاكتساب الاعداء وتحويل المشركين الى الاسلام(٤) . وكان يكتفى دائما من الاعراب بقول الشهادتين دون أن يتحقق من صدق اسلامهم ولكن أهم ما وجه اليه من نقد هو أنه في تقسيمه للغنائم لم يبذل أية محاولة لمكافحة أنصاره الصادقين المؤمنين ، بل استخدم الشطر الأعظم من الغنائم

(١) تقول كتب السيرة ان رسول الله (صلم) سأل من مالك بن عوف فقيل له انه بالطائف مع ثقيف . فقال : أخبروا مالكا انه ان اتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . وقد قل مالك ما أراه الرسول وحسن اسلامه .

(٢) تظهر رغبة المؤلف في الانتقام من شأن الاسلام والمسلمين في كل عبارة يقولها وليس ادل على ذلك من حديثه عن مالك بن عوف زميم هوازن وتصويره اياه بصورة الانتهازي القلب متخذا منه مثلا على قلب البدو متأثرين بالاغراء المادى . اما بالنسبة الى مالك فقد ذكر المؤرخون العرب انه أسلم وحسن اسلامه ولعل التفسير الصحيح لموقفه هو انه شأنه في ذلك شأن غيره من الكثيرين من عرب الجاهلية لم يكن قوى الايمان بالاولان والاصنام ؛ فلما أسلم متأثرا بأوضاعه بعد هزيمة حنين فتفتح قلبه للإيمان ورأى في الاسلام دين الحق والحقيقة فاصبح مسلما صادقا أبلى في الدفاع عن حياضه أحسن البلاء وإذا كان المؤلف يأخذ على البدو ثقلهم وتأثرهم بعوامل الاغراء متخذا من بعض الحوادث التي مرت به - ابان الدور الذي اداه معهم في خدمة امبراطوريته الاستعمارية، دليلا يدفعه تفرضه الى جعله وسيلة لئلا هذه القاعدة العامة الخارجة عن الموضوعية التي يطلقها فلماذا لا يأخذ على الانتهازيين من افراد او دول في عالمه الغربى ثقلهم وهم كثر مع العلم انهم لا يتقارنون بالبدو الجيلة في مجالات العلم . ان الانتهازية غريزة عند الكثيرين وهى توجد عند بدو الصحراء كما توجد عند أرفع الناس في كل مكان وفي مقدمتها بلادهم .

(٣) استخلف النبي على مكة ثناب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل يفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن .

(٤) تعرض آخر بالرسول الكريم (صلم) ولكن المؤلف نسي الموضوعية في اتهامه هذا بل وفي كل اتهاماته . فلقد بات النبي في هذه المرحلة وجعل دولة وقائد أمة بالإضافة الى رسالته الدينية السامية ولا يستغرب من جعل الدولة والقائد ان يستخدم بعض الوسائل الدنيوية في تثبيت الحكم وتوطيد أركانه . لكنه الهوى من المؤلف .

(العرب)

محاولا ترضية أعدائه • فلم يتلق الانصار من أهل المدينة الذين كانوا أول من استجاب لنداء الرسول بعد نكسة حنين في بادىء الامر أى شطر من الغنيمة • وعندما أعرب بعضهم عن تدمره راح النبي يجمعهم ويخاطبهم مثنيا على اخلاصهم ووفائهم ومؤكدا لهم أن اعتماده على صدق إيمانهم هو الذى دفعه الى أن يفعل ما فعل ، ثم قال : « ألا ترضون ياعمش الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار » ثم رفع النبي يده الى السماء وهتف قائلا : اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء أبناء الانصار • هذه صورة من صور شخصيته المغناطيسية إذ أنه ما كاد يقول قولته حتى بكى القوم واخضلت لحاهم وقالوا رضيونا برسول الله قسما وحظا •

وأصبح محمد الآن • وفي نظر الجميع صاحب أضخم قوة في الجزيرة العربية كلها • وأخذت الوفود تصل باستمرار حاملة اليه ولاء جميع القبائل من أطراف الجزيرة القاصية والدانية وذلك رغبة منها فى تجنب الوقوف موقف العداء من المسلمين •

وفي سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٠ تولى النبي بنفسه قيادة قوة قوامها عدة ألوف من المحاربين سار بها فى اتجاه الشمال الى حدود الروم • والطقس فى هذا الشهر من السنة فى الحجاز شديد الحرارة • وتكون الصحراء أشبه بالأتون اللاهب • وأظهر بعض المسلمين ميلا الى عدم الاشتراك فى الحملة حتى تكون حدة الحر قد انتهت (١) • ولكن سرعان ما جاء التنزيل على النبي يقول ... فى سورة التوبة « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

(١) يظهر المؤلف بقوله هذا ان المسلمين جميعا ترددوا بالاشتراك فى غزوة تبوك مع أن المناققين ودعاة الهزيمة هم وحدهم الذين وقفوا هذا الموقف ، وكان هذا هو السبب فى الموقف الصريح الحازم الذى وقفه النبي منهم اذ طلب الى زعيمهم عبد الله ابن أبى ، البقاء مع رجاله فى المدينة لعدم ثقته به وبجيشه ، كما بعث الى دار سويلم اليهودى التى كان يجمع الانهراميين فيها لتدبير المؤامرات وتهويل أمر الحملة فى نفوس المسلمين فأحرقها ، مما أجبر التامرين على القرار وعدم العودة الى مثلها • وإخطا المؤلف هنا خطأ ثانيا فقد ذكر أن جيش المسلمين كان يد بضعة ألوف فى حين تجمع كتب التاريخ الاسلامى أن الجيش زاد على الثلاثين ألفا وهو رقم لم يشهد العرب له مثيلا من قبل •

(العرب)

وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . »

وعندما وصل النبى بجهشاه الى تبوك بعث فى طلب يوحنا أمير ايلة المسيحي وعندما جاءه هذا صالح الرسول على عهد بدفع الجزية وجاءته وفود من أهل جرباء وأذرح - والآخره كانت فيما مضى معسكرا للرومان - فتصالح معها على أن تدفع جزية سنوية على الرغم من أن هذه الاماكن كلها كانت من المحميات الرومانية . وبعث وهو فى تبوك بخالد بن الوليد الى الاكيدر الحاكم المسيحي لدومة الجندل وهو الاسم القديم لبلدة الجوف الحالية . وقد عقد معه النبى الصلح أيضا على دفع الجزية وعاد الجيش الاسلامى بعد أن قضى عشرة أيام فى تبوك الى المدينة دون قتال (١) .

ولا ريب فى أن الهدف من هذه الحملة كان رفع الراية الاسلامية على حدود الروم ولم يكن النبى قد نسى معركة مؤته ولذا فقد عزم على الثأر لها وفى ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٣٠ ميلادية جاءه وفد من ثقيف يباعه ويعان له استسلام الطائف .

وحل موسم الحج فى مارس (اذار) عام ٦٣١ . وكانت المرة الاولى التى يحل فيها هذا الموسم بعد أن غدت مكة فى حيازة المسلمين وبعث النبى بصاحبه أبى بكر اميرا على الحج لاداء الفريضة على رأس المسلمين ونزلت أبان ذلك براءة تحرم على المشركين زيارة البيت وأداء الفريضة . وجدير بنا أن نذكر هنا أن طقوس الحج كانت حتى ذلك التاريخ طقوسا جاهلية لا اسلامية . أما الآن وقد تطهر البيت من الاصنام والأوثان فلم يعد من حق المشركين أن يدخلوه ووجه انذارا فى

(١) يحاول المؤلف جريا على عادته تشويه الحقائق المتعلقة بالفتوحات الاسلامية إذ لم يشرح الأسباب التى أدت الى عودة الحملة الاسلامية دون قتال ولم يذكر أن الروم وقد طلموا بوصول النبى صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، أكثروا الانسحاب الى داخلية البلاد مفضلين قتال المسلمين قريبا من قواعدهم بدلا من حرب الصحراء التى يقرون يتفوق العرب فيها . فلما رأى النبى انسحابهم اكتفى بفرض سلطانه على أمراء المناطق المجاورة الذين ما كانوا يدفعون الجزية وهم فى حماية الرومان لولا لقتهم من ضعف حماهم أمام المسلمين .

(العرب)

الوقت نفسه الى جميع القبائل العربية يعطيها مهلة أربعة أشهر تقبل
فى غرضونها الاسلام أو تتأهب لحرب المسلمين (١) .

وظلت الوفود تصل الى النبى طيلة عام ٦٣١ من جميع أرجاء
الجزيرة العربية بما فيها الأماكن النائية كالبحرين وعمان وحضرموت
واليمن . وكان بين الوافدين وائل بن حجر الحضرمى أمير حضرموت
واليمن . الذى تلقاه محمد بكثير من التجلة والاکرام . واختار النبى
معاوية بن أبى سفيان وكان قد جعله من أمناء سره أكراما لا يبه ليقوم
بدور المضيف لوائل وان ينزله فى دار له فى واحة قريبة ليتولى أكرام
مثواه . وكانت الهاجرة فى كبد السماء ترسل اشعتها المحرقة عندما
قصد الرجلان الى الواحة وقد امتطى وائل بعيره مخلفا مضيفه يسير على
قدميه وطلب معاوية من ضيفه أن يردفه على ظهر بعيره فأبى عليه
إذلك . وقال معاوية أخيرا . . . اذن فأعزني نعلك أقي به قدمي حمر
التراب فرد وائل بشيء من الكبرياء قائلا . . . وماذا يقول الناس عني
إذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلي . وقد وصف النبى
عندما سمع هذا الحادث بأنه من مخلفات الجاهلية ولم يكن وائل
ليتصور آنذاك ان هذا الشاب الذى يركض الى جانب بعيره سيصبح
فى يوم قريب أعظم حاكم فى العالم المعروف .

وغدا النبى فى السنتين الأخيرتين حاكما ذا سلطان عظيم وكان
يصرف سحابة نهاره وشطرا من ليله فى استقبال الوفود واملاء الرسائل
وفض المنازعات وتصريف الشئون العامة دون أن يكون الى جانبه
موظفون مدربون ، ودون أن تتوافر له وهو الذى لا يعرف القراءة

(١) تقول كتب التاريخ الاسلامى ان النبى (صلم) دعا على بن أبى طالب وكان
أبو بكر على رأس الحجيج فى مكة فقال له . . . اخرج بهذه القصة من صدر براءة
وأذن فى الناس يوم النحر اذا اجتمعوا عني ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد
العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله (صلم) عهد فهو
له الى مدته . فخرج على الى مكة على ناقة النبى العضيبة حتى ادرك أبا بكر فى الطريق
فقال له . . . أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج
والعرب اذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى
اذا كان يوم النحر قام على فاذن بالناس وقال : أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر
ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم عهد فهو له الى مدته وأجل الناس أربعة أشهر من يوم اذن فيهم ليرجع
كل قوم الى ماأنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا لاحد كان له عند الرسول
عهد الى مدة فهو الى مدته فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

(العرب)

والكتابة التسهيلات التي تتوافر للحكام. وكثيرا ما وجه النقاد الغربيون الى النبي صفة الاصطناع عن طريق مقارنة حياته الأولى في مكة وقد تلقى الرسالة وما كان فيها من بساطة وتأمل ، بحياته الثانية في المدينة. حيث أصبح سياسيا دنيويا أكثر منه انسانا روحيا ، وقد أقر بأن البون شاسع ، ولكنني أرى من الظلم القول بأنه أثر في القسم الأخير من حياته أمور الدنيا على القيم الروحية (١) .

ولا أستطيع أن أنكر أن النبي تزوج إحدى عشرة امرأة مما يشير الى اهتمامه بالنسالة (٢) ولكنني أقول انه لم يهتم بالمال قط في حياته

(١) اتهام ظالم ومغرض كل الغرض للنبي . فقد ظل عليه الصلاة والسلام الى آخر يوم من حياته الكريمة مثال الرجل السمج. الكريم الخلق الجم التواضع الذي لم تصرفه شئون الحكم من رسالته الروحية المسامية لكن الاسلام عقيدة دين ودنيا ، ومن واجب القائد الوجه أن يهتم بشئون مجتمعه الدنيوية بقدر اهتمامه بالتسوية الروحي ومن هنا كان القول المأثور .. اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . (المعرب)

(٢) هذه حجة طالما استخدمها أعداء الاسلام للظن في النبي سلم الله عليه وسلم فلقد بلغت أخلاقه الشخصية من الكمال حدا جعله موضع رضي ربه الذي أدبه فأحسن تأديبه اذ خاطبه تعالى قائلا «وانك لعلی خلق عظیم» . وكانت خلافه سببا في اجتذابه النفوس والقلوب مما الآن لهد من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا مناصرين مؤازرين .

أما قصة الزواج هذه فان من الثابت أن النبي كان يرى في أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التآليف للشائره وحملها على الالتفاف حول النبي للقد كان الصهر منذ العرب بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعدا له ومبيعا منه اذى الكثيرين من أمهاته ، فلما كان بالمدينة باهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب . ولعل نظرة واحدة الى نساء النبي ونسبهن تثبت هذه الحقيقة التي يرفض النقاد الغربيون الاعتراف بها وهن رضي الله عنهن ... (١) خديجة بنت خويلد من بنى أسد (٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق (٣) سودة بنت زعمة من بنى عامر (٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب (٥) أم سلمة هند بنت أبى أمية من بنى مخزوم (٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة (٧) أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب (٨) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزامة (٩) صفية بنت حيى بن أخطب من يهود خيبر (١٠) ميمونة بنت الحارث من بنى عامر بن صعصعة (١١) زينب بنت خزيمة من بنى عامر بن صعصعة . وهناك التثان تزوجهما ولم يدخل بهما وهما أسماء بنت النعمان من بنى كندة وعمرة بنت إريد من بنى كلاب .

ومن مجرد ذكر هذه الاسماء يتبين لكل متصف أن معظم حالات الزواج عند النبي كانت لأسباب سياسية وليس لشيء آخر .. ومن هنا يتبين سخف ادعاء المؤلفين الغربيين . (المعرب)

حتى عندما أصبح وفي قدرته ان يجمع أكبر الثروات . فقد توفي وهو
معدم تقريبا كما أن طعامه البسيط لم يتغير لحظة واحدة وعاش حتى
اللحظة الأخيرة في بيت عادى بسيط لا يصلح ان يكون بيتا لحاكم عادى

ومن المحتمل ألا يكون النبي نفسه قد توقع في البداية هذا
التحول من طبيعة التأمل الى طبيعة النشاط السياسى البالغ الحدود .
ومن المحتمل أن يكون هذا التحول قد جاء بصورة طبيعية عندما هاجر
من مكة الى المدينة حيث وجد نفسه يقود مجتمعا جديدا بعض أفراد
من المعدمين الذين هاجروا وياتوا لا يملكون شيئا وقد حز في نفوس
بعض أهل المدينة ممن لم يكن الاسلام قد تأصل في نفوسهم أن يؤوا
هؤلاء المهاجرين وأن يشاركوهم أرزاقهم مما حملهم على التأمر عليهم .
وسأل المهاجرون الى الغزو كوسيلة من وسائل العيش . وكطريقة
للاتنقام من قريش التى أخرجتهم من ديارهم . وسرعان ما وجد النبي
نفسه وسط جو من الحروب والسناس فحملته قيادته لمجتمعه على
أن ينأى عن حياة التأمل التى تفترض الوحدة . ويعبر القرآن نفسه
عن هذا التحول ، فالسور المكية تحمل طابعا روحيا أعمق من السور
المدينة التى أخذت تعنى بصورة متزايدة بالشئون الدنيوية من سياسة
وحرب وتشريع .

ولا ريب في أن تحول محمد من صورة النبي التى تغلب على أنبياء
العهد القديم الى صورة السياسى الحاكم والمرجع الاجتماعى قد أثر
تأثيرا عميقا على تطور الاسلام حتى يومنا هذا . وقد سار جميع خلفائه
بصورة آلية رتيبة على سنته ومنواله وطبعوا حكمهم بصورة المزيج
بين الدين والسياسة ولم يعرف الاسلام قط ذلك التناقس الذى قام
بين البابوات والباطرة والذى خلق حالة من الاضطراب في أوربة القرون
الوسطى . أما الدولة العلمانية الاسلامية التى تكون فيها الحكومة الزمانية
مستقلة عن الحكم الدينى ، فبدعة عرفها المسلمون في القرن العشرين
مقلدين فيها أوربا .

وحرى بنا ان نذكر دائما أن محمدا قد تأثر بالكثير من المؤثرات
المسيحية واليهودية (١) . فلقد كان عدد اليهود في المدينة لا يقل عن

(١) تستمد هذه النظرة الى الاسلام جذورها من عدم ايمان المؤلف او الكتاب
الغريبيين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولذا فهم يرون أن مرد التشابه بين
الاسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى الى تأثر النبي بهاتين الديانتين
مع العلم أن هذه النظرة خاطئة لان الاسلام دين الله جاء به محمد بمذاهب اليهودية =

عدد العرب ، ولم تكن هناك جالية مسيحية في مكة أو في المدينة وان وجد عدد من الأفراد المسيحيين هنا أو هناك . يضاف الى هذا أن المرحلة العامة للتطور التي وصل اليها عرب الصحراء قبيل الاسلام في القرن السابع لم تكن لتبعد كثيرا عن الحالة التي كان فيها يهود العهد القديم . ومن الممكن أن نقارن بين ما قاله النبي عن النضال والجهاد بعدد من أقوال العهد القديم ولا سيما في الكتب الخمسة الأولى . وهناك كثيرون من الغربيين يقولون ان محمدا لو ظهر بين موسى وعيسى لاعتبر بحق من أكثر المصلحين الدينين في العالم (١) .



وتهيأ النبي في شهر فبراير (شباط) (٢) عام ٦٣٢ لاداء فريضة الحج على رأس جمع كبير من المسلمين . وقد راقب المسلمون كل عمل قام به الرسول ابان ادائه للفريضة هذا العام واعتبروها طقسا من طقوس الحج . وقد ألقى النبي في الحجيج خطبة ذلك العام وانهأها متطلعا الى السماء وهو يقول . . « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » وبعد ان أتم مناسك الحج عاد بأصحابه الى المدينة وتفرق الحجيج الى بلادهم آمنين مطمئنين .

وكان بعض مدعى النبوة قد ظهوروا في الايام الاخيرة من حياة النبي في نواح عدة من الجزيرة العربية ولكن نشاطهم لم يكن كبيرا بحيث يؤلف خطرا كافيا يثير القلق في المدينة ولم يقدر لهذه الدعوات ان تبرز اهميتها الا بعد وفاة النبي . ويبدو ان كل مقاومة عسكرية للنبي كانت قد توقفت في الجزيرة العربية في هذه الآونة ولكن النبي أصدر أمره في مستهل عام ٦٣٢ للقيام بحملة على حدود الروم وأراد أن يؤكد رغبته في الثأر لشهداء مؤتة فأسند قيادها الى أسامة بن زيد نجل قائد حملة مؤتة وان لم يكن الشاب قد جاوز العشرين من عمره . وقد اثار هذا الاختيار بعض الامتعاض عند من هم أكثر من أسامة دراية وخبرة

= والنصرانية ولذا فان التشابه يقوم في ان مصدر الادبائ السماوية واحد . وهو الله .

(١) طبعا نحن نختلف مع المؤلف في قوله هذا لان الاسلام هو دين الكمال وقد جاء مكمل للرسالات السماوية التي سبقته ولكن المؤلف كان حكيما بعض الحكمة عندما نسب قوله هذا الى غيره .

(٢) تجمع كتب التاريخ العربي على أن حجة الوداع كانت في مارس (آذار) من ذلك العام . (العرب)

في القيادة العسكرية . وجدير بي أن أذكر أن هذه الفكرة من الثأر العائلي ما زالت تتكرر في بلاد العرب منذ أقدم العهود حتى اليوم (١) .

ولم تمض أيام حتى كان النبي ذات صباح يشكو من بعض الصداق والحمى وذلك في شهر يونيو من عام ٦٣٢ ولكنه أفاق في اليوم التالي وقد خف ألمه فخرج من بيته ليسلم الراية إلى أسامة بن زيد على رأس الحملة ولكن الحمى ما لبثت أن عاودته وعاد إليه الصداق وإن ظل يومين أو ثلاثة أيام يغالب المرض ليؤدي أعماله اليومية كالعتاد . وأخيرا اشتد عليه المرض فأرأى إلى فراشه يشكو من الحمى في غرفة عائشة وزوجه الأمين وابنة أقرب الناس إليه أبي بكر الصديق . ويروى أن امرأة بدوية قالت للرسول أنه مصاب بذات الجنب فأنكر عليها ذلك مؤكدا أن مرضه ناشئ عن محاولة يهود خيبر تسميمه قبل أربع سنوات . ومن المحتمل أن يكون النبي أراد أن يظهر للناس أنه من الشهداء وأن الكفرة هم الذين قتلوه (٢) لكن الظواهر التي رواها المؤرخون تشير إلى أن الوفاة نجمت عن الإصابة بذات الرئة .

(١) كان أول ما فكر فيه النبي بعد موته من حجة الوداع استئذان الحركات العسكرية على حدود الروم لتوطيد نفوذ الإسلام بين القبائل العربية القاطنة هناك . وقد جهز النبي الحملة واشترك فيها المهاجرون الأول أمثال أبي بكر وعمر ثم أنط قيادتها بمولاه أسامة بن زيد بن حارثة وهو دون الثامنة عشرة فأثار هذا التمييز دهشة واستغرابا في نفوس المسلمين وقال بعضهم أمر فلانا حدثا على حملة المهاجرين والانصراب وبطاطا البعض بالفعل في الخروج إلى مكان اجتماع الجيش في الجرن فبلغ ذلك محمدا وهو مريض فخرج إلى المسجد وخطب المسلمين قائلا : أيها الناس انفذوا بعت أسامة فلم يمرئ لئن قُلت في إمارته لقد قُلت في إماره أبيه من قبله وأنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقا بها . (العرب)

(٢) رأى في منتهى السخف من المؤلف الذ لم يكن النبي الذي آمن الناس برسائله والذي عظمت « الشهادة » في نظرهم من أقواله بحاجة إلى التظاهر بأنه من الشهداء ، ولكنها محاولة أخرى من المؤلف لتثوية التاريخ الإسلامي ، أما القصة الحقيقية كما ترونها كتب السيرة وفي مقدمتها سيرة ابن هشام فهي على النحو التالي :

اجتمع إلى النبي عدد من نساء ونساء من المسلمين وعنده معه العباس فأجمعوا أن يلدوه (يجلسوا الدواء في شق فمه) ، وقال العباس لآلته فلدوه فلما أفاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال من صنع هذا بي قالوا : يا رسول الله عمك ، قال هذا دواء أتى به نساء جثن من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة قال ولم فعلتم ذلك ؟ فقال معه العباس خشيئا يارسول الله أن يكون بك ذات الجنب فقال : أن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقلدني به لا يبق في البيت أحد إلا لد الإعمى ، ولقد لدت حيمونة وأنها لصائبة عقوبة لهم بما صنعوا به . (العرب)

واشتدت وطأة الحمى على النبي ولما انقضى اسبوع على مرضه وأدرك أن حالته الصحية آخذة في السوء قرر أن يخطب الناس فطلب أن يصبوا عليه الماء البارد لتهدئة الحمى المحرقة التي كان يشكو منها ثم خرج من بيته متكئا على صاحبيه وتحدث إلى الناس مدافعا عن تعيينه اسامة أميرا على الجيش . ولكن الجهد الذي عاناه من الاستحمام بالماء البارد ومن لقاء الخطاب زاد من حالته سوءا وعجز في اليوم التالي عن القيام من فراشه . وراح يصدر أمره بصوت خافت إلى أبي بكر ليؤم الناس في الصلاة . وكان أبو بكر غائيا ذات يوم فأم عمر بن الخطاب الناس في الصلاة فلما سمع صوته وتميزه اذ كانت غرفة عائشة تطل على المسجد هتف النبي قائلا « أين أبو بكر ؟ يا بني الله ذلك والمسلمون » (١)

وساعت حال النبي الصحية كل السوء في اليوم العاشر من مرضه . وكان كثيرا ما يغيب عن الوعي وتضعفه الحمى التي كانت تلهبه . وفي صباح اليوم التالي وكانت أبو بكر يؤم الناس في صلاة الفجر خرج النبي إلى باب غرفة عائشة ووجهه مشرق . ومشى وتيدا إلى الامام متكئا إلى رجلين إلى أن وصل إلى جانب أبي بكر فجلس واشترك في الصلاة وانفض الجمع فرحين وقد ظنوا أن النبي قد أبان من مرضه . وعاد وتيد الخطى إلى حجرة عائشة .

لكن هذا الجهد الأخير الذي بذله كان نتيجة الصدمة التي تسبق

(١) تقول الرواية التي أوردتها كتب السيرة أن التوجع اشتد بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال هريقوا على سبعة قرب من آباء بني حتى أخرج إلى الناس فأعهد اليهم فأعدوه في مخضب لحنصة بنت عمر ثم صبوا عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم .

• وخرج الرسول يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ولانيهما على بن أبي طالب .

• أما قصة عمر فثروها كتب السيرة على النحو التالي : أمر النبي بأن يصلى أبو بكر بالناس فقامت له عائشة زوجة ابنة أبي بكر : يا نبي الله ان أبا بكر رجل زقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن . قال : مروه فليصل بالناس فكررت ما قالته فقال : اتكن مواحب يوسف فمروه فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمة انه كان عند النبي في نفر من المسلمين قائم بلال إلى الصلاة فقال مروا من يصلى بالناس فخرجت قائما عمر في الناس وكان أبو بكر غائبا فقلت ثم يا عمر فصل بالناس فقام فلما كبر سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صوته وكان عمر زجلا بهرا ، فقال : أين أبو بكر يا نبي الله ذلك والمسلمون يا نبي الله ذلك والمسلمون . (١) (المرقد)

«لوفاة لا الشفاء من العلة وعاد إلى فراشه متعبا فاستلقى عليه وقد أصبح عاجزا عن الحركة واستجمع قواه فجأة وطلب بعض الماء ليبلل وجهه به ثم هتف قائلا . . . « بل الرفيق الأعلى في الجنة » .

لاحظت عائشة فجأة أن رأس الرسول قد ثقل في حجرها فذهبت تنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص . لقد مضى نبي العرب إلى الرفيق الأعلى .



تواريخ بارزة

فبراير (شباط) ٦٢٧	حصار المدينة
فبراير (شباط) ٦٢٨	صلح الحديبية
صيف عام ٦٢٨	عقد الصلح بين الروم والفرس
فبراير (شباط) ٦٢٩	حج المسلمين الى مكة
سبتمبر (ايلول) ٦٢٩	معركة مؤتة
يناير (كانون الثاني) ٦٣٠	فتح مكة
ربيع عام ٦٣٠	موقعة حنين
سبتمبر (ايلول) ٦٣٠	غزوة تبوك
يونيو ٦٣٢	وفاة النبي

شخصيات بارزة

صهر النبي	عثمان بن عفان
الصحابي الثاني بعد أبي بكر	عمر بن الخطاب
ولدا علي وفاطمة وحفيدا النبي	الحسن والحسين
من قادة قريش العسكريين الذين تحولوا الى الاسلام	خالد بن الوليد
من آمناء سر النبي بعد فتح مكة	عمرو بن العاص
عم النبي	معاوية بن أبي سفيان
	عباس بن عبد المطلب

الردة

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » *

القرآن الكريم - سورة المائدة

« ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » *

القرآن الكريم - سورة البقرة

عندما ظهر النبي صبيحة يوم وفاته مبتسما مشرق الوجه وقت أداء صلاة الفجر اعتقد أبو بكر أنه قد ابل من سقامه وطلب منه أن يسمح له بقضاء يومه ذاك في واحة بعيدة . وهكذا كان عمر بن الخطاب أول صحابي بارز وصل الى جانب فراش النبي فرفع الغطاء عن وجهه وتطلع الى وجه نبيه . وكان عمر قد قضى سنوات طويلة وهو يكاد يحب محمدا الى درجة العبادة . ولذا فقد عجز تفكيره للوهلة الاولى عن تقبل فكرة وفاته وراح يسرع بالخروج من حجرة عائشة الى باحة المسجد حيث اجتمع القسوم ليعلم لهم بصوته الجهوري أن محمدا لم يمُت . وراح يقول . . . أبو لم يقض موسى أربعين يوما في الصحراء مع ربه على الجبل بينما ظن بنو اسرائيل أنه قد مات . وعاد يؤكد أن محمدا سيعود فيقطع أيدي من قالوا ببوته وأرجلهم . وظل عمر وهو متأثر بالصدمة التي أصابته يردد هذه الأقوال المتحمسة باستمرار .

ووصل أبو بكر وهذا المنظر المحموم في عنقوانه وبضى يعبر فناء المسجد حيث كان عمر يخطب الناس متجها الى غرفة عائشة وركم الى جوار نبيه المتوفى ورفع الغطاء عن وجهه النبيل وقبلة . وعندها تأكد من أن النبي قد انتقل الى الرفيق الاعلى أعاد الغطاء الى وجهه وبخرج الى الفناء المكتظ بالناس . ولما رأى ان عمر يرفض أن يصمت ، مضى أبو بكر الى ناحية من الفناء وأخذ يخطب في بعض الناس قائلا : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم راح يتلو الآية الكريمة . . . وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين . . . وأعادت كلمات أبي بكر الهادئة الرصينة عمر الى صوابه ونفذت الحقيقة المؤلمة الى تفكيره أول مرة فاغرق في صمت عميق .

ولم يكد هذا المنظر العنيف ينتهي حتى جاء رجل الى أبي بكر سراعا يقول له ان الأنصار من أهل المدينة قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وانهم يفكرون في اختيار سعد بن عبيدة زعيم الخزرج خليفة للنبي ولم تكن قد انقضت ساعة على وفاة النبي حتى كاد الصراع على السلطان يهدد بشطير المسلمين الى فئات وشيع . وأسرع أبو بكر الهادئ وعمر

الحاد المزاج الى السقيفة ليواجهها التحدى الجديد . ورافقهما أبو عبيده بن الجراح الرقيق الطبع والواسع الحكمة ، وهو من الصحابة الارائل الذين سنسمع عنهم كثيرا فيما بعد .

وكان الانصار قبل نحو من عشر سنوات قد رحبوا بالنبي الذي اضطهده قومه في مدينتهم وقدموا له النصره التي حتمته من عشيرته ولكنه ما لبث ان يقوى سلطانه واتسعت شهرته وأخذ اعتماده على صحابته من قريش يزداد يوما بعد آخر . ووجد الانصار انهم بعد أن كانوا حماة الاسلام والمسلمين قد انقلبوا فجأة الى مركز ثانوى في مدينتهم ولكنهم لم يجهرروا بأى نقد فى حياة النبي فلما سمعوا بوفاة قرر الاوس والخزرج أن يخلعوا عنهم سلطان قريش قائلين : « منا أمير ومنهم أمير ولن نرضى بدون هذا » (١) ورأى أبو بكر الرجل الوديع الهادى الذى

· (١) في الرواية بعض التحريف .. فقد ذكرت كتب التاريخ الاسلامى .. ان الانصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة وكان نظرم متوجها الى اختيار سعد بن هبادة وقام سعد فخطب فيهم مبينا ما للانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله واله لا ينبغي ان ينازعهم في هذا الامر احد فاجابوه أصبت ووفقت ثم تراءوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأوليأؤه لماذا نقول لهم فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لا سمعها ... هذا اول الوهن .

ونقل السيوطى في كتابه تاريخ الخلفاء عن عمر بن الخطاب قوله .. اجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له .. يا أبى بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلا صالحا فذكرنا لنا الذى صنع القوم فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا : عليكم الا تقربوهم واقضوا امركم يا معشر المهاجرين ؟ قلت : والله لناينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بنى ساعدة فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانهم رجل مزمّل فقلت : من هذا ؟ قالوا سعد ابن هبادة فقلت : ماله ؟ قالوا : وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأتى على الله بما هو اهله وقال : اما بعد فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دلت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر . فلما سكت أردت ان اتكلم وقد كنت زوروت مقالة أعجبتنى أردت أن أقولها بين يدي أبى بكر وقد كنت أدارى منه بعض العد وهو كان أحلم منى وأوفر فقال أبو بكر : على رسلك فكرهت أن اغضبه وكان أعلم منى والله ما ترك من كلمة أعجبتنى في تزويرى الا قال في بدايته مثلاً والفضل حتى سكت فقال : اما بعد لما ذكرتم فيكم من خير فأنتم اهله ولم تصرف العرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش هم اوسط العرب نسباً وداناً وقد وضيت لكم احد هذين الرجلين لبايعوا ايها شئتم فآخذ بيدي ويبد أبى مبيدة ابن الجراح .

أثقلت سنواته الستون ظهره انه يواجه أزمة من أخطر الازمات تهدد المجتمع الاسلامي بالفوضى وقد واجهها بمنتهى الهدوء والوقار فقال : « يا معشر الانصار أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير فانتهم أهله ولم تعرف للعرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش » .

وارتفع صوت يقول : « لا . لا . لا » هذا لا يجوز منا أمير ومنكم أمير . . . وساد السقيفة هرج ومرج وأصبحت القضية معلقة في كفة القدر وازدادت الفوضى .

ورد أبو بكر قائلاً . . بكل تصميم : « لا . لا . لا » نحن أوسط العرب نسباً وداراً . . نحن الامراء وانتم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم وأشار الى رفيقه عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح .

وقال عمر : « لا والله لا نتولى هذا الامر عليك » يامعشر الانصار الستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فايكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر . . لا والله انك أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما فى الغار . أبسط يدك لنبايعك ومد عمر يده اليه فبايعه .

وبينما كان هذا الاجتماع الصاخب قائماً كان هناك نفر آخر من المسلمين وبينهم بعض المكين قد انضموا الى الاجتماع وقد سارعوا بعد سماع كلام عمر الى السير على منواله ، وليس ثمة من ريب فى أن أبا بكر بما عرف عنه من ولاء للنبي ومن بساطة فى طبيعته كان موضع الثقة من الجميع ، وسرعان ما تحولت عواطف المجتمعين كلهم الى جسانبه وهب الانصار أنفسهم يبايعونه . وهكذا انتهت الازمة ولكنها كانت أزمة خطيرة حقاً . ولم يحضر على بن أبى طالب أقرب الناس الى النبي وصهره وابن عمه هذا الاجتماع ، اذ تخلف فى حجرة عائشة يعد جثمان النبي لدفنه . ويزعم بعض مؤرخى العرب ان علياً لم يرض عن استخلاف أبى بكر اذ انه كان يبغي الخلافة لنفسه . وقد تأخر عن البيعة ستة أشهر ومعه بعض بنى هاشم . ولم يكن أبو بكر ينتمى الى أى من البيتين المتنافسين من قريش وهما بنو هاشم وبنو أمية وانما الى بطن آخر أقل أهمية من بطون قريش .

وثار خلاف حول المكان الذى يدفن فيه الرسول الى أن أصدر أبو بكر أمره بدفنه فى المكان الذى توفى فيه أى فى حجرة عائشة .



وكان محمد قد غدا في السنتين الاخيرتين أو السنوات الثلاث الاخيرة من حياته أبرز رجل في شبه الجزيرة العربية كلها ولكنه ظل بعيدا عن أن يصبح حاكما بالمعنى الصحيح للكلمة فلقد ظل وراء الفرد العربي لعشيرته وقبيلته قبل ولائه لأي شيء آخر . ولم تكن الجزيرة العربية ولا الحجاز أيضا قد عرفتا بعد نظام الحكومة التي تقوم فوق القبائل بعد . وقد ترغب قبيلة من القبائل على الطاعة اسما لجار قوى لمدة سنة أو سنتين ولكن القبائل العربية لم تكن لترغب في أن تتخلى عن سيادتها لهذا النظام الجديد : وحرى بنا أن نذكر هنا ان المسلمين ظلوا يواصلون الاغارة على القبائل العربية طيلة حياة النبي . وقد قاد الرسول نفسه في غزوة تبوك عدة ألوف من المحاربين ولم يكن في وسع أية قبيلة بدوية الفت حياة التنقل في الصحراء بحثا عن المرعى أن تحشد بصورة عملية مثل هذا العدد الضخم من المحاربين للقتال . والبدوي عمل في دبلوماتيته وهو يعرف ما يتحتم عليه أن يعمل وما لا يتحتم . وكان من الاسهل على القبائل البدوية في مثل هذه الظروف التي وجدت نفسها فيها أن توفد بعوثها الى المدينة للوصول الى تفاهم مع المسلمين . ولم تكن الشروط التي يفرضها النبي ثقيلة أو صارمة فعلى العربي أولا أن ينطق بالشهادتين . وكان معظم القبائل يدين بالوثنية وكان البعض منها يدين اسما بالنصرانية ويبدو أنهم لم يكونوا ينظرون الى النصرانية نظرة جدية اذ انها كما يبدو لم تفلح في تغيير عاداتهم التي نشئوا عليها منذ أقدم عصور التاريخ وفي مقدمتها الغزو والنهب والشعر والثار . ولم يكن مثل هؤلاء الناس ليجدوا أية مشقة في تكرار الشهادتين ، لكن الصعوبة الحقيقية مثلت أمامهم في الضريبة التي فرضها عليهم النبي وهي الزكاة . فالقبائل شديدة التعلق باستقلالها والزكاة لا تعنى بالنسبة الى البدوي مجرد عبء مادي بل تعنى أيضا الخضوع وهو ما يحس البدوي بمرارته ، فليس للبدوي من هدف في حياته الا الامجاد التي لا تتحقق له الا في الغزو والنهب والا أعمال الجود والكرم الخيالية وكلها يخلدها البدوي في شعره . ولقد كان عصر الجاهلية أشبه ما يكون بعصر هوميروس في شعره وفي تفاخره . وكان في وسع أبي بكر أن يزهو بأن قريشا هي « أوسط العرب حسبا ونسبا » ولكن البدوي لم يكن يرى في قريش الا جماعة من سكان المدن أي من التجار .

واذا ما استثنينا فرض الشهادتين ودفع الزكاة فان النبي لم يكن في الواقع قد استطاع أن يحكم العرب حكما دينويا فعليا . فلم تكن لديه حكومة أو موظفون أو شرطة أو سجلات . وكان اذا ما أراد القيام

بغزوة أو غارة • دعا المسلمين الى القتال • وكان جزء المحارب حصه في اقتسام الغنائم • وهكذا كان شيوخ القبائل يعودون من زياراتهم الى المدينة دون أن يفقدوا شيئاً من استقلالهم ومع ذلك فقد كان بدو الحجاز ونجد قد باتوا الى حد كبير تحت تأثير المسلمين • أما فى المناطق النائية فى عمان وحضرموت واليمن فان النبى لم يمارس أية سلطة دينوية فعلية أو مارس مجرد سلطة ضئيلة •

ولم يكد نبأ وفاة النبى ينتشر فى أطراف الجزيرة العربية حتى كانت غالبية القبائل قد حزمت أمرها على وقف دفع الزكاة • وقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ الاسلامى بعهد الردة • تكن الواقع على أى حال ان من المشكوك فيه أن تكون نسبة من اعتنق الاسلام من اهل الجزيرة العربية كبيرة ، فلقد فرضت شخصية محمد على العرب الاعجاب والاحلال والمهابة • أما وقد انتقل محمد الى الرفيق الاعلى فقد خيل للقبائل ان هذا الحدث قد انتهى وان فى وسعها أن تعود الى حياتها فى الجاهلية (١) •

وسبق لنا أن ذكرنا ان جيش اسامة بن زيد ابن النبى بالتبني كان قد تاهب للخروج الى حدود الروم للثأر من مؤتة • وكان وضع أهل الردة من الخطورة كبيراً بحيث حمل حتى عمر صاحب المزاج المتحمس على أن يوجه النصيح الى أبى بكر بالعدول عن ايفاد جيش اسامة ، وأن يحشد قوات المسلمين فى المدينة لمواجهة جميع التطورات • ولكن هذا الانسان الهادئ الوداع ظهر الآن فجأة بمظهر صاحب العزيمة الصادقة والتصميم المطلق اذ رد على عمر قائلاً : « عذمتك أمك وتكلك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتأمرنى أن أنزعه • وخرج اسامة من المدينة بجيشه فخلت من المحاربين وأحاطتها القبائل الامادية من كل جانب • وخرج أبو بكر نفسه الى ظاهر المدينة الى المكان الذى يربط فيه جيش أسامة على بُعد عدة أميال منها لوداع الجيش وسار الى جانب أسامة يتحدث اليه • • وهتف القائد الشاب بالخليفة : « اما أن تركب أو أنزل الى جانبك » فرد الخليفة المهيب باصرار قائلاً : « لا • لن أركب • فسأسير فى طاعة الله » ثم أوصى جيش أسامة وودعه وعاد الى المدينة (٢) •

(١) يؤكد المؤرخون العرب ان كثيرين من اعراب البادية في نجد واليمن لم يكونوا قد تأثروا بعد بالثر الاسلام • ولم ترك نفوسهم الزكاة المطلوبة • وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات • • « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولا يدخل الايمان في قلوبكم • »

(٢) تجاهل المؤلف وصية أبى بكر لجيش أسامة مع انها تضع القواعد التى =

وفى غضون ذلك أخذ خطر جديد يبرز ماثلا يهدد المدينة فقد استغفر ما وصل اليه محمد من سلطان عن طريق النبوة ، عددا من الاعراب على ادعاء النبوة ، وقام طلحة شيخ قبيلة بنى أسد الوافرة العدد والمرابطة فيما يسمى اليوم بجبل شمر فى شمال نجد بادعائها • وقد تحول اسم طلحة فى التاريخ الاسلامى الى طليحة استصغارا لشأنه لأنه ادعى النبوة لنفسه • والى الشرق من ذلك المكان قام دعى آخر للنبوة اسمه مسلمة • أطلق عليه المسلمون أيضا اسم مسيلمه تصغيرا له • وجاءت الانباء فى الوقت نفسه من كل مكان من أطراف الجزيرة العربية تقول ان الموت على أيدي الاعراب كان مصير معظم جبابة الزكاة الذين كان النبى قد أوفدهم قبل وفاته للجباية وان بعضهم نجا من هذا المصير بأعجوبة •

وقد اكتفت القبائل البعيدة عن المدينة بطرد الجباة أما القبائل القريبة منها فقد خافت هجوم المسلمين ، اذا لم تبادر هى الى مهاجمتهم • ويبدو ان قبيلتي عبس وذبيان وكانتا تقيمان الى الشمال من المدينة كانتا أول من سارع الى العمل اذ حشدتا رجالهما فى مكان يدعى ذى القصة ويقع على بعد ثلاثين ميلا الى الشرق من المدينة (١) • وبعثتا بالرسل الى أبى بكر يعرضون الدخول فى الاسلام شريطة إلغاء الزكاة • ولو كان أبو بكر من الساسة الماكرين لقبل العرض أملا فى كسب الوقت حتى يعود جيش أسامة من حملته فى الشمال ولكن أبا بكر أعاد الرسل قائلا : والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم على منعها •

ولم تمض أيام ثلاثة حتى كان بعض البدو يفرون على مشاوارف المدينة ولكن القلة من محاربى المسلمين الباقين فى المدينة تمكنت من

« اتبعها المسلمون في حربهم وهي قواعد تمثل النبل والتسامي اللذين ود المؤلف الا يطلع تراه من الغربيين عليهما ليبقى على الصورة المشوهة التي أرادها وهذا نص الوصية : « لا تخونوا ولا تغفلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تشدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تدبخوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لما كله وسوف تمرن بأقوام لفرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهن وما لفرغوا أنفسهن له • وسوف تقدمون على قوم ياتونكم بآثية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شوه فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون اقواما فحصبوا اوساط دعوسهم وتركوا حولها مثل المصائب فاختفوهم بالسيف خفقا يدلفها باسم الله • (١) اسم المكان الريدة والابرق • وقد أقام فيهما أبو بكر أياما بعد ان خلب ميسا وذبيان •

سدهم وتشتيت شملهم • وبدا ان الخليفة الهادي الوديع قد انقلب الى أسد مزير • فقد سارع يحشد كل رجل يمكن له أن يحشده ويستطيع أن يحمل السلاح وخرج بقوته في ظلمة الليل من المدينة ليدهم بها معسكر الاعداء في ذى القصة عند الفجر ، وعلى الرغم من أن البدو كانوا يقضون حياتهم في الحروب المستمرة الا انهم كانوا يفتقرون الى النظام العسكري أو الى الحيوية اللذين يفرضان عليهم أن يضسعوا الحرس والارصاد خارج مخيماتهم • وهكذا كان الهجوم مباغتاً لهم كل البغثة وسرعان ما ساد الاضطراب صفوف البدو ففروا لا يلبون على شيء من موقعهم ليضيعوا في بطن الصحراء ، وبدا ان عنصراً جديداً قد أدخل على مألوف العرب في الحرب وهو عنصر الحيوية والاندفاع الصارم •

وعاد أسامة على رأس حملته في سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٢ بعد غياب شهرين عن المدينة يسوق قطعاناً من الابل والاغنام التي غنمها المسلمون وان كانت التفاصيل التي وصلت الينا عن العمليات الحربية التي قام بها قليلة للغاية (١) ويبدو أنه أغار على قبائل البدو لا على قوات الروم • ولم يكن الخليفة الذي لا يكل ولا يمل برغم بلوغه الستين من عمره يشعر بالاطمئنان على المدينة حتى راح يقود قواته متجاوزاً بها ذى القصة ليهاجم عبسا وذبيان من جديد ، وقد رابطتا على بعد ثلاثين ميلاً الى الشرق منزلاً بهما هزيمة جديدة • وبرهن أبو بكر الهادي الوديع بصورة غير متوقعة على أنه قائد لا يقل اندفاعاً عن النبي • ومما يذكر ان عدداً كبيراً من المسلمين أتوا أبا بكر يناشدونه ألا يعرض نفسه قائلين : « انك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فان أصيب بعثت بآخر » فقال : « والله لا أفعل ولاؤاسينكم بنفسى » •

ويقول المؤرخون العرب ان أبا بكر حشد بعد رجوع جيش أسامة إحدى عشرة سرية تعمل كل منها في الوقت نفسه في جهة من الجهات لكفاح المرتدين لكن اذا صح ما قيل وان هذه الفكرة قد جالت في خاطر

(١) يقول السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » نقلاً عن أبي هريرة ان جند أسامة لقوا الروم فهزمهم وقتلهم ورجعوا سالمين ، ويقول الخضرى ان أسامة شن الغارة على بلاد قضاة في شمال الجزيرة وكانت محمية للروم وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثته أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لان اعداءهم لم يسمموا به قالوا لو لم يكن للروم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية •

محمد

الخليفة فانه لم يقم بتنفيذها على أى حال فقد اتبع الخليفة الطريق المعقول الصحيح وتمكن من اخضاع القبائل النائرة واحدة بعد أخرى . وكان المنهزمون من عيس وذبيان قد تراجعوا شرقا فى غضون ذلك وانضموا الى طليحة النبى الكذاب فى جماعته من بنى أسد وحشد أبو بكر كل ما أمكنه جمعه من محاربى المسلمين وأقام لهم معسكرا فى ذى القصة . ووجه أبو بكر فى غضون ذلك رسالة الى المرتدين والعصاة قال فيها بعد أن بدأها باسم الله وذكر الرسالة والوفاة وبعد أن ذكر قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، راح يقول وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان ثم قال انه قد بعث اليهم بجيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وانه قد أمره بالآيقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى فقد أمره أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم شر قتلة ، وان يسبى النساء والذراى ولا يقبل من أحد الا الاسلام .

وكل أبو بكر أمر القيادة العامة الى خالد بن الوليد أكثر محاربى المسلمين دراية بشئون الحرب والنزى حقق لقريش نصرها فى أحد وحقق للمسلمين انسحابهم الناجح فى مؤتة وهنا لا بد من أن نبين المفارقة بين أسلوب أبى بكر وأسلوب النبى فى الحرب فقد عهد النبى قبيل وفاته بقيادة الحملة الى الشمال الى أسامة بن زيد الذى لم يتجاوز العشرين من عمره رغبة منه فى أن يثار الولد لأبيه الذى استشهد فى مؤتة والنزى كان النبى قد رباه . ومن هذا يبدو لنا ان اختيار النبى لقيادة هذه العملية الحربية استند الى أسباب عاطفية مجردة ، وهى الرغبة فى الثار وتعلقه بذكرى ربيبه لا لأسباب عسكرية عملية تتعلق بالكفاية . ومن الصحيح أن يقال ان الجانب العاطفى من شخصية الرسول قد مكنه من أن يجمع قلوب اتباعه حوله ولكن الحرب فى حد ذاتها مهنة عملية صارمة لا شأن للعاطفة فيها . وكان خالد بن الوليد قد اشترك فى جيش أسامة كجندي عادى فى صفوف المحاربين ولكنه ما كاد يعود ، ويصبح أبو بكر حرا فى اتخاذ قراراته ، حتى عهد الى أكثر قادته العسكريين تجربة ودراية بتولى قيادة قواته الرئيسية .

وسار خالد من ذى القصة على رأس جيش قوامه نحو من أربعة آلاف جندي الى نجد ، بعد أن وافق أبو بكر أخيرا على العودة الى المدينة

وتقدم خالد يطلب محاربة طليحة وقومه من بنى أسد الذين احتشدوا
 ففى بزاجة ، وهو ماء لقبيلة طيء بأرض نجد . وكانت قبيلة طيء قد
 انضمت الى طليحة فى عصيانته ، فلما علمت بمسيرة خالد اليها جاءت
 مستسلمة - وهذه القبيلة هى التى اشتهر أمرها فى الجاهلية بكرم شيخها
 حاتم الذى أصبح مضرب الامثال . وعسير علينا فى هذه الايام أن نكتشف
 المواهب التى جعلت من طليحة رجلا يستطيع ادعاء النبوة فتلتف حوله
 قبائل عدة وذلك لان مؤرخى العرب أضفوا على اسمه صورة ناطقة بالهز
 والسخرية ولعلنا نستطيع الحصول على الصورة الصادقة عنه من عينيه
 شيخ غطفان ، الذى انضم اليه برجاله ، وقال قبيل المعركة يرد على بعض
 من عاب عليه هذا الانضمام . . « انه نبى منا ونبى منا خير من نبى من
 قريش ناهيك عن ان محمدا قد مات وان طليحة حى يرزق » (١)

ولم ينقل الينا مؤرخو المسلمين صورة عن معركة بزاجة (٢)

(١) روى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن عبيدة بن حصن بن حذيفة كان مع
 طليحة على رأس سبعمائة من بنى فزارة من غطفان ، فلما رأى سيوف المسلمين قد
 استلحمت المشركين فى بزاجة اتاه فقال له : اما ترى ما يصنع جيش أبى الفضل ؟
 فهل جاءك جبريل بشيء ؟ قال : نعم . جاءنى فقال ان لك رجا كرحاء ويوما لا تنساه
 فقال عبيدة اوى ان لك يوما لا تنساه ، يا بنى فزارة هذا كذاب ، وولى من مسكره
 فانهم الناس . ومن هنا يظهر أن انقلاب عبيدة لم يكن من انتهاء كما حاول المؤلف
 أن يقول وانما كان من ظهور الحقيقة له وظهور كذب طليحة وشتان بين الانتهاء والرجوع
 الى الحق .

(٢) لقد تحدث مؤرخو العرب كثيرا عن معركة بزاجة خلافا لما يقوله المؤلف فقد
 روى السيوطى فى تاريخ الخلفاء ان ابا بكر بعث خالدا وامره أن يقاتل الناس على
 خمس ، من ترك واحدة منها قتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعا ، وهى شهادة
 أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان
 وحج البيت . وروى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ان ابا بكر عقد وهو بلى القصة
 لخالد بن الوليد على الناس وجعل على الانتصار ثابت بن قيس وهو أحد من استشهد
 يوم اليمامة الا انه كان من تحت يد خالد وأمر خالدا أن يصمد لطليحة الاسدى وكان
 قد ادعى النبوة وهو يومئذ بزاجة ، فسار اليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن
 ولابن بن ارقم فلقبهما حبال بن خويلد فقتلاه ، وخرج طليحة وسلمة اخوه وقد بلغهما
 الخبر ، فلقيا عكاشة ولابن فقتلتهما ثم التقى المسلمون وعدوهم وقاتلوا قتالا شديدا ،
 ثم وقعت حادثة عبيدة (رويها قبل قليل) وانهم طليحة وظهر المسلمون واسر عبيدة
 بن حصن فقدم به المدينة فحقن أبو بكر دمه وخلق سبيله ، أما طليحة فقد فر واتى
 خالد بن رمان وابانين ، وهناك قتل بزاجة فلم يقاتلوه وابعده لى بكر ، وبعت بهشام
 ابن العاص الى بنى عامر بن صعصعة فلم يقاتلوه واطهروا الاسلام والاذان فانصرف
 عنهم . ثم قصد خالد الى النمر وهناك جماعة من بنى أسد وغطفان وغيرهم وعليهم
 خارجة بن حصن فقاتلوا المسلمين وقتل منهم جماعة وانهم الباقون . (العرب)

ويكفي أن نقول انه لما بدت بوادر الهزيمة على بنى أسد انسحب عيينة برجاله من غطفان من المعركة فانهمارت مقاومة بنى أسد وفروا وهرب طليحة مع أسرته الى سوريا (١) ثم عفا عنه الخليفة أخيرا بعد أن أسلم وحسن اسلامه وأبلى بلاء حسنا في حرب الفرس . ويبدو أن الرجل كان كغيره من البدو خفيف الظل حاضر النكتة . فقد حدث أن مر بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب وقال له الخليفة مؤنبا اياه على قتل أحد شهداء المسلمين إبان حروب الردة . . . اقتيلت العبد الصالح عكاشة بن محصن ؟ فرد طليحة بهـود : « ان عكاشة بن محصن سعد بى وشقيت به وأنا أستغفر الله » (٢) وقال عمر : « انت الكاذب على الله حين زعمت انه أنزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئا فاذكروا الله أعفة قياها فان الرغبة فوق الضريح » فقال : يا امير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر .

وبعد أن تمكن طليحة من الفرار استسلمت بنو أسد فترك استسلامهم وانتصار المسلمين أثرا معنويا ضخما في القبائل فسارع بنو سليم وهوازن الى الاستسلام ودفع الجزية . وقد عفا الخليفة عن غالبية العصاة الا من عرف بأنه قتل مسلما إبان الردة فقد أنزل الخليفة به العقاب على أساس العين بالعين والسن بالسن . وقد أحرق بعض هؤلاء وهم أحياء ، ورجم بعضهم بالحجارة أو قذف به في هوة أو صرع بالنبال .

وكانت تعيش الى الجنوب الشرقى من أسد وغطفان قبيلتا تميم وبنى حنيفة وما زال بنو تميم يعيشون في هذه المنطقة ويعدون خلقا كبيرا في واحاتها حتى يومنا هذا وإن كان بعضهم قد ارتحل الى العراق حيث أقام الى الغرب من بغداد أما بنو حنيفة فكانوا أنصار مستيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة وسارعت بطون عدة من بنى تميم الى خالد بن الوليد . تعلن اذعانها له الا بنو يربوع الذين كان على رأسهم مالك بن نويرة فقد أبوا ورفضوا الاستسلام .

(١) يقول البلاذرى ان طليحة بن خويلد ثر بعد معركة براخة فدخل خباء له فاقتسل وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضى الى مكة ثم أبى الى المدينة مسلمة وقيل بل أبى الشام فآخذه المسلمون ممن كان غازيا وبعثوا به الى أبى بكر بالمدينة فأسلم وأبلى بعد في فتح العراق ونهائى .

(٢) يعنى أسعدت عكاشة بقتلى اياه . اذ استشهد ومضى الى الجنة اما أنا فقد شقيت لان مصرى الى النار .

(العرب)

وكان مالك من أبرز زعماء القبائل اذ اشتهر بالشجاعة والكرم وقول الشعر وهي صفات ثلاث كان العرب يعجبون بها أشد الاعجاب . ويبدو أن مالكا صعب عليه أن يذعن لحالد لأن في اذعانه انتقاصا من قدره ، فأمر رجاله من بنى يربوع بأن يتفرقوا وسار مع عائلته في الصحراء ينهب أرضها نهبا . وكان أبو بكر قد أصدر أوامره الى خالد بأن يختبر المرتدين بأن يطلب اليهم أداء الشهادتين وأن يرقب سلوكهم عندما يدعو المؤذن الى الصلاة . ولهذا لم يكن هناك خطر كبير يهدد مالكا اذا رفض الاذعان لحالد شخصيا اذ لو أمسك به المسلمون فإن في وسعه أن يتسلو الشهادتين وأن يلبي نداء المؤذن الى الصلاة . ولكن خالدا أثر اتباع وسائل أكثر عنفا كما يبدو وبث سراياه مغيرة على القوم لجمع الهاربين وأخذ الغنائم منهم ، وجاءته احدى هذه السرايا بمالك بن نويرة وأهله على الرغم من ادعائهم الاسلام . واحتج بعض المسلمين على خالد لقسوته مع مالك وأهله ، ولكن احتجاجهم لم يجد فتىلا اذ أمر بحبسهم ، ثم أمر بقتلهم في الليل ، ولم تنقضى أربع وعشرون ساعة على قتل مالك حتى كان خالد قد تزوج من امرأته .

ولم يكن ثمة أى خطأ في الزواج من أرملة عدو قاتل في المعركة وقتل . فلقد فعل النبي ذلك في خيبر بعد قتل كنانة زعيم اليهود اذ تزوج من امرأته صفية في نفس الليلة التي قتل فيها زوجها . ولكن كنانة لم يكن مسلما بينما قتل مالك بن نويرة وهو يدعى الاسلام ، ولا ريب في أن عمل خالد بزواجه فورا من امرأته الجميلة ليل قد أثار الشكوك في ان مالكا قد قتل ليخلو الجو للقائد الظافر(١) .

(١) كان هذا الحادث مثار التيل والقال منذ ذلك اليوم وكان معظم الذين حملوا على خالد من المؤرخين من أصل غير عربى للطعن في خالد وتشويه سمعته . ولو كان خطؤه كما يحاول المؤلف ان يصوره من النوع الذى لا يشتغل لما تسامح معه أبو بكر وهو الخليفة المؤمن الصادق في اسلامه . وقبل مناقشة المؤلف مناقشة كاملة اود ان اورد الحقائق كما جاءت في كتب التاريخ العربى . كان النبي قد أمر على بطون تميم امراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد الله عليه فأسل الركاة الى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الامر . وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينما هم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجريرة سجاح بنت الحارث . وكانت قد ادعت النبوة فقبّعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم ، أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بنى يربوع ودعته الى الوادعة فوادعها وتناها عن غزو أبى بكر وحملها على أن تغزو بعض الاحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ، ثم أرسلت الى وكيع بن مالك .

وقد ثار أهل المدينة الذين كانوا قد اعترضوا فيما مضى على أعمال خالد الصارمة القاسية لقتل مالك ، وسارع أبو قتادة وهو من صحابة النبي الاوائل الى المدينة يشكو خالدا الى أبى بكر الذى استدعى خالدا ليرد على الاتهام (١) وألح عمر بن الخطاب الذى كان يجمع بين صرامة خالد وقسوته وبين بساطة أبى بكر وتعلقه بالدين الحنيف على الخليفة ليسرح خالدا من قيادته . وقد أنكر خالد عند مجيئه الى المدينة انه قد أمر باعدام مالك . وأكد ان الحراس قد أسادوا فهم أوامره . ومهما كان رأى أبى بكر - المتناهى فى حكمته - فى سلوك قائده فإنه كان على ثقة من

سيد بنى مالك بن حنظلة تدعوه الى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يبدعون فسجعت لهم سجاح قائلة : أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغفروا على الرباب فليس دونهم حجاب . فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم وبينما هم على ذلك اذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد فيجيوشه ففرقت جموعهم ومادت الى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحرر في أمره . وكذلك من نسل فعله معه من رؤساء تميم غير ان من هداه ندموا ندما ظاهرا وأخرجوا الزكاة وأرسلوها الى خالد . وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع ان يفترقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد احدا فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بنى يربوع فأمر بهم فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه . ولما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر ان في سيف خالد رهقا فان لم يكن هذا حقا حق عليه ان تقيده والحف عليه في ذلك، فقال أبو بكر هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسائك من خالد فبودى مالك وخذلان بنى يربوع عادت تميم كلها الى الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها الى أبى بكر .

من هذا التاريخ يمكن ان توجه الى مالك التهم التالية : (١) خيانة الامانة التى وكلت اليه وهى الولاية من رسول الله وخليفته من بعده (٢) مخالفة ركن اساسي من اركان الاسلام الخمسة وهى الزكاة لا بالنسبة الى نفسه فقط بل وبالنسبة الى كل من هم تحت أمره (٣) العصيان على الدولة ورفض الخضوع الى سلطانها (٤) الاعتراف بسجاح وهى نبية كاذبة والتعاون معها والانضمام اليها وفي ذلك ما فيه من مروق على الدين (٥) استخدام جيوش سجاح لمحاربة من ظل على صادق عهده مع المسلمين (٦) اتباع وسيلة العصيان المذنب مع جيش خالد والهروب من أمامه عن طريق الاختفاء (٧) التظاهر بالاسلام من جديد .

كل هذه التهم لا تدفع وأقل عقاب لها من الناحيتين الدينية والدنيوية القتل ولقد اعتبر خالد مالكا من المشركين بل هو أشد جريمة من المشركين لانه مرء ولا عدة لمشرك أو كافر على زوجته ، ومن هنا جاز له أن يتزوج من امراته ليلة قتله . ولعله فسل ذلك لسبب سياسي كما أن رد أبى بكر وهو الحصيف الراى خير تبرئة له .

(العرب)

(١) سبق أن بينت في هامش سابق أن أبا بكر لم يأخذ بالاتهامات التى وجهت الى خالد ولذا فقد إبقاه على قيادته ولم يستدعه الى المدينة كما يقول المؤلف .

(العرب)

براعته فى فنون القتال حتى انه قال لمنتقديه لن أشيم سيفاً سله الله على الكفار ، وقد قبل الخليفة مبررات خالد الذى تسادل قبل خروجه من المدينة عائدا الى قيادته بعض العبارات الحادة مع عمر بن الخطاب وهى عبارات قدر لها أن تترك نتائج سيئة فى السنوات التالية .

وكان الخليفة قد خول خالدا فى غضون ذلك أن يواصل تقدمه لمحاربة مسيلمة ورجاله من بنى حنيفة الذين كانوا لا يزالون يشقون عصا الطاعة ويمتشقون الحسام . وكانت هذه القبيلة بطنا من بطون بكر بن وائل التى تعيش حياة الرعى فى الصحارى الممتدة بين كئبان الدهناء الرملية وبين أدنى الفرات . وكان بعض بنى بكر نصارى اسما على الأقل بينما كان البعض الآخر من عبدة الاوثان . أما الآن فقد وقف بطن بنى حنيفة من قبيلة بكر الى جانب نبهم مسيلمة وقفة صامدة وهو رجل ادعى النبوة حتى فى حياة النبى ، ثم ما لبث ان ادعى بعد وفاة النبى ان محمدا قد رأى فيه سيماء النبوة .

وتقول الروايات ان مسيلمة كان قد كتب الى النبى فى حياته يعرض عليه اقتسام العالم فيما بينهما اذ قال فى رسالته : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . أما بعد فان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قرىشا لا ينصفون والسلام غايك » ويقال ان النبى رد عليه قائلا : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى » .

وكان أبو بكر قد بعث فى غضون ذلك النجدات من مكة والمدينة الى خالد الذى تقدم الى الامام زاحفا على العدو . والتقى الجيشان فى منبطح رملى يدعى « عقربة » فى اليمامة الى الجنوب الشرقى من نجد . وكان بنو حنيفة البادئين بالقتال فشنوا هجوما ضاريا فى منتهى العنف على المسلمين حتى ان المسلمين انزاحوا عن مواقعهم . وتمسكن البدو المتحمسون من اجتياح هذه المواقع وبينها خيمة خالد نفسه . ولكن المسلمين ما لبثوا ان تجمعوا ونظموا صفوفهم وكان زيد بن الخطاب آخر عمر يحمل راية المهاجرين ويتقدم صفوفهم الى أن استشهد بسيف العدو وتقدم ثابت بن قيس ، يحمل راية الانصار على رأس رجاله الى أن استقبل الموت وسط صفوف الاعداء . وظلت المعركة سجالا بين أخذ ورد سلاحها السيوف . وزاد من حدتها هبوب رياح جنوبية تحمل الرمال فتسفع وجوه المسلمين وأخذ الانحلال يدب فى صفوف بنى حنيفة بعدة ساعات من القتال ، ويبدو أن المعركة قد دارت فى إحدى الواحات

الصغيرة والكثيرة في المنطقة اذ أن المنهزمين من بنى حنيقة ما لبثوا أن لجئوا الى حديقة نخيل مسورة واغلقوا على أنفسهم أبوابها • وأخيرا تمكن البراء ابن مالك وهو أحد المسلمين الأوائل من الانصار الذين بايعوا النبي تحت الشجرة وأبو دجانة وهو الذي حارب بسيف النبي في أحد من الصعود الى السور عند الباب على ظهور رفاقهم • وقفز الفارسان وسط صفوف العدو وراء السور فمزقت سيوفهم أبادجانة في لحظات • أما البراء فقد تمكن من الوصول الى الباب وفتحه • واقتحم المسلمون الباب كالعاصفة الجائحة • ودارت رحى معركة حامية الرطيس بالسيوف وسط أشجار النخيل التي تكتظ بها الحديقة • وكان بنو حنيقة يحاربون معركة يائسة اذ لم يكن لهم سبيل الى التراجع ولذا فقد قاتلوا وأظهروهم الى الأسوار • وأخيرا غلب المشركون على أمرهم وأبيدوا عن آخرهم •

وكان عدد الضحايا من المسلمين في هذه المعركة أيضا أكبر منه في أية معركة سابقة ولو حكمنا على المعركة على ضوء المقاييس الحديثة لتبين لنا أنها أول معركة جدية حقا اشتبك فيها المسلمون حتى ذلك التاريخ وانها أول ماذقه المسلمون من طعم الحروب التي قدر لهم أن يواجهوها • فلقد خسرت قريش في موقعة بدر تسعة وأربعين قتيلًا من مجموع ألف محارب وخسر المسلمون في موقعة أحد أربعة وسبعين شهيدا من مجموع سبعمائة مقاتل • أما في هذه المعركة التي سميت بحديقة الموت فلقد قتل ان المسلمين خسروا نحو ألف ومائتي شهيد (١) • ولو افترضنا ان خالدًا كان يقود خمسة آلاف رجل فان هذا العدد من الاصابات كبير للغاية لانه يشير الى عدد القتلى ليس الا • ومن المحتمل أن يكون عدد الجرحى قد عادل هذا الرقم أيضا وبذلك تكون الاصابات خمسة آلاف ، وعلينا أن نعترف على أية حال بأن الأرقام التي يعدها المؤرخون العرب عامضة كل الغموض بحيث لا نستطيع الاعتماد عليها •

وقد قتل مسيلمة الكذاب نفسه في المعركة وكان وحشي قاتل حمزة عم النبي في معركة أحد هو الذي قتله • وكان وحشي قد تحول الى الاسلام كما تحول الكثيرون ممن يفوقونه منزلة ومكانة ، ولكن لم يكن

(١) اختلف مؤرخو العرب حقا في عدد من استشهد في المعركة فبينما يقول السيوطي ان عددهم كان لا يبدو السبعين • ذكر الطبري ان عدد القتلى من الفريقين بلغ عشرة آلاف وقال الواقدي ان عدد شهداء المسلمين بلغ الفا ومائتين بينما قال غيره ان العدد بلغ الفا وسبعمائة •

فى استطاعة وحشى هذا أن يدعى ان اسلامه قد حسن اذ انه ظل سكبىرا
مدمننا حتى نهاية حياهه • وتقول الروايات ان وحشيا عندما طعن فى
السن كان يعرض سهما على زائريه ويهتف قائلا بهذا قتلت خير الناس
وشر الناس •

وكانت حراجة الوضع فى نجد قبل معركة اليمامة أو حديقة الموت
قد دفعت أبا بكر الى أن يبعث بامدادات قوية من المدينة الى خالد وكان
فى هذه الامدادات عدد كبير من المهاجرين والانصار الذين خاضوا غمرة
القتال مما أدى الى اصابة ومقتل عدد كبير من صحابة النبى ولقد كان بين
القتلى عدد كبير من حفظة القرآن ، وآياته حتى تلك اللحظة محفوظة فى
ذاكرات الصحابة أو فى كتف مكتوبة هنا أو هناك دونها بعض من يحسنون
القراءة والكتابة من العرب •

وكان بين شهداء المعركة زيد بن الخطاب شقيق عمر • ويقال انه
عندما أتاه ولده عبد الله الى المدينة بعد انتهاء المعركة راح يعنفه على بقاءه
حيا بعد عمه زيد ويقال ان عبد الله رد على أبيه بأن عمه طلب الشهادة
فاستجاب الله له وانه هو أى عبد الله - طلبها ولكن الله لم يستجب
لطلبه •

وسار خالد بعد المعركة بجيشه الى الهجر عاصمة مسيلمة وأوفد
اليها أسيرا عنده من شيوخ بنى حنيفة ليطلب من أهلها التسليم ، وقد وعد
خالد بأن يوفر على الحنيفيين أرواحهم شريطة أن يأخذ كل ما يملكونه
وعاد الرسول ينقل الى خالد رد المدافعين مدعيا انهم يرون فى الشروط
قسوة لا يستطيعون قبولها وانهم قرروا تبعا لذلك المضى فى القتال •
ورأى خالد فى الوقت نفسه حشودا من المسلحين تقوم على حراسة
الاسوار • وكان الرسول فى الواقع هو الذى رتب الامر فجمع الشيوخ
والنساء والاطفال وألبسهم الدروع والخوذ وطلب اليهم أن يصعدوا الى
الاسوار ليظهروا عليها • وخدع خالد بما رآه ووافق على أن يقبل
تسليمهم مقابل الحصول على سلاحهم وذهبهم وفضتهم ليس الا • وبيع
عدة ألوف من الاسرى كارقاء وبنى خالد بابنة شيخ بنى حنيفة مما أثار
عليه غضب الخليفة الذى أعرب عن عجبه من تفكير خالد فى الزواج ودماه
شهداء المسلمين لم تجف بعد (١)

(١) يقول البلاذرى ... وكانت الحرب قد نهكت المسلمين وبلقت منهم قسالة
مجاعة بن مراة وهو أسير عند خالد من شيوخ بنى حنيفة لخالد : ان أكثر اهل اليمامة =

وأنتهت معركة اليمامة التي دارت في ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٢ ويناير (كانون الثاني) عام ٦٣٣ كل مقاومة في نجد ومن القبائل الحليفة لبنى حنيفة ، وجاءت الوفود من كل مكان تعرض استسلام القبائل العاصية لخالد . وكان أبو بكر قد بعث برسالة الى خالد في غضون ذلك يأمره بقتل جميع الذكور البالغين من أبناء القبائل الثائرة . ومن حسن حظ هذه القبائل ان الهدنة كانت قد وقعت عندما وصلت الرسالة الى خالد ، وقد قدر لبنى حنيفة أن يحاربوا بعد هذا التاريخ دفاعا عن الاسلام وأن يبجلوا بلاء حسنا ولو قتل الآلاف منهم تنفيذا لأمر الخليفة بعد هزيمتهم لكان هذا العمل خاطئا وخاليا من الرحمة .

ومن العسير علينا هنا أن نحلل الدوافع التي حملت أبا بكر الوادع الهادئ على أن يبعث بمثل هذا الأمر الخالي من الشفقة ولكن أكثر إيضاح قريب للعقل هو أن أبا بكر كان مخلصا كل الاخلاص للنبي . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف أصر على إيفاد أسامة بن زيد في حملته على الحدود البيزنطية بعد وفاة النبي على الرغم من أن الجزيرة العربية كلها كانت ثائرة عليه ، وكان الوضع قد تغير الآن عما كان عليه عندما أصدر النبي أمره بأعداد هذه الحملة ولكن أبا بكر رفض رفضا قاطعا إلغاء الأوامر التي سبق للنبي أن أصدرها أو تعديلها . ولكن عندما كان ينشأ أي وضع جديد لا تعليمات سابقة للنبي فيه فإن أبا بكر كان يستخدم فكره الخاص به ويتخذ إزاءه موقفا حاسما .

وكان من الظواهر البارزة في سياسة النبي انه كان متسامحا مع

لم يخرجوا لقتالكم وانما قتلتم منهم القليل وقد بلغوا منكم ما ارى وانا صالحك عنهم . فصالحه على نصف السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . ثم ان خالدا توثق منه وبعثه اليهم فلما دخل اليمامة أمر الصبيان والنساء ومن باليمامة من المشايخ ان يلبسوا السلاح ويقوموا على الحصون ففعلوا ذلك . فلم يشك خالد والمسلمون حين نظروا اليهم انهم مقاتلة فقالوا لقد صدقنا مجاعة ثم ان مجاعة خرج حتى اتى مسكر المسلمين فقال : ان القوم لم يقبلوا ما صالحك عليه عنهم واستمدوا لحربك وهذه حصون العرض ملوذة رجالا ولم ازل بهم حتى رضوا بأن يصالحوا على ربع السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع . واستقر الصلح على ذلك ورضي خالد به وامضاه وادخل مجاعة خالدا اليمامة فلما رأى من بقى بها قال خدعتنى يا مجاعة واسلم اهل اليمامة فأخذت منهم الصدقة .

أما قصة زواج خالد الجديد وغضب الخليفة فلم أذكر عليها في كتب التاريخ

العربي .

« العرب »

الكفرة والمشركين وصاروا لا يرحم مع المرتدين ولقد كان في مكنة المشرك حتى ولو وقع أسيرا وهو يحمل السلاح ضد المسلمين أن يشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأن يتخذ بذلك حياته . وكثيرا ما شكك المؤمنون إلى النبي في حياته من حالات أعلن فيها بعض الناس اسلامهم دون أن يكونوا مخلصين في اعلانهم هذا ، وكثيرا ما طارد المسلمون مشركا وقد فر من المعركة وكانوا على وشك تقطيعه بسيوفهم أو قتله برماحهم عندما يروح عدو الله هذا ينادي الا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيجدون أنفسهم مضطرين إلى أعناد سيوفهم وينجوا المشرك من القتل وكثيرا ما كانوا يسألون النبي هل يمكن قبول هذا الشكل من الاسلام وحرمان المسلمين من الغنيمة ، لكن النبي كان يصر على أن مثل هؤلاء الناس يجب أن يعتبروا من المسلمين .

أما إذا عاد هؤلاء فارتدوا عن الاسلام بعد أداء الشهادة فإن النبي كان يوقع بهم أشد العقوبة وهي عقوبة الموت وهكذا إذا اعتبر بنو حنيفة وانصارهم من المرتدين فإن حكم النبي فيهم وفي أمثالهم قد صدر من قبل وهو الموت . وهكذا فإننا رأينا خليفة أبا بكر غزوا عن استعمال صلاحياته في موضوعهم أو الحكم عليهم حكما مخالفا وهذا عنى ان الخليفة كان يريد عقابهم بالموت دون تردد . ولكن من حسن حظهم ان النبي كان قد أمر بالفداء بالعهد بعد صدوره وان على المسلمين الحفاظ على عهودهم ومن هنا كان لابد لأبي بكر أن يقبل عهد خالد وأن يقر شروط الهدنة التي عقدها مع بنى حنيفة ، ولذا فإن الخليفة استقبل وفود هذه القبائل المرتدة المهزومة التي بعث بها خالد استقبالا طيبا عندما جاءت وأعادها إلى ديارها سليمة معافاة .

وحرى بنا هنا أن نقول ان الملك ابن سعود أصدر أمره عندما ثارت قبيلة المطير على الحكم الوهابي في عشرينات هذا القرن بإعدام جميع المذكور من أفراد القبيلة المذكورة ، فلقد كان ابن السعود يعتبر العصيان السياسي نوعا من الردة (١) .

(١) مقارنة سخيفة كل السفخ من جانب المؤلف بين حكم النبي من ناحية وحكم الملك ابن سعود من الناحية الثانية وبين المسلمين الأوائل والوهابيين المحدثين للقدس كانت ردة القبائل العربية بعد وفاة النبي ردة على الاسلام نفسه وخروجا على حكم اسلامي صحيح اما الثورة على السعوديين لثورة وطنية شعبية على حكم دينوي لايسل بأوامر الاسلام ونواجه . ومن هنا لا يكون ثمة مجال للمقارنة بين ردة بنى حنيفة في صدر الاسلام وبين اية ثورة حديثة على الحكم السعودي

ويجد هذا الموقف جذوره في الحقيقة الواقعة وهي أن محمدا كان انزعيم الديني والحاكم السياسي لشعبه وإن الحكومة أصبحت مرتبطة العرى بالقيادة السياسية في الدول الإسلامية منذ عهد الرسول حتى القرن العشرين على الأقل . وكان هذا الربط بين الدين وبين الحكم السياسي سببا جوهريا في سوء الفهم من جانب الأوروبيين للبلاد الإسلامية . ويميل غير المسلمين إلى نقد تدخل القيادات الدينية الإسلامية في شئون السياسة وهم يتسبألون عن الأسباب التي تحول بينهم وبين حصر أنفسهم في حقل التعليم الديني . تاركين السياسة لأربابها لكن هذا الفصل بين الدين والسياسة وجهة نظر مسيحية . ولقد كان الدين والسياسة بالنسبة إلى المسلم القديم لا بالنسبة إلى القومي العربي الحديث أمرين لا ينفصلان . ومن هنا كان لابد أن تعتبر الثورة السياسية ردة دينية .



كانت الصحارى الرملية الفسيحة في النصف الجنوبي من الجزيرة العربية والمسماة بالربع الخالي دائما جدا يفصل بين مناطق عمان وحضرموت الساحلية وبين عرب نجد والأراضي الشمالية الخصبة في سوريا والعراق وكانت هذه المناطق الواقعة على المحيط الهندي تتأثر كما تتأثر الآن بعوامل كثيرة تصل إليها من أماكن نائية في فارس وبلوخستان والهند والملايو وأفريقيا الشرقية . وكان وجود الصحارى الرملية وراء هذه المناطق سببا في تطلعها دائما إلى ما وراء البحار إلى العالم الخارجي ، ومن هنا لم تلعب أي دور بارز في تاريخ العرب إلى الشمال . وقد تمكن خالد بانتصاراته في أواسط الجزيرة من إخضاع أقوى القبائل المحاربة لحكم المدينة ولهذا فإن فتوحات المناطق الواقعة وراء هذه الصحارى لم تكن أكثر من مجرد عمليات ثانوية فرعية إذا ما قورنت بالتيار الرئيسي للتوسع العربي .

لكن إخضاع بني حنيفة في اليمامة لم يعن إلا إخضاع شطرنج من مجموعة القبائل الكبيرة المسماة ببني بكر بن وائل بن ربيعة وهي المجموعة التي تنتمي إليها قبيلة عذرة البدوية الحديثة الكبيرة . وكانت قبائل بكر تنتشر في منطقة واسعة تمتد من الحيرة وأدنى الفرات إلى السواحل الجنوبية للخليج العربي وكانت بكر تؤلف الجزء الأكبر من رعايا اللخمين من ملوك الحيرة في أوج سلطانهم . ولكن يذكر القاري ولا شك أن النزاع كان قد نشب بين أمراء اللخمين وبين أكاسرة الفرس في عام ٦٠٥ مما أدى إلى انتداب أحد العمال الفرس لتولي حكم حوض الفرات الأدنى مباشرة . وظل بنو بكر منذ ذلك التاريخ في ثورة دائمة على الفرس وحققوا في عام

٦٠٦ تقريبا أول نصر عربى على قوات الفرس عرف فى التاريخ العربى
باسم يوم ذى قار .

وأدت هزيمة بنى حنيفة الفرع الى أن تجد قبيلة بنى بكر الام نفسها
بين شقى رحى أى بين قوتين سياسيتين عظيمتين . وكانت هذه القبيلة
تخوض منذ سنوات عدة حرب عصابات ضد الفرس ولكنها كانت تحس
بالاطمئنان الى مؤخرتها اذ كانت قبائل نجد التى تعيش فى هذه المؤخرة
مشغولة بمشاحناتها الدموية المألوفة . لكن ظهور خالد بن الوليد الآن
على رأس قوة ضخمة تعد بالوف المحاربين الفائزين فى جناحها الجنوبى
وضعها فجأة بين نارين .

وكانت قبيلة بنى بكر شأنها فى ذلك شأن القبائل العربية الأخرى
مجزأة ومنقسمة على نفسها وكان المثنى بن حارثة زعيم بنى شيبان من
أبطال معركة ذى قار هو العامل فى اتخاذ القرار بتجربة حظهم مع المسلمين .
ويحاول مؤرخو العرب القدامى وهم من أبناء المدن الذين عاشوا فى تاريخ
متأخر عن هذه الايام أن يعزوا كل عمل جرى فى هذه الآونة الى دوافع
دينية . ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون قرار بنى بكر فى هذه الآونة
صادرا عن دوافع سياسية أكثر منها دوافع دينية . فلقد كانت القبيلة
فى نزاع دائم مع الفرس . وفجأة رأت أمامها قوة ضخمة تتألف معظمها
من البدو القبليين الذين لا يختلفون عن رجالها . ترى هل من الأفضل
لبكر أن تقاوم هذه القوة العربية الجديدة وأن تدخل معها فى صراع يؤدى
الى دمارهما معا ، أو أن تضمن تأييدها لشن حملات جديدة على الفرس ؟
ولا ريب فى أن تأثير المثنى بن حارثة هو الذى أقنع بنى بكر بالانضمام الى
المسلمين (١) والحصول على عونهم فى محاربة الفرس . ولهذا سارع رئيس

(١) انا اختلف مع المؤلف فى رايه هذا تمام الاختلاف . اذ لو صح ما قاله من
أن بنى بكر قد انضموا الى الاسلام لدوافع سياسية وهى رغبتهم فى محاربة الفرس
فبماذا يفسر يا ترى انضمام بقية القبائل العربية فى الجزيرة وهى ليست فى حالة نزاع
مع الفرس . ان التفسير الصحيح هو أن النبى بسوته الاسلامية قد ايقظ الرسمى القومى
مند العرب بمد أن اضمن على هذا الرسمى مقيدة وحدوية جديدة هى الدعوة الاسلامية
التي جاء بها وهذه الدعوة هى التى وحدت العرب تحت ظل قيادته . واذا كانت بعض
القبائل قد ارتدت بمد وفاة النبى فان التفسير الصحيح لردتها هو أن الرسمى لم يكن
قد اكتمل ونضج بمد ، نظرا لقصر المدة . فلما عاد ابو بكر ووحد العرب ، كان الرسمى
قد اكتمل هذه المرة وادى اكتماله الى الفتوحات الاسلامية العظيمة التى شملت العالم
المعروف بأسره وهى فتوحات ما كانت لتتم لو أن انضمام القبائل العربية الى الاسلام
كان من انتهازية كما يحاول المؤلف أن يقول لتشويه تاريخنا العربى .

(العرب)

القبيلة الى المدينة حيث استقبله الخليفة أبو بكر استقبالا حارا .

وقبل الشروع على أية حال فى الحديث عن الحرب مع الفرس أرى من الجدير بى أن أتحدث عن بعض العمليات الصغيرة التى وقعت قبل ان تنتهى حروب الردة نهاية كاملة .



واجه المسلمون بعض المقاومة فى البحرين بعد انتهاء معركة اليمامة ولكن الحرب ما لبثت أن انتقلت الى عمان وكانت بعض الجيوب الاسلامية ذات النفوذ قد ظلت فى المنطقة على الرغم من الردة التى شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية . وقد توجه عكرمة بن أبى جهل على رأس قوة من المسلمين ما لبث أن انضم اليها حذيفة وعرفجة وهما من شيوخ القبائل . وتمت هزيمة العدو فى معركة واحدة واحتلت جيوش المسلمين المنطقة بكاملها .

ويذكر القارئ ان أبا جهل كان عم النبى (١) . وانه كان من أشد أعدائه وقد قتل فى معركة بدر ، لكن الوضع الآن تبدل كل التبدل وبدلا من أن ينظر زعماء مكة بعين الغيرة والحسد ، الى ما يقوم به قريبهم محمد الفقير من نشاط . أخذوا يدركون الآن أن الاسلام أخذ فى تحويلهم بسرعة الى طبقة ارستقراطية حاكمة (٢) . ولقد بات عكرمة بن أبى جهل الآن قائدا من قادة المسلمين كما أن أبا سفيان وأسرته أخذوا يحتلون الآن مكانة أعلى من مكانتهم السابقة .

وقد اختار الخليفة أبا حذيفة وهو من شيوخ قبائل المنطقة عاملا له فى عمان . ومن المحتمل أن يكون اختياره هذا دليلا على عدم اهتمام

(١) يعود المؤلف الى خطئه فيزعم أن أبا جهل كان عم النبى ولقد سبق لى أن وضحت في هامش سابق خطأ هذا الزعم .

(٢) تشويه متعمد للتاريخ العربى لقريش لم تصبح في أى وقت من الاوقات طبقة ارستقراطية حاكمة كما يزعم المؤلف متخذاً من اختيار الخليفة من قريش ذريعة لعدم ادعائه ولقد اشترك العرب كلهم في تكوين الطبقة الحاكمة سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو الامويين أو صدر العصر العباسي . الى أن جاء الفرس وغيرهم من الاقوام الاسلامية فاشتركوا في الحكم مع العرب . وتحول الحكم الى اسلامى بدلا من أن يظل عربيا ولعل أبرز دليل على ذلك أن معظم القادة العسكريين والعمال (الولاة) لم يكونوا من قريش بل كانوا من القبائل العربية الاخرى ، ومن هؤلاء المشنى بن حارثة الشيباني وحذيفة عامل عمان وموسى بن نصير ومحمد بن القاسم وطارق بن زياد وغيرهم كثير . ناهيك من ان الاسلام كدين لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى .

المدينة بالمنطقة أو على عجز الخليفة عن إرسال قوة عسكرية ضخمة إلى هذه المنطقة النائية (١) وكان عكرمة في غضب ذلك يزحف عبر منطقة المهرة (٢) ويقال إنه لاشيء يحقق النجاح كالتجّاح نفسه ولا سيما عند القبائل المتفكرة إلى الانضباط فقد أدت الانتصارات التي حققها خالد في نجد وعودة الحكم الإسلامي إلى الاستقرار في عمان • إلى انضمام وحدات كبيرة من القبائل إلى عكرمة بن أبي جهل في زحفه نحو الجنوب •

وبعد أن تم إخضاع عمان والمهرة واجه المسلمون العصيان في اليمن فلقد ظهر هناك في حياة النبي مدح آخر من أديعاء النبوة يسمى الأسود العنسي ولكنه ما لبث أن قتل حتى قبل وفاة الرسول • وقد انهارت حركته بعد موته وان تركت نجران واليمن في حالة كاملة من الفوضى والاضطراب ولما كانت قبائل اليمن ورعوسها قد لعبت فيما بعد دورا كبيرا في الفتوحات العربية • فأننى أرى من المناسب أن أشير إليها هنا إشارة عابرة •

كان نصارى نجران قد عقدوا معاهدة مع النبي • وقد جددها الآن خليفته أبو بكر • أما أبرز القبائل التي ثارت الآن قبيلة زبيد بزعامة عمرو بن معد يكرب الذي سنسمع عنه فيما بعد وقبيلة كندة بزعامة الأشعث بن قيس • وكان شعيخ آخر من شيوخ اليمن ويدعى قيس بن هبيرة المكشوح قد استولى على صنعاء (٣) •

(١) ما أتفه هذا التعليل الذي يعتمد التشويه • إن اختيار حليفة لهذا المنصب دليل على أن الإسلام لم يعد يفرق بين عربى وآخر ولم يكن اختياره عاملا في ضمان الأناجما عن صدق إسلامه ومكانته في قومه ، وقولوه على إدارة المنطقة إدارة ناجحة •

(٢) ورد الاسم في كتاب التاريخ العربى على أنه النجر • وليس المهرة كما يذكر المؤلف •

(العرب)

(٣) يبدو أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم حقيقة ما وقع في اليمن كما أنه أخطأ بين الأسماء فخلط بين قيس بن هبيرة المكشوح • وهو من المسلمين الذين أدوا دورا في اليمن • وبين قيس بن مبد يفوت وكان من قادة المصاة وأرى أن أنقل هنا رواية البلاذرى إذ قال :

« كان الأسود بن كعب العنسي قد تكهن وادعى النبوة فاتبه بنو عيس وغيرهم فبعث إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في السنة التي توفي فيها جرير بن عبد الله اللبلى يدعو إلى الإسلام ، فلم يجبه • وأتى الأسود صنعاء وأخرج عنها عامل النبي ويدعى خالد بن سعد بن العاص وكان الأسود متجبرا فاستلذ الإبناء وهم أولاد أهل فارس الذين وجههم كسرى إلى اليمن مع سيف بن ذى يزن واستخدمهم فأضر بهم ولزج =

وأعلن جرير بن عبد الله • شميخ بنى بجيلة فى غضون ذلك خلاصه للاسلام • على أية حال لم تكن أية قبيلة من القبائل الكبيرة لتتبنى بجميع بطونها أية قضية من القضايا اذ تنفرد بعض البطون التى تعيش فى الجبال برأيها المستقل وتشغل نفسها بالغزو. والسلب من جاراتها ، وكانت هذه هى الحالة التى وصل اليها الجنبوب العربى الذى كان مزدهرا ومتحضرا فى وقت من الاوقات • ويذكر القارىء أن الفرس كانوا قد استولوا على أرض اليمن فى عام ٥٧٤هـ وعينوا عليها مرزباناً ينوب عن كسرى فى حكمها • ولكن انهيار الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى ابرويز • أدى الى انقطاع المواصلات مع فارس والى وقف النجيدات عن المجيء الى اليمن وهكذا وجد الأبناء (أبناء المرزبان) ونسل الحاميات الفارسية أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن أنفسهم فالفرو حزبا خاصا بهم شرع فى التحالف مع بعض

المرزبانة، امرأة ملكهم باذام فوجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيس بن هيرة المكشوح لقتاله وأمره باستمالة الأبناء وبعث معه قروة بن مسيك المرادى فلما صاروا الى اليمن يلتقيهما وفاة الرسول فظهر قيس للأسود انه على رايه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء. فدخلها في جماعة من مدحج وهمدان وغيرهما ثم استمال فيروز بن الديلمي أحد الإبناء وكان فيروز قد أسلم ثم أبا باذام رأس الأبناء أو ذاويه على قول بعض الروايات فأسلم ذاويه. ولقى قيس لباب بن ذى الجرة الحميرى فاستماله وبث ذاويه دعائه في الأبناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعا على قتل الأسود واغتياله • ودسوا الى المرزبانة امراته من أهلها الذى هم عليه وكانت شائنة له • فدلتهم على جدول يدخل اليه منه فدخلوا وقت السحر ويقال بل نقبوا جدار بيته بالخل نقبا ثم دخلوا عليه في السحر • وهو سكران نائم فذبحه قيس ذبحا فجعل يخود خوار الثور حتى أفرغ ذلك حرسه • فقالوا ما شأن رحمن اليمن فبددت امراته فقالت انه الوحي فقال الله أكبر فسكرنا وأمسكوا واحتز قيس رأسه • ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال الله أكبر الله أكبر أشهد ألا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله فاجتمع أصحاب الأسود فالتقى اليهم رأسه فتفرقوا اليه قليلا وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب ووضعوا في بقية أصحاب العنسي السيف فلم ينج الا من أسلم منهم وذكر بعض الرواة ان الذى قتل الأسود العنسي فيروز بن الأعمى وان قيسا أجهز عليه واحتز رأسه وذكر بعضهم ان قتل الأسود كان قبل وفاة النبي (صلم) بخمسة أيام فقال في مرفهه : قد قتل الله الأسود العنسي قتله الرجل الصالح فيروز بن الأعمى وورد على أبى بكر بعد ما استخلف بعشر ليال وقال الرواة أيضا ان قيسا اتهم بعد ذلك بقتل ذاويه وبلغ أبا بكر انه على وشك جلاء الأبناء من صنعاء فافضبه ذلك وكتب الى المهاجر بن أبى أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها يأمره بحمل قيس اليه فلما وفد عليه أحلفه أبو بكر خمسين يميناً عند قبر النبي أنه ما قتل ذاويه فحلف فغلى سبيله ووجهه الى الشام مع المسلمين لفرو الروم •

(العرب)

القبائل لمحاربة بعضها البعض الآخر مما أدى الى مضاعفة الفوضى التي ضربت أطرافها في البلاد بدلا من تقليلها .

وكان أبو بكر يفتقر الى المحاربين عندما وصلته أنباء الاضطراب في اليمن اذ كان قد أوفد كل ما توافر لديه من المحاربين مع خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب . لكن عزيمة أبي بكر لا تقل ، ولذا فقد أوفد المهاجر بن أبي أمية شقيق أم سلمة زوج النبي الى اليمن دون أية قوات تناصره . لإعادة الأمن الى نصابه في ربوعه وعهد اليه بأن يجند من يستطيع تجنيدهم من أبناء القبائل المسلمة المخلصة بين اليمن وصنعاء . وأوفد الخليفة في غضون ذلك الى عكرمة بن أبي جهل، وكان في عمان بأن يسارع بقواته عبر المهرة وأن ينزل من الساحل الى عدن لنصرة المهاجر .

وكانت القبائل الثائرة لحسن حظ المسلمين جريا على عاداتها البدوية في حالة نزاع مستمر بين بعضها وبعض وان اتفقت في ثورتها على الاسلام، ولذا فقد تعذر عليها الوصول الى خطة تشترك في تنفيذها وادرك عمرو ابن معديكرب أخيرا ان قواته من زبيد لا تستطيع الصمود أمام قوات المسلمين التي تفوقها عددا بعد ان وصل المهاجر على رأس قواته من المجندين المسلمين الى اليمن . وبعد أن وصل عكرمة بن أبي جهل على رأس قواته من عمان . ولما كان عمرو هذا من الغزاة المرحين الذين لا يحملون في حياتهم هموما فقد شرع يفكر فورا في طريقة تمكنه من عقد الصلح مع المسلمين ، وجالت في خاطره فكرة وهي أن يختطف زميله في الثورة قيس بن المكشوح (الصحيح قيس بن عبد يغوث) ونفذ عمرو خطته واقتاد الى المهاجر قيسا زميله في الردة يرسف في اغلاله ليصالح المسلمين مظهرا بعمله هذا اخلاصه للمسلمين (١) لكن مهاجرا لم يخدع بمناورة عمرو بن معد يكرب فقيده بدوره وبعث به مع صاحبه قيس الى أبي بكر في المدينة . ولكن الخليفة عفا عنهما وبعد أن أخذ منهما قسما بالولاء والاخلاص اعادهما الى قبيلتهما .

وبعد أن تم اخضاع كبار الثائرين في اليمن جمع المهاجر وعكرمة قواتهما عند مأرب وراحا في ربيع عام ٦٣٣ يتجهان معا شرقا لقتال قبيلة كندة وشينخها الاشعث بن قيس ، وكان هذا الشيخ قد مضى الى المدينة قبل عامين ومعه زعيم آخر من زعماء كندة هو وائل بن حجر صاحب القصة

(١) لم يذكر الطبري في تاريخه هذه الرواية .

الشهيرة التي سبق لي أن رويتها مع معاوية . وكان الأشعث قد كرس إخلاصه للإسلام في هذه الزيارة بخطوبته إلى أخت أبي بكر . لكنه لم يستطع بعد وفاة النبي مقاومة الأغراء بالردة والاستقلال عن المدينة .

وحاصره مهاجر وعكرمة في قلعته في النجير . وقاتلت كنده قتالا باسلا وخرجت من الحصن مرات عدة تحاول اقتحام صفوف المسلمين ولكنها فشلت وأخذت مؤونتها تنقص بصورة تدريجية ، وشرع الأشعث

الداهية يفاوض عكرمة على الصلح ووافق على تسليم القلعة شريطة أن يعطي المسلمون الأمان لعشرة رجال ، وافر قائدا المسلمين الشروط وفتحت أبواب الحصن وخرج الأشعث إلى المسلمين بالرجال العشرة الذين أعطوا الأمان وأمر مهاجر بعدم التعرض لهؤلاء العشرة . أما من تبقى من الرجال فقد أمر بقتلهم وأمر بالنساء والأطفال فبيعوا على أنهم من السبي .

واكتشف مهاجر أخيرا أن الأشعث لم يضع اسمه بين العشرة وكلهم من أسرته وأقاربه فأصدر أمره بقتل الأشعث ، ولكنه ما لبث أن أقنع بتعديل الأمر وبايفاد زعيم المرتدة إلى الخليفة مقيدا بالسلاسل ولم يكتف أبو بكر بالعفو عن الأشعث وإنما سمح له بإتمام زواجه من شقيقته التي كان قد خطبها . (١)

(١) تختلف رواية المؤرخ عن الروايات العربية بعض الاختلاف . فقد روى البلاذري في فتوح البلدان أن أبا بكر الصديق ولي زياد بن لبيد أمر كنده وكان هذا رجلا حازما صلبا فانتفضت عليه كنده كلها وقتلت عددا من المسلمين ووقعت معركة بين زياد وبين كنده بقيادة الأشعث فاصيب ناس من المسلمين وأرسل زياد إلى الخليفة يستعده فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أمية يأمره بانجاده . ولقى المهاجر وزياد الأشعث بن قيس ففزا جميعه وأوقما بأصحابه وقتلا منهم مقتلة عظيمة ولجأ الأشعث إلى النجير وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا فطلب الأشعث الأمان لمدة منهم وأخرج نفسه من العدة وذلك أن معدان بن الأسود أخذ بحقه وقال : اجعلني من العدة فأدخله وأخرج نفسه ونزل إلى زياد والمهاجر فبعثا به إلى أبي بكر فمن عليه ولوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة ، فولدت له محمدا واسحاق وقرية وجبابة وجعدة .

ولا ترونها نزل إلى السوق فلم ير بها جزورا «صغير الابل» الا كشف عرقبيها وأعطى فتمها وأطعمها الناس وأقام بالمدينة ثم سار إلى الشام والعراق غازيا ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب .

(العرب)

وبإخضاع حضرموت ثم إخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام ثانية ولا ريب في أن خضوعها هذه المرة كان أقوى من سابقة ففي المرة الأولى تم الخضوع عن طريق وصول الوفود إلى المدينة معلنين إسلام قبائلهم ، دون أن تكون هناك تجربة للقوة ، أما الآن فقد جربت القوى بعضها وهزم العصاة في كل طرف من أطراف الجزيرة واضطروا إلى الاستسلام .

واستغرقت حروب الردة سنة واحدة بعد وفاة رسول الله وأصبحت الجزيرة العربية بعد انقضاء هذه السنة متحدة في ظل حكم قوى واحد ، وراح المسلمون وقد انتشوا بحماسة الإيمان الديني اللاهب وبالتطلع إلى المفاخر والأمجاد والاسلاب يتطلعون إلى ميادين جديدة تبعد عن بلادهم يأملون في احتلالها والسيطرة عليها .

تواريخ مشهورة

وفاة النبي واختيار أبي بكر خليفة له يونيو (حزيران) ٦٣٢

حملة أسامة من يوليو (تموز) إلى سبتمبر (ايلول) ٦٣٢

أبو بكر يشنت شمل القبائل المرتدة في ذي القصة

أغسطس (آب) ٦٣٢

موقعة بزاخة وهزيمة طليحة

أكتوبر (تشرين الأول)
ونوفمبر (تشرين الثاني)
٦٣٢

معركة اليمامة وهزيمة مسيلمة

ديسمبر (كانون الأول) أو
يناير (كانون الثاني) ٦٣٣

إخضاع عمان

فبراير (شباط) أو
مارس (آذار) ٦٣٣

إخضاع اليمن وانتهاء حروب الردة

مايو (أيار) - يونيو
(حزيران) ٦٣٣

شخصيات مشهورة

أبو بكر	خليفة المسلمين
علي بن ابي طالب عمر بن الخطاب أبو عبيدة الجراح	كبار أعوان الخليفة
طلحة مسيلة	من مدعى النبوة
خالد بن الوليد المثنى بن حارثة عكرمة بن ابي جهل عمرو بن معد يكرب	كبير قادة المسلمين شيخ بنى شيبان من قادة المسلمين شيخ بنى زبيد فى اليمن - ارتد ثم عاد فأصبح من قادة المسلمين شيخ بنى بجيلة فى اليمن ظل على ولائه للمسلمين ثم أصبح من قادة جيوشهم
جرير بن عبد الله	

سوقية القرصان

« .. كانوا دائما من الشعوب المحاربة ، لا يكادون يهدأون الى الصلح مع بعضهم البعض أو مع جيرانهم .
وقد تفوقوا في قيادة الخيول واستخدام النبال والسيوف والرمح . كل ما يعرفونه هو الشعر . ففيه مجال عبيرتهم »

- أو كلى - تاريخ العرب

« يعيش البدو حياة فريدة . فلا أسوار تقيهم .
ومن هنا يكون اعتمادهم على أنفسهم في حماية أرواحهم .
هم دائما مسلحون ، وعلى أهبة ، حريصون من الخطر ،
واثقون من شجاعتهم وقوتهم . ولقد باتت الشجاعة
من أعمق مزاياهم . لما الجراة فمزيتهم الثانية »
- شارل عيساوى في كتابه فلسفة العرب
للتاريخ - مقتبسة من تاريخ ابن خلدون .

« والشيء الثابت المؤكد هو أن من يسيطر على
البحر ، يكون مطلق الحرية فهو الذى يقرر ، هل يخوض
حربا كبيرة أو صغيرة طبقا لمشيئته ؟ »
فرنسيس بيكون

أسفرت النهاية الناجحة للعمليات الحربية في اليمن وحضرموت عن نهاية ما سمي بحروب الردة . فقد تم إخضاع الجزيرة العربية الى الجنوب من حدود الروم وفارس إخضاعا كاملا . ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن الجزء الأكبر من هذه المنطقة كلها . كان قد خضع لسلطان محمد في حياته ، دون أن يضطر هو الى استخدام القوة وبالطبع لم تكن الحملات الصغيرة التي شنتها المسلمون في حياة النبي ، والتي لم تكن مؤثرة في غالبيتها هي التي دفعت القبائل العربية الى الازعان والخضوع . فالشيء الذي لا ريب فيه ولا جدال هو أن قبول معظم هذه القبائل ، دفع الجزيرة الى المسلمين دون اكراه ، راجع الى شخصية محمد ، التي لا مثيل لها . وقد يكون صحيحا القول بأن خضوع هذه القبائل كان في بعض الحالات أو في كثير منها ، اسميا ، وقد تم عن طريق وصول شيوخها الى النبي في المدينة على رأس وفود من هذه القبائل ولكن تأثير النبي على هؤلاء الشيوخ الذين كانوا يعتزون باستقلالهم وزعاماتهم ، كان كبيرا ولا ريب . ولكن لما كان معظم هؤلاء قد نكثوا بعهودهم فور سماعهم بوفاة النبي فان هذه الحقيقة تقيم الدليل على أن الاسلام لم يعن لهم أكثر من محمد . وقد يكون من الأكاديمية كل الأكاديمية ، أن يتساءل المرء عما كان سيحدث حقا لو أن النبي قدر له أن يعيش عشر سنوات أخرى . فهل كان في وسعه أن يحافظ على سيطرته على هؤلاء العرب وأن يوطد دعائمها بنفس الوسائل السلمية التي طبقها آنذاك ونفس ما تميز به من سمو شخصي ؟ فمن المظاهر البارزة في الطبيعة العربية اليوم كما في الامس كرههم للسلطان وميلهم الدائم الى الجيشان والاضطراب ، ولذا فهم لا يرضون دائما عن أية حكومة تحكمهم . ومن هنا يكون استعدادهم الدائم تقريبا للترحيب بقلبها ، لتجربة نظام جديد على الأقل . ويجعل هذا الاضطراب المستمر والرغبة عن التبعية ، من البلاد العربية مناطق سهلة على الفتح والغزو ، ولا سيما اذا حصل الفاتح على التعاون من جانب الساخطين من أهل البلاد . ولكن لا يكاد الفاتح يصبح حاكما ، حتى تعود الروح التي سهلت له اجتياح البلاد واغتصاب السلطان الى العمل ثانية ولكن ضده هذه المرة فلقد أصبح هو الحكومة الآن .

وسرعان ما يميل العرب من حكمه ويشرعون في البحث عن بديل جديد (١) .

ولقد كان محمد طيلة القسم الأكبر من عهد رسالته يكافح في سبيل البقاء ولم يتوج النصر جهوده التي بذلها الا في السنوات الاربع الاخيرة من نبوته ، ولم تصل وفود القبائل من كل مكان لبيعته الا في السنتين الأخيرتين من حياته . وليس من المعقول أن تغدو جميع القبائل في هذه الفترة القصيرة صادقة في اسلامها . ومن هنا يستطيع المرء أن يقول ان ما ابتدته هذه القبائل من اذعان لم يكن مصحوبا بمشاعر دينية بليغة . ولذا فان الردة كانت متوقعة فور انتهاء أمر تلك الجدة التي أدت الى تلك الثورة .

ومن المعروف عن العرب أنهم قوم شديدو الملل . ولكن فيهم أيضا هزبة أخرى لا يعرفها عنهم الناس الا قليلا . فعلى الرغم من جيشانهم العاطفي وعدم اذعانهم بسهولة الا أنهم قادرون في كل حين على تقدير كل مشاعر الحب والولاء للزعيم الذي يحترمونه ، ولكن هذا الحب والولاء ، لا يمكن أن يكرسا في الجزيرة العربية الا للشخص الذي يلقاه الناس فعلا . ولا ريب في أن النفوذ الضخم الذي حققه محمد عند العرب هو من هذا النوع ، ولذا فقد ظل الحب والولاء الشديداً مقتصرين على الاشخاص الذين اجتمع بهم وتحدث اليهم ولم يكن في إمكان هذا النفوذ أن يؤثر طويلا على القبائل النائية من أمثال بنى بكر أو قبائل عمان وحضرموت . ولو قدر للنبي أن يعيش عشر سنوات أخرى فان جاذبيته الشخصية كانت كافية لاكتساب عدد أكبر من الانصار من أولئك الذين قدر لهم أن يعرفوه،

(١) يحاول المؤلف في هذه الصورة التي يرسمها للعرب أن يظهرهم بمظهر القلب الذين لا يستقرون على حال ، والذين يرغبون في تغيير حاكميهم دائما . وهذه النظرة مستمدة من واقعين ، الواقع الاول هو ايمان المؤلف بالمنصرية اذ ليس هناك من موايا أو طبائع لشعب دون آخر ، وكل ما يقال في هذا الموضوع انما هو عنصرى الطبيعة والنزعة . ولانبيها تصوير المؤلف لانطباعاته الشخصية بالنسبة الى الظروف التي عاش هو بين العرب فيها ، كممثل لنظام استعماري بغيض ، يعمل دأبا على تقوية هذه الروح عند من يتصل بهم من العرب ليستغلها في تحقيق أهدافه والحفاظ على مصالح دولته الاستعمارية . ولعل خير مايدحض هذه الصورة الزائفة التي رسمها المؤلف ، عن العرب الماصرين ، هو التفاف العرب الاحرار في جميع أرجاء الوطن العربي حول مثل الرئيس عبد الناصر وأهدافه ، لا يرون فيها من تطابق مع أسى ما يؤمنون به من مثل وأهداف .

(العرب)

لكن اللجوء الى القوة كان أمرا لا مناص منه فى المناطق الغائية حيث كان لا بد من اجراءات تأديبية فى فترات غير منظمة وفى مناطق مختلفة • ولو عاش النبى هذه المدة الأطول • لما ثارت الجزيرة العربية كلها فى وقت واحد • كما وقع فعلا ابان الردة بعد وفاة محمد ، ولما وقعت الردة على ذلك النحو العام الذى وقعت فيه • وبالنظر الى تمكن خالد من هزيمة المرتدين بعد أن أعمل فيهم القتل والذبح فان سلطة المدينة على الجزيرة العربية أصبحت الآن أقوى مما كانت عليه فى أيام النبى •

لكن الحليفة واجه عددا من المشكلات • سواء أكان قد توقعها أم لم يتوقعها • فلقد كانت لقبائل البدو طريقتها الخاصة بالحياة التى عاشتها مئات السنين بل ألوفها • ولقد كانت الحرب القبلية التى لا تنتهى القاعدة فى وجود أفرادها انعاطفى • ولم تكن الحسائر فى أية معركة ، كبيرة • ولكن لما كانت العمليات الحربية لا تتوقف مطلقا فان مجموع الحسائر فى الرجال يصبح عظيما • وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعا من الفقراء فقرا هائلا • وذلك بالنسبة الى مقاييسنا على الأقل فلقد كان الهدف من حروبهم التى لا تنتهى وخصوماتهم ، الحفاظ على الشرف أكثر من الحصول على الكسب • وكانت حياة المرعى فى هذه الصحارى الشاسعة رتيبة الى حد كبير • وكان ما فى الغزوة من حماسة ثائرة ومن مجد ، منفذا عاطفيا يعرض على أهل الصحراء جمود حياتهم الصحراوية ، تماما كما تعمل الافلام السينمائية والقصص البوليسية ومجالس الشراب ، والتدخين ، على التخفيف من رتابة الحياة فى المدن الصناعية الحديثة أما الدين فلم يكن بالشئ الذى يكثر البدو من الاهتمام به وكان بعضهم فى القرن السابع الميلادى من النصارى ، ولكن نصرانيتهم لم تحل بينهم وبين متابعة الحروب • وعلى الرغم من أن الاسلام فرض على اتباعه محاربة الكفرة ، الا أنه فى الوقت نفسه حظر الحروب بين المسلمين حظرا كاملا • وهكذا كان على القبائل العربية بعد اعتناقها الاسلام أن تتوقف عن محاربة بعضها بعضا •

ولا ريب فى أن مثل هذا الوضع ، كان يفرض على أى سياسى أو فاتح عظيم أن يتبنى فكرة جريئة وهى توحيد العرب ليهاجم بهم العالم غير العربى وليغنى من هذا العالم الاسلاب والغنائم • لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الافذاذ • ولا من الذين تتجه طبائعهم الى الفتح ، بل كان رجلا بسيطا متواضعا ، كرس نفسه لذكرى نبيه ، ولخدمة دينه ، ومن هنا حق لنا أن نستنتج أن الفتوحات العربية الكبرى ، لم تكن ثمرة تخطيط

وتصميم . وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيا من نفسها نتيجة الظروف
العارضة (١) .

وهكذا كانت الروح القتالية المحاربة عند العرب . التي وجدت
نفسها الآن أسيرة أوامر الدين التي تحظر على المسلمين قتال بعضهم
البعض والتي جددت السلطة الكافية المطلقة لانفاذها ، هي العامل الاول
في التوسع الاسلامي . أما العامل الثاني : فكان مجرد صدفة عارضة حقا .

(١) يحاول المؤلف في قوله هذا «محاولة فاشحة» : تشويه التاريخ الاسلامي فهو
ينكر على ابي بكر رضي الله عنه صفة السياسة وصفة القيادة ، مع ان الاعمال العظيمة
التي قام بها في عهد خلافته التصير تقيم الدليل على ما تمثل به أبو بكر من صفات
اهلته لان يكون الخليفة الاول للنبي العظيم . واذا كان أبو بكر قد ظهر بمظهر الانسان
الراقي ذى الوجدان النقي والمناخفة الحية ، لانه ظهر في الوقت نفسه بمظهر الانسان
الصادق المرمية الذي يبحث في الامر على قدر ما يتجهى له من طرق البحث ويستعين
بآراء غيره ان كان سوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ، ومتى عزم لا يشنيه شيء مما عزم
عليه حتى اذا رأى الجبال أمامه تريد صده ، حاول ان يفتح له منها طريقا . وهاتان
الصفتان لا تكونان لملا الا في السياسي العظيم والقائد الكبير ، وهذا شأن ابي بكر الذي
اظهر اول ما اظهر من صدق المرمية في بعث جيش اسامة على الرغم من الالباء التي
بلغته من ردة العرب ، وعلى الرغم من نصائح بعض مشيريه بتأخير هذا البعث ولو تردد
أبو بكر في الامر ، وآخر البعث لشرع للناس لأول مرة مخالفة أوامر النبي . ولو ألحق
لألحاف عمر ، باستبدال اسامة بقائد آخر أكثر منه خبرة بشؤون القتال ، لسن سنة
بمخالفة ما جاء به نبيه . وفي موقفه هذا ، ومواقفه البطولية في حروب الردة ، وإيفاده
الجيوش لفرو امبراطوريتى الروم والفرس الدليسل الكافي على عظمة ابي بكر كمقائد
ولهم ، كما أن في وصيته لجيش اسامة « وقد سبق لى أن أوردتها في هامش سابق »
الدليل القاطع على فراسته السياسية وعظمته كسياسي .

أما وقد هدنا هذا التشويه المقصور الذى حاوله المؤلف لتاريخ الخليفة الاول
ولشخصيته . فان في وسعنا القول بأن استنتاجه الخاطيء بأن الفتوحات الاسلامية
كانت ثمرة مصادفة عارضة . هو استنتاج واهم أو تشويه آخر متمم لتاريخنا
العربى .

فالواضح كل الوضوح أن الحروب التي شنها العرب على الامبراطوريتين انما
كانت حرب تحرير قصد منها تحرير المناطق العربية التي تقع على تخوم هاتين الدولتين
والتي يحكمها أمراء الفساسة واللخميين اتباع الروم والفرس وعملاتهم . ومن البديهي
ان تتحول حروب التحرير هذه - بعد ان تبين للمتصيرين العرب في مستهل الحملات ،
خسيف الامبراطوريتين الكبيرتين - الى حرب عامة شاملة ، تهدف الى نشر الدعوة
الاسلامية ، والى جميع الاهداف الاخرى التي اتصلت بالحروب منذ أقدم المصنوب
حتى يومنا هذا .

(العرب)

وهو ان امبراطوريتي الروم والفرس كانتا قد ألفتا قبيل هذه الفترة المملكتين العربيتين الصغيرتين اللتين تقومان في اكنافهما ، وحاولتا أن تحكما مباشرة مناطق الحدود التي تؤلف أراضي هاتين المملكتين . وأسفر هذا الوضع عن تحول عرب الحدود من حماة لمدخل هاتين الامبراطوريتين كما ظلوا قرونا طويلة ، الى أعداء لحكامهم السابقين . ولقد سبق لنا ان رأينا قبيلة بني بكر ، وقد اشتبكت في معارك متدبرة مع الفرس . كما رأيناها تنتصر على جيش الفرس في معركة ذى قار .

وكان الامبراطور انرومانى هرقل ، فى غضون ذلك ، وبعد معركة مؤتة قد أوقف بصورة مفاجئة دفع الجعول والمعونات المالية التي كان يدفعها هو واسلافه من قبل لشيوخ القبائل العربية المرابطة على الحدود . ويبدو ان عمله هذا لم يكن ناجما عن عدم رضاه عن سلوك هذه القبائل . وانما كان ضرورة اقتضتها الاجراءات الاقتصادية التي تتخذ بعد الحروب الطويلة عادة لاصلاح ما أفسدته الحرب . وقد يكون من السهل على المرء أن يعرف الحكمة والصواب بعد حدوث أى حادث ولكن فى وسع المرء أن يقول أن عمل امبراطور الروم ، كان من أكثر الاعمال - التي يرتكبها أى انسان - حماقة . وهكذا غدت بعض القبائل العربية ، فى المنطقة ، المقيمة فى غزة ومؤاب (الكرك الحديثة) ودومة الجندل وإيلة (العقبة) معادية للامبراطورية ولقد سبق لنا ان رأينا النبی يعقد اتفاقات ودية مع امراء ايلة ودومة الجندل ، وهم بعض من أوقف الامبراطور دفع معوناته المالية اليهم(١) .

ولم تكتف امبراطوريتا الروم والفرس باثارة عداة أتباعهم من

(١) جانب التوفيق المؤلف فى هذه الصورة الرائقة التى حاول تصويرها . فهو يريد أن يقول ان القبائل العربية المقيمة على حدود امبراطوريتي الروم والفرس ، قد انقلبت على هاتين الامبراطوريتين لاسباب مادية ليس الا أى بعد وقف الروم مساعداتهم المالية لهذه القبائل . ولو صحت فرضية المؤلف الخاطئة ، لما انقلبت هذه القبائل الى النصف الاسلامى ، بعد أن فرض عليهم المسلمون الجزية اثر غزوة تبوك كما سبق لنا ورأينا من قبل ، وهو ما اعترف به المؤلف نفسه . اذ ليس من المعقول لو كانت الدوافع مادية ليس الا ان تنضم هذه القبائل الى صف من فرضوا عليهم الجزية لمحاربة من قطعوا المونة ، دون أن يفرضوا اية جزية . ولكن هوى المؤلف جله يتجاهل حقيقة الوجود القومى ، والدوافع القومية لينسب كل شيء الى الدوافع المادية .

(العرب)

العرب فحسب بل ان الحروب التى استمرت بينهما طيلة ستة وعشرين عاما والتي انتهت فى عام ٦٢٨ قد انهكت قواهما ، وأتعبتهما • وكانت بيزنطة ، وهى التى انتصرت فى النهاية ، قد وصلت الى مرتبة الافلاس • وأخذت تعاني مآسنى اليوم بالركود الاقتصادى الذى يخلف الحروب • ونحن نعرف فى أيامنا هذه صادق المعرفة ما تخلفه الحروب الطويلة فى نهايتها من ردود فعل تحمل طابع الانهيار الروحى والعقلى ، أما فارس المهزومة فكانت فى حالة ثورة وفوضى كاملين •

ومن هنا لم يعرف التاريخ احداثا عارضة تشبه فى بروزها تلك التى تمثلت فى اجهاد امپراطوريتى بيزنطة وفارس وفى ظهور الاسلام الفجائى والتى أثمرت الانتدفاع الهائل من القبائل العربية نحو الخارج ، طلبا للفتح بعد أن حظر الاسلام الحروب القبلية بين العرب أنفسهم (١) •

قدر للاحداث الاولى فى الفتوحات العربية أن تقع فى الجبهة الفارسية ولقد سبق لنا ان رأينا بنى بكر يشتبكون فى حروب العصابات مع الفرس فى حوض الفرات الأدنى منذ وقعت الحروب بين كسرى وبين أمراء اللخمين فى الحيرة ابتداء من عام ٦٠٥ • وظهر المسلمون بعد معركة اليمامة فى مؤخرة بنى بكر الذين وجدوا أنفسهم الآن بين نارين • ترى هل يصالحن المسلمين على حرب الفرس ؟ ولم يكن الجيش الفارسى يملك الآن أية قوة من الهجانة ، أو من المحاربين فى الصحراء بعد الغاء مملكة الحيرة • وقد يكون من المفروض أن يستطيع الفرس الدفاع عن المناطق المأهولة فى جنوب العراق ضد ساكنى الصحراء • ولكنهم أعجز من أن يستطيعوا الدفاع عن مراعى بنى بكر فى الصحراء ضد المسلمين • وعندما اشتد أمر الحملة الوهابية فى عشرينات القرن الحالى فى نجد ، وجدت قبائل العراق الصحراوية نفسها فى عين الموقف الذى كان عليه بنو بكر فى عام ٦٣٣ • ولم يكن حال حكومة العراق فى القرن الحالى احسن من حال فارس قبل ألف وثلثمائة عام ، اذ لم يكن لديها قوات تستطيع العمل فى الصحراء • وأدى هذا الوضع الى اضطراب جميع قبائل البدو غربى الفرات وجنوبه الى التفاهم والتهادن مع الوهابيين •

(١) اختلف مع المؤلف فى ان هذه الاحداث التى يسميها بالعارضة لم يكن لها مثل فى التاريخ ، فالتاريخ طافح بالشواهد الماثلة • ولعل مثل الرومان وغزو قبائل التيونون للامپراطورية خير شاهد على ما أقول •

وهكذا وجدت غالبية بنى بكر نفسها مرغمة على التحالف مع المسلمين وان كان بعضهم قد تحالف ، كما تقول الروايات مع الفرس ، ولا سيما فى بداية القتال ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني هو الذى دبر هذا التحالف مع المسلمين وهو شسيخ من شيوخ شيبان وهى بطن من بطون بكر ، وقد روى المؤرخون المسلمون انها اعتنقت الاسلام . وكانت غالبية رجال خالد ، قد عادوا بعد استقرار الوضع فى نجد الى مساكنهم فى الحجاز ، وخلفوه فى المنطقة على رأس قوة لا تزيد على التسعمائة محارب . وكانت صفة الخزى قد لحقت بالمرتدين الى الحد الذى دعا أبا بكر الى اتخاذ قراره بالألا يسمح لأى من القبائل المرتدة بالحرب الى جانب المسلمين . ويكون ولاء البدو لقبائلهم ، ولذا فهم لا يرون سبة أو عارا فى التحول من جهة الى أخرى ، اذا كان هذا التحول أمرا اقتضته مصلحة القبيلة العليا ومن هنا كان لا بد لكثيرين من أفراد القبائل الذين هزمهم خالد فى حروب الردة من أن يتحولوا الى جانب خالد فى غزوه لاراضى الفرس ، لو كان يقبل تحولهم ، وهكذا كانت بطون بكر التى لم تسلم من قبل أو التى لم ترتد بعد اسلامها ، هى الوحيدة الصالحة لمخالفة خالد .

ولو حكمنا على ضوء ما تستطيع قبائل المنطقة تقديمه من رجال فى يومنا هذا ، لقلنا ان المثنى بن حارثة كان قادرا على تجنيد ألفى رجل أو ثلاثة آلاف لمساندة خالد . ومن هنا لابد وأن تكون قوات خالد والمثنى المشتركة لا تعدو حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل . وقد عهد الى هذه القوة الصغيرة بالهجوم على الحدود الفارسية .

وليس لدينا صورة واضحة كل الوضوح عن حملات خالد فى العراق . فلقد روى الرواة أن المسلمين اجتمعوا فى مارس عام ٦٣٣ ميلادية فى الحفير وهى مكان يقع فى الصحراء الى الجنوب الغربى من الفرات (١) . وانضمت الى القوة الاسلامية هنا جماعة من طيء . ولا ريب فى ان آبار الحفير الحديثة هى مكان مثالى يمكن لقوة من هجانة البدو أن تجتمع فيها قبل غزو العراق . كما أن هذه الآبار موقع مثالى يمكن أن يصلح كنقطة التقاء مع قبيلة طيء التى كانت تعيش فى المكان الذى يعرف اليوم بجبل شمر .

وتقدم العرب من الحفير ليخوضوا معركتهم الاولى مع جيوش الفرس

(١) يقول الخضرى ان الحفير ماء بالقرب من البصرة . ولكننى اعتقد أن رواية جلوب هى الأصح وانها تقع فى شمالى نجد الى الشرق من التويت الحالية .
(العرب)

فى كاظمة التى يغلب على الظن انها تقع فى أرض الكويت الحديثة • أو فى الاراضى الواقعة بين الكويت والبصرة • وقد غلب جيش الفرس الذى كان مؤلفا من وحدات من القبائل العربية ووحدة من القوات النظامية الفارسية على أمره • ولما كان من الصعب على الفرس أن يحاربوا فى الصحراء فان هذه المعركة قد وقعت فى الغالب على مسيرة يومين من القصر الذى بنيت مدينة البصرة فيما بعد على أنقاضه ، أو على مقربة من خليج الكويت أنحالى •

وتقع بلدة الابله وميناؤها على مكان لقاء نهري دجلة والفرات المعروف اليوم بشط العرب • وكانت هذه البلدة محور تجارة الفرس البحرية مع الهند والقاعدة البرية لاسطولهم • وزحف خالد بجيشه على الابله • ولكن سكان البلدة لم يمكنوه من الهجوم عليهم اذ صالحوه على دفع الجزية (١) وتشجع العرب بعد ذلك فعبروا نهر الفرات وقاتلوا الفرس فى الوجة التى يعتقد بانها كانت تقوم فى مكان بلدة الشطرة الحديثة ، ولكن عندما سمع خالد بأن العدو يجمع جنوده للقاءه • عاد فعبر الفرات بسرعة هائلة متجها الى الصحراء •

وكانت العنصر الرئيسى فى جميع العمليات المبكرة فى فارس وسوريا على حد سواء هو أن الفرس والروم كانوا عاجزين عن الحركة فى الصحراء ، نظرا لاستخدامهم الجياد بدلا من الابل فى حربهم • وكان المسلمون أشبه ما يكونون بالقوة البحرية التى تمخر عباب البحر الى الشاطئ بسفنها ، بينما كان الروم والفرس مضطرين الى اتخاذ مواقعهم على الساحل أى فى المناطق المأهولة ، نظرا لعجزهم عن الهجوم فى البحر أى فى الصحراء العربية • وكان العرب فى البداية كقرصان النورمان أو الدانمركيين الذين هاجموا سواحل انجلترا يخشون من التوغل فى الداخل ، بعيدا عن سفنهم « أى صحرائهم » وكانوا يكتفون بالاغارة على سواحل الصحراء ليعودوا بسرعة الى صحرائهم ، عندما يرون الخطر يهددهم • وهكذا نرى خالدا وقد سمع بتجمع العدو ، يعود فيعبر الفرات

(١) تختلف رواية مؤرخى العرب عن رواية المؤلف • اذ يقول البلاذرى ان أهل الابله بعد ان طلبوا الصلح سمعوا بأن خالدا قد غادر منطقة البصرة متجها الى الحيرة فنكثوا مهادم لأمير خالد بالحيلة عليهم قائلا احملاوا عليهم انى أرى هيئة قوم ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فحملوا عليهم فهزمهم وقتلوا منهم بشرا وغرق طائفة منهم فى دجلة •

قاصدا أطراف الصحراء • حيث تلقى كما يبدو نجدات من وحدات من تميم • وعلى رأسهم زعيمهم القعقاع بن عمرو الذي سنسمع عنه كثيرا فيما بعد • ونشبت معركة أخرى في اليس التي يبدو أنها كانت تقع في الضفة الغربية من الفرات في ضواحي بلدة السماوة الحالية • ويبدو ان قوة الفرس كانت تتألف هذه المرة أيضا من القبائل العربية ، يقودها فارسي ، ويبدو ان المعركة كانت عنيفة للغاية وان المسلمين قد انتصروا فيها في النهاية • وقد أصدر خالد أمره بقطع رهوس جميع الأسرى • ويروى المؤرخون العرب ان المذابح ظلت مستمرة ثلاثة أيام • وان عدد القتلى كان بالالوف وقد عرفت المعركة عند العرب فيما بعد بنهر الدم • لكن العرب لم يتدخلوا في شئون الفلاحين الذين يزرعون الارض ، فقد طلب اليهم أن يدفعوا الجزية ليس الا على أن تضمن سلامتهم • وكان خالد يبعث الفء وهو خمس الغنائم بعد كل نصر الى الخليفة في المدينة طبقا للشريعة التي جاء بها النبي ، أما ما تبقى من الغنائم فيوزع على الجند الذين لا يتقاضون أية رواتب •

واستهوى النصر المسلمين فزحفوا على الحيرة ، عاصمة اللخمين ، الذين كان كسرى قد قضى على ملكهم قبل نحو من ربع قرن • ولو كان هؤلاء الامراء اللخميون لا يزالون في اوج سلطانهم وملكهم لاختلفت نتيجة المعركة ، لان قبيلة بكر كانت موالية أشد الولاء لهذه الاسرة • لكن ما حدث الآن هو ان حاكم الحيرة الفارسي فر الى المدائن عند سماعه بوصول خالد (١) •

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب كثيرا عن رواية المؤلف اذ يقول البلاذري ان خالدا وصل الى مجتمع الانهار (ملثتى فرعى الفرات) فلقبه ازاذبة عامل. كسرى على الكوفة فقاتله خالد حتى هزمه - أى ان العامل الفارسي لم يفر الى المدائن •

اما الاختلاف الثاني فهو ان القسم الاكبر من قبيلة بكر بن وائل كان مع الفرس. فشد العرب وصاروا حربا على المسلمين. ولعل اصدق دليل على ذلك ان الرجال الثلاثة الذين صالحوا خالدا على الحيرة هم من بكر فأولهم عبد المسيح عمرو بن قيس وهو من الازد ، وثانيهم هو هانيء بن قبيصة بن مسعود الشيباني وهو من شيبان ، وثالثهم هو اباس بن قبيصة الطائي وهو من طي • ومن هنا يظل استنتاج المؤلف الذي أراد منه الحط من أهمية فتح خالد العسكري للعراق • والذي قال فيه ان كسرى لو لم يقض على عرش اللخمين في الحيرة قبل ربع قرن لتغير تاريخ الفتح الاسلامي • انه الاستنتاج الخاطئ الناشئ عن الهوى والغرض •

(العرب)

وكانت الحيرة محاطة بالأسوار التي يعجز البدو عن اقتحامها ولكن معظم أهلها كانوا من العرب • وكانت القبائل العربية المحيطة بها قد خافت بطش خالد بعد نصره العظيم في أليس • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف عجزت مكة عن الصمود أمام محمد بعد أن أذعنت له القبائل المحيطة بها • ورأينا كيف ان الطائف قد استسلمت أيضا بعد أن انضمت قبيلة هوازن المجاورة الى المسلمين • وعلى الرغم من أن أهل المدن كانوا أكثر ثباتا من البدو في المعارك الثابتة إلا أن قدرة البدو على التحرك السريع كانت من الضخامة بحيث تعجز مدن الصحراء عن المقاومة دون مساعدة القبائل البدوية •

وقد نشأ الوضع نفسه في الحيرة • فقد حوَصر أهلها داخل أسوارهم ولم يجدوا عونا من القبائل مما دعاهم الى محاولة التفاهم مع المسلمين ، لا سيما وأن المبلغ الذي طلبه هؤلاء ، لم يكن كبيرا بالنسبة الى ثروة الحيرة ، وإن كان ضخما بالنسبة الى البدو • وقد تعهد المسلمون مقابل هذه الجزية بحماية المدينة التي رفض أهلها رغم كونهم من العرب التخلي عن نصرانيتهم واعتناق الاسلام • ومن المعتقد أن هذا الاتفاق قد وقع في مايو (أيار) عام ٦٣٣ أي عندما كانت جيوش المسلمين تقضي على آخر المرتدة في اليمن •

وقد يتساءل المرء الآن كيف سمح كسرى لقوة من البداة باحتلال مدينة مهمة كالحيرة • لا تبعد عن عاصمة ملكه المدائن أكثر من مائة ميل • وإذا ما أراد المرء معرفة السبب تحتم عليه أن ينظر نظرة قصيرة الى الاحداث في فارس • ولقد سبق لنا أن بينا كيف أن الامبراطور لروماني هرقل كان قد أطاح بعرش كسرى ابرويز في عامي ٦٢٧ ، ٦٢٨ • ولقد قام ولده شيرويه بقتله مع ثمانية عشر ولدا من أولاده ، ثم اغتصب العرش ، لكن هذه الجرائم التي اقترفها لم تجده قتيلا ، إذ اغتيل شيرويه قريبا الى البحث عن كل ذكر من سلالة كسرى انو شروان ليقتله ، هادفا من وراء ذلك الى عدم الإبقاء على أي فرد من الاسرة المالكة يستطيع منازعته العرش ، لكن هذه الجرائم التي اقترفها لم تجده قتيلا ، إذ اغتيل شيرويه نفسه بعد أن تبوأ الحكم بثمانية أشهر ليس الا (١) وسرعان ما سادت الفوضى والاضطرابات فارس بسبب المنازعات التي نشأت بين الاحزاب

(١) يقول مؤرخو العرب أن شيرويه حكم سنة وتسعة أشهر •

المتنافسة . ولم يكن من السهل العثور على وريث شرعى للعرش اذ أنه القتل كان نصيب معظم أفراد الاسرة المالكة من الذكور وتبوأ العرش فى غضون السنوات الاربع التالية نحو من تسعة أشخاص كان بعضهم يخلع بعد أيام من ولايته ، وبينهم عدد من الاميرات نظرا لعدم وجود ذكور من الاسرة المالكة .

ولما كانت هذه الفوضى قد ضربت أطنابها فى البلاد ، فان جل ما كان فى وسع الجيش الفارسى أن يفعله ضد العرب ، هو أن يتخذ له موقعا دفاعيا الى الجنوب من المدائن لحماية العاصمة بينما تجتاح جيوش خالد أرض السواد الخصبة ، جامعة الجزية ، وسابية أهل البلاد ليعبأوا كرقيق .

وعثر أخيرا فى صيف عام ٦٣٢ أى بعد وفاة النبي محمد فى المدينة البعيدة ، على غلام من البيت المالك ، ظل مختفيا طيلة المذابح التى وقعت . ولقد كان يزدرج فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره عندما ولى الملك . ولم يستطع تبعا لذلك تولي قيادة الجيوش وان أعلن ملكا على البلاد . وهكذا كانت مملكة فارس القوية قد تحولت بعد ستة وعشرين عاما من الحروب مع بيزنطة وبعد أربع سنوات من الفوضى والحروب الاهلية الى أرض يسودها الاعياء والدمار .

واستغل العرب ضعف الفرس وشملهم ، فاجتاحوا المناطق الزراعية الغنية الواقعة الى الشرق من الفرات . وسلبوا الغنائم منها وفرضوا الجزية على أهلها الذين يظهرون الرغبة فى الصلح والتفاهم . فكانوا يحصلون على عهود مكتوبة من العرب يشترطون فيها دفع الجزية مع الوعد بالحماية والامن . وكانوا يحصلون على ابصالات من العرب عندما يدفعون الجزية . وعلى الرغم من اننا نرى فى معاملة العرب لمن يقاومونهم بعض الغلظة الا اننا لا نستطيع الا أن نعتزف بانهم كانوا دائما يفون بعهودهم تمام الوفاء .

وعلى الرغم من ان الفرس كانوا عاجزين عن العمل الحربى فى الصحراء الا ان البدو من نصارى العرب المقيمين فى أعالي الفرات كانوا قادرين على الحرب فيها . وكان فى مكنة التغالبة وبطون بكر المتحالفة مع الفرس أن تهدد قوات المسلمين فى الصحراء وأن تغير على مواصلاتهم مع المدينة . وكانت خطة العرب السوقية تتركز الى الحقيقة الواقعة . وبهى انهم يشعرون بالامن والسلامة فى الصحراء وان فى وسعهم أن يغيروا

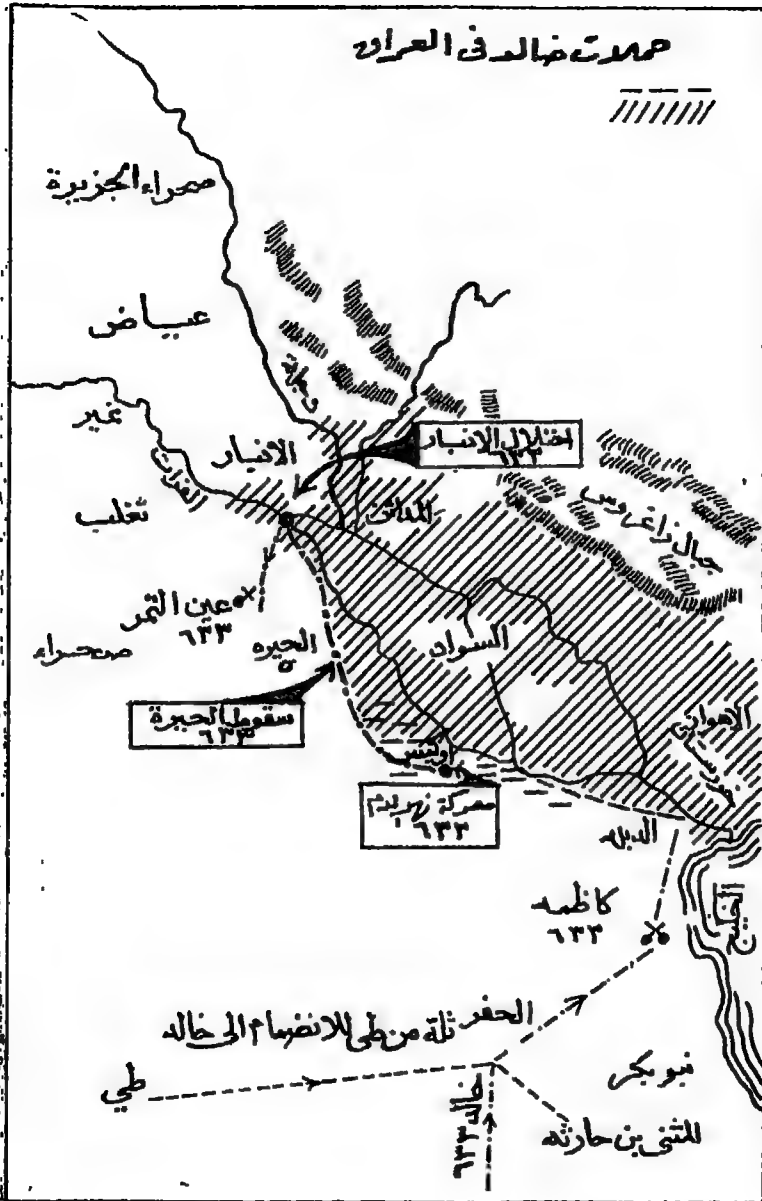
على المناطق المأهولة ، على النحو الذى يريدونه . ولكن القبائل العربية المعادية لهم ، تستطيع الحرب فى الصحراء أيضا ، وفى وسعها أن تفسد عليهم خططهم السوقية ، ولهذا فهم لا يتسامحون مطلقا مع أفرادها المعادين لهم . ولم يكن فى وسع خالد فى مثل هذا الوضع أن يجلس كما قال هو عن نفسه ، عاطلا عن العمل فى قصور الحيرة ، ممثلا دور المرأة . وسرعان ما أعد خططه الجديدة على أساس شن عمليات متحركة من جديد .

ولعل من الطريف أن نلاحظ عدم الاكتراث النسبى الذى أظهره زعماء قريش فى المدينة تجاه العمليات العسكرية فى العراق فى هذه الآونة . فلقد كان كل اهتمامهم كما سنرى بعد قليل ، مركزا على سوريا . إذ انها المنطقة التى يعرفونها والتى كان النبی قد بعث اليها بقوات حملتى مؤتة وأسامة بن زيد . وكان معظم الصحابة الذين حاربوا مع خالد فى معركته مع مسيلمة الكذاب ، قد عادوا الى المدينة وهكذا نرى ان معظم قادة جيش خالد ، لم يكونوا من أهل مكة أو المدينة بل من البدو . ولقد رأيناه يولى المثنى بن حارثة الشيباني من بنى بكر قيادة القوة التى خلفها لمواجهة جيش الفرس الى الجنوب من المدائن . كما رأيناه يولى القعقاع بن عمرو ، شيخ تميم الذى انضم مؤخرا الى المسلمين الامر فى مدينة الحيرة بعد احتلالها .

وراح خالد بعد ذلك يتجه شمالا محاذيا الضفة الغربية لنهر الفرات ، الى أن وصل الى المكان الذى تقوم فيه بلدة الفالوجة الحالية . حيث عبر النهر ليحاصر مدينة الانبار . وينتهى سواد العراق ، أو التربة الغرينية السوداء التى تؤلفها دلتا دجلة والفرات عند خط يمتد من الشرق الى الغرب مارا بمدينة الانبار . ويسكن الى الجنوب من هذا الخط فى الوادين الخصيبين اللذين يسير فيهما نهرا دجلة والفرات ، شعب كادح عامل من المزارعين ينتمون الى جذور عراقية مختلفة إذ ان منهم ذرارى السومريين القدماء والبابليين وبعض الاعجام . وبينهم بعض العرب الذين يعيشون على نهر الفرات . وكانت الارض السوداء الخصبة فى هذه المناطق مأهولة بالسكان ، وتقطعها أقنية الري . ولذا فانها عسيرة على العمليات العسكرية لقوة من محاربي الصحراء الذين يمتطون الجياد أو الابل .

أما الى الشمال من هذا الخط الذى يجتاز الانبار ، فتقوم مناطق من الصخور الرملية يمر فيها الرافدان يشقان طريقهما عبرها . وتجتاز الصحراء السورية فى هذه المنطقة نهري الفرات ودجلة حتى تصل الى

حملة خالد في العراق



سفوح جبال فارس . وكانت القبائل العربية من تغلب ونمير وإياد المهاجرة من الصحراء العربية قد تسللت عبر نهر الفرات لترابط في منطقة الجزيرة الواقعة بين النهرين . وهكذا فرى الصحراء تحيط بمدينة الأنبار الواقعة على الفرات من ناحيتي الغرب والشمال . وكان العرب قد أقاموا أو استولوا على هذه المدينة منذ نحو من أربعة قرون ، وكانت لاتزال مأهولة بالعرب تماما كالحيرة وإن تولت القوات الفارسية أعمال الحراسة فيها . وقد أحاطت الأسوار بالمدينة وأمام الأسوار خندق يحيط بها من جميع جهاتها ، وقد أمر خالد بذبح كل ما لديه من ضعيف الإبل ، ليملا الخندق بجثتها وعاد فاقتحم المدينة عنوة (١) .

ولم يكن خالد مجبرا في احتلاله الأنبار على التوغل في المنطقة الخصبة المأهولة بالسكان ، وكان لا يزال يسير على المبدأ البدوي القديم بالطواف حول أطراف الصحراء مهاجما المدن الساحلية ، والقرى والتأهب دائما للاختفاء في الصحراء بعيدا عن المطاردة في حالة ظهور جيش نظامي كبير للاعداء أمامه . وطبقا لهذا الأسلوب في القتال فقد عاد خالد بعد احتلال الأنبار يتجه غربا الى الصحراء ، زاحفا على عبي التمر . التي كانت تقع في المنطقة التي تقوم فيها واحة شتاتا الحالية . وقد قاومه هنا بعض العرب من تغلب وغيرهم ولكنه تمكن من تبسديد شملهم . واستولى خالد على الواحة التي يسكنها النصارى من العرب في حماية قوة فارسية . وقد أمر خالد في سورة من سوروات غضبه بقتل جميع أفراد الحامية ووزع النساء والأطفال كسبائيا على المسلمين . وقد أعدم في البلدة أحد كبار شيوخ تغلب (٢) . وأسر المسلمون في أحد

(١) تختلف رواية المؤلف هنا عن روايات مؤرخي العرب لقد ذكر الشعبي أن خالد حاصر الأنبار وحرق بعض نواحيها . فلما رأى أهلها ما نزل بهم ، صالحوا خالدا على شيء رضي به فآفرهم ، ويقول البلاذري أن لاهل الأنبار عهدا ومقدا . ويقول الخضرى أن قائد جند الأنبار طلب الصلح من خالد على أن يخليه ويلحقه بأمنه في جزيرة ليس معهم من المتاع والأموال شيء . فاجابه الى ذلك وسلم الأنبار وصالح من حولها .

(العرب)

(٢) تجاهل المؤلف كعادته في تشويه التاريخ العربي ، ذكر الأسباب التي دعت خالدا الى التسوية مع أهل عين التمر . فلقد ذكر المؤرخون العرب أن خالدا قصد عين التمر وبها مهران بن بهرام في جمع عظيم من الفرس ، وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من العرب من قبائل نمير وتغلب وإياد ، ومن لف لفهم وقد لزم مهران عين التمر وخرج عقة يريد مقابلة خالد في الطريق ، والتقيا واقتتل الجند وأسر خالد عقة ثم =

أديرة عين التمر النسطورية ، أربعين شابا عربيا ادعوا انهم من طلاب علم اللاهوت المسيحي . وقد وفر خالد عليهم أرواحهم طمعا في الافادة من علومهم ومعارفهم . وبعث بهم الى المدينة ليعملوا فيها عبيدا أو كتبة . وكان نصير واحدا من هؤلاء . وقد خلف في المدينة غلاما هو موسى بن نصير الذي قدر له بعد سنوات طويلة أن يصبح فاتح الاندلس .

وأرى أن نترك خالدا الآن في عين التمر في خريف عام ٦٣٣ لتنتجه بأنظارنا الى احداث سوريا في تلك الآونة .



رأينا في السابق ان أبا بكر لم يوفد خالدا في البداية لغزو فارس وانما أوفده للقضاء على الردة في الجزيرة العربية عن طريق هزم النبين الدعين طليحة ومسلمة ، وهناك اتصل عرضا بالمثنى بن حارثة ، ورجاله من بنى بكر ، الذين اقترحوا عليه القيام ببعض الغارات على حدود الفرس . وقصد المثنى الى المدينة حيث حصل على موافقة الخليفة . ولما كان الخليفة قد تسلم خمس الفىء من الغنائم والسبايا ، فانه لم يعترض على هذه الغارات التي لم تكن في مخططة . والتي تكللت بالنجاح نتيجة الفوضى الضاربة أطنابها في مملكة الفرس (١) .

== الهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنده تاركا الحصن الذى اعتمدت به فلول عقة ، حتى جاءهم خالد فاستولم من حصنهم بدون امان وقتل معظمهم ووجد بينهم أربعين غلاما يتعلمون الانجيل ، منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين فقسّمهم خالد في الناس ، وكان من مقبهم علماء أجلاء .

(العرب)

(١) محاولة أخرى من محاولات التشويه . فالؤلف يريد أن يظهر أن غزو العرب لفارس كان أمرا عرضيا . مع أن جميع الدلائل التاريخية تؤكد أن هذا الغزو وقع طبقا لخطة منظمة فلقد ذكر الخضرى ان أبا بكر انتدب أعظم قواده خالد بن الوليد بعد ان انتهى من حروب الردة ليفزو بلاد الفرس وأمره بأن يبدأ بغزو الأبله . وانتدب عياض بن غنم ليفزو الفرس في الشمال أى من شمال العراق . وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة والا يستعينا بمرتد . وقد وصل لخالد كتاب التميمين وهو باليمامة ، فكتب الى هرمز عامل الفرس في الأبله يقول : أما بعد اسلم ، تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك اللمة واقرب بالجزية . والا فلا تلومن الا نفسك ، فقد جئتكم يقوم يحبون الموت ، كما تحبون الحياة .

وقال اليلادى قدم المثنى بن حارثة على أبى بكر . فقال له : ياخليفة رسول الله . استعملنى على من اسلم من قومى . أقاتل هذه الاعاجم من أهل فارس . =

وكان الحكماء الجدد في المدينة • في واقع الامر أكثر اهتماما بحدود الروم منهم بحدود الفرس • ولقد كانت قريش وهي القبيلة التي مونت المجتمع الاسلامي الجديد بجميع زعمائه وقادته العسكريين ، تعرف سوربا وفلسطين معرفة وثيقة منذ أيام عملها في التجارة • وكانت معركة مؤتة وحملة أسامة الثارية ، هما استهلال هذه الحركات الحربية ، كما كانت غزوة تبوك التي قادها النبي بنفسه قد أسفرت عن اخضاع جميع قبائل الحدود ، والزامهم بدفع الجزية ، ولقد رأينا من قبل أن أمير دومة الجندل العربي النصراني ، قد أعلن اسلامه ، ولكن اسلامه كما يبدو لم يكن صحيحا • اذ ما كادت أنباء وفاة النبي تصل اليه ، حتى كان قد سحب اعترافه وولاءه ، وتوقف عن دفع الزكاة •

أما من الناحية الاخرى • فلم تكذب أنباء هزيمة مدعى النبوة في نجد تصل الى مسامع المدينة حتى كان الخليفة يقرر استئناف العمليات الحربية على حدود الروم ، وكتب الى أهل مكة والطائف واليمن والقبائل المحيطة بنجد والحجاز ، يستفزههم الى القتال ويستحثهم على ارسال المحاربين • واختار ثلاثة من القادة العسكريين لتولى القيادة • عقد لكل منهم لواء على السنة التي استنها الرسول (١) وكان هؤلاء القادة هم عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ، أما والد الاخير ، قائد قريش في أحد وعدو النبي السابق ، فقد ركنه الى الرف بتعيينه عاملا له في اليمن ، ولم يوضح لنا مؤرخو العرب السبب في شطط الجيش الذي

« فكتب أبو بكر في ذلك هذا ، فسار حتى نزل خفان ودعا قومه الى الاسلام فاسلموا . ثم ان أبا بكر رضي الله عنه كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالسير الى العراق • وكتب أبو بكر الى المثني بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه • وكان مدمور ابن هدي العجلي قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه • ويسأله توليته قتال الفرس • فكتب اليه يأمره بأن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا أقام • ويشخص اذا شخص •

يتبين من كل هذا ان الحرب مع الفرس لم تات عفوية عرضية كما يحاول جلوب أن يقول ، رغبة منه في تشويه الصورة العربية للفتوحات الاسلامية • بل كانت طبقا لخطة مقروءة وعلى أساس تفكير سليم في نشر الدعوة الاسلامية •

(العرب)

(١) على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ذكروا أن أبا بكر عهد بالقيادة الى الثلاثة الذين ذكرهم المؤلف الا ان الكثرة النالبة من المؤرخين يقولون ان الجيش قسم الى اربعة ألوية • لكل منها قائد ، اما القائد الرابع فهو أبو عبيدة عامر بن الجراح الذي عاد عمر بن الخطاب لولاه اثر توليه الخلافة القيادة العامة •

« العرب »

توافر للخليفة الى ثلاثة جحافل . ولعل افتقار الطريق الصحراوي الى الماء وللنقاط التي يتوافر فيها قد حتم على الخليفة أن يبعث قواته على ثلاث دفعات . ولعل افتقار هذه الطريق أيضا الى المؤن نظرا ، لعدم وجود نظام للتموين هو السبب . أو لعل ما يحس به القادة من حسد لبعضهم البعض ورغبة الواحد منهم عن العمل تحت قيادة سواه ، كان السبب (الصحيح) (١) . ومن المنطق كل المنطق أن يرى الانسان في تقسيم أبي بكر دليلا على ان تفكيره لم يكن متجها الى الفتح والاجتياح . وانما اتجه الى الغزو والاغارة . لكن أساليب القتال عند العرب ، كانت من النسوع العفوى العارض في هذه الآونة ، بحيث لا يستطيع المرء الوصول الى مثل هذا الاستنتاج واعتماده بثقة وطمأنينة (٢) .

ويقال ان أبا بكر أصدر أمره الى عمرو بن العاص بالاتجاه الى ايلة (العقبة) . للعبور منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة التي تعرفها قریش من أيام قوافلها وتجاريتها خير معرفة أما الرتل الثاني ، بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، فقد صدرت اليه الاوامر بالاتجاه شمالا عن طريق تبوك ، ليعود فيميل نحو الغرب باتجاه الساحل الشرقي للبحر الميت . بينما صدرت الاوامر للرتل الثالث بقيادة شرحبيل بالاتجاه نحو الشمال الشرقي للمسير على دمشق وبصرى . وكانت أوامره صريحة بأن تتجه الارتال كلها

(١) هذا تشويه آخر متعمد للتاريخ الاسلامي . فالفترة لم تكن معروفة عند القادة من صحابة رسول الله . والشواهد على ذلك كثيرة . أبرزها حملة أسامة بن زيد القائد الشاب الذي لم يتجاوز العشرين ربيعا . وكان النبي قد أمر أبا بكر وعمر وهما كبيرا صحابته بالتوجه معه كجنديين هادين . وكذلك عزل خالد من القيادة ابان معركة اليرموك وبولية أبي عبيدة على أن يظل خالد وهو القائد الكبير جنديا تحت امرته . وكذلك ما سبق قوله من كتاب أبي بكر للمثنى بن حارثة شيبان بأن يكون تابعا لخالد ، عند استهلال الحملة على القرمس ، بالإضافة الى امثلة اخرى لا عد لها ولا حصر ، تدحض ادعاء المؤلف .

(العرب)

(٢) يجمع المؤرخون العرب على أن الخليفة عقد اللواء لكل قائد من القادة الاربعة على ثلاثة آلاف جندي في بدء الحملة . ثم واصل اتباعهم بالامداد حتى صار مع كل امير سبعة آلاف وخمسمائة رجل . ولا يمكن أن يكون القصد من مثل هذا العدد الكبير من الرجال مجرد الاغارة والغزو كما يحاول المؤلف ان يقول . . يضاف الى هذا أن توجيه كل قائد من طريق الى هدف معين كفلسطين لمعرو بن العاص ودمشق ليؤيد وحمص لأبي عبيدة والاردن لشرحبيل ، يدل على أن غاية أبي بكر من هذا التقسيم كانت توزيع قوات العدو وانزال الارتباك فيها، لتمكين جيوش المسلمين من تحقيق غايتها في الفتح لا في الغزو كما يحاول المؤلف ان يقول . .

(المرب)

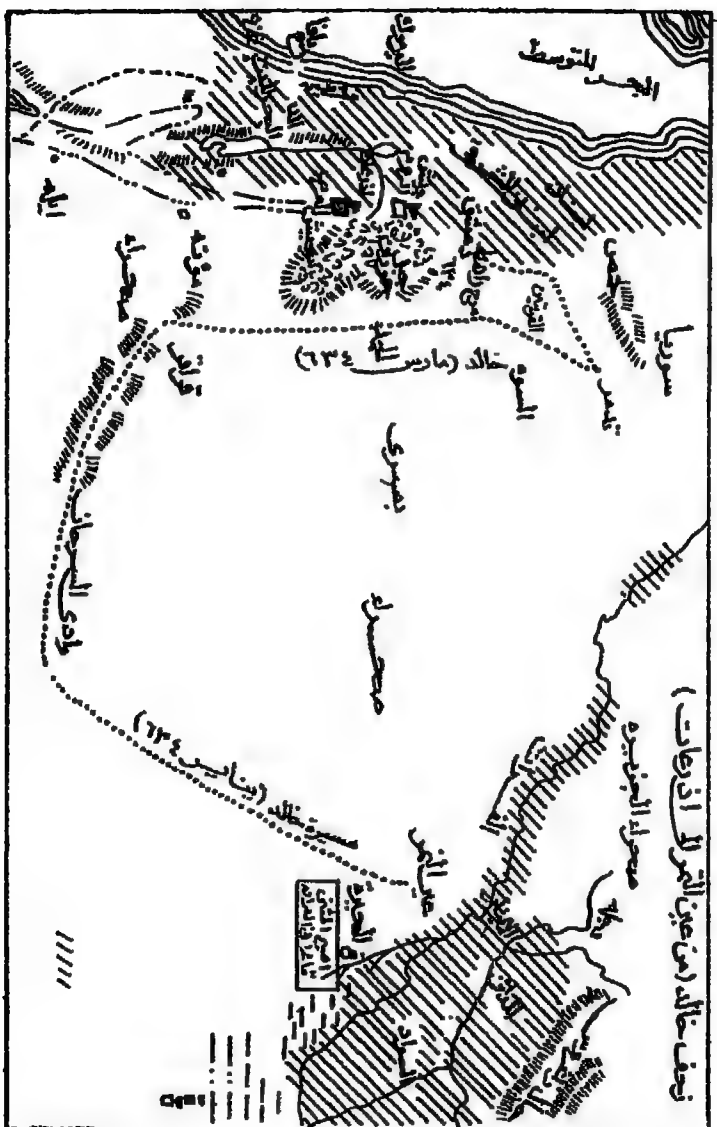
لنجددة أى منها يلتقى فى طريقه مقاومة عنيدة ، على أن يتولى القيادة العامة القائد الذى تدور العملية فى منطقتة . وما كاد المحاربون يتوافدون على المدينة منتصرين من حروب الردة فى نجد وعمان واليمن ، حتى كان الخليفة يحشددهم فى قوات يبعث بها كتجندات لتعزيز القوات الزاحفة على سوريا .

واشتبك رتل عمرو بن العاص مع الروم فى دائن على الطريق بين ايلة وغزة ، فهزمهم كما أرغم يزيد بن أبى سفيان سرجيوس بطريق قيصرية على التراجع بعد معركة فى وادى عربية وطارد يزيد الجيش الرومانى المنسحب ، فلحق به وبدد شمله وقتل قائده سرجيوس (١) وسرعان ما انتشرت قوات العرب فى جميع أنحاء السهل الساحلى الجنوبى فى فلسطين حتى بلغت على الغالب اللد ويافا .

وعندما وجد أبو بكر ان قواته تشتبك فى سوريا وفلسطين مع الروم فى عمليات حربية ضخمة ، كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه من العراق ، لتعزيز المسلمين على حدود الروم . ويقول بعض المؤرخين ان خالدا جاء من عين التمر الى دومة الجندل ليحتلها بعد أن ارتد صاحبها ، كما سبق لنا أن ذكرنا ، وكان الخليفة قد أوفد اليها قوة لاعادة سيطرة المسلمين عليها . ولكن هذه القوة عجزت عن التغلب على مقاومتها ويقول مؤرخون آخرون ان خالدا استدعى لتعزيز قوات المسلمين فى سوريا وأنه فى طريقه اليها أنهى أمر دومة الجندل المرتدة على الاسلام . ومهما كان دافع خالد ، فان من الواضح انه تحرك من عين التمر فى العراق فى مطلع عام ٦٣٤ وتمكن من اقتحام الدومة فى سرعة هائلة بما عرف عنه من جرأة وحيوية . فانزل القتل بأهلها وصلب أحد قادتها وذبح كل من وقع فى الاسر من رجالها وبعد أن انتدب أحد رجاله حاكما عليها ، وبعث بالنساء والاطفال والفنائهم الى المدينة سار خالدا

(١) تختلف رواية المؤلف من الروايات العربية بعض الاختلاف . فهو يقول ان دائن يحتمل أن تكون دوقان ، التى ورد ذكرها فى التوراة على انها المكان الذى كان اخوة يوسف يرمون أغنامهم فيها ، وان كان يستبعد ذلك لان دوقان قريبة من حيفا ولكن الطبرى والبلاذرى يؤكدان ان دائن من ترقى غرة ، وهذا هو الصحيح لان جيوش العرب لم تكن قد وصلت بعد الى شمال فلسطين . أما من موقعة العربية . فيقول أبو مخنف ان ستة من قواد الروم نزلوا العربية فى ثلاثة آلاف فسار اليهم أبو امامة - (من رجال يزيد) فى كنف من المسلمين فهزمهم وقتل أحد قوادهم ، فصاروا الى الدابية فهزمهم وغنم المسلمون شئما حسنا .

(العرب)



باتجاه الشمال الغربى نحو وادى «بطن السير» الذى يعرف اليوم باسم وادى السرحان . وأصبح بعمله هذا على بعد خمسة أيام أو ستة من القوات الاسلامية العاملة فى شرق الاردن ، وبات قادرا على اللحاق بها . ولكن خالدا لم يفعل ذلك لأن هذه القوات كانت عاجزة عن الحركة شمالا . اذ يواجهها جيش من الروم يربط فى مواقع دفاعية فى شعب ضيق على مقربة من بلدة درعا الحديثة ، وكان جيشا يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة قد التقيا هنا لمواجهة هذا الجيش المعادى ولكنهما لم يستطيعا ارغامه على التخلي عن مواقعه ، وهكذا وقف الجيشان يقابل أحدهما الآخر فى شبه حالة تجهد (١) .

وقرر خالد بموافقة القادة الآخرين أن يقوم بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو (٢) . وبعد أن روى جيشه بالماء من بئر قراقر ، الذى لا يزال قائما ومعروفا بهذا الاسم حتى اليوم ، قام بحركة التفاف واسعة باتجاه الشمال عبر الصحراء قاطعا نحو من مائتى ميل فى أرض لا ماء فيها ، عبر أرض صحراوية مسطحة تعرف اليوم بصحراء الحمد وليس فى هذه المنطقة أية آبار دائمة ، وإن كانت مياه الامطار تختزن عادة فى بعض شعابها . ولو كانت مسيرة خالد قد وقعت كما هو الغالب فى مارس (آذار) عام ٦٣٤ فانه ما كان ليجد فيها ماء ، لو أن المطر كان شحيحا فى شتاء تلك السنة . ووصل جيش خالد أخيرا الى مكان يطلق عليه المؤرخون العرب اسم « سوى » ولعله المكان الذى نسميه الآن « بالسبع ابيار » . وقد اتبع خالد قبل مغادرته قراقر طريقة مازال البدو يلجأون اليها حتى يومنا هذا . فلقد جمع عددا من الابل ، ومنع عنها الماء عدة أيام لتصبح غطشى كل العطش . وعاد فأرواها كل الرى . وتختزن الابل فى مثل هذه الحالة الماء فى مثاناتها لعدة أيام . ثم تعود

(١) سبق لنا أن قلنا ان خالدا تلقى وهو فى عين التمر امر أبى بكر باللحاق بالمسلمين فى الشام لنجدتهم ، ف خلف المثنى بن حارثة على قيادة الجيش وسار بثمانمائة رجل ويقال فى فى سماعة الى صندوداء وبها قوم من كندة وايداء والجم فقاتله أهلها فظفر ، وخلف بها سعد بن حرام الانصارى فولده اليوم بها ، وبلغ خالدا أن جمعا لبني تغلب بالمضيح والحصيد مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير ، فاناهم ، فقاتلوه وهزمهم وسبى وغنم وبعث بالسبى الى أبى بكر . ثم أغار على قراقر . واتى على دومة الجندل ففتحها حنة .

(٢) اختلف مع المؤلف فى قوله بأن خالدا قام بحركة التفاف واسعة حول جناح العدو بموافقة القادة الآخرين . اذ ان الاتصال بهم لم يكن ميسرا له . (المغرب)

فتستهلكه بصورة متدرجة • وكان ينحر هذه الرواحل بعد أن بدأ سيره يوما بعد آخر ، ليشرب وأصحابه الماء من بطنها • ولعل الصعوبة التي واجهها خالد لم تكن تأمين الماء لرجاله ، وانما تأمينه لحيله أيضا •

ونضب كل ما لدى خالد من الماء بعد مسيرة خمسة أيام • كما أتى على آخر راحلة من الرواحل التي اكتنز الماء في بطونها • وبدأ الاعياء يصيب خيله ورجله وكان الدليل وهو عربي من طيء ويدعى رافع بن عمير ، على ثقة من ان الماء بات قريبا • ولكن الضعف كان قد أصابه بدوره مما جعله عاجزا عن البحث عن البئر ، ويقال انه أصيب بالرمد فبات عاجزا عن الرؤية • وكان كل ما استطاع قوله ، ان هناك غسلوجا من الشوك عند البئر وان على الرجال أن يبحثوا عن هذا الغسلوج • ولا ريب في ان من السهل رؤية مثل هذه الشجيرة من بعد عدة أميال اذ ان الصحراء في هذه المنطقة خالية من كل نبات • وتعرض الجيش كله للخطر ساعات طويلة • وتعرف روايات البدو الكثير من الكوارث التي تعرضت لها جماعات من الغزاة بسبب افتقارها الى الماء في مثل تلك الحرارة اللاهبة وسط الصحراء المحرقة لكن الجنود الظماء تمكنوا أخيرا من العثور على الغسلوج • فأخذوا يحفرون وسرعان ما عثروا على الماء • ونجا الرجال وخيلهم من الموت • واتجه خالد بعد ذلك الى تدمير فهاجمها واستولى عليها ثم استدار غربا نحو القريتين •

كان خالد في سيره شمالا من قراقر الى سوى ، قد أصبح مقطوعا عن منطقة حوران المأهولة بسلسلة من الجبال البركانية التي تسمى بجبل الدروز • ولهذا فان وصوله الى تدمير كان مفاجأة مذهلة للعدو • ولكن مع اتجاهه جنوبا نحو دمشق أخذت أنبأؤه تصل الى الروم واشتبك مع العدو في معركة مرج راهط التي تبعد نحو من خمسة عشر ميلا الى الشرق من دمشق • وذلك يوم عيد الفصح من عام ٦٣٤ • وعاد فاتحه جنوبا ملتفا حول سفوح جبل حوران • (جبل الدروز) حيث اتصل بجيوش المسلمين عند درعا • ويقال ان عدة جيش خالد كانت تسعة آلاف مقاتل (١) •

(١) يقول المؤرخون العرب ان خالدا أتى بعد دومة الجندل الى قاصم • فصالحه بنو مشجعة من قضاة كتب لهم امانا • ثم أتى تدمير فامتنع أهلها وتحصنوا • ثم طلبوا الامان فامتهم على ان يكونوا ذمة • وعلى ان يقرأوا للمسلمين ويرسخوا لهم ، ثم أتى القريتين فقاتله أهلها وظفر وغنم ، ثم أتى حوارين من سدير فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه • وقد جاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى وهى مدينة حوران فظفر بهم فسبى وقتل • ثم أتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى وقتل =

ويعصف المؤرخون العرب مسيرة خالد بالنصر العظيم ويؤكدون انه انتصر في مرج راهط نصرا ضخما لكنني أرى أن هذا الادعاء يفتقر الى الاثبات والدليل . ولعل التفسير المعقول للعملية كلها هو ان خالدا قام بحركة التفافه هذه ليهدد دمشق ويرغم جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية في درعا . ولو كان خالد قد انتصر في مرج راهط لحتم عليه الموقف العسكري أن يقترب من دمشق . فيرغم الروم على التراجع عن درعا ، ولا ريب في ان اتجاهه جنوبا بعد مرج راهط وتخليه عن خطته الاولى يشير الى انه أصيب بنكسة في مرج راهط (١) .

وفي التاريخ العسكري المعاصر حادث مواز لهذا الحادث . فلقد قام الجيش البريطاني في مايو (آيار) عام ١٩٤١ ، ومعها قوات فرنسا الحرة بغزو سوريا التي كانت تسيطر عليها قوات حكومة فيشي . وتقدمت القوات من شرق الاردن . واتجه رتل بريطاني الى الشمال عبر درعا ولكن المواقع الفرنسية الدفاعية الى الجنوب من دمشق تمكنت من وقفه . ورغبة في اجبار الفرنسيين على اخلاء هذه المواقع . تقدم رتل بريطاني آخر تصعبه قوات الجيش الاردني فعبّر بادية الشام ليهاجم تدمر ويحتلها

= ثم وجه خالد يسر بن أبي أراطة العامري من قریش وحبيب بن مسلمة القهري الى غوطة دمشق ، فافاروا على قرى من قراها . وصار خالد الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب يدمشق فوقف عليها ناخرا راجحه ، وهي راية كانت لرسول الله (صلم) سوداء ، فسميت ثنية العقاب يومئذ . ونزل خالد بالبواب الشرقي من دمشق ويقال بل نزل بباب الجابية . فأخرج اليه أسقف دمشق نولا وخدمة . فقال : احفظ لي هذا العهد . فوعده بذلك . ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقناة بصرى .
(العرب)

(١) اذا كان جلوب يعتبر في كتابه «الجيش العربي الاردني» مسيرة قوات البادية التابعة للجيش والذي كان يتولى قيادته عبر صحراء الشام الى الرطبة في مايو عام ١٩٤١ لمحاربة الجيش العراقي أثناء ثورة رشيد عالي الوطينية نصرا وهي في سبيلاتها المدمرة ، أفلا يعتبر قطع خالد للصحراء برجاله نصرا ، في وقت لم تكن الطرق فيه مرصوفة ، ولا القوات الالية مرصوفة . لقد كان خالد اول قائد في العالم قطع هذه الصحراء اذا كان محاربو الشرق والغرب في التاريخ القديم ينتقلون من العراق الى سوريا او بالعكس من طريق الشمال أي بين الفرات وحلب والمسافة الصحراوية فيها قصيرة اما ان يقطع الصحراء من وسطها كما قطعها خالد . فنصر كبير لا ينكره الا مكابر او جاحد . اما قول جلوب بأن خالداً منى بنكسة في مرج راهط فقول مغلل لا يستند الى دليل تاريخي كما يخالف اقوال المؤرخين العرب الذين أجمعوا على انتصار خالد في الرقعة .

(العرب)

ويبتجه غربا منها الى حمص . واضطر الفرنسيون خوفا من قطع خط رجعتهم الى اخلاء دمشق والانسحاب شمالا . وقد احتل الجيش الاردني ابان هذه الحملة السبع ابيار حيث كاد جنود خالد يموتون عطشا . وحيث أقام الفرنسيون مركزا عسكريا . ولا ريب في أن هذه العملية صورة طبق الاصل من عملية خالد الالتفافية . لكنها تختلف عنها في أنها نجحت بينما فشلت عملية خالد ، لكن القوات البريطانية وقوات الجيش العربي كانت آلية ، بينما كان جنود خالد من الهجانة (١) .

(١) يريد جلوب في هذه المقارنة السخيفة أن يشبه نفسه ضمنا ، وان لم يكن صراحة بخالد بن الوليد . وأن ينسب لنفسه النصر بينما ينسب لخالد الفشل . فلقد ذكر هو في كتابه « قصة الجيش العربي الاردني » انه تولى قيادة الرتل الذي زحف عبر الصحراء ليهاجم تدمر لكن السخف يبدو واضحا من مقارنته بالاضافة الى التفضيل في النتيجة التي توصل اليها . لجيش خالد كان يهاجم أعظم امبراطورية في العالم آنذاك ، وهي امبراطورية الروم ، وكانت المواصلات بين المناطق التي هاجمها خالد ومركز هذه الامبراطورية سليمة لا يهددها خطر بينما كان جيش جلوب وبريطانيوه يهاجمون لولا فرنسية ، وجدت نفسها في سوريا معزولة عن قاعدتها في فيشي (في فرنسا) اذ قطع الاسطول البريطاني في البحر المتوسط طريقها وليس لديها من المعدات والمؤن ما يكفيها مدة طويلة . وكان خالد قد جاء من العراق قاطعا الصحراء كلها بينما استند جلوب ورجاله الى القواعد البريطانية في الشرق والجنوب والزرقاء وهي قريبة من منطقة القتال، وكان خالد يعتمد على الأبل والخيل في حركته بينما اعتمد جلوب على المدرعات والدبابات والسيارات المرمية بالاضافة الى الطائرات . ومن هذه النقط وحدها لنعدم مقومات المقارنة اما القول بالنجاح والفشل فتضليل ما بعده تضليل اذ لا يعقل أن يكون خالد وهو القائد المبقري ، قد فكر مطلقا ، بأن يهاجم ، بقواته التي لا تعدو الثلاث حتى ولو كانت بضعة الوف كما يرشِب بعض المؤرخين أن يقولوا ، وهو الرقم الذي بناه جلوب في هذا المكان بالذات ، رغم ميله في أماكن أخرى الى تكذيب الأرقام العربية وذلك ليدعم مقارنته الخاطئة ويوصل الى النتيجة المضللة التي توصل اليها ، مدينة كدمشق فيها قواتها الضخمة . ومع اتصالها بقواعد تموينها ، وأمامها جيش معاد يمد كما قال المؤرخون (٢٤٠) ألفا . ومن هنا يكون استنتاج جلوب في تقرير الفشل خاطئا من أساسه . اذ لم يضع خالد خطة لاحتلال دمشق ليكون تراجعها عنها نكسة او فشلا . ومن هنا يكون خالد قد قام بحركته هذه ، لبث الرعب والدمر في مؤخرة جيش العدو الرابط على اليرموك لضعاف معنويته . وليقوم ببعض العمليات التي تعتبر في عرف الحرب المصرية عمليات مؤخرة لأرباك صفوف المقدمة وهي خطة لا شك في أن خالد قد نجح فيها نجاحا كبيرا كما يثبت من سياق الاحداث التالية .

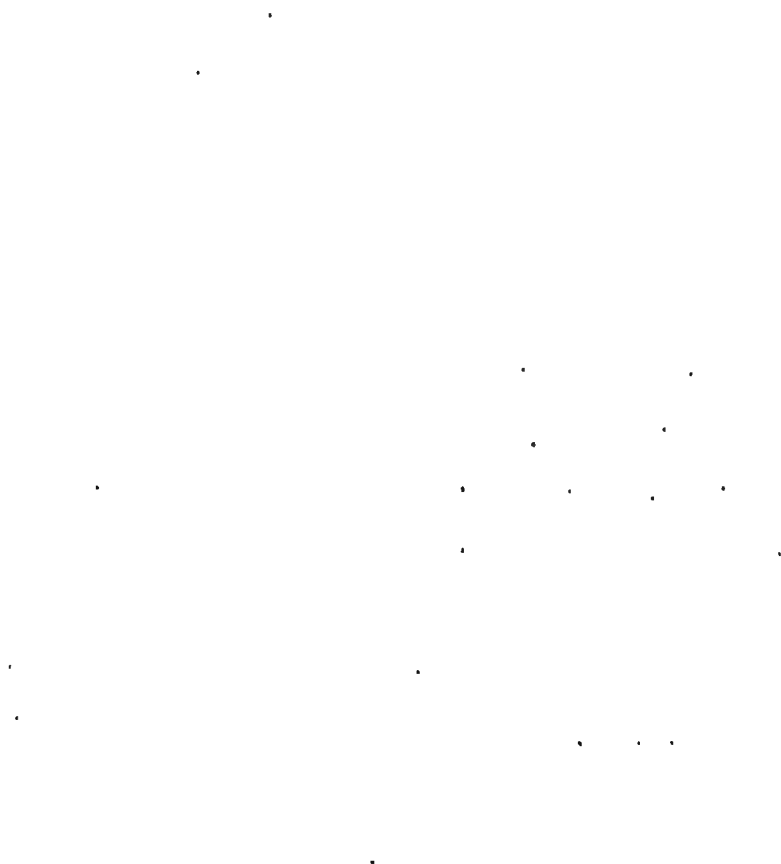
(العرب)

تواريخ مشهورة

٦٢٨ - ٦٣٢	فترة من الفتن والفوضى في فارس
٦٣٢ أو ٦٣٣	يزدجرد يرتقى العرش
مايو (أيار) ٦٣٣	خضوع الحيرة
خريف ٦٣٣	الاستيلاء على الانبار وعين التمر
٦٣٣ - ٦٣٤	ثلاثة أرتال عربية تغزو فلسطين والاردن
من يناير (كانون الثاني)	خالد بن الوليد يجتاز البادية من العراق
الى مارس (آذار) ٦٣٤	الى سوريا عن طريق دومة الجندل
ابريل (نيسان) ٦٣٤	اشتباكات لخالد مع الروم في مرج راهط
	خارج دمشق
مايو (أيار) ٦٣٤	إيقاف الارتال العربية عند اليرموك

شخصيات بارزة

قائد العرب في العراق	خالد بن الوليد
كسرى الفرس الشاب الجديد	يزدجرد
قادة الارتال العربية في فلسطين والاردن وثلاثتهم من قريش	عمرو بن العاص شرحبيل بن حسنة يزيد بن أبي سفيان
قادة العرب في العراق وكلهم من رجالات القبائل البدوية	المثنى بن حارثة - زعيم بنى بكر القعقاع بن عمرو - زعيم بنى تميم جرير بن عبد الله - زعيم بنى بجيلة



بداية الانتصارات

« كان مجلس الشيوخ يستهدف في أيام انتصارات الجمهورية الرومانية أن تحارب الجيوش الرومانية عددا واحدا في وقت واحد » وان تقضى على هذا العدد قضاء مبرما قبل أن تشتبك في أية معارك مع عدل ثان ، وقد استهان الخلفاء العرب بما عرف عنهم من حماس ومن عظمة بهذه القواعد المنطوية على الخوف ، والجبين ، وقد تمكنوا بعين الدرجة من البأس والنجاح من غزو خلفاء القيصرية والاكاسرة وأصبحت الامبراطوريتان المتنافستان في وقت واحد فريستين سهلتين لحدو كانتا قد الفتا منذ عهد طويل الاستهانة به وازدهاءه « ٠٠٠ - جييون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها -

« وتفترس جميع الشعوب الدين ينفهم اليك الرب الهك » فلا تشفق عيناك عليهم ، ولا تعبد آلهتهم فان ذلك وهق لك « فان قلت في نفسك هؤلاء الامم اكثر مني ، فكيف أستطيع أن أطردهم فلا تخفهم » - سفر تثنية الاشتراع - الفصل السابع - ١٦ -

لم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول في حرب مع البيزنطيين . فلقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتصان منذ أربعة قرون على أكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت وفعالهم المشهورة ، المثل الاعلى للانضباط العسكرى . لكن جيش بيزنطة في القرن السابق ، لم يكن يشبه بحال من الاحوال تلك الفيالق . فلقد بدأ التحول بعد معركة ادرنة المشهورة في عام ٣٣٨ ميلادية عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الرومانى وابادته ، بعد أن كان نموذج الجيوش في العالم . وتبعت هذه المعركة ثورة شاملة في الشئون العسكرية ، اذ بقدر للخيالة أن يسيطروا على ميادين المعارك للآلف سنة التالية . وكان السيف والمزراق سلاح الجندى الرومانى من المشاة . أما سلاحه الدفاعى فالخوذة والدرع والزرد وهو سلاح غير كاف لمقاومة أساليب الصاعقة التى يلجأ اليها الفرسان فى هجومهم الثقيل .

وكان الرومان أنفسهم قد حلوا فيالق مشاتهم المشهورة بعد معركة ادرنة واختفت باختفائهم قرون طويلة من التقاليد والامجاد وأصبح الفرسان السلاح الاول فى جيوشهم (١) . ولما كان السيف والحرية لم يعودا كافيين لمقاومة أى هجوم ثقيل يقوم به الفرسان فقد لجأوا الى القوس والنبال وسرعان ما تحولت كتائب الفرسان الى ثقيلة وخفيفة . أما الكتائب الخفيفة فسلحها السهام والقوس ، وفى وسعها أن تطلق نبالها وهى فى حالة الركض والخبب فى جميع الاتجاهات ، أما الكتائب الثقيلة فسلحها الرماح وتستعمل فى عمليات الصاعقة . وقد تمكن الامبراطور يوستينيان بجيش من هذا النوع من استعادة الامبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامى ٥٣٣ و ٥٦٥ . أما انجلترا فظلت عدة قرون متخلقة عن هذا التبدل الجندى فى السلاح من المشاة الى الفرسان

(١) عاد سلاح المشاة الى أهميته « كسيد الحرب » بعد ظهور البارود والاسلحة النارية . اما فى يومنا هذا فادى اكتشاف سلاح الفرسان المدرع الاالى الى اضعاف قوة المشاة من جديد . وهى ثورة جديدة فى عالم الحرب تشبه ثورة معركة ادرنة في عام ٣٣٨ .

والرماة ، وكان الانجليز لا يزالون يقاتلون في معركة هيستينجز (١٠٦٦ ميلادية) بسلاح المشاة ، بينما استخدم النورمان اعدائهم الفرسان المدرعين والرماة . وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني وتضم نحواً من أربعمئة جندي ويتألف اللواء من ثلاث كتائب أو أكثر بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية . وكان لكل كتيبة اشارتها الخاصة بها ، واللون الخاص بملابس رجالها (١) وكان البيزنطيون على خلاف العرب ، قد نظموا الخدمات الادارية والتنظيمية في جيشهم على أحسن منوال . فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلاً عربية خاصة بالفصيل تحمل لجنوده القنوس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح ، وغير ذلك من الادوات والمعدات . وتسير مع الجيش وحدة اسعاف تضم الاطباء والجراحين وحملة ناقلات الجرحى . وكان التدريب الشعبي والعسكري ينفذ بدقة ونظام ومثابرة . كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية .

وأمام هذا الجيش النظامي الرفيع التدريب . يقف العرب في جماعات من أبناء القبائل غير المدربين . فهم لا يعرفون شيئاً عن التعبئة وفنون الحرب ، ولا عن النظام أو الكتب العسكرية . وليست لديهم ادارة ، أو رواتب أو أطباء . وكان سلاحهم أقل شأنًا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فانهم بعد مؤنة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم ، ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي الفوه واحتمالهم للمشاق واقتزارهم لاي تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم . لكن الفضل الأول والآخر في انتصاراتهم يجب أن يعزى الى روحهم المعنوية العالية . فهم ناروي المزاج محاربون بطبيعتهم . وأدى تطلعهم الى الشهادة طمعاً في فراديس الجنان التي وعدوا بها ، الى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماماً ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط .



والصور التي نقلها الرواة لنا عن الحرب بين العرب وجيوش الروم في سوريا متناقضة تمام التناقض . فنحن نعلم في مصادرنا على المؤرخين العرب . الذين كتبوا تاريخ هذه الحرب بعد أكثر من قرن من وقوعها . والذين على الرغم من تدوينهم لاحداثها ، كانوا - كما هو واضح - يجهلونها

(١) ادمان - فن الحرب في العصور الوسطى .

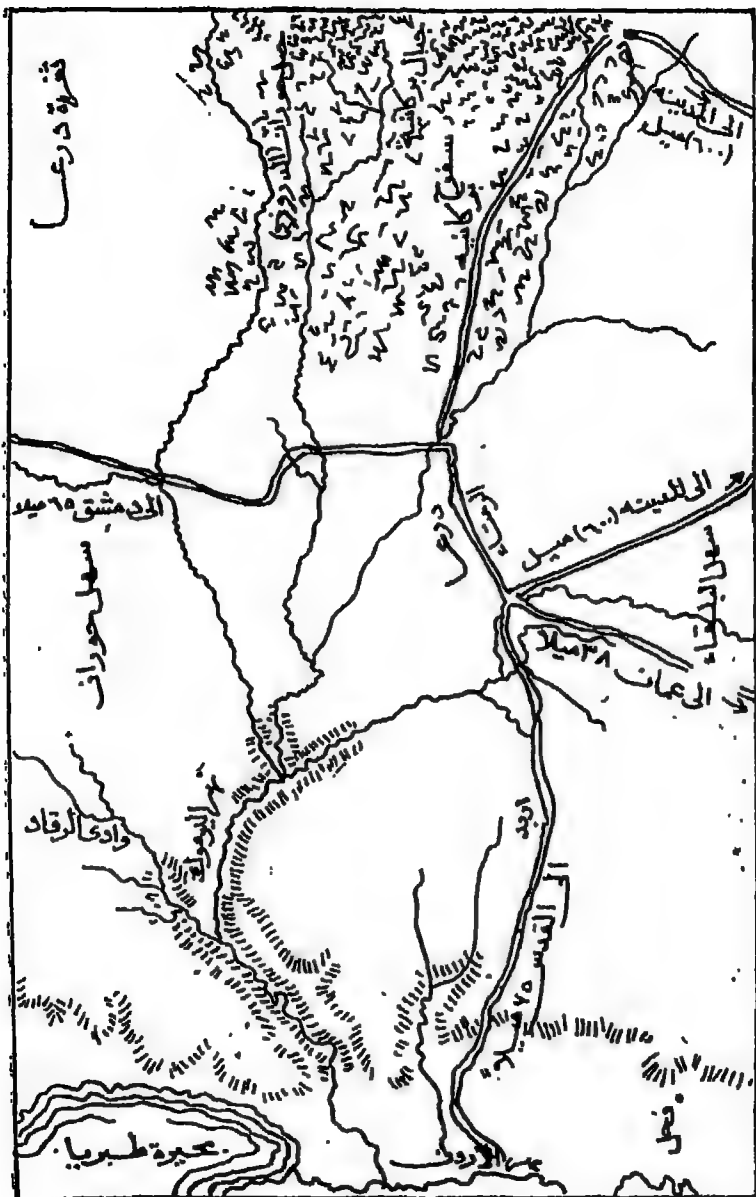
فأول لا يزالون بها وبما دار فيها من عمليات حربية ولكننى تمكنت عن طريق الصدفة العارضة من اكتشاف ما يبدو لى اليوم بأنه مفتاح التفهم لحملة العرب على سوريا . وهو المضيق الضيق القائم بين نهر اليرموك وبين جبل الدروز عند بلدة درعا . وقد عثرت على هذا الاكتشاف على النحو التالى :

احتلت القوات البريطانية فى يوليو (تموز) عام ١٩٤١ كلا من سوريا والعراق ، وكانت القيادة البريطانية تخشى أن يقوم الجيش الالماني الذى احتل البلقان باجتياح تركيا للزحف منها جنوبا عبر سوريا وفلسطين الى مصر التى كان الجيش الالماني يهاجمها من ناحية الغرب من ليبيا . ولم تكن هناك تقريبا أية قوات فى سوريا وفلسطين . كما لم تكن هناك أية دبابات وأسلحة مضادة للدبابات وكان من الصعب وقف الالمان لو اجتاحوا تركيا بوحداتهم الصاعقة المدرعة ولهذا كان من المهم العثور على جميع المضائق الضيقة الموجودة حيث يمكن لقوات الدفاع أن تصمد أمام القوات الآلية المدرعة وأن توقف زحف الارتال الالمانية ، وقد عهد الى - تحقيقا لهذه الغاية - بالتحرى فى المنطقة المحيطة بدرعا (١) .

يعتبر نهر اليرموك المسيل المائى الذى يصرف مياه منطقة حوران . وقد قام هذا النهر مع ممر ألوف السنين بحفر أخدود عميق يسيل فيه ليصب فى وادى الاردن الذى ينخفض نحو من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران . ويبدأ هذا الاخدود عند بلدة درعا . وتقوم الى الشرق والشمال الشرقى من هذه البلدة سلسلة ضخمة من الجبال التى ولدتها البراكين الخامدة التى تكتظ سفوحها بكتل ضخمة من السسوائل البركانية المنصهرة . وتصعب الحركة فى بعض الجهات فى هذه المنطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الجياد أو الابل أو العجلات مهما كان نوعها . وتهبط هذه التتوءات البركانية نحو السهل تدريجا الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقا لا يصلح للمرور مطلقا .

(١) اعتراف واضح وصريح من جلوب . بأنه كان وهو يقود جيش الاردن الدولة المستقلة اسما - ينفذ لبريطانيا أهدافها وغاياتها العسكرية فى المنطقة . وقد فضح جلوب باعترافه هذا نفسه . كما فضح استقلال الاردن الزائف . وأثبت أن الكيان الاردنى لم يقم الا لتنفيذ مخططات بريطانيا الاستعمارية وللحفاظ على مصالحها وخططها السوقية. ولعل هذا الاعتراف نفسه يصلح دليلا على اثبات تهمة الخيانة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . إذ أن جلوب هذا كان قائد الجيش الاردنى فى تلك الحرب . كما كان رئيس أركان القائد الأعلى للجيش العربية كلها وهو الملك عبد الله .

(العرب)



وعلى الرغم من ان الفجوة الصغيرة بين الارض البركانية وبين اليرموك كانت تعتبر فى عام ٦٣٤ ، وما زالت تعتبر حتى يومنا هذا ، الطريق الرئيسى بين دمشق وبين فلسطين وعمان وايلة (العقبة) . وقد أطلقنا فى عام ١٩٤٥ على هذا المضيق اسم «فجوة درعا» وقررنا أن نحفر فيها خنادق لمقاومة الدبابات وأن نقيم عليها مراكز محصنة للواء من المشاة لغلاق الفجوة .

ويشكو جميع المؤرخين الاوربيين للفتح الاسلامى لسوريا من غموض الروايات العربية وافتقارها الى الدقة فهذه الروايات تذكر المرة تلو المرة ان جيشى العرب والروم كانا متقابلين على نهر اليرموك ثم تعود هذه الروايات وتذكر انهما تفرقا عن المكان دون الوصول الى نتيجة ، فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ؟ ولماذا يتكرر ظهور هذا الاسم - اليرموك - فى الروايات ؟ ان الصورة الصحيحة لم تتضح امامى الا فجأة وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لاغراض عسكرية . ولقد أدركت ان هذا المضيق على ما هو عليه من نفع فى صد أى هجوم ألماني من الشمال ، صالح صلاحا أكبر وأكثر أهمية لصد أى هجوم قادم من الجنوب أيضا ، وفى وسعى أن أقول أن « فجوة درعا » تقوم أمام أى غزو من الجزيرة العربية مقام مضيق ترموبولى فى اليونان .

ولقد كان الألمان فى عام ١٩٤١ لا يقهرون فى أية حرب آلية صاعقة فهم يزجون فى الحرب بتيهور ضخم من المدرعات والسيارات المدرعة وغير المدرعة والمدافع الذاتية الدفع والتوجيه وفى وسع هذا التيهور أن يجتاح المناطق السهلة مكتسحا أمامه كل مقاومة . وكانت الطريقة الوحيدة فى مقاومة هذا التيهور الآلى الهائل الصمود أمامه فى منطقة ضيقة فى الجبال والمضائق والفجوات الضيقة حيث لا تستطيع القوات الآلية المرور الافرادى .

وكان المسلمون سريعى الحركة الى درجة هائلة وكان أسلوبهم المعنوى يتركز فى هجوم عنيف شرس وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين . ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراض فسيحة منبسطة ، لكن العرب لم يكونوا قادرين على خوض أية معركة للمشاة متقاربة الصفوف ، يدور فيها القتال بالحراب . فلم يكن جنود المسلمين يملكون أسلحة دفاعية كافية أو دروعا وقائية ولم يكونوا ذوى خبرة فى حروب الصفوف المتقاربة والحسنة الانضباط . يضاف الى هذا افتقارهم الى أسلحة الاسناد الثقيلة . وكانت سحب النبال هى



فيران التغطية الوحيدة لديهم . ولعل هذا الوضع يفسر لنا اجتياحهم السهل لصحارى شرق الاردن وجنوب فلسطين وسهولها وخشيتهم من القتال عند الجبال والمضايق . وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة فأقام جيشهم فى عام ٦٣٤ د كما أقام الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١ ، معسكرا دفاعيا متيعا على مقربة من درعا فى الثغرة الواقعة بين اليرموك والاراضى البركانية فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا ، فينسحبوا ، ولكن افتقارهم الى العلم العسكرى جعل من الصعب عليهم اقتحام هذه المواقع . ومن هنا يتبين ان عمليات خالد حول تدمر وقرب دمشق التى وصفتها فى الفصل السابق كانت تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم وهو هدف لم يتحقق على أى حال .

وكان أبو بكر قد أوفد فى غضون ذلك الى سوريا أبا عبيدة بن الجراح أحد الصحابة الكبار . ولا يتحدث المؤرخون المسلمون عن مراكز القادة المسلمين المتعددين أو سلطاتهم . ولكن المفروض ان أبا بكر انتدب أبا عبيدة قائدا عاما على عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرجيل ابن حسنه . ولقد كان أبو عبيدة فى أواسط العمر رجلا هادئ الطباع مؤمنا واعيا شديد الايمان وكان قاضيا عدلا ومديرا منظما ولكنه لم يكن عسكريا عبقريا ولذا عندما وصل خالد الى المسرح لم يعترض أبو عبيدة على توليه المسؤولية والقيادة العامة (١) .

(١) تختلف روايات المؤرخين المسلمين عن رواية المؤلف تمام الاختلاف فأبو عبيدة لم يأت متاخرا كما قال المؤلف وانما كان موجودا على رأس جيشه فى المنطقة ، ولم يمينه أبو بكر قائدا عاما وانما كان قائدا على جيشه مثل القادة الثلاثة الآخر . وارى هنا ان انقل للقارئ رواية المؤرخين العرب كما ذكرها الطبرى ...

لما علم الروم بمسير المسلمين اليهم اهتم هرقل بالامر وكان فى حمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على اربعة من القواد فأراد ان يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه ان يشغل كل امير باضعاف ما معه. ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاثروا وكان من رأى عمرو بن العاص ان يجتمعوا اذ ان اجتماع المسلمين يمكنهم من الفوز وقال « أما اذا تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن منه لاحد ممن استقبلنا واستحسن القادة الثلاثة رأيه فتواعدوا على اللقاء فى اليرموك ، وكتبوا الى أبى بكر فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وامرهم ان يجتمعوا باليرموك متساندين وان كل رجل بأصحابه . وبلغ هرقل ذلك فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا منزلا واسع المثل ، واسع الطرد ، ضيق المهرب وكان ذلك فى الرواقصة وهو واد فى حوران على غفة اليرموك وجعلوا من الوادى خندقا لهم وقد افنتهم الجنود الاسلامية الى هناك فتزلوا بحداثهم على طريقهم وليس للروم طريق الا عليهم فصاروا وكانهم محصورون . وظلوا على هذا الحال طيلة اشهر »

ولم يكن خالد من طراز القادة الذين يخلدون الى السكينة والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك ، ولذا فسرعان ما تحولت العملية الى حركة هجومية دائمة . وكان أول عمل قام به احتلال مدينة بصرى وهى احدى المدن الاغريقية العشر التى بناها الاسكندر المقدونى قبل نحو من عشر سنوات . وقد صالح أهل المدينة العرب على دفع الجزية .

وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو فلسطين الجنوبية وجمع الغنائم منها ، من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة . وكان راغبا عن المغامرة واقتحام جبال السامرة واليهودية والكرمل اذ أن العرب كما سبق لنا ان قلنا بارعون فى حروب الصحراء ليس الا .

وكان هرقل امبراطور بيزنطة مقيما فى حمص ويشغل نفسه باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش ان هرقل كان على ثقة من جمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النسائى . وقد استعاد بعمله هذا زمام المبادرة وأرغم العرب على تعديل خططهم لمواجهة خطته .

= صفر وربيع لا يقدرّون من الروم على شيء والواقصة وراهم والخندق امامهم وكان المسلمون قد استمدوا ابا بكر في شهر صفر فكتب الى خالد ليلحق بهم . وصادف قدوم خالد ان قدم مدد عظيم على الروم وبلغت عدتهم ٢٤٠ ألفا وجاء خالد فوجد المسلمين يتقاتلون متساندين اى ان كل امير يحرك جنوده مستقلا عن غيره وقد علم ان الروم قد هزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الامراء وخطب فيهم قائلا ان هذا اليوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى اخلصوا جهادكم واريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وعبيبة ، وانتم على سائد وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم علمكم لحال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه الراى ، قالوا فهيات فما الراى قال : ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى اننا مستساير ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم ، ان الذى انتم فيه اشد على المسلمين مما قد غشيتهم وانفسح للمشرّكين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالحلله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه ان دان لاحد من امراء الجنود ولا يزيد عليه ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله اعلموا فان هؤلاء قد تهاؤوا وهذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى خنادقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فاهلما فللتعاود الامارة فليكن عليها بعثنا اليوم والاخر غدا والاخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوى اليكم اليوم فامروه .

(العرب)

ونقد سبق لى فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن تحدثت عن حملات هرقل العسكرية ضد الفرس وسبق لى ان بينت ان هرقل وجد فى نفسه الشجاعة . وكان كسرى ابرويز يحاصر عاصمته القسطنطينية ليفادر العاصمة عن طريق البحر الاسود لينزل قواته على بعد خمسمائة ميل الى الشرق ، ويزحف بها على أرمينيا . وانتصر هرقل على الفرس فى نينوى ثم أصبح فى وضع مكنه من الزحف على المدائن مرغما كسرى على رفع الحصار عن القسطنطينية والجلء عن أراضى الروم . ومن الواضح والعانة هذه ان خطة الصمود أمام العدو فى خط تقدمه الرئيسى ثم ارغامه على الانسحاب بحركة التفاضية واسعة تسهلها سيطرته على البحر كانت عملية سوقية يعرفها الامبراطور خير معرفة وقد شرع الآن فى تنفيذها من جديد .

اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربى على دمشق ولا حظ أن عمرو بن العاص وحيد فى منطقة بئر السبع وراح يبعث بجيشه الرئيسى الى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا فالناصره قيسارية التى يستطيع ان يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية . وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر وفى وسعهم تموين جيوشهم فى فلسطين من ميناء قيسارية أو من مينائى يافا وغزة فيما بعد وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على عمرو بن العاص فى منطقة بئر السبع فى الوقت الذى تنشغل فيه قوات المسلمين الرئيسة فى اليرموك . واعتقد هرقل انه اذا حقق هذه الغاية فانه يصبح قادرا على الزحف الى ايلة (العقبة) ليهلك منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغما بذلك قواتهم الرئيسة على التراجع عن اليرموك

وينظر معظم المؤرخين - على ضوء هزيمة الروم النهائية - الى هرقل على انه انسان احمق ضعيف يثير الدهشة لا سيما وقد اظهر جراءة وبسالة ضد الفرس فى الماضى . . وعجزا فاضحا أمام العرب فيما بعد . ولكن اذا صح تقديرى العسكرى للوضع فائنى أرى أن الامبراطور أراد أن يستعمل فى سوريا وفلسطين نفس الاساليب السوقية الجزئية التى مكنته من الانتصار على كسرى . وكان مفتاح الخطة كما هو واضح تحطيم جيش عمرو بن العاص عند بئر السبع قبل أن تصله النجيدات من جيش المسلمين الرئيسى عند اليرموك .

وكان لابد لانباء زحف جيش الروم فى سوريا الى فلسطين من ان تصل الى قادة العرب عند اليرموك . ووجد القادة أنفسهم فى وضع

غريب وحرج كل الحرج ، فلقد افترقت هذه الجيوش الاسلامية في بداية زحفها عن الرتل المتجه الى بئر السبع في الصحراء المحيطة بايلة . وراحت هذه الجيوش تزحف ، مدفوعة بغريزتها في الميل الى القتال في المناطق الصحراوية التي تألفها ، نحو الشمال ، الى بصرى ودرعا مخلفة ورائها جبال موآب والبلقاء دون أن تمسها ، لتصبح الى الغرب من خط زحفها ولم تكن هذه الجبال صحراوية بل كانت اراضى مزروعة تنتشر فيها المدن والقرى وتؤلف حاجزا يفصل بين قوات عمرو بن العاص في بئر السبع وقوات خالد وأبي عبيدة عند اليرموك وعندما وصلت الى مسامع القادة العرب انباء زحف الجيش البيزنطى جنوبا عبر طبرية وقيسارية كان الوقت قد فات على تمكينهم من الوصول الى عمرو بن العاص في الوقت المناسب عن طريق ايلة ولكنهم آمنوا انهم اذا لم يصلوا اليه بسرعة فان قواته ستتهار وتتحطم .

وتؤلف جبال شرق الاردن - وهى سلاسل عجلون والبلقاء والكرك حاجزا من الصخور لا يمكن اجتيازه . وليس في هذه السلاسل الاامر واحد يؤدى الى بئر السبع ويقع الى الجنوب من البحر الميت وتمر هذه الطريق عبر جبال الكرك (موآب) ثم تلتف حول السواحل الجنوبية للبحر الميت لتعود فترتفع عن طريق عين الحصب لتصل الى بئر السبع . أما الى الشمال من هذا المر فان جبال شرق الاردن تتحدر تماما وبصورة مفاجئة عميقة الى البحر الميت . ولالى الجنوب من هذا المر تعود الجبال الى الارتفاع العمودى بحيث يضطر الفرسان اوراكبو الابل الى التبرجل عن جيادهم أو رواحلهم ليتجنبوا خطن الهاويات العميقة ولم يكن في وسع العرب ان يعبروا نهر الاردن الى الشمال من البحر الميت اذ ان الروم كانوا لا يزالون يحتلون القدس وجبالها (جبال اليهودية) .

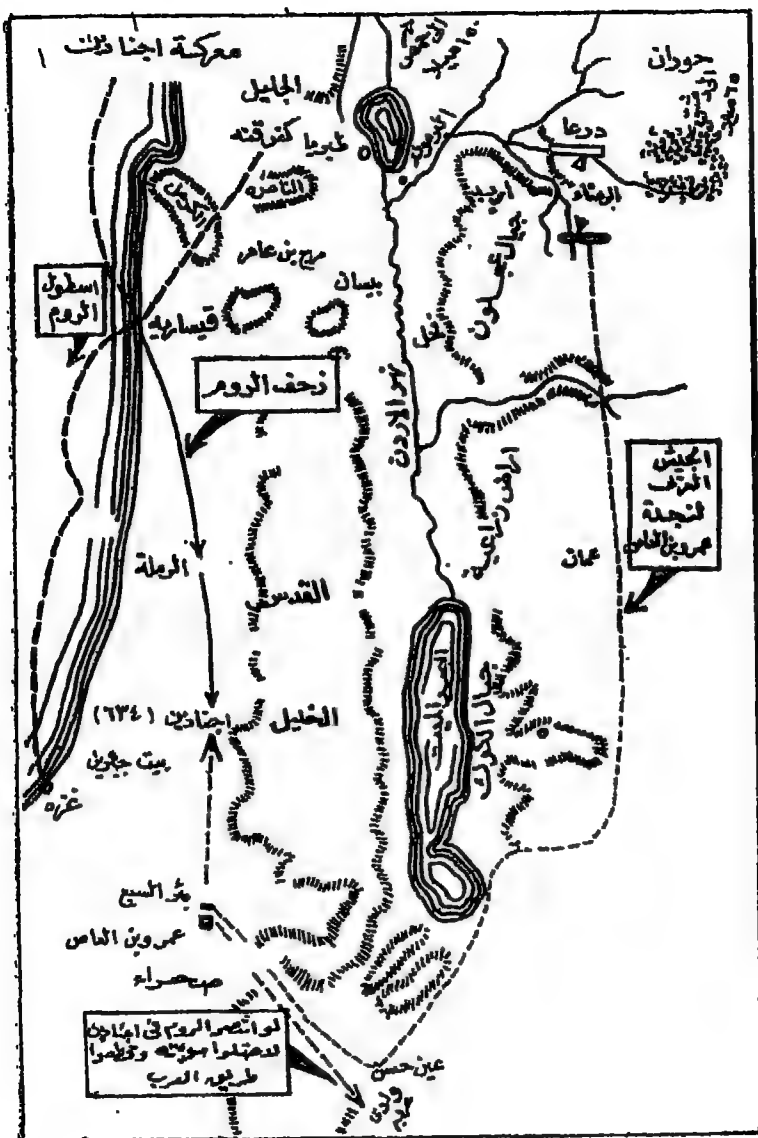
ولم يكن ثمة وقت يضاع قبل نجدة عمرو بن العاص وانقاذه . واختفى العرب فجأة من موقع اليرموك وراحوا يسرون ليلا ونهارا باتجاه المر المشار اليه ووجد أهل الكرك (موآب) أنفسهم فجأة يواجهون عاصفة قوية من راكبي الابل فراخوا يعقدون الصالح معهم ويفتحون لهم طريق المضيق . وكان يقيم في بلدة الكرك وقراها أقوام هم من انصاف العرب يدينون بالمسيحية النسطورية . وعلى عدااء مستحكم مع الكنيستين الارثوذكسية والروميّة الكاثوليكية . وتدفق المسلمون عبر المضيق وعبر وادي عربة ليعودوا فيرتقوا صعدا الى سهل بئر السبع شسبه الصحراوى في الوقت نفسه الذى كان جيش الروم

فيه يزحف جنوبا من قيسارية . وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على ابلهم بتعودهم على شظف العيش والرحيل ليلا ونهارا معتمدين فى غذائهم على قصعة من الحبز ، السباق مع الجيش الرومانى البليد المترهل الذى يثقل سيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها . ووقعت معركة عظيمة فى شهر يوليو (تموز) من عام ٦٣٤ فى اجنادين التى تقع بين الرملة وبين بيت جبرين ومنى الروم بهزيمة كاملة . وكان خالد بن الوليد قائد هذه المعركة التى استشهد فيها عكرمة بن أبى جهل قائد المسلمين فى حروب الردة فى عمان وحضرموت .

وهكذا طاش سهم هرقل فى معركة اجنادين وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المضاد وعادت قوات المسلمين الرئيسية الى اليرموك حيث كانت حصون الروم للدفاعية تقف سدا امام الزحف العربى على دمشق . وترك العرب مؤقتا المناطق الجبلية فى شمال فلسطين وشرقها دون ان يمسوها جريا على ما افوه من اثار الحرب فى الصحراء او فى السهول المكشوفة على الاقل ، يضاف الى هذا ان جيش الروم على اليرموك كان القوة المعادية الوحيدة التى مازالت فى الميدان . ولو تمكن العرب من هزم هذا الجيش فان المدن المحصنة ذات الاسوار يمكن ان تصفى على مهل . وعادت القوات العربية مرة ثانية فى شهر اقسطس (آب) عام ٦٣٤ الى مواجهة حصون البيزنطيين عند ثغرة درعا .



أرى لزاما علينا على أى حال أن نترك الجبهة السورية بعض الوقت لندرس ما وقع من تطورات فى العراق . ولعلنا نذكر أن خالدا عبر بادية الشام فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٣ أو فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٤ على رأس نصف الجيش الاسلامى من العراق لنجدة قوات المسلمين فى الشام وكان المثنى بن حارثة شيبخ بنى شيبان قد تولى قيادة المسلمين بعد رحيل خالد عن العراق ويبدو ان المسلمين فى المدينة لم يكونوا يعلقون كبير اهمية على جبهة الفرس وهذا يظهر من صدور الأمر بسير نصف قواتهم فيها الى سوريا ، ويعهد بقيادة من تبقى الى شيبخ بدوى . فلقد كانت قريش مصرّة حتى ذلك التاريخ على احتكار السلاطة كلها وحصر القيادات العليا فى رجالاتها . وحتى فى حالة تعيين احد المهاجرين أو الانتصار لهذه القيادات فان هذا المعين يكون حضريا من أهل مكة أو المدينة ولا ريب فى أن العصبية التى



تفصل اليوم بين البدو والحضر كانت موجودة وقوية قبل ألف وثلاثمائة عام . ولم يكن المثنى قرشيا أو حضريا بل كان بدويا من بنى بكر ومن هنا كان لا بد وان يكون المنصب الذى سمح له بالاحتفاظ به منصبا ثانويا لا أهمية له (١) .

ومهما كان الأصل الذى ينتمى اليه هذا القائد فلقد كان رجلا . فذ الشجاعة ، شديد الاخلاص ، والولاء ، على استعداد لمقابلة الشاهنشاه . وجها لوجه بحفنة من رجاله البدو . ولم يكن قد انقضى على تبوء الملك الفتى (يزدرجرد) عرش الاكاسرة الا فترة قصيرة وراح يعد العدة ليمجد ارتقاه العرش باخراج هؤلاء الغزاة من أبناء الصحراء . وقرر المثنى ان يخوض المعركة عند خرائب بابل القديمة حيث وقف مع رجاله ينتظرون هجوم الفرس الذين يقودهم أحد الفيلة . ولم يكن العرب قد الفوا بعد طريقة معالجة هذا الطراز المبكر من هجمات « الدبابات » . وسرعان ما أوقع الفيل بعض الاضطراب فى البداية فى صفوف العرب . وكانت عادة العرب فى هذه المعارك الاولى ان ينشد قائدهم المجد لنفسه . بتولى زمام المبادرة فى البراز وتحدى قائد الاعداء الى مبارزة فردية . ليضرب مثلا فى البسالة لرجاله . وراح المثنى يصحبه بعض رجاله يهاجم الفيل فأوقعه أرضا وعندما فقد الفرس عون فيلهم انهزموا . وانتصر العرب فى المعركة .

ولا يمكن تفسير ما تميزت به حركات الفرس من بطء وتذبذب فى وجه هذه القوة الصغيرة من البدو التى يقودها المثنى الا بالفوضى التى كانت قد ضربت اطنابها فى امبراطوريتهم فى غضون السنوات الخمس الأخيرة .

وهكذا احتفظ المثنى ورجاله بعد معركة بابل (٢) بمدينة الحيرة . وبكلتا ضفتى الفرات من الانبار حتى رأس خليج البصرة وأحس المثنى .

(١) سبق لى ان بينت فى هامش سابق خطأ هذا الراى الذى جاء به المؤلف . وقلت ان الاسلام لم يفرق بين شخص وآخر الا بالتقوى ، اما اذا كانت القيادات فى مطلع العهد الاسلامى من نصيب قریش او الانتصار فان السبب فى ذلك راجع الى ان الخليفة كان لا يزال يعتمد على رجاله من صحابة رسول الله ، لاسيما وان حروب الردة اثبتت انه لا يمكن الركون الى القبائل البعيدة .

(العرب)

(١) يطلق العرب على المعركة اسم موقعة الجسر .

(العرب)

بالقلق فقد أدرك أن الفرس لابد وأن يبعثوا اليه بقوة كبيرة اذ أن حروبهم الأهلية كانت قد انتهت ، فصحيح أن (يزدرج) كان لا يزال فتيا الا أنه لم يلق معارضة في حكمه وكان الامراء والقادة يبذلون كل ما لديهم من جهود لاعادة تنظيم الدولة والجيش .

ولا ريب في أن المثني بوصفه رئيسا من رؤساء بكر كان على علم تام بأوضاع الحكومة الفارسية يضاف الى هذا أن المدائن عاصمة الأكاسرة لم تكن لتبعد الا ثمانين ميلا عن مقر قيادته في الحيرة . ومن المفروض أنه كان على علم بأن الفرس لن يكملوا استعداداتهم لحربه قبل انقضاء بضعة أسابيع ولذا فقد حزم أمره على انتهاز فرصة الهدوء الذي سيسود الجبهة في هذه الفترة ، وأسرع الى المدينة ليقابل الخليفة شخصيا محتجا اليه على ما يبديه من عدم اكتراث بجبهة الفرس . وقرر أن يلج على الخليفة بوجوب ارسال قوات كافية لنجدة قواته .



كان أبو بكر يصغر النبي بثلاث سنوات . ولذا كان في التاسعة والخمسين أو الستين من عمره عندما ولى الخلافة . وقد انقضى العام الأول من خلافته في حروب الردة واخمد العصيان في الجزيرة العربية . ولقد رأينا فيما سلف كيف أن الخليفة نفسه قاد أهل المدينة لمحاربة القبائل الثائرة في ذى القصة . أما في السنة الثانية من خلافته فقد اجتاح تيار الحرب فارس وسوريا . وتمكن أبو بكر من قيادة موسم الحج بنفسه . وتذكر أبو بكر أن صديقه ونبيه محمدا كان قد قاد موسم الحج قبل عامين فكانت حجة الوداع ودمعت عينا أبي بكر الوفي وجلس الخليفة في صحن الكعبة كما جرت العادة منذ أيام الجاهلية حتى اليوم . وراح يسأل الحجاج عما اذا كان لدى أحدهم مظلمة يود أن يرفعها اليه ليعيد اليه حقه . وتؤكد الروايات : أن أيا من الحجاج لم يتقدم بمظلمة .

وعاد الخليفة الى المدينة وأخذ يصرف وقته بارسال النجيدات الى سوريا حيث كان الجيش الاسلامي عاجزا عن تخطي حصون الروم في اليرموك . وأصيب الخليفة بالحمى في شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ بعد أن استحم في يوم قر وأخذت حرارته في الارتفاع مما أرغمه على إبقاء عمر بن الخطاب ليصلي بالمسلمين نيابة عنه ووصلت اليه وهو في مرضه أنباء انتصار العرب في معركة أجنادين مما يشير الى أن المعركة وقعت في يولية (تموز) عام ٦٣٤ .

وظل الضعف يشتد يوما بعد يوم بالخليفة الى أن أدرك بعد انقضاء عشرة أيام أو اثني عشر يوما اقتراب أجله ، وعادت به الذاكرة الى الفوضى التي كادت تضرب أطنابها بعد وفاة النبي فقرر أن يختار للمسلمين خليفة ، وراح يدعو عبد الرحمن بن عوف أولا ليتبعه بعثمان بن عفان فطلحة بن عبيد الله فغيرهم من المهاجرين والانصار وكلهم من صحابة رسول الله ليستشيرهم في خليفته . ولما وجد أن غالبية الصحابة تؤيد اختيار عمر بن الخطاب مع خشية بعضهم من شدته وحدة مزاجه راح يملئ على عثمان بن عفان أمره باستخلاف عمر ، وأوعز بعد ذلك بأن يقرأ أمره على المسلمين المجتمعين في المسجد ، اذ كان أبو بكر يقيم في منزل صغير كمنزل النبي يطل على صحن المسجد ثم أشرف على الناس تمسكه زوجته وراح يقول بصوت جمع فيه كل ما تبقى من قوة . . انه اختار عمر بن الخطاب لخلافته لانه يراه أجدر الناس بها وطلب اليهم أن يسمعوا اليه ويطيعوا فرد الناس بصوت واحد « سمعنا وأطعنا » .

وعندما شعر أبو بكر بنهيته قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين وهو اليوم الذى توفي فيه النبي فقال : فان مت من ليلتي فلا تنتظروا بى لغد ، فان أحب الأيام والليالى الى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد وصل المثنى بن حارثة الى المدينة وقابل أبا بكر وهو يحتضر يسأله ارسال النجيدات الى جبهة الفرس وراح الخليفة المحتضر يأمر عمر ابن الخطاب بانتداب الناس لنجدة المثنى وقواته فى العراق ثم راح يوصيه بالتخفيف من شدته وحدته . وان يعتمد الاقتناع واللين سبيلا له . وسرعان ما انتقل الى الرفيق الأعلى ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتمتم بصلاته الأخيرة وكان ذلك فى الثالث والعشرين من أغسطس (آب) عام ٦٣٤ .

ولقد قيل ان حياة أبى بكر وسلوكه كانا من أقوى الأدلة على صدق دعوة النبي واخلاصه فلقد كان أبو بكر من أوائل الصحابة وكان رفيق النبي فى هجرته من مكة وأقرب الصحابة الى قلبه ولقد كان الخليفة الاول رجلا بسيط الشخصية عميق الايمان والاخلاص . وقد سار على سنة النبي ولم تؤثر على سبيله فى الحياة الانتصارات العظيمة التى تحققت فى عهده ولا الثروات الطائلة التى تدفقت على المسلمين من جراء هذه الانتصارات . ولقد ظل يعيش فى بيت بسيط قريب الى ما نسميه نحن بالكوخ مبنى من الطين المجفف واللبن وتغطى سقفه غصون الاشجار ولقد



ظل رغم أنه الحاكم في امبراطورية آخذة في الاتساع السريع يرتدى ملابس بسيطة قوامها قميص من القطن وعباءة خشنة هي عين ما كان يرتديه قبل خمسة عشر عاما عند ما كان مواطنا عاديا في مكة ، وكان يواصل حلب الشياح لأسرته الصغيرة حتى عندما كانت جيوشه تجتاح فيالق القيصرية وجيوش الاكاسرة .

ولقد ظلت الانظمة المالية للامبراطورية الجديدة في عهده هي انبساطة بعينها . فلقد كان خمس الغنائم يصل الى المدينة من جبهات القتال حيث يقوم الخليفة بتوزيعه فور وصوله ، وكان يلجأ في بعض الأحيان الى ابتياع السلاح والخيول والدروع لجنوده من بعض الفئء أما ما يتبقى فيوزعه على المحتاجين من المسلمين ولم تكن هناك حسابات منظمة ، أما ما يصيب بيت المال من فراغ فيعالج فوراً بما يصل اليه من غنائم جديدة حققتها الانتصارات الباهرة .

ولقد جرت سنة رسول الله على عدم الاحتفاظ بشيء من متاع الدنيا لاستعماله الخاص . وعلى الرغم من تدفق مبالغ كبيرة من المال الى يديه على شكل الفئء أو خمس الغنائم - فان هذا الفئء كان يوزع على الفقراء والمحتاجين وأرامل الشهداء . ولقد سار أبو بكر في كل هذه الأمور كما في غيرها على سنة الرسول مطبقا اياها بجميع حذايرها وتفصيلها .



ولا ريب في أن أنباء معركة أجنادين وصلت الى جبهة اليرموك فرفعت من معنويات العرب فيها بينما أصابت الروم بما يشبه الذهول ، ومهما كان السبب فان القتال ما لبث أن اشتد في ثغرة درعا وتمكن المسلمون أخيرا في نهاية شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٤ من احتلال المواقع وارغام جيش الروم على الانسحاب منها . وهكذا بات باب سوريا مفتوحا على مصراعيه أمام جيوش المسلمين وكان خالد بن الوليد هو القائد العام في هذه العمليات كلها . وتلقى أبو عبيدة ، والمركة في ذروتها ، اذ أنها استمرت عدة أيام ، رسالة من المدينة تنبئه بوفاة أبي بكر وبتولى عمر ابن الخطاب الخلافة بعده وحمل نفس الرسول رسالة أخرى من عمر تقييل خالدا من قيادة الجيش وتعين أبا عبيدة مكانه ، ولكن لما كانت المركة في أوجها ، فقد آثر أبو عبيدة اخفاء الرسالة الى أن أكمل خالد النصر العظيم الذي كان قد بدأه .

فلقد كان هناك شيء من النفور الشخصي يقوم منذ أمد بعيد بين

الخليفة الجديد وبين خالد بن الوليد ، ولا ريب في أن القاريء يذكر ان عمر كان قد نصح أبا بكر بعزل خالد من القيادة اثر قتله مالك بن نويرة في حروب الردة . ولكن أبا بكر رفض مشورة عمر وقبل من خالد تبريره لذلك العمل . وقد أدى هذا الحادث وبعض الحوادث المماثلة الى زيادة النفور بين الرجلين مما حمل الخليفة الجديد على أن يكون عزل خالد وهو أكثر القادة نجاحا من قيادته من أول الاعمال التي قام بها . ومن السهل على من يقرأ هذا أن يتهم الخليفة الجديد بالحقْد الشخصي المجرد ، ولكن سلوكه طيلة السنوات العشر التي قضاها في الخلافة دُلِّلَ تمام التدليل على أنه كان رجلا شديد الايمان والورع جم التواضع عميق الصلوق والاخلاص ، ولقد كان خالد قائدا عظيما وذا كفاية وجرأة قادرا على تسلم زمام المبادرة في كل حين ، وعلى احتمال المسؤولية ، ولكن قيل عنه ان الاسلام لم يكن عميقا في نفسه ، ويقال انه حصل من النبي قبل وفاته على خصلة من شعره وضعها في غطاء رأسه ، وكان يعزو نجاحه من جميع المعارك التي خاضها الى هذه الرقبة . وقد يكون هذا العمل منه ايمانا بالخرافات أكثر منه بالدين ولكنه يظهر على أي حال ايمانا عميقا ومخلصا للرسول .

وعلينا أن نذكر على أي حال ان النبي وأقرب صحابته اليه كانوا يعتمدون في الوصول الى النصر على المعونة الالهية أكثر من اعتمادهم على البراعة البشرية ، ومن المحتمل أن يكون الخليفة بإيمانه البسيط غير المعقد قد اعتقد بأن النصر أكثر ضمانا على يد قائد مثل أبي عبيدة ، وان لم تكن كفايته العسكرية بارزة ، منه على يد عسكري بارز كخالد بن الوليد يفتقر الى التقى والورع مما لا يجعله موضع عناية الله ورعايته (١) .

(١) لا أدري كيف يسمح مؤلف لنفسه بأن يهبط الى هذا المستوى من الموضوعية كمؤلفنا جلوب . فلقد ركز كل تفكيره على محاولة النيل من خالد ومن صدق اسلامه وطمع ايمانه دون أي مبرر أو سند تاريخي . سوى تأخره في الاسلام وحادثته مع مالك ابن نويرة . وقد سبق لنا ان بينا ان لخالد عذره حتى من الناحية الدينية في قتل مالك لانه مرتد ولانه نقض عهد الله ورسوله وصي وهو الحاكم المعين من النبي ، أمر خليفته كما ان التأخر في الاسلام لا يمكن ان يكون مبررا للظمن في ايمانه ، فلقد تأخر عمر ابن الخطاب نفسه عن الاسلام ولكنه كان من اصدق صحابة الرسول بعد اسلامه وتأخر غيره كثيرون ثم صدقوا اسلامهم وابلوا في سبيل الله بلا حسنا كابى محجين الثقفى وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما من ابطال الحرب الذين قدموا ارواحهم في خدمة الاسلام وهذا هو مثال التضحية .

يضاف الى هذا ان النبي أسمى خالدا بسيف الله ولم يكن ل يطلق عليه هذا الاسم لولا ثقته بإيمانه . وعندما عزل خالد من قيادة الجيش قال : الحمد لله الذي =

والغيرة الشخصية تقيصة من أشد النقائص وأقواها في الخلق العربي (١) وكان من المنتظر من شخص عنيد وصلب كخالد أن ينسحب حاقدا مغيظا من الجيش والحياة العامة لهذا العزل الذي كوفىء به على انتصاراته العظيمة الرائعة ، لكن شيئا من هذا لم يحدث مطلقا فلقد أسلم خالد القيادة عن رضى الى أبى عبيدة السمث التقي ، وقنع بالعمل تحت لوائه ويبدو أن هذين الرجلين قد توصلا على الرغم مما بينهما من خلاف في الشخصية الى شىء من التفاهم الشخصى الوثيق . ولايتحدث المؤرخون عن وقوع أى احتكاك نابع عن الغيرة بينهما . وليس ثمة من ريب فى أن أبا عبيدة المتواضع السمع كان على استعداد لتقبل نصيحة مساعده الجبار القوى فى كافة الشؤون العسكرية ، كما ان الانتصارات المذهلة التى حققها خالد للقضية العربية لا بد وأن تكون قد كسبت له اجماع المسلمين على احترامه واجلاله حتى ولو لم يعد قائدهم العسكرى بصورة رسمية .

= قضي على أبى بكر بالوت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان ابغض الى من أبى بكر ثم الومنى حبه ، وفي هذا القول مثل سام من أمثلة الايمان والارتفاع من الانتهاز والحزازات والاحقاد . وقد اثبت خالد ايمانه فعلا فظل يحارب طيلة فتوح سوريا تحت امرة أبى عبيدة كجندى بسيط من جنود المسلمين ويبلى في كل معركة بلاء حسنا متفانيا في ايمانه الى أن توفاه الله فى حمص وقال قبل وفاته قولته المشهورة التى تشير الى الايمان العميق وحب الاستشهاد في سبيل الله . ويبدو أن المؤلف لم يستطع أن يفهم أو لم يرد أن يفهم ان ما كان بين عمر وخالد لم يكن خلافا شخصيا نابعا من حزازات أو احقاد وانما كان خلافا بين عظيمين ومؤمنين صادقين في الراى سواء في الخطة العسكرية أو في معاملة المشركين بعد اخضاعهم، لكن المؤلف سار في محاولته استغلال حادث عزل خالد على غرار ما فعله بعض المؤرخين الشعبويين من المسلمين الذين رأوا فى الحادث وسيلة للنيل من عمر وخالد فى وقت واحد .

(١) جعل المؤلف من نفسه هنا محلا نفسيا يطلق الاحكام العامة على أمة بأسرها ولا ريب فى أن السنوات التى قضاها مع العرب فى خدمة امبراطوريته واستعمارها فى الوطن العربى ، قد أضفت عليه صفة القروى المطلق التى حملته على اصدار مثل هذا الحكم العام دون أن يقيم الأدلة عليه ، أو يثبت صحته . والقول بأن هذا الشعب يتصف بهذه الصفة العامة أو تلك فكرة عنصرية نابية عن الايمان بالتمييز المنصرى على أساس الطبائع والصفات فهى والحالة هذه تتنافى مع العلم المجرد ومع النظر الى الانسان كاتسان دون تمييز يقوم على العنصرية . فالغيرة الشخصية غريزة بشرية تقوى عند بعض الناس كأفراد لا كشعوب وتتحول الى انتهاز وإفرة وعمل للمصلحة الذاتية وتضعف عند البعض الآخر كأفراد أيضا فتتحول الى ايثار وتضحية وتكران للذات . ومن هنا كان خطأ المؤلف في تصويره وجاء سلوك خالد بعد عزله وهو الذى أوردته بعد حكمه مناقضا لرايه تمام المناقضة .

(العرب)

تواريخ مشهورة

معركة بابل فى العراق	ربيع عام ٦٣٤
معركة اجنادين فى فلسطين	يوليو (تموز) عام ٦٣٤
وفاة أبى بكر	٢٣ أغسطس (آب) عام ٦٣٤
معركة اليرموك الاولى	نهاية أغسطس أو أوائل سبتمبر (أيلول) ٦٣٤

شخصيات مشهورة

أبو عبيدة	القائد العام الجديد فى سوريا
عمر بن الخطاب	الخليفة الثانى للمسلمين
المثنى بن حارثة	قائد المسلمين فى العراق
عمرو بن العاص	قادة انجيوش الاسلاميه فى فلسطين وسوريا
يزيد بن أبى صفيان	
شرحبيل بن حسنه	
خالد بن الوليد	عزله عمر عن القيادة العامة
يزدجرد	كسرى الفرس الجديد



المعركة تتأرجح

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا
شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر
لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

القرآن الكريم - سورة البقرة

« قد لا يكون من المهم من يتولى قيادتنا العامة ، اذا
كان الله هو قائدنا »

أو ثيفر كرو هويل

بدا الخليفة الجديد مختلفا فى نواح عدة ، اختلافا كبيرا عن سلفه فلقد كان أبو بكر رجلا نحىلا ، ضعيف البنية ؛ شاحب الوجه فى شيخوخته وذا مزاج وادع ومتسامح . أما عمر فكان طويل القامة ، فارع العود ، حتى انه كان كما يقول كاتب عربى يرتفع بهامته فوق الناس وكأنه يمتطى جوادا . وكان ذا مزاج حاد ، ميلا الى الاغراق فى الحديث والعنف والاحتدام فيه ، و أكثر تعلقا بالصرامة منه باللين . ومع ذلك كان فى وسع أبى بكر الوداع الدمى ، أن يعرض وقت الازمات صلابة وحيوية دينامية دافقة . كما كان عمر الحاد المزاج . يعرض فى بعض الحالات وبنفس الطريقة لينا يفوق لين أبى بكر الهادىء الوديع . وكان الرجلان متفقين فى خصلة واحدة على الأقل . وهى تصميمهما المطلق على اتباع سنة الرسول فى كل تفصيل من تفاصيلها . وقد حملهما هذا التصميم على التواضع . اذ انهما لم يكونا يبحثان عن نفعهما الخاص أو عن أمجادهما الخاصة . وأظهر الرجلان تلك البساطة الشفافة التى تميز دائما الرجال المخلصين لدينهم . ولقد روى عن النبى انه قال عن عمر « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وعلى الرغم من أن الخليفتين الاولين كانا يحتلان سلطانا لا يقل عن سلطان الابطرة الا انهما ظلا فقيرين ، يلبسان ثيابا بسيطة عادية ويعيشان فى بيتهما حياة الفلاحين الفقراء . ويروى عن عمر نفسه انه لم يسمح لنفسه الا بارتداء لباسين أحدهما للشتاء والآخر للصيف . ولا يأخذ من المال الا ما يمكنه من اداء فريضة الحج . وكان طعامه وطعام أسرته لا يعدو أن يكون طعام أى رجل عادى من قریش ليس من أغناهم ولا من أفقرهم . وكان يتوقع من مساعديه أن يسبوا على منواله فى خشونة العيش وشظفه . وكان عندما يعين حاكما لمقاطعة تم احتلالها ، يحرص أشد الحرص على تحذيره من عدم الركون الى رغد العيش ولينه فى الماكل أو فى اللبس ومن اغلاق بابه فى وجه الفقراء والمساكين . وعد بعض الشهود عدد الرقع فى ملابس الخليفة ويقولون انه لم يكن يصطحب خيمة معه عندما يعتزم القيام بأى سفر ، بل كان يكتفى بالقاء عباءته على شجرة صغيرة لينام فى ظلها . ومازال البدو يفعلون ذلك حتى يومنا هذا . وكثيرا ما عملت الشىء نفسه وأنا ارتحل فى صحبتهم .

سبق لى أن رويت فى الفصل السابق ، ان المسلمين كانوا فى مطلع سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ قد اجتاحوا حصون الروم فى اليرموك . وتقدموا الى منطقة حوران التى لم يسبق لعملياتهم الحربية أن وصلت اليها والواقعة الى الجنوب من دمشق .

وعندما زحف جيش الروم الى سهول فلسطين الجنوبية ، ليمنى بأشنع هزيمة فى تاريخه فى أجنادين كان قد سلك فى زحفه الطريق من بعلبك الى طبريا عابرا التلال المنخفضة المطلة على بحيرة الحولة . والتى القى عليها السيد المسيح موعظة انجيل المعروفة .

ومن المحتمل أن يكون جيش الروم قد شرع فى ارتقاء الطريق الصاعد من طبريا الى الناصرة عن طريق كفر كنه ، حيث أحال المسيح الماء الى خمر ، ومن الناصرة الى قيسارية عن طريق مرج ابن عامر . وكان هذا الطريق محميا من أى خطر عربى ، لاصيما وقد عرفنا ان العرب كانوا يرابطون عند درعا فى قلعتى فحل وبيسان . وكانت مدينة طبريا نفسها من المدن المحصنة . أما فحل فكانت مركزا من المراكز المهمة كل الاهمية اذ كانت إحدى المدن العشر التى بناها الاسكندر المقدونى والتى يقع عدد منها فى هذه المنطقة بنيتها قدس التى ورد ذكرها فى التوراة وبصرى التى رأينا المسلمين يفرضون الجزية عليها وفيلادلفيا التى أصبحت الآن عسنان . وجريسة التى أصبح اسمها الآن جرش . وكانت الطرق المهمة تمر فى القرن السابع فى هذه المنطقة . كما كانت تمر بها فى أيام الاسكندر أى قبل نحو من ألف عام . وكان من أهمهم بالنسبة الى الرومان أن يدافعوا عن هذه الطرق ضد غزاة الصحراء . وكانت الطريق الحربية الرئيسية من الشمال الى فلسطين تمر من دمشق الى درعا فالربض وبيسان . وكانت حصون اليرموك تغلقها فى وجه أى عدو . ومن هنا وجد الدافع فى أن يبعث هرقل بقواته عن طريق طبريا والناصرة الى أجنادين .

ويذكر القارىء ان القوات العربية الرئيسية سارعت بالعودة بعد معركة أجنادين الى اليرموك . بينما ظل عمرو بن العاص على رأس قواته فى بئر انسبع . ومن المحتمل أن تكون فالول جيش الروم قد انسحبت بعد هزيمة أجنادين الى القدس وقيسارية حيث ذهب شطر منها الى فحل . لتهديد مواصلات الجيش العربى المتحرك الآن باتجاه الشمال الى دمشق . ويبدو أن قادة المسلمين قرروا الاستيلاء على فحل لحماية مواصلاتهم . وتتضمن الروايات العربية بعض الاشارات انغمضة الى الفيضانات التى أحدثها الروم عند فحل لعرقلة الزحف العربى عن طريقها . ويكفى أن

نقول الآن ان ابا عبيدة زحف في يناير (كانون الثاني) أو فبراير (شباط) من عام ٦٣٥ ، على فحل . فهزم القوة الرومانية في خارجها ، واعتقد أن الهزيمة تمت في وادي الاردن الذي تغمره الفيضانات وفرض الحصار على البلدة نفسها . وطلب أهلها التفاوض على الاستسلام في النهاية ووافقوا على أن يدفعوا الجزية عن رموسهم والخراج عن أرضهم الى المسلمين . وأمنهم أبو عبيدة مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم وأمر بالآ تهدم مساكنهم وحيطانهم (١) .

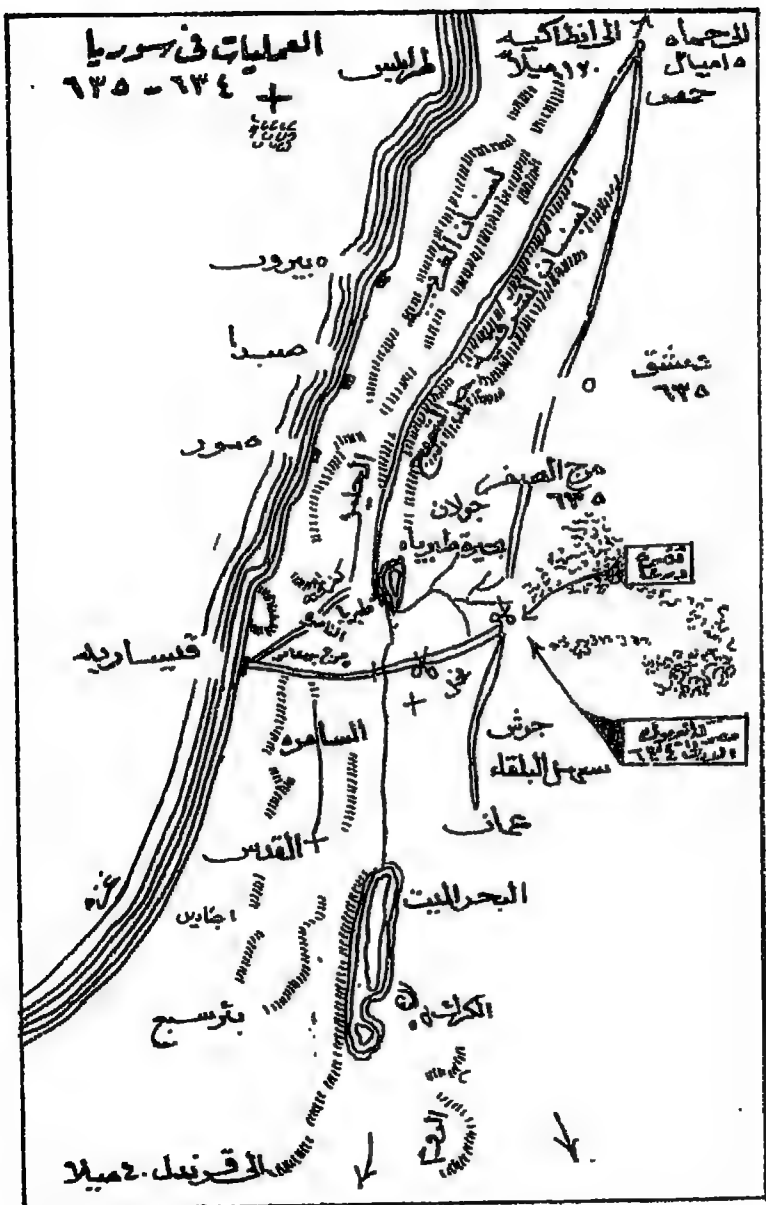
ولما تأكد العرب من سلامة طريق مواصلاتهم تقدموا شمالا الى دمشق وبذل الجيش الروماني آخر محاولة لانقاذ المدينة . فوقف أمام العرب في معركة مرج الصفر التي يعتقد انها وقعت على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من دمشق .

ولقد خاض فرنسيو فيشي في عام ١٩٤١ ، معركة في المكان نفسه تقريبا كمحاولة منهم لانقاذ دمشق عندما غزا الجيش البريطاني سوريا عبر ثغرة درعا . وفي هذا المكان مواقع استراتيجية تصلح للدفاع (٢) . وقد دارت معركة مرج الصفر في شهر فبراير (شباط) عام ٦٣٥ . وانتصر العرب من جديد ، وانسحب الجيش البيزنطي بعد معركة كلفته الكثير من الخسائر وخاضها الروم ببسالة ، وهكذا وصل (٣) العرب الى أسوار دمشق في أواسط مارس (آذار) عام ٦٣٥ .

يذكر القاري أن ارتال المسلمين التي بعث بها أبو بكر الى سوريا كانت بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي مغيان وعندما جاء خالد من العراق تولى القيادة العامة التي أسلمها بعد تولى عمر ابن الخطاب الخلافة الى أبي عبيدة . وقد احتفظ خالد بقيادة القوة التي جاء بها من العراق . وهكذا أصبحت جيوش العرب في سوريا مقسمة الى أربعة أرتال متفرقة بقيادة عليا واحدة ، هي قيادة أبي عبيدة .

(١) تقول روايات أخرى ان معركة فحل وقعت بعد احتلال دمشق . ولكن المعتقد ان هذه الرواية هي الصحيحة اذ انها اقرب الى المنطق .
(٢) يقال ان بولس الرسول . رأى الرؤيا التي مالت به الى المسيحية على هذا الجبل .

(٣) يقول البلاذري ... ثم اجتمعت الروم جمعا عظيما وأمدهم هرقل بمدد فلقبهم المسلمون بمرج الصفر وهم متوجهون الى دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا حتى جرت الدماء في الماء وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف ثم ولى الكثرة منهزمين مغلوبين لا يلبون على شيء حتى اتوا دمشق .



ورابط خالد بجيشه الذى يعد نحواً من خمسة آلاف عند باب دمشق الشرقى وحل أبو عبيدة عند الطرف الجنوبى الغربى منها • فى حين تقاسم القادة الآخرون أطراف الاسوار كلها •

ولم يكن العرب قد ألفوا حصار المدن الكبيرة • أو تدربوا عليه أو أعدوا له العدة بما يحتاج اليه من سلاح • ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان النبى أنقذ المدينة من قريش بابتكاره وسيلة حفر الخندق حولها • ولكن على الرغم من أن العرب لم يكونوا قادرين على قصف أسوار المدينة بأى سلاح من أسلحتهم • الا أنهم كانوا ولا شك كبريى الفعالية فى اجتياح المناطق المجاورة وقطع المدينة عن طريق مواصلاتها وتموينها • ويبدو أن حصار دمشق قد بدأ فى النصف الثانى من شهر مارس (آذار) عام ٦٣٥ • ولكن العرب لم يحققوا أى نصر قبل الايام الاخيرة من صيف ذلك العام • فلقد مكن قرب دمشق من الصحراء أهلها من أن يكونوا جد عليمين بطبيعة البدو المتقلبة وكانوا يرجون أن تؤدى اطالة الحصار شهراً أو شهرين الى تشييط عزيمية البدو وأن يذوب الجيش العربى تماماً كما ذاب جيش قريش أمام المدينة •

ويذكر القارىء أن خالد بن الوليد كان قد اشتبك مع الروم خارج مدينة دمشق ابان مسيرته المشهورة من العراق • ويقال بان اتصالاً جرى بين خالد وبين أسقف المدينة النصرانى ابان هذا الاشتباك (١) • ولسنا على ثقة من أن هذا الاتصال قد تم فى المرة السابقة ولكننا نعرف الآن أن مثل هذا الاتصال جرى فى هذه المرة أى فى صيف عام ٦٣٥ ، ولا ريب فى أن هذا الاسقف كان من النساطرة أى معادياً للحكومة البيزنطية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية •

وتختلف الروايات فى كيفية فتح دمشق فى بعض تفاصيلها وتقول أكثر الروايات ثقة ، ان الاسقف بعث رسولا الى خالد ليقول له ان المدينة ستحتل فى ليلة حدها ، وان الباب الشرقى سيبطل بلا حراسة تقريباً فى تلك الليلة • وكان هناك دير مسيحي خارج الاسوار • ويعتقد أن الدير كان تابعاً لسلطان هذا الاسقف • وقد قدم الدير للعرب مسلمين • وما لبث العرب أن نصبوهما على الاسوار عند الباب الشرقى قبيل الفجر • وتسلق عدد من العرب يقودهم القعقاع بن عمرو شيخ بنى تميم — الذى كان قد وفد

(١) يقول البلاذرى : ونزل خالد بالباب الشرقى فآخرج اليه أسقف دمشق نزلاً وخدمة فقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك • ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين وهم بقتاة بصرى •
(العرب)

مع خالد من العراق - الاسوار يهدوء وصمت . وسرعان ما قتلوا حارس الباب ، وفتحوه لجموع المسلمين . وقبيل شروق انشمس كان العرب يقتحمون المدينة ، ويعلمون الاسوار وهتافاتهم « الله أكبر » « الله أكبر » ، تعلقوا الى كبد السماء وفي أيديهم السيوف والخنجر (١) .

(١) تتفق الرواية التي اوردها المؤلف مع رواية البلاذري الذي يورد الكتاب الذي صالح به خالد الاسقف على دخول المدينة وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى به خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ولا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلم) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض الا بخير اذا اعطوا الجزية » . ولكنها تختلف مع رواية البلاذري في ان هذا يقول ان خالد دخل من الباب الشرقي صلحا وان ابا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة وانهما التقيا بالقسلاط وهي رواية اكثر منطقا من رواية المؤلف - اى جلوب - الذي يحاول ان يجمع بين رواية البلاذري هذه وبين الرواية الاخرى التي يوردها الطبري وهي ان خالد كان لا ينم ولا ينام ولا يخفى عنه شيء من امر العدد وهو معنى بما يليه فانخذ حبالا كثيفة السلام وادهاقا قبلغه ذات ليلة ان الناس غاملون في فرح لمعظمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من المراق وليهم القمعاق وقال للجنود اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا الباب . فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو واصحابه رموا بالرجال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم ، اخذوا يتسلقون وكان المكان الذي اقتحموا منه احصن مكان يحيط بدمشق حتى اذا استنوا على السور حذر عامة اصحابه منه . وانحدر معهم وخلف من يحصى ذلك المكان لن يرتقى . وامرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون الى الباب ومال الى الجبل بشرك كثير وانتهى خالد الى اول من يليه فنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفرع سائر الذين ارادوا للدخول عنوة وخاف اهل دمشق . فذهبوا الى الابواب الاخرى يطلبون الصلح . فدخل اهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة . فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا واولئك صلحا .

يتضح من هاتين الروايتين ... ان جلوب : -

١ - اخذ من الرواية الاولى نصفها اى اتصال خالد بالاسقف لينفى النضل في افتتاحها من خالد وينسبها الى عون الاسقف ومساعدة اهل الدير .

٢ - عاد فاهمل النصف الثاني من الرواية الاولى ليأخذ النصف الثاني من الرواية الثانية ويظهر خالد بمظهر المتنكر لمهدد مع الاسقف .

٣ - نجعل ان خالد نفسه هو الذي قاد الفرسان الذين تسلقوا الاسوار ولو صح ان خالد قد اتصل بالاسقف واعتمد على معلوماته ومساعداته لما اخلف عهده له ولا سيما بعد كتابه له . ولهذا فأننى ارى ان الرواية الاخيرة هي الصحيحة وان الاتصال الذي جرى بين خالد وبين الاسقف - ان صح وقوعه - لا يبدو ان يكون اتصالا عاديا . اذ ان الاسقف كان عاجزا عن حمل الوالى الروماني على قبول شروط خالد ...

(المبر)

ولم يكذب والى المدينة الرومانى يسمع نبأ المعركة . حتى بعث برسول على جناح السرعة الى أبى عبيدة . يعرض عليه صلح المدينة وتسليمها . ولم يكن القائد العام قد عرف بأن خالدا قد دخل المدينة عنوة من الباب الشرقى - وهى حقيقة لو صحت لدلت على الافتقار الى شئ من التعاون بين القائدين ومن الممكن من الناحية الاخرى أن يكون أبو عبيدة على علم بأن المسلمين قد دخلوا الى المدينة . ولكنه كان بعيد النظر وكان يتوقع أن تغزو دمشق عاصمة اقليمية للعرب . ولذا حرص على تجنب سفك الدماء فيها وعلى تجنب انزال السلب والنهب بها . ويكفى أن نقول ان الولاى الرومانى فتح باب المدينة الجنوبي الغربى لأبى عبيدة فى حين أن القتال كان لا يزال دائرا فى الناحية الشرقية منها .

والتقى القائدان فى سوق النحاسين فى وسط المدينة . وقد أبلغ أبو عبيدة مساعده المتحمس ان القتال يجب أن يتوقف ، اذ أن الصلح قد عقد على تسليم المدينة . ويقال أن خالدا تدمر بادىء ذي بدء مؤكدا أن المدينة قد احتلت عنوة لا صلحا . ولكن أبا عبيدة الوقور - أصر على أى حال على وجوب احترام الصلح الذى وقعه مهما كانت طريقة دخول المدينة ، وهكذا نجت هذه المدينة العظيمة العريقة - والتي تعتبر من أقدم المدن فى العالم اذ ورد ذكرها فى سفر الخليقة - من الدمار والنهب وسفك الدماء ، واستسلمت على الغالب فى شهر أغسطس (آب) أو سبتمبر (أيلول) من عام ٦٣٥ .

وهناك رواية عربية أخرى تعكس الدورين اللذين قام بهما القائدان فهذه الرواية تؤكد أن خالدا عقد الصلح مع الولاى الرومانى بينما دخل أبو عبيدة عنوة من باب الجابية ، ولكننى أرى أن الرواية الأولى أقرب الى الصدق والصحة لأنها أكثر اتفاقا مع طبيعة القائدين .

ونصت شروط الصلح على دفع الجزية بواقع دينسار وجريب من القمح عن كل رأس . وتقول بعض الروايات ان الصلح نص على تقسيم بيوت المدينة وبيعها وكنائسها مناصفة بين الفاتحين العرب وبين أهلها . وكانت نتيجة ذلك تقسيم كاتدرائية القديس يوحنا الكبيرة بسور عال فى وسطها . فأصبح نصفها مسجدا يؤدى فيه المسلمون صلواتهم الجماعية فى حين ظل النصف الآخر كنيسة تقام فيها الطقوس المسيحية حتى يومنا هذا .

وقد ظلت الجيوش العربية منذ واقعة اجنادين نحوا من عام مركزة على الحملة بين اليرموك ودمشق ولكن مع سقوط دمشق خيل الى العرب ان مقاومة البيزنطيين قد انتهت . ولذا فقد عاد كل رتل من الارتال الى

المنطقة التي كان قد وجه اليها في البداية • أجل عاد عمرو بن العاص الى فلسطين وفرض الحصار على القدس التي لم يستطع « كعادة العرب » مهاجمتها لاقتحامها عنوة • واتجه شرحبيل بن حسنة الى الاردن حيث استسلمت له طبريا وبيسان • وتحرك أبو عبيدة باتجاه الشمال فاستسلمت له بعلبك وحص وحمّة • وأقام خالد قيادته في حص ، التي كان هرقل يربط فيها في السابق • ثم اضطر الى الانسحاب منها الى انطاكية • ويذكر القاري ولا شك أننا قلنا أن السلسلة الجبلية المسماة بالبلقاء وعجلون كانت في عهد معركة اجنادين في يد الروم وان كان العرب قد شقوا لهم طريقا فيها عند منطقة الكرك لنجدة عمرو بن العاص في بئر السبع وعاد يزيد ابن أبي سفيان جنوبا الآن لتدارك مافات فاستسلمت له منطقة الكرك كلها وجبال الشراة والبلقاء حتى موقع قرنندل الذي أقمت فيه بعد نحو من ألف وثلاثمائة سنة قلعة للجيش الاردني • ولم تصمد في وجه العرب الا القدس وقيسارية في فلسطين والا مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية في الشمال اذ ظلت على ولائها للروم تشجعها في ذلك سيطرة هؤلاء على البحر •

كان هذا هو سيرة الاحداث في الحملة السورية في عام ٦٣٥ ، وهو العام الاول من خلافة عمر بن الخطاب وجدين بنا أن نلتفت الآن الى دراسة الوضع في جبهة الفرس في الفترة ذاتها •



سبق لنا أن رأينا أن آخر ما فعله أبو بكر قبل وفاته ، استقباله المثنى ابن حارثة الشيباني • الذي كان قد طار من العراق الى المدينة ينشد العون من الخليفة ويطلب الاهتمام بالجبهة الفارسية المهمة • وكان أول ما فعله عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة عزل خاله بن الوليد من قيادة الجيش العامة في سوريا أما الخطوة الثانية فكانت تنفيذ أمر أبي بكر ، قبل وفاته بارسال جيش جديد الى العراق لنجدة المسلمين فيه ، ورافق البطء سير التطوع في بداية الامر • اذ كانت الفكرة الغالبة على العرب ، أن الفرس أكثر كفاية في القتال من الروم • وهكذا ظل التطوع بطيئا على الرغم من الخطاب الذي ألقاه المثنى في صحن المسجد طالبا النجدة - ومقرها العرب

بكثر الغنائم التي يحصل عليها من يختار سبيل الله ويحارب عبدة النار (١) .

وكان أول منتدب للسير مواطن من أهل الطائف يسمى أبا عبيد . وعندما تكاثرت عدد المتطوعين اقترح بعضهم على عمر أن يختار قائدا عليهم اما من المهاجرين أو من الانصار أو من صحابة رسول الله لكن عمر ، كان كما يبدو ، مستاء من البطء في تقدم المتطوعين فرد عمر أن فضل الصحابة على غيرهم يقوم في استجابتهم لداعى الجهاد فى سبيل الله وقال : ان أسبق الناس اجابة هو أحقهم بالقيادة ، وهكذا وجد أبو عبيدة الثقفى المغمور الاسم حتى ذلك التاريخ نفسه فجأة قائدا على المسلمين .

ولا ريب فى أن هذا الحادث الطريف جدير بالاهتمام والتأكيد اذ أنه يبين الاساليب العفوية التى فتح بها العرب هذه الامبراطوريات الواسعة ، يضاف الى هذا أن الحادث لم يكن فريدا فى نوعه فلقد سبق لنا أن رأينا كيف اختار النبى نفسه أسامة ابن ربيبه زيد لقيادة الحملة على سوريا واضعا خالد بن الوليد القائد المجرب تحت امرته ، ولقد وجد هناك من يقول ، وهو على حق ، بأن العرب انتصروا لا بفضل قادتهم العسكريين بل رغما عنهم ويمكن القول أنه بالنسبة الى عمر بن الخطاب كان الايمان بالله والاعتماد عليه . . هما اللذان يقرران له كل شيء ولهذا لم يكن للأدوات البشرية — القادة — من شأن كبير لديه شريطة أن يكونوا من المؤمنين الصادقين أما بالنسبة الى العرب عموما فيمكن القول بأن هذا الحادث يظهر أنهم كانوا يؤمنون بأن الشجاعة الكاملة هى التى تنتصر فى المعارك وأن القتال لا يحتاج الى خبرة أو مهارة أو تدريب أو تنظيم وهى صفات القادة . ومع هذه الحامات الفكرية عن الحرب ظل العرب هم المنتصرون فى كل معركة تقريبا .

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان عمر نذب الناس مع المثنى بعد وفاة ابي بكر وكان الناس يحجمون عن الخروج الى فارس لما فى انفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة . فخطبهم المثنى وقال : ايها الناس : لا يعظم عليكم هذا الوجه فانا قد تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير سقى السواد . وشاطرناهم وثلنا منهم واجتأروا من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها ، وقال لهم عمر ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يتوى عليه اهله الا بذلك . أين الطراد المهاجرون من موعود الله ، سيمروا في الارض التى ومدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال : ليظهره على الدين كله « والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى اهله موارث الامم — اين عباد الله الصالحون (العرب)

ولعل من الغرابة كلى الغرابة أن الشعوب الناطقة بالعربية اليوم (١)، لا تزال تحمل الآراء نفسها على الرغم من أن الحرب غدت أكثر تقنية ومن أن جنودهم لم يعودوا من النوع الذى يلهبه الحماس الدينى الدافق ولقد قبض على فى السنوات الواقعة بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ أن اشترك فى مناسبات عدة فى المحادثات التى أجراها قادتهم فى موضوع العمليات العسكرية ضد اسرائيل . ولقد سمعتهم المرة تلو المرة يقولون أن بضعة ألوف من الشجعان مسلحين بالبنادق ، قادرون على الخلاص من هذا العدو ولم أسمعهم يشيرون ولو اشارة عابرة الى التدريب أو التنظيم أو الى وجوب وجود القائد ذى الكفاية تماما كما كان يفعل أسلافهم فى أيام عمر بن الخطاب (٢) .

وهناك ناحية أخرى مهمة فى هذا الاختيار وهى اهمال الخليفة للمثنى ابن حارثة الذى كان يحتل منصب القيادة فى العراق منذ أكثر من عام والذى حقق للعرب نصرهم فى معركة بابل والذى كانت نداءاته للناس وخطبه فى ذلك اليوم بالذات هى التى امنت هذا العدد من المتطوعة الذى شعر الخليفة بحاجته الى من يتولى قيادته . ولكن المثنى بدوى من بنى بكر، وهى قبيلة تقيم فى الطرف الآخر من الجزيرة العربية . ولن يستسيغ المهاجرون والانصار وصحابة النبى وأهل المدينة ومكة والطائف أن يحاربوا تحت قيادة بدوى مهما علا مركزه ، ولكن كان من المتوقع أن يعترض محاربو بدر واحد أيضا على العمل تحت قيادة شخص مغمور من أهل الطائف.

(١) تعبير جدد سخيف للمؤلف يدل على نفسيته المشحونة بالكراهية للعرب . فهو لا يريد أن يعترف بأن العرب شعب واحد . وإنما يحاول أن يصور لقرائه ان هناك شعوبا هذه تتكلم بالعربية لا رابطة بينها الا رابطة اللغة وكأنها فى ذلك تشبه الناطقين بالانجليزية كالانجليز والامريكان والكنديين والافريقيين الجنوبيين والاستراليين وحتى الهنود والباكستانيين . انها العقلية الاستعمارية ليس الا . (العرب)

(٢) ادعاء جرىء من المؤلف يثير الشك ولو حصر جلوب قوله هذا فى فترة حرب فلسطين وما تبعها من سنوات قليلة قبيل ثورة ٢٣ يوليو لكان محققا إذ أن العقوبة رافقت الاعداد لحرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ كما كانت تبعية الحكام العرب للامبراطورية التى يمتلها جلوب - تجعلهم لا يخرجون عن مثل هذا الموقف المزدى . أما أن يقول بأن هذا الوضع قد استمر حتى عام ١٩٥٦ لمكابرة القصد منها واضح وهو النيل من العرب الاحرار أيضا . لكن مجرد السماح لشخص كجلوب وان كان يمثل عرشا عربيا وجيشا عربيا بالاشتراك فى محادثات العرب العسكرية دليل على تبعية ذلك العرش للاستعمار . وعلى خضوع ذلك الجيش لمشيئة الاستعمار . ومن هنا يكون اشتراك الاحرار فى تلك المحادثات اشتراكا صوريا لعدم اقتناعهم بجديتها مع وجود شخص مثل جلوب فيها يمثل دولة من دول الجامعة العربية . (للمرب)

كأبى عبيد ، ولكن يبدو أن العصبية العامة بين أهل المدر والوبر كانت أقوى حتى من مشاعر الطموح الشخصى ومن هنا كان تقبلهم لأبى عبيد ورفضهم للمثنى (١) .

وقد أزال الخليفة فى غضون ذلك ، بناء على نصيحة المثنى كما يقول المؤرخون العرب احدى العوائق الرئيسية فى طريق التفتح العربى . فالقراء يذكرون ولا شك أن أباً بكر كان قد قضى اثر انتهاء حروب الردة بهزيمة القبائل المرتدة بالأا يسمح لآى فرد من هذه القبائل بالاشتراك فى الحرب الى جانب المسلمين . وقد حال هذا الحظر بين غالبية قبائل الجزيرة وبين القتال فى سبيل قضية العرب . وكانت جيوش العرب قد غزت فى غضون ذلك وفى وقت واحد ، أعظم امبراطوريتين عالميتين . وكان النقص البشرى فى الجنود قد أصبح مشكلة خطيرة وجاء رفع الحظر الآن فاطلق الطاقات الكامنة عند البدو المحاربين من عقالها لتهدر كالسيل . ومنذ هذا التاريخ أخذت الجيوش العربية لا تتألف من المحاربين المتطوعين كما هى الحالة من قبل بل من قبائل برمتها تهاجر جملة ، وتضم الرجال ونساءهم وأطفالهم وخيامهم وقطبان مواشيهم .

وخرجت النجدات أخيراً من المدينة . وكان المثنى فى قلق على رجاله لظول غيبته . فتقدم الجيش للحاق بهم ، وراح أبو عبيد يتبعه ببطء على «رأس المتطوعين الجدد داعياً فى طريقه جميع القبائل التى كانت مرتدة والتى مر بها للانضمام الى لوائه والسير لحرب الفرس .

وكان الفرس فى غضون ذلك قد استأنفوا نشاطهم العسكرى الذى كان المثنى قد توقعه - وكان «يزدجرد» قد اختار رستم القائد الذى ساعده فى الوصول الى العرش قائداً عاماً لجيوشه فى منطقة الفرات . وراح القائد الجديد يحرض نبلاء المنطقة وكبار المالكين فيها على وقف الجزية التى كانوا يدفعونها فى السابق الى العرب ، وعلى أن يثوروا على سيطرتهم ، وأخذ الفرس يرسلون ارتالا عدة للقيام بعمليات الاستطلاع الهجومية ووراءهم شرعت القنوات فى التحرك لآخراج الغزاة العرب من الاراضى التى احتلوها .

كان هذا الوضع الذى وجده المثنى عندما وصل الى العراق عائداً

(١) الحراق فى التهويل من الخلاف بين البدو والحضر رغبة من المؤلف فى تمجيد سياسة التقسيم بين العرب لتنفيذ سياسات الاستعمار .

من المدينة وأحس بعجزه عن الصمود أمام هذه الجحافل الفارسية فاضطر الى الجلاء عن الحيرة وعن جميع المنطقة الحصبة المزروعة في الحوض الأدنى من النهرين والانسحاب الى أطراف الصحراء غربى الفرات منتظرا وصول أبى عبيد على رأس التجعدات ، ووصلت الامدادات أخيرا وتسلم أبو عبيد زمام القيادة العامة للحركات كلها . وشرع العرب فى التقدم وهزموا ارتال الفرس فى عدد من المواقع الثانوية ، لكن رستم لم يخف من هذه التكتسات وحشد كل ماله من قوات فى جيش واحد ، بعث به من المدائن الى الحيرة .

وحذا أبو عبيد حذو القائد الفارسى وبعد أن حقق الاتصال بين جيشه الجديد وبين قوات المثنى ، راح يتجه الى الحيرة أيضا . وتقابل الجيشان فى شهر أكتوبر (تشرين) الاول من عام ٦٣٤ ووجها لوجه عبر نهر الفرات على مسافة قصيرة من الحيرة باتجاه الشمال ، وكان العرب فى سوريا قد اقتحموا قبيل هذا التاريخ مواقع الروم فى اليرموك وأخذوا يعدون العدة لمهاجمة فحل (١) .

وتقول الروايات ان بهمن قائد الفرس بعث برسول الى أبى عبيد يخبره فى أن يعبر هو الفرات لمقابلة الفرس ، أو يعبر الفرس لمقابلة العرب ، ولا ريب فى أن نهرا كبيرا ، كالفرات كان يؤلف عقبة كاداء فى طريق أى جيش من جيوش القرن السابع للميلاد وإذا كان اتساع النهر يحول بين الجنود وبين اطلاق النبال عبره فان هذا الاتساع يحول حتما دون تمكين الجيش الذى يحاول العبور من تأمين نار التغطية اللازمة له أمام العدو . وهكذا مالم يتفق القائدان على العبور دون قتال أو أذى فان المعركة ماكانت لتنبش قط .

ويروى المؤرخ البريطانى جيبون عرضا مماثلا لعبور نهر ، وقع فى ظرف آخر وقدمه أحد قادة الفرس الى قائد روماني ، ويروى أومان فى كتابه « فن الحرب فى القرون الوسطى » حادثا آخر أكثر غرابة . فلقد اشتبك بيلا الرابع ملك المجر فى عام ١٢٦٠ فى حرب مع أوتوكار الثانى ملك بوهيميا ، وتقابل الجيشان عبر نهر مارش وطلب أوتوكار بلطف من بيلا أن يقرر أى الجيشين يجب أن يعبر النهر دون أذى حتى تدور المعركة بينهما فى الشكل المناسب .

(١) يقول المؤرخون العرب أن المكان الذى احتشد فيه جيش العرب يسمى المروحة وهو تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة .

العمليات في الفرات ١٣٤-١٣٥ هـ



وقرر أبو عبيد على الرغم من نصح مساعديه الأكثر خبرة منه في القتال وفي مقدمتهم المثني انضى انقضت سنوات عدة على قتاله مع الفرس. أن يعبر الفرات وأن يخوض المعركة على ضفته الشرقية مبررا قراره هذا. بقوله «... أنخشي الموت ولا يخشونه ؟» وأشار عليه السليط بن قيس ، بأن ينتظر على الضفة الغربية ليفيد العرب من أسلوبهم في القتال وقد خلفوا الصحراء وراء أظهرهم ولاريب في أن المثني نفسه وهو بدوى قد قس اليه عين النصيحة .

وعندما وصل ان عرب الى الضفة الشرقية وجدوا أنفسهم في أرض محصورة لا تصلح لحركاتهم التعبوية السريعة الحركة . وتقدم الفرس آنذاك وأمامهم الفيلة ، ويقول بعض الرواة أن عددا من الفيلة ، أخذت تدوس جياد المسلمين بأقدامها واستمرت المعركة بضعة ساعات حاول فيها المسلمون مهاجمة الفيلة ، وهم على أرجلهم بسيوفهم ، كما حاول البعض قطع الحبال التي تشد الهوداج الى ظهورها . وهجم أبو عبيد وهو على الرغم من عدم تجربته كقائد ، ومن تهوره ، لا يقل عن أكثر المسلمين شجاعة وبسالة على كبير الفيلة بسيفه . وكان قد سال عن مقتل الفيل ف قيل له خرطومه ف ضرب خرطومه بسيفه ولكن الفيل حمل القائد الشجاع بخرطومه وقذف به على الأرض وبرك عليه فتوفى تحته . وعندما رأى المسلمون قائدهم وقد قتل دبت الفوضى الى صفوفهم وإن كان أخوه الحكم بن مسعود قد حمل الراية وعاد فثبتتها في الأرض الى أن سقط شهيدا بدوره .

وراح رجل من ثقيف وهى القبيلة التى ينتمى اليها القائد أبو عبيد في هذه اللحظة الحرجة الى الجسر الذى عبر عليه العرب النهر فقطعه طالبا الى الناس أن يستشهدوا . كما استشهد قائدهم أو يأخذوا بثأره بتحقيق النصر ، ولكن المحاربين كانوا يندفعون الآن نحو الجسر طالبين النجاة . وبدلا من أن يؤدي عمله الى ايقاظ الحمية في نفوسهم وحملهم على الصمود والاستبسال أحدث أثرا معاكسا اذ عندما راوا طريق رجعتهم وقد قطع ، دب الذعر في نفوسهم ، وأخذوا يلقون بأنفسهم فى النهر يحاولون عبوره . سباحة الى شاطئ الامان .

وامسك المثني بن حارثة بالراية فى يده ، وأثار الحمية عند الرجال فالتفوا حوله . وحاول عن طريق الاشتباك نى معركة بالايدي والسيوف . أن يكسب بعض الوقت ليتمكن الآخرون من رجاله من اصلاح الجسر ، هاتفا بالناس بأنه سيصمد أمام الفرس حتى تتمكن بقية المسلمين الذين انهارت معنوياتهم من عبور الجسر ، وجدير بنا هنا أن نذكر بأن بدويا نصرانيا من

قبيلة طيء يدعى أبا زيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا الى جانب
المثنى فى تغطيته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا
ريب فى أن حانزه على هذا كذن العصبية العربية ، اذ أن بنى جلده كانوا
يحاربون الاجانب الفرس . ولا ريب فى أن الحماس الدينى لم يكن هو حافظ
المثنى أيضا ، وإنما كانت العصبية العربية . اذ أن المثنى لم يكن قد اعتنق
الاسلام لا من نحو عام (١) .

وتم اصلاح الجسر مؤقتا فى النهاية . وتمكنت فلول المسلمين من
عبوره بعد أن حى لهم المثنى مؤخرتهم ، واستشهد فى المعركة أو غرق فى
النهر نحو من أربعة آلاف من العرب . وفر من الجيش نحو من ألفين آخرين
عادوا الى قبائلهم فى الجزيرة العربية ولم يبق مع المثنى الذى عاد الآن الى
تولى القيادة الا نحو من ثلاثة آلاف رجل من جيش كان يعد نحو من عشرة
آلاف قبل المعركة ، وكان هو نفسه قد أصيب إبان حمايته مؤخرة المسلمين
بقذيفة رمح من أحد الأعداء ، وهكذا كانت الكارثة كاملة ، ويرجع السبب
فيها كما يبدو الى تهور أبى عبيد . ولو قاتل العرب على الضفة الثانية
بدلا من عبور النهر لما وقعت هذه الكارثة لأن الاراضى الفسيحة المنبسطة
تصلح لاساليبهم القتالية التعبوية ، وكان فى إمكانهم فى حالة اصابتهم
بنكسة أن ينسحبوا الى الصحراء وهى مكانهم الطبيعى الذى لا يستطيع
الفرس بسلاحهم الثقيل أن يطاردوهم فيه . وتسمى هذه المعركة فى
التاريخ العربى ، بمعركة قس الناطف أو معركة الجسر ، ويعتقد أنها وقعت
فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٣٤ . أى بعد ثلاثة أشهر من وفاة
أبى بكر .

وانسحب المثنى عبر الصحراء فى طريق مواز لضفة الفرات الغربية
الى اوليس مستنفرا فى الوقت نفسه جميع أنفبائل البدوية الغربية وداعيا
اياها الى الجهاد . وتمكن الخليفة عمر من اقناع جرير بن عبد الله شميخ

(١) تقول كتب التاريخ العربى ان ابا زيد الطائى وهو شاعر عربى نصرانى .
كان قد أتى الحيرة فى بعض أمره . قد قاتل مع المسلمين فى هذه المعركة قتالا بطوليا
حمية منه لعصبية العربية . وبهذا يظهر أن المؤلف كان صادقا فى روايته ولكنه لم
يكن صادقا فى استنتاجه ، فليس ثمة من تناقض بين العصبية العربية والحماس الاسلامى
وانما هما صفتان متلاهماتان يضاف الى هذا ان قصر المدة اثنى قضاها المثنى فى الاسلام
لا يمكن ان تكون مقطعا فى حماسته للدين اذ ان المعتنق لاية فكرة حديثا قد يكون أشد
إيمانا بها من اناس قضوا مدة طويلة وهم يعتنقونها . (العرب)

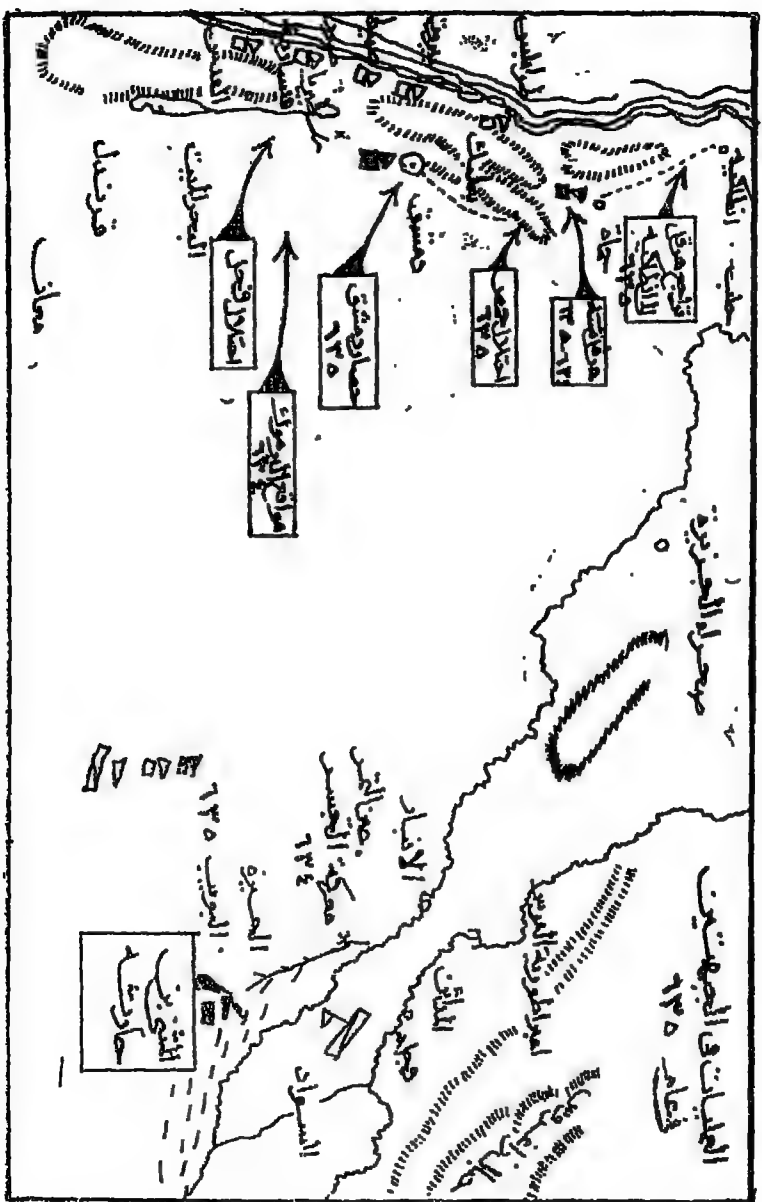
بنى بجيلة • وكان قد وفد الى المدينة على رأس وفد من قبيلته من اليمن ، بالذهاب الى العراق لحرب الفرس ولكن من المهم أن نقول ان عمر اضطر قبل ذهابه الى أن يعده بحصّة اضافية من الغنائم وكان رُفع الحظر عن اشتراك قبائل الردة في الحروب قد بدأ يؤتى ثماره الآن • وأخذت الوحدات من مختلف القبائل تصل الى المدينة ، وكان معظمها يؤثر الذهاب الى سوريا ولكن الخليفة ظل يصّر على ذهابها في أقصى سرعة ممكنة الى العراق • اذ أن كل شيء يسير سيرا حسنا في سوريا والعرب يتقدمون من دمشق •

وجاءت نجدة جديدة كان لوصولها موقع حسن من بنى نعيم وتغلب في شمال بادية الشام • وكانت هذه القبائل من النصاري يقودها شيخها الانس بن هلال • الذي يروى أنه قال ٠٠٠ ان عليه وعلى قومه ، وأن لم يكونوا من المسلمين أن يقاتلوا الى جانب أبناء عمومتهم • وهكذا عاد المثنى فأحس بالقوة بعد هذه النجدة التي وصلتته وزاح بعد انقضاء عام تقريبا على كارثة الجسر يتحرك ثانية باتجاه الحيرة ، وحشد الفرس قواتهم لمقابلته • وبالطبع لم يقع المثنى في خطأ أبى عبيد • فلم يعبر الجسر هذه المرة واضطر الفرس الى عبور الفرات • والتقى الجيشان وجها لوجه في النصف الأخير من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٣٥ ، عند البويب الواقعة بين مدينتي النجف والكوفة الحاليتين •

وكان معظم القبائل التي وفدت كنجدة متلاحقة من أواسط الجزيرة العربية قد حملت معها أطفالها ونساءها وقطعان مواشيتها وقد خلفت القبائل أهلها وجوابها في مكان يسمى خفان على الضفة اليمنى من الفرات في مكان يبعد خمسة وعشرين ميلا تقريبا الى الجنوب من الحيرة •

وعندما التقى الجمعان وجها لوجه في البويب امتطى المثنى جواده ليطوف على صفوف المسلمين مناشدا اياهم الصمود والثبات في المعركة القادمة وأبصر المثنى رجلا يستنفر من الصف ويستقل رغم اعتراض رفاقه عليه • فسأل عن سبب ذلك ، ف قيل له أن الرجل ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ليكفر عن خطيئته بالهجوم وحيدا على جيش الفرس طالبا الشهادة فمشى المثنى وحده صامتا حتى وصل الى الرجل فقرع بالرمح كتفه وقال : « لا ابالك الزم موقفك فاذا اتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » قال الرجل : « انتي بذلك لجدير » ولزم الصف بهدوء ليحارب المعركة ببسالة • ومضى المثنى في طريقه •

وقبل أن يبدأ العرب هجومهم استهل الفرس القتال بالتقدم في



ثلاثة ارتال وضعوا فيلا على رأس كل منها وحول الفيل ثلة من المشاة يتولون حمايته وكانت الفيلة والمشاة تعمل متعاونة تعاوناً تعبويّاً رائعاً تماماً كما يفعل المشاة والندبابات في المارك الأوربية الأخيرة . وكان من المقرر أن تخترق الفيلة صفوف المسلمين تحت حماية المشاة من قذفات الرماح وضربات السيوف وقد رافق تقدم الفرس صخب وضجيج وهتاف وقرع طبل وزمر .

وحمل وطيس القتال ، ووقع عبء المعركة في لحظاتها الحادة الأولى على بنى عجل الذين تحطمت صفوفهم وأخذوا في التراجع بشيء من الفوضى . ورأى القريبون من المثنى قائدهم وهو يمر بيده على لحيته . مما يشير إلى عصبية وسرعان ما أوفد رسولا إلى بنى عجل ينقل إليهم تحيات الأمير ، ويطلب إليهم ألا يلحقوا العار بالمسلمين في هذا اليوم ، ولبي بنو عجل نداء قائدهم فعادت صفوفهم إلى الانتظام وصمدوا أمام هجوم العدو . وتطلع الناس إلى المثنى وهو على صهوة جواده . فأروه هادئاً قريب العين تبدو البسمة على شفتيه ، وقد توقفت يده على الإمساك بلحيته .

ومضت المعركة سجالاً يتخللها الصراخ والهرج والمرج ولكن الفرس لم يفلحوا في التقدم شبراً واحداً . وأخيراً قرر المثنى ، ويبدو أنه كان قائداً ممتازاً يعرف اللحظة الحاسمة للعمل ، أن يشن هجمته المضاد ووضع نفسه في مقدمة رجال تغلب والنمر من النصاري مهيباً بهم أن يثبتوا عروبتهم ، رغم أنهم ليسوا من المسلمين وقاد الهجوم بنفسه مستهدفاً قلب جيش الفرس . ودار اشتباك رهيب ، ولقت الميدان ، سحب قائدة وكثيفة من النقع ، وقتل فتى نصراني من تغلب ، مهران قائد الفرس (١) وسرعان ما انهيار قلب دفاع العدو فتقدم الجيش العربي كله إلى الامام وفي مقدمتهم جوير على رأس بنى بجيلة وعرفجة على رأس الأزدي ومسعود أخو المثنى على رأس بنى بكر .

وبدأ العدو ينهار ، وأخذ رجاله يتجهون إلى الجسر على الفرات القائم وراء الجبهة ، ولكن المثنى الذي نفذ إلى القلب ، وصل إلى الجسر أولاً وحال بين العدو وبين الوصول إليه ، وعندما رأى الفرس أن طريق هربهم قد

(١) يقول البلاذري أن جوير بن عبد الله والمندر بن حسان بن ضرار الضبي تولى قتال مهران فقال هذا أنا قتلته وقال هذا : أنا قتلته وتنازعا نزاعاً شديداً فأخذ المندر منطقته وأخذ جوير سائر سلبه ويقال أن الحصن بن معبد بن زوارة بن عدس التميمي كان ممن قتله .
(العرب)

سد عليهم استداروا يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم . وحى وطيس القتال بين الفريقين وارتفع عدد الضحايا وأصيب مسعود أخو المثنى إصابة قاتلة ، وعندما رأى أن الوهن لحق أبناء عشيرته من أصابته هتف بهم وهو يعاني سكرات الموت . . . يابنى بكر بن وائل . . . ارفعوا رايتكم . وسينصركم الله . . . لا تقنطوا لموتى . وقتل أيضا الانس ابن هلال ، زعيم قبيلة نمر المسيحي وهو يهجم مع المثنى وتحطم جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى وظل المسلمون يحتفظون بالجسر وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهناك وبعضهم يقنف بنفسه فى النهر ، وبعضهم يحاول الاختباء تحت الاعشاب النامية على ضفافه ، والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدي العرب الظافرين ، وهكذا كانت معركة البويب انتقاما لمعركة الجسر الدامية .

وعندما انتهت المعركة فرش بساط من الشمسعر على الارض العارية جلس عليه المثنى ليستريح من عناء القتال . ويريح أعصابه مما لحقها من توتر . وتوافد قادة العرب عليه واحداً اثر آخر يهنئونه بالنصر . ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب وأخذوا يستعيدون احداث المعركة وقال المثنى : لقد حارب العرب الفرس فى أيام جاهليتهم وأيام اسلامهم وكان المائة من الفرس يفلبون فى الجاهلية ألفا من العرب ، أما اليوم والحمد لله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفا من الفرس .

وقد لعب نهر الفرات فى هذه المعارك دورا بارزا ، ولم تكن هناك زراعة كثيفة على الضفة النهر الغربية اما على الضفة الشرقية فالزراعة كثيفة والحدايق وارفة الظلال وأقنية الري منتشرة ولهذا كان العرب يودون دائما أن يحاربوا على أكناف الصحراء على الضفة الغربية ، وهذا يعنى أن على الفرس لكى يخوضوا المعركة أن يعبروا النهر دائما واذا ما نزلت الهزيمة بالفرس ، وجدوا النهر فى مؤخرتهم يسد عليهم طريق النجاة ، ولم يكن أى من الفريقين يبدى أى ابتكار فى خطته السنوقية ، وكانت المعارك تتكرر وكأنها واحدة فى كل مرة .

وكانت هزيمة الفرس كاملة فى البويب حتى ان العرب تمكنوا من جديد من السيطرة على معظم المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ودخلوا الى أطراف المدائن عاصمة الفرس وأعاد العرب احتلال الانبار وعين التبر فى الشمال وبات فى امكان المسلمين أن يغيروا على المنطقة الممتدة حتى بغداد ، وكانت آنذاك بلدة صغيرة يقام فيها سوق أسبوعية وحتى على تكريت على نهر دجلة . وسبق لنا ان قلنا ان منطقة الدلتا

تنتهى عند خط تقريبي يمتد من الانبار الى بغداد اذ تنتشر الصحراء في الاراضي الواقعة الى الشمال من هذا الخط بين النهرين (١) .

ولم يكن للعرب نظام تموين ثابت ومنظم ، ولهذا فقد كانوا مرغمين على الانتشار في اوسع منطقة ممكنة للحصول على ما يحتاجون اليه من غذاء لانفسهم ومن علف لحيواناتهم ولهذا فقد خلقت الغارات التي وقعت في هذه الآونة مزايا عدة ، منها ايقاع الرعب في صفوف العدو ، والوصول الى معلومات عن حركات الفرس واعداداتهم والحصول على المؤن اللازمة للمسلمين بالاضافة الى الغنائم الاخرى . ويبدو أن منطقة السواد المزروعة كانت مأهولة بغير العرب سواء اكانوا من السومريين والكلدانيين أم من الفرس . اذ على الرغم من أننا نرى القبائل العربية النصرانية المقيمة على الفرات تحارب الى حد ما الى جانب المسلمين فاننا لا نعثر على أى سجل يقول بأن سكان السواد بين النهرين قد حاربوا الى جانبهم وعندما كان العرب ينتصرون . كان هؤلاء العراقيون يدفعون الجزية ويستكينون الى حكمهم . أما عندما كان الفرس يعودون فيؤكدون سلطانهم فان هؤلاء يعودون بولائهم اليهم ، وان لم تظهر منهم أية بوادر تشير الى خياناتهم للفرس كما حدث في سوريا حيث كان النساطرة يؤثرون دائماً معونة المسلمين على الولاء للكنيسة الارثوذكسية أو حكومة الروم .

ولم يعمر المثنى بن حارثة طويلاً بعد نصره الرائع في البويب اذ لم يكن قد أبل قط من الجراح التي أصيب بها ، وهو يغطى تراجع العرب في معركة الجسر ، ويبدو لي أن هذا الرجل كان يتصف بجميع الصفات التي تلازم القائد العسكري العظيم ، ولا ريب في أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دالة واضحة على ما في هذا القائد العظيم من كفاية . فالمحاربون الذين تمكن من حشدتهم لم يكونوا جنوداً منظمين وانما كانوا بدوا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكون في معارك مع المسلمين اiban حروب الردة ، ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا ، لا تعلقهم الشديد بالدين ، يضاف

(١) يتبع المؤلف هنا فيذكر أنه في عمليات عام ١٩٤١ م. أى إبان ثورة رشيد عالي الوطنية عبر الجيش الأردني بقيادته نهر الفرات على بعد بضعة أميال الى الشمال من الانبار وتقدم الى ضواحي بكرت وبغداد . ولا يهتأ من هذا التبجح الا التاكيد بأن جيش الاردن الذي تولى جلوب قيادته كان منفذا ، يأمر الاسرة الهاشمية المالكة في الاردن ، لارادة بريطانيا وخطتها الاستعمارية .

(العرب)

الى هذا اننا رأينا قبيلتين نصرانيتين هما نيمر وتغلب نحاربان ببسالة
منقطعة النظر تحت لوائه .

وجدير بالذكر أن جرير بن عبد الله شيخ بجيلة بما عرف عن
الشيوخ البدو من غيرة نموذجية شكوا الى الخليفة من أنه لا يستطيع وهو
شيخ قبيلته أن يعمل تحت امره المثنى الذي لا يخرج عن كونه شيخا
مقبليا مثله . ومع ذلك فقد عمل جرير تحت امره المثنى في معركة البويب
وقاتل ببسالة نادرة ، ويقول البلاذري ان بنى بجيلة ادعوا بأن جريرا
هو الذى تولى القيادة فى البويب ، بينما يصر بنوبكر على ان القيادة كانت
للمثنى . ولا ريب فى ان غيرة مشايخ البدو من المثنى أتاحت المبرر دائما
لاسناد القيادة العامة الى الحجازيين الذين كانوا يتمتعون دائما بميزة
صحبة النبی ومع ذلك فقد ارتضى كثيرون من شيوخ البدو ، وبينهم
عرفجة شيخ قبيلة الازد المشهورة العمل تحت لوائه .

ولعل أبرز ما فى الرجل بالاضافة الى شخصيته العسكرية البارزة
وبراعته فى الحروب - اذ أن الحياة البدوية تخلق دائما شخصيات دافقة
بالحيوية والبسالة - هو اخلاصه البعيد عن الاثرة والانانية للقضية التى
يحارب من أجلها ولم نسمع قط بأن المثنى فعل ما فعله خالد العظيم ، من
الزواج بالسبايا العذاري فى ميادين القتال ، ولم تذكر الروايات له شريكة
فى الحياة الا زوجته ولم نسمع قط ، والعرب فى ذروة انتصاراتهم والغنائم
تسيل بين أيديهم من كنوز الفرس ليتقاسمها عرب البادية الجفافة الجهلة
ان هذا القائد قد جمع ثروة لشخصه كما فعل بعض القادة الآخرين ،
وأرى لزما علينا أن نستخلص من كل هذا ان هذا الشيخ البدوى
البسيط لم يجمع فى شخصه جميع مواهب القادة العسكريين البارزة
فحسب ، وانما جمع الخلق والعقل اللذين يجعلان منه رجلا جديرا
بالشهرة والتكريم عند كل أمة من الأمم وفى كل عصر من العصور ولعل
السبب فى أن اسمه لم ينل من الشهرة والدوى ما ناله غيره من القادة
الأول ، هو أن معظم المؤرخين الذين دونوا هذه الأحداث ظهروا بعد
انقضاء أكثر من قرنين على وقوعها ، وكان معظمهم من غير العرب ، وكانوا
من سكان المدن الذين لا يميلون كبير ميل الى البدو ، أو لا يفهمونهم ،
يضاف الى هذا ان معظم التاريخ قد دون فى العهد العباسى ولم يكن من
مصلح المؤرخين أن ينسبوا البطولات الحارقة الا لبنى العباس أو لابناء
تقريش على العموم أكثر من نسبتها الى أى بدوى .

تواريخ بارزة

٦٣٤	أكتوبر (تشرين الأول)	معركة الجسر في العراق
٦٣٥	يناير (كانون الثاني)	الاستيلاء على فحل في سوريا
٦٣٥	مارس (آذار)	بدء حصار دمشق
٦٣٥	سبتمبر (أيلول)	احتلال دمشق
٦٣٥	نوفمبر (تشرين الثاني)	معركة البويب في العراق

شخصيات بارزة

الخليفة الجديد	عمر بن الخطاب
قائد العرب في جنوب فلسطين	عمرو بن العاص
القائد العام العربي في سوريا	أبو عبيدة بن الجراح
القائد الذي عينه عمر بن الخطاب	أبو عبيد الثقفي
في العراق واستشهد في معركة الجسر	
قائد الفرس العام الجديد •	رستم
المنتصر في معركة البويب وزعيم	المثنى بن حارثة
بنى بكر •	

السِرْمُوكَ

« اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا • سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق • واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

قرآن كريم - (سورة الانفال)



« اهل الصحراء اسلم عقلا وبدنا من اهل القرى الذين ينعمون بحياة أكثر رخاء ، وبشرتهم أكثر نقاء واجسادهم أكثر صفاء ، وقوامهم أكثر انسجاما ، وجمالا ، وأخلاقهم أكثر اعتدالا ، وعقولهم أشد مضاء وتفهما ، واستعدادا لنيل المعارف الجديده من اهل الريف • ولنقارن بين الغزال والنعامه والظباء التى تعيش فى الصحارى ومثيلاتها التى تعيش فى المناطق المأهولة فالأولى أكثر نقاء وبريقا فى فرائها ، وانسجاما فى أعضائها ، ومضاء فى حواسها » •

مترجمة من ابن خلدون الى الانجليزية



« تعظيم الله فى أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين لاجراء الانتقام على الامم والتأديب على الشعوب لايناق الملوك بالقيود وشرافهم بقبول من حديد » •

سفر المزامير - المزمور - ١٤٩ ، ٦ - ٨

تركنا العرب في الفصل السابق وقد باثوا يحتلون جميع أنحاء سنوريا وفلسطين تقريبا . ولم تبق في حوزة هرقل الا رقعة من الارض. في منطقة انطاكية في الشمال الغربي من سوريا . وكانت القدس وقيسارية لا تزالان صامدتين . بينما شجعت سيادة الروم على البحر ، مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس الساحلية على الصمود . وشرع الامبراطور في العمل وأخذ بعد عامين من الهزائم المتلاحقة التي بلغت ذروتها في سقوط دمشق ، يعد جيشا جديدا يأمل بواسطته في استعادة سوريا في صيف عام ٦٣٦ .

ويبدو أن الامبراطور قد جمع معظم جنود هذا الجيش الجديد من أهل ارمينيا التي نطلق عليها اسم القسم الشرقي من آسيا الصغرى ، وهي المنطقة الواقعة الى الشرق من أعلى الفرات . ولم يتشرد الارمن في مشارق الارض ومغاربها الا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، أي بعد اجتياح الاتراك لآسيا الصغرى (١) وظل اسم أرمينيا محصورا في ولاية صغيرة تقع عند السفوح الجنوبية للقفقاس . وفي القرون الستة الطويلة من الحروب بين الفرس والروم التي بلغت ذروتها في الصراع الطويل بين هرقل وكسرى ابرويز ، لعب الارمن دور الدولة الصغيرة العازلة بين جارتين قويتين . وكثيرا ما اجتاحت إحدى الامبراطوريتين بلاد الارمن . ومع ذلك فقد احتفظوا بكيانهم القومي كما احتفظوا لأسباب عملية باستقلالهم السياسي . وكانت خصالهم الحربية توحى بالتوقير والاجلال ولا سيما عندما يمارسونها في وديان بلادهم الجبلية . وظلت عواطف الارمن حتى القرن الرابع للميلاد مع الفرس دون الروم . ولكن تحولهم الى المسيحية بعد هذا التاريخ أدى الى ابتعادهم عن الفرس عبدة النار . ولكن الروم لم ينجحوا فوائدا سياسية ضخمة من هذا التبدل ، وذلك لان الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية ظلت تنظر الى اتباع الكنيسة الارمنية كنظرتها الى النسطورية العرب ، على انهم من الهراطقة .

(١) اعتقد انها هفوة تاريخية من المؤلف . إذ ان هجرة الارمن من بلادهم لم تأت عند الفتح العثماني للأناضول كما يقول المؤلف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بل نتيجة اضطهاد الاتراك لهم ومذابحهم في القرن التاسع عشر عندما أخذوا يساعدون الروس على الاتراك في حروب الدولتين الكبيرتين . (العرب)

وقد يعنى اضطراب هرقل الى الاعتماد كل الاعتماد على الفصائل الأرمنية ، أن الروم أصيبوا بما يشسبه الارهاق والتعب من حروبهم الطويلة ، يضاف الى هذا أن الارمن كانوا بقيادة زعيمهم باتيس (يسميه العرب شنس) . أما القائد العام الروماني فكان ثيودوروس (يسميه العرب تودز) ، ويبدو أن سلطته على الوحدات الارمنية لم تكن فعلية يعترف بها ، كما أن الارمن بدوا وكأنهم جيش منفصل ضمن الجيش الروماني الكبير .

وانضم الى جيش الروم أيضا أمراء الفساسنة الذين كانوا يحكمون نيابة عن الروم الاقسام الجنوبية من سوريا وشرق الاردن ، وكانت معهم قوة من أبناء القبائل العربية المسيحية . ويذكر القاري ولا شك ، أن الروم كانوا قد الغوا في عام ٥٨١ ميلادية ، ملك الفساسنة في الشام . يضاف الى هذا أن اضطهاد الكنيسة الارثوذكسية الرومانية لنصارى العرب من النسطرة قد جعل هؤلاء يقفون منها موقف العداء ، ومن هذا يتبين أن ثلثي جيش الامبراطور الجديد ، كانوا اما من الارمن أو من العرب . والفريقان لا يحسان بمشاعر الولاء والاخلاص للامبراطورية . أما الثلث الباقي من الجيش فقد ضم المجندين من فلاحي « ما نسميه » بآسيا الصغرى الغربية ، وهم اقوام عرفوا بفضائلهم العسكرية . ولا ريب في أن مزاي هذه الاقوام المختلفة لا تخلو من الطرافة حتى يومنا هذا .

ولقد حدث في التاريخ المرة تلو المرة ، أن وطد شعب فاتح سلطانه على منطقة أخضعها بالقوة . وحملت تلك المنطقة منذ ذلك التاريخ اسم فاتحيها ، وفي عصرنا هذا عندما تسيطر العنصرية سيطرة كبيرة على تفكيرنا نصبح تحت تأثير الانطباع القائل بأن العنصر الفاتح المحتل أصبح منذ ذلك التاريخ يؤلف سكان تلك المنطقة التي فتحها . ولكن الفاتحين كثيرا ما لا يعدون في الحقيقة أن يكونوا مجرد أقلية ما لبثت أن اختلطت بسرعة مع السكان الأصليين وذابت فيهم . فالفلاحون المصابرون من أهل آسيا الصغرى والذين حاربوا دفاعا عن بيزنطة تحت اسم الاغريق أو الارمن قد أصبحوا يسمون الآن أتراكا . وهم لا يزالون يظهرن المزايا الصلبة نفسها التي كانت لاسلافهم وجدودهم . ومازالت قبائل سوريا وشرق الاردن وجلها من الاصل العربي تملك المزايا الحربية التي كانت لاسلافها ولقد أظهرت شعوب الاقسام الغربية من سوريا وفلسطين دائما اشراقا فكريا ساطعا . ومازالت هذه الشعوب تظهر على صفحات التاريخ الفينة تلو الفينة منذ تلك الايام حتى يومنا هذا . ويبرز

الساعة المتأمرين وخطباء الجماهير والتجار . اما كمسكرين فلم تسجل هذه الشعوب أية انتصارات ضخمة في التاريخ . ولا ريب في أن تسميتهم اليوم بالعرب على النحو نفسه الذي يسمى فيه خلفاء جند خالد بن الوليد وأبي عبيدة ، تخلق الكثير من الاضطراب في سياسات يومنا هذا (١) .

كان الجيش الذي جنده هرقل في الاشهر الاولى من عام ٦٣٦ . أضخم جيش حارب في سوريا حتى ذلك اليوم (٢) . ولم يكد هذا الجيش ينزل الى الميدان اما في شهر مارس (اذار) أو ابريل (نيسان) حتى كان العرب يجلون عن معظم المناطق التي فتحوها في غضون الاثنى عشر شهرا الاخيرة . فلقد جلا خالد عن حمص وانسحب أبو عبيدة من دمشق . ورابطت قوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك . ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا . وهي بوابة سوريا التي كانوا قد طردوا منها في سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ . أي قبل ثمانية عشر شهرا (٣) . وكان

(١) هذه محاولة سخيفة مفضوحة من المؤلف اللطيف في عروبة اهل الساحل السوري والفلسطيني . وبعت التفرقة بين عرب الساحل وعرب الداخل . ويبدو أن مركبا من مركبات الكراهية قد تولد لدى المؤلف لدى عرب فلسطين . الذين صورهم في كتبه السابقة أنهم كانوا السبب في الاضطراب السياسي الذي عم الاردن بعد ضم الضفة الغربية الى شرق الاردن . وهي من الصورة التي يحاول ابرازها الآن . فهو يؤكد في كتبه السابقة أن الهدنة كان يعم شرق الاردن الى أن ضمت الضفة الغربية اليه . فاشتد الاضطراب السياسي في البلاد . وهو يعنى بالاضطراب طبعا ثورات شعب الاردن المتعاقبة للخلاص من الاستعمار البريطاني ممثلا في حكم عملائه من حكام الاردن ، وفي سيطرة جلوب الاداة المنفذة لذلك الاستعمار . اما عرب الساحل فلا يختلفون من عرب الداخل في شيء لا في اصولهم ولا في تقاليدهم ومزاجهم واذا كان ثمة من اختلاف نسبى فهو من النوع الذي يقوم في كل بلد من بلدان العالم . وفي كل شعب من الشعوب بين اهل السهول والصحارى وأهل الجبال والسواحل ، او ذاك الذي يقوم بين اهل المدن واهل البوادي او الارياف . (العرب)

(٢) ينقل المؤلف هنا من الاستاذ بيكر في كتابه : تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج ان هذا الجيش الروماني كان الوحيد من الجيوش التي فاق فيها عدد الروم عدد العرب ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذا الزعم كاذب . إذ ان عدد الروم كان دائما متفوقا على عدد العرب في جميع المارك التي خاضها الفريقان وهذا ما أجمع عليه كافة المؤرخين العرب .

(٣) يختلف المؤرخون العرب في أمر هذه الواقعة فبعضهم يقول انها وقعت في عرج الروم على مقربة من حمص . وبعضهم يقول انها وقعت في اليرموك للمرة الثانية ولكن حتى هؤلاء لا يذهبون المذهب الذي رآه المؤلف هنا إذ يؤكدون ان العرب لم ينسحبوا كما زعم المؤلف من المدن التي سبق لهم ان فتحوها وفي مقدمتها دمشق . ولقد روى البلاذري مثلا عن سميد بن عبد العزيز قوله : لما جمع هرقل للمسلمين الجموع . وبلغ المسلمين =

جبله بن الايهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومي ، ومعها الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب ، بسرعة حركتهم ونشاطهم ، وخيولهم المظلمة غطاء رائعاً من الفرسان للجيش الروماني ، تماماً كما فعل الجيش العربي الاردني مع الجيش البريطاني في عام ١٩٤١ ، متعاوناً معه في عمليات سوريا والعراق العسكرية اذ شكل له حرس المقدمة والجانبين (١) .

وهذه الحقائق ثابتة ، كل الثبوت ومع ذلك فانا لا نستطيع تجنب الانطباع بان المؤرخين لم يؤكدوا الدوافع الماثلة وراء هذه الحركات العسكرية كما أن بعضهم ينسب الى العرب ، غزيمهم على الاحتفاظ بحصون اليرموك . لكن الحقيقة هي ان العرب نشدوا الآن كما في أية معركة سابقة أخرى ، أن يقاتلوا في الصحراء أو في السهول المنبسطة . وان يجعلوا الصحراء المكشوفة دائماً وراء أظهرهم ليجدوا فيها النجاة اذا اقتضاهم الامر ، وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجروا قدم الجيش الروماني الى القتال في الصحراء الى الجنوب من اليرموك بدلاً من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا . ولكن لم يكد العرب يملكون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب ، حتى كان الروم يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ويفلقون أبواب سوريا في ظهر العرب المتراجعين . وتركزت سياسة هرقل الآن على الاحتفاظ بالخط الدفاعي - فطالما ان خط ماجينو اليرموك صامد في وجه العرب فان سوريا ستظل في نجوة من غزوهم ولن يكون في وسع العرب بما عرف عنهم من خوف من حرب الجبال والمناطق المغلقة ، أن يغامروا بغزو سوريا عبر طبريا ، وصحيح ان خالدا كان في ربيع عام ٦٣٤ أي قبل عامين قد مهدد حمص وحماة ودمشق من ناحية الشرق أي من الصحراء ، ولكن قوته في ذلك الوقت كانت صغيرة ، ومع ذلك فقد كادت تفنى ظمأ في لهيب

— اقبالهم اليهم لوقمة اليرموك ... ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوه من الخراج ، وقالوا : شغلنا من نصرتكم والدفع منكم على امركم . فقال أهل حمص لولايتكم ومدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع حاملكم ونهض اليهود قتلوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل حمص الا ان نلقب ونجهد . واغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود . واعتقد ان رواية البلاذري هي الصحيحة .

(١) اعتراف جديد من المؤلف بان الجيش الاردني أدى للاستعمار البريطاني الدور الذي أداه الغساسنة للاستعمار الروماني ، وان عبد الله بن الحسين ، أدى لهذا الاستعمار نفس الدور الذي أداه جبله بن الايهم .

(العرب)



«الصحراء • ولم يكن في الامكان القيام بغزو جدى عن ذلك الطريق حتى ولو كان العرب هم القاثون به • ولا ريب في أن هرقل قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد الى احتلال فتحة درعا ، وان العرب قد أخرجوا منها الى الصحراء جنوبا • وقد خيل اليه ان سوريا قد غدت في نجوة من الخطر •

ولا يوضح المؤرخون العرب لنا ، من تولى قيادة العرب في هذه الازمة ، وفي وسعنا أن نخمن بأن أباعبيده كان لا يزال القائد العام الأعلى ولكنه في المواضع العسكرية البحتة ، كان يطلق يد خالد بن الوليد اطلاقا كاملا ، ليعالج الوضع بما يراه •

واستمرت فترة الركود الثانية في فتحة درعا زهاء أربعة أشهر رفض الروم ابانها بأن ينصاعوا لاغراء العرب بالخروج من حصونهم التي كان العرب عاجزين أو غير راغبين في اقتحامها • لكن المعارك لا تكسب عن طريق الدفاع السلبي ليس الا ، وكان العرب أكثر قدرة على الحركة وأظهروا ميلا أشد الى المبادرة من أعدائهم •

وتؤلف مضائق اليرموك ووادي الرقاد في الجانب الغربي من الفتحة عقبات كداء في طريق أية حركات عسكرية • اذ أن جوانبها تكون في كثير من المواضع عمودية تقريبا • أما الى الشرق فعلى الرغم من ان الصخور البركانية تغطي سطح السهل الا أن المرور فيها ليس متعذرا على الفرسان والهجانة بله المشاة • وقد يكون من المتعذر خوض معركة في القرن السابع للميلاد وسط الصخور البركانية ولكن هذه الصخور لا تحول بين جماعات من المحاربين العرب وبين التسلل حول الجناح الشرقي للروم للوصول الى سهل حوران • وفي وسعنا أن نخمن بأن هذه هي الاساليب التعبوية التي تبناها العرب قبل انقضاء عهد طويل • فقد شقوا طريقهم حول الجناح الشرقي لمواقع الروم ، وبات في وسعهم أن يقطعوا طريق تموين العدو أو يهددوه تهديدا خطيرا ، ويبدو أن الطريق الرئيسي لمواصلات الروم كان يتجه الى الجولان ومنها عبر المنطقة التي يقوم عليها اليوم جسر بنات يعقوب ثم يتجه شمالا الى بعلبك ، بدلا من الطريق الرئيسي الممتد بين دمشق ودرعا •

ولكن الحيانة في صفوف الروم ، كانت أكبر أثرا على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو • والمعتقد ان قائد الروم تيودر وروس (تودز) كان ميلا في البداية الى تبني أساليب الدفاع المتصفة بالنشاط والحركة • إذ أن المؤرخين العرب يتحدثون عن عدد من العمليات الثانوية التي ذكروا

ان الروم قد غلبوا فيها كلها . وكان أجدر بتودز وأحكم لو انه خاض مع العرب معركة حاسمة عندما التقى الجيشان ، اذ ان عدد جنده كان يتفوق على جند العرب تفوقا هائلا ، لكن فترة الراحة التي انقضت مكنت العرب من أن يستغيثوا بالخليفة في المدينة لبيعث اليهم بالتجندات الجديدة . ولا ريب أيضا في ان اطالة المكوث في حصون البرموك الدفاعية قد أثرت على معنويات جند الروم ولا سيما أن الأرمن منهم كانوا متعودين على أجواء أكثر برودة وعلى مناخ جبلي ، كما انهم كانوا من المرتزقة الذين لا يدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم . وبينما كان سكان السواحل السورية هوالين للامبراطورية الرومانية ، كان سكان حوران معادين لها أو غير آبهين بها على الأقل وهو عامل لا بد وأن يكون قد أثر على معنويات الجنود .

وظهر احتكاك خطير بين الاغريق والارمن حتى أن شطرا من الجيش قد انتخب «شنس» القائد الارمني قائدا عاما . خلفا لتودز ويبدو أيضا ان شيئا من الاتصال قد جرى بين خالد بن الوليد وبين شنس هذا ، كما يبدو أن هذا الاتصال قد جرى عن طريق الجنود العرب في جيش الروم . الذين لم يقوموا إلا بدور صغير في القتال بعد أن تحول الى معركة ثابتة . وقد أدت هذه المنافسات المستمرة بين الوحدات المختلفة في الجيش الروماني ، وما نجم عنها من تدهور في الانضباط ، بالإضافة الى الاسابيع الطويلة من الجمود داخل الحصون ، الى استكمال الانحطاط المعنوي في الجيش الروماني . وكان العرب قد تلقوا تعزيزات قوية من الجزيرة العربية ، وأخذوا يتحولون يوما بعد آخر الى الهجوم . وأصبحوا يحيطون تقريبا بمواقع الروم أو انهم قطعوا مواصلاتهم من ثلاث جهات على الأقل .

وهبت ريح قاتلة عابثة من الصحراء من الناحية الجنوبية الغربية في العشرين من شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٦ . وأخذت سحب الرمال والتراب تلطم وجوه الجنود الروم . ولا اعتقد ان هناك ما هو أسوأ من عاصفة رملية قاتلة حقا في الصحراء اذ انها تقتلع عادة الحيام ، وتطيح بعدد الطبخ ، ويمتلئ الطعام والماء بالتراب . بينما تلسخ ذرات الرمل الوجوه وتطمس الاعين ولا تزيد الرؤية في مثل هذه الحالات على بضخ ياردات ، ومن المعتذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح . وكل ما يستطيع فعله هو الاقواء على الارض ، والانتظار حتى تنتهي العاصفة من نفسها . وقد تستمر الريح يومين أو ثلاثة أيام ، ومن المحتمل أن يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن القادة العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم عام شامل في الصباح التالي .

وعلى الرغم من ان البدو لا يستسيغون هذه الزواجع الرملية الا أنها كانت شيئا عاديا طالما القوه . يضاف الى هذا ان اتجاه الريح كان قى . أقيمتهم وفى وجوه أعدائهم ، وعلى الرغم من أن مدى الرؤية أمامهم كان مغلقا ، الا ان الريح وهى تهب وراء ظهورهم كانت تمكنهم من أن يظلوا مفتوحى الاعين لاتعرقل سبيلهم كثيرا . ولا ريب فى أن مثل هذه الظروف تجعل من المعركة ، فردية أكثر منها جماعية . فالجيش المتعود على الحرب فى صفوف منتظمة تلبية لأوامر قادته يصبح فى وضع يائس فى مثل هذه الاوضاع . أما العرب فهم فرديون فى طبيعتهم ، وكل جندي منهم صورة مجسدة للجراة والنشاط والحيوية وهو على استعداد وتلف للمقاتلة وحيدا . والجنود العرب عاجزون عن خوض معركة نظامية ضاربة فى صفوف متسلسلة . ولكنهم يكونون فى أحسن حالاتهم فى أى هجوم عنيف يشنه كل واحد منهم على انفراد . ولكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب اذ ان فصيلا من جنودهم احتل الجسر القائم على وادى الرقاد وراء جيش الروم . وهى الجسر الذى يمر عليه طريق مواصلات الروم الرئيسى . وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين وكانهم العقبان الكواسر يسرون وكانهم الاشباح عبر الرمال المندفعة ، متدققين على مواقع الروم . ولو كانت العاصفة الرملية فى ذلك اليوم كثيفة كما أعرفها لما تمكن جيش الروم من أن يخوض معركة مهما كان شكلها فى ذلك اليوم . ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر ، فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها تودز (تيودوروس) نفسه . ولم يحل صباح اليوم التالى حتى كان جيش الروم الذى قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ، ويبذل كل ما فى وسعه لاغداه قد زال من الوجود . فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية أو نواة لناجين من القتال . . لم يكن هناك شيء على الاطلاق ، ولم يبق من الروم انسان .

ويقال ان عددا من نساء العرب قد اشتركن فى معركة اليرموك . هذه ، ينشدن ويهتفن بالرجال مشجعات محمسات . وكان أبو سفيان . عبد النبى الكبير فى يوم ما قد أتى الى سوريا زائرا حيث كان ولده يزيد ومعاوية يحتلان مراكز قيادية مهمة فى جيش المسلمين وقد رافقته فى هذه الزيارة زوجته العجوز ، هند بنت عتبة التى كانت قبل اثنى عشر عاما تشجع محاربى قريش فى غزوة أحد ، منشدة بتمجيد العزى . وهبل ومتممة مغامرتها الحربية بالتمثيل بجثة حمزة عم النبى واقتطاع كبده ، التى مضغتها . ويبدو أن نيران الحماسة والميل الى المناجزة

والحرب ، لم تكن قد خبت بعد في صدرها الذي أضعفته السنون اذ أنها تقدمت يوم اليرموك صفوف المسلمين وأخذت تهيب بالمسلمين بأن يقطعوا المشركين بسيوفهم ولا يذكر المؤرخون ان زوجها أبا سفيان قد اشترك في القتال فلقد شهد المعركة ولكنه كان في الثالثة والسبعين من عمره . وكان قد خسر عينا واحدة في حصار الطائف . وقد انقضت أيامه الصالحة للقتال وان قدر له أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ليموت وهو في الثامنة والعشرين . ولعل من سخرية الاقدار أن هذين الزوجين العجوزين اللذين كانا في يوم من الايام من أشد أعداء الاسلام قد أنجبا للشعب العربي أسرة مالكة من الابطارة .



وعندما سمع هرقل الهرم وكان في انطاكية بأن جيشه قد أبيد عن آخره أدرك تمام الادراك بأن القرار أصبح حاسما وراح يودع البلاد المقدسة التي حارب طويلا لاسترجاعها من الفرس ليعود فيخسرها للعرب بقوله : « سلام عليك يا ستوريا سلما لالقاء بعده » . وراح يمتطى جواده ليحبر جبال طوروس متجها الى الغرب .

وكان الامبراطور جوستنيان قد قضى نجه في القسطنطينية قبل نحو من سبعين عاما بعد أن حقق هدفه في إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية . وكان قائداه اللامعان بليزاريوس ونارسييس قد استعادا له افريقية واسبانية وايطاليا ولكن جوستنيان كان يحمل الرأي نفسه الذي حمله فيما بعد لويس الرابع عشر عندما قال : بعدى يكون الطوفان . فلقد استنزفت موارد الامبراطورية كلها وخوت خزائنها . ولم يكن في وسع خلفاء الامبراطور العظيم جوستنيان من أمثال جوستين وطيبريوس وموريس أن يحافظوا على هذا الصرح الضخم العالي . وفي عام ٦٠٣ . خلع موريس عن العرش ليحل محله «فوقا» صاحب السلوك المشين المعيب . وفي عام ٦١٠ أبحر هرقل الشاب من أفريقيا الى القسطنطينية ليثوج الامبراطورا فيها في اليوم الثاني من وصوله بين هتافات الجماهير الحماسية . ولكن كسرى ابرويز كان قد وصل الى أبواب المدينة . وقد رعى هرقل أن يقضى ثمانية عشر عاما في جهود عسكرية لا تكاد تصدق قبل أن ينتصر نهائيا على الجيش الفارسي ولا ريب في أنه كان يأمل في أنه بعد هذه السنوات الطويلة الشاقة وبعد هذا القلق العظيم سيقضى سنواته الاخيرة في أمن وكرامة ، ولكن فرصة راحته كانت قصيرة ، اذ لم تمض أربع سنوات على عقد الصلح مع فارس حتى كان العرب يصلون الى

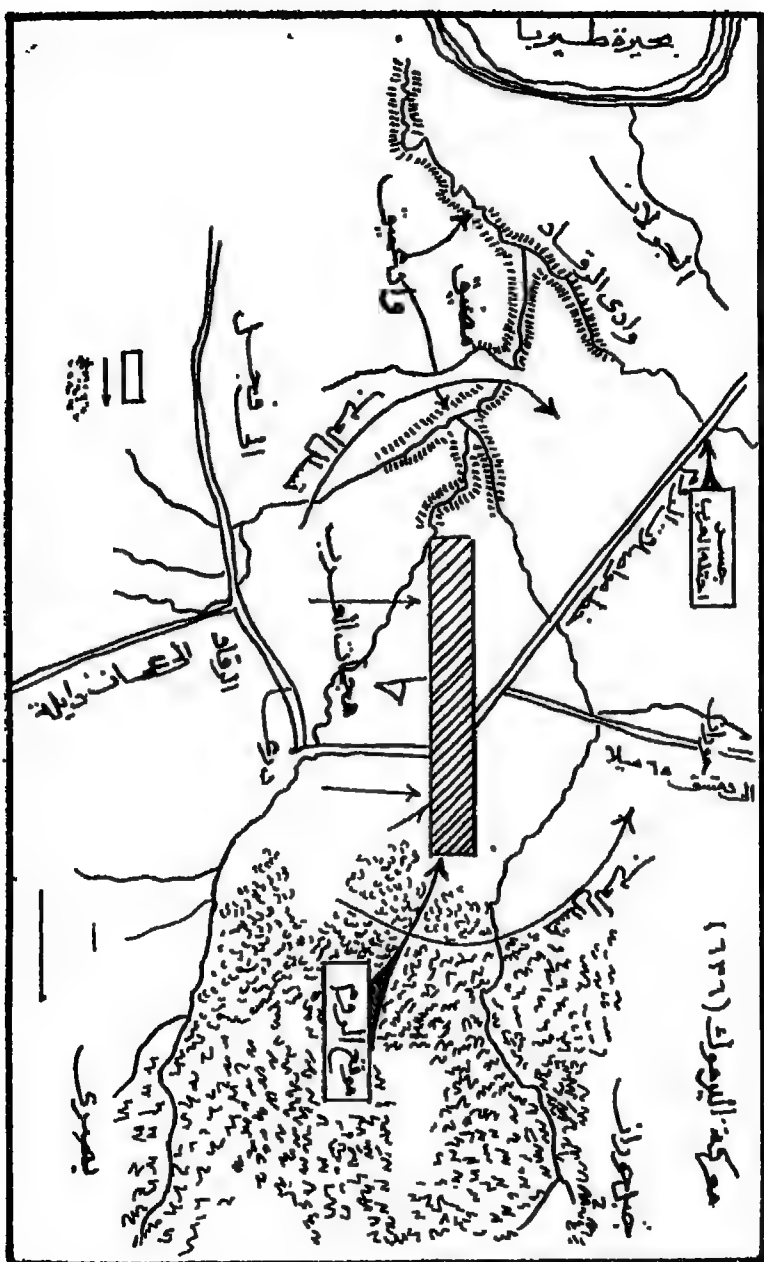
سوريا • وبعد ثلاث سنوات أخرى من الجهد المتواصل ، فقد الامبراطور الشيخ الامال البراقة التي حارب ثمانية عشر عاما لاستخلاصها من كسرى وقدر له أن يعيش خمس سنوات أخرى ، ولكنها سنوات المزيد من الازلال والفشل •

ولم يتردد المؤرخون في أن يوجهوا اللوم في ذلك الى ما أسموه بجبن هرقل ، في فشله في اخراج العرب من سوريا • لكننى أرى أن ليس لهذا النقد ما يبرره اطلاقا ، ولقد كان من سوء طالعهم ، ان أقيت عليه مهمة الحفاظ على امبراطورية كانت مواردها غير كافية لأداء هذه المهمة • ولقد كان رجلا واعيا مدركا وكان تقيا متدينا قضى حياته في جهود ومتاعب متواصلة تكلفت أحيانا بالنصر ولكنها انتهت أخيرا بالفشل والياس • ولا يروى التاريخ سيرةً لأناس كانوا مثل هذا الرجل في حسن نياته وكانوا مثله في الكد والنصب وانتهوا مثله الى النهاية المفجعة التي انتهت اليها •



ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات الحربية النشيطة التي تمثلت في احتلال العرب لسوريا • فلقد عاد أبو عبيدة الى الزحف شمالا فاستعاد دمشق وحمص وبعليك • وغيرها من المدن التي كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم ، وقد استقبلت جيوش العرب في أماكن عدة استقبالا حسنا مصحوبا بالرقص والاهازيج ويقول أحد المؤرخين العرب : ان أهل حمص أعربوا عن ايثارهم لعدالة العرب على ظلم الكنيسة الارثوذكسية والامبراطورية الرومانية ، ومن حقنا أن ننظر الى مثل هذه البيانات بتحفظ ، لان مصادرها اسلامية أولا ، ولان السوريين الضعفاء كانوا يرغبون حتما في ارضاء سادتهم الجدد ، الذين لم يعد هناك من ينافسهم ثانيا •

ومع ذلك فهناك على أى حال أسباب واضحة ، تدعو أهل مشرق سوريا وشرق الاردن الى الرضا مؤقتا على الأقل عن هذا التبدل • فالشعب البريطني وهو يعيش في جزيرته يعتبر البحر حده الطبيعي ، واذا ما جاء أفراد هذا الشعب من الغرب ونزلوا في الارض المسماة الآن بلبنان • فانهم يتوقعون أن يجدوا أنفسهم في الشرق واذا ما توغلوا بعد ذلك في الداخل نحو دمشق وبغداد وطهران فانهم لا يتوقعون أن يجدوا فروقا كبيرة كتلك التي توخوها بين فرنسا وإيطاليا مثلا ، وبين لبنان • ففرنسا وإيطاليا بالنسبة لهم هما الغرب بينما لبنان ودمشق وبغداد هي الشرق •



ولكن هذا التصنيف القاطع مازال مضللا حتى يومنا هذا • ولقد كان أكثر خطأ وتضليلا في القرن السابع ، فلقد كان حوض البحر المتوسط كله يؤلف العالم الروماني الاغريقي ، وكان هذا البحر بالنسبة الى الرومان الطريق الرئيسى الذى يربط بين ممتلكاتهم لا الحد الذى يفصل بينهما • وكان السوري أو المصرى فى تلك الايام لا يجد نفسه غريبا فى اليونان أو إيطاليا أو بلاد الغال ولكنه يجد نفسه غريبا فى العراق أو الحجاز • وكانت حدود رومة كلها أرضية لا بحرية فهى الراين والدانوب وجبال الاطلس والصحراء • وكانت الحدود الثقافية لرومة فى سوريا وفلسطين هى جبال لبنان الشرقية وبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت • وكانت قبائل الصحراء قد تسلمت منذ أقدم عصور التساريخ الى المدن والقرى الواقعة الى الشرق من هذا الخط • وكان معظم سكان هذه المناطق الشرقية من الساميين أو انصاف العرب ويؤثرون السريانية فى حديثهم على اليونانية ويميلون بصورة عامة الى الثقافة الشرقية • وقد فشل الرومان والبيزنطيون فى ادماج هذه المناطق ثقافيا فى بلادهم وظلوا يؤثرون حكمها عن طريق حكام عملاء من أهلها كالأنباط وأبناء هيرودس والغساسنة ، اما الى الغرب من الاردن وجبال لبنان الشرقية ، فان شعوب هذه المناطق ينظرون الى الغرب وعلى الرغم من عدم تحررهم تحررا كاملا من النفوذ الشرقى ، الا انهم كانوا أقرب الى الاوربيين منهم الى العرب • ومن هنا يظهر أن الحد الثقافى الطبيعى لبيزنطة كان نهر الاردن •

ولو تحولت سوريا كلها وفلسطين وشرق الاردن الى المسيحية لعقدت رباطا أوثق مع بيزنطية ولكن النتيجة كانت معاكسة فى الحقيقة فلقد اضطهدت كنيسة بيزنطية الارثوذكسية الكنيستين السورية والمصرية • وعاملتهما على انها من الهراطقة • وجاء الفاتحون العرب فمحوهما التسامح والاستقلال ، ولم يقم الفاتحون المسلمون بأية محاولة لتحويل المسيحيين الى الاسلام ، وان فرضوا عليهم نظاما مختلفا من الجباية قد يحمل طابع التحيز ووضعهم فى مرتبة أدنى • وهكذا نرى بعض القبائل المسيحية ترفض دفع الضريبة كقبائل نصرانية ولكنها ترغب فى دفعها بل بنسبة أعلى مما يدفعه المسلمون شريطة أن تكون عشرا أو صدقة لاجزية أو خراجا • وهكذا كان دفع الضريبة بالنسبة الى غير المسلمين يحمل فى البداية معنى التبعية • لكن المساس بالكرامة كان طفيفا ولكنه حل محل الاضطهاد البيزنطى كما يذكر القراء • وقد قدر لمرکز النصارى أن يتدهور فى السنوات اللاحقة بعد أن كان فى سنوات المسلمين الاول مركزا كريما

لاتشوبه أية شائبة (١) ، ومن هنا لا يكون غريبا أن يظهر أهل الحضرة في الاردن وفي داخل سوريا الفرح لما أسموه بأنقاذ العرب لهم من حكامهم البيزنطيين السابقين .

وقد اعتنقت معظم القبائل البدوية النصرانية الاسلام دون ضجيج ولقد كانت حروب الفتوح الاسلامي بالنسبة الى أبناء هذه القبائل من محاربي الصحراء شيئا تهذا اليه نفوسهم ، وكان في مكتهم اذا ما اعتنقوا الاسلام أن ينضموا الى قبائل الجزيرة العربية على قدم المساواة في خوض حياة يشملون فيها بأعجاد الحروب وغنائمها .

وكان الوضع مختلفا الى الغرب من سلسلة لبنان الشرقية ونهر الاردن ، فلقد ظل أهل هذه البلاد ينظرون الى اليونان ورومة أجيالا طويلة وكان بعضهم من أصل أوربي فعلى . ولذا فهم ينظرون الى العرب نظرة تحمل معنى الزراية والكره ولم نسمع عن أهل هذه المناطق انهم استقبلوا الفاتحين العرب بالرقص والاهازيج والموسيقى . وهناك تعقيد آخر يكمن في الخلاف بين أهل المدن وأهل الارياف . ويحتل هذا التمييز مكانة مهمة للغاية في البلاد العربية الشمالية اليوم بحيث يصعب على الأوربيين فهمه . وقد نشأت هذه الخلافات والعقبات بسبب الفروق في العمل تماما كذلك التي قامت بين أهل الوبر والمدن في جميع أطراف الجزيرة العربية ، لكنها تولدت في سوريا وفلسطين على أي حال من جراء الفتوحات العسكرية . فلقد ظلت هذه البلاد عرضة للغزو قرونا عدة من الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان ، وكانت كل دولة أجنبية فاتحة توطد أقدام سلطانها في المدن التي تقوم على حمايتها حاميات من القوات الأجنبية . وسرعان ما يأخذ أفراد هذه الحاميات في التزاوج والاختلاط مع أهل المدن التي يحتلونها لكنهم لم يكونوا يتزوجون أو يختلطون الا على نطاق ضيق للغاية ، مع البداة أو الفلاحين . ومن هنا كان أهل المدن أقرب الى العنصر الروماني الاغريقي من أبناء القبائل أو القرى حواء من الناحية الثقافية أو الناحية العنصرية .

(١) يوحى قول المؤلف هنا ان العرب المسلمين أساموا أيام دولتهم للنصارى العرب وهو قول يحمل طابع التشويه التاريخي إذ ان مركز النصارى العرب ظل محترما طيلة عهد السيطرة العربية على الدولة الإسلامية ، واذا كان التدهور قد لحق بهذا المركز بعد قرون طويلة عندما سيطر الشعوبيون من أبناء الشعوب الإسلامية على الدولة العربية وتدهور نتيجة هذه السيطرة مركز العرب عامة وبينهم النصارى .

وقاومت بلدة قنسرين (١) في شمال سوريا جيوش العرب التي يقودها في هذه المنطقة خالد بن الوليد . وقد أنزل بالمدافعين هزيمة شديدة واحتل المدينة عنوة ، وراح أبو عبيدة يزحف بعد ذلك على انطاكية التي كانوا يستمونونها بملكة الشرق والتي كانت تعتبر مع رومة والاسكندرية وببزنطية أعظم مدن العالم القديم . وكان الأباطرة العظام أمثال أوغسطس وطايريرس وتراجان وانطونيوس بايوس وهديران قد زانوها بما بنوه فيها من معابد ومسارح وحمامات وأقنية لمياه الشرب . ولكن الخراب لحق بنصف المدينة تقريبا أثناء الحروب التي وقعت بين كسرى والروم ونشبت معركة في المنطقة التي تغطيها الغابات خارج الاسوار في غابات مهروبة (الاسم الغربي لها هو دافنى) التي اشتهرت في الماضي بجمالها ، وبخفلات العهر والفسوق التي كانت تدور في ربوعها واضطرت حامية المدينة الى اللجوء الى داخل الاسوار ، ثم سرعان ما استسلمت وراح خالد ينسدفع شمالا الى أن وصل سفوح جبال مرعش وأورفة وشمشاط ، وتراجع العرب على عادتهم عند الجبال عن زحفهم وتوقفوا عندها بعد أن أقاموا حدهم الشمالي عليها الذي ظل قائما منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا .

وهكذا لم يحل خريف عام ٦٣٦ حتى كان العرب قد اجتاحت سوريا بأكملها حتى جبال الاناضول . أما الى الجنوب فكانت قيساريه والقدس لا تزالان صامدتين في وجههم وأقام العرب في غضون ذلك مركزا حربيًا لهم في الجابية في الجولان ، وهي مركز متوسط يستطيع الجيش أن يعمل منه بسرعة في جميع الاتجاهات لاختماد أية فتنة تتور . ويبدو أن فكرة اقامة مثل هذه المراكز المتوسطة التي تحشد فيها القوات العربية والتي لا يتاح فيها المجال للجنود للاتصال بالاهالي المدنيين مدينة في وجودها لعمر بن الخطاب . وسنسمع فيما بعد الكثير عن هذه المعسكرات والقواعد العسكرية .

ولقد كانت فلسطين منذ بداية الحملة على سوريا قبل ثلاث سنوات المنطقة الخاصة بعمر بن العاص . وكان في فترات الازمات ، كمعركة ليرموك مثلا ، يعود فينضم بقواته الى الجيش العربي الرئيسي . ولكن حالما يزول الخطر يعود الى تلك المنطقة ولقد سبق لي أن أوضحت أن أساليب العرب التعبوية التي جعلت منهم جيشا لا يقاوم في المناطق المنبسطة كانت صعبة على التطبيق في المناطق الجبلية أو

(١) قنسرين مدينة قديمة قرب حلب ويطلق على أحد أبواب حلب اسم باب

(العرب)

قنسرين .

المناطق الضيقة المحصورة ، ولهذا السبب وحده ظلّ عمرو بن العاص يحصر عملياته طيلة وجود الجيوش البيزنطية في المنطقة في السهل الساحلي الممتد من بئر السبع الى قيسارية . أما الآن فقد انتهى أمر الجيش البيزنطي ، ولم تعد هناك قوات في الميدان ولهذا السبب ارتقى العرب جبال القدس (اليهودية) وفرضوا حصارهم على مدينة القدس نفسها (ايلياء) ولم يبق أى أمل في الانقاذ عند المحاصرين ولا سيما بعد أن انسحب هرقل الى ما وراء جبال طوروس . وشرع صفرونيوس بطريق القدس في أواخر خريف عام ٦٣٧ ، ويقول بعض المؤرخين في خريف العام الذى سبقه يفاوض المسلمين ، وسرعان ما اتفق الفريقان على شروط استسلام المدينة . لكن صفرونيوس أصر على تسليم المدينة شخصيا الى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين . وبعث أبو عبيدة برسالة بهذا المعنى الى المدينة ، وقرر عمر على الفور أن يزور الجبهة السورية شخصيا .

وخرج عمر كعادته في ملابسه البسيطة المرقعة ، مع قافلة حملته الى درعا (اذرعات) التى تقع الآن على الحدود السورية الاردنية (ذكرت اذرعات في سفر الملوك في التوراة كمسرح المعركة التى دارت بين داود وأوغ ملك باسان) . واهتز الخليفة المتواضع المتطهر فزعاً عندما رأى أهل البلدة يخرجون للقاءه بالأهازيج والسيوف والراقصين بينما تعزف النساء على الرقوق والدفوف ، وقال عمر : « أمنعهم » ولكن أبا عبيدة رد قائلا : « يا أمير المؤمنين هذه سنتهم وانك ان منعتهم منها يرون أن في نفسك نقضا لعهدهم » . فقال : « دعوهم » وان كان في قوله هذا معبرا عما يحس به من الغيظ والسخط لكن سخطه على قيادة المسلمين كان أشد وأقوى فلقد خرج للقاءه في جنوب البلدة أبو عبيدة وي زيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وهم على ظهور خيولهم تحيط بهم الفرسان وعليهم الديباج والحريز . ويقال أن الخليفة نزل عن بعيره وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال غاضبا : « سرعان ما لفتم عن رأيكم ... أياى تستقبلون في هذا الزى ... وانما شبنعتم منذ سنتين ما أسرع ما نذت بكم البطنة . والله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » . وتقول الروايات ان القادة الذين احمرت وجوههم خجلا ردوا قائلين : « يا أمير المؤمنين انها بلامقة - أى في الظاهر - وإن علينا السلاح » . وهنا رضى الخليفة بعد امتعاض وتذمر . وقد أظهر المستقبل القريب صدق مخاوفه .

وجاء وفد يمثل بطريق القدس للقاء عمر في الجابية وسرعان ما تم

مقد الصلح وتسليم المدينة ، وشخص الخليفة بعد ذلك ، مارا بالطريق التاريخي القديم عبر وادي الأردن عند ييسان الى جبال نابلس (السامرة) التي تغطيها حقول الحنطة وكروم العنب وغايات الزيتون ، ومنها الى القدس حيث استقبله البطريك المدافع الحلو اللسان عن الكنيسة ، ولكن اذا كان البطريك قد اغرق في المجاملة ، وحلو الحديث وهو يرحب بالخليفة الا أنه ظل بعيدا في حشاشة فؤاده عن أن يكون صادق الود ، اذ عندما أخذ الخليفة البدوي ، البسيط اللباس ، العاري القدمين ، يطوف بكنيسة القيامة همس البطريك باليونانية في أذن أحد مساعديه قائلا : « لا ريب في أن هذا هو مقت الخراب الذي تحدث عنه دانيال النبي وهو واقف في المكان المقدس » ...

وحدث أن حان وقت صلاة الظهر - والخليفة لا يزال يطوف بأنحاء كنيسة القيامة وأراد أحد رجاله أن ينشر الحصر للصلاة على أرض الكنيسة ولكن الخليفة منعه قائلا : ان لن يؤدي صلاته هناك ، ثم أضاف قائلا : لو صليت هنا لأخذ المسلمون الكنيسة من بعدي ليحولوها الى مسجد . وخرج عمر من الكنيسة حيث صلى خارج أسوارها . وما زال هناك مسجد صغير يقوم أمام الكنيسة في المكان الذي صلى فيه عمر . وتحتل القدس مكانة مقدسة عند المسلمين ، وكان النبي قد جعل منها أولى القبلتين كما أنه أسرى به من مكان الصخرة الى السماء في ليلة المعراج . ويبدو أن عمر بن الخطاب قد سلك سلوكا فيه الكثير من التواضع والعطف مع أهل المدينة المقدسة (١) ..

(١) حاول المؤلف تشويه الصورة الرائعة التي تثير الى عدل العرب وتسامحهم فأجرى بعض التحريف في الرواية واستعمل كلمة «ادعاء» الروايات ، مع أن ما فعله عمر كان مثالا إنسانيا رائعا من أمثلة التسامح الديني ، أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي كما وردت في كتب التاريخ الاسلامي : حان وقت الصلاة وعمر في الكنيسة فقال للبشر (البطريك) أريد الصلاة فقال البشرك صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا . فلما قضى صلاته قال للبشرك : لو صليت داخل الكنيسة أدخلها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر بن الخطاب . وكتب لهم ان لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعا أبني فيه مسجدا فقال : على الصخرة التي كلم الله يعقوب عليها فوجد عليها رما كثيرا فشرع في إزالته وتناولها بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ولا ريبه في أن هذا الموقف الباهر الذي عامل به المسلمون المنتصرون مغلوبهم من أهل القدس يمكن أن يقارن بما أصاب أهل القدس حينما فتحها الصليبيون في القرون الوسطى من بلاء وما لحق بالمساجد الاسلامية وفي مقدمتها المسجد الأقصى من هوان اذ ربط فيه ..

وأعد الخليفة أثناء هذه الزيادة ترتيباته لإدارة المناطق التي تم احتلالها كما قسمها أيضا إلى عدة مناطق عسكرية ، وفي ربيع عام ٦٣٨ عاد الحاكم العربي البسيط فاستقل جواده متجها إلى الصحراء لتصل به إلى المدينة .



سبق لي أن ذكرت أن جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة كان يقود مقدمة الروم في معركة اليرموك الأخيرة والحاسمة ، وكان هذا العربي معترزا بمكانته وأمارته فشق عليه أن يدعن لهؤلاء الغزاة البدو المهلهلي الثياب ، ولكنه بعد هزيمة الروم وتدمير جيشهم في اليرموك راح يعقد الصلح مع المسلمين ، ويعتني بالسلام وراح يقصد المدينة لزيارة الخليفة ، وبينما كان يطوف بالبيت في حشد من الناس داس اعرابي من مزينة على طرف ثوبه ، فلطم جبلة وجهه وأطار عينه ، وشكا الاعرابي إلى عمر بن الخطاب فاستدعى جبلة إلى مجلسه وأمر عمر الاعرابي بالاعتصام منه ، طبقا للشرع الاسلامي الذي يقضي بالقصاص . واستشاط جبلة غيظا ومضى مرتدا بخيله ورجله إلى بلاده حيث لحق بهتزل بعد ذلك وراء جبال طوروس ومعه آلاف من أهله ورجاله . وكان لبنى غسان منزلة مبعجلة عند العرب منذ عدة قرون ولذا فقد وجد هناك من انتقد تصرف عمر بن الخطاب وصرامته . وتغلبت نصيحة المستشارين فأوفد عمر الرسل إلى جبلة لتعويته للعودة إلى المدينة . وهناك رواية أخرى تقول ان جبلة بعد أن مضى إلى بلاد الروم شعر بالحنين إلى وطنه وعشيرته فأوفد الرسل إلى عمر ينشد عفوهم وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الاتفاق لم يتم ، وحرمت الامبراطورية الاسلامية من اشستراك أسرة ظلت لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن تعتبر من أمجد الأسر العربية وأعرقها (١) .

ونقل هنا بعض الأبيات الشعرية التي نسبت إلى جبلة بن الأيهم

« الصليبيون خيولهم ، وكذلك بما أصاب أهل فلسطين بعد الغزو البريطاني لها في الحرب العالمية الأولى إذ سلمها الاستعمار الإنجليزي إلى اليهود بعد أن عملوا على إجلاء أهلها العرب عنها .

(١) لم تحرم الأمة العربية من شيء بقرار جبلة وقومه وارتدادهم إذ أن ردتهم هذه كانت خيانة قومية قبل أن تكون ردة دينية . ولعل الأمة العربية بخلاصها من هؤلاء قد طهرت صفوفها من الخيانة استعدادا للمعارك المنتظرة ، وهو كسب للقضية العربية ولا خسارة كما يحاول المؤلف أن يقول ...

(العرب)

وقد قالها وهو في ديار الفسرية في بلاد الروم يعلن فيها حنينه الى بلاده ...

تنصرت الاشراف من عار لظمة وماكان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لججاج ونخوة وضعت بها العين الصحيحة بالعمور
فيا ليت امى لم تلدنى وليتنى رجعت الى القول الذى قاله عمر
وياليتنى ارعى المخاض بدمعة وكنت اثرا فى ربيعة او مضر
وياليتنى بالشام او فى معيشه اجالس قومي ذاهب السمع والبصر (١)

ولقد وقعت معركة اليرموك الكبرى والحاسمة فى يوليو (تموز) عام ٦٣٦ ، ومن واجب القارئ ألا يخلط بينها وبين استيلاء العرب على مواقع اليرموك الدفاعية قبل نحو من عام أى فى سبتمبر عام ٦٣٤ بعد معركة أجنادين ، ولارىب فى أن هذا الخلط بين العمليتين الحربيتين على نهر اليرموك هو الذى حال بين الكثيرين من المؤرخين الاوربيين وبين فهم الفتوحات العربية . وفى وسعنا ، وهذا هو الافضل ، أن نطلق على العملية الاولى فى عام ٦٣٤ اسم معركة اليرموك الاولى وعلى الثانية فى عام ٦٣٦ اسم معركة اليرموك الثانية .

واحتسملت القدس فى شتاء ٦٣٧ - ٦٣٨ . ولم تصمد الا قيسارية فى مقاومتها بمينائها ومدينتها متلقية المؤن من الاسطول البيزنطى مما جعلها قادرة على المقاومة حتى عام ٦٤٠ . وفى هذه السنة بالذات تم احتلال سوريا وفلسطين بكاملهما وأصبح احتلالا ثابتا لا يتعرض لاية هزة .

(١) اشارة الى حسان بن ثابت الشاعر الانصارى المعروف وكان جبلة قد سأل بعض قادميه منه ف قيل له انه ذاهب السمع والبصر . (العرب)

تواريخ بارزة

- معركة اليرموك ٢٠ من أغسطس ٦٣٦
البطريق صفرونيوس يعرض
استسلام القدس للخليفة .
عمر بن الخطاب يزور القدس يناير ٦٣٨ (كانون الثاني)

شخصيات مشهورة

- ثيودوروس (تودز) القائد الاعلى للروم قتل في معركة اليرموك
شنس
صفرونيوس
جبله بن الایهم
قائد الارمن في جيش تودز
البطريق اليوناني في القدس
آخر ملوك الفساسنة .

القادسية والمدائن

((يا ايها الذين آمنوا ، اذا لقيتم الذين كفروا
نزحفا فلا تولوهم الاذياد)) ومن يولهم يومئذ دبره ،
ولا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب
من الله وماواه جهنم وبئس المصير » *

القرآن الكريم - سورة الأنفال

« ان اجتماع العصبيية القبلية الى الحافظ
الديني جعل الحماس طافيا »

• مترجمة الى الانجليزية عن ابن خلدون •

((وتطلبون اعداءكم فيسقطون امامكم بالسيف
تفترد الخمسة منكم مئة والمئة منكم تفرد ربوة
ونسقط اعداؤكم امامكم بالسيف)) *

سفر الاحبار - الفصل ٢٦ - ٧

تركنا المسلمين عند نهاية الفصل الثامن أى فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٢٥ وقد عادوا الى السيطرة المطلقة على الحوض الأسفل للفرات اثر انتصار المتنجى الرائع فى معركة ألبوب ١٠٠ وقد استعادوا الحيرة وأخذوا يقيمون على المنطقة التى بين دجلة والفرات حتى ارباض المدائن عاصمة الفرس ، ولكن المثنى كان يحتضر الآن متأثرا من جراحه ، وكانت الجيوش العربية فى حاجة الى قائد يسوس أمورها .

ولم يشعر رستم القائد العام عند يزجرجد باليأس ولم يدب القنوط الى قواده ٥ ومن المحتمل أن تكون القوة التى اشتبك العرب معها فى البوب طليعة قذف بها الى الامام على حين كان يجرى جمع الجيش الرئيسى وتنظيمه ، وبدأت النجدات تترى على المدائن ، والتف النبلاء حول راية ملكهم وعادت الحماسة فديت فى صدورهم ، وسرعان ما عادت قوات الفرس الى التقدم واضطر العرب الى الخروج ثانية من سهول السواد الخصبة وعبور الفرات عائدين الى الصحراء متخليين من الحيرة والانباء وفتوحهم الاخرى .

وبعث المثنى وهو على فراش الموت بكتابه الى عمر يناشده فيه الغوث والمدد . ولم يتوان الخليفة عن تلبية النداء ومواجهة الحسالة الطارئة ، فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل يستحثهم على ارسال النجدات الى المدينة ، وسرعان ما كان جيش جديد فى طريق التشكيل فى العاصمة ، وأعلن الخليفة وسط الجموع الحاشدة اعتزامه قيادة الجيش بنفسه . ولكنه سرعان ما سمح لكبار مستشاريه بأن يقنعوه بالعدول (١) بعد أن أوصوا بقيادة الجيش لسعد بن أبى وقاص،

(١) هناك تحريف من المؤلف للرواية العربية : روى الطبرى انه لما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار فمسك به ولا يدعى الناس مايريد : يسير أم يقيم ؟ وكانوا اذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو عبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في اشارة عمر رديفا ، ونادى عمر الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس عليه فآخبرهم الخبر وانتظر ما يقولونه فقالت العامة سر وسر بنا ملك ، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم في وقت فقال ١٠٠ استمدوا وأعدوا فأتى سائر الا أن يجرى رأى امثل مع هذا ثم بعث الى أهل الراى فاجتمع اليه وجوه الصحابة واعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على ان يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود . فان كان مايرجو من الفتح ، =

وكان عمر هو الذى اختار وحده أبا عبيد السعوى الطالع لقيادة الجيش السابق ، أما الآن فقد سمح لمستشاريه بأن يتولوا هم الاختيار . وكان سعد من أقارب النبی ومن أوائل صحابته والمؤمنين به . وقد ذاع صيته في شبابه بأنه خير من يرمى القوس ، كما اشتهر بأنه أول من سفك دما في سبيل الدعوة الإسلامية ، وكان قصير القامة بدينها ، ذا رأس ضخم ، وشعر جعد . وقد عرف بأنه بطل من أبطال الحروب والقراع . وكان قد بلغ الأربعين من عمره عندما اختير قائدا عاما لجبهة الفرس ، ولم يكن في وسع أى من شيوخ القبائل ورؤسائها أن يحتج على قيادته نظرا لقرباته من رسول الله ولاته من محاربى بدر الأوائل ، ومع ذلك فقد حذره عمر - كما قيل - من الفرور ، إذ أن قريشا كانت قد تحولت بسرعة الى منزلة الطبقة الأرستقراطية المتكبرة في الإمبراطورية الجديدة ، وراح يقول لسعد : ان الله ينظر الى الناس بأعمالهم لا بأحسابهم وأنهم جميعا عيال الله ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وخرج سعد من المدينة في الايام الاخيرة من خريف عام ٦٣٦ على رأس نحو من أربعة آلاف رجل ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن ، وقد اصطحب كثيرون من أبناء القبائل نساءهم وأطفالهم ومواسيهم . وظل هم يوالى ارسال كل من يفد اليه من المتطوعين وراهم وهي عملية كانت تتطلب منه الكثير من النقاش والاقناع ، إذ أن الغالبية كانت لاتزال تصر على الذهاب الى سورية لا الى العراق .

وضرب سعد خيامه في شتاء عام ٦٣٦ - ٦٣٧ عند بئر في نجد يسمى الثعلبية لتتوافد اليه جموع القبائل المحلية ، وتنضم الى جيشه وكان رفع الحظر عن القبائل المرتدة والسماح لها بالقتال مع المسلمين قد

= والا عاد رجلا ، وندب جندا آخر ، فنادى عمر الصلاة جامعة ، وبعث الى على ، وكان قد خلفه على المدينة ، والى طلحة ، وكان على مقدمته ، ولما تكامل جمعهم ، قال : ان الله قد جمع على الاسلام أهله ، فآلف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون فيما بينهم ، لا يخلو منه شيء ، أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ، وبين ذوى الراى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ، ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه بعا لهم . أيهد الناس ، انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الراى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم ، وأبعث رجلا . وقد حضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) . ثم أجال معهم الراى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم وافق الراى أخيرا على تولية القائد العظيم ، سعد بن أبى وقاص الزهري القرظي . (العرب)

أدى الى زيادة ضخمة في عدد المتطوعين . وسرعان ما انضم اليه نحو من أربعة آلاف رجل من بنى تميم . حتى طليحة مدعى النبوة فتح الآن صفحة جديدة في تاريخه ، وسارع الى الانضمام الى جيوش المسلمين على رأس ثلاثة آلاف رجل من قبيلته بنى أسد .

ولحق بالجيش زعيم آخر من زعماء الردة هو الأشعث بن قيس شيخ كندة وصهر أبى بكر على رأس جيش لجب من محاربى حضرموت ، وقدم الى المدينة عمر بن معد يكرب على رأس جماعته من زبيد في اليمن واستقبله الخليفة استقبالا حسنا ومنحه مع غيره من شيوخ القبائل من ذوى الأهمية ، مبلغ ألفى درهم . ولم يكن من السهل ارضاء عمرو هذا فقد ذاع صيته ، بأنه أكول نهم ، فضرب على جنب بطئة الأيمن وقال بصوت عال « ألف هنا » ثم عاد فضرب جنبه الأيسر وقال : « ألف لهننا » ثم أشار الى أوسط بطنه يقول : « وماذا يبقى لهننا » فضحك الخليفة وأعطاه خمسمائة أخرى .

وما زالت عادة الهبات النقدية والكساوى لرؤساء القبائل متبعة في المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا وقد اضطرت ابان عملى مع البدو الى مراعاتها ، ولما كنت أعرف آننى مهما دفعت ، فان الشيخ الذى أقدم اليه الهدية سيطلب المزيد ، كنت أقدم اليه أولا ثلثى المبلغ الذى جددته له . وكان البدو يطلقون على الدفعة الاضافية الاخيرة اسم اللحيقة ، «تصغير اللحيقة» :

وسار سعد من الثعلبية فلقية معن بن حارثة ، شقيق المثنى عند العديب ، وكان أخوه قد توفى . (١) وكان يحمل راية المثنى وآخر رسالة من القائد المتوفى الى القائد الجديد ، ينصحه فيها بأن يحارب البدو فى الصحراء ، لأنه سيئ تنصر فيها ، اما اذا قدر له أن يهزم فسيجد الصحراء الودودة المعروفة لديه وراء ظهره ، وشيعجز الفرس عن اللحاق به فيها فينظم جيشه ويعاود الكرة ثانية . هذه هى خلاصة الخطط السوقية العربية فى العراق وسورية وهى الخطط التى أهملها أبو عبيد إهمالا مفرجا فى معركة الجسر .

(١) يقول البلاذرى : ومبار سعد الى العراق فأقام بالثعلبية ثلاثة أشهر حتى تلاحق به الناس . ثم قدم العديب فى سنة خمس عشرة . وكان المثنى بن حارثة مريضا فأفسار عليه بأن يحارب المدو بين القادسية والعديب . ثم اشتد وجعه فحمل الى قومه فمات فيهم ، وتزوج سعد امراته .

وكان سعد مصمما على ألا يزج بجيشه قبل الأوان في معركة قد تكون حاسمة ، وظلت القوات والقبائل العاملة تحت امرته موزعة أكثر من ثلاثة أشهر على منطقة فسيحة في الصحراء ، تبلغ مساحتها نحو من مائتي ميل مربع . ولما كان الكثيرون منهم معهم عائلاتهم وقطعان مواشيهم كان من الصعب حشدهم في منطقة أضيق . يضاف الى هذا ان تعذر الحصول على العلف لمثل هذا العدد الكبير من الحيوانات جعل من الأفضل ضمان ثلاثة أشهر من المرعى الصحراوي الهادئ . لتقوية الجياد والابل . وجعلها قادرة على خوض المعركة المنتظرة .

ولما كان الطقس شتاء كان الماء متوافرا في الصحراء للجميع . وكان نحو من ثمانين ميلا تفصل بين الاطراف الشمالية للمنطقة التي عسكر فيها جيش سعد وبين الفرات ، وهي ارض صحراوية خالية من الماء تؤلف مواقع (شراف وسلمان وشدهل) قوسا أمامية لها . وهكذا كان من الصعب على الفرس أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة فوق جيادهم لمواجهة العرب في اراضي تدريبهم .

وهكذا توافر الوقت الكافي لسعد لتنظيم جيشه دون أن يخشى التدخل من العدو . وعلى سبيل المائلة ، تمكنت بريطانيا والولايات المتحدة من تدريب جيوشهما في انجلترا لعملية الغزو ، معتمدين على حماية القناة الانجليزية (المانش) . وهكذا نجد مرة ثانية المقارنة مائلة أمامنا بين الصحراء والقوات البحرية .

والمؤرخون الذين ندين لهم بكل ما يبقى من قصة الفتوح العربية انما هم من أبناء المدن البعيدين عن حياة البدو والصحاري والمعارك . ولهذا لم يحاول أي منهم أن يصف لنا طريقة تدريب العرب أو أساليب التعبئة التي اتبعتها هذه الجيوش الفاتحة . ولكنهم ذكروا لنا ولأول مرة أن سعد ابن أبي وقاص . . . كان مشغولا في هذه الفترة من الراحة في تنظيم القوات العربية . ويقال انه قسمها الى جماعات في عشرات ، على كل عشرة منها غراف أو عريف . وكانت قد انقضت على العرب - وقتذاك - ست سنوات ، وهم في حالة حرب مستمرة مع الجنود المدربين من جيوش الروم والفرس . ومن المعقول كل العقل ، أن نفترض أنهم اكتسبوا بعض الآراء . . عن الفن الحربي . . التي تعتبر مقدمة بالنسبة الى ما كان يعرفه الجفاة من أهل البادية .

ويبدو أن جميع الجيوش في العالم في تلك الآونة كانت تقسم الى

مقدمات ومجنبات وساقاة ، وإلى طلائع ورجل وركبان ، وقد اقتبس العرب هذا التنظيم وطبقوه في جيوشهم . وكانت القوات التي يعهد اليها وإلى قياداتها القيام بهذه الواجبات تحتفظ عادة بالمراكز التي تنتدب لها طيلة الحملة كلها . ويبدو أن سعدا قد عين نائبا له ؛ ثم عين أمراء الثعلبية على المقدمة والأجنحة والمؤخرة ؛ وغيرها من الوحدات بالإضافة إلى أمراء الرايات وأمراء الأعشار ثم القواد من رؤوس القبائل . وليس نمة من ذكر خاص لتعيينات بين أمراء الوحدات وأمراء الأعشار إلا إذا اعتبرنا أصحاب الرايات في الواقع من أمراء السرايا أو الافواج .

ويبدو أن حجم السرية في الجيش العربي كان مطاها مرنا للغاية ، إذ أن هذه الوحدات ظلت تحتفظ بطابعها القبلي . فالوحدة تؤلف من القبيلة الواحدة ، ولما كنا قد ألفنا في القرنين الماضيين سماع ما تنزله وحدات نظامية من الجيوش الحديثة من هزائم بالقوات القبلية البدائية ، فإننا نميل إلى اعتبار التنظيم القبلي مفتقرا إلى الكفاية من وجهة النظر العسكرية ولكنني أرى أن الافتقار إلى الأسلحة الحديثة عند هذه القبائل ، هو السبب في الهزائم المذكورة ، لا التنظيم القبلي . أما عندما كان الرمح والسيوف والقس هي الأسلحة الرئيسية الموجودة فقد كان في وسع القبائل أن تسليح بها تماما كالجيوش النظامية يضاف إلى هذا أن القبيلة تمتاز بدافع الغريزة « بروح الجماعة » التي تحاول الجيوش الحديثة تل ما وسعها الجهد خلقها في جنودها . وطالما كان النظام القبلي قائما فإن أبناء القبائل كانوا يحاربون حتما مع أبناء عموماتهم بشكل أفضل مما تحارب به الجماعات المختلطة ، المؤلفة من رجال يمتون إلى قبائل أخرى تعتبر بعضها البعض غريبة عنها .

ويقوم الدليل على وجود هذه المزاي عند جميع القبائل ، لا العربية وحدها ، من الحقيقة الواقعة ، وهي أن جيوشا صغيرة من القوط والفاندال وغيرهما . . من البرابرة . . كانت كافية للإطاحة بالامبراطورية الرومانية . (١) وكان الافتقار إلى الانضباط عند القبائل العربية سببا

(١) يقال أن عدد القوط الشرقيين الذين احتلوا إيطاليا في القرن الخامس للميلاد لم يزد على العشرين ألفا من المحاربين في حين كان سكان إيطاليا يمدون بين خمسة وستة ملايين ، وكان عدد القوط الغربيين الذين اجتاحتهم اسبانيا ، وكانت ولاية رومانية ، لم يزد على هذا الرقم ، واستولى جنيسريك ملك الفاندال على أفريقية الشمالية بجيش لا يزيد على الخمسة عشر ألفا وكلها أرقام تتشابه مع أرقام الجيوش العربية . راجع كتاب محمد وشارلمان لهنرى بيرين .

(المؤلف)

دائما من أسباب ضعفها الحربى • ولكن الدين الاسلامى الحديث كان •••
فى الفترة التى نكتب تاريخها الآن ••• قد سسد هذا النقص وأمن
الانضباط فى جيوش المسلمين ؛ حيث جعل طاعة أولى الأمر واجبا
دينيا •

ومن المحتمل أن يكون سعد تحرك الى الشمال من أشرف باتجاه
العذيب القريب من الفرات • والتى تبعد بضعة أميال عن خان الرهبة
فى ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٦ م أو يناير (كانون الثانى) عام ٦٣٧ م
وأصدر أمره الى جميع القبائل وبينها بالطبع تلك التى كانت تقاتل تحت
امرة المثنى ، على أن تحتشد فى المنطقة نفسها •

وكان جيش المثنى فى معركة البويب يعد نحو من اثنى عشر ألفا
نصفهم من قبيلته بنى بكر • ويعتقد أن سعد بن أبى وقاص حشد
العدد نفسه تقريبا عندما تحرك من الثعلبية الى شراف ؛ واذا ماجمعنا اليه
الوحدات التى ظلت تصل باستمرار تبين لنا أن الجيش العربى الذى
احتشد فى العذيب كان يعد نحو من ثلاثين ألف مقاتل ، واذا ماقدرونا هذا
الجيش بجيش المثنى المؤلف من البدو فقط ، تبين لنا أنه - أى جيش
سعد - كان يضم نحو من ١٤٠٠ من صحابة الرسول وبينهم تسعة
وتسعون من محاربى بدر •

وكان العرب قد حققوا نصرهم الضخم فى معركة اليرموك فى سورية
فى شهر أغسطس عام ٦٤٦ • ولم تكذ أنباء النصر تصل الى الخليفة حتى
أصدر أمره الى أبى عبيدة بأن يعيد الى العراق القوة التى كان خالد قد
سار بها قبل نحو من عامين من جبهة الفرس الى سورية • ولكن خالد لم
يرافق قوته فى طريق العودة ؛ وانما قادها وهى تضم نحو من ستة آلاف
جندي ••• قيس بن المكشوح أحد قادة الردة السابقين فى اليمن ؛ ومعه
القعقاع المتهور الذى تسلىق مع خالد أسوار مدينة دمشق يوم فتحها ؛
لكن هذه القوة لم تكن قد وصلت بعد من سورية عندما وصل سعد
على رأس جيشه الى العذيب •



ولم يكن الفرس فى غضون ذلك مخلصين الى الراحة والكسل ؛
وكانوا - تلبية لأمر يزدجرد وحثه وحيوته - قد حشدوا جيشا ضخما
بقيادة رستم القائد المتمرس الذى خبر الحرب فى عدة حملات وقد حمل
الفرس لهذه المعركة راية الاسرة الساسانية المألوفة للتدليل على أهميتها ؛

1. *...the ...*
 2. *...the ...*
 3. *...the ...*

انسجام با نزاع
۶۳۸

ذات

احتمول
المسألة
٦٣٥

عبور و جابجایی

رسول الخيرات
سم جوزيا

عين التمر

الحبره

القواعد

سراف

مجلس المدینہ منورہ

سلف

مفتی
محمد رفیع

مطهر الكونين

وَألف نحو من ثلاثة وثلاثين فيلا « الفيلق المدرع الذى ثفر أن يقود الهجوم » وقدر المؤرخون العرب جيش الفرس هذا بما يتردد بين الستين ألفا والمائة والعشرين ألفا وربما لا يقبل المرء هذه الأرقام وإن كان من المحتمل أن يكون جيش رستم أكثر عددا من جيش سعد (١) .

ومن المحتمل أن يكون رستم قد تحرك فى ديسمبر (كانون الاول) عام ٦٣٦ من المدائن باتجاه الجنوب ليرابط فى ضواحي بابل . وكانت خطط القائد العجوز تختلف اختلافا بينا وجنريا عن خطط الملك الشاب . فلقد كان رستم حريصا على تجنب الدخول فى معركة فاصلة وكانت امبراطورية الفرس فى تلك الايام تمتد بعيدا الى السند فى دولة الباكستان الحديثة ، وتضم كل مانسميه بأفغانستان . ولم يكن العرب قد خدشوا من هذه الامبراطورية الواسعة الا طرفا صغيرا منها ، وكانوا قد جلوا الآن - كل الجلاء - عما خدشوه منها وعادوا الى صحرائهم . وكان يرى أنه اذا ظل الجيش الذى أعده والمسمى باسمه قائما وغير مغلوب فإن العرب لن يستطيعوا عبور الفرات الا فى غزوات صغيرة بقصد الاغارة ، الا اذا أصبحوا على أهبة لحوض معركة أكبر فى المنطقة المزروعة . وهى معركة لابد أن تكون نتيجتها فى مصلحة الفرس .

يضاف الى هذا أن القائد العجوز الماكر ، اعتقد أن الحماس العربى سيفتر يوما ما وإن الخلافات الداخلية قد تفتت وحدتهم . وهكذا تركزت خطة رستم على البقاء على الضفة الشرقية للفرات ، وترقب مايقع من أحداث .

أما يزدجرد الشاب ، فكان يرى رأيا معاكسا تماما لرأى قائده وراح يبحث قائده بشئ من الغرور ونفاد الصبر ، على أن يجرف بجيشه هذه « النفايات » الصحراوية ، من حدود ممتلكاته ، وإن يطاردها الى عقر دارها وسط الصحراء ، ليقترض منها على جرأتها فى ايداء رعايا ملك الملوك . لكن رستم أصر اصرارا عجيبا على رأيه ، ويقال : أنه حاول المثل ، فقضى زهاء أربعة شهور فى زحفه من المدائن حتى الحيرة ، أى فى مسافة لا تعدو السبعين ميلا .

وكان الخليفة فى غضون ذلك ، قد أمر سعدا بأن يبعث بالرسول

(١) محاولة جديدة من المؤلف للتشكيك فى التاريخ العربى ومن لم للتشكيك فى أهمية النصر الراجع الذى حققه العرب فى معركة القادسية العظيمة .

الى يزدرجد ليطلبوا منه اسلامه • وهكذا سافر الى المدائن وقد يضم نحواً من عشرين فارساً عربياً من الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسية وفصاحة القول ، بينهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والأشعث بن قيس ؛ وكلاهما من زعماء الردة السابقين • وعندما مر رجال الوفد بالقاعة الكبرى في طريقهم الى كسرى ، لم تستطع الجموع أن تكبت ضحكاتها الساخرة منهم لرؤيتها ملابسه الخشنه وأسلحتهم البسيطة ، ومظهرهم المفتقر الى الهندام لكن السلوك الاستقلالي الجريء الانوف الذي سلكه هؤلاء العرب الاحرار من أبناء الصحراء أثر تأثيراً عميقاً على أفراد بطانة يزدرجد المترفين الناعمين •

واختار الوفد عند مثوله أمام كسرى ••• النعمان بن مقرن ••• ليكون الناطق باسمه ، وهو من صحابة الرسول من الانصار • وراح النعمان يحدث كسرى بتاريخ ارسال النبي صلى الله عليه وسلم الى العرب لانقاذهم من جاهليتهم ثم دعاه الى الاسلام هو وقومه ، فان أبى فالجزية مع التبعية لحماية المسلمين • أما اذا رفض كلا الأمرين فخسارة العرش أمر حتمي (١) •

ويبدو أن كسرى ثار غضباً من هذه الاقوال ، وله الحق في ذلك ، ورد بأن العرب قوم فقراء ، جفاة ، أنصاف جائعين من الصحراء • وقد ردوا عليه بأنهم كانوا حقاً فقراء والفقير لا يعيب صاحبه ، ولكن الله وعندهم بالثراء والوفرة • ولكن الملك الشاب ، استشاط غضباً من هذا الرد ، وصرخ بهم قائلاً انه لو لم يكن من العار قتل السفراء ، لقتلهم على بكرة أبيهم وطلب بعد ذلك وقراً من تراب ليحمله رئيس الوفد ، مشيراً بذلك الى زرايته بهم ومضى الوفد الاسلامي يحمل كيس التراب ، ليقدموه الى سعد بن أبى وقاص متفائلين به ومستبشرين وقائلين لقائدهم : «أبشرفقد أعطانا كسرى تراب بلاده» (٢) •

(١) و (٢) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف الذي اقتضاه التلخيص من رواية المؤرخين المسلمين • وهانذا انتقل للقارئ الكريم الرواية كاملة :

اختار سعد تنفيذا لامر عمر دعاء بعث بهم الى ملك الفرس عليهم نجار ، ولهم آراء ، ولهم منظر ، وعليهم مهابة • وجاءوا الى المدائن واستأذنوا بالدخول على الملك فآذن لهم ، ومع يزدرجد وزدائه ووجوه أرضه • فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه : سلم ما جاء بهم ، وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا ، أمن أجل أنا حميناكم ونشافلنا عنكم اجترأتم علينا ، فرد النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد ، فذكر تاريخ ارسال الرسول ، وما كان من شأن العرب منه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك : لم أمرنا أن نبدأ بمن يلبنا من الأمم فنذهبهم الى الانصاف ، فنحن نذهبهم الى ديننا =

ولقد وقع حادث طريف مماثل لهذا في يوليو سنة ١٧٩٩ ، عندما

= وهو دين سن الحسى ، وقبح القبيح كله ، فان أبيتم ، فأمر من الشر هو اهون من آخر شر منه الجزاء ، فان أبيتم فاللناجزة ، فان أجتم الى ديننا ، خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا لكم عليه على ان تحكموا بأحكامه . ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم . وان انقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ، ومنعناكم ، والا قتلناكم ، فقال يودجورد : انى لاعلم في الارض أمة كانت اشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكوننا إياكم . لاتفروكم فارس فتطمعون أن تقوموا لهم . فان كان مسدد لحق فلا يفرنكم منا ، وان كان الجهد قد دعاكم لرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكننا عليكم ملكا يرفق بكم ، فسكت القوم فقام المغيرة بن زردة الاسيدى فقال :

أيها الملك ، ان هؤلاء رموس العرب ووجوههم ، وهم اشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جمعه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك ، فجاوبنى لاكون الذى أبلغك ويشهدوا على ذلك : أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجملان والمقارب والحيات ، فترى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ، ولا تلبس الا ما غزلنا من اوبار الابل وأشعار الغنم ، ديننا ان يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض . وان كان أحدا ليدفن ابتسه حبة كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك . فبعت الله الينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير من أرضنا ، وحسبه خير من أحسابنا ، وبئته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرا في الحال التي كان فيها ، أصدقنا وأحطنا ، فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد ، اول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال ، وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا الا كان ، فقلد الله في قلوبنا التصديق له واتباه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . فقال لنا ان ربكم يقول انى انا الله وحدى لا شريك له . كنت اذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك الا وجهى ، وانا خلقت كل شيء ، والى يصير كل شيء ، وان رحمتى أدركنكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لادلکم على السبيل الذى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ، ولاحكم دارى ، دار السلام ، فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الله وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فأمرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقتلوه ، فانا الحكم بينكم ، فمن قبل ادخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر ، ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف أو تسلم فتنبجى نفسك ، فقال كسرى :

استقبلنى بمثل هذا ، فقال : ما استقبلت الا من كلمنى ، ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به ، فقال : لولا ان الرسل لا تقتل ، لتعلمكم ، لا شيء لكم هندى ، ثم قال ايتونى بوتر من تراب ، فاحملوه على اشراف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه انى مرسل اليه رستم ، حتى يدفنكم ، ويدفنه في خندق =

استقبل والى بغداد التركي مبعوثا من سعود بن سعود الوهابى . وكان
الوالى قد أمر ضباطه وجنوده ورجال حرسه بأن يرتدوا بزاتهم العسكرية
للتأثير على الوفد الوهابى ، الذى أثبت بدوره أنه من البداية الجفاة الغلاظ
ولم يتأثر السفير البدوى بأبهة بلاط الوالى ، وجلس على الارض أمام الوالى
موجها اليه خطابا مشحونا بالتحدى والزراية والتعالى (راجع لونكريج -
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) .

وكان العرب قد شرعوا فى غزون ذلك فى الاغارة على المناطق
الزراعية على ضفاف الفرات ، وكانت غايتهم من هذه الغارات الحصول
على المطعم لانفسهم وحيواناتهم . وقد تمكن الخليفة من أن يبعث اليهم ببعض
المواشى ، ليؤمن لهم ولو جزئيا شيئا من اللحم اللازم لهم . لكن هذه
المواشى وصلت نحيلة ، لآخر فيها ، لانها ارتحلت مسافة بعيدة فى قلب
الصحراء ، ولكنه كان عاجزا عن تموينهم بالقمح لحبزههم أو العلف لحيواناتهم .
وكان الفرس الذين يقعون ضحايا هذه الغارات ، يتوجهون صارخين
بالشكوى الى الملك طالبين الحماية لممتلكاتهم ، وهكذا ظلت معنويات العرب
الذين يواصلون هجماتهم فى ارتفاع فى حين هبطت معنويات الفرس الذين
يشهدون بأم عينهم الحراب والدمار يلحقان ببلادهم ، وأصغر يزدجرد
الشاب أخيرا أوامره الى قائده المتأنى بأن يخوض المعركة فورا مع
المسلمين . ولما عجز رستم عن التسوية أو المماطلة ، تقدم بجيشه ورابط
به على ضفاف الفرات فى مواجهة العرب . ويبدو أنه كان لا يزال يأمل فى
تأخير المعركة الحاسمة أو تجنبها فأوفد الى سعد بن أبى وقاص رسولا
يطلب اليه توجيه بعض أصحابه اليه .

وقرر سعد - بعد التشاور مع كبار رجاله - ان ايفاد الوفد يعتبر
دليلا على شيء من الاحترام الذى لا يرغب فيه ، ولذا فقد أرسل اليه
شخصا واحدا ، كان بدويا غجوزا . وعندما وصل البدوى وجد «رستم»
يجلس على سرير كالعرش ، وقد أحاط به قادته ورجال حرسه ؛ وأمامه
تمتد بسط فاخرة من السجاد العجمى النادر . وظل الرسول العربى
يتقدم على متن فرسه الصغيرة المهزولة فوق البسط والسجاد ؛ حتى ترجل

= القادسية وينكل بكم وبه من بعد ، ثم أوردكم بلادكم ، حتى أشغلكم فى انفسكم بأحد
مما نالكم . ثم قال : من أشرقكم ، فقال حاصم بن عمرو : انا . فحملوه وقر التراب على
منقه ، فحملة ... حتى أتى راحلته فحملة عليه ، ثم ساروا به ، فانوا بالتراب سعدا
وبشره بالظفر متفائلين .

(المرب)

عنها أمام رستم ثم خطا على قدميه قاصدا سريره ليجلس معه عليه ؛ فمنعته الأساورة من حرس رستم وأمسكوا بيديه ليحولوا بينه وبين السرير وهتف البدوى قائلا : « أنا لم آتكم الى هنا لينزع سلاحى منى ؛ ولكنكم دعوتمونى اليوم فلم أرغب فى المجيء أما اذا كنتم ترغبون فى أخذ سلاحى ، فسأعود الى قومى » وأمر رستم رجال حرسه بالتراجع عن الرجل ؛ وخطا البدوى العجوز الذى كان يبدو فى حالة من الانشراح الكامل ، يتكئ على رمحہ ؛ وفى كل تكأة خرق يحدثه برأس رمحہ فى السجاد الثمين ، وعندما وصل أمام القائد أعمل رمحہ ثانية فى سجادة أخرى نادرة ، فخرقها ؛ ثم أوقعها على الارض وقال فى معرض الرد على أسئلة رستم : انه يدعو الى عبادة الله وحده ، والايمان بنبية والا فالجزية عن يد صاغرة ؛ والا فالسيف هو الحكم « بيننا وبينكم » . وطلب رستم مهلة لدرس هذه الاقتراحات ونقلها الى كسرى ، ولكن البدوى العجوز رد عليه بأن رسول الله حدد دائما مثل هذه المهلة بالمهادنة لثلاثة أيام فقط . وأوفد سبعة فى اليومين التاليين رسلا منفردين كانوا على ما كان عليه البدوى من كبرياء وتحد وغايتهم كما يبدو اضعاف الروح المعنوية عند الفرس . وكان المغيرة بن شعبه وهو من صحابة النبى من اهل الطائف ، آخر هؤلاء الرسل . فراح يجلس الى جانب رستم على سريره ، مما اثار الرعب فى نفوس أفراد البطانة والقادة .

وأدرك رستم فى النهاية أنه فى وسعه أن يكسب وقتا آخر وعاد الجدل القديم الى الظهور . لاقرار من سيعبر النهر ، العرب أم الفرس . وكان الفرس يودون لو أن العرب هم العابرون ليحاربوا فى المنطقة المزروعة ، لحي حين كان العرب يرغبون فى أن يجروا الفرس الى الضفة الغربية ليقاتلوا فى الصحراء وكان من الحتمى أن يباد أى جيش يعبر النهر عن آخره ، اذا شاء له حظه أن يخسر المعركة ، وهى تجربة تكررت مرتين ، أولاهما فى معركة الجسر والاخرى فى معركة البويب .

وكان سعد قد رتب جيشه فى سهل القادسية الذى يقوم على الغالب بين بلدتي النجف وأبى صخير الحديثين . وكانت ميعنته تركز الى المستنقع الذى يمتد الى الفرات . أما الصحراء فتقوم فى مؤخرته والنهر أمامه . ووجد رستم نفسه أخيرا مرغما على اطاعة أمر كسرى ؛ وتخوض المعركة مع العرب . وبدأ الجيش الفارضى فى عبور النهر ؛ (يسميه العرب العتيق) .

وكان الفرات يتفرع فى تلك الايام ، كما يتفرع اليوم الى عدة

نهرات متفرقة ، وكان العرب يطلقون على النهر الذى يفصل بين الجيشين اسم الفرات العتيق ، ولعله كان قناة فرعية ، لان المجرى الرئيسى للنهر كان قد شق له طريقا جديدة الى الشرق ويبدو أن مجرى النهر لم يكن عميقا هنا ، اذ يقول المؤرخون العرب ، ان رستم لم يعبر بجنوده الجسر ، وانما بنى سدا عبروا عليه ؛ وعبا رستم جيشه بعد عبوره فى مواجهة العرب .

وكان سعد بن أبى وقاص قد عثر على مقربة من ميدان المعركة على قلعة صغيرة أو بناء . . جعل منه مسكنا له . وعندما اصطف المسلمون للقتال ، لم يكن سعد معهم ، اذ كان مريضا يشكو من بثور أو من عرق النساء ، فكان مقيما بأعلى البناء ويشرف على الناس من أريكة يستلقى عليها موجها القتال . ويبدو أنه كان فى وسعه - من هذا المكان المرتفع - أن يشهد كل ما يحيط بالميدان ، وأن يوجه حركات جيشه ؛ ولكن غيابه عن المعركة والاشتراك فيها شخصا أثار موجة من الاستياء عند جنوده ، ولقد سبق لنا أن رأينا أن العرب فى الحرب ؛ كانوا يتوقعون من قائدهم قيادة الهجوم بنفسه ؛ وتحدى خصمه قائد جيش الأعداء للمبارزة وحمل راية الجيش بيديه . ومن المعروف ان سعدا كان من شجعان العرب وفرسانهم وقد خاض معارك عدة سابقة ، ولذا فلا يمكن أن يعزى تقيبه عن القتال الى الجبن . لكن بعض الناس أخذوا يتغامزون ويقال : انه كان قد بنى فى أشهر الانتظار الطويلة ، بأرملة المثنى بن حارثة . ويقال: ان هذه السيدة ، أخذت تهتف فى أثناء المعركة بقولها : « وامثنياه ولا مثنى للخيل » ، فطمعها سعد على وجهها ، فقالت : « يا سعد أغيرة ونجينا ؟ » .

ولم نسمع أيا من المؤرخين العرب ، يقول : « ان سعدا أقام عامدا متعمدا على أعلى البناء ، وراء جبهة القتال ، لتكون فرصة أفضل فى الاشراف على المعركة والسيطرة عليها . ويبدو أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعتقدون ، شأنهم فى ذلك شأن جند المسلمين ابان المعركة ، ان واجب القائد محصور فى قيادة الهجوم بنفسه والاندفاع فى صفوف العدو . ولو صح ما قاله المؤرخون من أن سعدا كان مريضا حقا فما الذى دعا زوجته سلمى ، وهى أرملة المثنى ، الى تعييره بالجبن بالنسبة الى زوجها الاول ؟ ولقد روى لنا المؤرخون أيضا ، ان سعدا كان يرمى بالرقاع من مكانه المرتفع وفيها أوامره ونواهيهِ الى مساعديه من قادة الجيش . ومن هذا أرى أن هناك ما يدفعنى الى النظر اليه ، نظرتى الى قائد عسكري جدى ، يقاتل ليفوز ، ولا تثنيه عن هدفه هذا أفكار خيالية رومانطيقية تزين له

المبارزة الفنية لا براز شجاعته • ولا يفكر المدافعون عنه بايجاد المبرر الصحيح لسلوكه الذى بدا شاذا لقومه آن ذاك ولقد قال الشاعر العربى •

وقاتلت حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فرحنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس منهن آيم

وعندما انتشر الفرس فى السهل أمام العرب أمر سعد بتلاوة سورة الانفال من القرآن الكريم على جميع الفصائل البدوية ، وهى السورة التى رددت انتصار المسلمين فى بدر ؛ والعبر المستخلصة من هذا النصر ، اذ جاء فيها :

« يا ايها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلّبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلّبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » •

ووقف المسلمون خاشعين وهم يستمعون الى هذه الآيات المثيرة تتلى عليهم ؛ فانتعشت نفوسهم واشرقت وجوههم بنور الايمان • وعندما استثارت هذه الآيات حماسهم وشجاعتهم ، أدركوا أن بلاءهم الحسنى سيوصلهم الى الشهادة فى سبيل الله ؛ مما يفتح أمامهم أبواب الفردوس على الفور بكل ما فيها من متع ومباهج • ولكن المسلمين جميعا ؛ ولاسيما البدو منهم ، لم يكونوا يحاربون لدوافع دينية محضة فحسب ؛ اذ أن بعضهم أخذ يهتف هتافات الجاهلية ؛ ويتفاخر بأسماء أسلافه وبطولاتهم ، منشدا ما قيل فيهم من قصيد الحماسة والحرب •

ويبدو أن القتال بدأ بتقدم الفرس الى الامام ، فخرج اليهم بعض أبطال المسلمين يطلبون البراز • وما لبث وطيس القتال أن اشتد وحمى ، وخرجت الفيلة من صفوف الفرس ، تهز خراطيمها الهائلة أمامها ، وقد امتلأت الهودج على ظهورها بالمحاربين وبالرايات يحملونها ويلوحون بها • وكاد بنو بجيلة أن يؤكلوا عندما فرت عنهم خيولهم نفارا هلعا من الفيلة ، فاعانهم سعد ببنى أسد ، وعلى رأسهم طليحة الأسدى ، أحد أعيان النبوة فى عهد الردة فصمدوا وصمدت معهم بجيلة وان منيت أسد بخسائر فادحة • وركز عاصم شنيخ بنى تميم ، هجومه - مع نفر اختارهم من رجاله - على الفيلة • وأخذ رماة الغيل يرمون ركبان الفيلة بسهامهم فى حين حاول الفرسان الوصول الى بطونها لقطع حبال الهودج عنها ، واسقاطها على الأرض ، وعندما تعرت الفيلة من ركبائها عادت الى مواقعها • وتمكن العرب من اعادة تنظيم صفوفهم وصد كل ما قام به العدو من هجمات فى ذلك اليوم • ولم يزل القتال مستمرا الى أن جن الدجى ، ومضى جزء من

الليل • ولم يحقق المسلمون في هذا اليوم أكثر من مجرد الاحتفاظ بمواقعهم ، ولذا فقد منوا بخيبة أمل مرة من نتائج ذلك اليوم • ولعل من سوء الحظ ، أن سعد بن أبي وقاص كان غائبا عن الميدان في ذلك اليوم لان القيادة الشخصية الباسلة ، توحى ولا شك بالعزم والثبات للجنود •

وقضى الفريقان المتحاربان صبيحة اليوم الثاني من المعركة في نقل القتلى والجرحى من الميدان ، وعادا فالتحما عند الظهر • وكان وضع العرب في هذا اليوم أحسن من وضعهم في سابقه ، وذلك لعدم ظهور الفيلة في خطوط الفرس ولعل غيابها يعود الى ما لحق بقادتها وبمعداتها من ويل في اليوم الاول •

ولعل القارىء يذكر أن عمر بن الخطاب ، كان قد بعث بأمره الى سورية بعد معركة اليرموك ، بأن يتوجه الى جبهة الفرس ، الجيش الذى كان خالد قد قاده منها الى الشام لحرب الروم قبل عامين • وقد ظهرت طلائع هذا الجيش عند القادسية بعد ظهر اليوم الثانى من المعركة • ويبدو أن الرسل كانت قد قابلتهم فى الطريق واستعجلت وصولهم الى ميدان المعركة الكبرى • وكان القعقاع بن عمرو ، الفارس المغوار على رأس هذه الطلائع • ويقال انه بالرغم مما لحق به من أعياء فى سيره السريع تبين الصحراء ••• تمكن من أن يكر ثلاثين كرة على العدو فى اليوم الذى وصل فيه • وراح أحد الفرسان من بنى تميم ، ممن طلبوا الشهادة فى ذلك اليوم ، يهاجم جيش الفرس بمفرده ، مستهدفا قاتله رستم • وبالرغم من تمكنه من التوغل مسافة بعيدة فى صفوف العدو • فانه سقط أخيرا مضرجا بدمائه من الجراح الكثيرة التى أصيب بها قبل الوصول الى رستم • وكان بعض العرب قد جاءوا بالابل فى ذلك اليوم وجللوهما وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب ، أثار الرعب فى نفوس فرسان العدو ولم يزل القتال بين الفريقين شديدا الى أن انقضى من الليل شطر كبير • ولكنهما ما لبثا أن توقفا عنه فى النهاية • وكانت نتيجة اليوم الثانى فى مصلحة العرب أكثر منها فى مصلحة الفرس ؟ وان كان هؤلاء قد ظلوا يقاتلون باصرار وعناد • وهكذا لم تكن المعركة حاسمة فى يومها الثانى وقضى العرب ما تبقى من ليلتهم فى أهازيج ورقص وغناء ينشدون أشعار الحماسة ؟ ويستعيدون ذكر أمجاد أسلافهم وبطولاتهم •

ومن الطريف أن نذكر هنا هذه الخصيصة العربية التى تختلف كل الاختلاف عن سلوك الجنود البريطانيين فى الظروف الماثلة • فالجنود

العرب لا يخلدون - قبل المعركة ، أو في فترات الاستراحة - الى الراحة ، وانما يستثيرون حماسهم بالشعر والغناء ، وتكون حماسهم هائلة الى الحد الذي لا يستطيعون الاكل فيه ، كما أنهم يعتمدون عند الازمات الطارئة على أعصابهم وعواطفهم ، أما الجنود البريطانيون ، فيحتسون الشاي في مثل هذه الاوقات ثم يستلقون على أسرتهن يسبون ويشتمون . ناشدين النوم والراحة . ولكن الفريقين على اختلاف أساليبهما ، يكونان مستعدين كل الاستعداد لخوض القتال في الصباح التالي .

وانقضى الصباح الثالث في اخلاء الميدان من القتلى والجرحى واشتغلت السيدات العربيات وراء خط القتال في دفن الموتى بسرعة ، وفي تخفيف الآلام عن المصابين والجرحين . وعندما أوشكت المعركة أن تبتدىء ، ظهرت في الميدان القوة الرئيسية القادمة من سورية وانضمت الى المعركة . وبالرغم مما لحق بالعرب من انشراح وسرور لوصول هذه النجدة العظيمة ، فانهم سرعان ما اشتد قلقهم من عودة فيلة الفرس الى الظهور ، وصدر أمر سعد الى القعقاع بالاسل لتدبير أمره معها ولجأ هذا الى أسلوب جديد في حرب الفيلة ، يتلخص في استخدام جنود رجال مسلحين بالرماح والحراب . وذلك لان الجياد كانت تأبى الاقتراب منها . وظل القعقاع وزميل آخر له من أهل النجدة من بنى تميم يرقبان أكبر الفيلة متطلعين الى فرصة ينتهزانها ؛ في حين أن أتباعه أخذوا يشتبكون مع حماة الفيل ؛ وهما يزعجان بالقتال الذي يثيرانه حوله . وبضربة سريعة مفاجئة وضع القعقاع رمحه في عين الفيل ففقاها وان زعم بعضهم أن الفيل أمسك به في خرطومه ساعتها وقذف به أرضا . وتمكن العرب برماحهم من أن يفتقوا عيني فيل آخر بالطريقة نفسها فنفض الفيل المصاب رأسه وطرح سائسه ؛ وأخذ يدور الحلبة هلعا جزوعا ، مما أثار الفرع في نفوس بقية الفيلة فولت أدبارها ، مهرولة صارخة . تدوس كل من في طريقها من أصدقاء وأعداء . واستمرت بعد ذلك المعركة بين الجنود قوية صارمة عنيفة ، اذ صمد الفريقان ولم ينفصلا حتى جن الليل . وتوقف القتال .

أجل توقف القتال عندما خيم الظلام على أرض المعركة ، ولكن بعض العرب قرروا استئنافه وشغل العدو طيلة الليل بعد وقفه بلحظات . وأدى هذا الهجوم اللامتوقع الى اشتباك عام ساد الجبهة كلها في الظلام .

حيث تعذر على سعد أروستم السيطرة على القتال وتوجيهه (١) وقد اعتمد العرب آن ذاك كما يعتمدون الآن على قدرتهم على الحرب في الظلام . وهم كثيرا ما يودون تشبيه أنفسهم بالذئاب التي تنام في النهار وتعتسى في الليل . ولا ريب في أن الناس الذين يعيشون نصف حياتهم تحت النجوم ونصفها الآخر في الحيام الممزقة ، لا يمكن الا أن يكونوا قد ألفوا الليل كما يالفون النهار . وعندما ينتقل الناس الى الحياة تحت السقوف ويقلقون على أنفسهم أبواب دورهم ، فإن الليل يغدو غريبا عليهم ، عدوا لهم ، يثير رعبهم وفزعهم . ويبدو ان جيش الفرس كان يتألف من رجال ألف معظمهم الحياة داخل الدور والبيوت .

ونحن لا نشك في أن جيش كسرى كان أحسن تدريباً من جند العرب . فالمعركة الليلية بالنسبة الى الجنود النظاميين الذين ألفوا القتال في صفوف منتظمة متقاربة ، وعلى ضوء ما يتلقونه من أوامر مستمرة من قادتهم ، شيء دقيق متعب ؛ اذ أن الأفراد من الجنود ، يقصدون الاتصال بزملائهم ، وتصبح الوحدات معزولة عن قياداتها . ويصبح كل انسان مسئولاً عن نفسه في مثل هذه الظروف . وتعدو جماعة من المتحمسين «اللامنضبطين» ؛ يصرخون ويضربون بسيوفهم ، ويندفعون برماحهم أقدر على القتال من رجال مترددين ينتظرون الاوامر من قادتهم . ومن هنا لابد أن نقول ان الهجوم الليلي في القادسية ساعد العرب بالقدر الذي ساعدتهم فيه العاصفة الرملية الهوجاء في معركة اليرموك ، وأنا أعرف للبدوى صفة خاصة به لا توجد في غيره وهي استعدادة للمبادرة حتى في أضيق

(١) يختلف رواية المؤلف هنامن الرواية العربية بعض الاختلاف ، وأعتقد أن الاختلاف مقصود ، لظهور العرضية في انتصار العرب ، فلقد روى المؤرخون العرب ان الفريقين لم يفصلا عندما جاء الليل ، حيث خشعت اصوات الناس ، فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهدير الفرسان ، ورأى العرب والمجم أمرا لم يروا مثله ، وما زال القتال مشتدا ، حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا عيونهم ، فسار القمعاق في الناس يقول لهم : « ان الدبرة بعد ساعة لن صبرها ، فاصبروا ساعة . فما قام قائم الظهرة ، حتى انهزم جناح الفرس ، وانفجر القلب ، وكانت همة أصحاب النجدة ، موجهة الى مرادق رستم .

يشين الفرق بين روايتي التاريخ العربي والمؤلف . وتظهر الاولى ان القمعاق وهو من قادة العرب ، أدرك أن الفرصة أصبحت مواتية لكسب المعركة اذا استمر القتال لبعض الوقت ، فطلب من رجاله أن يواصلوا القتال . في حين تظهر رواية المؤلف ، أن النصر جاء بطريق المصادفة العارضة للعرب ، وهو تضليل مقصود .

(العرب)

الزوايا ، غير آبه بأية جهة فى الحياة ، ومن الملاحظ أن الهجوم الليلي فى القادسية كان من عمل البدو وابتكارهم وأن لا شأن به لسعد بن أبى وقاص ، وأن العرب لم يلجئوا الى الهجمات الليلية فى المعارك الاخرى وان كانوا قد لجئوا الى الاغارات الليلية . وتتضح هذه الحقائق اذا قلنا أن قادة المعارك العربية الكبرى ٠٠٠ من قريش ، وهم من أهل المدن ؛ ولم يألف هؤلاء حركات الليل (١) .

هكذا جرت الاحداث « ليلة الهسدير » وهو الاسم الذى أطلق على المرحلة النهائية من المعركة . وعندما أطبل الفجر بنوره ، كانت رحي المعركة لا تزال دائرة على أشدها ، اذ تحولت الى معركة سحق ، ينتصر فيها الفريق الذى يتمكن من الثبات مدة أطول ، مستجماً كل ما لديه من عزيمة وشجاعة ، اذ أن الجهد أصاب الفريقين المتحاربين . ولقد تمكن العرب من التفوق فى الهجوم فى صبيحة اليوم الرابع ويقال ان القمعاق لا سعدا ، هو الذى أوحى للعرب بالحافز فى ذلك اليوم ، وضرب لهم المثل فى الاستبسال ، وذلك لانه من البدو وهم وحدهم فى صلابتهم وقوة احتمالهم ، القادرون على تطبيق ما علمتهم اياه حياة الصحارى ، من تعود

(١) تشويه فاضح للتاريخ العربى يقصد منه اظهار امرين : اولهما أن نصر العرب فى القادسية كان وليد المصادفة العارضة ، لا الخطة العسكرية الباهرة ، وان لا فضل للبطل الكبير سعد بن أبى وقاص فيه ، والاخر الاصراء على التمييز بين أهل المدن وأهل الوبى ، أو بين قريش والبدو . لكن الرد على المؤلف واضح ويتلخص فى النقاط التالية :

(أ) ان اقتراح المخي فى القتال صدر من القمعاق . كما تجمع كتب التاريخ العربى ، ولم يكن القمعاق مجرد جندي عادى بل كان قائد الجيش الذى جاء من سورية ، ولا ريب فى انه تولى قيادة الميدان الفعلية منذ وصوله فى اليوم الثالث للمعركة حتى لو سلمنا جدلاً بأن الهجوم الليلي وقع دون اذن من سعد القائد العام . . لوجوده فى البناء وراء خط القتال فان هذا لا يعنى بحال مجرد المصادفة العارضة كما يحاول المؤلف أن يقول . وانما يعنى تصرفاً من قائد الميدان أوحى به ظروف المعركة . وقد رأينا فى تاريخ المعارك الحديثة امثلة عدة لهذا التصرف ، بل هو شرط من شروط الفنسكرى .

(ب) ليس لمة كبير فرق بين قريش وقبائل الصحراء . ولا تعدو قريش أهل واحة من الواحات فى الصحراء وهم على اتصال كبير ودائم بالبدو الذين يحيطون بهم ، ومن هنا لا يكون كبير فرق بينهم وبين البدو ، ويتحطم منطق المؤلف المصطنع فى انكار مزية الهجوم الليلي فى القادسية .

(العرب)

على الجوع وشظف العيش . وحمل العرب حملة صادقة أخرى ، وبدأ
الفرس في الانهيار اذ تخاذل القلب وأخذت صفوفه في التراجع وهبت
ريح عاتية في غضون ذلك وأخذت الرمال في الانتشار مبشرة بحلول
ظروف تشابه تلك التي وقعت في البربر .

واخترق العرب قلب جيش الفرس واتجهت همه فرسانهم الى رستم
قائد الفرس العام ، الذي عثروا عليه فوق سريريه ، فأمسكوا به وقتلوه (١)
وسرعان ما انهار جيش الفرس . وتمكنت تشكيلتان عسكريتان فارسيتان
من الوصول الى السد الذي سبق للجيش أن عبر عليه قبل المعركة الى
الضفة الغربية . وانسحبتا عن طريقه دون أن يلحق بهما كبير أذى ، أما
غالبية جند الفرس ، فقد تفرقوا شذر مذر في كل حذب وصوب ففرق
بعضهم في النهر وقتل البعض الآخر وهم يحاولون الفرار عبر سهل
القادسية ، لكن ثلاثين كتيبة فارسية صمدت بعد أن رفضت الهزيمة ؛ الى
أن أبيت عن آخرها ، ولم يكد نفع المعركة ينجلي حتى انتشرت نساء البدو
وأطفالهن في الميدان يحملون الهراوات والسلال بيد وقرب الماء باليد
الأخرى يروون بها ظمأ الجرحى من المسلمين المشرفين على الموت ، ويبعثون
بالأحياء من الفرس الى الجحيم . ويقول الطبري : ان العرب خسروا في
هذه المعركة نحو من ألفين وخمسمائة شهيد في الايام الثلاثة الاولى من
القتال ، ونحو من ستة آلاف في ليلة الهدير . واذا صح ما قيل من أن
جيش سعد كان يعد في الاصل نحو من ثلاثين ألفا ، أضيف اليهم ستة
آلاف جاءوا مع القعقاع من الشام فان مصرع هذا العدد ، دون ذكر عدد

(١) تختلف رواية المؤلف هنا أيضا من روايات التاريخ العربي ، اذ تجاهل
المؤلف محاولة رستم الفرار من الميدان في حين اختلق رواية صمود الكائب الثلاثين
من جيش الفرس . لقد روى العرب أن جناحي الفرس أصيبا بالهزيمة ، وانفرج
القلب . وكانت همه أصحاب النجدة موجهة الى سراق رستم . فلما رأى ذلك أراد
الهرب فتبعه هلال بن علقمة حتى قبض عليه وقتله ، وصعد على سريريه ، ثم نادى :
قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام .
وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية واسمها « درفش كايان » ثم تتبعوا بقية
المنهزمين حتى أجلوهم الى ما وراء القنطرة ، وقد وصف فارسي يدعى أبا رجاء ، معركة
القادسية نقلا من جده فقال : حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسي فلما رمتنا العرب
بالنبل ، جعلنا نقول : دوك ، دوك ، نعني منازل ، فما زالت بنا تلك المفازل حتى أزالنا
امرنا لقد كان الرجل منا يرمى عن قوسه . فما يزيد سهمها على أن يتعلق بثوب أحدهم ،
ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدروع الحصينة والجوشن المضاعف مما علينا .
(العرب)

الجرحي يشير الى نسبة تبلغ خمسا وعشرين فى المائة وهى جد عالية حتى فى معايير المعارك الحديثة الضارية (١)

وغنم العرب فى المعركة كميات ضخمة من النقود والمجوهرات والاسلحة بالإضافة الى الراية الكبرى للملوك الساسانيين . وكانت معركة القادسية مميتة بالنسبة للحكم الفارسى فى العراق ، تماما كما كانت معركة اليرموك مميتة للحكم البيزنطى فى سورية . وتمكن الجفأة من أبناء القبائل العربية ، الصلاب العود من تحطيم الجيش الفارسى ، - الذى كان لعشر سنوات خلعت يقرع أبواب القسطنطينية - تحطيما لن تقوم له قائمة بعده ، وأدى مصرع رستم ، الى زيادة اليأس والاضطراب . ولم يكن فى مكنة الملك الشاب يزيدجرد الذى كان قد بلغ الآن الحادية والعشرين من عمره أن يدبر أمر مثل هذه الأزمة الخطيرة وحيدا ؛ لافتقاره الى التجربة اللازمة .

يضاف الى هذا أن البلاد كانت قد ألفت التطلع الى رستم - الديكتاتور العجوز ؛ والسياسى المختفى وراء العرش - والنظر اليه على أنه دعامة العرش . أما وقد أضحي الآن فى عداد الموتى ؛ فلم يبق هناك رجل يحوز من الكفاية ما يمكنه من السيطرة على العاصفة العاتية .

وسارعت القبائل الشمالية العربية النصرانية الى اعلان خضوعها للمسلمين . وتحول بعضها الى الاسلام ، الذى رفع من شأن أخواتها من القبائل العربية ، وحقق لها كل هذه الامجاد والثروات التى لا يكاد يصدقها عقل (٢) وقد أعلن النصارى من أهل الحضر خضوعهم ودفعهم للجزية المقررة . وبدت هنا مشكلة فى طريق الظهور ، فلقد صنف النبى اليهود والنصارى على أنهم من أهل الكتاب ، وان من حقهم أن يظلوا على دينهم اذا شاءوا ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية . أما المشركون من عبدة الأوثان ، فلا خيار لهم : فاما الاسلام واما الموت . وكان الفرس من أتباع زرادشت ؛ أى من عبدة النار ، ولم يكن من حقهم أن ينالوا من التسامح ماناله اليهود أو النصارى ولكن لم يكن فى مكنة المسلمين قتلهم جميعا . وهكذا فرضت الظروف على المسلمين أن يعاملوهم كاهل الكتاب ، وقبلت الجزية منهم .

(١) لم يشأ المؤلف أن يذكر عدد قتلى الفرس فى المعركة ، وان كان المؤرخون العرب قد قدرهم بثلاثين الفا .

(٢) لم تحول قبيلة تغلب النصرانية الى الاسلام الا بعد امد طويل .

(العرب)

وكان سعد بن أبي وقاص على اتصال دائم بالمدينة ، أى بالخليفة فيها . ولهذا كان عمر ، على علم بأن معركة أسامية ضارية ستتشعب عما قريب . وتقول الروايات : ان عمر كان يخرج فى كل صباح الى ظاهر المدينة ، متقربا وصول رسول من العراق . وفى ذات يوم رأى ، أخيرا ؛ رجلا وحيدا على هجينه الذى أنهكه طول المسير ، يقترب من المدينة قادما من بطن الصحراء . وراح الخليفة يسأله عن الانباء . فرد هذا البدوى دون أن يعرف الخليفة الحافى القدمين بعباءته المرقعة ، بأن الفرس قد انهزموا . واضطر عمر الى الجرى وراء هجين الرجل ليتابع سـؤاله عن تفاصيل المعركة ، حتى دخلا الى المدينة . وسرعان ما علت الدهشة وجه الرجل ، عندما رأى الناس يسلمون على صاحبه بإحارة المؤمنين ويهنئونه .

وتروى قصص لاعد لها ولا حصر ، شبيهة بهذه عن عمر بن الخطاب وبعضها صحيح والبعض الآخر غير صحيح (١) ولكنها كلها تؤكد بصورة لا يتطرق اليها الشك ما كان عليه هذا الرجل العظيم والقائد الكبير من تواضع وبساطة .

وبالرغم من أن جيش الفرس قد منى بهزيمة ساحقة ، فإن الاعياء كان قد أخذ من العرب كل مأخذ ، بحيث تعذر عليهم أن يطاردوا فلول المنهزمين . وأقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس . ولا ريب أيضا فى أن من الاسباب التى أدت الى بقاءه ، حاجته الى أن يظل الى جانب هذا العدد الضخم من الجرحى الذين لم يكن فى وسعه أن يتخلى عنهم ، أو أن يحملهم مع جيشه . ولا ريب فى أن فترة الشهرين كانت كافية ليسترد فيها المعافون صحتهم من اثر الجراح ، وليعودوا الى صفوف الجيش . وللصلاة على أرواح أولئك الذين اختار لهم الله الشهادة .

من الصعب علينا أن نحدد بالضبط تاريخ معركة القادسية . فالتباين القائل بين المؤرخين ، يصل الى حدود عامين . واذا افترضنا أن معركة اليرموك قد دارت فى يوليو عام ٦٣٦ ، فإن معركة القادسية لابد أن تكون قد وقعت بعد هذا التاريخ ، ذلك لأن النجدة التى كان فى الامكان إيفادها من سورية بعد نصر اليرموك قد وصلت فى الوقت المناسب لتشتبك فى

(١) لا أدري سبب هذا التشكيك فى بعض القصص . واذا كان المؤلف يترقب - كما يظهر - بتواضع عمر وبساطته فلا حاجة به والحالة هذه الى تشكيكه بصحة أى من هذه القصص التى تجمع عليها كتب التاريخ العربى .

معركة القادسية • ويبعد اليرموك نحواً من ستمائة ميل عن المدينة ، كما
يبعد هذه المسافة نفسها تقريباً عن القادسية ، ومن هذا يتضح أن ابلاغ
أبى عبيدة نبأ النصر فى اليرموك الى الخليفة فى المدينة وتلقيه أوامره بارسال
النجادات الى العراق ، لا بد أن يكونا قد استغرقا شهراً واحداً على الأقل ،
ان لم نقل شهرين ، بالنظر الى افتقار التنظيم الحكومى حتى ذلك التاريخ -
الى التدريب والنظام • ونصل بذلك الى شهر سبتمبر عام ٦٣٦ • على أية
حال كان من المتعذر على النجادات أن تقطع بادية الشام قبل شهر أكتوبر
(تشرين الاول) من عام ٦٣٦ • فلقد انقضت على هذه القوات وهى فى
سورية نحو من عامين ، ولا ريب فى أن الجنود ، كانت تصحبهم نساؤهم
وأطفالهم • يضاف الى هذا أن الصحراء السورية خالية من الماء بصورة
خاصة •

وهكذا اذا افترضنا أن النجادات قد غادرت سورية فى شتاء عام
٦٣٦ - ٦٣٧ ، فانها لا بد أن تكون قد وصلت الى القادسية فى وقت ما بين
فبراير (شباط) وأبريل (نيسان) عام ٦٣٧ ، وهذا يتوقف على موعده
سفرها من أرض الشام ، وهل كان فى أكتوبر (تشرين الاول) أو نوفمبر
(تشرين الثانى) أو ديسمبر (كانون الاول) (١) •

وبعد انقضاء فترة الشهرين ، عاد سعد فى أبريل (نيسان) أو مايو
(ايار) أو يونيو (حزيران) من عام ٦٣٧ ، فاسترجع الحيرة - هذا اذا
صح تسلسلنا التاريخى - وضاعف الجزية على أهلها بحجة أنهم نقضوا
عهدهم للمسلمين قبل القادسية ، وتقدموا بولاءهم للفرس ؛ وزحف سعد
بعد ذلك شمالاً وأقام معسكره على خرائب بابل القديمة ، حيث شرع
الغرب منها فى الاغارة على المنطقة التى بين النهرين حتى وصلوا الى
أسوار المدائن ، عاصمة امبراطورية الفرس (٢) •

والمدائن جمع مدينة ، اسم أطلقه العرب على عاصمة الفرس وكانت

(١) يروى الطبرى من ابن اسحق ان اليرموك وقعت فى تاريخ ، اذا قورن بالتاريخ
الرومى ، ثبت انه فى سبتمبر (ايلول) عام ٦٣٦ وان القادسية وقعت فى فبراير (شباط)
عام ٦٣٧ •

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب شيئاً من استرجاع الحيرة • ويبدو أنها كانت لازال
فى أيديهم وكل ما ذكره ان سعد ارتحل من القادسية الى «برس» حيث هزم الهرمزان ،
ومنها الى بابل حيث هزم الفرس فى اسرع وقت . « العرب »

تتألف فى الواقع من مدينتين ، سلوقية ويسمىها العرب المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى (١) وكتسيفون ويسمىها العرب المدائن القصوى على الضفة الشرقية . وكان سلوقيوس نيكيتو ، أحد الحكام اليونانيين الذين ورثوا أجزاء من امبراطورية الاسكندر المقدونى ، قد بنى سلوقية فى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وكانت بابل حتى ذلك التاريخ هى العاصمة . وكانت سلوقية فى الأصل مأهولة باليونانيين . وكانت لعدة قرون تعتبر من أعظم المدن السياسية والتجارية فى العالم المعروف آن ذاك وبنيت المدائن القصوى بعد مائتى عام من سابقتها ، على الضفة المقابلة لها على نهر دجلة وغدت عاصمة الساسانيين فى القرن الثانى بعد الميلاد . وكان بلاط الاكاسرة وقصورهم ودوائر الحكومة فى المدائن القصوى ، فى الوقت الذى بدأ فيه العرب فتوحهم ، ولهذا فقد حزم العرب أمرهم على فتح سلوقية فى البداية ، أى المدينة التى على الضفة الغربية، وتقدم منها سعد بن أبى وقاص قادما من بابل لفرض حصاره على المدينة التى تحيط بها الأسوار .

وكان العرب كعادتهم عاجزين عن مهاجمة حصونها الهائلة مهاجمة فعالة . وان استطاعوا بمعونة من انضم اليهم من الفرس الحصول على عشرين منجنيقا استخدموها كمدافع لضرب الحصون . ولا ريب فى أن هذه الآلات كانت تقذف حجارة أضعف بكثير من أن تحطم الأسوار وتدنكها . ولهذا فقد فرض المسلمون على البلدة حصارا طويلا ، لم يكن معروفا هل سيثمر أو لا يثمر ، اذ أن الجانب الذى يقوم من المدينة على ضفة نهر دجلة كان مفتوحا لوصول النجدات والمؤن من المدائن القصوى ، على الضفة الأخرى من النهر ، وكان العرب فى غضون ذلك قد أغاروا على جميع المنطقة الغربية التى على جانب دجلة وأخضعوها ، لعدم وجود جيش يقف فى الميدان مواجهها لهم .

وعرض يزدجرد فى النهاية الصلح على العرب . وقد اقترح أن يجلو عن المدائن الدنيا التى على ضفة دجلة الغربية ، وان ينسحب من كل مكان على هذه الضفة ، تاركا المنطقة كلها للعرب . على شرط أن يقرروا بالنهر حدا فاصلا بينهم وبينه ، وأن يتركوه حرا وشأنه فى الضفة الشرقية . ورفض سعد هذا العرض فورا وان كان قد رأى فيه ما يشجعه نظرا لادراكه

(١) كان الاسم القديم الفارسي للمدائن الدنيا (بهرسير) وقد استعمل المؤرخون العرب هذا الاسم كثيرا فى كتبهم التاريخية .

ضعف العدو . ولاحظ المسلمون بعد بضعة أيام أن الاسوار خالية من مقاتلة العدو ، اذ كان الفرس قد انسحبوا من المدائن الدنيا الى الضفة الشرقية بهلواء ناقلين معهم جميع القوارب والعبارات (المعديات) ودخل العرب المدينة دون مقاومة ، ووجد البدو الجفاة العتاة أنفسهم فجأة - وقد علت أساريرهم الدهشة - مسيطرين على المدينة انتى ظلت حاضرة للتجار والثروة والحضارة والرفاهية أكثر من ألف عام .

واعترض نهر دجلة سبيل العرب ، وأوقف تقدمهم عدة أسابيع . ولكن معنوية الفرس كانت قد هبطت الى الحضيض ، بحيث باتوا عاجزين عن اقامة خط جدى للدفاع وراء النهر . وكان يزدجرد قد بعث بعياله الى حلوان . وهى مدينة محصنة فى آخر سواد العراق عند سفوح جبال زاغروس الايرانية ، وسرعان ما لحق بأهله فيها مخلفا فى المدائن للدفاع عنها قائده مهران الذى هزمه العرب يوم البويب . وجاء رجل من فارس الى سعد بن أبى وقاص يبلغه وجود مخاضة فى نهر دجلة يستطيع هو ورجاله العبور منها . ومن الصعب علينا أن نتثبت من التسلسل الزمنى لهذه الاحداث . واذا صح افتراضنا السابق فى أن معركة القادسية قد وقعت فى فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ، أو ابريل (نيسان) من عام ٦٣٧ بات من الطبيعى أن نفترض أن الحصار قد فرض على المدائن الدنيا أى سلوكية ، فى أواخر صيف عام ٦٣٧ وأن الفرس جلوا عنها فى شتاء عام ٦٣٧ - ٦٣٨ .

ويقول البلاذرى : ان العرب قضوا تسعة أشهر عند المدائن الدنيا أى على الضفة الغربية من نهر دجلة ، وهو رقم يتفق مع التواريخ التى قررناها ، ولكنه لا يلبث أن يقول : ان بعض الرواة يؤكدون أن العرب قضوا هناك ثمانية عشر شهرا وأنهم أكلوا الرطب مرتين . ويقول البلاذرى أيضا : ان الشك ساور المسلمين عندما دلهم بعض الفرس على المخاضة التى يمكن عبورها . اذ أن فيضان النهر كان فى بدايته (١) ويفيض نهر

(١) يبدو لى أن المؤلف قد أساء لهم ما قاله البلاذرى ولذا أخطأ فى ترجمته . أما قول البلاذرى فهذا نصه : من اiban بن صالح قال : لما انهزمت الفرس من القادسية قدمت فلواتهم المدائن ، فانتهى المسلمون الى دجلة وهى تطفح بماء لم ير مثله قط . واذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر الى الضفة الشرقية وحرقوا الجسر . فاغتم سعد والمسلمون اذ لم يجدوا للعبور سبيلا ، فانتدب رجل من المسلمين قسبح فرسه ومبر . قسبح المسلمون ، ثم امروا اصحاب السفن فمبروا الاثقال فقاتل الفرس : والله لاقتلون الا جنا ، فانهزموا .

(العرب)

دجلة عادة في الربيع عندما تأخذ الثلوج في النوبان في جبال أرمينية .
ونتيجة لهذا نستطيع القول بأن عبور دجلة قد وقع في مارس (آذار)
أو أبريل (نيسان) عام ٦٣٨ أما اذا صحت الرواية بأن العرب قضوا ثمانية
عشر شهرا على الضفة الغربية فان العبور يكون قد تم في أبريل (نيسان)
عام ٦٣٩ .

وأكد سلمان الفارسي - الذي سبق لنا أن سمعنا باسمه عندما
اقترح على النبي حفر الخندق حول المدينة للمسلمين - وجود المخاضة ،
واقامت بالمحاولة جماعة من الفرسان ، وقد تمكنت من الوصول الى الضفة
النهر الشرقية بالرغم من التبال التي تساقطت اليها من ثلة من المدافعين
الفرس ، ولم تفقد جنديا واحدا منها . ولم يكده المسلمون يرون رفاقهم يصلون
يامن وسلام الى الضفة الاخرى حتى سارع فرسانهم يجوزون المخاضة
متدافعين الى الجانب الشرقي من النهر ولم يتضح لنا من الروايات : هل
الفرسان قد خاضوا الماء أو عبروه سباحة (١) . وقد يدهش الكثيرون -
ولا سيما من الذين يجهلون البدو - ان قلت لهم ان البدو الذين ألفوا
العيش في صحراء لا ماء فيها ، من أقدر الناس على السباحة . ولكنني
أشهد بأنني رأيت رجالا من بدو الجزيرة العربية يسبحون في نهر
الفرات .

ويبدو أن حامية المدائن قد ذهلت من هذه العملية الجريئة المباغتة
وفز من رجالها من استطاع الفرار قاصدا الشرق الى الجبال . أما من بقي
فقد استسلم دون مقاومة ، وارتضى دفع الجزية طلبا للحماية . وسرعان
ما رأى العرب أن خيرات سلوقية (المدائن الدنيا) لم تكن الا الطعام التافه
لخيرات بلاط كسرى في المدائن . وما زال الطوق الهائل لقصر كسرى يرتفع
عاليا حتى اليوم مشرفا على ما يحيط به من سهول . ومعطيا لناظره صورة
تقريبية على الأقل عما كان عليه ذلك القصر من مجد وعظمة .

وأصبح العرب ذوى ثراء هائل ، اذ قسمت الغنائم جريا على
المالوف السابق في الفارات ، على رجال الجيش فورا . بعد أن اقتطع منها
الحمس ليرسل الى الخليفة في المدينة ، ووجد الخليفة التقى الورع ذو العبادة
المروعة عمر بن الخطاب نفسه فجأة وفي حيازته ثياب كسرى وحليه وسيفه ،
ومعها بساط هائل لقاعة الطعام فيه فصوص من الماس والياقوت واللازلي

(١) يقول موير (Muir) نقلا عن شيرنى Chesney : ان جيش تيمور لنك
عبر نهر دجلة سباحة في عام ١٣١٢ ميلادية .

وفيها خيوط من الذهب والفضة (١) . وحل سعد بن أبي وقاص في قصر كسرى وأحال قاعة الطعام الفسيحة الى مسجد يصلى فيه المسلمون ، ونعم البدو بما خلفه نبلاء فارس من رياش وفراش وثير .

ولم يكن يزدجرد قد أدخل في غضون ذلك الى الراحة ، اذ شرع في مقره الجديد في حلوان يجند الرجال من جميع أطراف بلاده ، القاصية منها والدانية ، وقد حزم أمره على حشد جيش جديد . وظل العمل في بناء هذا الجيش مستمرا . وأخذت معنويات الفرس في الارتفاع وشرعوا يندفعون غربا الى أن تمكنت قوة كبيرة منهم بقيادة مهران من احتلال جلولا (٢) التي تقع عند النقطة التي يخرج منها نهر ديبالى من الجبال عند جبل حمزين ، مندفعا الى سهول العراق الفسيحة (٣) وبعث سعد الى الخليفة فى المدينة يبلغه تجمع الفرس . ويبدو أن الخليفة الكثير الحذر كان قد أمر سعدا بعدم التقدم مسافة أخرى ؛ فاضطر هذا الى الرجوع اليه لاستطلاع رأيه فيما يفعله الآن ؛ وعندما جاء الأمر من عمر ؛ بالتقدم لمواجهة الفرس ، راح سعد يبعث بابن عمه هاشم على رأس اثني عشر ألف رجل لمهاجمة هذه الحامية الفارسية الامامية . ونشبت حرب هائلة اضطر معها سعد الى ارسال نجدات أخرى من المدائن ؛ وأخيرا انهزم الفرس بعد معركة يوم رهيب فى جلولا ؛ وطارد العرب فلولهم المنهزمة حتى سفوح الجبال عند خانقين . ولما بلغت أنباء الهزيمة يزدجرد وهو فى حلوان انسحب منها الى الرى فى شمالى فارس ؛ واحتلها العرب دون مقاومة . وبعث سعد فى

(١) يوحى المؤلف بصورة لا مباشرة هنا ، بأن عمر بن الخطاب استولى لنفسه على الفىء من هذه الثنائى العظيمة ، من ملابس كسرى وحليه ، مع أنه - كما تؤكد جميع كتب التاريخ العربى - قسمه بكامله على مستحقه ثم قال لهم وهو يشير الى بساط بعث به سعد طوله ستون ذراعا فيه طوق كالصور ولصوص كالانهار . وفي حافاته كالارض المربوعة والارض المقلبة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان من الذهب والفضة: « أشيروا على فى هذا التطف » ، فاجمع ملؤهم على أن قالوا : قد جعلوا ذلك لك ، الا على ابن أبى طالب فقد قال : يا امير المؤمنين الامر كما قالوا ، ولم يبق الا التروية . انك ان تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له ، فقطعه عمر بينهم .
(العرب)

(٢) يؤكد البلاذرى أن خرزاد اخا وستم كان قائدا للفرس فى جلولا لا مهران كما يقول المؤلف .

(٣) يقول المؤلف انه خدم فى عام ١٩٢٠ عدة شهور مع فوج من الجيش الهندى فى ذلك الموقع .

(العرب)

غضون ذلك برتل آخر سار مع النهر شمالا ؛ فاحتل تكريت حيث انضمت اليه القبائل العربية فى الجزيرة ؛ ومضى مع رجالها فى زحفه الى الموصل . وهكذا لم ينته عام ٦٣٨ للميلاد حتى كان العرب قد أخضعوا - بصورة تامة ونهائية - المنطقة الحصبية الغنية التى تقع فى أدنى دجلة والفرات ، وأصبحت هذه المنطقة كلها امارة خاضعة للامبراطورية العربية الجديدة .

تواريخ بارزة

موقعة القادسية	فبراير (شباط) أو مارس (آذار) ٦٣٧ أو أبريل (نيسان)
احتلال المدائن	أبريل (نيسان) ٦٣٧
احتلال جلولاء	ديسمبر (كانون الاول) ٦٣٨

شخصيات مشهورة

وهتم	قائد الفرس العام قتل فى معركة القادسية
سعد بن أبى وقاص	قائد العرب العام فى العراق
عمرو بن معد يكرب	من المرتدين السابقين ومن الأبطال المسلمين
الغيرة بن شعبة	من صحابة النبى كان مع الوفد الى رستم
الققعاق بن عمرو	رئيس بنى تميم، ومن قادة المسلمين البارزين
النعمان بن مقرن	رئيس الوفد العربى الى يزيد جرد

تثبيت الأقدام

(١)

« رأى أول خط لنفسه لأنه هناك في نصيب
المشترع مطمئن • أتى راسا للشعب وأجرى عدل الرب
وأحكامه »

سفر تثنية الاشتراع - الفصل ٣٣ - ٢١

« انا انزلنا اليك الكتاب باحق ، لتحكم بين الناس
بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما • واستغفر الله
ان الله كان غفورا رحيمًا »

القرآن الكريم - سورة النساء

« الحكم بلا عدالة قرصنة ولصوصية »

القديس اغسطين

كان زحف الجيوش العربية في سورية والعراق في أعقاب الجيوش البيزنطية والفارسية المتقهقرة . وكان خط الانسحاب والتقدم في الغرب من دمشق الى حمص فأنطاكية فسفوح جبال طوروس . أما في الشرق فكان من الحيرة الى المدائن وظلت منطقة فسيحة بين هذين الحطين من خطوط الزحف في نجوة من كل أذى .

ويبدو أن القبائل العربية المسيحية في هذه المنطقة كانت لاتزال تناشد البيزنطيين الحماية بالرغم من أن هؤلاء كانوا قد عبروا جبال طوروس . ويبدو على أية حال أن الروم قد وعدوا هذه القبائل بمساعدتها عن طريق انزال قواتهم من البحر على الساحل . وهكذا نرى أن القبائل حشدت قواتها باتجاه حمص في مطلع عام ٦٣٨ ونزل الروم في الوقت نفسه من البحر . وأعادوا احتلال أنطاكية ووجد أبو عبيدة نفسه بين نارين فجأة ؛ نار قبائل بادية الشام التي أخذت تهدد حمص من الشرق ، ونار الروم في أنطاكية ومدن الساحل وهم يتأهبون - كما يبدو - لغزو البلاد من الغرب .

ولا ريب في أن العرب فرعوا فرعا شديدا من هذا الهجوم المضاد المفاجيء وبعث أبو عبيدة برسالة الى الخليفة تنطق بالحيرة وتثير البلبلة مما دعا الخليفة الى اصدار أمره الى سعد بن أبي وقاص بأن يرسل وتلا يصعد مع الفرات فورا لمهاجمة مؤخرة القبائل النصرانية التي تهدد حمص وعاد أبو عبيدة فبعث بعياض بن غنم لاستعادة أنطاكية (١) وقد استبد القلق بعمر بن الخطاب ، حتى أنه قرر المضي بنفسه الى سورية لقيادة العمليات الحربية الجديدة وأرسل سعد من العراق ، القعقاع بن عمرو على رأس اربعة آلاف مقاتل على جناح السرعة صعدا مع الفرات . وأرادت (هيثم) الصمود فأغلقت على نفسها الابواب ولكن الرتل تجاهلها مارا بها مندفعا الى الشمال ادراكا من قائده للحاجة الى السرعة . وراح القعقاع يسابق الزمن فاحتل قرقيسيا التي تقع عند ملتقى الحابور

(١) يقول البلاذري ... نقض اهل انطاكية العهد فوجه اليهم أبو عبيدة مياض ابن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الاول ويقال بل نقضوا بعد رجوعه الى فلسطين فتوجه اليها عمرو بن العاص من ايلياء ففتحها .

والفرات • ولما كان هذا الرتل يسير بحذاء النهر • لم تكن هناك مشكلة
افتقار الى الماء ولذا فقد ركب الفرسان البغال وأراحوا الجمال والخيول
لتكون جاهزة مستعدة ليوم القتال •

وكان عياض بن غنم قد استعاد انطاكية فى غضون ذلك • ولم
نعد نسمع شيئا عن البيزنطيين الذين يبدو أنهم قد عادوا فركبوا البحر
عائدين الى بلادهم ، وقبل أن يصل الخليفة الى قطاع الجابية كان أبو عبيدة
قد خرج بقواته الى حمص وشنت شمل القبائل الثائرة • وانتهت الأزمة
بسلام (١) وعاد رتل القعقاع الى الجنوب فى العراق بعد أن احتل
قرقيسيا •

وصدر الأمر الى عياض بن غنم بأن يسير على رأس جيش الى الجزيرة
لاحتلالها وتثبيت اقدام المسلمين فيها ويبدو أنه قصد أول ما قصد الى
الرقعة ففتحها بعد حصار قصير • وأخذ يرسل منها البعث والسرايا
لجمع المؤن والياتين بالأسرى • ويقول المؤرخون العرب : ان احتلال الرقة
تم فى وقت الحصاد ، ولعل ذلك كان فى أواسط صيف عام ٦٣٨ ، وان
فتحها تم بعد حصار دام خمسة أيام أو ستة ، وبعد أن استسلم أهلها
وفقا للشروط المألوفة وكانت شروط الصلح فى جميع هذه الحالات المماثلة
قد أصبحت واحدة فى سورية وتتألف من البنود التالية :

(١) هناك خلاف واضح بين رواية المؤلف وروايات المؤرخين العرب • فهو يقول :
ان عمر بن الخطاب وصل الى الجابية - وهى كما سلف وقلنا - مكان فى الجولان شمال
اليرموك فى حين ان المؤرخين العرب يؤكدون ان عمر وصل مع جيش من المهاجرين والانصار
وبينهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبره بالتشاور الطامون فى الشام • فدعا عمر المهاجرين
الأوليين لاستشارتهم فاختلفوا : فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده
ولا نرى أن يصدك منه بلاء عرض لك ، ومنهم القائل أنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقوم
عليه • فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى ثم استدعى مهاجرة الانصار فاستشارهم
فسلكوا طريق المهاجرين ثم نصحهم واستدعى مهاجرة الفتح من قريش • فاستشارهم
ولم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا : ارجع بالناس فانه بلاء وفناء ، وقرر عمر العودة
فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر الله ؟ فرد عمر : فرارا من قدر الله الى قدر الله • •
وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء يبلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا
فرارا منه • وانصرف عمر بالناس عائدا الى المدينة • وقد مات بهذا الطامون المعروف
فى التاريخ الاسلامى بطامون «عمواس» خلق كثير من بينهم أبو عبيدة وهو أمير بالناس
ومعاد بن جبل ويبريد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة
ابن سهيل •

(العرب)

أولاً - على كل من لا يعتنق الاسلام من أهل المدن المفتوحة أن يدفع الجزية بمعدل دينار واحد للسنة وجريب من الخطة وكميات مختلفة من الزيت والخل والعسل • وبالطبع كان النظام الذي يتبعه العرب في التمييز من أكثر الأنظمة بدائية • وذلك لضمان الحصص الكافية من الغذاء لجنودهم • ولهذا كانت الجزية العينية التي يفرضونها تستهدف مساعدة القوات على ضمان المؤن اللازمة لها • أما بالنسبة إلى الجزية النقدية فالدينار هو الاسم المستعمل الآن في البلاد العربية لما يعادل قيمة الجنية الاسترليني ، ولن يفيدنا مطلقاً أن نحاول تقويم الدينار بالنسبة إلى قيمته الفعلية في القرن السابع الميلادي على ضوء تكاليف الحياة اليوم إذ أن احتياجات الناس اليومية في القرن السابع كانت مختلفة تماماً عن احتياجاتهم اليوم وكل ما يمكن قوله هو أن الدينار ، كان العملة الذهبية المعروفة في تلك الأيام •

ثانياً : كان العرب يسمحون ببقاء الكنائس على حالها لممارسة الطقوس الدينية النصرانية بشرط عدم السماح ببناء كنائس أو بيع جديدة وعدم استخدام الأجراس في دعوة الناس إلى الصلاة (١) أو سير المواكب التي يحمل فيها الصليب في الشوارع العامة •

ثالثاً : وإذا ما راعى السكان هذه الشروط مراعاة صحيحة فإن المسلمين يتولون حمايتهم وتصبح أرواحهم وممتلكاتهم آمنة لا تتعرض لأي خطر •

وسار عياض من الرقة إلى الرها (الاسم الحديث لها أورفة) وتحدث إلى حماها وهم على أسوارهم ، ممطياً جواده الكميث فصالحوه على الشروط الآتية الذكر • وزحف بعد ذلك إلى سميساط (شمشاط) وحران ، فصالحه أهلها على الشروط نفسها ، وسار بعد ذلك إلى رأس العين وماردين ونصيبين وديار بكر (اسمها القديم آمد) وسنجار ، فاحتلها كلها • وخضعت له الجزيرة بكاملها ويبدو أن هذه العمليات قد تمت في المدة التي قبل سنة ٦٤٠ أو ٦٤١ واختار الخليفة عياضاً ليكون والياً له في الجزيرة ، ولكنه عاد إلى حمص فتوفي فيها سنة ٦٤٢ (٢) •

(١) هذا ليس بصحيح ، فعمرو بن العاص مثلاً في مصر لم يحرم استخدام نزع الأجراس في الكنائس •

(العرب)

(٢) يقول الواقدي ... أن أبا حبيدة مات في طامون «عمواس» سنة ثمانى عشرة واستخلف عياضاً لورده عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقرنير والجزيرة •

ومن الطريف أن نلاحظ هنا ملاحظة عابرة فنقول : ان غنم هو الاسم العربي لصنم من أصنام الجاهلية . وان والد عياض كان يدعى عبد غنم وعندما اعتنق عياض الاسلام رغب عن الاحتفاظ باسم والده على النحو الذى كان فيه . والذى يشير الى أنه كان من عبدة الأوثان ولذا فقد أسقط كلمة (عبد) من اسمه واصبح يسمى نفسه بعياض بن غنم وكان والده يدعى غنما : ولكن زملاءه من العرب كانوا يعرفون ان غنما اسم من أسماء الأوثان لكن هذه الرغبة كانت تستهدف كما يبدو اخفاء الحقيقة عن اليهود والنصارى (١) . وأهمية هذا الحديث تنحصر فى اظهار السرعة الفائقة التى تم فيها التحول من الوثنية الى الاسلام ولم يكن قد انقضى على هجرة الرسول من مكة الى المدينة مع المسلمين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آن ذاك المائة ٠٠٠ أكثر من ست عشرة سنة ، عندما تمكن المسلمون فى عام ٦٣٨ من الانتهاء من هزم أعظم امبراطوريتين فى العالم ، وهما امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس . وهكذا كان معظم هؤلاء الفاتحين العتاة المتحمسين من الذين نشئوا على عبادة الأوثان . وكان كثيرون منهم قد ارتدوا عن الاسلام قبل أربع سنوات ، ولما كانت نسبة من يحسن القراءة والكتابة فيهم ضئيلة للغاية فان معظمهم ولاشك كان جاهلا بتفاصيل الديانة الاسلامية ودقائقها (٢) لكن هذا لا ينكر الحقيقة الواقعة وهى أن الدين كان الحافز الأصيل لحماستهم . فلقد عودتنا حركات البعث الدينية العاطفية أن تنتشر بسرعة ، وأن تخلق حماسة منقطعة النظير وألا تكون كثيرة العناية بالتزمت العقائدى الفكرى . ولا ريب فى أن الايمان بوجود اله روحى عظيم ، يدين له الكون بأسره . ويعنى بشئون عبيده ، قد حول نظرهم الى الحياة وجهة أخرى ولا ريب أيضا فى أن الايمان بأن الاستشهاد فى ميادين الوغى ، سيضمن للشهداء دخول فراديس النعيم فوراً ، قد شدد من عزائمهم وقوى من شجاعتهم على الحرب .



(١) تحليل سخي لا يستطيع قبوله . واذا كان المؤلف يعترف بأن العرب « وهم أصحاب مياض » الذين يعتد برايتهم ، كانوا يعرفون أن غنما اسم صنم ، فأننى لا أرى ان عياضا كان يمه الا يعرف النصارى أن اليهود أن أباه كان من عبدة الأوثان ، واعتقد ان اسقاطه لكلمة «عبد» كان بدافع التقوى الأصيلة لا انطوار الزائف .

(العرب)

(٢) لم يكن القرآن الكريم قد كتب بعد ، أو الحديث النبوى الشريف قد دون حتى يكون جهل العرب بالقراءة والكتابة سببا في عدم معرفتهم دقائق الاسلام كما يقول المؤلف .

سبق لنا أن رأينا القائد العظيم خالد بن الوليد يعزل من قيادته
 بأمر الخليفة ، ولكنه يواصل العمل تحت إمرة أبي عبيدة ، ولقد كانت
 خدماته الحربية في معركتي اليرموك وقنسرين مذهلة حتى أنها دفعت
 عمر بن الخطاب الى اعلان ندمه على عزله اذ قال عندما بلغت مسامحه أعمال
 خالد . . . » أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر ، فقد كان أعلم بالناس
 مني ، وقد اختاره الخليفة بعد ذلك أميرا على قنسرين .

وعندما خرج عياض بن غنم لفتح الجزيرة خرج خالد بن الوليد معه
 ويقال : انه بعد احتلال ديار بكر استحم في حوض من النبيذ (١) وعندما
 عاد من الحملة الى مقر إمارته في قنسرين زاره فيها الأشعث بن قيس
 الذي اشترك في القادسية . ولقد سبق لي أن ذكرت أن عادة العرب
 جرت على أن يقدم الكبير الذي يزوره أحد شيوخ القبائل لضييفه هدية
 من المال واللباس . ولذا . . . عندما اعتزم الأشعث الرحيل عن خالد قدم
 اليه هذا ألف قطعة ذهبية هدية منه . ووصل النبا الى عمر في المدينة
 وقد انطوى على شيء من الاتهام لخالد بسوء التصرف في أموال المسلمين
 فكتب الى أبي عبيدة يأمره باعتقال القائد العظيم ومحاكمته وهكذا شهر
 بخالد علنا وأقيل من منصبه ثم صدر اليه الأمر بالتوجه الى المدينة حيث
 جدد عمر اتهامه له ، وقد رد خالد : بأن المال الذي أهده الى الأشعث ؛
 ماله ، ولا شأن لمال المسلمين فيه . وليس ثمة من شك في أن خالدا كان
 قد أثري من حصته من الغنائم التي فاز بها نتيجة انتصاراته العظيمة
 التي حققها ، ولا ريب في أنه كان أحق بكثير من الصحابة في الأموال التي
 جنوها من حصصهم في الغنائم ، وهم في المدينة لم يغادروها سعيا وراء
 الاشتراك في القتال .

(١) روى الواقدي أن خالد بن الوليد كان على مسيرة عياض بن غنم عند سيره
 لفتح الجزيرة لكن معظم المؤرخين العرب يؤكدون أن صفوان بن العطل السلمي كان على
 مسيرة عياض وأن خالدا لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حصص
 حتى توفي بها سنة إحدى ومشرين وأوصي بما يملكه الى الخليفة عمر بن الخطاب .
 ولا ريب في أن هذه القصة التي يذكرها المؤلف مستقاة من أحد كتب التاريخ الشعبية
 التي حشاها المؤرخون من أصل شعوبي بالريف والاكاذيب للحط من شأن أبطال العرب
 من أمثال خالد بن الوليد وقبة من هؤلاء الشعبيين في النار لدولهم التي قضى عليها
 العرب . وقد بلغ من قحة هؤلاء أن زيفوا أحداث على لسان النبي ظهر بطلانها .
 ومن المؤسف أن يلجأ المؤلف الى مثل هذه القصص الكاذبة لكن نياته في تشويه التاريخ
 الاسلامي لا تخرج من نيات الشعبيين .

(العرب)

وفى المحتمل ألا يكون خالد رجلا متدينا ومن المحتمل أن يكون قد بات صاحب ثراء ، وبني بعدد من الزوجات واقتنى عددا من الجوارى ، وقد تكون رواية حوض النبيذ صحيحة ، ولكن هذا لا يضيره فى شيء (١) فاليه يرجع الفضل الأكبر فى اخراج الروم من سورية خروجا لا عودة بعده . ولم يكن خالد قائدا عظيما فحسب ، أو عسكريا عبقريا فذا فقط . وانما كان أيضا رجلا شجاعا كل الشجاعة فى القتال . ويبدو أن شهرته أصبحت ضخمة الى حد خطر ، فعندما أراد عمر أن يبرر معاملته السيئة لخالد . قال : « انى لم أعزله عن ريبة ولكن الناس عظموه فخشيت أن يوكلوا اليه » . وقد استخدم الاسلوب نفسه فى الدفاع عن معاملته للمنى ابن حارثة الشيباني . ولقد سبق لنا أن قلنا : ان عمر بن الخطاب كان رجلا ورعا كل الورع عميق الشعور ، أفيجوز لنا على هذا الأساس أن نفترض أن عمر أحس بالغيرة فى عقله الباطن من شهرة خالد والمثنى وتعلق الناس بهما تعلقا يفوق تعلقهم به وكل مانعرفه أن خالدا عاد بعد هذا الحادث الى سورية حيث توفى وفاة عادية بعد يومين .

وجد العرب أنفسهم - فى الوقت الذى كانوا فيه يشبتون أقدامهم فى منطقة الجزيرة - فى حاجة الى حملة عسكرية فرعية أخرى لتثبيت الانتصارات الأخرى التى حققوها فبعد أن استقر الأمر لهم فى العراق ، وفى المدائن بالذات أخذوا يلاجقون كسرى يزددجرد فى تراجعهم نحو الجبال الشمالية الشرقية من المدائن . ولم تكن قد دارت هناك معارك رئيسية فى الحوض الأدنى لنهرى الفرات ودجلة . حيث ان الفرس لا يزالون مسيطرين على الضفة الشرقية من شط العرب وهو ملتقى النهرين ليسيرا معا نحو البحر .

وكان خالد بن الوليد قد تمكن قبل أربع سنوات - أى بعد هزم مسيلمة الكذاب فى اليمامة - من الزحف شمالا نحو شط العرب حيث عقد صلحا مع أهل الأبله ، وهى ميناء العرب الجنوبي فى تلك الايام ؛ ولكنه زحف من الأبله نحو الشمال بدلا من أن يتجه الى الشرق وسار معه المثنى ابن حارثة الى منطقة الحيرة بعد أن استخلف على الأبله شيخا من شيوخ بكر ظل يواصل غاراته الفردية على الفرس عبر شط العرب .

(١) بنى المؤلف استنتاجه الصحيح على فرضيات خاطئة اعتمد فيها على روايات مقرضة كان قصد بعض المؤرخين الشعبيين منها تشويه التاريخ الاسلامى .
(العرب)

وعين الخليفة بعد معركة البويب في نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٣٥ ، صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى عتبة ابن غزوان ليتولى قيادة العمليات العسكرية في شط العرب وعندما وصلت الى عمر أنباء الاستعدادات العسكرية التي يقوم بها القائد الفارسي رستم أمام القادسية أصدر أوامره الى عتبة بن غزوان بأن يهجم على الاهواز ليحول أنظار الفرس الى تلك المنطقة فيجتذب بعض الجنود اليها ويحول دون ارسال النجيدات ، الى ميدان القادسية . وقد اشتركت في هذه العمليات جماعات من بكر وتميم القبيلتين المقيمتين في الصحراء الى الغرب من شط العرب ، وأقام عتبة قاعدته في أكواخ بناها وخيام نصبها على بقعة من الارض التي ينتشر فيها الحصى الى الجنوب الغربي من شط العرب وتسمى البصرة ، وعاد فاحتل الابله ، وهي الميناء الذي تبحر منه البواخر الى البحرين وعمان والهند . وبعد أن وطد أقدامه في هذه القاعدة القوية الثابتة مضى يخضع أرض الدلتا الفسيحة المنبسطة ويندفع بفاراته عبر شط العرب الى خوزستان (الأهواز) .

وطلب عتبة الاذن له بأداء فريضة الحج في السنة التي سبقت القادسية والتي قضاها سعد بن أبي وقاص في اعداد جيشه وتدريبه في شرفات وزيارة المدينة . وعندما سار قاصدا المدينة خلف أحد البدو أميرا على البصرة في غيابه . والطرافة في هذه النقطة أن الخليفة لم يوافق عتبة على الترتيبات التي أجراها عندما رواها له في المدينة بعد وصوله اليها مستغربا أن يعين بدويا أميرا على أهل الحضر (١) ، وسرعان ما عين الخليفة المغيرة بن شعبه من صحابة الرسول ، ومن الذين بايعوه عند الشجرة قائدا في البصرة ، ولم يعيش عتبة طويلا بعد ذلك فثبتت الخليفة عامله الجديد « المغيرة » في مركزه كقائد للعرب في الاهواز .

(١) لم أتمر على تأكيد لهذه القصة في التواريخ العربية الموثوق بها ولمسل المؤلف قد حثر عليها في بعض الروايات الشعبية فأدجها هنا ليحقق غرضه في إبراز الفرق بين العرب . أما الرواية الصحيحة فهي على النحو التالي : كانت البصرة قد صمرت فيما بين يوم النخيلة ويوم القادسية ، وقد مصرها عتبة بن غزوان ثم استأذن للحج وخلف المغيرة بن شعبه لكتب اليه عمر بعهد فلم يلبث أن قرأ بما قرأ به فعلى ابا موسى البصرة وأشخص المغيرة الى المدينة ثم ان عمر رده ومن شهد عليه الى البصرة فلما حضر يوم القادسية كتب عمر الى ابي موسى يأمره بامداد سعد فأمدته بالمغيرة في ثمانمائة ، ويقال : في اربعمائة ، فشهدا ثم شخص الى المدينة .

(العرب)

ولقد سبق لنا أن سمعنا عن المغيرة عندما أوفده على رأس الوفد الى رستم في القادسية فأثار تصرفه بالجلوس الى جانب رستم على سريره سخط القائد الفارسي ، ولما كان جيش المغيرة خاليا ممن يعرفون القراءة والكتابة فقد اختار القائد الجديد شابا يدعى زيادا ليكون سكرتيرا له . وسنسمع عن زياد هذا كثيرا فيما بعد .

وتبدل الموقف تبديلا كلياً بعد هزيمة جيش الفرس في القادسية في ربيع عام ٦٣٧ ، فقد انسحب يزدجرد كسرى الفرس الى حلوان متخلياً عن سهول العراق للعرب وطامعا في الصمود في خط دفاعي في الجبال يحول دون تقدمهم ؛ وكان الهرمزان وهو من نبلاء الفرس الذين اشتركوا في معركة القادسية قد عاد الآن الى امارته في الاهواز ليتولى الدفاع عنها ضد غارات العرب من البصرة وكان نصر العرب في القادسية قد مكن سعد بن أبي وقاص في الوقت نفسه من أن يشعر بالطمأنينة ، ومن أن يرسل الامداد الى جبهة البصرة .

وقع حادث في هذه الايام أدى الى تبدل في القيادة وهو يلقي بعض الاضواء على أوضاع تلك الأيام وطرائق السلوك فيها . فقد وجهت تهمة الزنا الى المغيرة بن شعبه وكان وجهوها أربعة من مساعديه بينهم كاتم سره زياد . وقد نقلت التهمة الى الخليفة في المدينة فاستدعى المتهم والشهود للمثول بين يديه . بالرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن المغيرة كان واليا من الولاة وقائدا عاما للجيش (١) وينص القرآن الكريم على عقاب الزاني بالجلد مائة جلدة في حين تنص التقاليد منذ أقدم العصور على رجم الزاني حتى الموت (٢) وهو عقاب ورد نصه في الشريعة العبرانية القديمة .

(١) تختلف رواية المؤلف عن روايات المؤرخين العرب بمض الاختلاف فكل ما جاء في كتب العرب عن هذا الحادث ، أن عمر بن الخطاب استحضر المغيرة بن شعبه وهو أمير البصرة - والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الأثر الصالح في الفتوح الاسلامية - وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بشبهة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمة القليلة : أن عزل ، وعاتب ، واستحث ، وأمر ، اذ قال :

اما بعد فقد بلغني نبأ عظيم لبعت ابنا موسي اميرا فلما ما في يدك والمجلد المجلد . - فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاتب شهوده بلحد الذي فرضه الله لملهم .

(٢) خلط المؤلف بين عقوبتي الزنا - فنسب بقوة الحد الى القرآن الكريم وعقوبة الرجم الى التقاليد مع أن العقوبتين واردتان في الشرع الشريف وأولاهما للزنا من غير التزوجين والاخرى للزناة من التزوجين .

(العرب)

وكان الرسول قد أمر عندما وجهت تهمة الافك الى زوجه عائشة بجلد من يقذف أعراض الناس زورا وكذبا ، ويتيقن بطلان قذفه . وأفضى ثلاثة من الشهود بشهاداتهم أمام عمر بن الخطاب . ولم يبق الا رابعهم زياد ، وعندما استدعى زياد الى الخليفة هتف به قائلا : انه ليرى في وجه هذا الرجل الأمل بنجاة أحد صحابة رسول الله من الرجم حتى الموت ، ونجاة سمعته من المساس . وقد وجد زياد بعد هذه الإشارة الواضحة أن من الخير له أن يعدل عن شهادته وأن يظهر عدم تحققه من التهمة وشكه فيها .

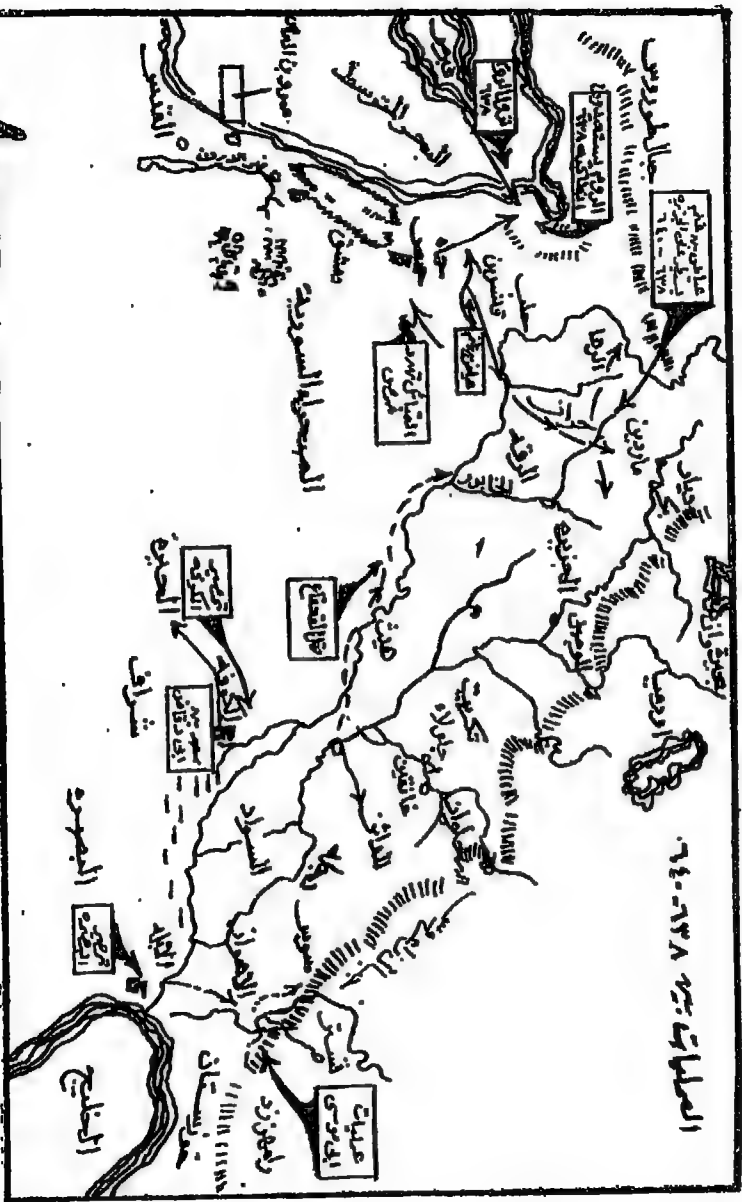
وهكذا أعلن الخليفة براءة عامله من التهمة مما عرض الشهود الثلاثة الأول الى عقوبة الجلد لأنهم طعنوا في سمعة رجل برىء ، لكن المغيرة فقد مركزه على أية حال . اذ بعث الخليفة بأبى موسى الأشعري الى البصرة ليكون عاملا له فيها وذلك في نهاية عام ٦٣٨ تقريبا (١) .

وزحف أبو موسى الأشعري بجيشه على الفرس فحاصر مدينة السوس وقتحها ، وكان يزددجرد قد بعث الى المنطقة بأحد كبار الفرسان من رجاله للدفاع عنها فلما رأى هذا القائد الفارسي ظهور الاسلام ، وعز أهله أرسل الى أبى موسى يفاوضه على الانحياز برجاله من الفرسان الى

(١) يابى المؤلف الا أن يثبت مسموم حقه وكرهيته في كل ما يكتبه فهو أولا يورد حادث اتهام المغيرة بن شعبة دون أن يكون لها مكان في كتابه الذى يتحدث عن الفتوح العربية ثم يحاول بصورة لا مباشرة ان يوحى لقراءه بان التهمة صحيحة ، ولكن الخليفة أراد تبرئة المغيرة لانه من صحابة رسول الله وبذلك يحقق غايته في تشويه سمعة المغيرة من ناحية والطمع في عدل عمر بن الخطاب مع انه من أهل من عرفته الدنيا كلها . حتى ان عدائته حملته على إيقاع الحد كما تجمع كتب التاريخ العربى ، على ولده ، عندما ثبتت عليه تهمة احتساء الخمر ، وأمر بجلده برغم شفاعته بمغضى كبار المقرئين اليه من صحابته ، فجلد أمام ناظرية ، ومات والحد يوقع عليه ، دون أن تأخذ عمر في الحق شفقة أو حنان الأبوة ، ودون أن يسمح له حتى بشرب الماء في أثناء الحد وقبل أن يموت ، فلا يمكن لرجل كهذا أن يتحيز للمغيرة وان يحاييه ، وان يطلب ولو بصورة غير مباشرة من زياد تعديل شهادته .

ولا ريب في أن التهمة التى الصقت بالمغيرة كاذبة ، اختلقها موظفوه الأربعة ، لتقديمه عليه لامر ما ، وهى حالة كثيرا ما تحدث في كل زمان وكل مكان . وعندما تبين الحقيقة لعمر ، براه من التهمة ، وأوقع العقاب بالقتل . ولو كان عمر يريد محايلته ما استعمل تلك اللهجة الحادة في رسالته اليه . أما أقالته من منصبه ، فقد تكون ناجمة من اعتقاد الخليفة بأن مقتضيات الحكم ، تتطلب إبعاد المغيرة عن منصبه بعد هذه التهمة ، حتى ولو برئت ساحته منها .

السلطانة بين ١٦٨٨-١٦٤٠



عاصمة السلطنة
القاهرة
١٦٤٠ - ١٦٨٨

البحر الأحمر
١٦٨٨ - ١٦٤٠

البحر المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأحمر

البحر الأحمر

البحر الأحمر

البحر الأحمر

البحر الأحمر

جانب المسلمين ، ولعل مما يثير الغرابة أن رسالة قائد الفرس الى القائد العربى كانت على النحو التالى :

« انا قد احببنا الدخول معكم فى دينكم على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم . وعلى انه ان وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض ، وعلى انه ان قاتلنا العرب منعتمونا منهم وأعنتمونا عليهم ، وعلى أن ننزل بـحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم ، وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الامير الذى بعثكم » .

ووجه الغرابة فى هذه الرسالة وبالنسبة الى ما قدر له أن يقع فى المستقبل أن الأجانب توقعوا منذ ذلك التاريخ نشوب حروب أهلية بين العرب حتى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الاخوة والحماسة الاسلاميتان فى ذروتها . وقد تحالف الفرس مع بنى تميم . وروى المؤرخون أن جماعات أخرى من مقاتلة الفرس فى المنطقة قد انحازوا الى المسلمين . وبينهم جنود المشاة وبعض الهنود . وقد تحالفت كل جماعة من هذه الجماعات مع احدى القبائل العربية .

وبعد أن استسلمت السوس ورامهرمز واصل أبو موسى تقدمه الى تستر حيث اجتمع نفر كبير من جنود الفرس وعلى رأسهم الهرمزان ، واضطر أبو موسى الى الاستغاثة بالخليفة ليرسل اليه بعض النجادات فأنجده بجريز بن عبد الله البجلي بطل معركتى البويب والقادسية ، على رأس قوة من جيش سعد بن أبى وقاص ، ودارت معركة بعد ذلك مع الهرمزان انهزم فيها ، واضطر الى الدخول الى تستر حيث أغلق على نفسه أبوابها . وقاد أحد الاعاجم مائتين وأربعين من العرب الى المدينة فى دجى الليل عن طريق منفذ سرى . وقتل المسلمون الحراس على الاسوار . ثم كبروا عليها وفتحوا الابواب لرفاقهم وأسر الهرمزان فبعث به أبو موسى الى المدينة .

وعندما استدعى النبيل الفارسى للمثول أمام عمر لم يكن له كبير أمل فى النجاة من الموت وتظاهر الرجل بالعطش وطلب شربة ماء ، وعندما قدم له الماء فى قدح ليشربه أخذ يتطلع قلقا حوله وكأنه يخشى أن يضرب أحدهم رأسه بالسيف وهو يشرب الماء ويمسك بالقدح بين يديه . ورأى الخليفة ذلك فأكد له أن أحدا لن يمسسه بسوء قبل أن يشرب الماء وسرعان ما صبب الهرمزان الماء على الأرض . وطلب أعرابى رأى الحيلة التى لجأ اليها الفارسى الداهية من الخليفة أن يسمح له بقطع رأسه .

«ولكن عمر رفض السماح له بذلك مؤكدا ضرورة الحفاظ على العهد .

وهكذا نجا الهرمزان من الموت ، وعاش بعد ذلك في مكة كأحد المسلمين حيث لقي حتفه بصورة مفاجئة كما سنروى فيما بعد . ويقسم هؤلاء الفرس المثل الاول على غير المسلمين الذين تحولوا الى الاسلام ثم انضموا في العنصر العربي(١) .

وأدت العمليات الحربية التي جرت في الأهواز ، الى اعتقال عدد كبير من الأسرى ظلوا رهن الأسر حتى جاء أمر عمر باطلاق سراحهم وقد تضمن أمره الحضى على الإبقاء على الزراعة ، حفاظا على رخاء البلاد وازدهارها بعد الفتح الاسلامى لها . وقد منع عمر اخراج الزارعين من اراضيهم في كل من منطقتى السواد والاهواز ، بشرط أن يدفعوا الخراج والجزية .

وسرعان ما وجهت الاتهامات الى الموظفين الذين اختارهم الامير لتقدير الضرائب فى الاهواز ، باستغلال نفوذهم ، مما حمل الخليفة على اصدار أمره بمصادرة نصف ثروتهم وهى طريقة سهلة ولكنها قاسية ، وكانت الطريقة الوحيدة المتيسرة لرجل وجد نفسه فجأة مثقلا بأعباء ادارة امبراطورية واسعة عن طريق جماعة من الاعوان يجهلون القراءة والكتابة .

أما وقد أضحى كسرى يزدجرد وراء جبال زاغروس وأضحت الاهواز كلها فى أيدي أبى موسى الأشعرى الذى أخضعها من قاعدته فى البصرة فقد بات فى وسعنا أن نعود لتابعة سير الأحداث فى أماكن أخرى .



تعرض الجزيرة العربية منذ أقدم عصور التاريخ بين الفينة والفينة

(١) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين العرب فقد ذكر أنس بن مالك قال :

حاصرنا تستر فنزل الهرمزان فكننت الذى ابيت به الى عمر . فقال له عمر : تكلم ، فقال : « كلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر تكلم لا بأس ، فقال الهرمزان : كنا معشر العجم ما خلى الله بيننا وبينكم تفصيكم وتفتلكم فلما كان الله معكم لم يكن لنا بكم يدان » . فقال عمر : ما تقول يا أنس ؟ قلت : تركت خلفى شوكة شديدة وعدوا كلبا . فان قتلته يش القوم من الحياة فكان أشد لشوكتهم وان استحبيته طمع القوم في الحياة فقال عمر : يا أنس ، سبحانه الله قاتل اخيك البراء ومجزاة بن ثور . قلت : فليس لك الى قتله سبيل ، قال : « ولم اعطاك أصبت منه » ؟ قلت : « لا ولكنك قلت له : لا بأس » فقال « متى ؟ لتجيش معك بمن شهد والا بدات بمقوبتك » قال أنس : « فخرجت من عنده قالذا الزبير بن العوام قد حفظ الذى حفظت فشهد بى فخلى عمر سبيل الهرمزان فأسلم وقرض له عمر .

(العرب)

الى موسم من مواسم الجفاف عندما تقل الامطار في أية سنة ، فلا ينبت الكلا ولا تظهر الاشواك عند حلول الربيع . وتظل البيداء كلها مجسدة قاحلة لا حياة فيها ، وتموت أعداد وافرة من الماشية والابل في مثل هذه المواسم . وتعانى الفئات الفقيرة من بدو وحضر شظف العيش ومتاعبه . كما تقاسى أبلغ الجهد فى بحثها عن الغذاء ولقد كان عام ٦٣٩ من هذا النوع فى الجزيرة العربية . واتخذ الخليفة من الاجراءات أكثرها حزمًا وصرامة لتخفيف الضائقة ومتاعب الحياة . وأمر عماله من أمراء الأمصار فى سورية وفلسطين والعراق بأن يبعثوا الى الجزيرة بقوافل كبيرة محملة بالغذاء والقمح وضرب عمر المثل للمسلمين فعاش طيلة هذه الفترة على الطوى لايمسك رmqه الا بما يناله أكثر المسلمين فاقة وعوزا .

وانتشر الطاعون السمل فى عام ٦٣٩ فى سورية وفلسطين بالاضافة الى تلك المجاعة القاتلة ، ومات الكثيرون من العرب واضطر العدد الكبير من الاحياء الى النجاة بأرواحهم من المدن الموبوءة هائمين فى الصحراء وقد أصيب القائد العام أبو عبيدة بالطاعون قبل أن تكتمل الهجرة ، فانتقل الى جوار ربه ودفن جثمانه فى وادى الاردن حيث لا يزال ضريحه قائماحتى الآن . وقد أعيد بناؤه فى عام ١٩٤٠ وكان يزيد بن أبى سفيان القائد الذى قام بدور كبير فى الحملة السورية من ضحايا الطاعون أيضا .

وحزم الخليفة الذى لا يقعه جهد أمره على زيارة سورية من جديد . لاعادة تنظيم الادارة فيها . بعد أن فقد المسلمون هذا العدد الكبير من قادتهم ، ويبدو أن الطاعون كان قتالا الى الحد الذى قيل فيه ان العرب فقدوا نحو من خمسة وعشرين ألفا من رجالهم من جرائه . مما دعا الى انتشار القلق من أن يهتبل الروم الفرصة فيعودوا الى مهاجمة سورية واحتلالها .

واختار الخليفة معاوية بن أبى سفيان ليكون أميرا على سورية خلفا لأبى عبيدة ولأخيه يزيد بن سفيان ، ولقد سبق لنا أن مررنا على ذكرس معاوية وهو يعمل كاتما للسر عند النبى فى المدينة ورأيناه يهرول حافى القدمين الى جانب الهجين الذى يستقله الضيف البدوى شيخ القبيلة المتعجرف القادم من جنوبى الجزيرة ، وأصبح معاوية بعد وفاة أخيه يزيد أكبر أبناء أبى سفيان ، وكان من أكثر الناس طموحا وتطلعا الى المجد . قد امتاز بالقدرة على التواضع واللين عندما تقتضيهمسا المواقف وعلى الصبر انتهازا للفرص ، فبرهن على أنه سياسى بعيد النظر من الدرجة الاولى ، وأثبت أنه حاكم لا يشق له غبار فى كفايته وطاقاته ، وقد قدر

لهذا الرجل أن يحول الحكم الاسلامى الدينى الممثل فى الخلفاء المخلصين ،
الاتقياء المتواضعين الى حكم امبراطورى وراثى قوى الدعائم زاهرا لقسما



وفى وسعنا الآن بعد أن رأينا ما لحق بامبراطوريتى الروم والفرس
من هوان واذلال وما حققه العرب من سيطرة على سورية والعراق وتثبيت
لاقدامهم فيها أن نعود فنلتفت الى الوراء لحظة واحدة نستعرض فيها
نشون هذه الامبراطورية الجديدة الداخلية بعد أن رأيناها تنمو هذا النمو
المذهل فى غمضة عين وانتباهتها . فلقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب
بالحاجة الماسة لمواجهة هذا الوضع الجديد باتخاذ بعض القرارات الرئيسية
الحاسمة .

ولم تكن الشعوب المقيمة فى فلسطين وسورية تمت الى اصل واحد ،
ففى المنطقة الساحلية على شطآن البحر المتوسط تقيم اقوام تمت الى جذور
مختلفة وممتزجة . فلقد كان الفلسطينيون والكنعانيون والحيثيون
والعبرانيون والفينيقيون هم اول من اقام فى هذه المنطقة ليعودوا فينصهروا
قبل نحو من ألف عام من تاريخنا الحالى مع المهاجرين من الاغريق والاقوام
اللاتينية . وغلب العصر الاغريقى على معظم مدن الساحل الكبيرة ، أما
فى المناطق الشرقية من سورية وفلسطين فكانت دولة الفساسنة (١) التابعة
لروم نصف عربية أو أكثر من نصف عربية . وكانت اللغة السريانية هى
الغالبية على معظم أرجاء هذه المنطقة التى يدين أهلها بالنصرانية . ولقد
جاء إليها أيام الفتح الاسلامى الوف من أبناء القبائل العربية استصحب
الكثيرون منهم معهم نساءهم وأطفالهم ، وعلى الرغم من أن الطاعون كان قد
قضى على الكثيرين من العرب فإن أعدادا كبيرة منهم نجت منه وظلت تعيش
فى سورية . وعندما انتهى أمر القتال فيها لم يعد أمام هؤلاء ما يعملونه ،
يضاف الى هذا أن انتهاء القتال كان يعنى بالنسبة اليهم انتهاء عهد الاسلاب
والغنائم .

وبرزت مشكلة أمام الخليفة : ترى هل يسمح لهؤلاء العرب القادمين
من الجزيرة العربية بالاختلاط بأهل سورية وفلسطين ؟ أو هل يفرض
عليهم عزلة مقصودة ؟ وكان يرى أنه لو سمح لهم بالاختلاط فانهم لن
يلبثوا فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال أن يندوبوا فى المجتمع المحلى المقيم

(١) الفساسنة عرب اصلاء .

في المنطقة • وليست هناك بالطبع أية احصاءات موثوقة عن السكان في سورية وفلسطين في القرن السابع ، ولكن الشيء الثابت أن هذين البلدين كانا مزدهرين كل الازدهار كامارتين رومانيتين طيلة القرون الستة الماضية وليس ثمة من شك في أن عدد سكان المنطقة كان يقل في عام ١٩٦٠ عن عشرة ملايين بقليل ، أما في أيام البيزنطيين فعلى الرغم من أن البلاد كانت في حالة ازدهار تفوق أحوال اليوم فإن ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال وعجز الناس عن منع الأوبئة من الانتشار ، كان لا بد أن يؤثر على عدد السكان وأن يبقيا على نسبة خفيفة في • وقد نغامر فنقول على سبيل الحدس والفرض أن عدد سكان سورية وفلسطين في عام ٦٤٨ لم يكن يزيد على ثلاثة ملايين وإن كان هذا التقدير يقل عن الحقيقة بعض الشيء • ولم يزد عدد جنود الجيش العربي الذي اشترك في المعارك الضارية التي جرت في تلك الايام ، عندما كانت القيادة الاسلامية في حاجة الى كل جندي ليخوض المعركة في سورية على الخمسة والعشرين ألفا • وكان بعضهم تصحبهم نساؤهم وأطفالهم •

وعلى هذا الاساس يمكننا أن نفترض أن عدد المسلمين مع أفراد عائلاتهم في سورية في تلك الايام لم يكن يربو على مائة ألف • وعلى هذا لم يكن عرب الجزيرة المقيمون في سورية يربون في تلك الايام على أكثر من واحد من ثلاثين من عدد السكان، ولذا كان مجرد السماح لهم بالاختلاط مع أهل البلاد يعنى ذوبانهم في هذا المحيط الشامل الواسع وإذا ما استثنينا أبناء القبائل البدوية المربطة في بادية الشام فإن أهل سورية لم يظهروا أية خصائص قتالية بارزة ، ومن هنا يكون الامتزاج سبيلا الى اضاءة العرب لمزاياهم وفضائلهم •

وأخيرا كان عمر بن الخطاب الودع المتطهر يتنظر بشيء من الفزع والهلح الي ما يمتاز به السورويون من ميل الى الرقص والموسيقى والثياب الناعمة المثرفة والخمور وعلى ضوء هذا قرر الخليفة عزل المسلمين العرب عن أهل البلاد وأن يجعل منهم طبقة عسكرية حاكمة مهمتها الحكم وخوض القتال • وتحقيقا لهذا الهدف أمر أن يظل معسكر الجابية الحربي المقرب الدائم للعنصر الحاكم والمنطقة المعزولة لاقامتهم •

ولقد رأينا أن العرب في العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص احتلوا قصور الأكاسرة والدهاقين في المدائن بجزأياها ، وليس ثمة من شك في أن عمر كان يحس بأشد القلق والخوف من اجتماع افساد المسلمين عن طريق الانغماس في الترف ، وكان الجنود يشكون من سوء أحوالهم الصحية في

العراق ومن انتشار البعوض وهجماته . وبالإضافة الى هذه الاعتبارات كلها كان الخليفة يخاف خوفا نفسانيا قويا من السماح لجنوده بأن يصبحوا مقطوعين على الضفة الأخرى من النهر ، اذ أن ذكريات معركة الجسر المفجعة سببت له كابوسا دائما مرعبا .

ولهذه الاسباب جميعها كتب عمر الى سعد بن أبي وقاص يأمره باختيار مكان مناسب يصلح قاعدة عسكرية رئيسية شريطة أن يكون على أكتاف الصحراء وعلى الضفة الغربية من الفرات ، وقد نتج امره هذا عن رغبته في أن تكون الصحراء هي الفاصل الوحيد بينه وبين رجاله ، وفي مثل هذه الحالة يكون على ثقة من أن اتصاله بهم لن ينقطع .

واختار سعد بن أبي وقاص بعد أن تحرى مناطق عدة موقعا له قريبا من الحيرة . وقد حشدت قوات العرب الرئيسية هنا في هذا الموقع في عام ٦٣٩ فسكنت في بادئ الأمر في الخيام وفي الأكواخ المبنية من القصب . وأمر سعد ببناء مسجد في المكان ثم بنى منزلا له . وسرعان ما أخذت الأبنية في الانتشار فتم بذلك بناء الكوفة التي غدت بصورة تدريجية مدينة قدر لها أن تؤدي دورا هاما وأحيانا دورا سيئا في التاريخ العربي .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ان القوات العربية كانت قد عسكرت عند رأس الخليج على مساحة من الأرض التي ينتشر فيها الحصى تسمى البصرة . وأدى امتداد العمليات العسكرية الى الأهواز بعد القادسية الى ارسال نجدات اضافية الى هذه المنطقة مما أسفر عن تحول البصرة الى ما غشت عليه الكوفة أي الى قاعدة عسكرية سريعا ما تطورت الى مدينة حديثة .

وهكذا تبرز لنا صورة جديدة تظهر فيها الجيوش العربية القادمة من الجزيرة العربية وقد وطئت أقدامها في الامارات المحتلة وان لم يجر تسريحها ولقد حيل بينها وبين الامتزاج مع السكان أو بينها وبين امتلاك الاراضي والاقبال على فلاحتها . فلقد صدرت اليهم الأوامر بالبقاء منفصلين منعزلين يمثلون عنصرا حاكما وجنودا يحتشدون في القواعد العسكرية الكبيرة كالجابية في سورية والكوفة والبصرة في العراق .

ولكن لم يكن في الامكان الحيولة دون وقوع الاندماج في ناحية واحدة على الأقل . فلقد أذن الاسلام لمعتنقيه بالزواج بأربع من النساء . أما قبل الاسلام فلم تكن ثمة حدود أو قيود على تعدد الزوجات وكان في مكنة الرجل الزواج بأى عدد من النساء وان كانت النسبة الطبيعية بين عدد الذكور والاناث لم تكن لتسمح بصورة آلية رتيبة للرجل بالزواج بعدد

كبير منهم ، وكان الاسلام قد سمح للمسلم باقتناء الجوارى من أسيرات الحرب أو الاماء ، لكن النطاق المحدود للحروب فى عهد النبى والفقر العام الذى كان يعيش فيه العرب . كانا قد منعنا اساءة استعمال هذا الحق . أما الآن ، وبعد هذه الفتوح السريعة المذهلة لمناطق سورية والعراق الغنية والخصبة والمتحضرة ، فقد بات فى وسع المحاربين العرب أن يحصلوا على عدد غير محدود من الاسيرات ، وان تتوافر لهم الامكانيات المادية لعولهن وأدى هذا الوضع الى ولادة عدد ضخم جدا من الاطفال فى القواعد العسكرية لابائهم العرب ، وكانوا يعتبرون عربا وان كانت معظم أمهاتهم من الجوارى أو الاسيرات أو الاماء . ولم يمض أكثر من جيل واحد حتى كانت الطبيعة العنصرية للعرب الذين احتلوا سورية والعراق تختلف بعض الاختلاف عن طبيعة أبناء الجزيرة العربية .

وأدى تركيز الفاتحين العرب فى المناطق العسكرية المحظورة الى ضرورة دفع الرواتب اليهم نظرا لمنعهم من العمل فى الزراعة أو التجارة ، وكان تنظيم دفع الرواتب الى جيش ضخم كهذا الجيش عملية منهكة لحاكم لا يعرف من القراءة أو الكتابة من رعاياه الا نفر القليل . وفى سنوات الفتح بين عامى ٦٣٣ و ٦٣٨ كانت أربعة أخماس الغنائم توزع فورا على الجنود . وهى عملية جعلت الرواتب أمرا لا ضرورة له ، اذ جعلت من كل محارب من محاربى المسلمين رجلا واسع الثراء . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ، عزف عن المضى فى الفتح ، رغبة منه فى أن يثبت العرب أقدامهم فى المناطق الواسعة التى فتحوها ، لكن توقف العمليات الحربية عنى بالنسبة اليه وقف الغنائم ومن ثم الحاجة الى دفع رواتب الجنود .

وكان النبى قد رفض طيلة حياته جمع المال أو المواد الغذائية فى بيته . وتذكر الروايات الكثيرة أنه كان يأبى ابقاء شئ منها ليلة واحدة فى داره . فאלله جلّت قدرته يوفر الرزق لعبيده من يوم الى يوم . ولم يخرج الاسلام فى هذا عن تقاليد النصرانية فلقد روت القديسة تريز أن رهبان الكرمليين كانوا يرفضون عند انشاء رهبنتهم اختزان الطعام لأكثر من يوم واحد . وكان النبى يرى أن اختزان المال أو الاغذية دليل على الافتقار الى الايمان بالله . وعلى ضوء هذه السنة كانت ثروات الامبراطوريات التى تتدفق على المدينة فى سنوات الفتح بين عامى ٦٣٣ و ٦٣٨ كفىء يشمل خمس الغنائم . توزع فور وصولها على المستحقين ، ويظل بيت مال المسلمين خاويا . وكثيرا ما رد عمر بن الخطاب على ناصحيه بالابقاء على جزء من المال كوفر احتياطي . فى بيت المال ، بأن اقترحهم هذا نابع عن الشيطان ، ويضيف الى ذلك ،

قوله : انه يؤمن بالله ورسوله وهذا هو الوفر الاحتياطي الذي ينشده .
فقضية الاسلام هي قضية الله ، ولا بد أن يؤمن الله لقضيته كل ما تحتاج
اليه . وهكذا وجد عمر خزينته عند ما واجه ضرورة دفع الرواتب للجنود
خاوية من كل مال .

ومن الصحيح بالطبع ان أى خفض فى كمية الغنائم قد يعوض من
جاء الحقيقة الواقعة وهي أن المناطق المحتلة كانت مرغمة على دفع الجزية
والخراج . وعلى الرغم من احتمال العثور على المال بهذه الطريقة فان صعوبة
العمل قد تضاعفت اذ من الواجب ايجاد توازن بين الدخل وبين الاتفاق .
وبالطبع لم يكن العرب قادرين على أن يؤمنوا جهازا كافيا للخدمة المدنية .
ولا يفكر أن الموظفين القدامى فى سورية والعراق ظلوا فى مراكزهم بعد
الفتح العربى ، وظلت الحسابات فى سورية تعد من قبل الموظفين البيزنطيين
باللغة الاغريقية ، كما ظلت الحسابات فى العراق تعد بالفارسية من قبل
الموظفين السابقين عند الاكسرة .

وبالطبع لم تتوفر الامكانيات لعمر بن الخطاب لاصدار عملة عربية
جديدة ، ولذا فقد ظل النقد البيزنطى متداولاً فى سورية وفلسطين على
حين ظل النقد الفارسى المتداول فى العراق . ومهما كانت القواعد التى
سنها المسلمون بالنسبة الى الضرائب والجزية والخراج والعشر وما شابه
ذلك ، فان العمل الحقيقى فى التقدير والجبائية من سكان المناطق المحتلة ،
ظل بأيدي الموظفين السابقين عند الدول السابقة الزائلة .

وظهرت متاعب أخرى فى الشؤون القضائية : فلم يكن لدى المسلمين
قانون مدنى ، وانما كانوا يعتمدون على القرآن والسنة والحديث فى ايجاد
الحلول المناسبة لجميع المشاكل التى يواجهونها . وكان من الطبيعى ألا
يقبل النصارى واليهود والمجوس (أتباع زرادشت) مثل هذا النظام ، اذ
انهم لا يؤمنون بأن القرآن من التنزيل . ومع ذلك ، فام يحاول المسلمون
ارغام هؤلاء الناس على اعتناق الاسلام ، اذ أن الاسلام نص على أن لا اكراه
فى الدين . ولهذا كان الحل الوحيد والمعقول ، هو السماح للنصارى
واليهود باستخدام قوانينهم الخاصة بأحوالهم الشخصية . وأن يقوم
قضاتهم بتطبيقها ، وقد ظل هذا الاجراء متبعا فى البلاد الاسلامية حتى
يومنا هذا ، اذ ورثه الاتراك العثمانيون عن العرب فى القرن السادس
عشر . وكانت الكنائس المسيحية والجاليات اليهودية تؤلف فى ظل الحكم
العثمانى مناطق شبه مستقلة ضمن اطار الدولة .

ولما كانت الدولة الاسلامية الاولى دولة دينية ثيوقراطية ، تعتمدها في قوانينها على شرائع الله فان الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذي يفرق بين الناس ويميز الواجد منهم عن الآخر . ولو سئل أى رجل يعيش في الشرق الاوسط طيلة الف وثلثمائة عام عن نفسه لرد بأنه «مسلم وبالحمد لله» أو «مسيحي» أو «يهودي» ولا يرد بأنه «عربي» أو «مصري» . وكان هذا الرد نتيجة حتمية للحكم الديني . لكن تمثلت النتيجة الفورية لفتوح القرن السابع ، وهذا أمر يثير الغرابة ، في نشوء شكل من أشكال القومية العربية لفترة مؤقتة على الأقل ، فلقد كان العنصر العربي هو الذي أطاح بدولتي الفرس والروم . وكان الجيل العربي الذي قام بهذه المهمة من الرجال الذين تحولوا الى الاسلام في أوسط العمر ، بعد أن نشؤوا في ظل الجاهلية على عبادة الاوثان وتعشق أساطير البطولة العربية والحب والحرب . وليس غريبا والحالة هذه أن تكون ثمرة الفتوح العربية نشوء عنصر عربي سيد يشعر بالاعتزاز والفخر لما حققه من أمجاد . ولكن العناصر الاعرابية ، ظلت طيلة القرن الاول للإسلام ، تشق طريقها ببطء متسللة الى مراكز السلطة . وأدى هذا التسلسل بالتدريج أيضا الى اختفاء غطرسة العنصر العربي ليحل محلها شعور بالتفوق الديني الاسلامي ظل قائما ثم يطرأ عليه أى تعديل حتى القرن العشرين . ولم يضعف أمر الحكم الديني أو يختلف الا في الأربعين سنة الاخيرة ، من جراء تحول الدولة في البلاد الاسلامية من الدين الى العلمانية . ولقد بنيت الدول العلمانية الحديثة على الاسس المتبعة في أوروبا الغربية لا على أسس التقاليد الاسلامية .

وهكذا قدر للقرارات العاجلة التي اتخذها النبي وخليفته الأولان ، عندما واجهتهم مشكلة ادارة الامبراطورية الجديدة أن تقرر شكل الحياة وطرائقها في الشرق الاوسط لمدة تزيد على الف عام .

واذا كانت جباية الضرائب من البلاد المحتلة ، قد ظلت في بادئ الامر في أيدي الاروam والفرس ، فان صرف الرواتب الى الجنود العرب كان لابد وأن يحصر في أيدي عربية . واضطر عمر تحقيقا لهذه الغاية الى القيام بعمل ضخم على نطاق مذهل . يكاد يشبه القيام بأحصاء عام للعرب في المعروف أن القبائل كانت تحل في الجيوش العربية محل الوحدات في الجيوش الاخرى . وكانت كل قبيلة منها تحارب تحت علمها وبقيادة رئيسها . ومن هنا نشأت الحاجة الى دفع الضرائب على أسس قبلية .

وكانت ثمة اعتبارات ثلاثة تقرر المبلغ الذى يدفع لكل فرد من الافراد ، اولها الاسبقية فى التحول الى الاسلام وثانيها القرابة من رسول الله وثالثها البلاد فى سبيل الله . وهكذا كان نصيب عائشة أم المؤمنين اثني عشر ألف درهم بينما كان نصيب كل من زوجات النبي الاخريات عشرة آلاف درهم . وكان الدرهم هو العملة الفضية المستعملة فى تلك الايام . وكان نصيب كل فرد من آل الرسول خمسة آلاف درهم وهو عين ما يتقاضاه الصحابيون من الذين اشتركوا فى معركة بدر . وكان نصيب من شهدوا بيعة الشجرة فى الحديبية أربعة آلاف درهم ، بينما يتقاضى الذين أسهموا فى حروب الردة ثلاثة آلاف درهم ويتقاضى المحارب الذى اشترك فى فتح دمشق أو فى معركة القادسية ألفى درهم فى العام . وأصبح الجنسدى العادى يتقاضى فيما بعد خمسمائة درهم فى العسام أما الذين يبلون بلاد حسنا ويمتازون ببطولات بارزة فيتقاضون خمسمائة درهم اضافية . أخرى كما يتقاضون أية رواتب أخرى بموجب المؤهلات الأخرى التى يمتازون بها . وكان الحد الأدنى للرواتب مائتى درهم ، ويدفع للمجندين خمسمائة درهم . أما أرامل الشهداء المسلمين الآخرين فى المعارك الأخرى فيتقاضين رواتب متفاوتة . ولعل مما يثير الدهشة أن تستطيع هذه الادارة غير المتعلمة السير فى مثل هذا النظام المعقد بنجاح . ويبدو أن التوزيع كان يجرى على الطريقة القبلية أى أن الرواتب تدفع الى رؤساء القبائل . الذين يسلمونها الى الموثوقين من الشيوخ فينقلها هؤلاء بدورهم الى الافراد .

وكانت الاسلحة التى يستخدمها العرب هى الاسنة بالنسبة الى الفرسان وذلك لان السنان كان السلاح الاثير عند العرب . وكانت النبال والاقواس مع المقاليع التى تقذف بالحجارة ، تؤمن نيران التغطية للجنود . أما الحراب التى تقذف فكانت من الاسلحة المألوفة لدى حراس مكة . وهم جماعات استخدمتهم قريش فى أيام الجاهلية كجنود مرتزقة ، وقد شهدناهم يحاربون فى معركة أحد . ويستخدم المشاة والفرسان على حد سواء السيوف فى حربهم ، أما الاسلحة الدفاعية فتشتمل على الدروع والخوذ الفولاذية . ولا ريب فى أن الدروع كانت نادرة فى الايام الأولى ولكن العرب ما لبثوا أن غنموا من الروم والفرس كميات ضخمة جداً من السلاح والعتاد والدروع والجياد .

وكان العرب قد ألفوا منذ عهد بعيد ، ولا سيما البدو منهم مبادئ السوقية (الاستراتيجية) الاساسية التى تقوم على السرعة والمباغتة

وحشد القوى في المراكز الحساسة الحاسمة . وكانوا في أيام الجاهلية يفتقرون الى النظام والانضباط ولكن السنوات الست المتعاقبة من الصراع المستمر مع جيوش الفرس والروم ، علمتهم ولا ريب الكثير من الدروس ، التي لم تسجل لسوء الحظ لنفيدها منها نحن . لكن في وسعنا الافتراض بصورة عامة بشيء من الثقة انهم كانوا لا يزالون حتى عام ٦٣٨ أقل من أعدائهم خبرة بدقائق التنظيم والتجهيز الحربي . ولقد كان في الامكان حل مشكلة الانضباط بصورة مؤقتة ابان الفترة التي استمر فيها الحماس الديني على أشده اذ أن الانضباط شيء صعب على العرب دائما . ففي تلك الفترة كانوا يحاربون في سبيل الله ، لا في سبيل شخص أو انسان . ولهذا الغاية كان قائد الجيش دائما هو الذي يؤم الجنود في صلواتهم ويخطبهم أيام جمعهم ، ومن هنا نستطيع القول ، على أي حال بأن انتصاراتهم المذهلة لم تتحقق بفضل تفوق في علومهم العسكرية ، وانما يرجع الفضل الاول في هذه الانتصارات التي حققها الفاتحون العرب الى روحهم الحماسية ومعنوياتهم العالية . ولا سيما وقد تقوت هذه المعنويات عن طريق الايمان بأنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، وان من يستشهدون منهم يمضون قدما وسراعا الى فراديس النعيم المقيم . أما السبب الثاني في هذه الانتصارات فهو انهم ألفوا شظف العيش وخشونته ألوف السنين على اكناف الصحراء وفي أوضاع حياتية تقرب من المجاعة مما جعل منهم شعبا صلبا لا يلين . أما السبب الثالث فهو قدرتهم على السرعة الهائلة في الحركة ولا سيما في الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما . ولقد رأينا فيما سلف كيف انهم في جميع معاركهم باستثناء معركة الجسر ، قد استغلوا هذا العامل الى أقصى حدود الاستغلال وظلوا يجرؤون أعداءهم الى قتالهم على أكناف الصحراء .

ولم يكن النبي قد تحول الى حاكم دنيوى بالاضافة الى سلطاته الروحية الا في السنيتين الاخيرتين من حياته . ولم تطل خلافة أبي بكر أكثر من عامين آخرين ، أما عمر بن الخطاب فقد دامت خلافته عشرين سنوات من عام ٦٣٣ حتى عام ٦٤٣ ، وتحققت في أيامه معظم الفتوحات الاسلامية الضخمة . وهكذا تمكن عمر من أن يخلف للاجيال القادمة أثرا لا يمحي في تاريخهم .

وكان بين القرارات الهامة التي اتخذها فأصبحت قواعد متبعة علم

السماح لغير المسلمين بالعيش في الجزيرة العربية (١) ومما يجدر ذكره . ان النبي كان قد عقد معاهدة ودية مع نصارى نجران ولكن عمر بن الخطاب . عاد فأخرجهم من بلدهم ، فهاجر القسم الاعظم منهم الى ضفاف الفرات . وكان النبي قد استولى على خيبر وأخضع يهودها ، ولكنه تركهم في أرضهم . شريطة أن يدفعوا الجزية ، فلما جاء عمر حملهم على أن يهاجروا منها الى الشمال . وتقول الروايات ان عمر استند في اجراءاته الصارمة هذه الى حديث للنبي على فراش الموت يأمر فيه بأن يكون الدين الاسلامي هو الدين الوحيد المهيمن على الجزيرة العربية ولو صح ان النبي قد أصدر مثل هذا الامر حقا ، فان مما يثير الاستغراب ألا يحاول خليفة الاول أبو بكر انفاذه وتطبيقه ، ولقد سبق لنا ان رأينا أبا بكر حريصا كل الحرص على . انفاذ كل ماعمله رسول الله ، وأوصى به في حياته بكل دقة وتفصيل . ولا ريب في ان عمر قد وضع في عمله هذا اسس الحياة للأجيال القادمة . فعلى الرغم من بقاء أقليات مسيحية ويهودية ضخمة في البلاد المحتلة كسوريا ومصر والعراق ما زالت باقية حتى يومنا هذا ، الا ان هذه الاقليات اختفت باستثناء يهود اليمن من جنوب الجزيرة العربية ووسطها . وقد سبق لي ان اشرت الى جمع القرآن لأول مرة ، وان هذا العمل . قد بدأ بعد معركة اليمامة نتيجة استشهاد عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن وقد اختار الخليفة لجنة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت كاتب النبي الخاص . ولم يكمل عمل اللجنة ويتم جمع القرآن الا في عهد عمر . ابن الخطاب وقد سلمت نسخة منه الى حفصة أم المؤمنين وابنة عمر ، لتكون وديعة لديها (٢) .

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بهذه الرواية . اذ لو صحت ، لما ظل اليهود يقيمون في اليمن ثلاثة عشر قرنا . الا اذا كان المؤلف لا يعتبر اليمن جزءا من الجزيرة العربية وهو تقدير خاطيء يضاف الى هذا انه لو صح وجود مثل هذا الامر وتلك الرواية لما سمح للمسيحيين بالعيش في كثير من بلاد الجزيرة العربية كجدة والظهران والكويت وقطر وغيرها في أيامنا هذه ، اذ لا تجرؤ حكومة عربية على مخالفة اوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذا الشكل الواضح . وكل ما في الامر ان الحظ لا يشمل الا الاماكن المقدسة في مكة المكرمة . ولكن قصد المؤلف واضح وهو الطعن في عمر من ناحية ، واظهار الاسلام بمظهر التعصب من الناحية الاخرى . (العرب)

(٢) يختلف رواية المؤلف عن روايات المؤرخين العرب فقد أخرج البخاري عن زيد بن ثابت انه قال : أرسل الى أبو بكر عند مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال . أبو بكر : ان عمر اتاني فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني لخشى . ان يستحر . القتل بالقراء في الواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه واني لارى .

وكان أبو بكر قد تسمى بالخلافة بعد مبايعته اثر وفاة النبي . وكان
عمر عند توليه الامر قد احتجّ تواضعاً بأنه ليس بخليفة رسول الله وانما
هو خليفة خليفته . ويبدو أن استخدام هذا اللقب كان شاقاً على
الاستعمال وفجأة خاطبه أحد المسلمين بعبارة أمير المؤمنين . وقد ظل
اللقب مستعملاً بالنسبة الى الخلفاء طيلة ثلاثة عشر قرناً .

ان يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى
عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله
لذلك صدرى ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال
أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله عليه الصلاة
والسلام ، فنتبج القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل
على مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي عليه
الصلاة والسلام ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجع حتى شرح الله
صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فنتبج القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف
والعصب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم
اجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى اخرها .

فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله . ثم عند
عمر حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

وأخرج أبو يعلى عن علي قال : اعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر . ان
أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللوحين . (المغرب)

تواريخ مشهورة

٦٣٨	ربيع عام	حشود القبائل النصرانية واسترجاع الروم لانتطاكية
٦٣٨	ابريل (نيسان)	احتلال المدائن فى العراق
٦٤٠ - ٦٣٨		فتح الاهواز
٦٤٠ - ٦٣٩		الطاعون الدملى فى سوريا / المجاعة فى الحجاز
٦٣٩		تمصير الكوفة

شخصيات بارزة

امير البصرة	المغيـره بن شعـبة
فاتح الاهواز وامير البصرة	أبو موسى الاشعري
القائد العام فى سوريا - توفى بالطاعون	أبو عبيدة
خلف أبا عبيدة فى امارة سوريا	معاوية بن أبى سفيان
كأتم سر أمير البصرة •	زياد

بَابُ الْعَظِيمَةِ

•• آمن عمر الكريم بربه وبسيفه الذى هز به عروش
الأكاسرة والقياصرة ولكنه عندما قارن بين قوة
المسلمين الفضيحة وبين عظمة المشروع الذى أقدم عليه
نلم على تسرعه • وكان كل من يقرأ القرآن يعرف بما
كان عليه فرعون من عظمة وكبرياء •• وكانت مدن
مصر أهلة بالسكان ، ووافرة العدد ، وكانت أبنيتهما
قوية وثابتة الأركان وكان لا بد وأن تدافع قوات
الرومان دفاعا عنيدا عن أهراء رومة (١) •

— جيبون — انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها —

« سقطت ، سقطت بابل العظيمة • الويل ، الويل ،
آيتها المدينة العظيمة ، بابل المدينة القوية ، فان دينوتك
قد نزلت فى ساعة واحدة • الويل الويل آيتها المدينة
العظيمة ، التى استغنى فيها جميع الدين لهم سفن فى
البحر من نفائسها ! فانها قد تلفت فى ساعة » •

رؤيا القديس يوحنا — الفصل الثامن عشر

(١) أهراء رومة ، اسم أطلقه الرومان على سهول حوران في سوريا وعلى

كنوز مصر •

احتل الفرس مصر عام ٦١٧ في أثناء الحرب الطويلة التي استمر
أوارها بين كسرى أبرويز وبيزنطة . ولم يجلب عنها الفرس الا في
عام ٦٢٧ ، نتيجة قيام هرقل بغزو فارس نفسها . وتقدمه باتجاه المدائن
من الموصل ولا ريب في ان سلطان بيزنطة كان قد اختفى ابان هذه الفترة
تمام الاختفاء . وكان الفرس في غضونها قد ارتكبوا آثاما كثيرة ورهيبة .
وان لم يعرضوا لاضطهادهم اتبناع الديانة القبطية ، وعقد الصلح بين
الروم والفرس في عام ٦٢٨ وما لبث أن وصل الى مصر في ذلك العام أو
في العام الذي تلاه جيش بيزنطي ، قادم عن طريق البحر من القسطنطينية
ليتولى حماية البلاد .

وكان هرقل في هذه الآونة في ذروة مجده وانتصاراته . فلقد
أنقذ الامبراطورية من الدمار واسترجع من المجوس عبدة النار ، الصليب
المقدس ، وظل الامبراطور الظافر يتطلع في ساعة نصره هذه الى هدف
عظيم واحد وهو توحيد الكنائس المسيحية التي كانت قد انقسمت منذ
أمد بعيد الى أرثوذكسية ويعقوبية (قبطية) ونسطورية . وكانت هزيمة
المجوس الفرس واستعادة الصليب المقدس قد أيقظتا في صدور المسيحيين
جميعا شعلة الحماس ، وقد باتت الفرصة مواتية الآن لاعادة الالتحام الى بناء
المسيحية المتجزىة ، وعهد الامبراطور تحقيقا لهذه الغاية الى لجنة من ثلاثة
مطارنة بوضع بيان لاهوتي جديد عرف في التاريخ باسم «مذهب الطبيعة
الواحدة» . ويبدو أن هذا البيان كان محاولة للتوفيق بين المذهبين
الأرثوذكسي واليعقوبي .

وأراد هرقل اقناع نصارى مصر بقبول العقيدة الجديدة فاختار
سيروس مطران فاسينيس في القفقاس ويسميه العرب المقوقس لتنفيذ هذه
الغاية وانتدبه في الوقت نفسه بطريقا لالاسكندرية وحاكما له في مصر .
ولكن تعيين المقوقس لهذا المنصب أثار ردا معاكسا فبدلا من أن يوحى
بالثقة ، دفع بنيامين بطريق الاقباط الى الفرار من قصر البطريكية واللجوء
الى الصحراء للاختفاء فيها اذ كان الصراع بين الكنيستين الارثوذكسية
واليعقوبية من القوة والجذور التاريخية بحيث استحال على مرسوم
امبراطوري أن يحله في غمضة عين . ولقد رفض اليعاقبة المذهب الجديد
الذي وضعه الامبراطور دون أن يدرسوه أو يتفهموه على الغالب . وكان

فى امكانهم مع مرور الزمن أن يكسبوا نتيجة الصراع، لو استجابوا لدعوة الامبراطور ، اذ ان الكثيرين من الناس رأوا فى المذهب الجديد تسليما الى حد كبير بمذهب اليعاقبة القائم على وحدة الطبيعة بين الاب والابن . لكن الاقباط لم يكونوا على استعداد للاصفاء والتفاهم ، وكان المقوقس فى الوقت نفسه على أهبة لاستخدام القوة . وبدلا من أن يترث ويرقب آثار المذهب الجديد وخلص الناس من صدمة المفاجأة شرع يضطهد جميع الذين يخالفونه اضطهادا شديدا ، واتخذ فى عام ٦٣٢ ، وهو العام الذى انتقل فيه النبى الى الرفيق الاعلى فى المدينة اجراءات عنيفة صارمة مع جميع الهراطقة والمخالفين فى مصر . فقد ألقي القبض على ميناى شقيق بنيامين بطريق الاقباط ، وراح يشعل النار بالمشاعل فى أنحاء متفرقة من جسمه أمام الناس بعد أن اقتلع أسنانه ، وأمر بوضعه بعد ذلك فى كيس ملى بالرمل وأن يقذف بالكيس فى البحر وكان قد عرض عليه النجاة من الموت ثلاث مرات اذا أقر بالمذهب الارثوذكسى ، فلما رفض فى المرات الثلاث الاستجابة الى العرض أمر بقذفه فى البحر .

وأوفد المقوقس جماعات من الجند الى اديرة الاقباط وكنائسهم ليطلبوا من القسس والرهبان تواقعهم على الولاء للمذهب الارثوذكسى وليجلبوا بالسيات ثم يحبسوا كل من يرفض التوقيع منهم . وقد أذعن الكثيرون للبطش ولكن عددا كبيرا من الرهبان رفض الازعان وفر من الاديرة بينما واصل البعض الثالث عبادته على الطريقة اليعقوبية سرا تهريا من الاضطهاد . وجدير بنا أن نقول ان عمليات الاضطهاد هذه أدت ككل عمليات مشابهة لها الى تعزيز الكنيسة القبطية وتقويتها ، كما أدت الى قطع آخر خيط من خيوط الولاء السياسى والحب عند مسيحيى مصر لدولة الروم فى بيزنطة .



تذكر الروايات أن عمر بن الخطاب ، بحث مع عمرو بن العاص ، عند مجيئه الى القدس لتسلم المدينة ، امكان القيام بغزو مصر . وكان عمرو بن العاص قد مضى الى قيسارية وهى المدينة الوحيدة فى فلسطين التى ما فتئت صامدة أمام العرب لحصارها . ويرجع السبب فى صمود قيسارية هذه المدة الطويلة ومقاومتها الى وجود القوات البيزنطية فى مصر اذ أن الاسكندرية كانت القاعدة البحرية الوحيدة التى كان فى وسع الروم أن يستخدموها لتموين المحاصرين فى قيسارية بطريق البحر . وقد تم انزال الروم فى انطاكية أيضا واعادة احتلالها لدعم ثورة القبائل النصرانية

فى الجزيرة بقوات برية وبحرية جاءت من الاسكندرية • وكان عمرو بن العاص يرى وهو محق فى رأيه أن سواحل سورية وفلسطين ، لن تكون فى مأمن أبدا مادام الاسطول البيزنطى معتمدا على قواعده فى مصر •

وقد سبق لنا ان رأينا الخليفة دائم الميل الى الحذر والتروى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يمضى أحد جيوشه فى القتال بعيدا بحيث يتعرض لخطر الانقطاع • وكان قد حال بين سعد بن أبى وقاص وبين اجتياز جبال زاغروس ، وأصر على أن تكون قاعدته العسكرية الرئيسية فى الكوفة على أكناف الصحراء ، وقد ازداد حدة عندما قام عامله فى البحرين بدون إذن منه بالابحار عبر الخليج والنزول بقواته فى امارة فازس فى جنوب ايران • وقد انعزلت القوات عن المراكب التى حملتها وكادت تمنى بكارثة لولا أن جاءتھا النجدة عن طريق رتل برى أرسل الى البصرة على جناح السرعة • وكانت نتيجة هذه الغزوة ان عمر بن الخطاب تردد طويلا فى قبول القيام بحملة جديدة على مصر (١) •

كانت المشكلة التى واجهها عمر اليوم من المشاكل التى طالما واجهتها عبر التاريخ جميع الدول المتوسعة الجديدة • فعندما تحتل دولة تنشده

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين العرب ، اذ تقول هذه ان العلاء بن الحضرمي كان أميرا على البحرين لعمر ، وكان العلاء يبارى سعد بن أمي وقاص ، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل ، فلما ظفر سعد بالتأديسية وأزاح الاكاسرة وأخذ حدود ما يلى السوداء ، سر العلاء أن يصنع شيئا فى الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد ، فشدب أهل البحرين الى فارس فتمسروا الى ذلك وفرقهم أجنادا فحملهم فى البحر بغر اذن عمر • وكان عمر لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا • عبر هؤلاء الجنود البحر فخرجوا فى اصطخر ، وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حيثهم وقالوا أهل فارس مقاتلة المستमित فظفروا ، ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي • قد أخذ عليهم الطريق فمسكروا فى موقعهم وامتنعوا •

وبلغ خبر ذلك عمر ، فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يمزله وأمره بالقتل الاشيء عليه وهو تأمر سعد عليه وقال له : الحق يسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد • وكتب عمر الى عتبة بن فزوان أمير البصرة أن يسير جندا لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من أهل النجدة فخرجوا فى اثني عشر ألفا وعليهم أبو هيرة بن أبى وهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا اخوانهم وهذه هى الغزوة التى ثرفت بها ثابتة البصرة ثم اكتفوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة •

— العرب —

التوسع في بلاد جديدة يهب قادتها العسكريون فينادون بأن سلامة البلاد المحتلة تظل مهددة من البلاد الأخرى التي تقوم وراءها ويتردد الساسة في القيام بالتزامات جديدة . وتقوم آن ذاك البلاد المجاورة بنوع غير مجد من الأعمال الهجومية وتقدو حركة الزحف الى الأمام من الدولة الاستعمارية أمراً حتمياً . ولو عدنا سبعمائة سنة الى الوراء لرأينا زحف الجمهورية الرومانية على سورية ومصر ثم بالطريقة المترددة نفسها .

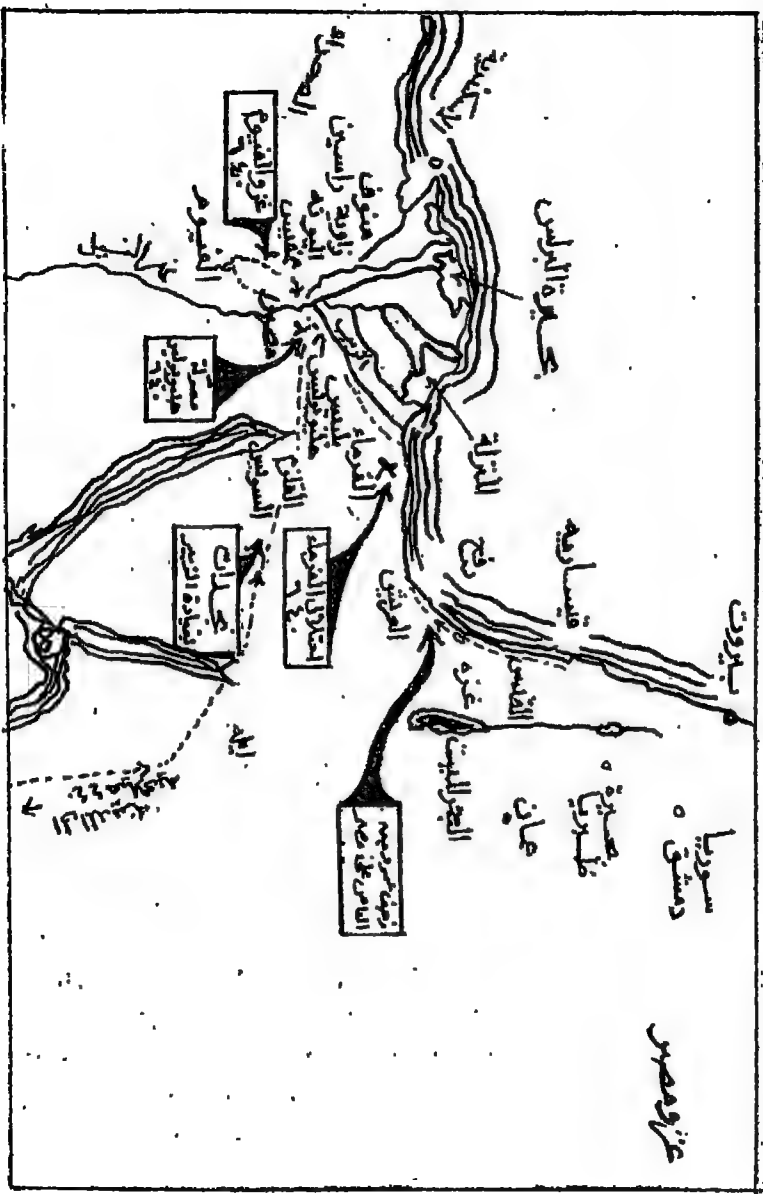
وما زلنا في جهل بالترتيب النهائي الذي تم بين الخليفة وبين عمرو بن العاص . ويقول بعض المؤرخين : انهما بعد اجتماعهما في القدس عادا الى الاجتماع ثانية في الجسابية فأعلن الخليفة موافقته لقائده على خطته .

وتقول بعض الروايات الأخرى : ان الخليفة عاد الى المدينة حيث استشار كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وان الزبير أيد فكرة الهجوم على مصر تأييداً شديداً ، مما أدى الى ارسال كتاب الى عمرو بن العاص يأمره فيه الخليفة بالشخص الى مصر والقيام بالعملية . ويقول البلاذري من الناحية الأخرى ، أن عمراً مضى الى مصر من تلقاء نفسه ودون اذن من الخليفة فغضب عمر لذلك ، ولكنه يضيف الى ذلك ما جرت عليه عادة المؤرخين العرب عندما تواجههم مشكلة من هذا النوع لا يستطيعون البت فيها وقيل والله اعلم ، (١) .

ومهما كانت تفاصيل هذه الاتصالات فان الحقائق الأساسية تبدو واضحة كل الوضوح . وأول هذه الحقائق أن عمرو بن العاص كان في لهفة زائدة للحصول على أمر عمر بغزو مصر . على حين كان الخليفة عمر ابن الخطاب كثير التردد في القيام بهذا المشروع وكان عازفاً عن توفير عدد كاف من الرجال للقيام بالحملة مخافة أن يحاول الروم استرجاع سورية

(١) كتب البلاذري يقول : وكان عمرو بن العاص قد حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولي يزيد بن أبي سفيان ومضي الى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب اليه يوبخه ويعنفه على افتئاته عليه براهيه وأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر . فورد الكتاب عليه وهو باليريش .

وقيل أيضاً : ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخص الى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية وكان الذي أثاره شريك بن عبد الله فأمطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها فسأله أن يستر ذلك ولا يخبر به عمر . - العرب -



كما كان يخشى فشل المشروع ، اذا مضى عمرو بن العاص على رأس قوة غير كافية .

ومشى عمرو مع الساحل على رأس قوة قوامها ٣٥٠٠ رجل ، فمر في السهل الساحلي عند غزة . ثم وصل الى رفح حيث تلقى رسالة عاجلة بعث بها اليه الخليفة من المدينة . وتقول الروايات : ان عمرا شك في مضمون الرسالة فلم يشأ أن يفتحها حتى اليرم التالي أى بعد أن وصل الى العريش وعندما فضاها وجد ان الخليفة يأمره بالعدول عن العملية اذا تسلم رسالته قبل الوصول الى مصر . أما اذا تسلمها بعد وصوله فعليه أن يمضى قدما في طريقه . وراح عمرو يسأل صاحبه بكل براعة وبساطة أفلا يزال في فلسطين . أو أنه دخل أرض مصر ؟ وعندما رد عليه الرفاق بأنه أصبح في مصر أمرهم بمواصلة الزحف . وفي وسعنا أن نفترض انه اذا صحت هذه الرواية فان عمرا ولا شك قد علم بمحتوياتها من قبل أو أن الرسول الذي حملها ، قد نقل اليه محتوياتها شفويا .

وتشاء المصادفة الطبيعية السعيدة أن تيسر لنا سبيل الحصول على الموعد الدقيق الذي عبر فيه عمرو الحدود المصرية . فلقد روى لنا المؤرخون أن القوة العربية احتفلت بعيد الاضحى في العاشر من ذى الحجة سنة ثمانى عشرة هجرية وهو تاريخ يطابق الثانى عشر من ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٣٩ في بلدة العريش .

وتابع عمرو من العريش سيره على رأس قوته الصغيرة على الطريق القديمة التى تمر عليها القوافل منذ أقدم عصور التاريخ من فلسطين الى مصر والثى تسير بحذائها الآن السكة الحديدية بين البلدين . وهى تنحرف من العريش مسافة قصيرة نحو الداخل ولكنها لا تلبث أن تسير فى خط مواز لساحل البحر حتى مدينة «بيلوسيوم» التى يسميها العرب الفراه . وحيث تمتد قناة الفرماوية من النيل لتصل الى البحر المتوسط . وليس ثمة من شك فى أن ابراهيم الخليل قد سار على هذه الطريق نفسها عندما ارتحل الى مصر كما سار عليها أيضا التجار العرب الذين حملوا معهم يوسف الفتى الى مصر ، وقد سجلت هذه الطريق مرور جيوش عدد ضخم من الفراعنة وهى تسير فى طريقها الى الشمال للقيام بحملاتها الحربية كما سار عليها ملوك بابل وآشور وحمير ملك الفرس ، والاسكندر المقدونى وبومبي الرومانى لفتح مصر . وكانت جيوش كسرى أبرويز قد طرقتها قبل سنوات قليلة فى زحفها على وادى النيل . ولكن جميع هذه الجيوش التى مرت على الطريق منذ القدم والتى قادها كبار الملوك

والفاتحين كانت ضخمة عظيمة اذا ما قورنت بهذه القوة الصغيرة التي يقودها عمرو بن العاص . والتي تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو الحفاة العراة على جيادهم العجفاء وجسماتهم الهزيلة . ولا ريب فى أنهم كانوا يستحقون اللقب الذى أطلق عليهم وهو جردان الصحراء (١) .

وكانت الفرما مدينة محصنة منيعة . وتسيطر على الطريق الرئيسى الممتد الى مصر . وقرر عمرو ضرورة الاستيلاء على المدينة رغبة منه ولاريب فى الابقاء على مواصلاته مفتوحة مع الجزيرة العربية التى يأمل فى وصول النجيدات منها . وكان الفرس قد استولوا عليها قبل بضع سنوات دون مشقة وعناء ، ولكن العرب نظرا لافتقارهم المعهود للفن فى حرب الحصار ، وللمعدات الثقيلة اللازمة لها عجزوا عن احتلالها . وقد ظلوا يحاصرون المدينة أكثر من شهر واحد الى أن تمكنوا ذات يوم اثر اندفاع فاشل قامت به حامية المدينة من دخول المدينة من أحد الابواب مع الجنود المتراجعين من حمايتها . وقد أشعلت النيران فى البواخر الراسية فى الميناء كما هدمت الكنائس وجردت المواقع الدفاعية من جميع وسائل الدفاع .

ويبدو أن عمرو بن العاص ، وقد وجد نفسه مفتقرا الى الجنود ليتولوا حماية المدينة بعد خروجه منها زاحفا الى داخل مصر خشى أن يعود الروم الى احتلالها . فأراد أن يحرمهم الانتفاع منها كقلعة حصينة . واستأنف العرب زحفهم منها فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٤٠ . وأتبع العرب خططهم السوقية المعهودة فساروا على أكتاف الصحراء باتجاه الجنوب الغربى ومشوا على الحد الفاصل بين الاراضى الصحراوية والاراضى المروية . ولم تكن قناة السويس بالطبع موجودة فى تلك الأيام ولذا كانت الصحراء تمتد عبر منطقة القناة الحالية حتى تصل أرض الدلتا التى ترؤيها مياه النيل . ومر العرب على مقربة من المكان الذى تقوم عليه الآن بلدة التل الكبير فوصلوا الى بلبيس حيث اشتبكوا فى معركة ناجحة مع

(١) اذا كان القصد من هذا الاسم الذى يستخدمه المؤلف الاستهانة بالقوات العربية فهو قول سخيف اذ لايمكن أن يطلق على أولئك الذين دوخوا العالم بانتصاراتهم الملهلة والذين تمكنوا فى سنوات قصيرة من القضاء على أعظم امبراطوريتين فى العالم فى تلك الأيام . اما اذا كانت نية المؤلف حسنة وهو استخدام هذا التشبيه للتعبير عن جلدوم على الكارثة واحتمالهم لشقات الصحراء كما يستدل على ذلك من الاسم الذى أطلقه الانجليز على جيش مونتجومرى « جردان الصحراء » فى الحرب الكونية الثانية . فان هذا التشبيه يصبح مستساغا معنى ، وان لم يستغ لفظا .

قوة من الروم يقودها ارطوبون ، الذى كان فيمسا سلف حاكما عسكريه لمدينة القدس . ولكن الزحف تعطل شهرا آخر قضاه العرب فى احتلال بلييس . وكان المقوقس بطريق مصر الرومانى وحاكمها قد وصل الى ميدان القتال مستصحبا معه تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر حيث تحصنا فى قلعة بابل أو حصن بابليون أو ما يسميها العرب باب اليونة .

وقد يكون من المدهش أن نعث على اسم بابل فى مصر . ويزعم بعض المؤرخين أن نبوخذ نصر ملك الكلدانيين الذى غزا مصر فى عام ٥٦٧ قبل الميلاد ، هو الذى أطلق على القلعة هذا الاسم . ويقول ديودوروس صيقلوس (١) : أن بعض الاسرى من البابليين الذين حملهم الى مصر سبيزوستريس (٢) صاحب الانتصارات الاسطورية هم الذين أطلقوا اسم موطنهم الاصلى ، على المكان الذى عاشوا فيه حياة النفى والاغتراب .

أما جوزيفوس (٣) فقد ذكر أن «قمبيز» ملك الفرس الذى احتل مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، هو الذى بنى هذه القلعة . والمعتقد ان الامبراطور الرومانى تراجان هو الذى بنى الحصن الذى كان قائما فى عام ٦٤٠ ميلادية أى عند الفتح العربى وذلك فى عام مائة بعد الميلاد . ولعل الحقيقة هى ان كل فاتح من الفاتحين الذين غزوا مصر ، قد أقام فى هذا الموقع السوقى الهام قلعة وحصنا . وضع فيهما حامية ترابط لحماية البلاد .

وأدى وجود اسم بابل فى مصر الى وقوع المؤرخين العرب فى خطأ غريب : فكلمة باب فى العربية تعنى «البوابة» ومن هنا كانت بابليون تعنى،

(١) ديودوروس صيقلوس Giodorus Siculus مؤرخ اغريقى ولد فى صقلية وعاش فى أيام قيصر واغسطس أى فى القرن الاول قبل الميلاد وقد وضع نصب مينييه أن يكتب تاريخا لام العالم كلها منذ أقدم عصور التاريخ حتى العهد الذى عاش فيه . ويتألف كتابه من أربعين مجلدا فى ثلاثة أقسام يتناول الاول منها الأيام التى سبقت حروب طروادة وينتهى الثانى بموت الاسكندر القدونى والثالث بحروب قيصر فى بلاد الغال ولا يعتبر كتابه حجة تاريخية لأنه ملئ بالأخطاء .

(٢) الاسم الافريقى للثلاثة من القرانة يحملون اسم سنوسرت ، ويتنمون الى أسرة أمنمحات ، من أسر طيبة المالكة . وقد عاشوا فى القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد . ويرجع الفضل الى الثالث بينهم فى حفر قناة بين البحر الاحمر ونهر النيل كان لها فائدة كبيرة فى نقل الحاصلات الزراعية والتجارية .

(٣) جوليفوس فلافيوس (من ٣٧ الى ١٠٠ بعد الميلاد) مؤرخ عبرانى مشهور وقائد عسكري عمل نائبا للامبراطور نيرون فى فلسطين ثم منحه الرعوية الرومانية وحمل اسم فلافيوس . أهم كتبه تاريخ الحروب فى فلسطين . - العرب -

مندهم « باب اليون » أو باب اليونة وعندما يقرأ المرء أن العرب هاجموا باب اليونة يقع تحت الانطباع بأنهم هاجموا باب مدينة أو قلعة تدعى اليونة ومن هنا أطلق العرب على بابل المصرية اسم اليونة .

وتستمد بابل أهميتها من أوضاع منس الجغرافية : فالامطار في البلاد نادرة ولا تكاد تذكر ومن هنا فإن المنطقة كلها تغدو صحراوية ، لكن النيل العظيم الذى يحمل كميات ضخمة من الماء والغرين من أواسط افريقية شق له قناة عبر هذه الصحراء ليصل منها الى البحر المتوسط . وتكون القناة التى شققها النهر فى القسم الاكبر من مسيره أى فى الوجه القبلى أخذودا ضيقا وسط الصحراء ، ولكنه عندما يصل الى هذه النقطة ينقسم الى عدة فروع تسييل فوق المنطقة المنبسطة لتصل الى البحر . ويكون مثلث الدلتا الناشئ عن هذه الحقيقة متساوى الاضلاع طول ضلعه تقريبا ١٢٠ ميلا . وتفيض مياه النيل فى كل عام فتغمر الارض التى يضمها هذا المثلث عدة شهور . وعندما تنحسر مياه الفيضان تظل المنطقة كلها صعبة العبور حتى على المشاة نظرا لوجود عدة فروع من النيل تقطعها طولا وعرضا بالإضافة الى ما لا عد له من اقنية الري وترعه .

لكن اطراف الصحراء تصل فى الوقت نفسه الى حدود المنطقة الزراعية اللزجة . ولا ينتقل المرء هنا بصورة متدرجة من الاراضى الزراعية الى الاراضى الصحراوية كما هو المألوف عادة عبر اراضى المرامى المملوءة بالعشاب والشجيرات الشوكية : فهناك خط واضح يفصل بين الصحراء والمنطقة المزروعة بحيث يستطيع المرء أن ينتقل بوثبة واحدة من الصحراء الرملية الجافة الى الارض الغرينية الناعمة المنبتة .

وبابل على نهر النيل عند رأس المثلث وتستطيع الجيوش أن تمضى منها على الارض الصحراوية الصلبة الى الاسكندرية أو الى الفراء بأقصى سرعة ممكنة ودون أن تجد فى طريقها ما يعوقها من اقنية الري ومياه الفيضان .

وقد اطلق اسم «بابل» على القلعة التى تؤوى الحامية المكلفة بالدفاع عن هذه المنطقة السوقية الهامة . وكانت مدينة ممفيس القديمة تقوم منذ القدم الى الشمال من هذه القلعة على ضفة النيل الغربية . وكانت هذه المدينة لانزال قائمة فى عام ٦٤٠ ، وان ضاقت مساحتها وتهدمت معظم أبنيتها . أما الى الضفة الشرقية وعلى مقربة من حصن بابليون

فتقوم مدينة مصر الحديثة وتضم القاهرة المعاصرة الآن جميع هذه المواقع القديمة .

وكان من المحال أن يتمكن عمرو بن العاص بقوته الصغيرة ، وبافتقاره إلى معدات حروب الحصار من محاصرة حصن بابليون والاستيلاء عليه ، ويبدو أنه ظل يشتبك في خارج القلعة مع الروم عدة أسابيع دون أن يحقق أى نجاح ، ولكن يبدو أنه استطاع أخيرا أن يحتل مركزا أماميا إلى الشمال من الحصن يسمى أم دنيان وكان يؤلف ميناء مدينة مصر على النيل .

وأصبح عمرو الآن فى وضع شاق عسير ، وكان قد بعث إلى الخليفة فى المدينة يطلب إليه سرعة انجاده ولكنه لم يتلق ردا ، وكانت روح رجاله المعنوية التواقين إلى المفامرة والغنائم فى خطر من الهبوط والانهيار إذا ظل جامدا لا يقوم بأى عمل ، ولكنه لا يجد أمامه هدفا صالحا فى متناول يديه يستطيع أن يهاجمه وأن يحقق النجاح فى مهاجمته .

ومنطقة الفيوم الخصبة على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب من جابل وعلى بعد قريب من ضفة النيل الغربية ؛ وكان عمرو عند استيلائه على أم دنيان قد وضع يده على بعض السفن والزوارق ، وبادر فحمل رجاله على ظهرها ومضى صاعدا مع النيل فمر بخرائب ممفيس القديمة متجها إلى الجنوب ، وكانت هذه المفامرة من الناحية السوقية خطرة بعض الخطورة ، إذ لو وصلت النجذات من الحجاز فانها ستكون على ضفة النيل الشرقية على حين تكون قوة عمرو على الضفة الغربية وبينهما حماية الروم فى حصن بابليون ، ولو بادر القائد الرومانى تيودور إلى الهجوم فانه يستطيع أن ينتصر على كل من القوتين العربيتين على أفراد ، لكن العرب كانوا من الناحية الأخرى ، فى وضع قوى طبعاً إذ أن فى وسعهم أن ينسحبوا إلى الصحراء وأن يتجنبوا خوض معركة حاسمة مع الروم . ومع ذلك فلقد أخطأ عمرو فى أن يجعل النيل بينه وبين الجزيرة العربية إذ أنه لم يكن على أية حال واثقا من أن يستطيع ثانية العثور على زوارق يستطيع بها عبور النهر من جديد .

على أية حال سار عمرو جنوبا ، ولكنه وجد الفيوم قوية الحصون منيعة الدفاع وتمكن من سوق عدد من قطعان الماشية أمامه ، ولعل نقص المواد الغذائية فى جيشه ، كان من أهم أسباب هذه الغارة التى قام بها . واحتل العرب على أية حال بلدة صغيرة فى منطقة الفيوم عنوة وذبحوا

كل من فيها من السكان (١) وخرج يوحنا قائد جيش الروم في الفيوم في غضون ذلك على رأس خمسين من رجاله للقيام بعملية استطلاع شخصية لقوات العرب . وتلقى عمرو نبأ وجوده فاستدار اليه على عجل وأفلح في تطويقه مع رجاله وقضى عليهم جميعاً . وسرعان ما وصلت اليه الانباء بأن نجدات الخليفة قد وصلت . فاستدار شمالا وبسرعة عظيمة ليلتقي بها وكان ذلك في مطلع يونيو (حزيران) عام ٦٤٠ .

وكان عمر بن الخطاب قد بعث بقوة قوامها اثنا عشر ألف رجل لنجدة غزاة مصر ، وقد وصلت هذه القوة الى موقع هليوبوليس (مصر الجديدة) في السادس من يونيو عام ٦٤٠ بقيادة الزبير بن العوام أحد كبار صحابة الرسول وزعماء قريش . وكان الزبير أحد أفراد الحلقة الداخلية من المستشارين الذين عملوا بعد وفاة النبي مع أبي بكر وعمر . أما أفراد بقية رجال هذه الحلقة فهم على بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وقد قدر لهم أن يؤديوا أدوار بارزة وبعضها مشثوم في التاريخ العربي .

ونشأ الآن وضع هو ماتوقعه عمرو بن العاص ، عندما عبر نهر النيل ، فلقد تمكن تيودور من حشد جيش ضخيم في حصن بابليون والى الشمال من هذا الحصن ، وقف الزبير بن العوام على رأس اثني عشر ألفا من العرب . وعلى الضفة الاخرى من النهر ، وقف عمرو بن العاص . وكانت الفرصة ذهبية أمام تيودور لتعطيم جيش الزبير قبل أن ينضم اليه عمرو . ولكن هذا القائد الروماني ظل دون حراك قابعا في قلعته الى أن تمكن عمرو من عبور النهر والانضمام الى الزبير في هليوبوليس .

وعندما حل العرب بهذه المدينة القديمة المشهورة بمدينة الشمس كانت عظمتها التليدة قد اختفت في زوايا النسيان . وكانت تقوم على أرض مرتفعة بعض الارتفاع ويفصلها عن قلعة بابل سهل مفتوح عرضه ستة أميال أو سبعة يقوم على ضفة النيل الشرقية . وعندما وقف العرب في هليوبوليس يواجهون جيش الروم في حصن بابليون كانوا يضعون الصحراء المفتوحة وراء أظهرهم فيحسون بالاطمئنان . لأن الصحراء كانت دائما صديقتهم الوفية .

وبلغ تعداد جيش المسلمين الآن نحواً من خمسة عشر ألفاً بينهم

(١) لم أجد أى تأكيد لهذه الرواية التى جاء بها المؤلف في أى من كتب التاريخ العربى المشهورة .
(المعرب)

هدد من صحابة الرسول ، وفدوا من المدينة في جيش الزبير للاسهام في مثل هذه الحرب المجيدة المقدسة ومعهم عبد الله الولد الاكبر للخليفة عمر ، وكانت القوة الاساسية التي جاءت مع عمرو لغزو مصر منذ البداية من فلسطين مؤلفة من البدو على الغالب . ومعظم رجالها من القبائل المقيمة فيما يسمى الآن بسيناء وجنوبى الاردن .

ومن العسير علينا أن نعرف على وجه الدقة عدد جيش الروم ولكن الغالب على الاعتقاد انه كان أوفر عددا من جيش العرب . لكن روح الروم المعنوية كانت في الحضيض على أية حال ، اذ حطمتها الانباء التي وصلتهم عن بسالة العرب الذين هزموا جيوش امبراطوريتى بيزنطة وفارس .

وفي منتصف يوليو عام ٦٤٠ قرر تيودور الذى فاتته فرصة مهاجمة جيش العرب كل على حدة أن يهاجمهما الآن بعد أن توحدوا . والتأم شملهما وسرعان ماخرج من قلعته وجازالسهل ليهاجم هليوبوليس . وكان عمرو بن العاص في غضون ذلك قد رتب صفوفه وأعدّها للقتال بعد أن بعث بفصيلتين تحت جنح الدجى تمكنت أولاهما من احتلال موقع بصورة خفية يقوم محل قلعة القاهرة الراهنة ، وتمكنت الأخرى من احتلال موقع مماثل عند الازبكية الحالية ، وفي الصباح الباكر خرج جيش الروم من البساتين والحدائق التى الى الشمال الشرقى من الحصن ، وأخذ يزحف عبر الصحراء المكشوفة ، وخرج العرب فى الوقت نفسه من هليوبوليس للقاء عدوهم على حين كانت فصيلتا عمرو ، قد رابطتا خفية في مراكزهما الجناحية دون أن يحس الروم بهما .

والتقى الجيشان وسرعان ماوقع تلاحم عنيف بالأيدي ، وفجأة ظهر الكمين الشرقى العربى وهاجم أفراد مؤخرة الروم ، ووجد هؤلاء أنفسهم وقد هاجمهم المدمة والمؤخرة فدبت الفوضى في صفوفهم ، وأخذوا يتجهون نحوالعرب ليشكلوا جبهةجديدة ضد اللقوتين المهاجمتين وسرعان ما ظهر الكمين الغربى وتدفق رجاله فى هجوم عنيف على الجناح البيزنطى الأيسر ، وهنا دب الذعر فى صفوف جيش الروم كله ، وانتشرت الفوضى وراح البعض ينشدد الامان فى قلب القلعة فرارا من القتل الذى كان نصيب الكثيرين منهم على أيدي المسلمين المنتشرين بنشوة النصر ، وتمكن تيودور نفسه من الافلات والنجاة بجلده .

وانسحبت فلول جيش الروم الى داخل الحصن واغلقت أبوابه عليها وان كانت مدينة مصر قد استسلمت للعرب دون قيد أو شرط ،

ولما كان الميدان قد خلا الآن من أى جيش معاد فقد تمكن المسلمون من أن يحرقوا الأرض وأن يجمعوا المؤن ويكدسوا الغنائم . وقد تخلت القوات الرومانية التى كانت قد دافعت بنجاح عن الفيوم قبل مدة قصيرة أمام قوات عمرو بن العاص عن المنطقة كلها ، وأستقلت المراكب النيلية فمرت بحصن بابليون ولجأت الى بلدة نيكويه (زواية راسين) التى على بعد خمسة وأربعين ميلا الى الشمال من القلعة . وبعث عمرو على الفور بقوة احتلت الفيوم عنوة وقتلت أهلها وهكذا خضعت المنطقة بكاملها للعرب دون مقاومة .

والى الشمال احتل العرب مدينتى منوف وتنبس اللتين على بعد خمسة وثلاثين ميلا الى الشمال من بابل . وواصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدّة مع أهل مصر اما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة والمتغترسة أو تطبيقا لسياسة اختطها لنفسه ، وهى أن يزيد من العنف لينشر الدرع فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة (١) وهكذا بعد أن تم للعرب اخضاع مقاطعة مصر التى فى رأس الدلتا بالإضافة الى مقاطعة الفيوم غدوا الآن فى مركز قوى أمن لهم ماهم فى حاجة اليه من المؤن عن طريق هاتين المقاطعتين الفئيتين . لكن شهر أغسطس (آب) قد حل الآن وأخذ النيل فى الارتفاع معرضا جزءا كبيرا من الدلتا لخطر الفيضان مما يؤدى الى انتشار المياه والحيولة دون أية عمليات عسكرية وقرر عمرو أن يحتل قلعة بابل قبل المضى فى فتوحه الى مناطق جديدة .



تتألف هذه القلعة العظيمة من أسوار رباعية الاضلاع غير منتظمة ، سمكها نحو من ثمانى أقدام وارتفاعها نحو من ستين قدما مبنية من طبقات متتالية من الآجر والحجارة . وهناك برجان عاليان يرتفعان فوق الاسوار . ويبلغ طول البرج نحو من ألف قدم وعرضه خمسمائة عند أحد طرفيه ليضيق الى ثلثمائة قدم عند الطرف الآخر . وتصطفق مياه النيل مع أحد جوانب هذا السور . ويقوم الى جانب الباب الجنوبي ميناء صغير للقوارب النهرية عند أسفل السور ويحيط بالقلعة كلها خندق تغمره مياه النيل . وأمام القلعة الرئيسية جزيرة الروضة فى وسط النهر وفى هذه الجزيرة تحصينات دفاعية وحامية قوية من الروم . وكان

(١) لم يسلك عمرو مسلك الشدة مع الإقباط أو المصريين بل انه كان على النقيض
من الذين أماتوه ، وساعده على الفتح كرها منهم للرومان . - العرب -

فى وسع هاتين القلعتين أن تحتفظا بخطوط المواصلات النهرية بينهما .
وكان احتلال مثل هذه القلعة أمرا شاقا على المسلمين الذين عانوا مشقة كبيرة حتى فى احتلال بلدة لا حصون فيها كالفرمأ . ووجد المقوقس حاكم مصر ، الذى يعرفه الغرييون باسم البطريق سيروس ، نفسه محاصرا فى القلعة . وكانت الحامية تضم نحو من خمسة آلاف أو ستة آلاف جندى على حين تضم القلعة كميات كبيرة من المؤن ومخازن السلاح . ويبدو أن الحصار قد بدأ فى مطلع شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ .

ولاريب فى أن المقوقس نفسه كان مسئولا عن ضعف مصر وعجزها عن مواجهة الغزو العربى : فلقد سبق لنا أن بينا أن غالبية أهل مصر كانوا ينتمون الى الكنيسة القبطية وكانوا لنحو من عشر سنوات ضحايا الاضطهاد الدينى الذى لا يعرف الرحمة ، وهكذا عندما حلت الساعة الحرجة وجد الاغريق البيزنطيون وعدد قليل نسبيا من المصريين الذين يدينون بالارثوذكسية أنفسهم المدافعين الوحيديين الاوفياء عن البلاد ، أما الاقباط فكانوا يؤلفون مجتمعا تابعا لامفاصل بارزة فيه . ومن الصحيح أن يقال أن صمودهم أمام اضطهاد المقوقس كان يحتم عليهم أن يتمسكوا بدينهم تمسكا جديا ، ويعنى هذا التمسك عدم ترحيبهم بالمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا يدافعون دفاعا جديا مستبلا عن بلادهم . فلقد رأوا أنهم كانوا حتى ذلك التاريخ ضحايا اضطهاد البيزنطيين . وإذا قدر للعرب أن يكسبوا فانهم سيصبحون أتباعا للمسلمين ، ومن هنا تقوم الحقيقة الواقعة وهى أنهم سيظلون عبيدا تابعين مهما كانت نتيجة المعركة . ومن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا على أية حال أن العرب فى سورية أباحوا للمسيحيين حرية العبادة وأن كانوا يرغمونهم على دفع الجزية ، ومن هنا كانوا يرون فى المسلمين وضعافضل من وضعهم فى ظل المقوقس .

وكان فى مكنة حصن بابليون أن يصمد شهورا عدة ، ولكن المقوقس كما يبدو كان يدرك ما يحس به أهل البلاد من كراهية لحكمه ونظامه (١) . ومن المحتمل أنه كان يدرك أيضا أن لا أمل له فى نجدة من بيزنطة . وهكذا فاننا نرى المقوقس ينتقل فى مستهل اكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٠ أى بعد انقضاء شهر على الحصار ، عن طريق النهر الى جزيرة الروضة ، حيث أوفد منها بعثة للتفاوض مع عمرو بن العاص . وقد جرت

(١) هكذا تأكيد لما قلناه من قبل .

المفاوضات في الجزيرة بطريقة سرية ويبدو أن الغاية من اخفائها كانت
الابقاء على الروح المعنوية عند حامية القلعة .

ووصل رسل المقوقس الى عمرو بن العاص ونقلوا رسالتهم .
وبعد ان اعترف الرسل بأن العرب قد حققوا بعض الانتصارات أخذوا
يؤكدون لعمرو أن ليس في وسعه أن يصمد طويلا أمام سلطان الروم ،
واقترحوا عليه الانسحاب من أراضي مصر مقابل مبلغ من المال
يدفع اليه فوراً ، فرد عمرو بأن عرض عليهم اختيار أحد السبل الثلاث
التي استنهاها العرب بالنسبة الى البلاد التي يحتلونها وهي : اما قبول
الاسلام والمساواة في الوضع مع الفاتحين ، أو دفع الجزية وقبول مركز
التبعية ، أو المضي في القتال حتى الوصول الى نتيجة حاسمة .

وعلى الرغم من أن المقوقس لم يكن على استعداد لقبول أى من
هذه الشروط الثلاثة فإنه وجد من الأفضل له المضي في المفاوضات
ومتابعها ، فعرض على عمرو أن يبعث اليه بوفد من لدنه الى الروضة .
ولعل من الجدير بنا أن نذكر هنا ان الوفد الاسلامي الذي وصل الى
الروضة وكان بزعامة عبد يدعى عبادة بن الصامت أخذ يوجه حديثه الى
المقوقس قائلاً له : ان المسلمين لا يحاربون الا في سبيل الله وفي سبيل
تحقيق مشيئته وانهم لا يأتون بالمال قيد شعرة مؤكداً له ان الحياة
الدنيا زائلة وان البقاء لله .

ويبدو أن المقوقس لم يتأثر مطلقاً بحماسة المسلمين وجدهم في
حديثهم ولا باستهانتهم بالدنيا الفانية واستعدادهم للاستشهاد للوصول
مبكرين الى فراديس النعيم ، فراح يهمس في أذن أحد أصحابه قائلاً :
كل ما أخشاه هو أن يكون الله قد بعث بهؤلاء الناس لدمار العالم ! ورد
المقوقس على قول عبادة فاعترف بأن فشل الروم ناتج عن كثرة تعلقهم
بشئون الحياة الدنيا ، ولكنهم يجمعون الآن جموعهم ويحشدون جيوشهم
لمحاربة الفزاة العرب ولعل من الخير للعرب قبل أن تعد هذه الجيوش
الجرارة أن يقبلوا مبلغاً كبيراً من المال كجزاء نقدي وأن ينسحبوا من
البلاد .

ورد العرب بأنهم لا يأتون بالعدد مهما كان كبيراً وان كل ما يأمرونه
هو الشهادة في سبيل الله لا العودة سالين غانمين الى نسائهم وأطفالهم .
وأضافوا أن قلة عددهم بالنسبة الى عدوهم لا ترهبهم اذ أن الله تعالى
أكد لهم ان النصر سيكون في جانبهم بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة
كثيرة بأذن الله » . ورفض أعضاء الوفد أن يستمعوا الى أى عرض آخر

سوى العروض الثلاثة التى سبق لعمر بن العاص أن قدمها الى الروم .
وهى اما الاسلام أو الجزية أو الحرب .

وبدا المقوقس ميالا بعض الميل لقبول دفع الجزية ولكن عددا من ضباطه أبى عليه ذلك . ويبدو أن هؤلاء كانوا من أهل مصر ، أما المقوقس نفسه فكان كما رأينا سابقا من الروم وكان يشغل منصب المطران فى القفاس . وطلب الروم أخيرا مهلة للتفكير فى الموضوع ولكن عمرا رفض أن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام ، ولم تكد هذه المدة تنقضى حتى كان الروم ينزلون أحد المعابر على النهر فيجتازونه عليه ويهاجمون العرب بفتة ، ولكن هذا الهجوم منى بالفشل فى النهاية بعد اشتباك عنيف دام ، واضطرت الحامية من جديد الى اللجوء الى حصنها وقد أدت هذه النكسة الى اضعاف مركز المنادين بالمقاومة والى تقوية مركز المقوقس . المطالب بالصلح والخضوع للعرب .

واستؤنفت المفاوضات من جديد وأسفرت عن عقد صلح بالطريقة المعهودة تمهد فيها الروم بدفع الجزية مقابل تمتع المسيحيين بحرية العبادة وضمان حماية المسلمين لهم ، وأضيف الى معاهدة الصلح بند يشترط موافقة الامبراطور عليها وينص على ارسالها اليه فوراً لاقرارها بشرط أن يظل الوضع العسكرى على حاله فى هذه الفترة من الترقب . والانتظار .

وتسلح المقوقس بهذا الاتفاق فأبحر فى النيل الى الاسكندرية حيث بعث برسالة عاجلة الى هرقل فى القسطنطينية شارحا الاسباب التى دعت الى الاذعان للغزاة ومتوسلا اليه أن يقر اتفاق الصلح ، وكان هرقل قد بات الآن رجلا عجوزا محطما أوهنته العلل وأضنته الهزائم ، ومع ذلك فلم يستطع استساعة هذه الانهزامية التى أبداهها المقوقس ، وراح يبعث برسالة عاجلة الى الاسكندرية يطلب فيها من المقوقس الاتجاه فوراً الى القسطنطينية .

وقد استقبل الامبراطور ممثله فى مصر بحملة جارحة من اللوم . والتعنيف - لها ولا شك - كل مايبررها ، فخلد كان المقوقس هو الذى ألب ببطشه وشدته ووحشيته واضطهاده الدينى غالبية المصريين ، وهاهو ذا عندما جاء العرب كان أول من دب اليأس الى قواده ، فاستخلى واستسلم وطالب بالاذعان وراح يدافع عن نفسه أمام الامبراطور ، فأكد أن العرب قوم لا يلبون أبداً وأنهم لا يأبهون بالمال أو الراحة وأنهم يطمعون فى الاستشهاد فى ميدان القتال لأن الشهادة تسرع بهم الى الفردوس .

ولكن بلاغته في الدفاع عن نفسه لم تجده فتيلاً وأنهم بخيانة الامبراطورية .
لمصلحة العدو ، وبعد أن تعرض الى الكثير من اللوم والاذلال طرده
الامبراطور من وظيفته وأبعده الى حياة المنفى .

واستؤنفت المعارك بعد أن ذاع نبأ رفض الامبراطور إبرام المعاهدة
وأعد كل من المهاجمين والمدافعين عن بابل (اليونة) أنفسهم لمعركة فاصلة .
وأخذ نفر من المصريين من الاقباط الذين عانوا من اضطهاد الروم
يساعدون العرب في هذه المرحلة ، لكن الحماية ظلت تواصل الاندفاعات .
من الحصن بين آونة وأخرى منزلة بالمهاجمين بعض الخسائر .

وأخذت أيام الشتاء تجر ذبولها ثقيلة متباطئة ، وبدأت مياه
الفيضان في الانحسار وأخذ الماء في الخندق يهبط تدريجياً . ولم يحقق
العرب نجاحاً مع أسوار الحصن وأن كانوا أنزلوا بعض الخسائر بالمدافعين
عن طريق النبال التي يطلقونها . ووصلت الأنباء ذات يوم في أخريات
الشتاء الى عمرو بن العاص بأن الروم يحشدون قواتهم في الدلتا فخلطه
على القلعة قوة صغيرة تضي في حصارها واتجه سراً الى الشمال ليدهم
العدو ويشنت شمله . ولكن العرب وجدوا أنفسهم فجأة محصورين بين
قنوات الري وترعه وعانوا مشقات كبيرة واضطروا الى العودة .

ووصلت الأنباء في شهر مارس (آذار) عام ٦٤١ عن موت الامبراطور
هرقل في القسطنطينية ودب اليأس في قلوب أفراد الحماية على حين عجز
الفرح معسكر العرب ، ويبدو أن هذه الحقيقة تبدد النظرية القائلة بأن
هرقل غدا ضعيفا وفي منتهى الجبن في أخريات أيامه ، وكتب المؤرخ
العربي جلال الدين السيوطي عن هذا الحادث يقول : « كسر الله شوكة
الروم بموت هرقل » .

وتشجع المسلمون بموت هرقل فأعدوا العدة للهجوم على بابل .
وتمكنوا من اجتياز الخندق في بعض النقاط فأقاموا السلالم على الأسوار
وراح الزبير بن العوام صحابي رسول الله يصعد السلم مجرداً شبيفاً
ومعلنا عزمه على الاستشهاد وهو يقود الهجوم ، وتبع الزبير في جنح
الدجى نفر من أهل النجدة ، وصب العرب وابلاً من النبال على الحواجز
لأرغام الروم على ابقاء رؤوسهم خفيضة حتى لا يروا المهاجمين ، وسرعان
ما ارتفع هتاف المسلمين « الله أكبر الله أكبر » ، فوق الأسوار لكن الفئة
التي ركزت أقدامها فوق الأسوار لم تكن كبيرة . وكان في مكتة الروم أن
يقوموا بهجوم مضاد ، وأن يقدفوا بهذه الحفنة الصغيرة في الخنادق
ولكن الحصار كان قد طال إذ انقضت عليه حتى الآن سبعة أشهر أي منذ

سبتمبر (ايلول) عام ٦٤٠ حتى ابريل (نيسان) عام ٦٤١ . وكانت الحامية قد ملت القتال والحصار ، وعندما أخذ الفجر يطل أطلالته . ببطن ، كان قائد الحامية قد عرض التفاوض على المسلمين وقبل عمرو العرض فوراً . ووضع نص اتفاق لتسليم الحصن وتقرر أن تنسحب الحامية بعد ثلاثة أيام وأن يمضى أفرادها في المراكب في النيل تاركين القلعة سليمة بكل ما فيها من مستودعات ووسائل دفاعية . وهكذا انسحبت الحامية في التاسع من ابريل (نيسان) عام ٦٤١ واحتل المنتصرون العرب قلعة بابل .

تواريخ بارزة

٦٣٩	عمر بن العاص يجتاز حدود مصر	١٢ من ديسمبر (كانون الأول)
	عند العريش	
٦٤٠	احتلال الفرما	نهاية يناير (كانون الثاني)
٦٤٠	وصول النجدات من الجزيرة العربية	٦ من يونيو (حزيران)
٦٤٠	معركة هليوبوليس	يوليو (تموز)
٦٤٠	بدء حصار بابل (اليونة)	سبتمبر (ايلول)
٦٤١	موت هرقل	١١ من فبراير (شباط)
٦٤١	احتلال بابل	١٩ من ابريل (نيسان)

شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	عمر بن الخطاب
القائد العام في مصر	عمر بن العاص
قائد النجدات العربية وقائد القوة	الزبير بن العوام
التي اكتسحت أسوار حصن بابليون	
حاكم مصر وبطريق الارثوذكس	المقوقس
القائد العام لجيش الروم في مصر	تيودور

إستسلام مصر

((قد علمت أن الرب أعطاكم الأرض ، وقد حل
رعبكم علينا ، وجميع سكان الأرض قد انحلوا أمامكم .
سبحنا فذابت قلوبنا ولم يبق في أحد روح أمامكم)) .

سفر يشوع - الفصل الثاني - ٩

((كوش ومصر قوتها ، ولا نهاية لها وفوط ولوبيم
في نصرتك . فهي أيضا ذهبت الى الجلاء مسببة ،
وأطفالها أيضا حطموا رأس كل شارع وعلى كرامها
القوا القرع . وجميع عظمائها أوثقوا بالقيود . وأنت
أيضا تسكرين وتختبين وأنت أيضا تطلعين ملجأ من
العدو . جميع حصونك أشجار تين يسواكيرها ان
انهزت تسقط في فم الأكل . ها ان شعبك في داخلك
نساء وأبواب أرضك تفتح فتحا لأعدائك ، والنار
تاكل مزاليجك)) .

نبوة نحوم - الفصل الثالث

((جاءوا الى القتال يتوقعون الهزيمة ، لذا فقد
تحققت لهم . فلقد كانوا نصف مهزومين قبل ان توجه
اليهم ضربة واحدة)) .

أومان - الحرب في العصور الوسطى

أدى استسلام حصن بابل (اليونة) في أبريل (نيسان) عام ٦٤١ الى استقرار الوضع نهائيا وبصورة رتيبة في مقاطعة مصر القائمة في رأس الدلتا وفي مقاطعة الفيوم الواقعة على بعد خمسين ميلا الى الجنوب باتجاه أعالي النيل . وكان وضع حصن بابليون ممتازا من وجهة النظر العربية اذ أنه واقع على الضفة الشرقية لنهر النيل حيث تمتد الصحراء منها بلا انقطاع حتى الجزيرة العربية ، يضاف الى هذا أن هذه القلعة كانت تسيطر على الدلتا كلها ولم يكن العرب ميالين الى العمل داخل منطقة القنوات والاراضي الزراعية المروية ولعلمهم كانوا عاجزين عن العمل فيها . لكن مقاومة الروم أصبحت متركزة الآن في الاسكندرية ، ولا يمكن الوصول الى تلك المدينة الا بالزحف شمالا في الجانب الغربى من الدلتا على أكتاف الصحراء ، وكان الفرس قد اتبعوا الطريق ذاتها قبل خمسة وعشرين عاما عندما استولوا على مصر ، فلقد زحفوا من الفرما الى مصر على رأس الدلتا ومنها ساروا بحذاء الفرع الغربى من نهر النيل الى الاسكندرية .

ويقال بأن عمرا اقام الولايم يومين متعاقبين لاقباط مصر قبل أن يمضى لفتح الاسكندرية . وكان قرى الاقباط وبعض العرب في اليوم الاول للوليمة لحم الابل مسلوقا في الماء المالح . وقد اكل العرب حتى شبعوا أما الاقباط الذين لم يالفوا هذا الطعام فلم يستسيقوه . وأعدت للجميع في اليوم التالى أطيب الطعام مطهية على الطريقة المصرية المتقنة . وألقى عمرو في ذلك اليوم خطابا أوضح فيه المعنى المقصود من هذا الاجراء الذى قام به فقال انه قد لا يكون من الحكمة في شيء أن يمتنع المصريون فقر العرب واقتارهم الى ترف العيش ورخائه ، وأضاف ان في وسع المسلمين أن يتعودوا على أطيب هذه الدنيا ومفائنها ، ولكن خشونة عيشهم مكنتهم من احتمال ما لا حد له ولا حصر من المتاعب والشقاء التى لا يستطيع الناعمون من المصريين هضمها . ولا ريب في أن هذا الاحتمال على المكار هو الذى مكنهم من التغلب على جيوش الروم والفرس .

ويقال بأن عددا غير محدود من الاقباط قد تحول في هذه الآونة الى الاسلام وقد اغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أندادا من

الناحيتين الاجتماعية والمالية لفتح بلادهم المبجلين . ويقال ايضا بأن جيش عمرو بن العاص كان يضم عددا من أروام سورية الذين تحولوا الى الاسلام وعددا من الأعاجم من الأبناء فى اليمن من بقايا ذلك الجيش الذى كان كسرى قد بعث به الى اليمن لاجراج الاحباش منها واحتلالها فى عام ٥٧٤ هـ ، وهكذا نرى أن عملية افساد العنصر العربى النقى القادم من الجزيرة العربية قد بدأت فى هذا الوقت المبكر .

وعندما أراد الجنود تقويض خيمة قائدهم عمرو بن العاص . استعدادا لبدء السير باتجاه الاسكندرية ، عثروا على يمامة عشتت فى طرف الخيمة بعد أن وضعت بيضها ، وقد أمر عمرو بالبقاء على الخيمة فى مكانها وعدم تقويضها مخافة ازعاج الطائر الوديع قائلا ، ان اليمامة قد التجأت الى حماه وان عليه أن يجيرها . ومما يجدر ذكره أن الخيمة كانت ولا تزال فى عرف النظام الاجتماعى العربى ملجأ الامان فى تقاليد الصحراء ، وفى وسع كل من يشعر بالخطر سواء اكان رجلا أم امرأة ، أن يلجأ الى خيمة انسان يحتم عليه العرب أن يحمى المستجير به حتى ولو كلفه ذلك حياته . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن البدوى الذى اجار ذئبا جريحا ، وقتل أحد أبناء عشيرته دفعا عنه . وقد يبدو من الغريب لنا كل الغرابة أن يقدم جندى عرف بالصرامة والقسوة كابن العاص على التخلّى عن خيمته ضنا على يمامة من الازعاج .

وعبر العرب نهر النيل من بابل (اليونى) الى الجيزة ، وقد استخفهم المرح والطرب ليمضوا قدما فى طريق صحراوية جافة بحثا عن أماكن جديدة يفتحونها . ولا ريب فى أن البقاء أمدا طويلا بلا حراك وعلى أرض رطبة حول القلعة المحاصرة ولا سيما فى أيام الفيضان كان مر المذاق بالنسبة اليهم .

وقع اشتباك فى طرانة الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الشمال من بابل اضطر فيه الروم الى الانسحاب بعد قتال ضار ، وبعد عشرة اميال الى الشمال ، وجد العرب أنفسهم يواجهون مدينة نيكىو (زاوية راسين) وقلعتها القائمتين على الضفة الشرقية من النهر واضطر العرب ازاء ذلك الى عبور النهر لمهاجمة المدينة . ولو كان هناك قائد متميز بالنشاط والجرأة فى المدينة لخرج منها واعترض سبيل العرب وهم يعبرون النهر أو لباغتهم بعد أن عبر نصفهم ، ليلحق بهم الهزيمة . ولكن الدمر كما يبدو كان مسيطرا على رجال الحامية الذين شرعوا يجلون عن المدينة فى اضطراب وفوضى ليستقلوا القوارب أملا بالنجاة



عن طريق النهر بالسير نحو مصبه . وسارع العرب الى الهجوم فافنوا
حددا ضخما من جنود الروم وهم اما على الساحل او بعد نزولهم الى
الماء . وعلى الرغم من احاطة المدينة بالتحصينات ، فانها لم تدافع عن
نفسها ، فافتحمها العرب وأعملوا السيف في رقاب أهلها . وقد وقع هذا
الحادث في الثالث عشر من مايو (ايار) عام ٦٤١ . وأخذوا يغربون بعد
ذلك على القرى المجاورة يقتلون فيها وينهبون ما يشاءون . ومن المعقول
ان تكون هذه الاجراءات جزءا من سياسة مرسومة . فالعرب كما سبق
لنا ان بينا أكثر من مرة كانوا من الناحية التعبوية (التكتيكية) في وضع
سييء في المناطق المروية الضيقة وكانوا تبعاً لذلك تواقين الى تجنب أية
عمليات عسكرية في منطقة الدلتا التي كان اتساعها هنا يبلغ خمسين ميلا .
ثم يأخذ هذا الاتساع في الارتفاع كلما اتجهوا شمالا الى أن يبلغ المائتين .
وكان في وسعهم أن يحتلوا عدة أماكن على حدود المنطقة المزروعة .
وكانوا يلجأون في هذه الاماكن الى أساليب العنف الصارمة رغبة منهم
في القاء الرعب في نفوس السكان الجبناء في بقية أنحاء الدلتا ليضمنوا
خضوعهم لهم دون عمليات حربية أو قتال . ولهذا السبب وحده كان
الزمن أقصر من أن يضاع ، فلقد احتل العرب نيكيو (زاوية راسين)
في شهر مايو عام ٦٤١ وكان موعد الفيضان شهر أغسطس من ذلك
العام ، عندما تصبح العمليات العسكرية متعذرة بل مستحيلة ، وقدر
العرب أنهم سيكونون في مثل ذلك الشهر محاصرين للاسكندرية
وستعرض مواصلاتهم للخطر مع حصن بابليون اذا ثارت الدلتا عليهم .
وجدير بنا أن نلاحظ الاتجاه الذي اتجته أعمال العنف هذه فقد استهدفت
الاقباط أو سكان مصر . ولقد كان الروم أو أتباع الكنيسة الارثوذكسية
هم العدو في احتلال الفرما أو بابل أو في معركة هليوبوليس (١) . أما
نيكيو وأرباضها فكانت مأهولة بالاقباط الذين كانوا من قبل ضحايا
الاضطهاد البيزنطي .

وعاد عمرو بن العاص بعد قضاء بضعة أيام في نيكيو (زاوية
رأسين) الى عبور نهر النيل واستئناف الزحف باتجاه الاسكندرية

(١) لم أجد في كتب التاريخ العربي ما يؤيد هذه الروايات المروية التي جاء
بها المؤلف وكل ما في وسع المرء أن يتأكد منه أن العرب كانوا عندما يصلون الى بلدة من
البلاد يعرضون على أهلها اما الاسلام أو الجزية أو الحرب . فان رفضت الا الحرب
كان من حقها أن تدفع الجزية ويلاتها وأن تحتل نتيجة قرارها . أما معاملة المسلمين للاقباط
فكانت رافعة ككل تجمع كتب التاريخ كلها . .
(العرب)

واشتبكت طلائع العرب المتقدمة مع قوة بيزنطية ضخمة فلقيت منها هولا كبيرا واضطرت الى اللجوء الى ارض مرتفعة حيث اطبق عليها الروم الحصار من كل ناحية ولكن عمرا ما لبث أن وصل بقواته الكبيرة فطرد الأعداء ورفع الحصار المضروب على طلائعه ، وقد أطلق العرب على التل الذى صمدت فيه الطلائع العربية اسم « كوم شريك » نسبة الى قائد الطليعة شريك بن الحارث وظهر أن القوة الرومانية التى اشتبكت معها ، هى كل ما تبقى لدى الروم من جيش عامل فى الميدان بقيادة تيودور القائد الذى هزمه ابن العاص قبل عام فى معركة هليوبوليس .

ووقع اشتباك آخر على بعد عدة أميال الى الشمال من دمنهور دارت ابانه رحى معركة عنيفة ضارية انتهت بانسحاب الروم من جديد .

ويبدو أن نجدات جديدة كانت قد وصلت الى جيش الروم من القسطنطينية اذ بات هذا الجيش فى مظهر جديد طيب . ويبدو أيضا أن عمرا تلقى نجدات أخرى من الجزيرة العربية وان لم نجد أثرا يدل عليها فى كتب التاريخ العربى .

واتخذ تيودور مراكز دفاعية جديدة له فى الكريون حيث نشبت معركة ضارية ، ومن الملاحظ أن المؤرخ البلاذرى يذكر بصدد المعركة أن الروم والقبط تجمعوا عند الكريون لمقاومة الزحف العربى . ومن هذا يبدو أن القبط بدأوا يدركون أنه على الرغم من مرارة اضطهاد الروم لهم فإن ما أنزله العرب بهم من تقهيل (١) ، يدل على أنهم لن يكونوا أحسن حالا اذا ماتغير حكامهم وقد دامت معركة الكريون كغيرها من الانتصارات العربية العظيمة عدة أيام مما يدل على أن العرب بدأوا يلجئون فى حروبهم الى معارك السحق الطويلة بدلا من حروب الصاعقة السريعة وان هذا الاسلوب الجديد أكثر صلاحا لهم من سابقه وحرى بنا أن نقول ان الافادة الناجحة من الهجمات الكبيرة تعتمد على التدريب والانضباط وهما صفتان مازال العرب فيهما أقل مستوى من أعدائهم لكن العرب يتفوقون على أى حال تفوقا هائلا على أعدائهم فى روحهم المعنوية واقبالهم على المبادرة وفى وسعنا أن نستنتج من هذا أن العرب باتوا يشتبكون مع العدو فى كل مكان فى عمليات استطلاعية يسبرون فيها أغواره حتى اذا وجدوا نقطة الضعف غيه سارعوا الى استغلالها . واذا ما تحقق لهم النجاح الأولى فى أية عملية

(١) لم يذكر التاريخ ان العرب اعملوا التقهيل فى المصيرين بل ان الذين اقدموا على ذلك هم الرومان وقد فعلوا ذلك بصورة بشعة هند انسحابهم من حصن بابليون ليلة عيد الفصح .

— العرب —

من هذا النوع فانهم يستغلون هذا النجاح بكل جرأة واندفاع وبما عرف
عن رجالهم من اقدام على المبادرة مدفوعين بحميتهم ودون انتظار أوامر من
قاداتهم . واذا ما شئنا مقارنة البدو بأى من الجيوش الحديثة أمكننا القول
بأن الاستراليين يشبهونهم الى حد كبير ويبدو أن هذا التشابه نجم عن
اشتراكهم فى أوضاع حياتية متماثلة ، وهى الكفاح ضد الطبيعة لضمان
البقاء فى أراضى فسيحة قاحلة غير مستثمرة . أما قوات الصاعقة فتكون
عادة ثمرة الحضرارات المدنية فى حين يكون استغلال الانتصارات المحلية
من المقاتلين الفرادى الأسلوب الصالح لشعوب الرواد الأحرار الذين
لا يربطهم نظام أو انضباط .

وقد دامت معركة الكريون عشرة أيام وانتهت كما يبدو فى يوليو
(تموز) عام ٦٤١ بانسحاب ثيودور انسحابا منظما الى خطوطه الدفاعية
فى مدينة الاسكندرية (١) .



وتابع عمرو مطاردة الجيش المتراجع فشن هجوما سريعا مرتجلا
مفتقرا الى التنظيم على أسوار المدينة كانت عاقبته نكسة شديدة . واضطر
العرب الى الانسحاب بعيدا عن الأسوار للنجاة من خطر القذائف التى
ترسلها المجانيق المقامة على الأسوار وأقاموا معسكرهم الى الناحية الشرقية
من المدينة .

وكانت الاسكندرية فى هذا العهد الذى نؤرخه الآن من أعظم مدن
العالم وقد أنشئت مدينة الاسكندرية قبل نحو من ألف عام ، وبناها
الاسكندر المقدونى وكانت تضم نحو من مليون انسان ، وكانت مصر فى
ذلك الحين بلدا غنيا كل الغنى ، وكانت الاسكندرية عاصمتها منذ أمد
طويل وكانت دلتا النيل تلعب دور اهراء الحبوب لرومة الامبراطورية ،
ثم ما لبثت أن أدت الدور نفسه فى اقتصاد بيزنطة . وكانت الاسكندرية

(١) تخلف رواية المؤلف من الروايات العربية المتعلقة بهذه المعركة ، فقد ذكر
البلاذرى أن من بالاسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا لعمرو بن العاص وقالوا
نغزوهم بالقسط (بابل) قبل أن يبلتنا ويروم الاسكندرية فلقبهم بالكريون فهزمهم
وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم
قوم رفدوهم وامانهم ، لم سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية فوجد أهلها معدين
لقتاله . ومن هذه الرواية يظهر أن الجيش الذى قابل العرب فى الكريون هو غير
جيش الاسكندرية وان مصر هذا الجيش كان الفناء تقريبا لا الانسحاب النظم كمل
يقول المؤلف .
(العرب)

• هي ميناؤها التجارى وتعتبر مناراتها احدى معجزات العالم السبع • ولم يكن ثمة ما يفوق كنائس المدينة وقصورها وتمائيلها أو يضاهيها حتى كنائس القسطنطينية وقصورها وتمائيلها وكانت المدينة الواسعة محاطة بأسوار ضخمة تعلوها الأبراج والحصون التى لاتنفج معها القذائف التى يملكها العرب • ولم تكن هذه هى العوامل الوحيدة فى مناعة المدينة بل بالإضافة الى أن البحر يحمى جانباً من المدينة فان جزءاً كبيراً من الجانب البرى منها تحميه بحيرة المريوطية وعدد من الاقنية بحيث بات المكان الوحيد الذى يمكن منه الهجوم على المدينة فسحة ضيقة نسبياً تقع فى الطرف الشرقى ويبدو أن عمرو بن العاص أدرك بعد فشله فى الاندفاع الأول المتعجل على الأسوار الذى قام به بعد معركة الكريون أنه عاجز عن اقتحام هذه القلعة الضخمة عنوة لاسيما وان الروم يسيطرون سيطرة كاملة على البحر الذى لا يوجد للعرب فيه مركب واحد • وكان فى مكة مدينة كهذه أن تصمد سنوات طويلة • ولقد سبق لنا أن رأينا القسطنطينية تصمد بنجاح أمام هجوم الجيش الفارسى الذى كان أكثر استعداداً وأوفر تمويناً بمعدات حروب الحصار من الجيش العربى ، وأن هذا الصمود استمر سنوات طويلة • وطالما أن السيطرة على البحر هى فى يد الروم فان موقف الاسكندرية كان أفضل من الناحية الطبيعية من وضع القسطنطينية • ولم يبق الآن على موعد ارتفاع مياه النيل الا بضعة أسابيع • وقرر عمرو أن يخلف على الاسكندرية قوة صغيرة للملاحظة ترابط الى الجنوب الشرقى من المدينة وتكون كافية لمنع الروم من الخروج من الأسوار لاعادة فرض سيطرتهم على الدلتا • وأراد أن يستغل انخفاض النيل وان يزحف عبر الدلتا عائداً الى القسطنطاط • وهكذا خرج عمرو من دمنهور باتجاه الشرق الى دسوق ومنها الى طوخ فدمياط وكانت الأسوار تحيط بهذه المدن الثلاث فأغلق أهلها على أنفسهم الابواب عندما اقترب الغرب منهم • ووجد العرب أنفسهم كالعادة عاجزين عن معالجة المدن المحصنة فاضطروا الى المرور بها دون فتحها • وغنم العرب كل ما فى الارياض والقرى المجاورة من محاصيل ، وقد غدت الآن ناضجة للحصاد وأحرقوا ما لم يتمكنوا من نقله معهم • واخيراً وصل عمرو الى القسطنطاط بعد هذه المحاولة غير الناجحة لالقاء الرعب فى قلوب أهل الدلتا وذلك قبل أن يبدأ قيضان النيل فى ذلك العام •

وتقيم هذه العملية الفاشلة دليلاً جديداً على الحقيقة التى سبق لى أن أكدتها وهى أن نجاح العرب كان كاملاً فى السهول المكشوفة دائماً • لعل من الطريف أن يفكر المرء عما كان فى وسع الروم أن يفعلوه فى

مصر • فالحروب لا تكسب عادة الا بالهجوم ، وكان من الحتمى عليهم فى المدى الطويل أن يشتبكوا فى معركة مع العرب ليهزموهم اذا أرادوا النصر •

أما اذا رفض العرب أن يحاربوا الا فى الصحراء فان من الحتمى على الروم أن يحاربوهم فيها أيضا • أما فى المرحلة التى وصلنا إليها الآن فيبدو لى أن الروم قد آثروا البقاء فى موقف الدفاع ولم يكن فى وسع العرب أن يحاربوا فى الدلتا كما كان الروم عاجزين عن الحرب فى الصحراء ومن هنا تنبثق الضرورة فى أن يظل الروم داخل الدلتا وحدها للدفاع عنها ، وأن يحتفظوا بمواقعهم فى المنطقة المروية المزروعة ، وكان عليهم أن يشرعوا فوراً فى تحصين المدن والقرى ابتداء بتلك القريبة من حدود الصحراء • وكان عليهم أن يسلحوا ويدربوا سكان مدن الدلتا الواقعة على أطراف الصحراء وأن يحثوهم على الدفاع عن أنفسهم بمساعدة جماعات صغيرة من الجنود النظاميين ترابط هنا وهناك ، وكان عليهم أن يحشدوا أرتالا متحركة من قواتهم البيزنطية الى الورا فى المناطق الوسطى حتى اذا ما شن العرب أية غارات كان فى مكنتها أن تنتقل الى المنطقة المهددة لصعد الهجوم • وكان فى مكنتهم أن يقولوا لسكان المناطق الأمامية أن عليهم أن يصمدوا بعض الوقت اثنى عشرة ساعة على أكثر تقدير عندما يتعرضون للهجوم حتى تصل اليهم النجدة •

ويجب العرب التنقل فى الصحراء والقتال فيها ، ولكنها خالية من أى طعام • وعليهم أن يعتمدوا على المناطق المزروعة فى الحصول على طعامهم وهكذا كلما كان الدفاع عن المناطق المزروعة أكثر جذية وفعالية كلما كانت الصعوبة التى يواجهها العرب فى الحصول على مؤنهم أقوى وأشد • وكان فى وسع البيزنطيين عن طريق مثل هذا الدفاع النابض بالحياة أن يكسبوا وقتا يعدون فيه جيوشا جديدة لحوض القتال استعدادا للمعركة الحاسمة •

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب يتعبون أشد التعب من القتال فى جبال فلسطين وسوريا ولكن دلتا النيل كانت أكثر مشقة عليهم من الاراضى الجبلية • ولكن من الأسهل علينا بالنسبة الى المعلومات المتوافرة لدينا الآن أن نظهر من الحكمة والتعقل ما لم يتيسر للعرب آنذاك • وقد تكون الفكرة واضحة اذا ما فكر فيها المرء ، ولكن الى أن يتحقق ذلك فان أكثر العقول فطنة وذكاء تؤثر استعمال الاساليب المألوفة قرنا بعد قرن •

ولا ريب فى أن فكرة البيزنطيين عن الحرب كانت مبنية على أساس

المعارك المتلاحمة بين الجيوش وليس في وسعنا أن نلومهم الآن لانهم لم يفكروا بأساليب أخرى . وفكرة المقاومة الشعبية المنظمة كطريقة مشروعة من طرق الدفاع ، فكرة مألوفة لنا اليوم أكثر مما كان يألفها البيزنطيون في أيامهم . ولا ريب في أن الصعوبة الرئيسية التي كانت تقوم أمام محاولة من هذا النوع هي ما يحس به الأهليون من مقت للبيزنطيين لما اقتترفوه من اضطهاد ديني في عهد المقوقس . ولو كان المصريون على ولاء للامبراطورية الرومانية لاختلف الوضع تمام الاختلاف .



ولنترك عمرو بن العاص يرباط ثانية في حصن بابلبيون في أغسطس عام ٦٤١ ، ولنتلفت بأنظارنا الى ماكان يدور في القسطنطينية في تلك الآونة .

سبق لنا أن ذكرنا كيف غادر هرقل سوريا بعد كارثة اليرموك في عام ٦٣٦ ، ويبدو أن الامبراطور لم يعد فورا الى عاصمته بل أقام بعض الوقت في كيليكية ، حيث كان يعاني كما يبدو بعض الانحطاط العقلي وفي وسعنا أن نطلق على الحالة التي أصابته اسم الانهيار العصبي ، ويبدو أنه ابل أخيرا من مرضه واستأنف تصريفه لشئون دولته . لكن المصائب مالت أن توالى على جيوش الامبراطورية . اذ استسلمت القدس وتبعتها انطاكية فقيسارية ولحق بها وصول العرب الى مصر .

ويظهر أن المصائب لاحقته حتى في صميم أسرته . وهو في سن شيخوخته بعد أن كان لسنوات خلعت بطل عصره . فعندما توفيت زوجته الأولى يودوكيا قبل بضع سنوات راح يتحدى قوانين الكنيسة ومعارضة بطريق القسطنطينية ويتزوج من ابنة أخته ، مارتينا ، وعندما بلغ سن الشيخوخة ، أخذ ضميره يعذبه على هذا الزواج الخطيء الذي اقترفه . وكان ولده قسطنطين ، الابن الأكبر للامبراطورة يودوكيا قد تسمى بلقب أوغسطس وبلغ الآن التاسعة والعشرين من عمره . وأصبح في سن تمكنه من تولي مسئولية الشئون العامة . لو لم يصب بمرض عضال ، يعتقد أنه السبل . واغتنمت مارتينا فرصة مرض قسطنطين فأخذت تلحف على زوجها باشتراك ولدها منه هيراقليوناس في ولاية العهد .

واستدعى مجلس الشيوخ الى الاعتقاد في الرابع من يوليو (تموز) عام ٦٣٨ ، ليصدق في القصر الامبراطوري على الشراكة المتساوية في العرش بين قسطنطين ابن يودوكيا وولدها هيراقليوناس الذي لايتجاوز الثلاثة عشر ربيعا .

وتوفى الامبراطور الشيخ هرقل كما ذكرنا سابقا في الحادى عشر من فبراير (شباط) عام ٦٤١ ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، فى الوقت الذى كان فيه عمرو بن العاص مازال فارضا حصناره على حصن بابليون فى مصر ، وحاولت مارتينا فى بادئ الامر أن تغتصب السلطة لنفسها . ولكنها اضطرت تحت وطأة المعارضة الشعبية الى الانسحاب من مسرح الأحداث العلنى ، والى الاقتناع بتأييد ادعاءات ولدها هيراقليوناس عن طريق الدسائس والمؤامرات ، ولم يقدر لقسطنطين على أى حال أن يظل الى أمد طويل عقبه فى طريق تحقيق مطامحها . فقد مات بعد حكم لم يطل أكثر من مائة وثلاثة أيام فى الخامس والعشرين من مايو (آيار) عام ٦٤١ متأثرا من نوبة سعال أدت الى نزيف داخلى والى تقيؤه الدّم . وكان قبل موته قد استدعى المقوقس من منفاه ويثودور من الاسكندرية ليشاورهما فى وضع مصر .

ولم تكذ تعلن وفاة قسطنطين حتى تمكنت مارتينا من اعلان ولدها هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، امبراطورا أوحد للامبراطورية . ولكن قسطنطين كان قد خلف ولدين أكبرهما يدعى كونستانس ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره . وكانت مارتينا الامبراطورة الحاطة ، مكروهة من شعب بيزنطة ، الذى ثار عليها . وزحف فالتتاين قائد جيوش الروم فى الأناضول على العاصمة وتوج بالقوة كونستانس شريكا فى الحكم الامبراطورى لهيراقليوناس .

وأعيد المقوقس فى غضون ذلك الى مصر . ويبدو أن مارتينا ، وقد انهمكت فى الدسائس لتنصيب ولدها امبراطورا ، كانت راغبة فى انهاء الحرب مع العرب وتسليمهم مصر . ومن المعقول أن يكون المقوقس نفسه قد أقنع مارتينا وهيراقليوناس الشاب بضرورة تسليم مصر اذ أن الحماسة التى أبدوها فى تنفيذ هذه الخطة ، تشير بوضوح الى أنه كان أكثر من مجرد منفذ للتعليمات الرسمية .

ولقد سبق لنا أن رأينا ، أن مثل هذا التسليم لم يكن أمرا حتميا . فلقد كان فى وسع الاسكندرية أن تصمد سننات طويلة ، وكان هرقل قبل موته قد أشرف على اعداد نجدة جديدة كان قد أعلن عزمه على قيادتها بنفسه لاستعادة مصر من العرب . ولكن الخلافات فى بلاط القسطنطينية انتقلت الى الاسكندرية ، اذ انقسمت النجدة التى أرسلت اليها بين مؤيد لمارتينا ومؤيد لاولاد قسطنطين . وسرعان ما بدأت الاصطدامات فى شوارع

الاسكندرية بين مؤيدي الفريقين المتنافسين على السلطان في القسطنطينية .

ونزل المقوقس في الاسكندرية في الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) عام ٦٤١ بعد أن أعيد تعيينه حاكما لمصر وبطريقا لها . وقد استقبل عند وصوله استقبالا شعبيا حماسيا . ولما كان في السنوات العشر السابقة من حكمه لمصر قد كرس نفسه لاضطهاد الاقباط فان في وسع المرء أن يفترض من هذا الاستقبال الحماسي أن غالبية أهل الاسكندرية كانت تمت الى الكنيسة الارثوذكسية التي يتولى هو رئاستها وبوصفه بطريق الاسكندرية . ومثل هذا الوضع متوقع ولا شك أن الاسكندرية كانت بوصفها عاصمة مصر ، مكتظة ولا ريب بالاغريق الذين كانوا يملأون قيسارية والقدس في فلسطين . وتوقع الناس نظرا لوجود المسلمين خارج الأسوار وانتشار المصادمات الحربية في شوارع المدينة أن يؤدي مثل هذا الحاكم القوي في وسطهم الى تحسن في أوضاع الأمن وإلى ثقة الجمهور بالحكم . ولو صح مثل هذا الافتراض ، فانه يقوم ولا ريب على تفكير خاطيء اذ انهم لم يكونوا يدرون أن المقوقس لم يعد اليهم ليدافع عنهم ، بل ليسلمهم الى العرب .

وكانت الاسكندرية والحق يقال مدينة دولية تفتقر الى روح الانسجام بين أهلها ولقد كانت كغيرها من العواصم ، مستقرا للاغراب منذ أكثر من ألف عام . فاليهود فيها يؤلفون جالية كبيرة العدد وافرة الثراء . وفي شوارعها يختلط الاغريق بالايطاليين واليهود والاقباط والزوج الافريقيين . ولم تكن بذور الخلاف التي تفصل بين الكنيستين الارثوذكسية والقبطية هي المصدر الوحيد للفرقة والفتنة . وكان الحزبان الازرق والاخضر الموجودان في القسطنطينية متساويين في القوة في الاسكندرية وبالنظر الى غياب تيودور القائد العام في القسطنطينية فقد اقتسم القائدان العسكريان المتنافسان دومنيتيان ومينوس ، ولاء الجنود الزرق والاحضر ، وأخذ الفريقان يشتبكان في الشوارع وينهمكان في أعمال النهب والسلب .

ولم يمض على وصول المقوقس أكثر من شهر الى الاسكندرية حتى كان يغادرها في النصف الثاني من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤١ قاصدا حصن بابليون لمقابلة عمرو بن العاص وهو يعتزم تسليم الاسكندرية اليه ، ومعها بقية ارجاء مصر . ويبدو أنه كتم نياته عن كل من في الاسكندرية ، اذ ظل الناس فيها يعتقدون أنه انما جاء لانقاذهم وكان قد

تلقى تخويل الامبراطور له بتسليم الاسكندرية •• ولكن ترى من
الامبراطور ؟ أهو هيراقليوناس البالغ من العمر خمسة عشر عاما
أو كونستانس البالغ الثانية عشرة من عمره ، أو مارتينا الامبراطورة
الحاطة المغرمة بالدسائس ؟

وكان عمرو بن العاص قد عاد الى حصن بابلليون بعد زحفه غير
الموفق نسبيا الى شمال الدلتا • وبدا أن مادان له من مصر لم يعد نصفها
ولو قدر لهرقل العجوز أن يعيش مدة أخرى وان ينفذ مشروعه بالنزول
شخصيا في الاسكندرية على رأس جيشه الذي أعده ، لطال أمد المقاومة
الى أجل غير مسمى على الغالب • ولكن المقوقس جاء وفدا لغاية أخرى •
وقد رحب عمرو بالمقوقس ترحيبا حارا • وكان قد انقضى نحو عام
تقريبا منذ فاضحه على عقد معاهدة الصلح الاولى التي كان هرقل قد رفضها
ساخطا ومزقها • ويقال ان المقوقس بأمر قائده المسلمين هذه المرة بقوله :
« يبدو أن الله قد منحكم هذه البلاد » •

وتم في الثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٤١ ، التوقيع على
معاهدة بين عمرو بن العاص والمقوقس • وقد نصت المعاهدة على أن يدفع
أهل مصر الجزية أسوة بأهل سوريا وفلسطين والعراق • ويبدو أنه فرض
على كل رجل أن يدفع دينارين بالاضافة الى الضرائب العينية من قمح
وزيت وملابس لجنود المسلمين • وتقرر أن تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا
تنتهي بنهاية سبتمبر (أيلول) عام ٦٤٢ ، على ألا يهاجم العرب الاسكندرية
في غضون هذا ، وأن يجلو الروم ابانها بطريق البحر حاملين معهم ما يملكونه
واشترطت المعاهدة ألا يعود الروم الى مصر ، وألا يحاولوا العودة اليها
وألا يضع المسلمون أيديهم على أية كنائس جديدة وألا يتدخلوا في حرية
العبادة بالنسبة الى المسيحيين • وقررت المعاهدة أن يظل اليهود في
الاسكندرية • وان يصبح أهل مصر ، بدفعهم الجزية للمسلمين ، تحت
حماية جيوشهم (١) •

(١) تختلف روايات المؤرخين العرب تمام الاختلاف عن رواية المؤلف ، فهي لا تتحدث
من سفر المقوقس الى القسطنطينية ، ولا عن رجوع عمرو بن العاص الى اليونان (بابل)
ولتنقل هنا ما قاله البلاذري : « سار عمرو حتى انتهى الى الاسكندرية ، فوجد أهلها
مدين لقتاله ، الا أن التبط يحبون المهادنة ، فأرسل اليه المقوقس يسأله الصلح
والمهادنة الى مدة • فأبى عمرو ذلك فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة
مقلبات وجوههن الى داخله • وألقم الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم الى المسلمين
ليرهبهم بذلك • فأرسل اليه عمرو : انا قد رأينا ما صنعت • وما بالكثرة غلبنا من =

ويضيف الطبري الى المعاهدة بندا طريفا آخر ، فقد ذكر انه نص على ألا يسمح للنوبيين ، والمقصود بهم السودانيين على الغالب ، بغزو البلاد وهناك من ذكر أيضا بأن المعاهدة تضمنت بندا آخر يشترط عدم زيادة الجزية أو الخراج في المستقبل .

وأوفد عمرو بن العاص بعد انتهاء المفاوضات رسولا الى الخليفة في المدينة ينقل اليه النبأ . وتقول الروايات ان الرسول طلب من عمرو كتابا يحمله الى الخليفة فرد هذا قائلا : وما شأنى بالكتاب ؟ أأ لست عربيا يستطيع أن ينقل شفاهها كل مارآه بعينه ؟ كانت هذه هي الاساليب البعيدة عن الرسمية ، التي استعملها الخلفاء الاول وقادتهم العسكريون . في اقامة امراطوريته العظيمة . ووصل الرسول الى المدينة بعد ظهر ذات يوم ، فاناخ ببعيره أمام المسجد الذي يطل باب الخليفة على باحته . وخرجت فتاة صدفة من البيت فرأت وعشاء السفر على الرسول وبعيره فسألته عن أمره ، ورد الرجل بأنه رسول من عمرو بن العاص . وعادت الفتاة متهولت الى الدار ، ولم تمض ثوان حتى كانت تخرج ثانية لتستدعي الرسول الى مقابلة الخليفة ، واستعلم عمر بن الخطاب من الرسول عن كل شيء . . . فرد هذا . . . أنباء طيبة يا أمير المؤمنين . . . لقد فتح الله لنا الاسكندرية . .

وأسرع الخليفة البسيط المتواضع الى فناء المسجد . وطلب الى المؤذن أن يؤذن بالناس داعيا اياهم الى الصلاة . وبعد أن روى الأنبياء السارة للمسلمين ، أقيمت الصلاة ، وعاد عمر الى بيته المتواضع ، حيث دعا الرسول الذي يعلوه غبار السفر الى تناول الطعام معه وهو مؤلف من الحنظل والزيت والتمر . وبمثل هذه الطريقة البسيطة نقلت مثل هذه الأنباء العظيمة ، واستقبلت في العاصمة .

== غلبنا . فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان . فقال القوقس لاصحابه : قد صدق هؤلاء القوم . اخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية . فنهم اولى بلالامان . فالتفتوا له القول ، وأبوا الا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وحاصروهم ثلاثة اشهر ، ثم ان عمرا فتحها بالسيف وغنم ما فيها ، واستبقى اهله ولم يسب وجعلهم ذمة كاهل البوثة ، كتب الى عمر بالفتح مع معاوية بن جندع الكندي ، وبعت اليه معه بالخمسة ، ويقال ان القوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر الف دينار على ان يخرج من الاسكندرية من اراد الخروج ، ويقام بها من أحب القام وعلى ان يفرض على كل حاكم من القبط دينارين . فكتب لهم بذلك كتابا .

(المغرب)

وكان المقوقس قد عاد في غضون ذلك الى الاسكندرية • وعلى الرغم من أن ثيودور كان قد عاد الى المدينة ، الا أنه لم يرافق البطريق في رحلته الى بابل ، وكان ثيودور قد خسر كل معركة خاضها مع العرب ، الا أن مما يستحق الذكر بأنه في هذه المرة ، وبعد موت هرقل ، كان يلحف بوجود استمرار المقاومة في مصر • ومن هنا تتبلج الحقيقة في أنه لم يكن موثوقا لدى المقوقس الذي أخفى عنه ولا ريب أنه ذاهب الى بابل للتوقيع على صلح مع العرب • وعندما عاد البطريق أفلح كما يبدو في اقناع ثيودور باستحالة المقاومة أمدا آخر ، مؤكدا له ولا ريب ، بأن تعليماته التي حملها من الامبراطور تأمره بالتوقيع على الاستسلام •

وعندما نمت خبر الاستسلام الى أهل الاسكندرية استبدت بهم موجة عارمة من السخط وهاجت الجماهير وماجت وهرعت تذرع الشوارع الى القصر ، معززة الاقتصاص من البطريق ، الذي استقبلته قبل شهرين استقبال الفاتحين معتبرة اياه منقذها من العرب • وظلت حياة المقوقس معرضة للخطر بعض الوقت • ولكنه مالبت وبصورة متدرجة ، أن أفلح في اقناع معارضيه بحتمية الاستسلام • وقال لهم ان العرب قوم لا يقاومون وان الله قد شاء أن يمنحهم أرض مصر ، مكررا ما قاله في هذا الصدد نفسه لعمر بن العاص • وسالت الدموع على وجنتيه • وهو يؤكد لهم أنه فعل لهم كل ما في وسعه • وان غاية المحاولات التي بذلها انقاذهم وانقاذ أولادهم وكنائسهم من الموت والدمار • وتمكن بهذا الاسلوب الخادع من تهدئة الجماهير التوسعة الحظ التي خانها وخدعها بمكر ودهاء (١) •

وليس في امكاننا حتى الآن • التمسك من الدوافع التي حملت المقوقس على هذا السلوك • فهناك من يقول بأنه كان رجلا ضعيفا عجوزا مسكينا • ولكن من الصعب علينا أن نصدق هذا القول ، على ضوء ما رأيناه منه من تصميم وقسوة في اضطهاد الاقباط فيما مضى • وهناك من تصور بأن المقوقس كان يعتقد نفسه صديقا شخصيا لعمر بن العاص وكان يأمل في أن يظل في منصبه كبطريق لمصر في ظل الحكم الاسلامي ، ولكن اذا كانت مثل هذه المطامح قد ساورته فعلا ، فانه ولا ريب لم يحقق منها شيئا فقد مات في الواحد والعشرين من مارس (آذار) عام ٦٤٢ أي قبل أن يحتل العرب المدينة •

(١) يبدو المؤلف هنا على حقيقته بعيدا عن الموضوعية وكارها للعرب والمسلمين ..
بنفت • موم حقه يمثل هذه اللغة السائرة التي استعمالها • (العرب)

وأقر هيراقليوناس فى القسطنطينية معاهدة الصلح هذه فى غضون ذلك وكان اقراره من آخر الاعمال التى قام بها ، اذ خلع عن العرش فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ٦٤١ نتيجة انقلاب عسكرى قام به أنصار كونستانتس ، وقام الانقلابيون بقطع لسان مارتينا وجدع أنف هيراقليوناس ثم أبعد وهما عن العاصمة الى المنفى بين لعنات رعاياهما السابقين (١) .

وكان عمرو بن العاص فى فترة ترقب استسلام الاسكندرية . قد دأب على انشاء مدينة عسكرية لقواته خارج اسوار بابل ، فقد رأى أن الاسكندرية بوصفها ميناء على البحر الذى يسيطر عليه اسطول الروم ، لم تكن صالحة كعاصمة عربية . وحرى بنا أن نذكر مدى اصرار عمر بن الخطاب دائما على أن تظل أظهر الجيوش العربية فى البلاد المحتلة مرتكزة الى الصحراء ولم يكن عمر ليقبل أبدا أن تفصل دلنا النيل بين الحامية العربية فى مصر وبين الجزيرة العربية . أما بالنسبة الى بابل (اليونة) فلم تكن هناك جبال أو مياه تفصل بينها من ناحية وبين الصحارى العربية

(١) تختلف رواية المؤلف من جديد عن الروايات العربية . اذ تقول ان عمرو بن العاص استخلف على الاسكندرية بعد فتحها عبد الله بن حذافة فى رابطة من المسلمين لم انصرف الى القسطنطينية . وكتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وكان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلعة عدد المسلمين منهم . وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبست رجلا من اصحابه يقال له منويل فى ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة . فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجأ ، وذلك فى سنة خمس وعشرين . وبلغ عمرا الخبر لسار اليهم فى خمسة عشر الفا ، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيئون فيها الى الاسكندرية من قرى مصر فسادا فلقبهم المسلمون قرشوقهم بالشباب ساعة والمسلمون متترسون . ثم صدقوهم الحملة ، فالتحمت بينهم الحرب ، فاقترعوا قتالا شديدا . ثم ان اولئك الاروام ولوا منهزمين . فلم يكن لهم ناهية ولا هرجة دون الاسكندرية . فتحصنوا بها ونصبوا العرادات ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال : ونصب المجانيق فأخرب جدرانها ، والج بالحرب حتى دخلها بالسيف فتوة فقتل المقاتلة وسبى اللرية . وهرب بعض رومها الى الروم ، وقتل عدو الله منويل وهدم عمرو والمسلمون جدار الاسكندرية وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك .

ويقول البلاذرى : ووضع عمرو على أرض الاسكندرية الخراج ، وعلى أهلها الجزية ، وروى أن القوقس احتل أهل الاسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضا أنه كان قد مات قبل هذه الغزوة .

هذه روايات التاريخ العربى . ويبدو أن المؤلف آخر أن يتجاهل قصة النقض وفتح الاسكندرية فتوة للمرة الثانية لأنها تهدم له كل نظريته المضللة التى أقامها والتى حاول أن يظهر فيها أن الاسكندرية قد سقطت فى ايدى العرب نتيجة ما أسماه بخيانة القوقس لا نتيجة انتصار عسكرى حققه العرب بشجاعتهم . وهذا هو عين التضليل .

(الحرب)

المضيافة للعرب • واطلق اسم الفسطاط على المدينة العسكرية العربية الجديدة ، وتقوم مدينة القاهرة الحالية وضواحيها الآن على آثار مدينة ممفيس القديمة • ومدينة مصر التي بنيت في القرن السابع ، والفسطاط وقلعة بابل وميدان معركة هليوبوليس •

ويقوم الدليل على أن انهزامية المقوقس لم يكن لها ما يبررها ، هذا إذا شئنا ألا نسميها خيانتة المرسومة (١) من الحقيقة الواقعة ، وهي أن بعض مدن الدلتا رفضت أن تفتح أبوابها للمسلمين صلحا ، حتى بعد إبرام هيراقليوناس وعمر بن الخطاب لمعاهدة الصلح • ولقد كانت مقاومتها صلبة رغم وضعها اليائس الذي نتج عن تخلي البيزنطيين عنها ، حتى أن أخضاع شمال الدلتا استغرق من العرب عدة أشهر بين نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٦٤١ و يوليو (تموز) عام ٦٤٢ • فلقد كانت المنطقة بما ينتشر فيها من أقنينة ألرى التي لاتعد ولا تحصى شاقة على عرب الصحراء • وعلى الرغم من كل هذا فمن الحرى بنا أن نذكر ، أن الأقباط حاربوا بكثير من العناد والصلابة حتى فى ظروفهم تلك التي لم تكن تحمل لهم أى أمل بالنجاح •

وفى وسعنا أن نستخلص من هذه العوامل كلها ، دروسا عدة ، ذات علاقة ماسة بأحداث عصرنا • أول هذه العوامل أن المصريين كمحاربين لم يهزموا الا بسبب افتقار قادتهم الى الكفاية (٢) واذا ما قارناهم بالعرب

(١) يصر المؤلف من جديد على نظريته التي تتعارض مع كل أحداث التاريخ العربى ومع روايات المؤرخين • لغاية في نفس مقبوع ، ستظهر واضحة في الفقرة التالية وهي رغبته في الفصل بين العرب والمصريين من ناحية والخط من شأن شجاعة العرب من ناحية اخرى •

(٢) يحاول المؤلف هنا أن يضل قراءه ، وأن يصور لهم أن الحرب كانت في مصر بين العرب من ناحية والمصريين من ناحية اخرى • مع أن الحقيقة التاريخية التي لا تقبل النقض ولا الجدل هي أن الحرب كانت بين العرب والروم ، لا بين العرب والمصريين أى الأقباط ، ولعل من ناقلة القول أن يؤكد هنا أن الروم كانوا مستعمرين لمصر • لا من أهلها ، وأن الأقباط كانوا يكرهونهم أشد الكره • لما اتبعوه من سياسات الاضطهاد الدينى التي اعترف بها المؤلف • ولهذا فإن المصريين أى الأقباط وقفوا موقفنا سلبيا من الروم عند غزو العرب للبلاد ، وهو ما يؤكد جميع مؤرخى العرب • أما القول بأن القادة المصريين كانوا يفتقرون دوما الى الكفاية ، فتضليل وتشويه لكل حقائق التاريخ • إذ أن الجيوش المصرية في جميع العهود العربية منها وقبل العربية • قامت بفتوحات عسكرية عظيمة دللت على كفاية قياداتها ، وحسن بلائها • لكن المؤلف يريد أن ينفث سموم حقد الاسود على المصريين • ومن هنا نراه لا يتورع حتى من اختلاق الاكاذيب ، وقلب الحقائق التاريخية •

(العرب)

«وجدنا أنهم كانوا بطييء الحركة مفتقرين الى المبادرة . أما اذا كان المصريين مرابطين في قواعد عسكرية منيعة ، فانهم يظهرون شجاعة فائقة واصرارا كبيرا على الدفاع . وهم يرفضون التسليم حتى وان يأتوا في وضع يائس . وهناك مفارقة عجيبة بين العرب والمصريين في هذه النواحي . فالجنود العرب يقظون ، سريعو الحركة ، على استعداد للحسم في المواقف . وتولى زمام المبادرة ، وهم يكرهون الجمود والبقاء في مركز ثابت ، وهذه الفروق واضحة اليوم كما كانت واضحة في القرن السابع . مما يؤكد الاختلاف العنصرى بين الفريقين نظرا لاختلاف خصائصهما ومن هنا يكون الميل العصرى الى اطلاق صفة العروبة المشتركة عليهما مجرد -تضليل(١) .

وتميل حقيقة اعداد السكان الى تأكيد هذه النتائج التى توصلت اليها . فهناك اليوم في حوض النيل الصغير عدد من السكان أكثر بكثير من عددهم في الجزيرة العربية الفسيحة الأرجاء . لاريب في أن عدد سكان مصر في القرن السابع كان يربو على عدد سكان الجزيرة كلها . ومع ذلك فلقد كان هؤلاء السكان القلة يشتمكون في حروب في وقت واحد في مصر . وفارس والعراق وسوريا وفلسطين . وسرعان ما قدر لهم أن ينتشروا في شمال افريقيا أيضا ، وفي الاندلس وفرنسا ، وهكذا فان عدد سكان الجزيرة العربية أيام الفتوحات الاسلامية ماكان ليترك هذا الأثر الكبير في سكان بلد كمصر . يضاف الى هذا أن العرب الذين هاجروا في تلك

(١) ليس هناك من هو أكثر تضليلا من المؤلف نفسه . لقد وضع نصب عينيه لغايات استعمارية تدل عليها طبيعة العمل الذى قام به ثلاثين عاما في الوطن العربى ، وحقده الاستعمارى الدفين على مصر ورائد العروبة جمال عبد الناصر ، أن يفصل بين العرب وبين المصريين « قلب الحقائق التاريخية وشوهدا ليصل منها الى استنتاجات خاطئة يحاول أن يدعمها بأدلة أكثر منها خطأ . فهو يجسم ما يسميه بالفروق بين خصائص العرب وخصائص المصريين ويهول فيها « ناسيا أن مثل هذه الفروق ، موجودة بين أهل لندن مثلاً وأهل مانشستر . أو بين أهل كنت وأهل ويلز في بلاده ، أو بين أهل بافاريا وأهل روسيا في ألمانيا ، ولو جانب المؤلف سبيل الهوى والغرض لحظة واحدة ، لادرك أن العوامل الجغرافية وعوامل البيئة ، والطبيعة تلعب دورها في خلق مثل هذه الفروق بين أبناء الشعب الواحد . فأهل اليمن مثلا يختلفون بعض الاختلاف عن أهل الحجاز . وهؤلاء يختلفون عن أهل نجد . مع أنهم جميعا من أصل عربى واحد ، لا يستطيع المؤلف ، حتى ولو أدوى من القدرة على التضليل وقلب الحقائق ، طاقات فلة أن ينكره . . لكن هذا القول الذى جاء به المؤلف نفمة استعمارية ممهوجة كثيرا مارايتها في كتب غيره من المؤلفين الغربيين وفي صحافة الغرب ووسائل اعلامه .

(العرب)

الايام كانوا جميعا من البدو ، الذين لا يستسيغون هذه التربة الغرينية العميقة الموجودة في مصر ، ولا يستطيعون قنواتها المائية التي لاتعد ولا تحصى أو حرارتها المحرقة المشبعة بالرطوبة . وقد اتجهت هذه القبائل في حالات معينة الى الجنوب نحو الصحراء باتجاه السودان ، أو عبرت النيل لتهاجر غربا عبر الصحراء الى ليبيا ، وقد يكون من المتعذر اليوم على بدوى الجزيرة العربية أن يفهم لهجة أهل الدلتا . ولكنه يرى في لهجة أهل ليبيا وشمال السودان كثيرا من التعابير الشائعة عند أهل قبيلته في الجزيرة العربية (١) .

وليس من شك في أن المنبع الرئيسى لاختلاط الدم العربى فى مصر بعد الفتح انما نشأ عن حامية الفسطاط . وكان فى استطاعة الجنود العرب جريا على مألوف تلك الايام أن يتزوجوا أكثر من واحدة من المصريات . وأن يقتنوا مالا عد له من الجوارى . وليس ثمة من شك فى أن الذرية الناجمة عن هذه الاوضاع تدعى الاصل العربى لانتمائها الى آباء عرب وتعود هذه الذرية فتبنى بزوجات من المصريات ، ولا تمضى عدة أجيال حتى يكون نسل الصحابة قد أصبح مصريا صميما .

ويؤكد المؤرخون بالاضافة الى كل هذا أن عددا من الاقباط قرر عند ابرام صلح الاسكندرية التحول الى الاسلام ، رغبة منهم فى الخلاص من الجزية والضرائب الثقيلة أولا والوصول الى مركز المساواة مع الفساحين المنتصرين فى الميدان الاجتماعى ، وقد مال المؤرخون الى اعتبار هؤلاء من العرب ، وهو خلط فكرى بين العنصر والدين .

وفتحت الاسكندرية فى سبتمبر عام ٦٤٢ أبوابها للعرب طبقا للاتفاق . وانتهت الى الأبد سيطرة البيزنطيين على مصر .

وكان من النتائج البارزة لفتح مصر على يد عمرو بن العاص وصول رسالة من الخليفة الى القائد الظافر ، يقول فيها أن الأنباء التى وصلت الى

(١) استنتاجات خاطئة تقوم على فرضيات سخيفة ، والا متى كانت الاختلافات في اللهجات دليلا على خلاف في العنصر . لقد كانت لكل قبيلة من القبائل العربية ومازالت لهجتها الخاصة بها ، كما ان سكان كل مدينة يختلفون في لهجتهم عن سكان مدينة مجاورة في وطن واحد . ولعل المؤلف لا ينسى وان تناسى ، ان هذا الاختلاف في اللهجات موجود في بلاده انجلترا ، بين مقاطعة وأخرى ، بل وبين مدينة ومدينة .
(المصري)

المدينة تفيد أنه ، أى القائد أصبح ثريا يملك المتاع والرقيق والآنية والحيوان مما لم يكن له عندما ولى مصر • ورد عليه عمرو قائلا : ان أرضنا أرض مزروع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا ، فكتب اليه الخليفة الصلب يقول : انى قد خبرت من عمال السوء ماكفى وكتابك الى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سنوت بك ظنا • وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلعة ، وأخرج اليه ما يطالبك واعفه من الغلظة عليك ، فانه برح الحفاء • وهكذا نرى الخليفة يصادر نقسما كبيرا من ثروة القائد الظافر وهو فى أوج انتصاراته وليس ثمة فى التاريخ احداث كثيرة تماثل هذا الحادث البارز •

وعندما جاء محاسب الخليفة محمد بن مسلمة • ليقاسم عمرا ثروته ، قال عمرو كما تذكر الروايات •• ان زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة - يعنى عمر بن الخطاب - لزمان سهو • لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج • فقال محاسب الخليفة : « مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكبره • ألفت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوؤك بكأوها » فقال عمرو •• « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ، فان المجالس بالامانة » • فرد محمد بن مسلمة قائلا : « لا أذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حى » •• ولا ريب فى أن هذا الحوار الممتع القصير الذى دار قبل نحو من ألف وثلاثمائة عام • يعتبر نموذجا للنكتة العربية الساخرة • ولا ريب فى أن ما ينطوى عليه من وضوح يقنعنا كل القناعة بصدقه •

ويميل كل عصر من العصور الى أن ينسب الى العهود التاريخية ، الاخرى العقلية الخاصة به • فلقد نسب اسلافنا من ذوى التفكير الدينى ، الفتوحات العربية الى الحماس الدينى الاسلامى • أما فى عصرنا المادى الحاضر ، فقد أصبح من المألوف أن تنسب مثل هذه التفجرات للطاقة ، الى الدوافع الاقتصادية ، ولى ضغط المجاعة فى الجزيرة العربية • ولكن هذا الحادث وحده يعتبر كافيا لنفى مثل هذا الافتراض • فلو قبلنا بالنظرية القائلة بتعلقات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الدينوية ، فما الذى يدفع مثل هذين القائدين الظافرين ، وهما على رأس جيشهما الى تسليم ما يملكانه من ثراء دون أى تأفف أو تدمير ، الى رسول فرد أعزل أوفده الخليفة العارى القدمين الرابض بعباءته المرقعة فى المدينة ؟ ليس ثمة من خلاف فى أن هناك ردا واحدا على هذا السؤال • انها المعنويات العظيمة التى سبادت المجتمع كله آنذاك ، هى التى مكنت عمر بن الخطاب من سلوك مثل هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته • وعندما

نقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنابد وأنانية وتقسيم الى أحزاب ودسائس تحاك وراء الكواليس تتبين لنا الحقيقة الناصعة ، فى أسباب انتصارات العرب العظيمة •

تواريخ بارزة

١٣ من مايو (ايار) ٦٤١	احتلال نيكيو (زاوية راسين)
٢٥ من مايو (ايار) ٦٤١	موت الامبراطور قسطنطين اكبر ابنا هرقل
	فى بيزنطة
يوليو (تموز) ٦٤١	انسحاب الروم الى الاسكندرية
١٤ من سبتمبر (أيلول) ٦٤١	عودة المقوقس بطريق الاسكندرية
٨ من نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٤١	اجتماع المقوقس بعمر بن العاص فى بابل
	وتوقيع اتفاق التسليم
نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٤١	نفى مارتينا وهيراقليوناس
٢١ من مارس (آذار) ٦٤٢	موت المقوقس
سبتمبر (أيلول) ٦٤٢	العرب يحتلون الاسكندرية •

شخصيات مشهورة

القائد العام فى مصر	عمر بن العاص
القائد العام للروم	ثيودور

خلفاء هرقل

ابن هرقل	الامبراطور قسطنطين
	الامبراطورة مارتينا وولدها هيراقليوناس
نجل قسطنطين	الامبراطور كونستانس

فتح الفتوح

« يطرد الرب جميع هؤلاء الامم من امام وجوهكم
فتروون امما اكثر واعظم منكم » .

لا يقف انسان في وجوهكم ، فإن الرب الهكم يلقي
ذعركم ، ورهبتمكم على كل الارض التي تطاونها كما
وعدكم » .

= سفر تثنية الاشتراع = الفصل الحادى عشر = ٢٣

« كانت الدعوة الى ميدان القتال بالنسبة الى العرب
الأول أشبه ما تكون بالدعوة الى وليمة عرس ، وكان
هؤلاء الرجال مع شراستهم فى القتال شديدى النمالة
بعد النصر فلقد حفظوا عهودهم تمام الحفظ ، ولم نسمع
عن مجازر لا تميز فيها قد ارتكبوها ، ولم يكن مما يشين
جيوش رومة وفارس أن ينتصر عليها مثل هؤلاء
الناس » .

فريمان = تاريخ العرب

« يتميز العرب بالعنف اذ صاغت طبيعة الحياة
الخشنة التى عاشوها خصالهم ، الى أن أصبح العنف
طبيعة ثانية لهم . وهم ، والحق يقال ، ينعمون بالحياة
الغاسية اذ انها تمكنهم من تحطيم نير السلطة عن رقابهم
وانخلاص من السيطرة السياسية عليهم ، ومثل هذه
الطبيعة تتعارض مع انتشار الحضارة . واخيرا يعتبر
كل عربى نفسه أهلا للحكم ولنا يندر أن نجد منهم من
يلعن طواغية لسيطرة الآخرين » .

مترجمة عن الانجليزية . مقتبسه من ابن خلدون

فتح الفتوح

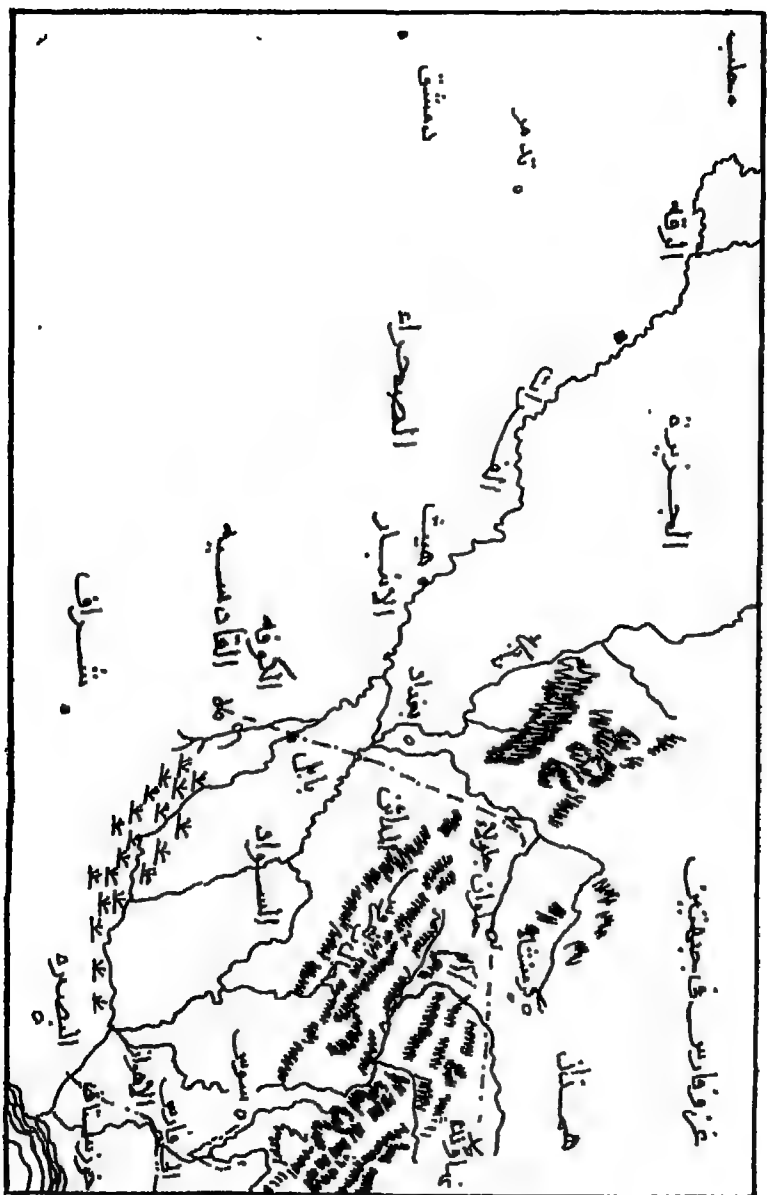
تابعنا في الفصل التاسع من هذا الكتاب هزيمة يزدجرد ثانية في
جولاء عام ٦٣٨ ميلادية ، ورأينا أبا موسى الأشعري يوالى انتصاراته في
الاهواز حيث احتل رامهرمز والسوس وتستمر ، لكن الخليفة كان قد
أصدر أمره الى سعد بن أبي وقاص بعدم تجاوز جبال زاغروس ، مما أدى
الى توقف القتال بين العرب والفرس ، مدة ثلاث سنوات بعد معركة
جلولاء .

ولكن ملك الفرس الفتى لم يكن قد قرر بعد الاعتراف بالهزيمة .
ولذا راح يوفد رسله الى حكام الامارات التي لم يكن العرب قد احتلوا
بعد يأمرهم بأن يجندوا أكبر عدد من الرجال . وأن يرسلوهم للانضواء
تحت راية الملك . وهكذا تم في عامي ٦٤٠ و ٦٤١ بناء جيش جديد في
فارس ووصلت أنباء هذه الحشود الى سعد بن أبي وقاص ، وهو في
قيادته في الكوفة ، فراح يبعث بها الى الخليفة في المدينة مناشدا إياه
الاسراع في ارسال النجادات .

وكان عمر ، بما عرف عنه من حيوية ، عند حسن ظن قائده . وراح
يستصرخ القبائل ارسال الرجال من أبنائها ، معلنا عزمه على قيادة الجيش
الجديد بنفسه الى فارس وعاد فسمح لصحابته بأن يحولوا بينه وبين
السفر بنفسه (١) . وأرسل القوات الى العراق منتدبا لقيادتها النعمان بن
مقرن ، أحد الانصار من أهل المدينة ، وكان يتولى آنذاك رتلا في الاهواز .
ومخولا إياه الاششتباك بجيشه الجديد مع جيش يزدجرد . وصدرت
الأوامر في الوقت نفسه الى الجيش العامل في الاهواز بأن يرسل فصيلا
لتعزيز جيش النعمان بن مقرن وبأن يواصل التقدم هو في الاهواز ،
ليحول اتجاه النجادات الفارسية اليه .

وتحرك النعمان بن مقرن باتجاه حلوان ، حيث وردت اليه الانباء
بأن الفرس قد اجتمعوا في نهاوند الواقعة وسط السهل القائم على الطرف
الأخر من جبال زاغروس ، وقيل ان جيش المسلمين كان يعد ثلاثين ألفا .
وان جيش الفرس ، كان يعد أكثر من ذلك بكثير لكنني أشك في صحة

(١) فمرة مضللة من جديد ، من جانب المؤلف ، ليظهر عمر بن الخطاب ، رضي
الله عنه بظهور المزوف من السير بنفسه الى الحرب . (المغرب)



هذه الأرقام من الجانبين ، واعتقد ان الجيشين كانا أقل من ذلك بكثير (١) .

ولا ريب في ان الصورة التي وصلت إلينا عن معركة نهاوند لا تقل غموضا عن الصور السابقة ، التي وصلتنا عن المعارك الأخرى ، ولكن يبدو لنا ان الفرس كانوا يحتلون موقعا خصبا يرفضون الخروج منه للقتال . وكانوا قد نشروا على الأرض القاذمة أمام خطوطهم الدفاعية مسامير من الحديد تثقب حوافر الجياد . بحيث يتعذر على الفرسان أن يقتربوا من هذه الخطوط . وذهل العرب من هذا الأسلوب الجديد ، الذي يعتبر أول تطبيق لنظرية زرع الألغام . وعقدوا مجلسا حربيا يتداولون فيه الرأي ، وشهدته عدد من قادة العرب ومحاربيهم البارزين . وكان عبد الله بن عمر يتولى قيادة المهاجرين والانصار من أهل المدينة ، وكان مع الجيش أيضا جرير بن عبد الله شيخ بنى بجيلة ، وأبو موسى الأشعري عامل البصرة على رأس قوة من أهلها ، وطلحة الأسدي أحد أنبياء الردة الكاذبين . وكان طلحة قد أبلى بلاء حسنا في معركة القادسية . فتقدم الآن إلى المجتمعين برأى ، أشار فيه بأن يتظاهر جزء من جيش المسلمين بالهجوم على مواقع الفرس ، ثم يدعى الهزيمة والذعر ، فاذا ماولى هذا القسم هاربا . فان الفرس قد تستهويهم الحماسة ، فيخرجون من مواقعهم لمطاردته وأنداك يهاجم بالجزء الأكبر من جيش المسلمين ويشتبك معهم في القتال في الأرض العراء (٢) .

وأقر النعمان خطة طلحة . وعهد إلى القعقاع البطل ، بمهاجمة مواقع العدو على رأس رجاله من بنى تميم . وأدار العرب ظهورهم بعد معركة صورية متظاهرين بالهزيمة والفوضى واستخف النصر بالفرس ، الذين ثملوا بنشوة الظفر أخيرا ، فخرجوا من حصونهم ومعاقلمهم . يتقدمهم الرجال ، يلتقطون المسامير من حقول الغمامهم . ليطاردوا فلولا

(١) يشكك المؤلف في صحة أرقام المؤرخين المسلمين دون أن يورد سببا أو مبررا لتشكيكه مع أن المؤرخين يؤكدون أن جيش الفرس كان يبلغ ستين ألفا أو مائة ألف .

(٢) يبدو أن العرب كلنوا قد ألغوا مناورة استغراق العدو إلى القتال ، منذ أيام الجاهلية . واتبعوا في المارك التي خاضها النبي . وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم إذ قال تعالى في سورة الأنفال .. « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرقا لقتال أو متحيرا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم ، وبئس المصير » .

ويقول المؤلف أن وليام الفاتح ، قد استخدم الأسلوب نفسه في معركة هيسنجز ليخرج قوات الإنجليز والسكسون من حصونها لتخوض معه المعركة التي أدت إلى فتح بريطانيا .

العرب المنهزمة وفجأة رأى الفرس أنفسهم يواجهون الجيش العربي الذى كان مختفيا عن النواظر . وفاتت فرصة التراجع ورتب الفرس صفوفهم للمعركة على أفضل شكل ممكن .

وعندما أمر النعمان رجاله بالهجوم ، هتف العرب بصوت واحد . . « اللهم انصر الاسلام وثبت كلمة المسلمين » واندفعوا كرجل واحد على أعدائهم . وكان النعمان يقف فى طبيعتهم ، حاملا راية القيادة بيده ويتقدم صفوف المهاجرين ، فأصابه سهم نفذ من خاصرته ، وسقط عن ظهر جواده . واختطف حذيفة بن اليمان الراية من يده ، وكان الخليفة قد أمر بأن يتولى القيادة فى حالة استشهاد النعمان ، فتولاها فعلا ، واشتد وطيس القتال ، وكثر عبد الضحايا وأخذت الجياد تتعثر بحث القتلى وتخوض فى بحر من الدماء وعندما حل المغيب كانت صفوف الفرس قد انهارت وركنوا الى الهزيمة . حتى ان بعضهم اضطر الى الهرب عن طريق الحقول الملأى بالمسامير التى زرعوها هم بأنفسهم وتحطم الجيش الفارسى بكامله أثناء عملية المطاردة ، وقتل القائد الفارسى ابان هربه .

وفرض العرب حصارهم على مدينة نهانوند القريبة ، فاستسلمت للعرب الظافرين صلحا . وجمع العرب كثيرا من الغنائم بينها صندوقان مليئان بالذهب والحجارة الكريمة فبعثوا بهما الى الخليفة فى المدينة . وروى الرسول الذى حمل الانباء والمجسورات الى الخليفة انه جاء الى المدينة فوجد الخليفة وقد راث عنه الخبر ، وهو يتطوف المدينة . ويسأل ، فلما رأى قال : ويلك ما وراءك ! فحدثته بحديث الواقعة . فقال ما فعل النعمان ؟ قلت : قتل ، قال انا لله وانا اليه راجعون . ثم بكى ، فقلت : قتل والله ، فى آخرين لا أعلمهم ، قال : ولكن الله يعلمهم .

وعندما حدثه الرسول عن الصندوقين أمر الخليفة بوضعهما فى بيت مال المسلمين ولكن وجود هذه الثروة الطائلة أثقل على ضمير الخليفة . فلما أصبح الصباح استدعى الرسول وقال له : اذهب بهما فبعهما . ثم اقسم ثمنهما بين المسلمين وهكذا بعد أن تخلص فى رأيه ، من هذه الثروة التى تعود الى الحكومة بمثل هذه الطريقة الناجحة عاد الرجل الشيخ الطيب ، الى أعماله اليومية مرتاح البال مطمئن الضمير دون أن يخشى حسابا من أحد .

ولعل هذا الحادث ، اذا صحت روايته يعتبر مهما وطريفا . اذ يظهر تمام الظهور بساطة الاجراءات الادارية فى الامبراطورية الجديدة ، حتى بعد تسع سنوات من انتصاراتها الدائمة الأمتداد . فلقد كانت موارد

الدولة المالية لا تزال تسلم شخصيا الى الخليفة فى بيته المتواضع المبني من الطين والقائم بجوار المسجد . ويبدو انه كان يشعر ببعض الاضطراب فى فكره وضميره من جراء التمييز بين ما يملكه ، وما تملكه الدولة . وكان يحس بالالام من رؤيته هذه الكتوز الضخمة فى حوزته . ولعل من الطريف أن يلاحظ المرء هنا ، أنه امر الرسول بحمل هذه الجواهر بعيدا دون أن يفكر فى أخذ ايصال منه ، أو بتسجيلها فى حساب . وليس غريبا أن بعض القواد العسكريين العرب وبعض أمراء المقاطعات قد غدوا أثرياء . ولعل من الجدير بنا أن نلاحظ أيضا أن الرسول عاد يحمل هذا الكنز فيقطع الجزيرة العربية كلها عرضا . وهى ملأى بالقبائل التى اشتهرت من قبل ومن بعد بميلها الى السلب ، دون أن يذكر المؤرخون ان الرسول كان مصحوبا بحرس أو متخذًا أية احتياطات أخرى (١) .

(١) هذا هو التشويه بعينه ، بل هذا هو التضليل . فالمؤلف يريد أن يظن في القادة المسلمين الاول وفي أمراء الامصار ، وأن يشوه سمعتهم متهمًا اياهم بالثراء على حساب بيت مال المسلمين ، كما يبغى في تشويهه وتضليله فيظن القبائل العربية كلها بتهمة الميل الى السلب .

والرد على المؤلف بسيط ، فالمعروف ان الخلفاء كانوا يولون قيادة الجيوش وامارة الامصار الى الصحابة الاول . وهم معروفون بتقاهم وتمسكهم بالاسلام الذى يحول بينهم وبين ابتزاز مال المسلمين ، يضاف الى هذا ان الخليفة كان دقيقا وشديدا في محاسبته لعماله حتى ضرب المثل يشده وكان يأخذ منهم اموالهم الخاصة التى كسبوها بجهودهم وجهادهم لمجرد الاشتباه . والامثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى أملا اذا كان بعضهم قد اغتنى قليلا فان ثروته لم تجمع من ابتزاز اموال المسلمين وانما من حصتهم في غنائم الحروب ، ومن اتجارهم بالاموال التى جمعوها (٢)

اما بالنسبة الى القبائل العربية ، فقد يكون رأى المؤلف فيها صادقا بالنسبة الى ايام الجاهلية أو الى الايام الاخيرة . بعد ان ضعف احساس أفرادها بالاسلام أملا في تلك الايام ، أى في صدر الاسلام ، فلم يكن هناك نهب أو سلب مطلقا . لبروامل عدة منها قوة الاسلام في نفوس العرب ، وهى القوة التى ثبت وجودها بالفتوحات العظيمة التى حققها ، ومنها قوة الحكم الاسلامى الذى يمنع السلب والنهب .

ولعل خير ما تكمل به هذا التعليق أن نذكر ان الرسول الذى حمل الجواهرات كان يدعى السائب بن الاقرع ، وهو من الانصار ومن صحابة رسول الله فهو مؤمن عند النعمان بن مقرن الذى حمله الصندوقيين ومؤمن عند الخليفة الذى اعاده بالصندوقين ليتولى بيعهما وتوزيع ثمنهما على المسلمين . وهذا الائتمان نفسه هو بمثابة ايصال أو حساب ، ولا ريب في أن معرفة العرب بأنه رسول الخليفة حماية له أقوى من حماية الحرس والجند وقد عاد بالصندوقين كما يؤكد المؤرخون العرب الى الكوفة فباعهما الى شلب من قرش يقال له عمرو بن حريث اشتراهما بأطية الدرية ، والمقاتلة . ثم انطلق بأحدهما الى الحيرة فباعه بما اشترى به الصندوقيين وفضل الآخر لديه فكان ذلك أول لهوة مال اتخذه .

(العرب)

وعاد الرسول بالمجوهرات الى الكوفة ، فباعها الى شاب من قريش وعاد الشاب فباع أحد الصندوقين فى الحيرة بالثمن الذى دفعه هو للصندوقين محتفظا بالآخر ليبيع محتوياته جوهرة جوهرة . وقد مكنته الصفقة من أن يضع حجر الزاوية لثروة طائلة جمعها ، ويبدو من هذا ان ضمائر المسلمين جميعا ، لم تكن كضمير الخليفة بالنسبة الى موضوع الثروات الدنيوية (١) .

واحتل العرب مدينة همدان بعد معركة نهاوند ، وهى المدينة التى اشتهرت باسم «اكباتانا» فى التاريخ القديم ، ولم يستطع الفرس بعد نهاوند أن يجمعوا جيشا يدفعون به الى الميدان لحوض معركة أساسية . وتبدو أهمية هذا النصر النهائى ، من الحقيقة الواقعة وهى ان العرب أطلقوا على معركة نهاوند اسم «فتح الفتوح» . ولقد كان من سوء طالع يزيدجرد ، انه ارتقى وهو لا يزال غلاما عرش امبراطورية كانت تسير فى طريق الهزيمة والانحلال . وقد لجأ الملك الى مدينة الرى بعد موقعة نهاوند . وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن طهران الحالية من ناحية الجنوب . وكان داريوس الثالث قبل نحو من ألف عام قد سار على نفس هذا الدرب عندما كان فارا أمام جيوش الاسكندر الذى لا يقهر .

وكان عمر بن الخطاب قد بكى لموت النعمان بن مقرن ، واختار اخاه نعيما لتولى قيادة جيش نهاوند جريا على ما ألفه العرب من أن يقوم قريب القتل بأخذ الثأر لقريبه .

ولعل من الاضواء الكشافة البارزة التى يمكن تسليطها على روحية العرب فى هذه الايام الاولى من الفتح ، هى الطريقة العرضية المرتجلة التى كان الخليفة يتبعها فى موضوع الاقدمية بين قادة الجيش . فلقد سبق لنا ان رأينا كيف أقال عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، الذى كان قد بلغ من الشهره ما لم يبلغه أى قائد آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ظل خالد يعمل تحت أمرة أبى عبيدة بل وتحت أمرة عياض بن غنم وهو قائد كان مغمورا حتى ذلك الحين . وإذا صحت الروايات التاريخية فان النعمان بن مقرن كان حتى وقت قصير يعمل فى الاهواز تحت أمرة أبى موسى

(١) كيف يسمح مؤلف مثل هذا يدعى الموضوعية لنفسه ان يجعل من حادث فرد واحد وسيلة لاصدار حكم عام على ضمائر العرب كلهم . ان مثل هذا القول لا يبعد المؤلف عن الموضوعية التى يدعيها لنفسه فحسب ، بل يحكم عليه حكما قاطعا بالهوى والفرس والتحامل على العرب ومحاولة تشويه تاريخهم القديم بعد أن شوه تاريخهم الحديث .
(العرب)

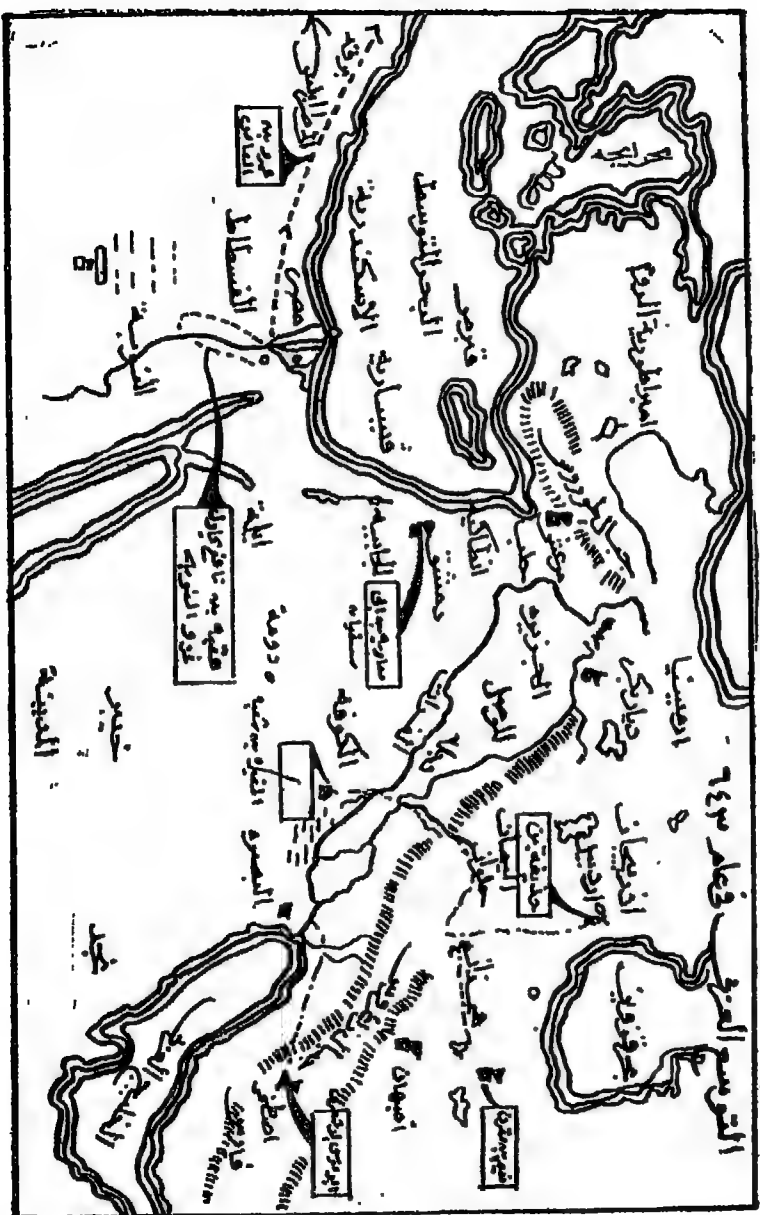
الاشعري . وذلك قبل توليته القيادة العامة للجيش الذي خاض معركة نهاوند . وعلى الرغم من هذه الحقيقة فان الخليفة أمر قسوة من الاهواز بالتوجه الى نهاوند لنصرة النعمان وكان على رأسها أبو موسى الذي غدا الآن مروسا للنعمان . بعد أن كان قبل فترة قصيرة رئيسا له .

ولعل أهمية هذه الحوادث تتركز في الحقيقة الواقعة وهي ان الغيرة الشخصية تعتبر من أهم مظاهر الضعف في الشخصية العربية . وحتى في يومنا هذا فان المنافسات وعوامل الغيرة والحسد بين القادة المختلفين في الجيوش العربية النظامية تولد مصدرا دائما للقلق عند حكوماتها . وقد قدر لهذه العوامل أن تتفجر ثانية قبل انقضاء سنوات طويلة على وفاة عمر بن الخطاب ، وهو تطور يساعدنا على تأكيد ما تميزت به أيام الفتح الاولى من حماسة مثالية ، وإخلاص لا مثيل له . ولقد كانت هذه الروح العامة قوية في تلك الايام الى الحد الذي مكن الخليفة لا من حرمان القادة الظافرين من الثروات التي جمعوها فحسب ، بل ومن اهمال أقديمتهم وخدماتهم السابقة عند حملهم على اطاعة بعضهم البعض .



كان عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبي وقاص بعد معركة المدائن بعدم القيام بأية محاولة لاجتياز جبال زاغروس . وقد بين في رسالته له ان سهول العراق الخصبة كافية للعرب ، وان الجبال تؤلف حدا صالحا بينهم وبين الفرس ، كما تؤلف اليوم بالفعل . ولكن يزدجرد ، كما ظهر لنا ، لم يكن راضيا عن قبول مثل هذا الحل الوسط . فعندما أخذ يجند الجيوش راح سعد ينقل الى الخليفة نيات كسرى في استعادة العراق . وهكذا رأينا العرب يضطرون الى ايفساد جيش جديد قابل جيش كسرى وهزمه في نهاوند . وهكذا وجد العرب أنفسهم أيضا سنوءا أشاء الخليفة ام لم يشأ ، وراء جبال زاغروس . وكان من المحال ان يقفوا عند هذا الوضع ، أو ان عمر لم يرغب بدوره في وقفهم الآن . بعد ان أدرك ان آخر جيش فارسي قد تحطم ولذا عاد يرسل تعاليمه الجديدة الى قادته في فارس ، أمرا اياهم بمطاردة العدو بلا هوادة ولا اشفاق الى أى مكان يفر اليه .

وقد تراجع يزدجرد الشاب الى الري ، يتبعه نعيم بن مقرن . بينما عاد أبو موسى الاشعري الى الاهواز وإلى متابعة غزوه لامارة فارس . وكان اسفنديار شقيق القائد رستم الذي قتل في القادسية منصرفا الآن عند سواحل بحر الخزر (قزوين) الجنوبية الى جمع قوات جديدة تحارب دفاعا



عن الملك • وسارح نعيم بن مقرن الى ملاقاته حيث نشبت معركة جديدة الى الجنوب من الرى فى عام ٦٤٣ هزم فيها اسفنديار وأخذ أسيرا بعد أن تفرق جيشه بددا • وأحس القائد الفارسى اسفنديار باليأس من نجاح الفرس ، فتحول الى جانب العرب • وأخذ منذ ذلك الحين يعينهم فى عملياتهم • واتجه يزدجرد بعد ذلك نحو الجنوب ولجأ الى مقاطعة اصبهان (أصفهان) وصدرت الاوامر فى غضون ذلك الى حديفة بن اليمان ، الذى تولى القيادة فى نهاوند بعد مقتل النعمان بالتوجه لغزو اذربيجان •

مازال اسم الرومان ، الذى كان البيزنطيون لا يزالون يستعملونه حتى تلك الايام مرتبطا فى أذهاننا بما فى الحكم الجمهورى من فضائل بينما نتصور ملوك فارس القديمة طغاة شرقيين يدفعون الى المعارك للقتال نيابة عنهم عشرات الألوف من العبيد الارقاء الذين لا حول لهم ولا طول • لكن سير الفتوحات العربية لا يؤيد صحة هذا الاغراق فى تبسيط الامور فما كادت جيوش الروم تهزم حتى كان سكان سوريا وفلسطين ومصر يحنون رؤسهم خضوعا للنير العربى • ويبدو أن الحكم فى الامبراطورية الرومانية كان متمركزا فى القسطنطينية • فاذا ما توقف الامبراطور عن المقاومة أضحت الامارات مشلولة عاجزة • ولم تشهد جماعات تنبض بالحياة تقاوم مقاومة محلية احتمال فقدما استقلالها • أما فى فارس ، فكان الوضع مختلفا تمام الاختلاف ، اذ على الرغم من ان الشاهنشاه هو الرئيس الاعلى من الناحية الرسمية ، الا ان نظام الحكم كان الى حد ما اقطاعيا • وكان النبلاء المحليون يملكون من السلطات فى اماراتهم • مامكنهم فى حالات كثيرة من اطالة المقاومة ، حتى بعد أن غدا الشاه لاجئا طريدا •

وهناك بالتأكيد عوامل أخرى أسهمت أيضا فى استمرار الصراع فى فارس مدة طويلة بعد الاعتراف بالحكم العربى اعترافا كاملا فى مقاطعات شرق البحر المتوسط • وأول هذه العوامل كما اعتقد وجود الجبال فى فارس وهى عقبات توقف فى كل مكان أو تعرقل على الاقل سير الزحف العربى • وثانى هذه العوامل أن تسلل العرب القديم العهد من الجزيرة العربية الى سوريا وفلسطين والعراق ، قد أمن للفاتحين العرب أعداء ليسوا صلابا فى عداوتهم • ان لم نقل بحلفاء من رجال الطابور الخامس ، أما الفرس المقيمون الى الشرق من جبال زاغروس ، فلم تكن لهم أية صناعات عنصرية على الاطلاق لا مع العرب ولا حتى مع مجموعة الشعوب التى نسميها أحيانا بالمتوسطية ، ومن هنا كان اخضاع الفرس أكثر مشقة وعناء على العرب من اخضاع غيرهم • كما كانوا من أوائل الشعوب التى ثارت على سيطرة العنصر العربى •

ولكن على الرغم من أن القدر شاء أن تستمر المقاومة الفارسية المحلية، بضع سنوات أخرى إلا أن الشاه لم يستطع ثانية تجهيز جيش قوى لخوض القتال ، واتخذت عمليات العرب في فارس بعد معركة نهاوند شكل عمليات ضغط بطيئة ومستمرة في عدة مناطق متفرقة واسعة ولكن دون أية معارك حاسمة أو حملات دراماتية من النوع الذي يستأثر باهتمام المؤرخ أو يلهب حماس الشاعر أو الانسان الوطني . وكان العرب يتقدمون في كل سنة عدة أميال الى الامام وتسقط في أيديهم عدة مدن بعد حصارها أو بعد ثورتها . كما كان عدد من الزعماء المحليين يتحول الى جانب العرب في كل عام . ويكفى أن نقول هنا ان العرب استولوا على اصبهان في عام ٦٤٣ بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج .

وكانت خطوط مواصلات العرب قبل معركة القادسية تمر كلها على الرغم من طولها الذي يبلغ ستمائة ميل عبر الصحارى العربية نفسها أما الآن فقد بات طولها يبلغ ألفا أو ألفا ومائتين من الاميال عبر أراض معادية ، وانهار عظيمة وسلاسل جبلية شاهقة ، وعبر ممرات تغطيها الثلوج معظم أيام السنة . وإذا ما نظرنا الى اتفاقات الصلح التي عقدت في هذه الآونة ، وجدنا انها تضمنت بنودا تنص على أن يقدم الفرس الى القوات العربية التي تمر بهم المأوى والغذاء . وكان كل من يهاجم عربيا يتعرض لعقوبة الموت . وكان الفرس الذين عقدوا اتفاقات مع العرب ، قد حصلوا على موثيق تؤمن لهم حقوقهم أما اذا ثبتت عليهم تهمة الاعتداء على المسلمين فانهم يعرضون أنفسهم لعقوبة اخماد ثورتهم بالقوة . وإلى الغاء الاتفاق الذي سبق لهم ان عقده مع العرب ، وإلى التعرض لوضع الاستعباد بلا قيد أو شرط وقد ضمن العرب بهذه الاجراءات سلامة مواصلاتهم دون الحاجة الى وحدات عسكرية ينشرونها هنا وهناك لحماية هذه المواصلات .

وكان يزددجرد قد انسحب قبل سقوط اصبهان الى مدينة اصطخر التي يسميها الغربيون بيرسوبوليس ، والتي كان أبو موسى الاشعري الزاحف من الاهواز يحاول عبثا احتلالها . وكان حظ حذيفة بن اليمان أسعد طالعا كما يبدو على سواحل بحر الخزر الغربية فعندما غزا اذربيجان الفارسية واجه مقاومة من القوات المحلية التي قادها الزعيم الاقطاعي في المقاطعة ويسمى المرزبان . ولكنه ما لبث ان تغلب عليها في المعركة واحتل عاصمتها اردبيل . وهنا مال المرزبان الى التصالح مع العرب ورافق على دفع الجزية والخراج ، وهناك رواية أخرى تنسب هذا الفتح

الى المغيرة بن شعبه الذى كان قد غدا أميرا للكوفة كما سنرى بعد قليل . وهاتان الروايتان على أى حال متفقتان وغير متناقضتين اذ أن جيش حذيفة كان تابعا للكوفة . ولهذا فان تبعيته كانت ولا شك لأمير الكوفة . لكن احتلال المنطقة الاول كان غير كامل كما يبدو . اذ سرعان ما ثارت اذربيجان فى عام ٦٤٥ ، وتطلبت ثورتها إعادة احتلالها ثانية .

وبينما كانت الجيوش العربية تنتشر على هذا النحو كالمروحة فى جميع أنحاء فارس لم تكن الأمور سائرة سيرا طبيعيا فى قاعدة العرب الانسانية فى الكوفة . ولقد رأينا فيما مضى كيف أن عمر بن الخطاب اتخذ قرارا سياسيا كبير الاهمية ، عندما وجد أن العرب باتوا بصورة غير متوقعة حكام سوريا والعراق . فلقد قضى بأن يظل الفلاحون فى كل بلاد محتلة شاغلين لأراضيهم على أن يستمروا فى فلاحتها وان يدفعوا الضريبة عنها ، وكان من رأيه ألا يستوطن العرب الارض ويفلحوها بل أن يظلوا عنصرا عسكريا مسيطرا مرتكزا على قواعده العسكرية وقادرا فى كل لحظة على محاربة المشركين والكفار . وأدت هذه السياسة الى انشاء القواعد العسكرية فى الكوفة والبصرة فى العراق والجابية الى الجنوب الغربى من دمشق ، والفسطاط فى موقع مدينة القاهرة الحالية .

ولكن لحياة القواعد العسكرية مساوئها ، وهذا ما اكتشفته الدول الاستعمارية الأخرى فالجنود فيها يظلون فى معزل عن أهل البلاد . ويؤدى عالم المعسكرات الضيق الى المناقسات والى التحيزات الضيقة المحصورة . وقد ساعد على هبوط الروح المعنوية فى المعسكرات العربية ، ما عرف من البدو من طبيعة انطلاقية تأبى الانضباط وتتعشق الصخب ، وما أدى اليه ازدياد ثرائهم من استرخاء وخمول . وقد تحطم ما عرف عن عرب الصحراء من قسوة على العيش واحتمال للمكاره ، من جراء اغراقهم الآن فى حياة الجنس مع الجوارى من الأسيرات اللائى لاعد لهن ولا حصر ومن جراء حياة البطالة التى دأبوا الآن على عيشها فى عصر لم يكن التدريب العسكرى فيه معروفا أو معتبرا من الضرورات .

وكانت الكوفة أكثر القواعد العسكرية العربية اضطرابا وشغباً . وهى القاعدة التى أنشأها سعد بن أبى وقاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب فعندما احتل سعد المدائن بعث الى الخليفة يشكو له من ألبعض فيها ، ومن تأذى الناس به فكتب اليه عمر يقول : وان العرب بمنزلة الأبل لا يصلحها الا ما يصلح الأبل ، فارتد لهم موضعا عدنا ، ولا تجعل بينى

وبينهم بحرا • وتم اختيار موقع الكوفة لاقامة دار الهجرة فيها على ضوء هذه التعليمات • وكان الجانب الشرقي من البلدة الجديدة ، وهو أفضل الجانبين من نصيب أهل اليمن ، بينما كان الجانب الغربي من نصيب قبائل الشمال • وقد روى المؤرخون العرب أن أهل اليمن كانوا يعدون اثني عشر الفا وان ابناء الشمال كانوا يعدون ثمانية آلاف •

وبينما كانت الجيوش العربية التي تستخدم الكوفة قاعدة لها منتشرة في أرجاء فارس في صحار وجبال تتولى فتحها ، كانت الدسائس تحاك بين الجنود في القاعدة نفسها • وتقول الروايات أن بعض المخبرين من أهل الكوفة مضوا الى المدينة يسعون بسعد بن أبي وقاص ويشكون منه وهو قائدهم العام وحاكمهم • وكان سعد قد ابتنى له دارا يسميها العرب قصرا • وقد جعلها في وسط القاعدة التي أخطها • ولكن القاعدة تحولت الآن الى مدينة • وأصبح ضجيج الناس في طرقاتها يضابق الامر كما يضابقه كثرة الوافدين من الزائرين وأصحاب الحاجات ، والمتطفلين الذين لاهم لهم الا ولوج البيت والخروج منه • وكان سعد يتأفف من عجزه عن بحث المسائل العامة مع ضباطه ورجاله ، بسبب هذه الضجة والفوضى • ولذا فقد أقام على بيته سياجا من القصب يحيط بالفناء ويفصل بين واجهة البيت وبين الجماهير في الشوارع • ولكن الروشة سرعان ما سعوا به الى الخليفة في المدينة ، زاعمين أن الامير قد أقام السياج ليعزل نفسه عن الرعية ، دليلا على تعجرفه وتعلقه بالدنيا • وزعم البعض الآخر للخليفة ان سعدا لا يحسن اقامة الصلاة بالناس على الطريقة الاسلامية الصحيحة فأرشد الخليفة رجلا يدعى محمد بن مسلمة ليحقق في شكاوى الناس وهو غني الرجل الذي كان عمر قد أوفده لمصادرة أموال عمرو بن العاص في مصر ، فقام محمد باحراق السياج المحيط بالفناء وسلم الى سعد رسالة من الخليفة يقول له فيها بأنه قد سمع بأنه بنى لنفسه قصرا أسماه قصر سعد وأقام عليه بابا يحول بينه وبين الرعية ، لكن هذا القصر ليس الا قصر الجنون وطلب اليه أن يخرج منه وان يغلقه وألا يجعل بينه وبين الناس بابا • وألا يحول بينهم وبين حقوقهم ، أو يمنعهم عن الوصول اليه الا اذا خرج هو اليهم •

واذا ما استثنينا موضوع السياج والباب • فان محمد بن مسلمة لم يجد أي أساس للوشايات التي نقلت الى الخليفة عن سعد بن أبي وقاص وان كانت تهمة البقاء في القصر ابان معركة القادسية وعدم الاشتراك فيها قد عادت الى الظهور • وعلى الرغم من عدم ثبوت أية جدية على سعد ، فان الخليفة أمر بعزله عن امارته في عام ٦٤٢ وولى مكانه رجلا يدعى عمار

ابن ياسر . ويقول أحد المؤرخين العرب أن عمر سئل ذات يوم عن أسباب نجاحه في حكم العرب فرد بأن نجاحه يعزى الى تغييره لعماله وقادة جيوشه ويبدو لي أن عمر كان يخشى من أن تزداد قوة أى قائد عسكري ناجح . ولذا كان يقبل على عزل قادته العسكريين الاكفاء بعد أن يحققوا انتصاراتهم الضخمة (١) .

ولكن اذا كان عزل سعد كبير الاهمية فان تعيين عمار بن ياسر يمكن ان يعتبر شيئا مضحكا . ولعل القارىء يذكر أنه عندما شرع النبى في نشر دعوته في مكة حاولت قريش مقاومته باللجوء الى اساليب العنف . وكانت المشاعر القبلية من القوة بحيث تحول بينهم وبين

(١) استنتج خاطيء كل الخطأ ولعل القول بأن عمر بن الخطاب لم يعزل سعدا من امارته الا بعد انقضاء أكثر من أربع سنوات على انتصاره في القادسية وهى معركة الكبرى دليل على خطأ الاستنتاج الذى توصل اليه المؤلف . يضاف الى هذا حقيقة أخرى وهى أن عمر كان من أقوى العرب شخصية . ولم يكن من الخلفاء الضعفاء الشخصية الذين قد يخشون ظهور قائد ناجح يعمل تحت امرتهم . ولعل قوة شخصيته كانت تبرز بوضوح في أن أوامره يعزل قائد أو أمير أو محاسبته أو مصادرة امواله لم تكن تنفذ في مظاهرات عسكرية تقوم بها جيوش أو وحدات بل بمجرد رسالة من الخليفة يحملها رسول عزل .

ولقد سبق لنا أن علمنا على عزل خالد لما عزل سعد لاجاء نتيجة الوشائات الكثيرة التى نقلت الى الخليفة عنه ، وعلى الرغم من ثبوت كذبها للخليفة كما سأردى بعد قليل ، فإنه رأى من الحكمة عزل سعد ، بعد أن لحقت الشبهات بامارته نظرا لانهلأضعفت من مركزه أمام الرعية .

روى جابر بن سمره أن أهل الكوفة سمو بسعد بن أبى وقاص الى عمر وقالوا انه لا يحسن الصلاة فقال سعد . . أما أنا فكنت أصلى بهم صلاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا أأخرم عنها ، أؤكد في الاوليين وأحذف الآخرين ، فقال عمر : ذاك الظن بك ياأبا اسحق فأرسل عمر رجلا يسألون عنه بالكوفة ، فجعلا لا يأتون مسجدا من مساجدها . الا قالوا خيرا واثنا مرفوقا ، حتى أتوا مسجدا من مساجد بنى عيسى فقال رجل منهم يقال له أبو سعده . « أما اذا سألتهمونا عنه فإنه كان لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية » . قال : فقال سعد : « اللهم ان كان كاذبا فأطل عمره وأدم فقره وأعم بصره ، ومرضه للفتن » ، قال عبد الملك فانا رأيت تعرض للاماء في السكك فاذا قيل له : كيف أتت ياأبا سعده . قال كبير مفتون أصابتني دعوة سعد .

وروى الشعبي أن عمرو بن معد يكرب الزبيدي وفد على عمر بن الخطاب فسأله عن سعد وعن رضاه الناس عنه ، فقال تركته يجمع لهم جمع اللذة ويشفق عليهم شفقة الأم البرة ، أصراي في تمرته ثبطى في جبايته ، يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفذ بالسرية ، فقال عمر : كأنكما تقارضتما الثناء . وقد كتب سعد كتب يثنى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين ولكنى أتيت مما أعلم . (العرب)

اضطهاد اخوانهم من ابناء بيوتات قريش ، حتى ولو تحولوا الى الاسلام ، ولكنهم كانوا ينفثون سسموم حقدهم وغضبهم على الارقاء وعلى الذين لا عصبية قبلية لهم . وكان عمار بن ياسر من العبيد الارقاء . وكان من اوائل الذين آمنوا بدعوة النبی ومن الذين عانوا من اضطهاد قريش ، اشد العناء . وقد انقلده منهم ابوبكر الثرى بماله ، فابتاعه ثم اعتقه ، ليعيش بعد ذلك فى حياة من التقوى والورع والتزمت حتى كان قد طعن سنه وشاخ . ولقد اهلته تقواه ومكانته كأحد المسلمين الاوائل عند الخليفة على الاقل ، لمنصب اماره الكوفة . . ولكن اهل الكوفة الذين تخلصوا من سعد بن أبى وقاص المعروف ببأسه وعزمه ، لم يجسدوا صعوبة فى الخلاص من ياسر هذا المعجوز الضعيف الذى لم يكن قد خبر الحكم أو المسئولية بأية صورة من الصور . وسرعان ما كانت وفود اهل الكوفة تشكوه الى الخليفة متهمة اياه بالضعف والجهل بالسياسة فعزله وقال : من عذيرى من اهل الكوفة ، أن استعملت عليهم القوى فجزوه وان وليت عليهم الضعيف حقروه ؟

ويذكر القارىء ولا شك أن المفيرة بن شعبة كان اميرا فى البصرة . وكان الخليفة قد عزله عنها لتهمة وجهت اليه وان لم تثبت عليه . وكان المفيرة متميزا بالصلابة والشدة بدين الجسم مترهله ، اعور العين قاس لا يرحم . وقال له الخليفة . . . ان ولينك الكوفة اعود الى شيء مما قرئت به . فقال « لا » فولاه عمر الكوفة ونجح فى البقاء بمنصبه عامين حتى توفى عمر ، وعاد اهل المدينة الى اظهار طبيعتهم المشاغبة .

وقد عانى امراء المقاطعات وحكام الامصار الكثير فى خلافة عمر . اذ كان الخليفة على استعداد لفتح اذنيه والاستماع الى الوشاة والمخبرين الذين كانوا يهرعون دائما الى المدينة للنيل من مركز كل ذى سلطان ونفوذ فى مقاطعاتهم وقد بذرت هذه الاساليب بدور الخلاف التى لم يقدر لها ان تنمو الا بعد وفاة عمر وكادت تعصف بالامبراطورية العربية الناشئة .

ظلت سوريا وفلسطين هادئتين فى عامى ٦٤٢ و ٦٤٣ وكانت بعض الاشتباكات الفردية تقع بين آونة واخرى على حدود ارمينيا وفى جبال طوروس . وقد قدر لها أن تستمر بضع سنوات . ولكن توسع العرب باتجاه الشمال الغربى كان قد بلغ فى الواقع اقصى منتهاه . وكان سكان سوريا وفلسطين قد اخذوا الى السكينة فى ظل الحكم العربى تحت امرة حاكمهم الجديد معاوية بن أبى سفيان .

لكن الفتوحات العربية استمرت في افريقيا على اى حال . فبعد أن استقر الأمر للمسلمين فى الاسكندرية تطلع عمرو بن العاص الكثير الحيوية والحركة الى صحراء برقة وكان الشمال الافريقى كله من الاطلسى حتى حدود مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية وهى فى اوج سلطانها . ولكن عندما اخذ نجم الامبراطورية الفريية فى الافول فى القرن الرابع للميلاد عبرت قبيلة الفاندال وهى من برايرة الشمال ، البحر عند مضيق جبل طارق من اوربا الى افريقيا واستولت على قرطاجنة . وقد اقام الفاندال لهم مملكة مستقلة امتدت من ارض الجزائر الحالية الى برقة وتبعت لها جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا وسردينيا . ولكن الامبراطور البيزنطى جوستنتيان عاد فى عام ٥٣٢ للميلاد فبعث بجيش احتل قرطاجنة . وتمكن البيزنطيون بقيادة ييلزاريوس المشهور وأحد القادة القلائل الذين عرفتهم رومة فى عهد انحلالها . من هزم الفاندال واستعادة الشمال الافريقى للممتلكات البيزنطية . وكان أهل هذه البلاد مزيجا من اقوام مختلفة . فيبينهم القرطاجيون القدامى ، والرومان والبيزنطيون والفاندال الذين سيطروا على السهول الساحلية وأقاموا فيها . أما جبال الداخل فكانت مأهولة بقبائل البربر ، أصحاب البلاد الاصليين الذين رفضوا ان يذوبوا فى الاقوام المتعاقبة التى احتلت سواحل بلادهم . (١) ومن هذه المنطقة بالذات خرج هرقل فى حملته التى ادت الى الاطاحة بحكم فوكا وتسمنه عرش الامبراطورية البيزنطية .

وقد توغلت جيوش كسرى ابرويز فى عام ٦١٩ بعد احتلال مصر باتجاه الغرب فوصلت الى طرابلس الغرب دون ان تلقى كما يبدو اية مقاومة فعالة . ولقد كانت مصر احدى دعائم الامبراطورية البيزنطية الاساسية تزودها بغنائها وبالكثير من عائدات دخلها . وكانت تقيم الاود لسكان يعدون ستة ملايين أو سبعة ، وفيها عدد من أكثر المدن تحصينا ومناعة . وكانت كثرة اقية الرى وفروع النيل فيها تجعل العمليات العسكرية شاقة وصعبة . كما كان فى مكتة الاسكندرية نفسها لو تولى الدفاع عنها قوم مصرون على الدفاع ان تتحدى اى جيش من جيوش ذلك العهد عدة سنوات . وهكذا فان احتلال ليبيا بالنسبة الى اى جيش فاتح استطاع ان يحتل مصر ، اشبه بنزهة أو لعبة اطفال . وقد

(١) يبدو أن المؤلف جهل أو تجاهل الحقيقة التى أثبتتها كثير من المؤرخين . وهى ان قبائل البربر فى شمال افريقيا قبائل عربية الاصل أو سامية على الاقل . وانها هيبت ارض المغرب العربى قائمة من الشرق .
(المغرب)

اقام عمرو بن العاص الدليل على صحة هذه النظرية ففى ربيع عم ٦٤٣ احتل برقة دون أية مقاومة . بعد أن وافق أهلها على دفع الجزية والخراج ولعل من الغريب كل القرابة ان الاتفاق الذى عقده العرب مع أهلها تضمن بندا ينص على أن ترسل الضرائب طوعا ودون اكراه الى مصر والا يصل الى برقة أى جاب عربى من جباة الضرائب لجمعها .

ولكننا لانلبث أن نرى عمرو بن العاص ، بعد توقيع الاتفاق يبعث الى الخليفة كتابا يعلنه فيه انه قرر جباى العشر ونصف العشر من ارض المسلمين والجزية المألوفة من أهل الذمة ، ومن غير المسلمين . ويشرح لنا ياقوت الحموى هذه الرواية اذ يوضح بصراحة أن معظم اهل برقة اعتنقوا الاسلام بعد فتحها . ولا ريب فى ان هذه النقطة فى منتهى الأهمية ، فالترحاب الظاهر الذى لقيه العرب فى الصحراء الغربية وفى برقة دليل واضح على أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من العرب . وليست هذه الفكرة بعيدة عن التصديق مطلقا . فالصحراء الغربية شبيهة بالصحارى العربية وهى تتباين تباينا كبيرا مع جو مصر الرطب وترتبتها الغربية الخصبة التابعة من دلتا النيل . ولم نسمع قط عن وصول العرب الى هذه المنطقة من قبل كفرة وفاتحين ولكن لا يستبعد إطلاقا أن يكونوا قد وصلوا اليها على شكل قبائل هاجرت من الجزيرة العربية وتسللت الى الصحارى الليبية قبل هذا التاريخ . والنتيجة الطبيعية لهذا الافتراض هو أن يكون الفاتحون المسلمون قد تبينوا بعض الدلائل على قرابتهم من الليبيين وان هؤلاء نتيجة هذه القرابة وصلوا الى تفاهم سريع مع أبناء عموماتهم الأبعدين . ويتعزز هذا الاحتمال بما أورده كتاب الرومان والاعريق ومؤرخوهم الاقدمون من أمثال ديوروس صقليوس وبطليموس وسترابو وبلينى الذين يذكرون وجود اقوام عربية فى صحارى مصر . ولكن اذا صح أن هؤلاء الاقوام قد نبثوا من أصل عربى فانهم ولا شك كانوا قد فقدوا لغتهم الاصلية وشخصيتهم قبل الفتح الاسلامى .

وكان الوضع فى طرابلس مختلفا على أية حال ، فلقد كانت المدينة محصنة وفيها حامية بيزنطية ، اغلقت على نفسها ابواب المدينة فى وجه العرب . والمدينة مفتوحة من ناحية البحر الذى يسيطر عليه اسطول البيزنطيين . وكان فى مكنتها ان تقاوم عدة سنين لو تعزز دفاعها بوصول نجدات قوية اليها . ولكن الدسائس والمنافسات بين رجال البلاد كانت تمزق القسطنطينية كما رأينا من قبل . وكان من الطبيعى ألا تهتم العاصمة وهى على هذا الحال بأمر الامارات النائية ، على أى حال ،

تمكن عمرو بن العاص بعد حصار استطال عدة أسابيع عجز إبانها عن اقتحام الاسوار من ان يجد ثغرة بين التحصينات والبحر نفذ منها الى المدينة في شهر يونيو (حزيران) عام ٦٤٣ وتمكن عدد من أهل النجدة من اقتحام هذه الفجوة والدخول الى المدينة على طول الساحل هاتفين صارخين « الله اكبر الله اكبر » واحتلوها عنوة .

واقترح العرب بلدة أخرى تدعى صبرة . ثم عاد عمرو فاستدار الى برقة . ويقول بعض المؤرخين أن عمرا كان يود أن يواصل زحفه الى قرطاجنة . ولكن الخليفة أمره بالعودة وهو احتمال قريب الى المنطق . اذ اننا رأينا عمر بن الخطاب حريصا دائما على عدم السماح لجيوشه بالمضي بعيدا او السماح لها بان تنقطع عن المدينة بفعل الجبال أو الانهار التي تقوم بينهما . وعندما عاد عمرو الى برقة استسلمت له قبيلة من البربر من أهل لواته وقد كتب في شرطه عليها . « ان عليكم ان تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية » . ومن الصعب علينا أن نتأكد الان من السبب الذي دعا عمرا الى ادخال مثل هذا الشرط الهام في اتفاقه مع القبيلة البربرية . وكل مايستطيع المرء افتراضه ان هذه القبيلة مجزت عن دفع الجزية بسبب فقرها المدقع . وأن عمرا رد على اعتراضها بأن عليها ان تبيع نساءها واطفالها لتدفع الجزية .

وقد سبق لنا في حياة الرسول ان لاحظنا حوادث عدة وقع فيها العرب من نساء ورجال أثناء حروبهم القبلية في الاسر، وأن أسريهم كانوا يعتبرونهم رقيقا لهم . لكن هذا الاجراء العرفي منع منعا باتا إبان خلافة عمر بن الخطاب وذلك لان العرب تحولوا في السنوات العشر من حكمة الى شعب فاتح مستعمر ، بل الى طبقة ارستقراطية حاكمة تسيطر على امبراطورية تابعة لها . وقد نما هذا الاحساس الجديد بالكبرياء والعنصرية جنبا الى جنب مع مفهوم آخر يختلف عنه كل الاختلاف هو مفهوم الاخوة الاسلامية . ولقد كان العرب منذ أقدم عصور التاريخ يتعاملون بتجارة الرقيق ، ويمتلكون الرقيق ولكنهم منذ أيام عمر بن الخطاب توقفوا عن استرقاق أي عربي . ولايب في ان الحقيقة القائلة بان العرب اعترفوا اعترافا شخيصا بإمكان استرقاق البربر تشير اشارة واضحة الى انهم لم يعتبروا البربر من العرب .

وعاد عمرو بن العاص من طرابلس الى الاسكندرية مثقلا باحمال الغنائم وبالعبيد وكان قد اوفد في غضون ذلك حملة مع نهر النيل سارت باتجاه السودان بقيادة ابن عمه عقبة بن نافع لكن هذه المغامرة لم تلق كبير نجاح . فلقد اشتهر السودانيون الذين لقبهم العرب

بالنوبيين برمى النبال وقد تلقوا العرب الزاحفين بزخات من النبال فأصابوهم بجراح ثقيلة كان معظمها فى عيون الفاتحين . ولقد فقتب عيون عربية كثيرة حتى انهم أطلقوا على النوبيين اسم رماة الحدق . ومن الطريف ان نذكر هنا ما أمتاز به النوبيون من خصال حربية قبل الف وثلثمائة سنة . وهى خصال ظلوا محافظين عليها حتى يومنا هذا . واضطر الرتل العربى الى التراجع على احسن سبيل ممكن الى مصر .

وكان عمر بن الخطاب قد أمر عمرو بن العاص باقامة مقر قيادته فى الفسطاط وهى القاعدة العسكرية الجديدة المجاورة لحصن بابليون وفى ربيع عام ٦٤٤ التى عمرو بن العاص فاتح مصر خطابا فى المسلمين اشتهر أمره فى التاريخ الاسلامى . وقد استهل خطابه بحمد الله والثناء عليه ثم حث سامعيه على التمسك بشعائر الدين وتوزيع الصدقات والبعد عن الجشع وعن البهرج والنميمة . وقال ان البطالة والطيش هما مصدر كل رذيلة وخطيئة . وعاد فبدل لهجته ، وانتقل الى تقرير الربيع فقال ان مياه الفيضان قد هبطت ، وان أعشاب الربيع قد نمت وأصبح الحليب متوفرا للحملان والجديان وأمرهم بأن يخرجوا حاملين بركات الله . وان ينعموا بارض مصر وخيراتها ولبنها وقطعان اغنامها وأبقارها . ووصاهم برعاية جيرانهم من القبط ، تلبية لأوامر رسول الله الذى اوصاهم خيرا بالقبط . (١)

وحرى بنا ان ننقل هنا بعض فقرات وردت فى التقرير الذى بعث به عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عن مصر . اذ قال . . «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها رحلة شهر وعرضها عشرة ايام . يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات . يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له اوان ، تظهر به عيون الارض وينابيعها حتى اذا عجز عجاجه ، وتعاطمت امواجه لم يكن وصول اهل القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته يخرج القوم ليحرثوا بطون اوديته ورواياه يبدرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى اذا شرق واشرف سقاه من فوقه الندى

(١) روى ابن كعب بن مالك أن النبى (صلم) قال : اذا التفتحت مصر ، فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وقال الليث « كانت أم اسماعيل منهم » . وروى الشعبي ان على بن الحسين أو الحسين نفسه ، كلم معاوية فى جزية اهل قرية أم ابراهيم ابن رسول الله (صلم) بمصر ، فوضعها عنهم . وكان النبى (صلم) يومئذ بالقبط خيرا . (المغرب)

وغداه من تحته الثرى . فبينما هى يا امير المؤمنين درة ييضاء اذا هى
عنبرة سوداء واذا هى زبرجدة خضراء » . ويبدو ان عمرو بن العاص
كان شاعرا بالاضافة الى ما تميز به من خصال اخرى .

ومهما كان ظن المصريين فى الفاتحين العرب فانهم على الاقل ، جنوا
فائدة واحدة من فتحهم لبلادهم وهى خلاصهم من الاضطهاد الدينى .
فلقد استدعى عمرو بن العاص بنيامين بطريق القبط من مخبئه فى
الصحراء الذى ظل مختفيا فيه منذ مجيء القوقس الى مصر قبل اثنى
عشر عاما ، وعهد اليه رسميا بزعامة الكنيسة القبطية وقد اختير بطريق
آخر للروم الارثوذكس ولكن دون موافقة امبراطور القسطنطينية .
وغدا هذا البطريق عاجزا بعد فتح العرب عن اضطهاد اخوانه النصارى

وعلى الرغم من اننا نستطيع القول بان عمرو بن العاص ادى
خدمات جليلة لقضية المسلمين الا ان من المفجع ان نراه لا يلتقى من
ال خليفة الا التآييب والزجر . وقد شكوا الخليفة هذه المرة شكوى مرة
من انه لا يلتقى من مصر من الخراج ما كانت تدفعه الى امبراطور
بيزنطة وبعث الى عامله فى مصر فى عام ٦٤٤ يعرب عن دهشته من أن
خراج مصر فى السنة الماضية لم يبلغ نصف ما كانت تقدمه من قبل الى
البرنطيين . واضاف انه لن يقبل أقل مما كانت تدفعه مصر . وأكد انه
كان يأمل من عامله أن يؤدى واجبه حتى الأداء - وانه تبين الآن أن حكمه
حال دون ذلك وأنهى رسالته قائلا ان لديه من الوسائل بمعونة الله
ما يستطيع ارغام عامله على اطاعة امره .

غريب ان تصدر هذه التهديدات القاسية عن الخليفة الورع الذى
عرفنا تماما انه كان ابعد الناس عن الاهتمام بشئون الدنيا ومالها . وكان
على استعداد دائما لتوزيع الفىء وما يصل الى بيت مال المسلمين على
الرعية . يضاف الى هذا اننا راينا عددا من كبار المسلمين فى المدينة
ليس بينهم الخليفة على أى حال قد اثروا ثراء كبيرا من الفنائم
التي نقلت الى المدينة من البلاد التي فتحتها جيوش العرب . ترى هل
كان المهتمون بالمال منهم هم الذين دفعوا الخليفة الى كتابة مثل هذه
الرسالة ؟ وترى هل وجد الخليفة ان نظام الرواتب الذى اوجده
والذى حدد بموجبه دفع المرتبات الى كل عربى ، يكلف بيت مال
المسلمين أكثر مما كان قد ضمن عند وضعه ؟ ولكن حتى لو كانت الدولة
فى ضائقة مالية ، فاننى لا ارى ضرورة فى أن يكتب الخليفة الى قائد
جيشه العام فى مصر بمثل هذه اللهجة القاسية المليئة بالتهديد . ولا ريب
فى ان هذه الحقيقة تصبح واجبة عندما ندرك ان خطة فتح مصر كلها

كانت من وضع عمرو بن العاص ، وبناء على اصراره ، رغم معارضة الخليفة لها والذي يأتى الآن فيلوم قائده على التراخي والتهاون ، أو ترى هل كان عمر بن الخطاب يحس بالفيرة الشخصية من كبار قادته العسكريين الناجحين ؟ لا ريب في أن معاملته لخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حارثة ، وسعد بن أبي وقاص وأخيرا لعمر بن العاص ، يمكن أن تعتبر دليلا على صحة هذا الاستنتاج . (١)

وقد رد عمرو على رسالة الخليفة وتهديده ذاكرا بأنه خدم رسول الله ثم خدم خليفته أبا بكر . وكان عند حسن ظنهما به إذ أدى الأمانة

(١) غريب أمر المؤلف وغريبة هذه الاستنتاجات السخيفة التي يصل إليها والتي تبعد كثيرا عن الطريقة العلمية في الاستقراء والاستنتاج لكن هذا الاستغراب يزول إذا عرفنا الغاية الرئيسية من الكتاب ، وهي تشويه التاريخ العربى .

انه هذا يحار في الاسباب التي حملت الخليفة على أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى عامله في مصر . ثم يحاول القول بأن ليس من حق الخليفة أن يحاسب عمرا لانه هو الذى فتح مصر وما دام انه هو الذى فتحها . وهو صاحب الخطأ في فتحها فليس من حق الخليفة أن يحاسبه حتى ولو أخطأ . انه منطق غريب تناقضه حقيقة تاريخية تتصل بأمة المؤلف إذ ألم يخيب الشعب البريطانى أمل تشرشل الذى كسب له الحرب الأخيرة فاسقط حربه في الانتخابات ؟ فلو صحت حجة المؤلف لما كان من حق الشعب البريطانى أن يسقط حزب تشرشل .

وهو بعد ذلك يحار في تحليل معاملة عمر لامرائه وقواده . ويحاول ان يصل من حيرته هذه ، الى الطعن في شخصية عمر واتهامه بالفرض الشخصي ، والفيرة ، وهما صفتان لا يجتمعان في شخصية عظيمة كشخصية عمر بن الخطاب الفذة تميزت بالقوة وتضاملت امامها الشخصيات الأخرى . ان الحقيقة التي فانت المؤلف أو التي حاول تجاهلها ان عمر كان من الحاكمين الذين يشتررون رضا الجماهير الشعبية بمصلحة الامراء فالامير في نظره فرد من الرعية . يجرى حكم المدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس . ومن هنا كانت شدته على عماله ورافته على عامة الناس من رعيته . إذ يشعر بمسئوليته العظمى من هذه الرعية وكان يقول دائما لو ان جملا هلك ضياعا بسطت الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب .

ولعل أصدق صورة له تكذب استنتاجات المؤلف ما نقلته كتب العرب عنه من انه خطب مرة فقال . . « ايها الناس انى والله ما ارسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى ارسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرمى الى ، فو الذى نفس عمر بيده لا قصه عنه . فوثب عمرو بن العاص ، فقال : يا امير المؤمنين ارايتك ان كان رجل من امراء المسلمين على رعية . فأدب بعض رعيته . انك لتقصه منه قال اى والذى نفس عمر بيده ، لاقصته عنه ، وكيف لا اقصه منه ، وقد رايت رسول الله يقص من نفسه . الا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمهروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الفياض فتضيعوهم .

(العرب)

خير الاداء . و اضاف ان في وسع الخليفة اذا شاء . ان يقلله من الامارة التي اضفاها عليه . اذ ان الله قد نجاه من جشع الدنيسا وشرها ووضاعتها ، ثم أنهى رسالته معاتباً الخليفة على شدة لهجته اليه مؤكداً انها لا تقال حتى ليهودي من أهل خيبر وطلب الففران من الله للخليفة وله .

من المحال ان تتمكن على ضوء مالدنيا من معلومات قليلة من تكوين فكرة نهائية حاسمة بصدد موضوع هذا الخلاف فلقد رأينا من قبل ان الخليفة اتهم عمرو بن العاص نفسه بالاثراء . ولكن مما يخيب الامل ان نقرأ مثل هذه الكلمات القاسية التي تحمل معنى المطالبة باستخلاص المال ، صادرة من الخليفة الطيب ، الذي يود المرء ان يحتفظ لنفسه عنه بصورة له تمثل البساطة والتواضع مجسمين في خدمة الله . (١)

تواريخ مشهورة

٦٤٢	عزل سعد بن ابي وقاص فاتح العراق
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٣	احتلال اصبهان
٦٤٣	احتلال الرى
٦٤٣	احتلال طرابلس الغرب يونيو (حزيران)

شخصيات مشهورة

قائد العرب استشهد في نهاوند	النعمان بن مقرن
امير البصرة وقائد العرب في فارس	ابو موسى الاشعري
عزله الخليفة عن امارة البصرة ثم عينه اميراً للكوفة	المغيرة بن شعبه
فاتح مصر	عمرو بن العاص
قريب لعمرو بن العاص . وقائد الحملة على بلاد النوبة والسودان	عقبة بن نافع

(١) تخضع هنا نية المؤلف في كل ماكتبه . وهي المساس بشخصية عمر بن الخطاب وتشويه الصورة الصحيحة منه . فليس في تلك الرسالة في الحقيقة مايمكن ان يعاب به عمر بن الخطاب الا اذا أولت ، كما أولها المؤلف على نحو مفرض . (العرب)

أبولوؤة

اتمت الفوضى وضع تحفتها الفنية
وفتح أكثر أنواع القتل دنسا
معبد الآلهة المقدس الذي طهره زيت الرب
متهكنا بلغة مربعة
عن حرائق شديدة . . واحداث متبللة
من رواية « مكث » الشكسبير

انحصر عصر العرب الذهبي في الاثنى عشر عاما التي
انقضت بين ٦٣٢ و ٦٤٤ والتي شملت عهد الخليفين
ابى بكر وعمر . وكانت هذه الفترة عهد وئام داخلى
تام ، وفتح خارجى مستمر . وإذا ما تسامحنا مع
مبدأ الفتح العدوانى فليس ثمة ما نكره فى سلوك
الفاتحين العرب .

من كتاب فريمان « تاريخ العرب »

قاد عمر بن الخطاب فى أكتوبر (تشرين الاول) عام ٦٤٤ جريا على مالوف عادته منذ ولى الخلافة الناص الى موسم الحج فى ذلك العام . وكانت الامبراطورية الجديدة التى أنشأها تنعم ، اذا ما استثنينا بعض الاشتباكات الفردية المتفرقة فى الانحاء النائية من امارات فارس البعيدة بالطمانية والاستقرار . وقد انقضت حتى ذلك التاريخ عشر سنوات على تولى عمر شئون المسلمين . وقد بلغ الآن الستين من عمره تقريبا . وفى غضون هذه الفترة التاريخية انهارت الامبراطوريتان العالميتان العظيمتان فى وقت واحد وغدا الخليفة الحاكم المطلق فى امبراطورية شاسعة واسعة قامت على انقاض الامبراطوريتين اللتين ورثت الحكم عنهما . ولا اعرف عن حاكم أو سلطان فى تاريخ العالم كله فتح فى مثل هذه المدة مثل هذه المساحات الواسعة التى فتحت فى عهد عمر ثم خلفها سليمة متماسكة لتعيش عدة اجيال اخرى .

ولقد سبق لنا أن رأينا الخليفة يعين المغيرة بن شعبة قبل نحو من عامين أميرا على الكوفة على الرغم من التهمة السابقة التى وجهت اليه عندما كان أميرا على البصرة وكان للمغيرة مولى من مواليه عرفه العرب باسم أبى لؤلؤة . وهو فارسى المولد . وقع فى أسر الروم صبيًا . فحملوه الى بلادهم حيث نشأ نصرانيا . ثم عاد فوقع فى أسر العرب وابنتاه المغيرة ابن شعبة . ويبدو أن العرب كانوا قد القوا السماح لمواليهم بالعمل واكتساب الرزق شريطة أن يدفعوا جزءا من مكسبهم الى أصحابهم ، ويبدو أيضا أن المغيرة كان قد خلف مولاة هذا فى المدينة وسمح له بالعمل فيها . وكان نجارا حاذقا لا يضاھيه فى مهارته فى المدينة نجار آخر . فبات فى وسعه أن يكسب أجورا طيبة عالية . ويقال أن أبا لؤلؤة بكى واستعبر عندما رأى أسرى الفرس فى معركة نهاوند يساقون الى المدينة ويقول بعضهم انه نشأ فى مدينة نهاوند التى قضى فيها طفولته .

وتقول الروايات ان هذا الرجل لقي الخليفة ذات يوم فى الشارع وهو لقاء يشرح لنا الحياة البسيطة المتواضعة التى كان يحياها عمر بن الخطاب . فهتف به طالبا أن ينصفه من مولاة المغيرة بن شعبة . وزعم له انه يرغمه على دفع درهمين له فى كل يوم وهو خراج كثير يتركه خالى الوفاض مما يمسك رmqه به . وكان الخليفة قد علم بأمر حرفته ومهارته

فيها . فرد عليه بأن هذا الخراج لا يعتبر كبيرا بالنسبة الى نجار حاذق يتقن مهنا أخرى بالاضافة الى مهنته ويكسب أجورا طيبة . وقد رد أبو لؤلؤة ردا قاسيا مشاكسا على الخليفة ثم مضى في طريقه .

واجتمع الناس للصلاة صباح اليوم التالي بعد شروق الشمس في المسجد الكبير في المدينة لاداء صلاة الصبح . وبينما كانت صفوف المصلين تنتظم لاداء الصلاة انسل أبو لؤلؤة بين جموعهم ، حتى وقف في الصف الامامي . وجاء عمر الى مكانه امام المصلين ليؤمهم وقد أدار ظهره الى صفوفهم . وما كاد عمر يقول « اقيموا صفوفكم » ، ويرفع يديه قائلا : « الله أكبر » حتى كان أبو لؤلؤة . يهاجمه من خلفه ويضع يده على كتفه . وفي يده ست طعنات في ستة أماكن مختلفة من جسده . وعندما سقط الخليفة الشيخ على الأرض مضرجا بدماؤه اندفع القاتل بين الصفوف يضرب بخنجره كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال الى أن طعن نفسه بيده (١) .

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من الروايات العربية ، وقد أوقفه اختلافه في بعض الاخطاء منها ان الناس اجتمعوا لصلاة الصبح بعد الشروق ، بينما لانام صلاة الصبح الا قبل الشروق وبعد بزوغ الفجر . ومن الاخطاء ايضا أنه طعن عمر رضي الله عنه بعد أن رفع يديه قائلا « الله أكبر » والصحيح أنه طعنه قبيل التكبير وبعد الدموة الى استقامة الصف . والخطيئة الثالثة أنه طعن نفسه بيده بينما الحقيقة أنه بعد أن طعن النسي عشر رجلا توفي منهم ستة التي عليه رجل من أهل العراق ثوبا ليمتنع حركته ويشلها فلما اغتم فيه قتل نفسه . والخطيئة الرابعة أن أبا لؤلؤة كان مجوسيا على حد قول ابن عباس ولم يكن نصرانيا . وارى هنا أن نسرّد القصة الحقيقية . لولاء عمر بن الخطاب ..

روى سعيد بن المسيب لما نذر عمر من منى أثناء الحج . أناخ بالابطح ثم استلقى ووقع يديه الى السماء وقال اللهم كبرت سننى وضعفت قوى وانتشرت رهبتى فأقبضنى اليك غير مضيق ولا مفرد . لما انسلخ ذو الحجة حتى قتل بعد عودته الى المدينة . وروى أن كعب الاحمر جاء لعمر فقال : أجلك في التوراة تقتل شهيدا . قال عمر . وانى لى بالشهادة وأنا بجزيرة العرب . وروى البخارى ان عمر قال : « اللهم اردنى شهادة في سبيلك واجعل موتى في بلد رسولك » . وروى الحاكم ان عمر خطب فقال .. رأيت كأن ديكاً تقرنى نقرة أو تقرنين ، وانى لا أراه الا حضور أجلى .

وقال الزهرى . وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لسبى قد احتمل في دخول المدينة حتى كتب اليه الفيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده جملة صنائع ويستأذنه في دخول المدينة ، ويقول ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس . انه حداد نقاش نجار فأذن له بأن يرسله الى المدينة . وضرب عليه الفيرة مائة درهم في الشهر . فجاء الى عمر يشتكى شدة الخراج فقال ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يدمر قلبه عمر ليالى ثم دعاه فقال .. ألم أخبر أنك تقول .. لو أشاء لصنعت ربحى طعن =

وحمل الرجل الشيخ الى أهله وكان بيته يطل على فناء المسجد .
 ووضع على فراشه ولم يكن قد فقد وعيه . فطلب عبد الرحمن بن عوف
 وهو من الصحابة الاول وسأله عما اذا كان يوافق لو اختاره خليفة على
 المسلمين بعده . ولكن عبد الرحمن اعتذر عن قبول الخلافة . (١) وعاد
 عمر فاستدعى على بن أبى طالب ابن عم النبى ، وعثمان بن عفان وهو من
 الاوائل الصحابة ، والزبير بن العوام الذى اقتحم برجاله حصن بابليون
 وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق . واختارهم لجنة تتولى انتخاب من
 يخلفه . (٢) وسنشرح عما قريب مدار من مداولات بينهم .

وعاد الشيخ المحتضر فاستجمع قواه ثانية ، وسأل عن قتله .
 وعندما قيل له انه أبو لؤلؤة حمد الله وأثنى عليه . ان لم يقتله رجل
 سجد لله سجدة . مما يجعله فى غداد الشهداء الذين يكافأون بدخول
 الجنة فوراً . (٣) وشرب بعض الحليب ولكن السائل عاد فخرج من

= بالريح ؟ فالتفت الى عمر عابسا وقال .. لاصنعن لك رضى يتحدث الناس بها . فلما
 ولى قال عمر لاصحابه اوهننى العبد أتنا ثم انصرف عمر الى منزله فلما كان الفد
 جاءه كعب الاحبار فقال يا امير المؤمنين امهد فائك ميت في ثلاثة ايام . قال وما يدريك .
 قال اجده في كتاب الله التوراة . قال عمر . والله ، انك لتجد عمر بن الخطاب في
 التوراة . قال اللهم لا . ولكن اجد صفتك وحليتك . وانه قد فنى اجلك . وعمر
 لا يحس وجعا ولا آلاما . فلما كان من الفد . جاءه كعب فقال .. يا امير المؤمنين ذهب
 يوم وبقي يومان . ثم جاءه من الفد فقال .. قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهى
 لك الى صبيحتها .

ولو صحت هذه الحكاية . وانه قد انتفض على مقابلة أبى لؤلؤة لعمر ثلاثة
 ايام قبل اقتراف الجريمة لثبت ان لكعب يدا في مقتل عمر . وان مصرع الخليفة كان
 نتيجة مؤامرة شعوبية وان كعبا كان على علم بما تم الاتفاق عليه بين المؤمرين . ولم
 ينقل نباها الى الخليفة الا لينال مركزا عظيما عند المسلمين . وليصدق الناس توراته
 ان ليس في التوراة اى ذكر لما قاله كعب الاحبار هذا .

(١) ليست الرواية الصحيحة كما يقول المؤلف ان عمر بن الخطاب استخلف
 عبد الرحمن بن عوف فاعتذر هذا عن القبول . وانما هى ان عمر عندما أصيب قال :
 اني الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . قال تقدم فصل بالناس ، وكان
 الموضوع امامة للصلاة في ذلك اليوم لا استخلافا كما فهم المؤلف .
 (٢) تسمى المؤلف اسما سادسا هو طليحة بن عبد الله . وهؤلاء الستة مع
 الباقون من العشرة المبشرين بالجنة ، اذ توفي الاربعة الباقون . وهم أبو بكر وعمر
 وأبو حبيدة وشرحبيل .

(٣) أخطأ المؤلف هنا خطأ كبيرا . فلم يكن عمر رضى الله عنه بحاجة الى
 الاستشهاد لدخول الجنة . اذ انه من العشرة الاوائل الذين بشرهم النبى بدخول
 الجنة .
 (العرب)

جرحه النافر دون أن يتبدل وراح يقول .. أوصى الخليفة من بعدى .
بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين والانصار ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا
وبعد أن غرق فى تأملاته بضع دقائق . طلب الى ولده عبد الله أن
يذهب الى عائشة زوجة النبى ، فيستأذنها فى ان يدفن مع صاحبيه محمد
وأبى بكر ، فى غرفتها وفى صباح الثالث من نوفمبر (تشرين الثانى)
عام ٦٤٤ انتقلت روحه الى جوار ربه بعد أن أدى الشهادتين .

من المحال على المرء ان ينكر على عمر بن الخطاب حقه فى العظمة ،
فلقد عرف فى شبابه بالميل الى التهور وحدة المزاج . وكان هو الذى حث
النبى بعد معركة بدر على قتل أسرى قريش . ولكن تحمل المسئولية وكبر
السن أحدثا الكثير من التبدل فى شخصيته . فأصبح ميالا الى الصبر
والتسامح . ولم يكن يرضى بأى تهاون فى خدمة الله ولكنه كان كثير
التسامح واللين فيما يخصه هو شخصا . ويجس ببالغ العطف والاشفاق
على الفقراء . وعلى الرغم من أن مؤرخى السير يحبون أشد الحب التضخيم
فى التحدث عن تواضعه وفقره وبره واحسانه الا أنه لا يستطيع انسان
ان يشك لحظة واحدة فى أنه كان السيد المطلق الفرد الذى لا ينافسه
انسان فى الامبراطورية العظيمة التى نمت نموا مدهشا فى عهد خلافته
القصير . ولقد سبق لنا أن رأينا سنة ٦٣٩ عام قحط ومجاعة فى الحجاز .
وعلى الرغم من الثروات الطائلة التى جمعها الكثيرون من المسلمين ، الا أن
الغذاء كان مفقودا فى البلاد . وظل كذلك حتى وصلت قوافل الغذاء من
سورية والعراق . ويروى لنا المؤرخون كيف كان الخليفة فى تلك الاسابيع
الشاقة العسيرة يطوف فى شوارع المدينة أثناء الليل لا يرافقه الا خادمه
وكان الرجلان «الخليفة وخادمه» يحملان كيسا من الدقيق وقربة مملأ
بالسمن ليمسكا بما يقدمانه رفق الجياع من المحتاجين والفقراء . وكثيرا
ما يفرغ الكيس أثناء الطواف فيهرع التابع لياتى بكيس آخر . وتحدثنا
الروايات ان الخليفة جلس ذات ليلة الى جانب امرأة عجوز جائعة وأخذ
يعينها فى اشعال النار وطهى الطعام لها ولاسرتها .

وقد قدر للعرب والمسلمين فى القرون التالية ان يعانون الامرين
من بعض الخلفاء الكسالى والتافهين والمبدلين أو الخلفاء الماجنين
أو الغلاظ القلوب . وكان من طبيعة الرواة المسلمين فى عهود مثل هؤلاء
الخلفاء ان يكثرُوا من الحديث عن الخليفتين الاولين وان يرووا مع التزويق
احيانا قصص ما امتازوا به فى حياتهما الخاصة من تواضع وبساطة
واحسان رغم انتصاراتهما الرائعة فى ميادين الفتوحات وقد تكون

بعض المبالغات قد أدخلت على قصص طواف عمر الليلى لتفقد احوال الرعية وقوئ الفقراء والمحتاجين . ولكن الحقيقة الناصعة التى لا يتطرق اليها شك هى انه كان صورة للبساطة والديموقراطية ، وذلك لان هاتين الصفتين كانتا ولا تزالان ذائمتى الانتشار فى الجزيرة العربية حتى يومنا هذا . وكان أسرى الحرب من الفرس والروم يصلون الى المدينة ، وهم يتوقعون أن يروا فيها قصورا يسودها البذخ والترف الامبراطورين على النحو الذى القوه فى المدائن والقسطنطينية . ولكنهم سرعان مايفاجئون فيرون بدلا من ذلك حفنة من العرب الجالسين على الارض فى الباحة الترابية التى تؤلف ميدان المدينة المبنية من الطين . وكان بين هذه الحلقة ، رجل طويل ، نحيل القامة (١) أصلع الرأس ، حافى القدم يرتدى عباءة مرقوعة من الصوف الخشن ، هو الامبراطور الذى لا يدانيه فى عظمته وقوته ، أى امبراطور آخر ، فى عالم ذلك العصر .

وهناك قصة طريفة أخرى تروى عن عمر ابان احدى زياراته لسورية فقد حدث أن مر بأيلة فى جنوب شرق الأردن (العقبة الحالية) وهو فى طريقه الى الشمال فحل ضيفا عند مطران البلدة المسيحية لقضاء الليل عنده . وعندما أراد الخليفة النوم ، نزع عنه قميصه فسلمه الى مضيغه مشيرا الى شق فى كتفه وطالبا اليه اصلاحه ، ان أمكن قبل طلوع الصباح . وعاد المطران عند الفجر الى ضيفه ، وقدم اليه قميصه القديم بعد أن أصلح ، وغسل وكوى كيا متقنا ، وكان صاحب البيت قد أخفى تحت القميص القديم قميصا جديدا آخر حملة معه الى الخليفة . ووضع المطران الرزمة التى يحملها ، وكان على وشك أن يفادر الغرفة التى يقيم فيها الخليفة عندما رأى هذا القميص الجديد فسأل عنه ، ورد المضيف الطيب قائلا : « ظننا انك قد تحتاج الى قميص آخر فى مثل هذه الرحلة الطويلة » ورد الخليفة . . . بأن ثوبه القديم خير له ، وأعاد الثوب الجديد الى صاحبه . . .

ويروى الطبرى ان عمر بن الخطاب قال فى احدى خطبه انه لا يبعث بالامراء والعمال ، الى الامصار ليضربوا الناس أو يفتصبوا حاجاتهم ، وانما ليرشدوهم الى أمر دينهم وسنة رسولهم . ويروى

(١) يقول ابن عساکر ، ان عمر بن الخطاب كان رجلا جسيما لا نحىلا كما يقول المؤلف وقد ابد معظم المؤرخين العرب وبينهم الطبرى والعطاردى رواية ابن عساکر .

الطبرى انه قال فى خطاب آخر : انه يود لو استطاع أن يزور الامصار كلها ، قاضيا فى اكل مصر شهرين على الاقل ليتأكد من ان كل انسان فى البلاد التى يحكمها العرب كان قادرا على أن يشكو ما يحس به من ظلم الى الخليفة شخصا . وهناك قصة تروى عن صاحب حق ، جاء يرفع دعواه الى المدينة ، فسأل أحد الناس فيها ، اذا كان يستطيع الحصول على اذن بمقابلة الخليفة ليرفع اليه ظلامته . فرد الرجل بأن ليس ثمة من حجاب بين الخليفة والرعية ، وان فى وسعه أن يرفع اليه ظلامته فى أى يوم عندما يلقاه فى الشارع أو فى المسجد .

وكثيرا ما كان استعداد الكلى لسماع كل شكوى وكل ظلامة ، ولوضع الحق فى نصابه فورا حتى على حساب عماله ومساعديه ، سببا الى الاخلال بالانضباط فى صفوف جنوده والاضعاف من مكانة عماله وامرائه فى الامصار النائية والدائمة الاضطراب . ولكن النتائج السيئة لهذا الاسلوب فى الحكم لم تظهر الا بعد وفاته .

ولا ريب فى أن قضاء الحاكم لمثل هذه الارجاء الفسيحة ، يومه فى الاستماع الى ما يهمس به الناس فى أسواق المدينة ، وليله فى حمل أكياس الدقيق لتوزيعها على الارامل والمحتاجين ، ليس الا دليلا على أوضاع الحكم البدائية التى ظلت قائمة فى الامبراطورية . وقد يحسد الحاكم فى القرن العشرين تلك الايام السعيدة التى كان فيها الرجل قادرا على حكم امبراطورية فسيحة الارجاء ، دون أن يخط بقلمه كلمة واحدة ولكن حتى لو كان الحديث شبها لعمر بن الخطاب فى بساطته وديموقراطيته ، فانه سيعجز عن قضاء أيامه كلها فى الحديث الى الناس فى الشوارع والطرق . لكن الخلفاء الأوائل كانوا أحرارا فى متابعة المحاسبين وفى نجوة من تقديم التقارير الشهرية ، أو الرد على الاسئلة الدورية فى البرلمانات . ولم يكونوا ليجدوا عند مجيئهم الى مكاتبهم فى صبيحة كل يوم مجموعة من الملفات الواردة تتطلب اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولقد سبق لنا أن رأينا كيف ان عمرو بن العاص ، اكتفى بعد فتح حصن بابلون فى مصر بارسال رسالة شفوية الى المدينة ليعلم الخليفة بالنصر الذى حققه .

وعلى الرغم مما فى قصص الخلفاء الحفاة من خيال ابداعي (رومانطيقى) الا ان نظام الحكم الذى اتبعوه ، لم يكن خاليا من النتائج السيئة الخطيرة فلقد ظلت ادارة الامصار التى فتحها العرب من الفرس فى أيدي موظفيها السابقين نظرا لافتقار جهاز الحكم الى الموظفين

الأكفاء من العرب المدربين وكانت الحسنات العامة لا تزال تدون باليونانية أو الفارسية ، وهما لغتان لم تكن هناك الا قلة من العرب تعرفهما . ومن المحتمل أن يكون النقص في خراج مصر ، الذي أثار غضب الخليفة على عامله عمرو بن العاص ناجما عن افتقار الموظفين البيزنطيين السابقين الذين كانوا يجبون الخراج والجزية الى الامانة ، ولكننا نعرف في الوقت نفسه ان عددا من الفاتحين العرب كانوا قد جنوا ثروات طائلة ولم تكن ثمة طريقة للحيلولة دون ذلك بسبب الافتقار الى الجهاز الكافي من الموظفين . ولكن عمر كما رأينا ، كان يعالج هذه المشكلة بطريقة سريعة ولا تخلو من القسوة اذ لا يكاد يسمع من الناس ان أحد عماله أو امرائه قد أثرى حتى يوفد ممثلا له يصادر منه نصف ما يملكه .

ويصل بنا هذا القول الى أهم مزية من مزايا عمر بن الخطاب . فالمؤرخون المسلمون يتحدثون كثيرا ، ولهم كل الحق في ذلك ، عن وزعه وتواضعه وتفانيه في اداء واجبه ، ولكننا لا نسمع من أى منهم عن مزاياه القيادية . ولكننا نراه يرسل أكثر من مرة ، رسائل الى قادته الظافرين المنتصرين ، وهم على رؤوس جيوشهم في امصار نائية يأمرهم فيها بتسليم قياداتهم الى غيرهم ، والتخلي عن نصف ما يملكونه الى بيت مال المسلمين . ولم نسمع قط أن ايا منهم قد تردد لحظة واحدة في اطاعة الامر وانفاذه ، ولا يمكن أن تعزى هذه الطاعة العمياء الى الدين وحده ، اذ اننا سنرى بعد قليل خليفة عمر ، يواجه بالعصيان المكشوف الذي أدى في النهاية الى الاطاحة به .

كان ابو لؤلؤه ، قاتل عمر ، من الفرس ، وكان الهرمزان ابرز من في المدينة من الفرس ، في تلك الايام ، وهو النبيل الذي تمكن من انقاذ حياته بالهيلة التي لجأ اليها وهى صب الماء الذي كان يوشك على شربه على الارض . ولم يكده عمر ينتقل الى جوار ربه ، حتى كان ولده يسارع الى الهرمزان فيقتله ثارا لمصرع أبيه . وكان هذا الولد بوصفه عربيا قد فكر أول ما فكر بالثار لأبيه . ويروى الطبرى أن أحد الناس ذكر أمام ابن الخليفة انه كان قد رأى الخنجر الذي طعن أبو لؤلؤه به عمر بن الخطاب في حيازة الهرمزان . ولكننى أرى من غير المعقول أن يكون الهرمزان قد تأمر على قتل عمر لأن الخليفة كان قد أنقذ حياته وخصص

له جعلاً شهرياً (١) يضاف الى هذا ان الهرمزان كان نبيلاً فارسياً وحيداً يعيش في عاصمة العرب . ولكن عمر قتل قتلاً وحشياً على يد أحد الفرس ، ومن الواجب التكفير عن هذه الجريمة في عرف العرب ، بدم فارسي آخر هو الهرمزان .

لعل من أصعب المشاكل في الحكم الانساني العثور على طريقة سليمة لاختيار من يخلف حاكماً عند موته . ولقد كانت هذه المشكلة من النوع الذي لم يتمكن العالم القديم قط من حله ، وهي ما زالت حتى يومنا هذا من أقوى الحجج ضد نظام حكم الفرد ، وكانت هذه المشكلة أيضاً من القضايا التي لم يترك النبي أية تعليمات محددة واضحة بصددھا . وكان النبي قد عين ابان مرضه الاخير أبا بكر ليؤم الناس . ولكن اختيار الخليفة الاول كاد يؤدي كما رأينا من قبل الى نزاع داخلي خطير في الدولة الحديثة .

وكان أبو بكر قد اختار عمر فعلاً لخلافته وكان هذا من القوة بحيث استطاع أن يفرض كلمته دون معارضة ، ومن المحتمل أن يكون عبد الرحمن بن عوف الذي رفض عرض عمر أن يخلفه هو أصلح الناس للخلافة اذ دلل رفضه على تجرده من أية مطامح شخصية أو أطماع أو تعشق للسلطان . على أي حال اجتمعت اللجنة التي اختارها عمر بعد وفاته ، لاختيار الخليفة الجديد ولما كان جميع أعضاء هذه اللجنة قد قدر لهم أن يلعبوا أدواراً بارزة في السنوات التالية ، فأننى أرى من الجدير بنا أن ندرس أوضاعهم ، واحداً واحداً بصورة أكثر دقة .

كان على بن أبى طالب ابن عم النبي وقد نشأ في بيته وفي رعاية

(١) منطق سخيف لا يستند الى دليل اذ متى كان الاحسان لانسان سبباً في براءة هذا الانسان من الاجرام بحق الحسن اليه . وقديماً قيل ... اتق شر من احسنت اليه . وانا لا اشك وان كانت الدلائل غير كافية باستثناء دليل تعذيب كعب الاحبار في ان قتل عمر كانت اول مؤامرة دبرها الشيعة ضد العرب وهي كثيرة في تاريخهم الطويل المشترك . ولعل السبب في افتقار الادلة هو مصرع أبى لؤلؤة الفورى . اذ لو عاش لامكن استخلاص الحقيقة منه ومعرفة شركائه ولكن هذه الحقيقة ضاعت مع مقتل أبى لؤلؤة الفورى ونجاة شركائه من خطر الاكتشاف وانتقار العرب في تلك الايام الى أنظمة التحقيق الجنائي . ولعل السبب في القول بوجود التآمر الشيوعي ، هو ضعف السبب الذي عزاه المؤرخون لنقمة أبى لؤلؤة على عمر وقتله له .

(العرب)

زوجته خديجة وكأنه ولدتهما وزوجاه من ابنتهما فاطمة الزهراء وقد لعب دورا بارزا في حروب النبي اذ كان فارسا مغوارا ولا سيما في المبارزة الفردية . وقد أقام في المدينة بعد وفاة النبي ولم يخرج منها اذ ظل يعمل مستشارا لابن بكر وعمر . وكان في هذه الآونة قد أصبح في أوسط العمر ، ميسور الحال ، مهيب الصورة والمنظر .

أما عثمان بن عفان فهو ثاني أعضاء اللجنة وينتمي الى بني أمية التي كانت تضم في الماضي أكثر الناس في قريش ثراء والتي كان يتولى زعامتها أبو سفيان . وكان عثمان قد بنى بابنتي رسول الله على التعاقب ، وقد أوفده النبي يوم صلح الحديبية الى مكة لمفاوضة قريش . وهناك رواية تزعم أنه كان بين من ركزوا الى الفرار يوم أحد (١) .

وكان الزبير بن العوام العضو الثالث في اللجنة ، وهو أيضا من أقارب الرسول . وكان هذا الصحابي هو الذي قاد جيش النجدة الذي بعد اثني عشر ألف محارب ، والذي بعث به عمر بن الخطاب الى مصر لمساعدة عمرو بن العاص ثم تولى أخيرا الهجوم مرتقيا السلم ليقترحم حصن بابلون .

أما سعد بن أبي وقاص فكان العضو الرابع في اللجنة وهو فاتح العراق الذي طالما سمعنا باسمه. أما الخامس فكان عبد الرحمن بن عوف وقد رأيناه يرفض الخلافة لنفسه ولكنه يشترك في اختيار الخليفة (٢) .

وكان المجلس قد اجتمع . وعمر يصارع سكرات الموت في غرفة مجاورة حيث بدؤوا مشاوراتهم وسرعان ما علت أصواتهم أثناء النقاش المحتد بينهم حتى ان الخليفة طلب اليهم بأن يؤجلوا المناقشات حتى تصعد روحه الى خالقها . ولم يكذ جثمانه يسجد في مرقده الاخير الى جوار صاحبيه ، حتى عادت اللجنة الى الاجتماع . وقد أقيم حارس على مكان الاجتماع تلبية لأمر الخليفة المتوفى ، وقيل للمجتمعين ان الخليفة حدد لهم موعدا أقصاه ثلاثة أيام ، يجب أن ينهوا قبله مشاوراتهم وعليهم أن يختاروا قبل هذا الموعد خليفة للمسلمين . ونص أمر الخليفة في حالة افتقار القرار الى الاجماع أن يؤخذ بالأغلبية على أن يؤخذ رأس

(١) ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية في كتب التاريخ المشهورة .

(٢) أغفل المؤلف ذكر العضو السادس وهو طلحة بن عبيد الله لانه كان غائبا من المدينة ولم يشترك في الانتخاب وكان أمر عمر يقضي بأن يشترك في الانتخاب لو جاء قبل انتهائه .
(العرب)

المخالفين بالسيف ويبدو من هذا ان عمر لم يكن على استعداد لان يتيح
لمرشح منهم الفرصة لاغراق البلاد في حرب أهلية . ويظهر هذا النص
ان احتمال نشوب الحرب الاهلية كان قد بدأ في الظهور وهي حقيقة قد
تفسر لنا الطريقة التي كان عمر يقبل فيها قواده الظافرين ، فلقد كان
يخشى احتمال الثورة العسكرية (١) .

(١) ارى ان اسجل هنا القصة الكاملة لاوامر عمر باختيار الخليفة كما اوردها
مؤرخو العرب . فقد ذكروا انه لما طعن عمر واحس بالموت طلب اليه ان يمهّد الى خليفة
من بعده ، فتردد وقال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد ابا بكر)
وان اترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله) وقال . لو كان ابو عبيدة حيا
لاستخلفته فان سألني ربّي قلت سمعت نبيك يقول : « انه أمين هذه الامة » ، ولو كان
سالم مولى ابي حذيفة حيا استخلفته فان سألني ربّي قلت سمعت نبيك يقول ان
سالمًا شديد الحب لله . فقال له رجل ادلك على عبد الله بن عمر فقال : فأنك الله ،
والله ما اردت له بهذا ، ويحك كيف استخلف رجلا حيز عن طلاق امرائه . لا ارب لنا
في اموركم ، ما حلدتها فأرغب فيها لاحد من اهل بيتي . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ،
وان كان شرا فشرعنا الى الله . حسب آل عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل
من امر امة محمد (صلم) . اما لقد أجهدت نفسي وحسرت اهلى فان نجوت كفافا
لا ولد ولا اجر انى لسميد .

ثم كرر عليه القول بعد هنيئة ، فقال : كنت أجمعت بعد مقاتلي لكم ان النظر
قائلي رجلا امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق وأشار الى عبد الرحمن ثم رايت
الا اتحمل امركم حيا وميتا ، عليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله (صلم)
انهم من اهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خلا رسول الله
والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا
فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته ، واعينوه ان التمن احدا منكم فليؤد امانته ثم دعا
هؤلاء الرهط ، وقال لهم ، انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا
الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله وهو منكم راض. انى لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم
ولكنى اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، ثم عين لهم الاجل الذى يتم
فيه الانتخاب وهو ثلاثة ايام بعد موته وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتونى في حفرتى
فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب : صل بالناس
ثلاثة ايام واضاف للمقداد وادخل عليا وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن وطلحة
ان قدم واحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الامر وقم على رؤوسهم فان اجتمع
خمسة ورضوا رجلا وابى واحدا فاشدخ راسه بالسيف وان اتفق اربعة فرفضوا رجلا
منهم وابى اثنان فاضرب راسيهما فان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله
ابن عمر ، فالى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن
عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين ان رغبوا عما اجتمع
عليه الناس .

فلما دفن عمر جمع المقداد اهل الشورى في بيت المسور بن مخزومة وقيل في حجرة
عائشة . ولم يكن قد حضر طلحة .
(المغرب)

وسرعان ما ظهر ان الترشيح الجدى انحصر بين رجلين هما عثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب . فلقد كان كلاهما من اصهار رسول الله . وكانا من المسلمين الاوائل . وعلى الرغم من ان سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام كانا من كبار المحاربين الا انهما لم يعتبريا من المنافسين الخطرين للمرشحين الاولين .

ودار نقاش حاد بين على وعثمان . واحتد وطيس التنافس بينهما اذ كان كل منهما يصر على حقه فى الخلافة وانقضى يومان دون ان يصل أصحاب الشورى الى قرار حاسم وعندما طلع صبح اليوم الثالث جاء قائد الحرس (يعنى المقداد بن الاسود) فقرر الباب على من فى الغرفة من أهل الشورى وأنذرهم بأن قرارهم يجب أن يصدر فى ذلك اليوم . وألقى العبء الأكبر من المسؤولية على عاتق عبد الرحمن بن عوف الذى اعتبره المسلمون أحق مرشح بالخلافة لو ارتضاها . وراح يعلن صبيحة اليوم الثالث رسميا استعداده لسحب ترشيحه شريطة أن يرتبط الاربعة الآخرون بمن يختاره خليفة للمسلمين^(١) وقد وافق الجميع على طلبه وان جاءت موافقة على بعد لائى وتردد .

وليس ثمة من شك فى أن عبد الرحمن بن عوف كان قد قضى اليومين الاخيرين يسبر أغوار الرأى العام فى المدينة ، وراح الآن يجتمع الى كل من الاربعة على انفراد . وجدير بنا أن نذكر ان المنافسات العائلية كانت قد ظهرت بين أحفاد قصى بن كلاب الرجل الذى أقام لقريش سلطانها فى مكة منذ أمد طويل قبل الدعوة الاسلامية . وقد أدب هذه المنافسات الى اقتسام مظاهر الزعامة وحقوقها بين بطون قريش فاحتفظ

(١) يبدو ان طلحة السادس من رجال الشورى قد وصل الى المدينة قبل انتهاء المشاورات خلافا لرأى المؤلف الذى يصر على بقائهم خمسة ، فقد روى السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ان الستة اجتمعوا فقال لهم عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على ، وقال سعد جعلت أمرى الى عبد الرحمن وقال طلحة جعلت أمرى الى عثمان ، فخلا الثلاثة وقال عبد الرحمن انا لا أريدها فأبكما ييرا من هذا الامر ونجمله اليه ؟ والله عليه والاسلام لينظرون أفضلهم فى نفسه ، وليحرم على صلاح الامة فسكت الشيخان على وعثمان وقال عبد الرحمن اجعلوه الى والله على لا أركم من أفضلكم قالوا نعم . فخلا بعلى وقال : لك من التقدم فى الاسلام والقربة من النبى عليه الصلاة والسلام ما قد علمت الله عليك لأن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن وتطيعين قال نعم ثم خلا بعثمان فقال له كذلك فلما أخذ ميثاقهما بايع عثمان ، وبايعه على بعد احجام .

(العرب)

بنو عبد الدار بشرف حمل الراية فى الحروب والاحتفاظ بمفاتيح الكعبة . وكان نصيبه بنى أمية الحق الوريثى فى قيادة قريش الى الحرب بينما عهد الى بنى هاشم برغادة الحجيج وسقايتهم وبدا وكان المنافسات القبلية بين بطون قريش قد انتهت بهذه التسوية ولم يكن من قبيل الصدفة ان محمدا لقي الحماية من بنى هاشم عندما بدأ يبشر بدعوته ، بينما تمثلت المعارضة الرئيسية له فى شخص ابى سفيان زعيم بنى أمية وهكذا ظلت الحزازات القبلية تطل برأسها بين آونة وأخرى .

ولم يكن من قبيل الصدفة المعارضة الآن ايضا ان يكون أحد المرشحين المتنافسين على الخلافة من بنى أمية وأن يكون ثانيهما من بنى هاشم . فلقد مادت الخلافات القبلية بين البطنين من بطون قريش والتي تعود الى أيام الجاهلية ، تنذر بالظهور وكان الجميع الآن ولا ريب من المسلمين الصادقين ولكن برغم هذا الاسلام ، فان المنافسات القبلية كانت لا تزال تثير الولاءات القديمة .

وأخيرا أهل فجر اليوم الرابع وارتج مسجد النبى بأهله ممن توافد اليه من أبناء المدينة انتظارا لمعرفة ما تم اليه قرار أهل الشورى ولكن هؤلاء لم يكونوا قد وصلوا الى قرار بعد . وصعد عبد الرحمن المنبر وهو متردد ، ودعا المجتمعين الى ابداء رأيهم وسرعان ما ارتفعت الهتافات من المجتمعين بعضها يؤيد عليا والبعض الآخر يؤيد عثمان بن عفان وتصايح أنصار الرجلين ، وتبدلت العبارات العنيفة وساد الهرج والمرج . وأصبح الجو مكهربا بحيث توقع العقلاء الا تنقضى لحظات حتى تستل السيوف والخناجر من أعمادها وتسيل دماء المسلمين فى مسجد النبى . حقا انها للحظة دقيقة تتطلب الحسم . وكان التأجيل فى البت أكثر خطورة من اتخاذ أى قرار . وهمس سعد بن أبى وقاص فى أذن عبد الرحمن بن عوف يقول : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

واستجمع عبد الرحمن رجولته كلها . وطلب الى المجتمعين الصمت وهتف قائلا : أيها الناس انبى قد نظرت وشاورت فلا تجعلنى أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا للمثول أمام الناس وقال له « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعده » فقال على أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان فقال له مثل ما قال لعل فرد هذا بالايجاب . فبايعه عبد الرحمن

بالخلافة ، بعد ان توجه الى الله بدعاء قصير ، وسرعان ما لحق به الناس فبايعوا عثمان بالخلافة دون ضجة . وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة فاستقبل بخلافتها عام أربعة وعشرين . وفى هذه الاعوام تغيرت خريطة العالم رأسا على عقب اذ انهزمت الامبراطوريتان العظيمتان ، وظهرت قوة عالمية جديدة احتلت محلها . ولم يسبق أن ظهرت امبراطورية جديدة فى تاريخ البشرية بمثل هذه الصورة المفاجئة المبالغية . ولكن فى هذه السنة الرابعة والعشرين من مولد الدولة الجديدة كانت ينور الخلاف فى هذه الامبراطورية قد بدأت فى الظهور وكانت قريش هى التى بنت تلك الامبراطورية ، وهى التى قدر لها أن تهدمها .



مرت السنة الاولى من خلافة عثمان بهدوء وعلى الرغم من المنافسات العنيفة التى أثارها انتخابه مؤقتا فى المدينة إلا أن الامصار استقبلت النبأ بهدوء ودون أى اعتراض .

كان عثمان قد بلغ السبعين من عمره عندما بويع بالخلافة وتقول الروايات : انه كان الرجل الرابع فى الاسلام بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة ، وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة ؛ ابان فترة الاضطهاد الأولى ثم عاد الى مكة ليهاجر ثانية الى المدينة . كان متوسط الطول جسيم البنية كثير الاناقة وان امتلا وجهه بآثار الجدى ، وكان شعره المتموج ينسدل الى ماذون أذنيه بينما تملأ وجهه لحية كثة طويلة ويروى عن النبى أنه قال : انا تشبه عثمان بأبينا ابراهيم . وعلى الرغم من أنه كان من بنى أمية الى أن أمه كانت من بنى هاشم ، ومن هنا جاز ان يقال انه كان واسطة العقد بين بطنى قريش المتنافسين واللذين أدى تنافسهما الى تمزيق العالم الاسلامى .

ويقال انه عندما اعتنق الاسلام ، أخذه عمه فأوثقه وباطا وقال : ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما انت عليه ولكن عثمان احتمل اضطهاد عمه بصبر عجيب ورد عليه قائلا : والله لا أدعه أبدا ، ولا أفارقه ، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه .

وعندما جهز النبى جيش العسرة فى الصيفت الى تبوك ، وكان المسلمون فى أمس الحاجة الى وسائل النقل ، فى ذلك القليظ ، جهز عثمان من ماله الخاص ٩٦٠ بعيرا وخمسين جوادا ، وهو تبرع لا شك

فى سخائه بالنسبة الى تلك الايام المعسرة . ويقال ان النبى وعده بالجنة بعد تجهيزه لجيش المعسرة . وتقول الروايات أيضا ان النبى وعده ذات مرة بأن يلقاه فى الجنة ، وهو وعد تذكره الخليفة الشيخ بعبارات مؤلمة قبيل مصرعه . ولقد كان عثمان السمع الكريم ، الرجل الذى أوفده النبى الى قريش ليفاوضها يوم الحديدية عندما كان الوضع فى منتهى الحرج والشدة . ولعل أروع اطراء من الرسول له يتمثل فى قوله عنه ان الملائكة تستحيى منه ، وهى شهادة توحى بأن عثمان كان فى منتهى الطهر والبرامة ، والبعد عن الزيف والاصطناع وبلوغ حدود السداجة بالنسبة الى مطامع الانسان الدنيوية .

- وتوحى القصص والروايات التى وصلت الينا بأن الخليفة الجديد كان انسانا سمحا جميل الوجه والصورة مهيب الطلعة . كثير التقى والورع والتواضع لين الجانب محبوبا الى من يعرفه . وكان فى بداية عهده أقرب الى قلوب الناس من عمر المتزمت الصلب . وذلك لما عرف عنه من لين وتسامح ، وأخلاق رضية وحسن معاملة لأصدقائه ورعاياه .

لكن سوء طالعہ شاء أن يكون من بنى أمية البطن من قريش الذى اشتهر بالثروة والنفوذ فى الجاهلية . فبالاضافة الى ما تميز به هذا البطن من حق ورائى فى قيادة جيش قريش فى الحروب ، ضم اكبر تجار مكة الذين ألفوا المال والترف بالنسبة الى ما عرف فى الجزيرة العربية فى القرن السابع . ويقيم تبرعه السخى لجيش المعسرة فى حملة تبوك الدليل على أن عثمان كان من الاثرياء فى الجاهلية ومن المحتمل أن يكون ثراء بنى أمية ، قد جعل منهم أناسا يتعلقون بالمادة والدنيا . ولقد كانوا تحت قيادة أبى سفيان ألد أعداء الرسول حتى فتح الله مكة لنبيه . وسرعان ما رأينا بنى أمية ينقلبون الى الجانب الآخر . وقال ولدا أبى سفيان مركزين . كبيرين . فقد اختير يزيد قائدا لجيش من جيوش المسلمين بينما اختير معاوية الولد الثانى كاتما لأسرار الرسول . وحارب أبو سفيان جنديا متطوعا فى جيوش المسلمين وهاجر الى المدينة الكثيرون من بنى أمية ، ليكونوا على مقربة من عاصمة الجاه والنفوذ فى الامبراطورية الجديدة المتوسعة بسرعة هائلة ، اختار عمر يزيد بن أبى سفيان أميرا لسورية بعد وفاة أبى عبيدة . وعندما توفى يزيد خلفه فى امارته أخوه معاوية ولكن على الرغم من هذه المناصب المهمة التى وصل اليها بنو أمية الا أن بنى هاشم ظلوا يحتلون المكانة الأولى لظهور النبى منهم . ويطمع

الامويون الآن ، بعد وصول أحد رجالهم الى منصب الخلافة في استعادة
المكانة التي كانوا يحتلوها قبل ظهور رسول الله .

تواريخ مشهورة

مصرع عمر بن الخطاب ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٤٤

شخصيات بارزة

الخليفة الثاني	عمر بن الخطاب
المجوسي قاتل عمر	أبو لؤلؤة
الخليفة الثالث	عثمان بن عفان

هيئة الشورى

ابن عم النبي	علي بن أبي طالب
الخليفة المنتخب	عثمان بن عفان
بطل حصن بابلين في مصر	الزبير بن العوام
فاتح العراق	سعد بن أبي وقاص
عرضت عليه الخلافة فاعتذر عن قبولها	عبد الرحمن بن عوف

عشـمات

« هو اول من اقطع القطائع ، واول من حمى الحمى
واول من خفض صوته بالتكبير واول من خلق المسجد ،
واول من امر بالاذان الاول فى الجمعة ، واول من رزق
المؤذنين واول من ارتج عليه فى الخطبة • واول من قدم
الخطبة فى العيد على الصلاة ، واول من فوض الى
الناس اخراج زكاتهم ، واول من ولى الخلافة فى حياة
امه ، واول من اتخذ صاحب شرطة ، واول من اتخذ
المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصيبه ما اصاب
عمر • واول ما وقع فى عهده الاختلاف بين الامة فخطا
بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقومها عليه ، واول من
هاجر الى الله باهله ، واول من جمع الناس على حرف
واحد فى القراءة ، واول منكر ظهر بالمدينة فى عهده ،
حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس • »

جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء

كان السلام مخيما على كل جزء من أجزاء الامبراطورية العربية الجديدة عندما اغتيل عمر بن الخطاب في عام ٦٤٤ . ولم يكن القتال دائرا الا في فارس على شكل حركة بطيئة من حركات التوسع على عدد من الجبهات المختلفة والبعيدة بعضها عن بعض اذ على الرغم من تحطيم آخر جيش من جيوش يزدجرد في معركة نهاوند فان المقاومة المحلية ظلت مستمرة في عدد من المناطق الجبلية المختلفة ، ويقول السيوطي ان العرب احتلوا مدينة الري في السنة الاولى من خلافة عثمان بن عفان ، ويبدو ان العرب كانوا قد احتلوها بعد معركة نهاوند ثم أضاعوها وعادوا الى احتلالها ثانية .

ويبدو أن الممرات الجبلية عبر طوروس التي أضحت تفصل الآن بين الممتلكات البيزنطية وبين امارة سوريا العربية لم تكن في هذه المرحلة مسرحا لعمليات حربية رئيسية ويبدو ان هرقل وهو يجلو عن سوريا ، كان قد أصدر أوامره باخلاء عدد من مدن المنطقة وتدميرها رغبة منه في اقامة حزام من الارض الحرام بين الامبراطوريتين . لكن قتالا شديدا دار على أي حال في الشمال البعيد في ارمينيا ، حيث نشبت الثورات عند وصول الانباء اليها معلنة وفاة عمر بن الخطاب . وصدرت الاوامر الى معاوية والى الشام بارسال رتل قوامه ستة آلاف جندي وقيل بل ثمانية آلاف رجل الى ارمينيا بقيادة حبيب بن مسلمة ، وصدرت الاوامر أيضا الى أمير الكوفة بأن يرسل قوة أخرى قوامها ستة آلاف من الموصل باتجاه الشمال . وقد التقى الرتلان ، ولكن الاحتكاك وقع بين قائديهما واختلعا على القيادة العامة وعلى اقتسام الغنائم ، وأدى هذا الاختلاف الى افتراق الرتلين ثانية بحيث اتجه القادمان من سوريا نحو الشمال أيضا باتجاه حدود جورجيا . وقد تصالحت عدة مدن وقرى مع الغزاة بعد أن وافق أهلها على أداء الجزية والخراج وفق الشروط المألوفة وتصالحت مدينة تفليس على نفس الشروط المألوفة ، ووجد العرب أنفسهم وجها لوجه أمام حاجز طبيعي تكسوه الثلوج هو جبال القفقاس .

وكان الرتل القادم من العراق ، قد شق طريقه في غضون ذلك الى الشمال نحو الطرف الشرقي من القفقاس ، الى الجنوب من مدينة باكو

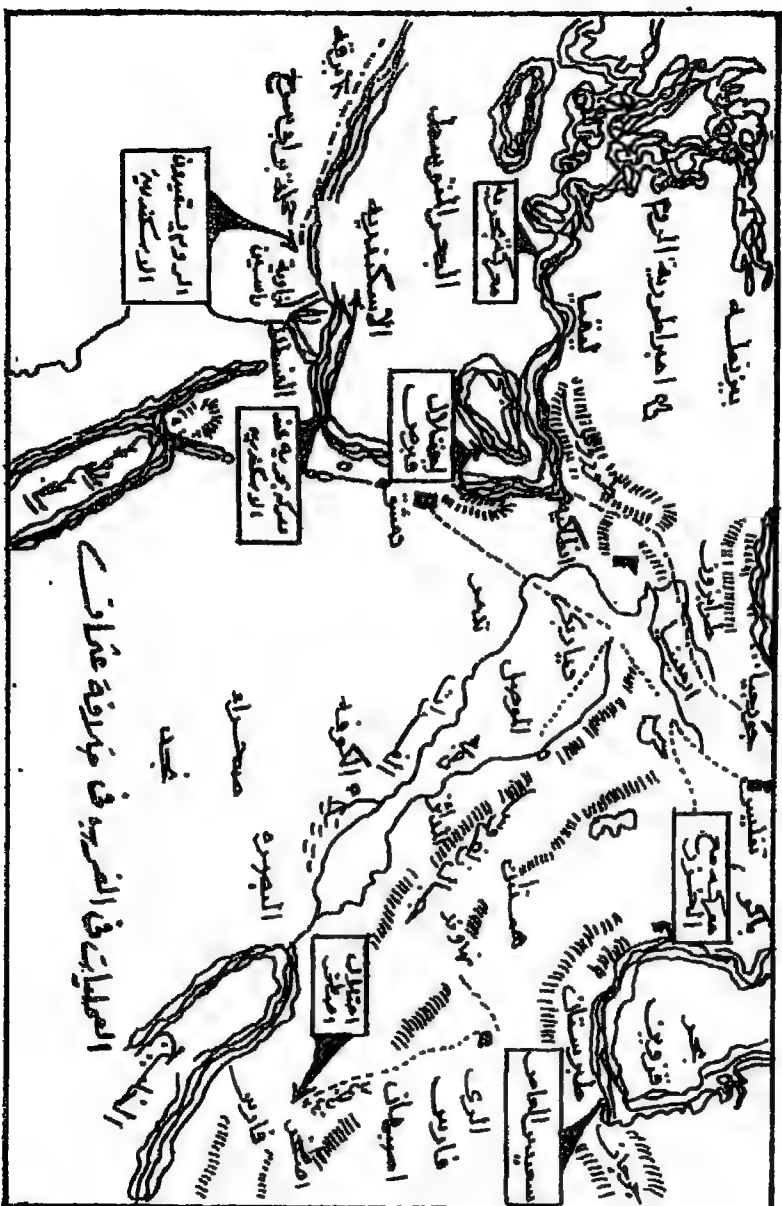
الحالية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم فى مكان ما فى هذه المنطقة وجها لوجه أمام قبائل الخزر . وتمكن الخزر من ابادة القوة الاسلامية التى تبلغ نحواً من أربعة آلاف مقاتل . اذ أحاط بهم العدو بقوات هائلة وظلوا يقاتلون حتى استشهد آخرهم ، وهم يهتفون حتى النفس الاخير ، الله أكبر ، لا اله الا الله » (١) .

وعلى الرغم من مثل هذه التكرسات والاحداث المؤسفة فقد تمكن العرب من فرض حد كبير من السيطرة فى أعوام ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ على جميع المنطقة الممتدة حتى القفقاس وظلوا يعينون العمال والولاة لارمينيا واذربيجان . لكن وضع الحدود ظل مضطرباً ولا سيما بالنسبة الى مناطق الخزر . وكان هؤلاء يؤلفون شعباً من أصل تركى، تمكن فى القرن السابع من السيطرة على جميع المنطقة الممتدة من القرم الى بحر قزوين . وكان خانات الخزر قد أعانوا هرقل بجيش قوامه أربعون ألفاً من الرجال فى حملاته على كسرى أبرويز . وعندما وصل العرب الى أرمينيا بعد معركة نهاوند فى عام ٦٤٢ ، تعاون الخزر مع الروم فى الدفاع عن أرمينيا . وقد قدر للحروب بين العرب والخزر أن تستمر زهاء قرن من الزمن ظل القتال فيها سجالاً الى أن أذعن الخاقان فى عام ٧٣٧ وأشهر اسلامه وخضعت منه ذلك التاريخ جميع شعوب القفقاس للامبراطورية العربية الى أن انهارت نهائياً .



وبينما كانت العمليات العسكرية مستمرة فى أرمينيا وفارس وقعت أزمة عنيفة فى مصر فجأة . ويذكر القارىء ولا شك ان عمر بن الخطاب كان قد وجه اللوم الى عامله فى مصر ، عمرو بن العاص ، على تقاعسه عن جباية الخراج والجزية مطالباً إياه بزيادة ما يجبيه . وكان من آخر ما قام به الخليفة من أعمال قبيل مصرعه ايفاده رجلاً يدعى عبد الله بن أبى سرح ، ليتولى عملية جمع الخراج ؛ مؤكداً بذلك شكوكه فى نزاهة عمرو بن العاص .

(١) يختلف رواية المؤلف هنا عن معظم الروايات الاسلامية . فقد قيل ان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى أوغل فى بلاد الخزر حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنها خلف باب الابواب ولكن الترك تجمعوا على العرب هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فاصيب عبد الرحمن وانهزم المسلمون ففرقوا فرقتين فرقة عادت لقاتلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد ارسل مبدا لاخته فنجت ، وفرقة اخرى اخذت طريق جيلان وجرجان .



وكان لعبد الله بن سعد بن أبي سرح هذا تاريخ مطعون فيه . فلقد كان أخا لعثمان بن عفان في الرضاعة . وكان من أوائل المسلمين . وهاجر مع النبي الى المدينة فرارا من اضطهاد قريش . ويبدو أنه كان أكثر تعليما من سائر قريش فاختره النبي كاتباً له لتدوين آيات القرآن الكريم . ولكنه ما لبث لأسباب نجهلها أن فر من المدينة الى مكة ، حيث ارتد عن الاسلام واخذ يطعن في النبي ، مثيرا الشكوك في صدق نبوته . ولا ريب في ان هذه الخيانة في شخص كان موضع ثقة الرسول ، أثارت عليه سخطا عنيفا عند المسلمين . وعندما فتح النبي مكة كان ابن أبي سرح احد القلائل الذين لم يشملهم عفو النبي ، فظل مختبئا امدا من الزمن الى أن عفا عنه الرسول تحت تأثير شفاعة أخيه بالرضاعة عثمان ، وان كان النبي قد ذكر بأنه اجل اصدار العفو عنه ، املا في ان يقتله احد المسلمين . هذا هو الرجل الذي اوفده عمر بن الخطاب لجباية الخراج من المصريين . وليس ثمة شك في كفاية الرجل ، وفي براعته في جمع الخراج ، وان كان مطعونا في اسلامه من الزاوية الدينية . ولعل من الغريب كل الغرابة ان يعين عمر بن الخطاب مثل هذا الرجل ، لا سيما وأنه كان قد أقال عددا من كبار القادة العسكريين من مناصبهم لما قيل من تهاونهم في شئون الدين . والمعتقد ان هذا الرجل كان ذا كفاية بالغة في اعمال الادارة ، وهو امر كان نادر الوجود بين المسلمين الأوائل .

ولم تمض على تعيين ابن أبي سرح في هذا المنصب فترة قصيرة حتى كان مصرع عمر بن الخطاب ، مما أدى الى تبدل الاوضاع كل التبدل بالنسبة الى هذا الرجل . فالخليفة الجديد أخوه في الرضاعة . وكان أول ما قام به من أعمال عزله عمرو بن العاص من منصبه ، وتعيينه ابن أبي سرح ، أميراً لمصر ، وقائدا عاما للجيش فيها . وقد رافقت تعيينه أوامر جديدة ، بأن يحصل على المزيد من المال من أعمال الجباية من المصريين ، وقد شرع ينفذ هذه الأوامر بعزيمة مطلقة . وسرعان ما ارتفعت صيحات الاحتجاج من الذين تناولتهم هذه الضرائب . وبعثت جماعة من كبار الاسكندرية برسالة سرية الى الامبراطور كونستانس في بيزنطة ، يناشدونه فيها إعادة احتلال مصر وانقاذهم من ظلم العرب .

وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر ، ولذا كان احتمال غزوهم لمصر شيئا ممكنا . وأخلوا يحشدون أسطولا ضخما في منتهى السرية

لتنفيذ هذه الغاية ولم تكن هناك مراكب عربية تمخر عباب البحر المتوصط ، ولم يصل الى مصر أى اشعار عما يدبر لها بليل من غزو مرتب ، وشاهد أهل الاسكندرية فجأة فجر أحد الايام من خريف عام ٦٤٥ أسطولا يتألف من نحو ثلثمائة سفينة يقترب من الميناء . وسرعان ما هبطت جنود الروم أرض المدينة وأعملوا السيف فى حامية المسلمين التى يريد تعدادها على الف رجل وحصن البيزنطيون أسوار المدينة ، وعادت الاسكندرية من جديد الى حكم الروم . ولم ينتظر الروم هجوم العرب المضاد المحتوم بل سارعوا بالخروج من المدينة واجتاحوا جزءا كبيرا من أدانى الدلتا . وبعد أن حقق مانويل قائد الروم هدفه الأول على هذا النحو الظافر المنتصر ، بدا وكأنه لم يضع أى مخطط للمرحلة الثانية من استعادة البلاد . ويشير اليه مؤرخو العرب باسم مانويل الضخمى ، فهل كان ياترى من بطانة القصر وليس جنديا محترفا ؟ لكننا فى عهد جوستينيان ، رأينا خصيا آخر هو نارسيس يقيم الدليل على انه قائد عسكري عظيم . ومهما كانت طبيعة هذا القائد فقد رأينا جيش الروم ينتشر فى أراضى الدلتا ناهبا سائبا ومصادرا المؤن بدلا من أن يعد العدة للمعركة المنتظرة . ومن المحتمل أن يكون هدف الروم جمع المؤن فى الاسكندرية تمهيدا لحصارها . مع ان تموينها كان عملا فى منتهى السهولة من ناحية البحر .

ولم تكده هذه الأزمة تنشب فى مصر ، حتى كان عثمان يبادر على الفور الى اعادة تعيين عمرو بن العاص ، قائدا عاما للجيش فيها ، فيوفده على جناح السرعة اليها . ولو قدر للروم أن يزحفوا مباشرة الى حصن بابليون والفسطاط عند رأس الدلتا لاحتلوا عاصمة مصر الجديدة، قبل أن يقدر لعمر بن العاص الوصول اليها . وكان فى امكانهم أيضا أن يقيموا قلعة منيعة فى الاسكندرية وأن يؤمنوا تموينها من البحر ويجعلوها عاصمة على الفتوح الى أن تخين الفرصة من جديد لاستعادة مصر كلها .

ولقد سبق لنا أن رأينا العرب فى جميع حملاتهم السابقة ، تواقين دائما الى القتال فى الاراضى المكشوفة . ورأيانهم يبرعون كل البراعة فى اجتذاب أعدائهم واخراجهم من حصونهم ، أو من المناطق الضيقة المحصورة ، ليقاتلهم ويهزمهم فى الصحراء أو على أطرافها . ولا ريب فى أن عمرو بن العاص كان من أبرع القادة العرب فى استغلال هذا الاسلوب التعبوى . فلو ظل الجيش البيزنطى الذى لم يقهر بعد وراء

الاسكندرية ، لما استطاع العرب إعادة احتلالها أبدا أو حتى يضمّنوا سيادة البحر لأنفسهم . وعلى ضوء هذا التفكير أطال عمرو بن العاص مكثه في حصن بابلليون طمعا في جر الروم الى حربه في الجنوب . ولكن عندما وصل نيكيو (زاوية راسين) على بعد مائة ميل الى الجنوب من الاسكندرية ، قابلهم فيها عمرو بن العاص على رأس جيشه الذي يعد خمسة عشر ألف عربي . ونشبت معركة دموية حامية ظل فيها النصر معلقا في كفة القدر مدة طويلة . وأخيرا انهار جيش الروم وشرع في التراجع . وسرعان ما تحول الانسحاب الى هزيمة ، ووصلت فلولهم الى الاسكندرية في حالة فظيعة من الفوضى والاضطراب بعد أن فرت مسافة مائة ميل طاردتهم فيها قوات العرب . لكنهم أفلحوا على أي حال في دخول المدينة وإغلاق أبوابها عليهم واضطر عمرو الى المرافطة في الجانب الشرقي وهو الجانب الوحيد الخالي من البحيرات والقنوات متطلعا بشعور من العجز الى أسوار المدينة وأبراجها .

وما زالت الطريقة التي استعاد فيها العرب الاسكندرية هذه المرة موضع الشك اذ أنها محوطة بالغموض والالتباس . ولعل أصدق الروايات التي نقلت الينا في هذا الصدد تلك التي تقول . ان أحد القادة من الروم ، وكان مسئولاً عن أحد الأبواب اتصل سرا بعمرو بن العاص عارضا عليه أن يفتح أبواب المدينة للعرب . ومن المحتمل أن يكون أحد الاقباط هو الذي قام بهذا العمل ثارا لما أصابه أو أصاب بعض أقاربه من اضطهاد الروم الديني أثناء الحكم البيزنطي . وسرعان ما تدفق العرب على المدينة التي أعملوا فيها القتل والسبي والسلب . وعندما تم تدمير نصف المدينة أصدر عمرو أمره بوقف أعمال الشدة والعنف . وتمكن شطر من جيش الروم من النجاة عن طريق البحر ولكن الكثيرين من جنودهم لقوا حتوفهم وبينهم قائدهم منوبل نفسه . وقد وقع احتلال الاسكندرية للمرة الثانية في صيف عام ٦٤٦ بعد أن استفرقت الحملة زهاء تسعة أشهر (١) .

(١) تختلف رواية المؤلف بمض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين اذ يقول البلاذري ان الروم كتبوا الى قسطنطين بن هرقل ، يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الدالة وأداء الجزية قبعث رجلا من أصحابه يقال له منوبل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل الاسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجوا وذلك في سنة خمس وعشرين وبلغ الخبر عمرو بن العاص فسار اليهم في =

ولما كان العرب قد احتلوا الاسكندرية مرتين أولاها نتيجة المفاوضات مع المقدس والثانية عنوة ، فان البلبلة التي أحدثتها هذه الحقيقة أربكت المؤرخين ارباكا لا يقل عن ارباك معركتي اليرموك لهم . وكانت لتقرير موضوع الفتح وهل كان صلحا أو عنوة ، أهمية كبيرة من الناحية القضائية بالنسبة للأجيال اللاحقة ، ففي الحالات التي كانت بعض المدن فيها تخضع طوعية كان هناك اتفاقات للصلح تنص على شروط التسليم وعلى مبلغ الجزية التي تفرض ، ولا ريب في أن العرب احترموا هذه الشروط غاية الاحترام ، ووفوا بها تمام الوفاء أما اذا دخلوا بلدة عنوة فليس لاهلها حقوق . وانما هم رقيق للفاتحين . وبعد أن مرت قرون طوال ثبتت فيها أقدام الامبراطورية ، لم يكن في الامكان التثبت من حقوق أية مدينة أو مقاطعة الا اذا عرف ما اذا كانت قد استسلمت طوعية أو عنفا عند فتحها . وكان في الامكان الرد على هذا السؤال دائما بسهولة ، ففي أيام الفتح لم تكن عند العرب سجلات . ولم يكن التاريخ يهمهم في قليل أو كثير . وكانت أماكن كثيرة قد استسلمت صلحا ثم عادت فثارت وأعاد العرب احتلالها عنوة . وشغلت الخلافات الناتجة عن هذه الاوضاع فقهاء المسلمين قرونا وأجيالا .

ويبدو أن الاقباط ظلوا الى حد بعيد أن لم يكن كلية على الحياد بان هذا الفتح الثاني للاسكندرية . ويقول المؤرخ بتلر ان بنيامين بطريق القبط طلب مقابلة عمرو بن العاص . وبين له أن النصراني الارثوذكس وحدهم هم الذين نصروا مانويل . وأمر عمرو على أي حال بهدم أسوار الاسكندرية من ناحية الشرق ليحول بين المدينة وبين اطلاق أبوابها دون العرب من جديد .

ووقع حادث طريف في هذه الآونة ، أراه جديرا بالتسجيل . خلقد تقدم أهل عدد من القرى القبطية الى عمرو بن العاص بعد استرجاعه للاسكندرية بشكوى يؤكدون فيها عدم اشتراكهم في الثورة ، وانهم

= خمسة عشر الفا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يمشون فيما يلي الاسكندرية من قرى مصر فلقبهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتلوا قتلا شديدا . ثم ان أولئك الكفرة ولوا منهزمين فلم يكن لهم ناهية ولا مرجة دون الاسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب الجانيق فأخرب جدرها وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى اللرية ، وهرب بعض رومها الى الروم وقتل عدو الله منويل ، وهدم عمرو جدار الاسكندرية .

(العرب)

على النقيض من ذلك تعرضوا لنهب جيش الروم الذي صادر كل ما عندهم من غذاء دون أن يسدد لهم أثمانه وأضافوا ان المعاهدة الاصلية التي عقدوها مع عمرو عند فتح مصر أول مرة قد فرضت عليهم الجزية ، مقابل تولى العرب حمايتهم ولكن العرب لم يحموهم أبان غزوة مانويل واحتملوا من جراء ذلك خسائر فادحة . وأقر عمرو على الفور بعدالة شكواهم وأمر بدفع التعويض للخسائر التي منوا بها . ومن العدل أن نعترف هنا بأن العرب كانوا في هذه الآونة جد حريصين على الوفاء بالتزاماتهم المقابلة التي نصت عليها معاهدات الصلح مع الشعوب المحتلة . وكانوا يصرون على أن تدفع هذه الشعوب الجزية كاملة مع الخراج ولكنهم كانوا يقرون في الوقت نفسه بالالتزام المفروض عليهم لحماية هذه الشعوب التي أضحت تحت وصايتهم .

ولعل من الغريب أن نلاحظ هنا ان الخليفة عثمان الذي كان قد أقال عمرو بن العاص فور توليه الخلافة والذي أعاده الى مصر بعد عودة الروم الى غزوها ، عاد فأقاله من جديد بعد أن حقق النصر ومرت الأزمة الخطرة . ومن الحق أن نقول ان الخليفة اقترح على عمرو أولا البقاء قائدا عاما ليس الا على أن يصبح عبد الله بن أبى سرح مسئولاً عن الادارة المالية والضرائب . وقد يبدو هذا التقسيم للعمل مشروعا بالنسبة الى الأوربيين المعاصرين ، ولكن حرى بنا أن نذكر أن عمرا كان في البداية حاكما عاما مطلقا في مصر وكان هو الذي حدد الضرائب وجباها . وان اللوم وجه اليه على اعتبار أن ما جباه من الناس لم يكن كافيا ، وان عبد الله بن أبى سرح أوفد الى مصر وهدفه المزيد من الجباية ولما كان عمرو قد نال من المكانة ما ناله بفضل احتلاله مصر مرتين ، فمن الواضح ان الاقباط لو وجدوا أنفسهم مرغمين على زيادة مايدفعونه من الضرائب على الحد الذي كان عمرو نفسه قد فرضه عليهم ، لما ترددوا لحظة واحدة في الاسراع بالشكوى اليه . وكان لابد والحالة هذه أن ينشأ الاحتكاك بين ابن أبى سرح وبين القائد العام . ومن هنا كان رد عمرو على اقتراح الخليفة بقوله : « أنا كما مسك قرنى البقرة ، والامير يحلبها » وعندما تسلم عثمان هذا الرد من عمرو أمر بعزله من جميع مناصبه وعين ابن أبى سرح للمرة الثانية واليا لمصر وقائدا عاما للجيش فيها . وحرى بنا أن نذكر هنا ان الامير الجديد كان أخا لعثمان في الرضاع ويبدو أن المؤرخ بتلر قد ضاع في خضم الروايات التي وصلت الينا عن شخصية الامير الجديد . فلقد وصفه المؤرخ العربي النووي بأنه من أنبل رجال قريش وأكثرهم ذكاء . أما الطبري فقد وصفه من الناحية الاخرى بأنه

كان أسوأ عمال عثمان • لكننى لا أرى كبتلر تناقضا فى الوصفين •
 فلقد كان ابن أبى سرح ولا ريب رجلا فى منتهى الكفاية وكان فى الوقت
 نفسه من قريش ومن بنى أمية ، وشقيق الخليفة الحاكم فى الرضاع
 ومثل هذا النسب كفى بأن يجعله كما قال النووى من أنبل رجال
 قريش • ولكن ابتزازه للضرائب الثقيلة من المصريين السيئى الحظ
 بامارته يبرر وصف الطبرى له بأنه أسوأ من اختارهم عثمان لامارة
 الأمصار فى عهده •

ويذكر القارىء أخيرا أن الخليفة السابق عمر بن الخطاب كان قد
 اتهم عمرو بن العاص فى نزاهته ، وأوفد مندوبا له لمصادرة نصف
 ما يملكه • ولست أرى فى هذا الاجراء من إفاد ادارى أكثر علما وخبرة
 فى الحساب الا اجراء فى منتهى التعقل والحكمة بعد أن ثارت الشكوك
 فى نزاهة القائد العسكرى • ونرى بتلر مع ذلك ينقل عن المؤرخ
 الأجنبى سيفيروس قوله أن ابن أبى سرح كان « يتعشق المال » ويجمع
 الثروات لنفسه • وأنا لا أريد أن أبرء القائد أو الادارى من الشك
 فى انهما جمعا المال لنفسيهما ، لكننى أقول ان احتلال مصر تم بفضل
 مبادرة عمرو بن العاص ، يضاف الى هذا أنه احتل البلاد مرتين وكان معظم
 الفضل فى كلتا المرتين لبراعته الشخصية فى القيادة • ولم يكن العرب
 قد برعوا حتى ذلك التاريخ فى الاساليب الماكرة التى تلجأ اليها الحكومات
 الحديثة للخلاص من موظف لا ترغب فيه عن طريق نقله الى دائرة أخرى
 فى مركز أكبر وجعل أضخم ، وأرى أن عزل عمرو بن العاص قد كلف
 العرب ثمنا باهظا للغاية •

وأراد أمير مصر الجديد أن يحرز نصرا معادلا لما حققه سلفه المعزول
 من الناحية العسكرية فراح يعد فى عام ٦٤٧ حملة لغزو الشمال الأفريقى
 وبعث له أخوه فى الرضاع الخليفة عثمان من المدينة بجيش قوامه
 عشرون ألف جندى بينهم عدد كبير من الاحياء من صحابة الرسول ،
 وعدد من المتطوعين من كبار أبناء قريش بينهم عبد الرحمن بن أبى بكر
 وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعيد بن العباس وعبد الله بن الزبير ،
 وقد انضم الى هذا الجيش جيش كبير آخر يعد عشرين ألفا من القوات
 العاملة فى مصر وسار الجيشان بقيادة ابن أبى سرح يجتاح الصحراء
 الغربية • ولقد شككا الاغريق والرومان دائما من صعوبة المواصلات
 فى صحارى أفريقيا الشمالية ، وانتقلت العلوى فيما بعد الى البريطانيين
 والامان والايطاليين ابان الحرب العالمية الثانية ولكن هذه المواصلات لم

تكن تؤلف مشكلة للعرب مع وجود الجمل حليفهم الطبيعي في الصحراء
اذ كانوا في زحفهم في الصحراء يمتطون الجمل ويقودون الجياد من
أعنتها الطويلة . وكان في مكنة الجمل أن يحمل بالاضافة الى هيجانه
ومتاعه ، العلف والماء لاطعام الجياد وسقيتها .

ويذكر القاريء ولا شك أن عمرو بن العاص دفع جيوشه بعدد
استسلام الاسكندرية الى شمال افريقيا حيث استسلمت له طرابلس .
ولكن يبدو أن المدينة عادت فارتدت بعد رحيله ودانت بالولاء من جديد
للبيزنطيين اذ قيل ان ابن أبي مرزوق عاد ففرض الحصار عليها ابان هذه
الحملة من جديد .

وكانت قرطاجنة القديمة عاصمة الشمال الافريقي وفيها اقام
جرجوريوس الحاكم البيزنطي عاصمته وبلاطه . وكانت صلاحياته تمتد
فتشمل ولو بصورة نظرية المنطقة الممتدة بين طرابلس وطنجة . وقد
حشد هذا الحاكم جيشا تقدم به لنجدة طرابلس . ويقول المؤرخون
العرب وهم مبالغون دائما الى المبالغة في ذكر عدد العدو أن جيش
جرجوريوس كان يعد مائة وعشرين الفا ، وأنا أعتقد أن تحريك مثل
هذا الجيش وتموينه بالماء والغذاء في شمال افريقيا وبوسائل النقل
التوافرة في القرن السابع عملية مستحيلة . ولا ريب في أننا نكون
أقرب الى الصديق والصواب لو قدرنا جيوش تلك الايام بعدد يتراوح
بين العشرين الفا والثلاثين ليس الا .

ولما كان العرب لم يبرعوا بعد في حروب الحصار ، فانهم سروا
ولا شك من احتمال اشتباكهم مع العدو في معركة صحراوية مكشوفة ،
اذ أن هذا الشكل من الحروب هو الذي أكسبهم حتى الآن أعظم
انحصاراتهم . وكان في قدرة البيزنطيين بوصفهم المسيطرين على البحر
أن يحافظوا على أنفسهم في قرطاجنة وطرابلس والمدن الساحلية
الآخري . ولكن العرب كانوا ينتشرون في المناطق السهلية الواقعة الى
الجنوب من قرطاجنة . ولا ريب في أن البربر الذين كانوا يؤلفون الجزء
الاكبر من أهل الارياف الذين تأثروا من غارات العرب كانوا يصرون على
خوض معركة فورية معهم . وقد سبق لنا أن رأينا في فصل سابق
العرب على حوض الفرات يستعملون الغارات السريعة بانتظام لارغام عدو
يرغب في أن يخوض حربا دفاعية على الخروج من حصونه وقتالهم .
ونشببت المعركة في سقطة التي يسمونها اليوم سبتلة ، وقد

استغرقت بضعة أيام وتروى لنا القصص الرومانطيقية كيف حاول جريجوريوس ايقاد شعلة الحماس فى أفئدة الشبان من رجاله فوجد بيد ابنته الجميلة الى الجندى الذى يقتل ابن أبى سرح قائد العرب . وقد يكون من الخطأ أن ننظر الى ابن أبى سرح على أنه مالى ذو كفاية ليس الا ، اذ يقال انه كان من أشجع الفرسان أيضا . ولكن يبدو أنه كان من المؤمنين بسياسة العقل والمنطق أكثر من ايمانه بالخيال ولم يكن يورى أن من واجب القائد العام أن يتولى قيادة الهجوم بنفسه . ويقال بأنه أوى الى خيمته عندما سمع بأن جريجوريوس قد وعد بمثل هذه الجائزة الضخمة ثمنا لرأسه .

ويذكر القارىء ولا شك أن الزبير كان من أولئك المسلمين وكان الرجل الذى قاد هجوم السلام عند اقتحام حصن بابليون ، كما كان عضوا فى هيئة الشورى التى اختارها عمر بن الخطاب لانتخاب خليفته . ويقال بأن عبد الله ولده كان شاهدا فى هذه المعركة وأنه احتج على غياب ابن أبى سرح عن القتال وأنه حثه على أن يقلب حيلة جريجوريوس رأسا على عقب بأن يعد بيد ابنة الأخير لآى جندى مسلم يقتل القائد الرومانى .

ولجأ العرب أخيرا الى خطة سوقية . ولعل مما يستلفت النظر أن المؤرخين العرب كثيرا ما يذكرون أمثال هذه المناورات التى يبدو انها كانت ناجحة دائما . فلقد كان العرب وما زالوا شعبا شديد الذكاء للغاية وحاضر البديهة دائما . يضاف الى هذا أن جيشهم لم يكن عريقا تقيده التقاليد وتحد من حريته ، وانما كانوا يحاربون على ضوء الطبيعة أما قادة جيوش الروم والفرس ، فكانت لهم آراء جامدة عن الطريقة التى تسير فيها الحروب ، وكانوا ولا شك عاجزين عن تكييف أساليبهم ليواجهوا علوا جديدا وعلى أرض مختلفة .

وكان قد انقضى على المعركة عدة أيام ، وكان الجيشان المتحاربان يقضيان الاصبحة والامسيات فى شكل اشتباكات ومبارزات فردية ومناورات . وعندما تحل الظهيرة وتشتد حرارة الشمس كان الفريقان ينسحبان الى خطوطهما . واتبع الفريقان ذات يوم عند الظهيرة اجراءهما المألوف وانسحب الجيشان الى معسكريهما للراحة ولسقاية الجنود والخيول . وكان الروم كالعادة قد رفعوا الاسرجة عن خيولهم ونزع الفرسان عنهم دروعهم عندما فاجأهم العرب بهجوم مفاجئ وغير متوقع وكانت المباغتة هائلة واحاقت بالاعداء هزيمة شنيعة قتل ابانها

جريجوريوس نفسه . وقيل ان قاتله كان عبد الله بن الزبير . ويبدو أن ابن أبى سرح اقترب خطأ في إيفاده ابن الزبير الى المدينة يحمل اليها أنباء النصر متيحاً له المجال لينسب النصر الى نصيحته وليدعى قتل قائد الروم . وتختلف الروايات لسوء الحظ في المصير النهائي الذي حل بابنة جريجوريوس الجميلة .

وعاد ابن أبى سرح ظافراً منتصراً الى مصر مثقلاً بالفنائم ومرسلاً الى العبودية عدة الوف من الأسرى . لكن الفتح لم تثبت دعائمه بعد كما لم تجر أية محاولة كما يبدو لاقامة ادارة حكومية في مقاطعة طرابلس . لكن الحملة لم تؤد على اى حال الى الرفع من سمعة عثمان بن عفان الخليفة الجديد وانما أدت الى العكس من ذلك تماماً . ويذكر القارئ ولا شك أن محمداً نفسه قد قضى بأن يكون خمس الفنائم التي تكسب في الحرب من نصيب الخزانة العامة أو بيت مال المسلمين ، وأن تقسم الأخماس الأربعة الباقية على الجنود . وقد سمح الخليفة الآن لابن أبى سرح بأن يحتفظ لنفسه بخمس الفئء اى بخمس حصة بيت المال ، وأن يبعث ما تبقى منه الى المدينة ، ولم يكتف عثمان بهذا بل انه راح تلبية لنصحاء السوء يسلم ما وصل من الفئء الى المدينة الى ابن عم آخر له يدعى مروان ليتصرف فيه بكامله ، وقد قدر لسوء التصرف هذا أن يلعب دوراً مهماً في المشاكل اللاحقة .



ويذكر القارئ ولا شك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد عين معاوية بن أبى سفيان أميراً على سوريا وكان معاوية هذا رجلاً ذا كفايات نادرة . وقد واجهته مشكلة الدفاع عن سوريا ضد الروم ، فأدرك أن ليس ثمة كبير خطر يخشاه من ناحية البر ، لكن معظم المدن الغنية والمناطق الكثيرة المحصوبة تقع على سواحل البحر المتوسط . يضاف الى هذا أن العنصر العربى لم يتسلل قط بنفوذه الى المناطق الساحلية كما كانت الحالة بالنسبة الى المناطق الواقعة على أكناف الصحراء . وكان البحر المتوسط لعدة قرون الطريق الرئيسة للامبراطورية الرومانية ثم للامبراطورية البيزنطية بعدها . وكانت جميع المقاطعات الرومانية تقوم على شواطئه باستثناء فرنسا الشمالية وبريطانيا . وكان سلطان الرومان يعتمد لمدة ستة قرون على القيادة البحرية في البحر المتوسط . ولم تكن هناك أية مراكب عربية قد ظهرت في وسط البحر . وما دام في وسع الاسطول البيزنطى

أن يمخر عباب هذا البحر دون أى اعتراض فإن سواحل سورية وفلسطين
ومصر لن تكون فى نجوة من الغارات أو من الغزو .

وكان معاوية أول من فهم هذه الحقائق وأدركها فكتب الى عمر
ابن الخطاب يطلب منه الاذن له ببناء اسطول عربى ، وارتعد الخليفة
العجوز، الذى رآينه يعرب عن اعتقاده بأن كل ما يصلح للجمل يصلح
للعرب ، من هذا الاقتراح الحديث الجريء ، وبعث الى فاتح مصر
عمرو بن العاص يسأله أن يصف له العمليات البحرية وراح عمرو
بما عرف عنه من براعة يصف فى رده المحاربين فى البحر على ظهر
السفينة بأنهم أشبه ما يكونون بمجموعة من الهوام تتعلق بقطعة خشب
تلعب بها الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وفزع الخليفة الحذر من
فكرة رؤية المحاربين العرب فى مثل هذا الوضع الشاذ والمزرى وكتب
فورا الى معاوية يمنعه منعا باتا من دفع أى عربى الى الحرب فى
البحر . (١)

فلما كان زمن عثمان بن عفان بعث اليه أخوه فتح الرضاع عبد الله
ابن أبى سرح يحثه على بناء اسطول للعرب ، وعاد معاوية وهو أموى
أيضا فكرر الطلب وسرعان ما أذن عثمان له ببناء الاسطول . ويبدو
أن معاوية وابن أبى سرح وهما رجلان معروفان بثاقب بصيرتهما
وعملية تفكيرهما قد تعاونوا فى هذه المهمة . وقد صدر اقتراح القيام
للمرة الاولى بعمليات برمائية مشتركة عن معاوية فقد كتب الى عثمان
يقول له ان قبرص قريبة جدا من ساحل سوريا حتى ان أهل هذا
الساحل يسمعون نباح الكلاب فيها . وحرى بنا أن نذكر أن عثمان
رفض فى المرة الاولى الاستجابة لطلب معاوية قائلا له انه كان قد شهد
ما رد عليه عمر رحمه الله حين استأذنه فى غزو البحر . وتبين من هذا
الرد أن عمر درج فى الأيام الأخيرة من خلافته على الاحتفاظ بنسخ من
مكاتباته مما يشير الى تقدم عظيم عن الأيام التى كانت الأوامر المتعلقة
بالاحداث العظمى تصدر شفوية . وأخيرا أصعد عثمان اذنه مترددا
محججا بعد أن قرأ المكاتبات المتبادلة السابقة . وقد جاء هذا الاذن

(١) يقول مؤرخو العرب ان عمر كتب الى عمرو بن العاص يقول له : صف لى
البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه لكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه
خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب وان تحرك أراغ القبول ، يرداد فيه اليقين قلة
والشك كثرة هم فيه كدود على هود ، ان مال غرق وان نجا برق لا للما قراء
عمر كتب الى معاوية : لا والذى بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا .

(العرب)

مشروطا بالا يحمل معاوية في ركوب البحر الا من يندب نفسه متطوعا لذلك وأن يحمل معاوية معه امراته . والمفروض أن يكون الهدف من هذا الشرط تثبيت همة معاوية عن القيام بمثل هذه المغامرة الخطرة وانضم ابن ابي سرح في عام ٦٤٩ الى الاسطول السورى الضخم بأسطول اعده في مصر . وكان بحارته من المصريين بينما كان محاربوه من العرب . والمقصود من هذا أن مهمة البحارة اقتصرت على التجديف وعلى قيادة المراكب ولم يكن لها شأن في القتال . ولم يكد العرب ينزلون الى البر في الجزيرة ، حتى كان حاكمها الرومانى يعرض التسليم قبل أن ينشب أى قتال . وعقدت معاهدة غريبة بين الفريقين نصت على أن يدفع أهل الجزيرة الى العرب جزية سنوية قدرها (٧٢٠٠) دينار وهو عين ما كانوا يدفعونه الى الروم . وتضمن الاتفاق بندا ترك لأهل قبرص الحق فى مواصلة الدفع الى الحكومة البيزنطية فى الوقت نفسه . وهكذا أصبح أهل قبرص بعد توقيع الاتفاق يدفعون الجزية فى آن واحد الى المدينة والقسطنطينية . وأقرت بنود أخرى بحيااد الجزيرة فى حالة نشوب القتال بين العرب والروم ولكنها تركت لأهل قبرص الخيار فى اطلاع العرب على حركات الروم البحرية . ولا ريب فى أن المفاجأة الكاملة التى حققها مانويل فى هجومه على الاسكندرية بينت للقادة العرب ضرورة استخدام المخابرات لمعرفة حركات أسطول العدو .

وأرى لزاما على أن أوصل هنا الحديث عن العمليات البحرية حتى ولو خرجت قى الحديث عنها عن نطاق التسلسل الزمنى المتضمن ، ففي عام ٦٥٢ أى بعد ثلاث سنوات من احتلال جزيرة قبرص دفع الروم بأسطول ضخم الى البحر ظهر أمام الاسكندرية مستهدفا كما يبدو احتلال المدينة من جديد ، لكن العرب كانوا قد حصنوا على معلومات مسبقة فى هذه المرة ، وراح ابن ابي سرح يجمع كل ما أمكنه من مراكب فى مصر أو على السواحل الغربية منها فى شمال افريقيا . وخفتت الرياح فى المساء وقضى الاسطولان الليل وهما راسيان بعيدا عن الساحل . ودارت معركة حامية الوطيس فى اليوم التالى . واختلط الحابل بالنابل بين الاسطولين ، وتماسكت المراكب وتشابكت الأيدي فى قتال يائس استخدمت فيه السيوف والخناجر . وأخيرا أوقف الروم المعركة ، وولوا الادبار عائدين باتجاه الشمال بعد أن أدركوا عجزهم عن النزول الى الساحل ، لكن الاسطول العربى لم يحاول مطاردتهم على أى حال وان كانت الايام التى كان فيها الاسطول البيزنطى يستطيع

أن يمخر عباب البحر وأن ينزل جنوده حيث شاء دون أن يعترض طريقه أحد قد انتقضت إلى غير رجعة . وقد يكون ابن أبي سرح من الجشعين الطامعين في المال وفي جمع الثروات وفي ابتزاز أكثر ما يمكن من المصريين السيئ الطالع إلا أنه مما لا شك فيه ولا جدال أنه في معركته مع جريجوريوس في شمال أفريقيا وفي بنائه للأسطول وفي معركته البحرية أمام الاسكندرية قد أقام الدليل على أنه قائد قدير ورجل ذو كفاية عظيمة .

ويذكر القارئ ولا شك أنه عند ما احتل معاوية قبرص وقع معاهدة مع أهلها سمحت لهم بالبقاء على الحياد في حالة تجدد الحروب بين العرب والروم . ويبدو أن الاتهام قد وجه إليهم الآن بأنهم ساعدوا الأسطول الروماني في معركته الأخيرة . ولهذا عاد معاوية في عام ٦٥٣ إلى غزو قبرص للمرة الثانية بقوة ضخمة . وعوملت البلاد هذه المرة على أنها معاوية وقتل عدد كبير من أهلها بينما نزل عدد ضخم آخر منهم إلى حياة الرق والاسر . على أي حال أمر معاوية بعقد هذا العمل التاديبى بإعادة العمل بالاتفاق الأصلي مع بقاء حامية عربية في الجزيرة قوامها اثني عشر ألف رجل .

ووقعت معركة بحرية حاسمة أخرى أسماها العرب ذات الصواري وقد دارت على مقربة من ساحل ليقيا وشنها الإمبراطور الروماني نفسه . وقد تحطم الأسطول الروماني بعد معركة ضارية واضطرت فلوله إلى الانسحاب . وقد أضاع الرومان في هذه العمليات الحربية التي يرجع الفضل فيها إلى معاوية سيادتهم على البحر وكانت خسارتهم للسيطرة الحربية أكبر ضربة منى بها خلفاء هرقل الضعفاء ولو كان الإمبراطور العجوز لا يزال على قيد الحياة لما قبل هذه الخسارة على هذا النحو من الضعف والجبن ، فلقد كانت سيطرته على البحر الأسود هي التي مكنته مدة أربع سنوات من الحفاظ على جيشه في أرمينيا بينما كان جيش الفرس يربط فعلا خارج أسوار القسطنطينية . وكانت استعادة سوريا ومصر وفلسطين قيد الاحتمال طالما أن سيطرتهم قائمة على البحر المتوسط . أما وقد حقق العرب هذا التفوق البحري أيضا فان خسارة الروم لآماراتهم السابقة أصبحت نهائية ولا ردة لها وهو ما توقعه معاوية وأدركه الإدراك .



ثم فتح بلاد فارس بأكملها في عهد عمر بن الخطاب . ولكن كما

نشبت الثورة العامة في الجزيرة العربية ممثلة في ردة القبائل بعد وفاة النبي فان مقتل عمر بن الخطاب كان بمثابة اطلاق الاشارة للثورة العامة في جميع ربوع فارس .

وعلى الرغم من أن يزدجرد كان لا يزال على قيد الحياة الا أن حكمته وسلطته كانتا قد زالتا مما قد أدى الى عدم الترابط بين الثورات لعدم وجود سلطة مركزية تنظم أمرها ، ولكن على الرغم من هذا الانتقال الى الترابط والتعاون ، فان الثورات ظلت لسنوات عدة مصدر خطر يهدد السيادة العربية كلها واستمرت الحروب المتشابكة والمختلط حابلها بنابلها تدور محتدمة في أنحاء فارس كلها عدة سنوات بين ارتقاء عثمان الخلافة في عام ٦٤٤ وبين عام ٦٤٩ ولم يحقق العرب فيها كما يبدو كبير نجاح .

وكان أمير الكوفة مسئولاً عن سير العمليات الحربية في شمال فارس من منطقة جرجان حتى أذربيجان بينما كان أمير البصرة مسئولاً عن جنوب فارس وجنوبها الشرقي حتى حدود السند . وكان هناك نحو من عشرة آلاف مقاتل من جيش الكوفة يحاربون في شمال فارس منهم ستة آلاف في أذربيجان وأربعة آلاف في الري . وكان بالكوفة آنذاك أربعون ألف مقاتل يصيب الرجل منهم غزوة في كل أربع سنوات مما أدى الى اشتراكهم في حروب الجبهة بالتناوب بمعدل عشرة آلاف في كل عام . ولا ريب في أن ما عاناه أمراء الكوفة في بدء خلافة عثمان من شروء الدسائس والمؤامرات كان سبباً في تأجيل استقرار الأمور في فارس الى أمد طويل .

ويذكر القاري ولا شك أن عمر بن الخطاب كان قد عين المغيرة بن شعبة - أمير البصرة السابق الذي أقاله عمر لتهمة وجهت اليه - أميراً للكوفة ولكن عثمان عاد في عام ٦٤٥ أي بعد سنة من توليه الخلافة فأقال المغيرة وأعاد للكوفة أميرها السابق سعد بن أبي وقاص فاتح العراق ، وأحد رجال الشورى الذين اختاروا عثمان خليفة للمسلمين . لكن النزاع ما لبث أن قام بعد انقضاء عام بين سعد وبين القائم على أمر الحجاج في الكوفة وهو عبد الله بن مسعود أحد كبار الصحابة الأوائل . ويبدو أن سعداً كان قد اقترض مالا لأجل من بيت المال . فلما حل الأجل لم يتيسر لسعد السداد واشتد الخصام بين الرجلين الى أن تحول الى فضيحة ، فاستدعى الخليفة سعداً من أمارته وولى الكوفة بدلاً منه في عام ٦٤٦ أخاً غير شقيق له يسمى الوليد بن عقبة . وكان عقبة قد وقع في أسر المسلمين في بدر وأمر النبي بقتله . وعندما صرخ الرجل

المحكوم عليه بالموت فزعا ٠٠٠ « ومن للصغار بعد موتى ؟ » « رد النبي ببرود قائلا : نار جهنم » وهكذا كان أمين الكوفة الجديد أحد هؤلاء الصغار الذين بشرهم. النبي بنار الجحيم وكان من سوء حظ الوليد أنه عرف بشرب الخمر (١) وكان النقد الموجه الى عثمان على تعييناته أخذاً في التزايد .

فأقد عين أخاه في الرضاع عبد الله بن أبي سرح أميرا على مصر مع أن النبي كان قد أعلن أن جزاءه الموت لردته عن الاسلام ، وكان قد عين أخاه غير الشقيق الوليد أميرا على الكوفة مع أن النبي كان قد تنبأ له بالجحيم . وكان معاوية وهو ابن عم لعثمان أميرا على سوريا وأن كان عمر هو الذي اختاره لهذا المنصب ، وكان جديرا به لما أثبتته من كفاية بالغة . ومع ذلك فقد انتشرت الشائعات تشوبها المرارة بأن ليس في

(١) يختلط على كل من يقرأ تواريخ العرب في موضوع الوليد هذا فنعلم كثيرون لا يشبتون رواية المؤلف من تنبؤ الرسول له بنار جهنم ، وقد تكون هذه الرواية مختلفة وضعها اعداء عثمان ، كما أن المؤرخين يختلفون في تحديد شخصيته وسلوكه فنعلم من يصفه بالطيبة ومنهم من يؤكد فيه صفة اللسق وأرى أن أثبت هنا الرواية التي توصل اليها العلامة الحقيق المرحوم الخضرى اذ قال : ولّى عثمان ، الوليد على الكوفة وكان على شرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب (لو كان الوليد على هذا النحو من السوء كما يقول المؤلف ولو صح أن النبي كان قد بشره بنار جهنم لما ولاه عمر امانة في عهده اذ لا تربطه بعمر قرابة أو صلة) . ولما قدم الوليد كان محببا الى الناس ورفيقا بهم وحدث في زمنه أن شبابا من أهل الكوفة تقبوا على رجل داره وقتلوه وكان له جار قد اشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤا وقبضوا عليهم وقيم زهير بن جندب الأزدي ومونع بن أبي موزع الأسدي وشبل بن أبي الأزدى فحوكموا وقيمت عليهم جريمة القتل فقتلوه واضطعن آبائهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سمار يسمررون عند أبي زيد الطائي وهو نصراني أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى أت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يماثر أبا زيد الخمر فذاؤوا ذلك بين الناس حتى شاع على السنتهم فتوجهوا الى ابن مسعود فأخبروه بذلك ، فقال ابن مسعود من استتر هنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فعابته في ذلك وقال : أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موثودين بما أجبت أى شيء استتر به ، إنما يقال هذا للغريب لتلاحيا والترقا على غضب ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب الى المدينة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبوهما للشهادة على عثمان وسهما نثر يرقم عثمان ممن قد عزل الوليد من الاعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسالهما كيف رأيكما ؟ فلا كما من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيم الخمر فقال عثمان ما يقيه الخمر الا شاربها فأرسل عثمان الى الوليد فاقدمه المدينة وأتى على بوجوب حسده فهدوه حد شارب الخمر وهزله عثمان .

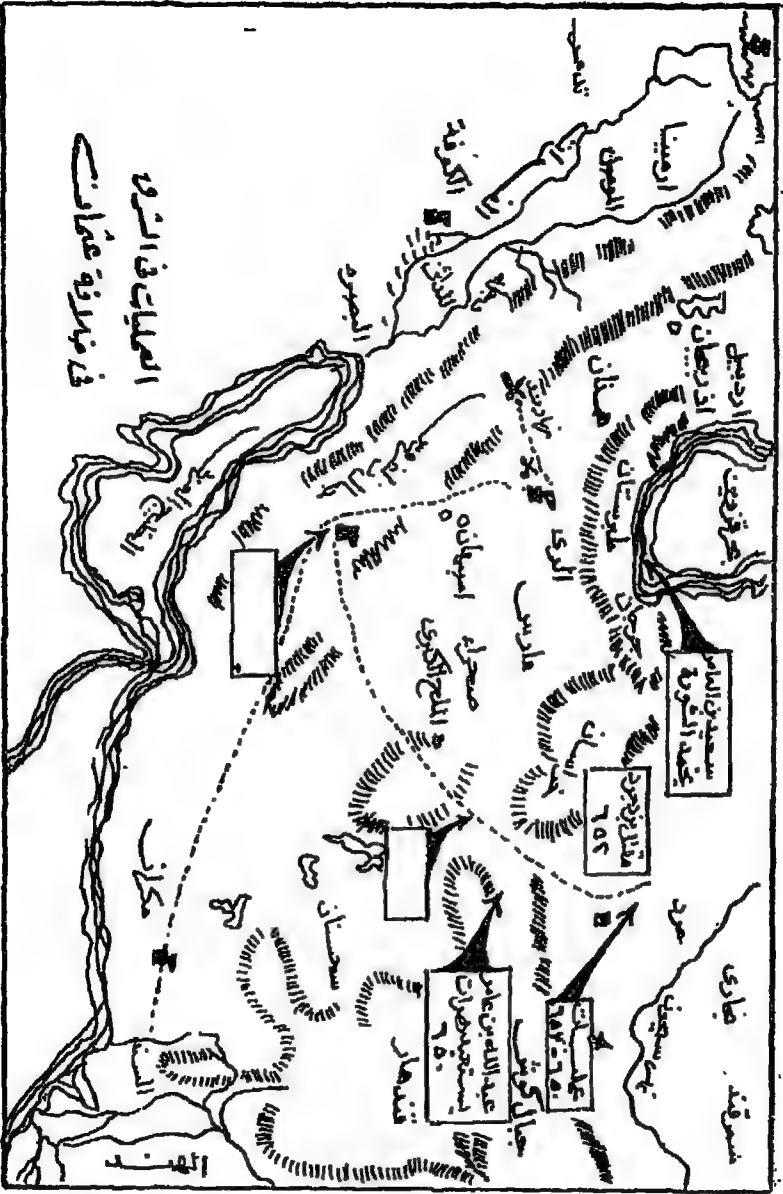
(العرب)

وسمع غير الامويين وغير اقرباء الخليفة ان يطمعوا في الوصول الى منصب عال .

ويذكر القاريء ولا شك ان ابا موسى الاشعري كان قد قضى امدا طويلا في اماره البصرة وكان قد نشط كل النشاط في حملاته ضد المقاومة الفارسية في مقاطعة فارس . ولكن ضعف عثمان وتحيزه لاقاربه كانا قد ظهرا بوضوح للعيان بصورة متزايدة وبدأ النظام ينهار في كل مكان . وهدد الجند في البصرة بالعصيان ووافدوا رسلا منهم الى المدينة يطلبون من الخليفة عزل قائدهم العام . ووافق عثمان مستسلما لطلبهم واستدعى ابا موسى من البصرة وعين بدله بعد فترة من التردد والاحجام حاول فيها الجند ان يختاروا قائدا منهم شابا يدعى عبد الله بن عامر . ولم يكن الامير الجديد من بنى امية او قريبا لعثمان فحسب ، بل وكان ايضا في الخامسة والعشرين من عمره . واضطر الخليفة بعد قليل الى عزل الوليد بن عقبة عن اماره الكوفة لثبوت تهمة احتساء الخمر عليه ، وعين بدلا منه شابا يدعى سعيد بن العاص كان من الامويين ايضا وكان ابوه من قتلى قريش في بدر اثناء حربهم للمسلمين .

وعلى الرغم مما اثارته تعيينات عثمان من سخط فان العرب سرعان ما بداوا اخيرا في التغلب عن طريق هذه التعيينات على الثورات في فارس . فقد جند الاميران الامويان الشابان عبد الله بن عامر في البصرة وسعيد بن العاص في الكوفة جيشين ضخمين زحفا بهما شرقا . وتمكن عبد الله بن عامر بعد اخضاع مقاطعة فارس من التقدم عبر كرمان الى خراسان واسترجع العرب في عام ٦٥٠ كلا من مدينتي هراة ومرو . ثم عبر نهر المزاب (Oxus) وهزم العصاة المحليين في معركة عظيمة واحتل مدينة بلخ واجتاز بعد ذلك جبال الهندكوش واحتل مدينة كابل بينما تقدمت قوات اخرى عبر مكران حتى وصلت الى ضفاف نهر السند (الاندز) الواقعة في الباكستان الحالية .

وكان سعيد بن العاص في غضون ذلك تواقا الى منافسة ابن ابي عامر فسار على رأس جيشه من رجال الكوفة وأخضع الفتن في طبرستان وجرجان الواقعتين على الطرف الجنوبي من بحر الخزر ، ولم يعد الوضع في الامبراطورية الجديدة الى الاستقرار الا في عام ٦٥٢ أي بعد انتضاء ثمانى سنوات على تولية عثمان الخلافة ، دفعت الحدود ابانها الى الامام في الشرق والشمال بعيدا عن تلك التي كانت قائمة في عهد عمر بن الخطاب .



العمليات في الشرق
في منطقة عثمان

وكنّا قد ذكرنا من قبل أن كسرى يزدرجرد ، انسحب بعد معركة نهاوند الى مدينة الري وعندما هدّدت قوات نعيم بن مقرن المدينة في عام ٦٤٣ انسحب منها يزدرجرد الى اصفهان ومنها الى اصطخر المدينة القديمة التي كانت تسمى بوسوبوليس والقائمة في جبال فارس ، وعندما هاجم أبو موسى هذه المدينة فر منها يزدرجرد عبر كرمان وخراسان الى نهر المرغاب حيث بعث برسالة الى امبراطور الصين يستنجد فيها على حرب العرب واستعادة مملكته . ويقال بأن مرزبان خراسان استقبله استقبالا حسنا وأعرب له عن ولائه وإخلاصه ، وجاء نيزك طرخان خاقان الترك لزيارته وقدم اليه الهدايا والأموال ولكن المصائب لم تخفف من غطسة الملك اللاجيء الفار وكبريائه ، فبعد أن أقام الخاقان نحوا من شهر يخلع على الملك ويكرمه خطب منه ابنته ، فأحفظ ذلك يزدرجرد وقال اكتبوا اليه انما انت عبد من عبيدي فما جراك على أن تخطب الي ؟ واقترب الملك خطأ ثانيا خاليا من كل كياسة مع المرزبان الذي أحسن استقباله وأكرم ماواه فأمر بمحاسبته وكتب المرزبان الى نيزك خاقان الترك يقول : هذا الذي قدم مغفولا طريدا قمّنت عليه ليرد عليه ملكه ، فكتب اليك بما كتب . وأقبل نيزك الفاضب في عام ٦٥٢ على رأس جيشه من الترك لمحاربة يزدرجرد فهزم قواته وبدد شملهم ونهب معسكره وفر الملك الى مدينة مرو التي أغلقت في وجهه أبوابها ولم تسمح له بدخولها . وفقد الملك اليأس عقله ونزل عن دابته ومشى حتى دخل بيت طحان على نهر المرغاب خارج المدينة . وتقول بعض الروايات أن الطحان قتل يزدرجرد طمعا في تاجه وخاتمه اللذين كانا لا يزال يحملهما معه . وتقول روايات أخرى أن المرزبان السناخط عليه ، أرسل بعض رجاله فاغتالوه وتجمع الروايات كلها على أنه عرئ من ملابسه بعد قتله وقذف بجثته في ماء النهر . والمعتقد أن الترك حملوا ولده فيروز معهم وزوجوه بفتاة منهم وعاش حياته معهم . وهكذا كانت هذه النهاية المفجعة لآخر ملوك الساسانيين الذين حكموا فارس أكثر من أربعمئة عام . وهكذا كان بطن النهر ماوى حفيد كورش الفاتح الذي قرعت جيوشه ابواب القسطنطينية ، حيث مات هذه الميتة المزرية واختفت الديانة الزرادشتية التي ظلت دين الدولة الرسمية قرونا طويلة من الوجود باستثناء بعض المجوس الذين يعيشون حتى اليوم في مدينة بومباي في الهند . والذين ما زالوا يؤرخون تقويمهم اعتبارا من موت يزدرجرد آخر الأباطرة الساسانيين الذين تجسدت فيهم أمجاد أورمزد .

وانتهت بموت يزدرجرد في عام ٦٥٢ آخر مقاومة رسمية في فارس

وقدر لهذه البلاد أن تقضى ثمانية قرون قبل أن تتمكن من تتويج
امبراطور خاص بها ففي عام ١٤٩٩ تمكن الشاه اسماعيل من تأكيد
استقلال بلاده وتأسيس أسرة اسفنديارى « الملكية » .



ويجدر بنا أن نتذكر التوسع المفاجئ للسلطان العربى وشموله
سوريا والعراق وفارس ومصر قد وضع الخليفة عمر بن الخطاب وجهه
لوجه أمام ضرورة اتخاذ قرار سياسى هام وخطير فى قضية أساسية هى
هل يسمح للعرب المنتصرين فى امتلاك الارض فى البلاد المحتلة والتزواج
والاندماج مع الشعوب المحتلة فى العراق وسوريا ومصر او هل يبقى
على العرب معزولين ومنفصلين كشعب سيد تخضع له الشعوب المهزومة
والتابعة ؟ وقد اختار السبيل الثانية فسمح للشعوب المحتلة بأن تظل
مالكة لأراضيها الزراعية شريطة أن تعمل وأن تؤدى الخراج والجزية . وقرر
أن يكرس الشعب العربى النبيل نفسه لمهمة القتال ضد الكفرة تدعوه
الاموال الضخمة التى يجيبها من الشعوب الخاضعة . ولقد سبق لنا
أن رأينا عمر بن الخطاب يلحف بطاب المزد من جباية مصر قائلا
لعامله ان عليه ان يحارب الناقة التى تدر الخير للمسلمين وذلك فى
تحديد سياسته تجاه الشعوب المحتلة المهزومة .

وكان من المستحيل عنصريا الحفاظ على نقاء الدم العربى . فلقد
سمح الاسلام لاتباعه باقتناء الاسيرات من نساء الكفرة كجوار واماء ،
وهكذا وزع الفاتحون الألوف بعد الألوف من سبايا البلاد المحتلة .
وقد ارتقت الكثرات منهن الى مرتبة الزوجات لا سيما اذا ولدت
الواحدة منهن غلاما ذكرا لسيدها . فآنذاك تصبح فى مرتبة الزوجة
الحرّة . وهكذا لم يمض زهاء جيل على العرب فى سوريا وفارس ومصر
حتى كان الدم العربى قد اختلط بالدم الغريب ، وأصبح عرب تلك
البلاد نصف أعراب . لكنهم ظلوا من الناحية الاجتماعية يؤلفون طبقة
ارستقراطية عسكرية مميزة . تعيش فى مناطقها العسكرية الخاصة
معزولة عن الشعوب التابعة ، وتحبسا كما رتب لها عمر بن الخطاب ،
على الرواتب من بيت المال .

وظل هذا العنصر العربى ، يظهر فى حملاته العسكرية ، نفس
الطاقة على احتمال المشاق والصبر على القتال والتجراة النادرة ، التى
مكنت العرب فى نحو من ربع قرن من أن يصبحوا سادة امبراطورية
عظيمة . لكن هذه القواعد العسكرية أخذت تضطرم فى أيام البطالة

بالدسائس والتحزبات والاضطراب . ونشأت هذه الخلافات عن ثلاثة عوامل مختلفة . أول هذه العوامل ان عامة العرب المسلمين وأبناء القبائل الأخرى ، أخذت تنقم على قريش غطرسها وكبرياءها . وأخذ هذا الشعور في التزايد ابان خلافة عثمان ، وذلك بسبب تعيينه لاقاربه في جميع المناصب الهامة ، وصحيح ان معظم القادة الكبار كانوا في أيام أبى بكر وعمر من قريش ، الا ان بعض القادة البارزين كانوا أيضا من أبناء القبائل الأخرى .

ويمكن تلخيص العامل الثانى في انقسام قريش نفسها الى حزبين رئيسيين حزب بنى أمية وحزب بنى هاشم ، مع تفرق بطون قريش الأخرى على هذين الحزبين وقد وسعت سياسة عثمان في التشيع لاقاربه وتعيينهم في المناصب الكبرى من شقة هذا الخلاف . وكان الدين نصيرا قويا في هذا الخلاف لبنى هاشم ، اذ انهم آل بيت النبى ، بينما كان بنو أمية أشد خصومه وأعدائه . يضاف الى هذا ان أخلاق الامويين انفسهم ، اثرت كثيرا في هذا الموضوع . فلقد راينا الوليد أخا الخليفة غير الشقيق يحاول ان يؤم المصلين بعد ان مينه أخوه اميرا على الكوفة ، وهو ثمل .

اما العامل الثالث ، فهو ان ولاء العرب في الجاهلية ، كان يتجه بصورة رئيسية الى القبيلة . وقد انساهم الحماس الدينى فترة من الزمن ولاءاتهم القديمة ولكنها ما لبثت أن عادت الى الظهور ابان حياة البطالة والكسل فى القواعد العسكرية . ولم يقتصر الخلاف على القبائل وعلاقاتها ببعضها البعض فحسب ، بل تجزأ العرب انفسهم الى مجموعتين ، شمالية وجنوبية فعدنان تقابل قحطان ، وتحت كل اسم من هذين الاسمين ، تنطوى مجموعة كبيرة من القبائل .

وعلىنا ان نقر هنا بان سياسة الخليفة السابق عمر بن الخطاب ، بلدت بدور هذا الافتقار المتزايد الى الانضباط . فلقد ضرب المثل بعزله أمراء الانصار أو قادة الجيوش لمجرد شكاوى تصل اليه من عامة الناس عليهم . ومن الصعب علينا أن نتجنب الانطباع الذى تولد لدينا بان عمر كان كثير الشكوك فى مساعديه ، وكان يغار منهم ولذا كان يرحب بأية شكاوى تصل اليه ، ليتخذ منها مبررا لعزلهم . (١) ولكن شخصية عمر كانت من الضخامة ، وكانت تقواه ونزاهته من الواضح

(١) سبق لى ان رددت في هامش سابق على ادعاء مماثل للمؤلف ، واكدت ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان من قوة الشخصية ، على درجة عظيمة تبعه منه أى =

بحيث استطاع أن يسلك هذا السبيل دون أن يتأثر النظام والانضباط في عهده تأثراً جدياً . ومع ذلك فإن إجراء عزل القسادة نتيجة شكاوى الجنود ، سابقه خطرة كل الخطورة ، ورثها عثمان السيئ الحظ . ولم يكن عثمان صاحب شخصية قوية ، كما لم تكن دوافعه دائماً خالية من الغرض كل الحلو . (١) فبالإضافة إلى تشجيعه لأقاربه ، كان يعيش حياة رجل ثرى ، ويقال بأنه كان يميل إلى قبول الهدايا من عماله في الأمصار (٢) .

وقد قدر لهذه العوامل أن تمزق الحكم الدينى الحماسى الذى أقامه النبى وأن تعرض وجود الامبراطورية العربية نفسها الى الخطر .

* * *

تواريخ بارزة

	بدء خلافة عثمان	الثالث من نوفمبر
٦٤٤	(تشرين الثانى)	
٦٤٥	خريف عام	
٦٤٦	صيف عام	
	نزول الروم فى الاسكندرية	
	استعداد عمرو بن العاص الاسكندرية	
	غزو طرابلس فى افريقيا بقيادة	
٦٤٧	عبد الله بن أبى سرح	
٦٤٩	احتلال قبرص	
٦٥٠	احتلال اصطخر	
٦٥٢	معركة الاسكندرية البحرية	
٦٥٢	موت يزيدجرد الثالث	
٦٥٢	استقرار الوضع فى فارس	
٦٥٣	معاوية يغزو قبرص للمرة الثانية	

= تفكير في قلق من أى عامل أو أمير أو قائد ، مهما علت منزلته . ومن هنا يكون استنتاج المؤلف بكامله خاطئاً ولا صحة له مطلقاً .

(١) اعتقد أن هذه الرواية التى جاء بها المؤلف ، والتى جعل منها ذريعة لاثام عثمان رضى الله عنه بالغرض ومخالفة قواعد النزاهة ، روايات مغرسة ، حتى ولو وردت في بعض كتب العرب ، ولا ريب في أن روايتها ، من الذين تحيروا ضد عثمان . وان كان هذا لا ينفي عنه انه استعمل أقاربه في امارة الأمصار .

(٢) هذا يتناقى مع ما عرف عن عثمان من ثراء قبل الاسلام ، وقد روى التاريخ انه تنازل من الكثير من ماله للمسلمين في ساعات المعركة .

(العرب)

شخصيات مشهورة

عثمان بن عفان	ال خليفة الثالث
أبو موسى الأشعري	قائد العرب في فارس
عبد الله بن أبي سرح	أمير مصر الجديد
مناويل	قائد الروم عند إعادة احتلال الاسكندرية
مروان	ابن عم عثمان ، تلقى خمس الفنائم من افريقية
معاوية بن أبي سفيان	أمير سورية
سعيد بن العاص عبد الله بن عامر	أميران شهابان من الامويين أعادا الاستعراء في فارس

النار تحت الرماد

((يالها من سقطة أيها المواطنون ...
شملتنا جميعا ... أنا وأنتم ...

بينما كانت الحياة تتزعزع فوق رموسنا
لقد انتقلت سلطة الحكم الى الوحوش الكاسرة
وفقد الناس عقولهم))

شكسبير - من مسرحية يوليوس قيصر

« قتل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن
خلده كان معلورا » .

جلال الدين السيوطي - في كتابه تاريخ الخلفاء

((عجز عثمان في شيخوخته الطاعنة في السن ،
وخلقه الضعيف عن احتمال أعباء الامبراطورية الثقيلة
وما فيها من فتوحات ... وكان الخليفة قد فقد
الحارس الوحيد لسبب فيه وهو احترام المسلمين
وثقتهم ... وراح الخليفة الوقور الذي تخلى عنه
أولئك الذين استغلوا بساطته ، ينتظر بانسا . . .
اقتراب موته)) .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

بلغ عثمان في عام ٦٥٤ الثمانين من عمره . وكان عند توليه الخلافة قبل عشر سنوات . اكثر دنوا الى افئدة الناس من سلفه عمر . ولم يكن هناك من يشك أبدا في ورعه وتقواه الأصيلين ولا في اخلاصه للاسلام، وجهه لنبيه . يضاف الى هذا ، انه اثبت في أكثر من مناسبة وبمختلف السبل والوسائل حماسه لدينه . وكان القرآن الكريم قد دون لأول مرة في خلافة عمر ، ولكن بعض الخلاف ظهر في طريقة جمعه في النسخ المختلفة ، فأصدر عثمان أمره باعادة جمعه من جديد وعندما تم جمع القرآن ، بلل عثمان من الجهد والصبر والحيوية ما مكنه من جمع كافة النسخ الأخرى المتداولة واثلافاها . وتم عن هذا السبيل الاحتفاظ بنسخة واحدة من القرآن حتى يومنا هذا .

وكانت النقمة الشعبية النامية غير موجهة الى عثمان نفسه بقدر ما هي موجهة ضد الامراء الذين اختارهم لادارة الامصار ، وعندما اتهم بالمحاباة لأقاربه ، رد على متهميه بأن الله تعالى أوصى بصلة ذى القربى - وان هذا هو ما فعله على وجه التحديد ، ومضى الى أبعد من هذا فوجه النقد الى أبى بكر وعمر ، لانهما أهملأ أهلها ابان خلافتهما ، ولا ريب في أن هذه النقطة مهمة للغاية ، اذ أن هذه المسألة لم تقرر ولم يبت فيها حتى يومنا هذا . فنحن في بريطانيا مثلا نعتبر ولا شك أن الولاء للدولة يجب أن يوجه كل ما يعمل موظفوها حتى ولو حملهم ولاءهم هذا على الاضرار بمصالح اقربائهم . وقد يمضى الضابط منا الى الخارج للعمل في خدمة الدولة ، ويقضى عدة سنوات ، مهملا زوجته في الوطن ، وتاركا تعليم أطفاله دون رقابة أو توجيه . أما في الشرق ، فهناك من يدعى ان ولاء الانسان الاول يجب أن يكون لبنية وأسرته . أولا يدين بالتزامات اكبر لزوجته وأطفاله ، حتى ولاطفال اخوته أو أخواته ، منه لالتزاماته الى منظمة معنوية وبعيدة عنه ؟ وقد تكون هذه النقطة قابلة للحوار والجدل ، ولكن مثل هذه الحجج ، لا يمكن تطبيقها بشيء من الاقتناع على النظام الدينى الاسلامى المبكر حيث لم تكن الدولة مجرد منظمة معنوية ، بل كانت نظريا على الاقل الاداة التى اختارها الله . وليس في امكان أية سلطة أن تبرر تفضيل المصالح المادية للأقارب على خدمة الله وطاعته .

وقد أساء افتقار عمال عثمان الواضح الى التقوى ، وكونهم
أو كون آبائهم أشد أعداء الرسول فى الماضى الى الكثيرين من المسلمين
المخلصين فى مكة والمدينة وكان عدد الباقين من صحابة الرسول لا يزال
كبيرا ، بالإضافة الى محاربى بدر واحد أو الذين بايعوا النبى تحت
الشجرة فى الحديبية . وقد حز فى نفس هؤلاء جميعا أن يروا دولة
الإسلام الدينية يحكمها أعداء الرسول اذ ينعمون فى هذه الخيرات
الدنيوية ، التى هى من حق المؤمنين الصادقين وحدهم .

وكنا قد ذكرنا قبل قليل اسم عبد الله بن مسعود ، وذكرنا انه
اشتبك فى شجار فى الكوفة مع أميرها سعد بن أبى وقاص ، مما أدى
الى خلعه من منصب الامارة وكان عبد الله بن مسعود هذا الرجل الذى
يتولى خدمة رسول الله فى المدينة ، وكان تبعا لذلك يفخر دائما بأن
فى وسعه أن يتلو القرآن الكريم تماما كما سمع النبى يتلو آياته . وقد
جاءت الصورة التى جمعت بأمر الخليفة عثمان ، مختلفة بعض الاختلاف
فى ترتيب السور عن تلك التى يرويها ابن مسعود ، مما أثار حفيظته .
ويقال أن عثمان رد على اعتراضاته ردا قاسيا ، مما أكسبه عدوا آخر
كبير النفوذ . وفى الوقت نفسه قام هناك من اعترض على اطلاق عثمان
للمصاحف السابقة قائلا ان كلام الله لا يجوز احراقه مطلقا .

وتبين لنا قصة أبى ذر الغفارى الشعور الذى أحس به المسلمون
المخلصون تجاه عهد عثمان . فلقد كان هذا الرجل من أوائل المسلمين،
وقضى حياته كلها ، ناسكا متقشفا زاهدا فى الدنيا . وراح الآن فى دمشق
أولا وفى المدينة لاحقا يعظ الناس بالابتعاد عن هذه الانحرافات الخلقية
التي شرعت فى الظهور فى البلاد . فلقد أخذ الناس فى سورية وفى العراق
وفى المدينة أيضا وبينهم عدد من كبار المسلمين يعيشون الآن فى قصور
من المرمم والرخام تحيط بهم الجوارى والعبيد ويلبسون أغلى الحلل
ويأكلون أفخر الأكل ، وليس ثمة من ريب أن أبى ذر كان محقا كل الحق
فى قوله بأن هذا الثراء وذلك الترف قد عملا عملهما فى تحطيم الفضائل
العربية الصلبة والمتقشفة . ولكن حکام الامبراطورية أخذوا يدعون ان
اقواله تحمل معنى تحريض الناس على الثورة ، ولذا أمر عثمان بإبعاده
الى واحة نائية فى قلب الجزيرة العربية . ولم يمض عليه عامان فى منفاه .
حتى كان قد توفاه الله فى أشد حالات البؤس والفاقة . وظل الناس
يقصدون ذكره ، على أنه ولى من أولياء الله الصالحين ، وسرعان ما نار
أهله من بنى غفار ، يطلبون الثأر له .

ولم يكن عثمان لدينا ضعيفا فحسب ، بل وكان أحيانا عنيدا
ولا يحسن مصانعة الناس وعلى الرغم من انه كان على استعداد لمزول
اى من أمراء الانصار أو قادة الجيوش ، اذا لم يرض الناس عنه ، الا انه
لم يكن ليندعن لأى ضغط مهما اشتد لاقالة الامراء من أقاربه الامويين .
ولا ريب فى انه كان محقا فى بعض الحالات فى رفض الطلبات التى توجه
اليه ، وكانت الاجراءات التى اتخذها نافعة ومفيدة . وقد كرس شطرا
كبيرا من عنايته ومن أموال الدولة لتوسيع الحرمين الشريفين فى مكة
والمدينة وتجميلهما لكن الناس ما عادوا فى أخريات أيامه ليرضوا عن اى
عمل يقوم به مهما جل وعظم .

وكان الاضطراب فى غضون ذلك قد اشتد فى الكوفة حيث يذكر
القارىء ولا شك أن الخليفة قد عين لها أميرا شابا من الامويين يدعى
سعيد بن العاص ، وأخذ الناس يتهمون أميرهم بالفطرسنة والكبرياء
ومحابة القرشيين والتحيز لهم . ويقال ان سعيدا أشار ذات يوم أمام
الناس الى أرض السواد فى العراق على أنها « بستان قریش » مما أثار
عليه نقمة شديدة من المحاربين الذين ادعوا أنهم ملكوها بسيوفهم .
وأدى الاضطراب الذى وقع الى شكوى بعث بها الامير الى الخليفة . الذى
أمر بدوره بإبعاد مالك الأشتر زعيم جماعة الفتنة مع تسعة من شركائه
الى سوريا . وكانت الفتنة قد اشتدت فى نفس الوقت فى قاعدة الفسطاط
فى مصر ، حيث أضحى الأمير عبد الله بن أبى سرح مكروها ممقوتا ،
وسرعان ما أخذ الرسل والمعرضون على الفتنة يتنقلون جيئة وذهابا
بصورة سرية بين المتأمرين فى العراق ومصر .

ولعل مما يبين ما لمعاوية من شخصية قوية ، أن كل شيء ظل على
حاله من الهدوء والاستقرار فى سوريا فى الوقت الذى كانت فيه مصر
والعراق ، وحتى مكة والمدينة تعج بالفتن والاضطرابات . وكان معاوية
نفسه من الامويين ، فهو ابن أبى سفيان زعيمهم . وكان ما ينسب الى
غيره من الامويين من مسااس بشخصياتهم ، بسبب معارضتهم السابقة
لرسول الله ، يصح أيضا بالنسبة اليه والى آبيه . لكن العرب على الرغم
من فوضويتهم بل ومن ديموقراطيتهم فى جميع الأزمنة والافات ، كانوا
ولايزالون يعجبون بقوة الشخصية فى الحكم . فعندما يعثرون على زعيم
يعتبرونه جديرا بقيادتهم، يقدمون اليه منتهى الولاء ويعملون تحت امرته
أصدق العمل . ولعل الصورة الكاملة للشغب المتزايد من العرب ضد حكم
عثمان ، هى غين الصورة التى نعرفها فى عهدنا هذا ، وهى صورة

الشائعات الرخيصة ، والفوغائية العنيفة وتسلسل مثيرى الفتنة ، وتشويه كل عمل تقوم به الحكومة سواء أكان عادلا أم ظلما ، حكيما أم طائشا ، الى مادة دعائية ضد السلطات القائمة (١) .

وعندما استبد الفرع بسعيد بن العاص أمير الكوفة من تزايد الكراهية لحكمه عند الناس ، راح يهرع في مطلع عام ٦٥٥ الى المدينة للتشاور مع الخليفة . وعاد الى الكوفة فى غيابه ، مالك الاشر الذى أفرج عنه ، وسمح له بالعودة من سوريا ، وأخذ يثير غضب الناس على الحكم فى الخطب النارية التى يلقيها (٢) ورفع العصاة راية الفتنة وتحلقوا حولها وأقسموا ألا يسمحوا للأمير بالعودة . وعندما عاد سعيد خرج الثائرون ويعدون نحوا من ألف لمقابلته قبل وصوله فالتقوا به عند القادسية وهددوه بالقتل ان أصر على محاولة دخوله الكوفة .

وقد فرح الأمير لانه نجا بجلده . وعاد لفوره الى المدينة . وفرع

(١) يحاول جلوب هنا ان يمت سموم حمده على الوطنية العربية التى اخرجته من الاردن حيث كان الدعامة الاساسية للحكم القائم فيه . فهو يصف دعوة القومية العربية بالرخص والفوغائية والادة الفتن والتضليل وما اشبه ذلك من الممارات التى تنطق بالحق الاسود الدقین من الناحية الشخصية ، وتكشف عن كراهية الاستعمار الذى يمثل جلوب للوطنية العربية لان هذه الوطنية قضت على نفوذه وما رالت تحاربه في الوطن العربى .

(٢) كتب اشراف اهل الكوفة الى عثمان يطلبون منه اخراج المشايخين من الكوفة فأمر بنفيهم وعلى رأسهم الاشر الى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية ، فلما قدموا على معاوية اراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ، ثم قال لهم ذات يوم « انكم قوم من العرب لكم أسنان ، ولكم السنة ، وقد أدركتم بالاسلام شرقا وغلبتم الامم وحويتم مراتبهم ومواريتهم . وقد بلغنى انكم نعتتم قريشا وان قريشا لو لم تكن ، عديم اذلة كما كنتم . ان انتمكم لكم الى اليوم جنة فلا تسدوا جنتكم ، وان انتمكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم الثوبة ، والله لتنتهن أو ليبتليكنم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمداكم على الصبر . ثم تكونون شركاءهم فيما جررتكم على الرمية في حياتكم وبعد موتكم » . فردوا عليه ردا دل على تمكن الفتنة في ردوسهم ، فرد عليهم معاوية ردا شديدا وعلم انهم لا يصلحون . وقال لهم لما ظنوا انفسهم في الكوفة « مه ان هذه ليست بارض الكوفة والله ان رأى اهل الشام ما تصفون وأنا امامهم ما ملكت ان انهام عنكم حتى يقتلوكم ، فلمعري ان ضيعكم ليشبه بعضه بعضا » وكتب الى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وانه لا يود بقاءهم في الشام فأمر عثمان أن يسيرهم الى حمص عند عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديدا ، حتى أظهروا الرجوع والندم ، فأمر عثمان أن يعيدهم الى الكوفة ، فلما عادوا اشتد امرهم في الوقيعة بثمان وعماله .

(العرب)

عثمان - الذى كان قد بلغ الآن الواحدة والثمانين من عمره أو الثانية والثمانين - من الثورة . وقرر على الفور أن يستسلم لارادة الثائرين ، فأقال سعيد بن العاص ، وأعاد الى اماراة الكوفة المحارب المخضرم أبا موسى الاشعري الذى كان الخليفة نفسه قد أبعدته محطاً من شأنه عن اماراة البصرة . وعهد اليه الآن باخماد الفتنة فى الكوفة . ووصل الى المدينة فى غضون ذلك وفد من جيش مصر ليقدم شكواه الى الخليفة ضد ابن أبى سرح ويقال ان عثمان كتب الى عامله فى رسالة يهدده فيها بالعزل . ويأمره باصلاح نفسه مع الجند . ولكن الامير لم يأبه بانذار الخليفة . وراح على التقيض منه يعتقل اعضاء الوفد الذى مضى يشكوه الى المدينة ، وأمر بقتل رئيسه .

وكان زعماء المسلمين فى المدينة قد أسرفوا فى تقديم النصيح الى الخليفة . فبعضهم أوصاه بازالة ما يشكو منه الناس ، وبعضهم نصحه باخماد الفتنة النامية بالقوة . اما الآن فبدوا يأسين من هذا الخليفة الشيخ ، الضعيف الشخصية المتردد فى اجراءاته وتركوه يواجه مصيره . ولم يبق أعضاء الحلقة الداخلية الذين انتخبوه للخلافة من أمثال على ابن عم النبىء، والزبير بطل أسوار حصن بابلين ، وطلحة ، وعائشة زوج الرسول باى عمل لمقاومة الثورة هذا اذا لم يكونوا قد شجعوها وكان عمرو بن العاص الذى فتح مصر مرتين والذى أخرجه عثمان من اماراة مصر ، محاباة منه لآخيه فى الرضاع ، مشغولاً الآن فى نشر الكراهية للخليفة فى المدينة (١) .

(١) يعود المؤلف هنا الى محاولته لتثويبه التاريخ الاسلامى ، فهو يثير شكوك القارئ فى أن كبار الصحابة وفى مقدمتهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قد هجموا على الثورة على عثمان . مع أن هذا القول تزييف باطل ، لم يقل به أى من المؤرخين النقاء فى التاريخ الاسلامى وكلهم يجمعون على بمرلة كبار الصحابة وفى مقدمتهم على ، من أية هممة زائلة من هذا النوع . يضاف الى هذا أن المؤلف يحاول التشكيك ايضاً فى أن عمرو بن العاص كان أحد الذين أثاروا الفتنة بنشر الشائعات ضد عثمان . مع أن هذه التهمة باطلة وليس أدل على بطلانها من أن عثمان أشرك عمراً فى المؤتمر الذى عقده لعماله فى الامصار فى موسم الحج . ولو صح زعم المؤلف لما اشركه عثمان فى هذا المؤتمر متوخياً النصيح منه .

ومما يلفت النظر ويحسر النقاب عن ميول المؤلف الى اليهود ، تجنبه ذكر أى شيء من بطل الفتنة ورأسها الدبر . عبد الله بن سبأ . اليهودى الذى تظاهر باعتناق الاسلام ليضل الناس . وقد أثبت جميع مؤرخى العرب ، أن هذا اليهودى ظهر أول ما ظهر فى البصرة . وصار يقول للناس : عجبت ممن يقول بركة المسيح ولا يقول =

وشهد عثمان موسم الحج في عام ٦٥٥ . واغتنم عثمان هذه الفرصة لاستدعاء جميع عماله للتشاور معهم في تدهور الوضع . وكان في وسع كل انسان آنذاك ، كما حدث مرارا وتكرارا في أيامنا هذه . أن يحس ما عم الناس من السخط والنقمة . وان لم تكن الثورة الفعلية قد نشبت بعد . وان كان المتآمرون لا يزالون يعملون في الخفاء . ونصح ابن أبي سرح الخليفة أثناء المؤتمر ، بأن يستخدم المال المتوافر لديه في بيت مال المسلمين لشراء الناقمين . مؤكدا أن المال يستطيع تحقيق كل شيء . وأعرب معاوية بن أبي سفيان عن رايه في أن الخطأ يقع على عاتق ولاية الامصار وأضاف قائلا . . لقد وليتني فوليت قوما لا يأتيك عنهم الا الخير ، فقال عثمان . . وما الرأي ، قال « حسن الادب » وكان معاوية محقا في ادعائه الذي أزعج الولاة الآخرين . أما عبد الله بن عامر أمير البصرة الشاب ، فبرر تعيينه للامارة بأنه رفع راية الاسلام الطاهرة فوق أقاصى هند وكوش والسند وقال . . « خذ من الناس الذي عليك اذ أعطيتهم الذي لهم فانه خير من أن تدعهم » ، وراح ينصحه بأن يرسل الجيوش للجهاد في سبيل الله ضد الكفرة ويشغلهم بالحرب ، وما تتطلبه من عنايتهم بأنفسهم وجيادهم ، عن الفتنة والدسائس . وعندما سأل عمرو بن العاص عن رايه رد بصراحة قائلا . . لقد أخضعت الناس جميعا لبنى أمية ثم قال . . أرى انك قد لنت للناس وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . أن الشدة تنبئ لمن لا يالو الناس سرا . واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتها جميعا . وعندما انتهى المؤتمر ، راح عثمان يحتاج الى عمرو قائلا له أنه لم يكن ينتظر منه أن يحدثه بما حدث به . فرد عمرو بمكر قائلا . . « اني لأجلك أعظم الاجلال يا أمير المؤمنين » ثم راح يقول انه كان يعرف ان ما دار سيذاع بين الناس . وانه ود أن يعرف الناس حقيقة رايه ، وراح

= برجة محمد ، فيقبل منه الناس ذلك ، ويقول لهم : عجا لكم أيها المسلمون ، يكون فيكم أهل بيت نبينا . ثم يقصون عن امرهم . . الى مايمثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله . لان فيه تعظيما للنبي . وقد ابعد امر البصرة بعد أن اتسمت فتنته . فلذهب الى الكوفة وواصل نشاطه فيها ، فأخرجه أميرها وسار الى مصر حيث أخذ يفتك سمومه ، ويمتد هو ومن النف حوله من دعاة السود والتمارين بالرسائل الى المدينة تنشر الاكاذيب والافسائل . وقد لعب هذا الرجل وصحبه دورا كبيرا في التحريض على الثورة التي أدت الى مصرع عثمان ولكن المؤلف انسيافا مع عواطفه الميالة الى اليهود تحاشي أن يذكر شيئا عنه .

(العرب)

الخليفة الشيخ فيما يفعل . وراح يعلن انه لن يلجأ الى العنف مع المسلمين مؤكداً للثائرين ان ليس ثمة ما يخشونه ثم قال ٠٠ « وحسبى الله ونعم الوكيل » .

وبينما كان ولاية الامصار يجتمعون في مكة . كان المتآمرون في القسطنطينية والكوفة والبصرة قد استكملوا خططهم على أساس من التنسيق والتعاون . وتقرر ان تخرج جماعات من الجند من القواعد الثلاث متواعدة على اللقاء في المدينة وعلى ان تطالب هناك باصرار بإزالة كل ما يشكو منه الناس . وقرروا ان يطالبوا بإقالة الخليفة وأن يلجأوا الى العنف لتحقيق ذلك في حالة اصراره على رفض ما يطلبونه . ويقال ان معاوية علق على أحداث تلك الايام فقال ان العرب قد عادوا الى فوضى أيام الجاهلية .

وبدأت جماعات الثائرين سيرها الى المدينة في مطلع عام ٦٥٦ ولحق الفرع بابن أبي سرح . ففر من مصر ، الى فلسطين ينشد الملجأ الامين في حمى معاوية بن أبي سفيان الذي كانت فلسطين جزءاً من امارته . وعندما وصلت جموع الثائرين الى المدينة من الامصار رابطت كل جماعة منها في جهة خاصة وعلى افراد خارج المدينة . وعندما رأى أهل المدينة ما في عيون القوم من ميل الى العنف . لبسوا دروعهم ورفضوا السماح للعصاة بدخولها . وأحس الواقدون بفشل خططهم . فبعثوا بثلاثة وفود يحملون شكواهم الى ثلاثة من كبار الصحابة . كانوا هم الباقين من أهل الشورى الذين اختاروا عثمان وهم على الزبير وطلحة . وأنبأ الصحابة الثلاثة العصاة على سلوكهم الثوري . وقام علي بزيارة عثمان في نفس الوقت . وطلب اليه ان يقلل ابن أبي سرح من اماره مصر كما بعثت اليه أم المؤمنين عائشة برسالة مماثلة . ووافق الخليفة الشيخ على الطلب ورجا مستشاريه ان يختاروا له أميراً جديداً على مصر .

لعل من المؤسف أن تقول ان محمد بن أبي بكر . كان أحد قادة الفتنة في مصر . ولا ريب في أن الفرق بين هذا الثوري الطموح والعنيف وبين والده الحليم الزادع الصلب في إيمانه ، والصديق الصدوق للرسول ، يوضح ما أصاب أخلاق الجيل الجديد الذي نشأ في الترف والرخاء من انحلال . وطلب ممثلو جيش مصر أن يعين الخليفة هذا الشاب قائداً لهم وأميراً على مصر ، فاستجاب الخليفة لرغبتهم .

ووافقت الجماعات آنذاك على العودة ، ونزع أهل المدينة عنهم

دروعهم وتبين أن الازمة قد انجلت مؤقتا على الأقل (١) . ولم يكذ
ينقضى اليوم الثالث على مسيرهم في طريق العودة الى أمصارهم حتى
ذكرت جماعة مصر ، أنها ألقت القبض على عبد زنجى يستقل هجينا
ويدرع به الارض في الطريق الى مصر . وزعمت الجماعة أنها عثرت معه
على رسالة صادرة عن الخليفة وموجهة الى ابن أبى سرح ، الذى لم

(١) تختلف رواية المؤلف بعض الاختلاف من روايات المؤرخين المسلمين . فقد
اجمعت هذه الروايات على أن جماعات الثائرين جاءت الى المدينة مرتين . وفي الاولى
استقبل الخليفة ولودا منها صارحوه بانتقاداتهم لحكمه ، وحكم عماله . فرد عليهم ردودا
مقنعة منها قوله لهم « والله انى وليت وأنا أكثر العرب بعرا وشاة » ، فما لى اليوم
شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، اكدك هو « قالوا « اللهم نعم » وقال عثمان « وكان
القرآن كتبنا فتركها الا واحدا الا وان القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما أنا في
ذلك تابع لهؤلاء اكدك هو « قالوا « نعم » ثم دافع عن توليته للشبان من قومه ، ومن
عطاياه لهم مؤكدا أنها من ماله .

وعاد الثائرون الى أمصارهم بعد أن اتفقوا على أن يخرجوا من جديد وكانهم
يطلبون العمرة لتنفيذ ما عزموا عليه . فخرج أهل مصر وعددهم بين الستائة والالف
وشملهم أهل الكوفة والبصرة . وكانت أهواؤهم مختلفة . فاهل البصرة يريدون طلحة .
وأهل الكوفة يريدون الزبير ، وأهل مصر يريدون عليا . لوجود ابن أبى بكر وهو ربيب
على بينهم . واتفقوا جميعا على أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة . وينظروا هل وصل
المدينة خبرهم . لانهم كانوا يخالون أن يستمد لهم أهل المدينة بحرب . فأرسلوا
لذلك رجلين قابلا عليا وطلحة والزبير . وقالوا انما نأتم هذا البيت . ونستغنى هذا
الوالى من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك . واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم
أبى ذلك عليهما . فرجع الرائدان الى قومهما . وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل
مصر نفر اتوا عليا ، ومن أهل البصرة ، نفر اتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر اتوا
الزبير فسلم المصريون على على بالخلافة وعرضوا له بالامر فرد عليهم ردا شديدا .
وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى
مسارهم ، وهى على ثلاث مراحل كى يفترق أهل المدينة ، ثم يكروا راجعين . فانفترق
أهل المدينة لخروجهم . فلما بلغ القوم مسارهم . كروا بهم فبغثوهم فلم يفجأ أهل
المدينة الا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع مسارهم . وأحاطوا بشمان وقالوا من
كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم . فأتاهم على فكلهم . وقال ماردمك بعد ذهابكم
ورجومكم من رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا . وقال الكوفيون
والبصريون جئنا نصر اخواننا ، كأننا كانوا على ميعاد . فقال لهم على ، كيف علمتم
يا أهل الكوفة والبصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرت مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله
أمر أبرم بالمدينة . قالوا فضعوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل . ليمترلنا
ثم قالوا لعلى ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل فقم معنا اليه . قال والله لا أقوم
معكم ، الى أن قالوا فقم كبيت الينا . فقال على والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم
الى بعض ثم تركهم على وخرج من المدينة .

(العرب)

نكن أنبياء فراره الى فلسطين قد وصلت كما يبدو الى المدينة ، يأمره فيها بأن يلقي القبض على محمد بن أبى بكر ورفاقه . وأن يقتلهم عند وصولهم الى مصر وعاد العصاة لتوهم الى المدينة يطلبون ايضاحا من الخليفة . ويبدو ان الصدفه العارضة قد شاءت أن تعود جماعة الكوفة والبصرة الى المدينة في نفس الوقت وان لم تزعموا وضعهما اليد على اية رسائل مماثلة . وتجمع الروايات على أن على بن أبى طالب ، سأل العائدين عن الطريقة التى عرفوا بها اكتشاف جماعة مصر وهى فى طريق عودتها الى الفسطاط لأمر الرسالة مع أن الجماعتين الاخرين كانتا تسيران فى طريق مغاير لطريق أهل مصر ، عائدين الى بلاديهما . مما أدى الى عودتهما الى المدينة فى نفس الوقت الذى عاد فيه أهل مصر . وهناك رأى آخر يقول : ان الرسالة كانت مزورة وان الجماعات الثلاث كانت قد اتفقت فيما بينها على العودة الى المدينة فى غضون ستة أيام . وكانت انباء وصولها فى المرة السابقة قد نمت الى المدينة قبل دنوها منها مما جعلها تواجه أهل المدينة وقد تدرعوا بسلاحهم على أسوارها استعدادا للدفاع . ومن المحتمل أن يكون الشائرون قد فكروا بأن تظاهروهم بالعودة سيحمل أهل المدينة على الاسترخاء وتخفيف الحذر فيباغثونها هذه المرة بصورة مفاجئة . (١)

ودخل على ، وقد مثل فى هذه المرحلة دور الوسيط ، على عثمان فحدثه بأمر الرسالة ، وقد نفى الخليفة بشدة وأصرار ، علمه بأى شئ عنها . ووافق على أن يستقبل وفدا عن العصاة الذين دخلوا عليه يهددون ويتوعدون ، ودون أن ينظروا اليه نظرة تجسلة ، وزعموا أن العبد الذى اعتقلوه من عبيد الخليفة ، وان الرسالة التى كان يحملها ممهورة بختم الخليفة . وأقر عثمان السيئ الطالع بهاتين الحقيقتين . ولكنه أقسم للوفد ، قسما عظيما بأنه لم يكتبها ، ولم يأمر بكتابتها ، ولم يبعث بذلك العبد الى مصر مطلقا .

(١) لا ريب فى أن الحادثة كلها تشير الى مؤامرة واضحة . رتبها الشعوبيون من جماعة عبد الله بن سبأ . ومن تعاون معهم من الحاقدين على عثمان . وعلى عماله فى الامصار ولا ريب فى أن النظرية الاخيرة التى أشار اليها المؤلف ، هى الصحيحة . وان لم يحاول هو اثبات صحتها اذ لا يمكن أن يصل نبا الرسالة المفتعلة الى جماعتى الكوفة والبصرة وبينهما وبين جماعة مصر مسيرة ستة أيام . ولم يكن هناك أى سبيل للاتصال السريع ولا ريب فى أن عودة الجماعات الثلاث فى وقت واحد الى المدينة يشير الى وجود مؤامرة مدبرة ومن هنا يصبح الرء مىالا الى الاعتقاد بانتمال الرسالة لتكون ذريعة للعودة .

(العرب)

هؤلاء الاربعة لم يتقدم الصفوف ليتولى حسم الموقف وتدبير الامر .
وطلب الثائرون في غضون ذلك من الخليفة أن يسلمهم مروان الملتجئ
الى دار الخليفة . ولكن عثمان رفض تسليمه اليهم . أما من تبقى من
بنى أمية فقد خافوا على ارواحهم من العصاة وفرقوا اما مختبئين أو
فارين الى ملاذ معاوية في دمشق .

وحل يوم الجمعة الذي تلا تلك الثورة ، وصعد عثمان المنبر في
مسجد النبي ليخطب المسلمين . وناشد المواطنين المحترمين ألا
يجبنوا أمام وعيد الجنود العصاة وراح بعد ذلك يحذر العصاة من شر
مهاجمة خليفة رسول الله ، وهب بعض الصالحين من أهل المدينة الى نصره
الخليفة . فهاجمهم العصاة وأجبروهم على الخروج من المسجد ، وألقيت
بعض الحجارة ، وأصاب حجر منها الخليفة الشيخ نفسه فسقط على
الأرض مغشيا عليه ونقله الناس الى داره وهو في غيبوبة .

وسرعان ما فرض العصاة حصارا منظما على بيت عثمان . فبات عاجزا
عن أن يؤم الناس في الصلاة . وهو عمل من أقدم واجبات الخليفة .
وعجز خدمه بعد بضعة أيام عن تأمين الماء اللازم للشرب . ويقال ان الخليفة
الشيخ أطل على الثائرين من سطح داره وقال : أفياكم على ؟ فقالوا لا .
قال أفياكم سمع ؟ قالوا لا . فسكت ثم قال : الا أحد يبلغ عليا فيسقيننا
ماء ؟ فبلغ ذلك عليا فبعث اليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فوصلت اليه بعد
أن جرح بسببها عدد من موالى بنى هاشم وبنى أمية .

كان الخليفة أبو بكر من بنى تيم ، وهو بطن من قريش . بعيد عن
بطن بنى هاشم ، وراح محمد بن أبي بكر يناشد أبناء عشيرته أن ينصروه
في حصار الخليفة . وهكذا أخذ العرب يعودون الى عصبية الجاهلية
العمياء . وارتفعت أصوات من قريش في المدينة تحذر قادتها من نتائج
الوضع وآثاره . وقال هؤلاء ان قريشا كانت تعيش حتى تلك اللحظة في
أمن ودعة وكرامة . وان العرب جميعا ينظرون اليها بعين التجلة والاحترام
وهاهي الآن تقف مكتوفة الايدي بينما يتعرض زعيمها للهجوم من جماعات
من جنود البدو العصاة . وتعرض مكانة قريش كلها تبعا لذلك الى الدمار
أمام العرب جميعا . ولس هذا التعنيف غواطف على والزير وطلحة وغيرهم
من الصحابة . فبعثوا بأولادهم لحماية باب دار عثمان ولكنهم مع ذلك
رفضوا أن يخرجوا الى العراء لمقاومة العصاة الذين بدوا وكأنهم لا يريدون
اغضبائهم . وعلى الرغم من حراسة أولادهم لدار عثمان ، ألا أنهم ظلوا
يشتركون مع الثائرين في المطالبة بتسليم مروان .

• وطارت رسالة سرية عاجلة في غضون ذلك الى دمشق لابلاغ معاوية بتطور الوضع وحثه على ارسال نجدة فورية • وسرعان ما بعث هذا بقوة تسير الليل والنهار من سوريا، كما بعث عبد الله بن عامر أمير البصرة بقوة مماثلة • ووصلت انباء تحرك النجدة الى العصاة ، فآخذوا يضيّقون حلقة الحصار على ضحيّتهم • ومنع الماء من جديد عن الدار • وعانى الخليفة وأهل بيته أهوال الظّما ثانية ، وكان الوقت شهر مايو من عام ٦٥٦ وقد أخذت حرارة الحجاز بخناق الناس ، وحاولت أم المؤمنين أم حبيبة ، أرملة رسول الله ، وقد تذكرت حب زوجها العميق لعثمان أن تسعفه بالماء فاقنّادت بغلا يحمله الى باب داره وهكذا عرضت نفسها لاهانة العصاة • وقد أملت في أن تمنعهم مكانتها كزوجة رسول الله من الوقوف في طريقها • ولكن أملها طاش • وحال العصاة بعد أن أساءوا إليها بينها وبين الوصول بالحمل الثمين الى المحصورين • وأخذ عدد متزايد من أهل المدينة من الانصار ومن صحابة النبي يظهر امتعاضه وفزع من هذا الانفجار الفوضوي البدوي على الرغم من انهم كانوا ينتقدون عثمان على ضعفه وعجزه • ولكن أيا منهم لم يحاول مد يد النصرة اليه • وظل على الزبير وطلحة معزولين في بيوتهم، اما عن خوف أو عن غيرة من عثمان ولا يعرف الحقيقة الا الله •

ودب الفزع في نفوس العصاة من اقتراب جيش النجدة القادم من سوريا، اذ حملت اليهم الانباء انه وصل الى وادي القرى التي لا تبعد أكثر من مائة وعشرين ميلا الى الشمال الشرقي من المدينة • فقرروا أن الضرورة تحتم عليهم الاسراع في النهاية وشدّدوا هجومهم على الدار • وانهالت النبل على المنزل فأصيب مروان بجراح • وخضب الحسن بن علي بالدماء وهو على الباب • كما خضب محمد بن طلحة بالدماء ايضا •

وخشى محمد بن أبي بكر ، وهو من أعنف الثائرين واشدهم حساسة أن يفضب بنو هاشم لرؤيتهم دم الحسن وأن يتجمعوا لمحاربة العصاة ثارا لدم قريبهم ، اذ كانت العصبية القبلية لا تزال قوية رغم الاسلام • وكان أتباع الخليفة قد ردوا في غضون ذلك على سهام المهاجمين وأصيب احدهم في مقتله. فثار العصاة لرفيقهم القتيل وحاولوا اقتحام باب الدار ، ولكن محمدا بن أبي بكر تمكن من اقناع رجلين أو ثلاثة بتسليق بناء مجاور ليتسوروا على الخليفة الدار عن طريق الدخول من نافذة مفتوحة الى فنائها وكان أنصار الخليفة قد سارعوا الى الباب الامامي يحمونه من اقتحام العصاة الذين كانوا يوالون مهاجمته • واشتد أوار المعركة وحمل وطيسها وحجب ضجيجها صوت المتسللين • وظل الخليفة الشيخ وحيدا في غرفته

يتلو القرآن المفتوح على ركبتيه ونجاة رأى امامه محمد بن أبى بكر. وقد نفذ الى الغرفة من مؤخرة المنزل . وكان محمد منتضيا سيفه بيمنه ، فهجم على الشيخ يسب ويشتم وقبض على لحيته وسلك الخليفة فى لحظاته الاخيرة سلوكا كله هدوء واباء يستفز اعجاب الجميع حتى يومنا هذا اذ وجه كلامه الهادى الوقور الى الرجل قائلا : **دوالله يا ابن أخى لو رآك أبوك لساء مكانك منى** ، ويبدو أن الشاب المتوحش قد خجل خجلا مؤقتا من موقف الخليفة الشيخ الرصين الوقور ومن اشارته الى أبيه أبى بكر الحنفي الصديق . فاسترخت يده عن لحية الخليفة وتراجع الى الوراء . لكن شريكه كانا أكثر منه جرأة وأقل احساسا ، فهجما على الخليفة بعد أن مرا بمحمد ، وسيقاهما مشرعان فى يديهما . ونحن عثمان صريعا على الارض وضم فى لحظاته الاخيرة ، صفحات القرآن الذى كان يقرؤه الى صدره . بينما تدفق دمه غزيرا فخطب هذه الصفحات ورات زوجه نائلة قرينها صريعا فالقت بنفسها عليه لتدأ عنه بجسدها طعنات أخرى . وقطع القاتلان بعض أصابعها وهما يواصلان ضربه بسيفيهما وصرخت المرأة فلم يسمع صراخها ، لما كان فى الدار من الجلبة والضوضاء وهجم بعض موالى الخليفة على الغرفة فقتلوا أحد الرجلين . وظل صراخ نائلة وعويلها غير مسموعين بسبب ماتحدثه المعركة عند الباب من ضججة وضوضاء فهرعت الى سقف البيت وصرخت مرة ومرة قائلة : **ولقد قتلوه . قتلوا أمير المؤمنين** .

وكان العصاة قد اقتحموا فى تلك الآونة باب المنزل واندفعت الجماهير الشرسة صارخة الى الداخل واندفع بعضهم الى الغرفة التى كان فيها الخليفة الشيخ يلفظ انفاسه الاخيرة فأعملوا فيه سيوفهم . وطعنوه بخناجرهم وداسوا على جثته بأقدامهم وكانوا على وشك اقتطاع رأسه عندما اندفعت نساء البيت معولات باكيات يحمينه بأجسادهن . وانسحب الجنود العتاة الذين لاتعرف الشفقة طريقا الى قلوبهم أخيرا وقد خلفوا جثمان الخليفة يغوص فى بركة من الدماء . وقد صمت صمته الأبدى على أرض الغرفة . وكان مصرعه فى السابع عشر من يونيو (حزيران) عام ٦٥٦ (١) .

وعندما نمت الخبر الى على وطلحه والزبير هرعوا الى دار الخليفة

(١) يجمع المؤرخون العرب على أن مصرع عثمان كان في العشرين من مايو (ايار)

يعربون عن أساهم وسخطهم لما حدث . ويتحون بالملامة على المدافعين عنه لغشيلهم في الحفاظ على حياته . وقد تبدو هذه الكلمات خاوية من كل معنى ، إذا عرفنا أن الحصار الذي فرضه العصاة على دار الخليفة دام أربعين يوما (١) . ظل أبانها القادة الثلاثة سالكين لا يفعلون شيئا لانقاذه .

وظلت جثة الخليفة في مكانها داخل الغرفة ثلاثة أيام ، في حين فرض العصاة سيطرتهم على مدينة الرسول . ولم يجرؤ أحد على نقل الجثة لدفعها واندفعت جماعة صغيرة عشية اليوم الثالث من المنزل . وقد حمل أفرادها النعش الذي يضم الجثة على أكتافهم وقد ضمت هذه الجماعة الزبير بن العوام والحسن بن علي وبعض أقارب عثمان ومواليه . ومع ذلك فلم تخلص الجماعة من مراقبة العصاة الذين قذفوا الموكب الصغير بالحجارة . ودفن أمير المؤمنين في قطعة صغيرة من الأرض على مقربة من المقبرة العامة خارج المدينة .

لاريب في أن عثمان كان فاشلا كخليفة للمسلمين ، فلقد برهن على ضعف في سياسة أمور العرب الذين تميزوا بروح العنف والتحزب . ولا سيما في وقت جعلت منهم الانتصارات المتلاحقة قوما لايساسون ولا يدعنون . وكانت مواهبه العقلية محدودة مما أعجزه عن تبين القضايا الهامة ، وجعله خاضعا لسيطرة الجشعين من أقاربه . وقد عاش هو نفسه على العكس من سابقه حياة رخيّة ، وقبل الهدايا من عماله . وإن كان الترف البدائي الذي عاش فيه لا يقارن مطلقا بترف أسلافه من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس . لكن من سبقه في تدبير شئون المسلمين وهم النبي وإبو بكر وعمر كانوا يحتقرون متاع الدنيا وزخرفها ، يمشون حفاة لا تسترهم الا عباءات خشنة من الصوف ، حتى بعد أن حصاوا على السلطان السياسي الضخم . وبدا عثمان إذا قورن بهم رجلا دنيوى الطابع لكنه كان تقيا تقوى أصيلة حتى أن النبي بشره بالجنة . وكان من التواضع والبراعة على درجة عظيمة حتى أن النبي قال عنه ان الملائكة لتخجل في حضرته . ولو لم يقدر له أن ينتخب ليحكم هذه الامبراطورية العظيمة التي تجيش بالاضطراب لأنهى حياته رجلا جليلا وقورا متدينا وادعا . ولا ريب

(١) يقول المؤرخون العرب ان مدة الحصار كان ٢٢ يوما لا أربعين كما ذكر

في انه كشارول الاول ملك انجلترا يصلح لان يكون مواطننا كريما فاضلا
لا ملكا او حاكما (١) .

كانت الاوقات عصيبة على اى حال ، وكان ايقاع الانتصارات
العربية قد بدأ في الهبوط ، كما ان الحماسة الدينية الساعرة كانت قد
شرعت في الخفوت . ولكن لو كان عثمان على شاكلة عمر لتمكن من
مواجهة العاصفة والتغلب عليها .

(١) نحن نختلف مع المؤلف في تحليله لشخصية عثمان . والاسباب التى أدت الى
مصرعه فهو من أكرم خلق الله خلقا ولعل اصلق دلالة على ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي
(صلم) اذ قال « عثمان من أشبه أصحابى بى خلقا » ومن كان يشبه رسول الله في
خلقته ، لا يمكن أن يهتم بالضعف والفشل وضيق الواهب والخضوع للآقارب . وقد
زوجه النبي ابنتيه واحدة اثر أخرى . وقال له على رواية ابن عساکر . . « لو أن لى
أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة » . ومن يرضى به
النبي وهو أعظم الناس مهرا لا يمكن أن يوصف بما وصفه به المؤلف .

أما ما وقع في هذه من فتن لمرده الى اسباب عدة نجلها قيبا الى :

١ - تحاسد كبار قادة المسلمين مما أقبح المجال لرواد الفتن ومجى الاضطرابات
من الشعوبيين اذ نقلت عن كبار المدينة اقوال كثيرة في عثمان . لم يدعوا بالادلة
والبراهين . مما اثر على عقول العامة ونفوسها .

٢ - أما ما عرف به عثمان من خلق الحياء واللين مما يدفعه الى الانقضاء من كثير
مما يكره ويدعوه الى خوف الفتنة على المسلمين والى التسامح مع من يتاله منهم من
أذى في حق نفسه وهما صفتان حملتا الناس على اتهامه بالضعف .

٣ - سماح عثمان لاعلام قريش خلافا لما كان يفعله عمر : بالخروج من المدينة
والطواف بالامصار . وهذا هو ما دعا اهل البصرة الى المطالبة بخلافة طلحة . وأهل
الكوفة الى المطالبة بخلافة الزبير ، وأهل مصر الى المطالبة بخلافة على . ولا يمكن
والحالة هذه أن ننفي من اعلام قريش تطلهم الى ولاية الامر . وان نغينا منهم اشتراكهم
مع المتأمرين والذي يؤخذ عليهم هو تقاسمهم عن نصره عثمان وقت الشدة .

٤ - سهولة التأثير في الجماعات اذا استهواهم ما يقال . وهم في مثل هذه الحال
لا يشعرون مما يقال لهم . فلقد كان العرب يحبون النبي أكثر مما يحبون أنفسهم ويحبون
العدل والمساواة فجاءهم ابن سبأ الشعبي من الجهة التى يحبونها يضع لهم الكلام في
تعظيم الرسول وأهل بيته ويقتنعهم بأن على بن أبى طالب هو وصي النبي وأنه صاحب
الحق في الخلافة .

٥ - خداع الجماهير بالظن في ولاية عثمان كابن أبى سرح لان النبي حكم بقتله يوم
الفتح ثم استوبه منها عثمان ففقا منه وعفو الرسول ستر للذنب . وكالوليد بن عقبة
مع انه كان واليا لعمر من قبل . وسعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أحسن
العمال واحكمهم بالتوسط . ولكن الجماهير ضللت بالاكاذيب التى تشرها الشعوبيون من
اصحاب المقاصد السيئة .

(العرب)

وادى مصرع عثمان الى تغير كل شىء فى حياة العرب بله فى حياة المسلمين ، وكان المسلمون قد عاشوا ربع قرن بدأ بفتح النبى مكة ، واقامة الحكم الدينى فى البلاد فى حلم مثالى رفيع . فقد اختارهم الله لفتح العالم ، واحتفظ لهم بكل مافى جنات النعيم من مسرات لا يمكن للعقل ان يتصورها . وكانت عناية الله قد اختارت رسول الله أولا وخليفته ابا بكر وعمر ثانيا ، ليكونوا ادوات تنفيذ ما اراده الله من نصر للعرب . وليس ثمة ما يمكن له ان يشوه ما يحس به العرب من سعادة ونصر . ولو قدر للعرب ان يحققوا انتصارات اخرى فى الحياة الدنيا لبات فى وسعهم ان ينعموا بالزيد من اطيب الحياة كالمال والنساء والجياد والمجد ، وكلها اطيب شات ارادة الله أن يقدحها على عباده الصالحين ، أما اذا قدرت الشهادة لأى منهم فان الشهداء يمضون فوراً الى مافى فرايس الجنان من متع ومسرات ، حيث يعيشون فى ظلال ونعيم مقيم ، على الارائك متكئون وامامهم انهار سلسبيل تقوم على خدمتهم الحور العين . لكن هذا الحلم بدأ الآن فى الانهيار . فلقد صورت دعايات اهل الفتنة خليفة المسلمين للناس على انه رجل عجوز شره شديد القسوة وقد تمكنت الايدى المجرمة من الوصول اليه فقتله اخوانه المسلمون الذين تركوا جثته دون دفن على أرض غرفته المجاورة لمسجد الرسول ، وقبره . وقد قسمت قريش الآن ، وهى الطبقة النبيلة المقدسة ، (١) الى فئات وشيع تتوزعها عوامل الطمع والحسد . وكان محمد بن ابي بكر اول من وضع يديه على الخليفة الثالث لرسول الله . وكان قومه بنو تيم من قريش ، هم الذين هاجموا بنى امية يهتفون هتافات الجاهلية لاهتاف « الله اكبر » وهكذا انحسر حلم الربع قرن لتخلفه أيام تعود فيها الجاهلية بكل تعصبا وعنفها ونهبها وسلبها .

وقد يشك المؤرخون الاوربيون المعاصرون فى أن الحماسة الدينية قد وجدت عند العرب فى أى يوم من الايام . وقد يردون الفتوحات الاسلامية الى العوامل الاقتصادية التى نادى بها العالم الاقتصادى مالثوس ، والتى بين فيها ان ضغط تزايد السكان يكون دائما عاملا من عوامل الهجرات العنيفة التى تتجسد فتوحات وغزوات . وانى لأرى أن هذه الشكوك صحيحة الى حد ما . فلو كان اهل الجزيرة العربية أثرياء يحبون حياة الرخاء والرفاهية لما اندفعوا من بلادهم الى الخارج أبدا . ومن الصحيح أيضا أن بعضهم غنم الكثير بسبب هذه الفتوحات وجمع الثروات الطائلة .

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف بصفة القداسة لقريش ، فالاسلام لا يعرف القداسة الا للنبى وللصالحين من المسلمين . (العرب)

ولم يكن الناس على جهل بما اتبعه بعض أمراء الامصار والعمال من أساليب الابتزاز والاختلاس للأثراء ، ولكن كبار القادة هم الذين يتعرضون في كل الحركات الدينية والسياسية العظيمة لمثل هذه الاغراءات . ولعل من الصحيح أيضا أن أكثر القادة العسكريين نجاحا - كخالد بن الوليد مثلا - كانوا أكثر الناس قسوة وخلوا من الرحمة (١) . ولكن الكثيرين من كبار القادة ظلوا طيلة الخمسة والعشرين ربيعا الاولى صورة مجسدة للنزاهة . ولا يمكن لما تجسد في بعض القادة من مطامع دنيوية أن نغض عيوننا عن الحقيقة ، وعن رؤية ما كان يمتاز به معظم الناس من تقوى أصيلة ومثاليه صادقة .

ويمكن لنا أن نجمل الصورة الصحيحة لما امتاز به المسلمون الاولون في الربع قرن الاول من حماسة دينية من مقارنة أوضاعهم بما صخب التفجرات اللاحقة في شبه الجزيرة العربية من حماسة واندفاع في القرون اللاحقة . فقد تمكن القرامطة بين عامي ٩٢٩ و ٩٦٩ مثلا - وهم شيعة شديدا والتعصب - من احتلال الجزيرة العربية كلها بما فيها اليمن . واستولوا على مكة والمدينة وهددوا مركز الخلافة نفسه . ولكن هذا الاندفاع الحماسي عاد فخنفت بعد انقضاء نحو من أربعين عاما . وظهرت جماعة الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر . واحتل رجالها الجزيرة العربية كلها وهسدوا سورية والعراق . ولكن الوهابيين مالبتوا أن هزموا بعد نحو من أربعين عاما . وخمد حماسهم الديني ليعود الى الانتعاش من جديد في عام ١٩١٢ وليسيطر على الجزيرة العربية حتى عام ١٩٣٠ ليعود طوفان الحماسة ، فيخفت من جديد . ويبدو من هذه الأمثلة أن أهل الجزيرة العربية كانوا معرضين من وقت الى آخر لأن تجرفهم الانفجارات العنيفة من الحماس الديني ، وهي انفجارات لاتطول عن فترة أربعين عاما يعود بعدها الحماس الى الخفوت .

وكتب السير ماثيو ارنولد ، وهو من أعظم خبراء العصر في الشؤون العربية يقول : لعل من أبرز الاكتشافات الرائعة التي حققها المؤرخون العصريون ، الاعتراف بالحقيقة الواقعة وهي أن انتشار الاسلام الهائل في النصف الثاني من القرن السابع لم يكن وليد حركة دينية عظيمة . انما كانت هذه التوسعات التي قام بها الجنس العربي ثمرة هجرات

(١) حملة أخرى من الحملات التي تعرض بها المؤلف لقادة المسلمين وفي مقدمتهم خالد بن الوليد رغبة منه في تشويه التاريخ الاسلامي .

قام بها شعب أمتاز بالحيوية والاندفاع . مساقته المجاعة ، ودفعه العوز . الى اجتياح الاراضي الاكثر ثراء في بلاد جيرانهم الأسعد حظا .. وقد أعلن طرد آخر من المؤرخين المعاصرين والأساتذة ايمانهم باكتشاف هذه الحقائق نفسها .

لكي نعتقد أن هذه الاكتشافات ليست الا جزءا من الحقيقة وانها نسبية المعرفة لاموضوعية . ففي هذا العصر الذي نعيش فيه تتركز افكار الاوربيين كل التركيز في الشئون الاقتصادية بحيث أننا ننسب الدوافع نفسها الى الشعوب الاخرى غير الاوربية وفي مختلف العصور والحقب . وفي مثل هذه الايام السوقية (الاستراتيجية) أرى لزما علينا أن نتيبن الخطأ في نسبة ما يقوم به الناس جميعا والأمم كلها الى سبب واحد فقط . والدوافع الانسانية والمشاعر البشرية هي من النوع المعقد كل التعقيد بحيث لا يمكن تفسيرها بالتحليل الرياضي . ومن هنا تكون الدوافع التي حملت العرب على الاشتراك في فتوحات السنوات الخمس والعشرين الاولى مختلطة . فقد لعب كل من الطموح وشغف العيش والفقر والطمع دوره لكن البدر كانوا دائما في حالة من الفقر والجوع ألوف السنين قبل محمد وبعده . ترى اذن ما الذي أدى الى أن يصبحوا قوما لا يقبلون مدة ربع قرن فحسب ؟

لقد عشت سنوات طويلة مع أبناء البدو الذين لم يتغيروا كثيرا عما كانوا عليه أيام الفتوحات الاسلامية ولقد اكتشفت أن هناك خليطا من الايتارية مختفيا وراء ما يمتاز به البدو من مظاهر القسوة واعمال السلب . واني لأعتقد أن الرسول عزف على ذلك الوتر الخفي الحسناس من المثالية العربية ، وعندما مسه لم يبق هناك ما يقعدهم عن تلبية كل ما يطلبه منهم ولم يكن في وسع ضغط السكان او الحاجة الاقتصادية وحدهما أن يخلقا ذلك التفجير البركاني ، وكان لابد من وجود نيران عاطفية ومثالية خلقت هذا العنف الضخم . ولكن هذه القوة في العاطفة التي خلقها الايمان ، كان لابد وان تكون قصيرة العمر . ولم يكن قد انقضى الآن أكثر من خمس وثلاثين سنة على هجرة الرسول الى المدينة ، وأربع وعشرين سنة على وفاته، عندما أخذ الحماس العاطفي الاول يسير في طريق الخفوت والبرود . وأدت وفاة عثمان الى انتشار خيبة الأمل والى خمود نيران الحماس الديني وضعف ما خلفته الفتوحات الكبرى من شعور بالعظمة والمجد .

تواريخ مشهورة

١٧ يونيو ٦٥٦

مقتل الخليفة عثمان

شخصيات بارزة

مثير الفتن والاضطراب في الكوفة
أحد المشتركين في قتل عثمان

كبار مستشاري الخليفة الذين لم
يتدخلوا لنصرته

مالك الأشتر
محمد بن أبي بكر

علي بن أبي طالب
الزبير بن العوام
طلحة بن عبد الله
سعد بن أبي وقاص



الحُكم لله

« لبس الطموح الدافع المتسلط ، لباس الرغبة
في النار العادل • وكثيرا مايجل التشيع والتحزب محل
العقل والمنطق في دوامات العواطف والذساتس، وعلينا
ألا نشك في أن القادة والأتباع قد اقنعوا أنفسهم بأن
الهدف الحقيقي الذي ينشئون هو عقاب المسئولين عن
الخيانة العظمى التي اجترمت في المدينة» •
السير وليام موير •• قصص الخلافة الاولى •

كانت المدينة تعيش في حالة من الاضطراب والفوضى في الايام الاولى التي تلت مصرع عثمان ، وكانت الكلمة العليا ابانها للعصاة ، وكانت جماعة جيش مصر أكثرها عنفا فقد اغتصب زعيمها مركز الخليفة وأخذ يؤم الناس في الصلاة في المسجد الكبير ، أما الأمويون فقد تفرقوا هاربين فاتجه بعضهم الى دمشق في حين اتجه بعضهم الآخر الى مكة ، وتسلسل الى مكة أيضا سعد بن أبي وقاص ونفر من المواطنين المحترمين (١) أما عمرو بن العاص فقد انسحب حتى قبل مصرع الخليفة الى مزرعة له قريبة من بئر السبع ، وجمع أحد الأمويين قميص عثمان الملوث بالدماء وأصاب نائلة ، وزوجه ، المقطوعة ، وحملها الى دمشق حيث قدمها الى معاوية .

وسرعان ما وقعت ردة الفعل ، حتى ان بعض العصاة فزعوا من هول ما جرتمته أيديهم ، وأدرك البعض الآخر أن الامبراطورية بأسرها غدت الآن بلا رأس وبلا حكومة تحكمها ، وأنه مالم تقم سلطة مركزية على الفور . فان الامصار المحتلة ستتفسخ في حالة من الفوضى والاضطراب . وراح العصاة يدعون أهل المدينة الى اختيار الخليفة الجديد ، وكان العصاة من جماعة مصر يؤيدون عليا ابن عم النبي ، أما العصاة من أهل الكوفة فكانوا يؤيدون الزبير ، قائد الفئة التي ارتقت سلاله حصن بابلينون لاقتحامه ، وأيد العصاة من أهل البصرة طلحة ، الذي أصيبت يده اليمنى بالشلل عندما دفع بها الى الامام في معركة أحد ليحمي بها رسول الله من ضربة سيف وجهت اليه .

وكان قبول الخلافة في مثل هذه الظروف العصيبة وبعد خمسة أيام من مصرع الخليفة السابق وفي خضم سيطرة الجنود العصاة على العاصمة عملا يتطلب الكثير من الجراة والشجاعة ، ويبدو أن عليا تردد بادئ ذي بدء ، وعرض البيعة على الزبير وطلحة ولكن الضغط اشتد عليه لقبولها من فريق صحابة الرسول الذين باتوا الآن شيوخ المدينة والجنود العصاة

(١) تختلف رواية المؤلف عن الروايات الاسلامية بعض الاختلاف فقد ذكر ابن سعد ان عليا بوع بالخلافة بالند من مقتل عثمان . وأظن أن البيعة تمت في الند من موت الخليفة . كما ان الطبري ذكر أن سعد بن أبي وقاص حضر البيعة ، ولم يهرب الى مكة كما قال المؤلف ، وأنه قال عندما طلبت اليه بيعة علي . « والله لا أباع حتى يباع الناس ، والله ما عليك مني بأس » فقال علي « خلوا سبيله » .

الذين يسيطرون عليها ، وقد بايعته غالبية المواطنين وبينهم طلحة والزبير . وفارق العصاة المدينة أخيرا عائدین الى أوطانهم وأمصارهم وبينهم طلحة والزبير (١) ليفخروا بما عملوه فى قواعدهم العسكرية فى القسطنطينية والكوفة والبصرة .

ويذكر القارىء ولاشك . . أن المنافسة القديمة بين بطيئ هاشم وأمية من بطون قريش كانت قد تولدت كما رأينا قبل ولادة النبى . وقد قدر لهذه المنافسة أن تقسم الامبراطورية العربية العظمى فى السنوات التالية الى فرق واقسام ، وان تجزئ العالم الاسلامى الى شيع وأحزاب ما زالت قائمة حتى يومنا هذا ، وليس ثمة من شك فى أن كافة المؤرخين المسلمين قد تورطوا فى هذه الانقسامات المفجعة والمستمرة ، ولذا فان ما خلفوه من تسجيل للأحداث وتفسير تاريخى لها ، قد اصطبغ بصفة تشيعهم لهذه الفئة أو تلك . وتؤلف رواياتهم المتناقضة فى معظم الأحيان مشكلة معقدة لا تحل بالنسبة الى الطالب المحايد ، وقد بذلت كل ما وسعنى من جهد وطاقة لاتخاذ سبيل وسط فى خضم هذه الصراعات العاصفة .

وعلى بن أبى طالب هو ابن عم النبى والذى نشأ فى حجره اذ تبناه وكفله بعد زواجه بخديجة ، ليخفف عن عمه عبء وفرة الولد ، وعندما شب

(١) لم يوضح المؤلف ما وقع عندبيعة على ايضاحا كاليا ، ويقول الكوفيون ان زعيمهم الاشر كان اول من بايع عليا بالخلافة وكان من المهم عنده ان يبايع طلحة والزبير لانهما زميلاه فى الشورى . واذا كان هناك من متطلع غيره الى الخلافة فهو احدهما ولا شك ، وروى الزهرى انه دعاهما الى البيعة فتلكا طلحة فقام مالك الاشر واستل سيفه وقال : والله لتبايعنى أو لأغربين به ما بين عينيك فبايعه ، وبايع الزبير . وروى ان عليا قال لهما ان احببتهما ان تبايعانى . . فافعلوا وان احببتهما بايعكما ، فقالا : بل نبايعك . ثم قال فاما بعد انهما انما بايعاه خشية على نفسيهما وانهما كانا يعرفان انه لن يبايعهما ، وجرى بسعد بن أبى وقاص ليبايع . فقال : لا ابايع حتى يبايع الناس . والله ما عليك منى بأس . فقال : خلوا سبيله . وجرى بعدد الله بن عمر ليبايع . فقال لا ابايع حتى يبايع الناس . قال اثنى بحميل (أى بكفيل) قال لا ارى حميلا . قال الاشر : خل منى اضرع منقه قال على . . دعوه انا حميلة . انك ما علمت لسيء الخلق صفرا أو كبرا وتخلف من الانصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورائع بن خديع وقضالة بن عبيدة وكعب بن عجرة ، وهم من المهاجرين الى عثمان . وهرب قوم من اهل المدينة الى الشام ولم يبايعوا عليا . ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام . والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء اهل المدينة الا من فر ولحق بالشام .

واشتد عوده ، بنى فاطمة ابنة النبي ، ووالدة الحسن والحسين سبطي الرسول ، والحبيبين الى فؤاده ، وقد اعتنق على الاسلام وهو فى العاشرة من عمره ، وهناك من يقول انه أول من أسلم ، فى حين أن البعض الآخر يقول : ان خديجة كانت أول من أسلم ، ويقول البعض الثالث ان أبا بكر أول المسلمين (١) .

على أى حال كان على من أول ثلاثة آمنوا بالله ورسوله ، ويروى عن على نفسه قوله ان الرسالة نزلت على النبي يوم الاثنين وانه أسلم يوم الثلاثاء ، وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها كان على بن أبى طالب بدافع قرابته الى رسول الله ، وبدافع أقدميته فى الاسلام ، أبرز المسلمين الاحياء فى عام ٦٥٦ .

وكان على بطلا من أبطال القتال فى أيام فتوته وشبابه ، وكان أول من نزل الى المبارزة فى معركتى بدر وأحد بين الصفوف وتغلب على خصمه فى كلتا المعركتين ، وكثيرا ما عهد اليه النبي بالراية ليحملها فى معارك المسلمين ، ولكنه فى سنوات الفتح الاسلامى ظل فى المدينة يعمل مشاورا ومستشارا لكل من أبى بكر وعمر ، اذ عرف عنه حدة الذكاء وسرعة البديهة . وروى عن عمر بن الخطاب قوله : « على أقضانا » .

وقد أصبح على فى النهاية من أثرياء أهل المدينة . اذ لم يكن شديد التقشف كأبى بكر وعمر . وقد اختار الله رفيقته فاطمة الزهراء الى جواره منذ عهد بعيد ، فبنى على بعدها بعدد من النساء ، واقتنى الكثيرات من الاماء ، وكان خطيبا لا يشق له غبار فى بلاغة قوله ومن أعلم الناس بأعراف الاسلام وسننه . وعندما بويع بالخلافة فى عام ٦٥٦ ، كان قد بلغ أوسط العمر ، ويمتاز بالقصر والبدانة ، وله حية كبيرة متدللية .

وواجه على بعد توليه الخلافة موقفا فى منتهى الحطورة ، وكان قد أم للمدينة ابان سنى الفتح عدد كبير يبلغ الألوف من العبيد والموالى الذين يمتنون الى مختلف الجنسيات والشعوب . وقد جاءوا جزءا من الفء أو موالى للكثيرين من المحاربين وكان الكثيرون منهم أو معظمهم قد اعتنق الاسلام مما مكنتهم من تحسين أوضاعهم فى المدينة المقدسة . وقد سمح لعدد من العبيد والموالى المحررين من ذوى المواهب الخاصة أن يمارسوا

(١) كان على بن أبى طالب أول من أسلم من القتيان .

ممنهم في المدينة بحرية ، شريطة أن يدفع العبد لسيده شطرا من مكاسبه . ولقد رأينا من قبل أن أبا لؤلؤة الذي قتل عمر بن الخطاب كان عبدا للمغيرة بن شعبة وكان من الحاذقين في أعمال النجارة ، وكان عدد من كبار المسلمين قد ضم بعض العبيد الى بطانته ، وجهزه بالسلاح ليتولى حراسته ؛ وظل هؤلاء الموالي والاتباع هادئين مستكينين طيلة المدة التي كانت فيها الامبراطورية العربية قوية تفرض النظام على رعاياها. ولكن عندما وقعت الفوضى أثناء حصار عثمان خرج عدد من هؤلاء الموالي الى شوارع المدينة مجهزين بالسلاح يعيشون فيها فسادا ويقترفون الجرائم ، بعد أن عصوا طاعة سادتهم وتجبروا عليهم .

ولم يكن هناك من يتخيل امكان وقوع العصيان في قلب الامبراطورية وعاصمتها ، طيلة المدة التي انقضت بين فتح الرسول لمكة ، ومصرع عثمان ، ولم يكن ثمة جنود يقيمون بصفة مستديمة في مكة والمدينة . فالمحاربون العرب منتشرون في قواعدهم العسكرية على الحدود والثغور أو في الامصار المحتلة ، وهكذا تمكنت حفنة من العصاة لا يزيد تعدادها على الآلاف من فرض الحصار على الخليفة في منزله وقتله . أما وقد عاد العصاة الآن الى قواعدهم ومراكزهم ، فقد أصبحت الامبراطورية تحت رحمة العبيد والموالي .

ومثلت القبائل البدوية المحيطة بالعاصمة خطرا ثالثا يهددها . وعلى الرغم من أن هؤلاء البدو كانوا دعامة الجيوش العربية التي احتلت فارس واجتاحت امبراطورية الروم سعيا وراء نشر العقيدة الا أن غريزة النهب كانت متأصلة في نفوسهم وطبائعهم . وأوحى الفتن التي وقعت في المدينة لقبائل الحجاز ، بأن سلطة الحكومة قد وصلت الى حد الانهيار والانحلال . وان العودة الى أيام النهب والسلب في الجاهلية قد أصبحت مرتقبة وشيكة ، وأخذت جماعات من راكبي الابل المسلحين تظهر هنا وهناك ، تنتظر فرصتها لنهب المدينة ، أو سلب قطعان الماشية التي تملكها قبيلة منافسة . ولم تتوافر في المدينة قوات لمواجهة هذه الفوضى . وكان ثمة كبير شك في ولاء جيوش مصر والعراق . وعلى الرغم من أن جيش سوريا لم يشترك في العصيان الا أنه يدين بالولاء لقائده معاوية وهو من الامويين . وعلى الرغم من أن أهل المدينة قد تقاعسوا بدافع الخوف أو الغيرة الضيقة الحدود عن نصره عثمان . إلا أنهم فزعوا الآن من رؤية هذا الخطر الداهم الذي يهدد كل سلطة بالانحلال . ولاريب في أن الوضع في المدينة لم يكن ليقل في خطورته الآن عن الوضع العام

ابان الردة ، بعد وفاة النبي ، وراح طلحة والزبير والكثيرون من الصحابة والانصار يحثون عليا على ضرورة فرض الانضباط بمعاقبة قتلة عثمان .

ورأى الخليفة الجديد نفسه يواجه قرارا ذا خطورة هائلة ، ولو تجمعت قريش كلها يؤيدها الانصار وصحابة رسول الله لتأييد الخليفة الجديد في مسعاه للثأر من القتلة ، قتلة خليفة رسول الله ، لا عثمان ، لتحديدهم لسلطان الخليفة المقدس ، لكان في الامكان القضاء على هذه الروح المتفشية من التمرد والعصيان . وكان لابد لمعاوية في مثل هذه الحالة وهو القائد لجيش موال مخلص ، من أن يجر جرا لتأييد الخليفة الجديد ، وكان لابد لقيام الخليفة الهاشمي بالثأر لقتل الخليفة الاموي ، من أن يرأب الصدع الناشئ بين البطينين المتنافسين من بطون قريش . ولكن عليا على الرغم من بكائه عثمان وندبه مصرعه لم يقم بأية خطوة للثأر من قاتليه ، متظاهرا كما يبدو بعجزه عن ذلك لافتقاره الى القوات الكافية لذلك ولانتشار الفوضى في كل مكان .

وواصل الزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ، وهم قادة المسلمين والباقيون من أعضاء الهيئة الاستشارية غير الرسمية حثهم للخليفة الجديد على الثأر من قاتلي عثمان ، وان كانوا هم أنفسهم قد تقاعسوا عن نصره عثمان أو معارضة قتله ، وكان موسم الحج قد حان ابان حصار عثمان في داره ، فأوفد الخليفة ، الشيخ المحصور ، عبدالله بن عباس ، ابن عم النبي ليتولى قيادة الحجيج . وعندما عاد ابن عباس من مكة بعد انتهاء موسم الحج ، وكان عثمان قد قتل ضم صوته الى أصوات المستشارين الآخرين بالمطالبة بدم عثمان . ولكن عليا ظل على عجزه أو عزوفه عن القيام بأي اجراء ضد القتلة .

وظهرت في غضون ذلك مشكلة أخرى ، فلقد كان أمراء الامصار حتى تلك اللحظة من الذين اختارهم عثمان . وكانوا في معظم الحالات من الامويين ، ويبدو أن الكثيرين من المستشارين أوصوا عليا بالابقاء عليهم ولو لفترة مؤقتة . ومن الصحيح أن يقال ان معظم مظاهر النقمة في عهد عثمان ، كان قد اتخذ شكل شكاوى موجهة ضد هؤلاء الحكام . ولكن بنى أمية أصبحوا بمقتل عثمان الطرف المساء اليه ، بعد أن كانوا هم المسيئين . وما كان على ليتهم بالمحسوبية لو أبقى على العمال الأمويين في مراكزهم لفترة موقوتة على الأقل أو لو أنه عالج موضوعهم بصورة فردية وعلى ضوء أوضاع كل منهم . والمعروف أن المغيرة بن شعبه وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة والمستشارين كانوا قد أوصوا

عليا وألحوا عليه بالسبر بتؤدة في هذا الموضوع • محذرينه على الأقل من الاساءة لمعاوية ، الذي كانت امارته هي الوحيدة التي احتفظت بالهدوء والسلوك الطيب ، والذي كان على الأقل من العمال الذين عينهم عمر لا عثمان •

ولكن عليا رفض الاصغاء لكل نصيح في الموضوع • وأصر على أن يعزل فوراً جميع عمال عثمان • وبينهم معاوية ، بالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي أن عليا لم يكن يملك أى جيش فى المدينة ، وكانت سورية كلها تقف موقفا صامدا وراء معاوية • وسرعان ما أوفد الذين اختارهم هو لامارة الامصار الى مراكزهم الجديدة • وكان معظم الذين اختارهم على ، والحق يقال ، من أكثر الرجال كفاية وأشرفهم سمعة ومكانة • ولكن شعورا معكوسا من السخط كان قد انتشر الآن فى أنحاء الامبراطورية كلها • وقد تزايد أمر الدعوة الى عقاب قتلة عثمان فى كل مكان • كما انتشرت الشائعات تتمم عليا بالضلوع مع القتلة • وتمكن عامل على فى البصرة من تسلم منصبه ، لأن عبد الله بن عامر أميرها فى عهد عثمان انسحب بهدوء مذنبا لأمر الخليفة • وتمكن عامله فى مصر من تسلم منصبه بعد لاي ، لأن هذا المنصب كان خاليا منذ فرار عبد الله بن أبى سرح • لكن العاملين اللذين اختارهما للشام والكوفة لم يستطيعا دخول المدينتين ، وكانا جد مسرورين بالعودة ناجيين بحياتهما الى المدينة • وعاد الخليفة يلجأ الى الدبلوماسية بعد فشل محاولته ، ولكن بعد فوات الأوان • فقد وجه رسالتين احدهما الى معاوية والاخرى الى أبى موسى الاشعري أمير الكوفة يطلب اليهما اعلان البيعة • وقد رد أبو موسى وهو جندى ممتحن على رسالة الخليفة بعبارات تحمل الولاء ، على الرغم من لا قرشيته ، ولكنه حذر عليا من أن الفتنة مستشرية فى الكوفة ، أما معاوية فلم يرد فى تلك الآونة على رسالة الخليفة •

ولعل القارئ يذكر ولا شك •• أن قبيص عثمان الذى لوثته الدماء وأصاب زوجه نائلة التى قطعها المتآمرون وهى تذب عنه قد هربت من المدينة • ونقلت الى معاوية فى دمشق ، وسرعان ما دقت بالمسامير الى منبر الجامع الكبير فيها ، ليكون نداء عاطفيا مؤثرا يدعو الناس للثأر للدم البريء • ولم يقم معاوية حتى تلك اللحظة بأية خطوة باستثناء هذه الطريقة البارة من طرق الدعاية واتخاذ موقف التعبير عن حزنه الطاغى على أحداث تلك الايام وشرها • لكن سوريا كانت تختلف على أى حال اختلافا كليا عن العراق ومصر • وعلى الرغم من أن عمر فى البداية قد سار على سياسة من التفريق العنصرى فى سوريا كما فى

غيرها من الامصار ، وأقام جيشه فيها في قاعدة عسكرية ضخمة أقامها في الجابية ، الا أن هذه السياسة ، سرعان ما عدل عنها بصورة متدرجة بفضل الحطة التي انتهجها معاوية فقد أقام عاصمته في دمشق لا في الجابية ، وعاش معه فيها كبسار العرب وصحابة النبي حيث اختلطوا اختلاطا واضحا بجماهير الناس من أبناء الشعوب المحتلة . أما في العراق ومصر فقد غدت الجيوش العربية من جراء حياة البطالة التي تعيشها في قواعد العسكرية مجموعة من الجنود المتعاليين ، المتأهبين دائما للثورة ، في حين أن جماهير المدنيين تعيش حياتها معزولة كل الانزلال عن شئون الدولة . أما في سوريا فقد امتزجت الدولة والجيش مع الجماهير وبدلا من أن نرى فيها حشدا من الجنود المتغطرسين الكسالى نرى شعبا يقف مع الجيش وراء حاكمه معاوية .

وانصرفت الأسابيع ، وعلى لا يتخذ أية خطوة للثأر من قتلة عثمان في حين أن قميصه الملوث بالدماء مازال معلقا على منبر المسجد في دمشق ، وأحس معاوية أخيرا في شهر سبتمبر (ايلول) عام ٦٥٦ أى بعد ثلاثة أشهر من مصرع عثمان أنه بات قادرا على الرد على رسالة علي . وحملت الرسالة التي بعث بها الى الخليفة في المدينة عبارة الاستهلال التالية « من معاوية الى علي » دون أية مجاملات ترمز الى الاحترام والتوقير . ولم يكن في داخل الغلاف الا ورقة بيضاء لا كتابة فيها على الاطلاق ، واستبدت الدهشة بالخليفة ، وحار في أمر الرسالة وسأل من حوله عن مغزاها ورد الرسول بصورة لا تخلو من الصرامة ، ان ثمة ستين ألفا من المحاربين في دمشق سيكون على قميص الشهيد المخضل بالدماء ، وانهم مصممون على الثأر برأس علي لدم عثمان البريء ، بالرغم من قسمه بأنه بريء من هذا الدم (١) وهكذا ظهرت كلمة « الحرب الأهلية »

(١) توحى الطريقة التي سرد بها المؤلف قصة الرسالة بشيء من الشك في اشعزائه على في قتل عثمان ، مع أن هذا الشك لا محل له على الاطلاق ، وان عليا بريء كل البراءة من تهمة التواطؤ . أما ما يدعيه المؤلف من تقاصص على عن نصرته عثمان فمردود أصلا لان عليا أوفد ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان ، وهما أغلى عليه من نفسه . أما عدم اشتراكه هو شخصا في الدفاع القلبي ، فمردود الى ان عليا كان قد استاء من رفض عثمان تسليم مروان الى جيش مصر ، رغم نصيحته هو ، ونصيحة كبار المسلمين الذين اقترحهم رسالة مروان الى أمير مصر بقتل محمد بن أبى بكر وصحبه ، وأدى أن أورد هنا قصة رسالة معاوية كما أوردها المؤرخون العرب إل قالوا .. أراد معاوية في الشهر الثالث من مقتل عثمان أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عباس ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه «من معاوية الى علي» وقال له اذا دخلت المدينة ص

لأول مرة في تاريخ الاسلام وقصصه . وأدرك على أنه لم يعد ثمة مجال لاتخاذ اجراء حازم ، وأصدر أمره بنشر رايات الحرب والاعداد لحملة على سوريا . وأوفد الى مصر والكوفة والبصرة رسله يدعونها الى اعداد الجند .

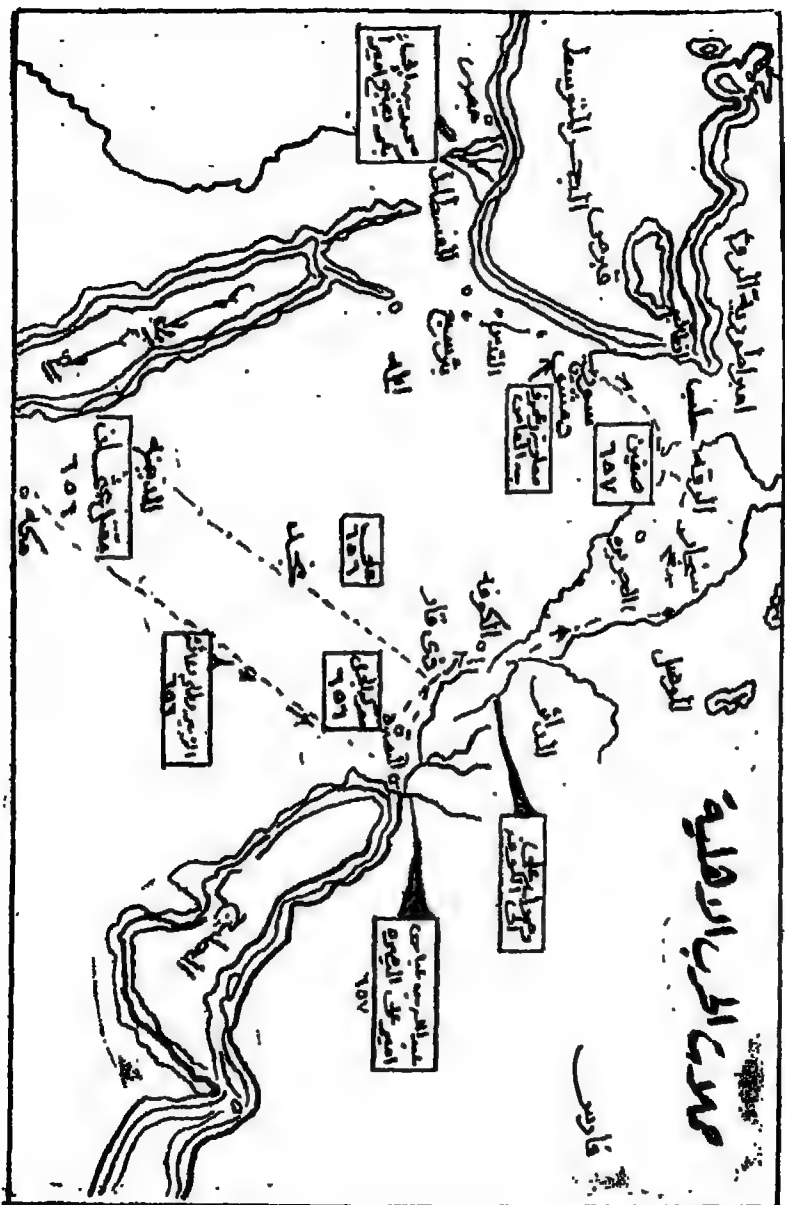
وكان الزبير وطلحة يلحفان على علي بأن يعلن عزمه على الثار لعثمان ولكنهما رأيا الخليفة يتجاهل نصيحتهما المرة تلو المرة ، وأخذت عاصفة الاتهام الموجه الى علي تشتد يوما بعد يوم . وأدى تقاعسه عن العمل الى تقوية الشكوك بأنه كان متواطئا مع القتلة . أما الحقيقة فهي أن غلبا كان لا يزال في موقف المتردد العاجز عن اتخاذ أى قرار فهو بالرغم من عدم تواطئه مع القتلة ، لم يقم بأية محاولة للدفاع عن شخصيتهم . وها هو ذا الآن ، وبالاسلوب نفسه يقف موقف المحجم ، المترقب من الأحداث

وغادر الزبير وطلحة - وهما اللذان يتلوان عليا مباشرة في المنزل وفي المكانة - المدينة الى مكة متذرعين بالرغبة في أداء العمرة ، وكانت عائشة أم المؤمنين فيها . وكانت منذ حادث الافك ، تضم في نفسها الضغينة لعل ، لحكمه بطلاق الرسول منها . ولم تنس قط اسنائه هذه . وحرى بنا أن نذكر هنا أن عائشة بنت أبي بكر ، أى شقيقة محمد الذى كان أول من اقتحم على عثمان غرفته . وأن نقول انها حاولت منع أخيها من الاشتراك في عمليات العنف . وكان عدد من الأمويين قد فروا من المدينة الى مكة فلما وصل اليها طلحة والزبير وجدوا أن الفتنة قد رسخت أقدامها فيها ، وسرعان ما ارتفعت راية العصيان في المدينة المقدسة ، وظهر طلحة والزبير على استعداد لمحاربة علي رفيقهما السابق .

ويذكر القارىء ولا ريب . . أن جماعة الكوفة من العصاة كانت تؤيد اختيار الزبير للخلافة في حين كانت جماعة البصرة تؤيد طلحة ولم يكن مع علي الا جماعة مصر . ولهذا قرر طلحة والزبير أن يرفعا لواء الثورة في البصرة أولا فخرجوا من مكة على رأس ثلاثة آلاف رجل وغايتهما

مناقض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم اليه المدينة رفع الطومار وخرج الناس ينظرون وقد علموا أن معاوية مترض ثم دخل الى على فأسلمه الطومار، فغضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ما وراءك قال انى تركت قوما لا يرشون الا بالقود . قال ممن ؟ قال : من خيبت نفسك . وتركت ستين ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق ، فقال على : منى يطلبون دم عثمان ؟ لست موتورا ترة عثمان ؟ اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان الا ان يشاء الله . . .

(العرب)



ان يقطعا الجزيرة العربية للوصول الى العراق وكان معهما مروان ابن عم عثمان وكاتم سره الذي رفض عثمان ان يسلمه الى العصاة .

ومضت عائشة في هودجها مع الركب ، وخرج أهل مكة مع الجيش يودعون في اليوم الأول من سفره وعندما انتهى الوداع وأدار المكبون ظهورهم عائدين الى مكة انفجرت الدموع من مآقي الجمع الحاشد الذي ضم عددا من النسوة ، وأطلق أهل مكة على ذلك اليوم المفجع اسم « يوم الدموع » .



كانت الامبراطورية العربية العظيمة قد ظهرت الى حيز الوجود كالبرق الخاطف في فترة خيالية لا تزيد على العشرين ربيعا ، وبدأت الآن وكأنها على وشك الانهيار والزوال في خضم لجة بدوية من الحرب القبيلية والمنازعات الدامية المشتركة . وقد ظلت نقاط الضعف في الامبراطورية الجديدة خفية عن العيان طيلة المدة التي كان فيها الناس يعملون بوحى حبهم العاطفي الصادق للنبي وخليفته المخلصين من بعده أبي بكر وعمر بن الخطاب . وقد خفت الآن موجة الحماس الأولى للعقيدة الجديدة فقد انقضى زهاء خمسة وعشرين عاما على وفاة النبي . وقد نشأ الآن جيل جديد لم يعرف النبي شخصا ولم يحس بما كان لشخصيته من جاذبية تكاد تشبه السحر .

وكانت الامبراطورية العربية القوية مهيبة كل المهابة بالنسبة الى المتطلع اليها. ولكن تم بناؤها في سرعة عجيبة . وقد بدأت التصدعات المنيرة بالشر تظهر في أسسها فليس هناك أولا أى دستور لهذه الامبراطورية ، كما ليس ثمة أى نظام ثابت لاختيار الخلفاء وقد ارتكزت قوانين الدولة على القرآن وعلى سنة الرسول من قول أو فعل ، ولم يسبق للرسول ان بحث في أى موضوع يتعلق بالخلافة .

لكن الضعف الحقيقي كان أعمق جذورا من كل هذا ، اذ كان روحيا في طبيعته . فعندما هاجر النبي وصحبه من مكة الى المدينة . كان هذا النفر القليل العدد مدقعا لا يملك شيئا . وكان عبئا في معيشتهم على حسن وفادة الانصار . ولكن هذا النفر مالئث أن حصل على ما يقيم الأود من غنائم الغزوات والحروب . وهكذا كانت الحرب في سبيل نشر الدعوة تعنى لهم الثراء والغنائم . ولكن هذه الغنائم لم تكن شيئا يعتد به ابان حياة الرسول اذ أنها تابعة اما عن قريش أو عن القبائل البدوية

المجاورة وكلها قبائل فقيرة نسبيا . يضاف الى هذا أن محمدا وخليفته الأولين كانوا لا يكثرثون بالمال أو الترف ، وحافظوا على حياة البساطة الطبيعية التي عاشوها من قبل حتى وفاتهم .

لكن انهيار امبراطوريتي الروم والفرس أدى الى اثراء كثيرين من المسلمين ثراء خياليا . وكانت الفكرة الغالبة ان فى وسع المسلمين أن يتمتعوا باطاييب الدارين . دار الدنيا من مال ومتعة وزوجات ، ودار الآخرة من نعيم مقيم فى فراديس الجنان . وليست هناك من حقيقة اصدق من تلك التى تقول ان الانسان لا يستطيع أن يعبد الهين فى وقت واحد . الهه الحقيقى واله المال ، وقد لا تعنى الثروة انها شر ، ولكنها اقرب الى قلب الانسان وأكثر تأثيرا عليه من عبادة ربه . والبحث عن العبادتين فى آن واحد لا يعنى الا شسيتها حتميا ، وهو أن يكرس المرء عبادته بشكل رئيسى لطاغوت المال . (١)

ولقد حقق العرب انتصاراتهم العظيمة بسرعة هائلة وأدى الألف لحياة الرخاء واليسال والنساء التى أصبحوا يعتبرونها الجزاء الحق للمؤمنين الى انشغال عقولهم بالنجاح الدنيوى بدلا من انشغالها بعبادة الله وتقواه . وكثيرا ما وجه النقد الى المسيحيين لأنهم يعتبرون كل ما فى الدنيا شرا من الشرور . أما بالنسبة الى المسلمين الأول ، فان الدنيا كانت طيبة الى أقصى حدود المبالغة فى الطيب .

وما كادت المطامع الدنيوية تثبت أقدامها من جديد ، حتى عادت عادات العرب فى الجاهلية الى الظهور لانها خير أدوات لتحقيق هذه المطامع ، وقد عملت العصبية القبلية والشهوة الى التآثر الناجم عن المنازعات الدموية عملها فى التأثير على العقول التى أضعف حب المال والنساء مشاعرهما الدنيوية تماما كما يعمل المرض الوبائى عمله بنجاح فى الأجسام التى سبق للاهمال أن أضعفها .



(١) يبدو ان المؤلف لا يستطيع أن يفهم السبيل الى الجمع بين الروح والمادة فهو يفترض ان الانسان اما ان يكون مادی التفكير فى حياته أو روحى الإيمان . ولقد جمع الاسلام بين هذين العاملين الاساسيين فى تكوين الانسان . فامر الناس بأن يعملوا لدنياهم وكانهم خالدون فيها ، وأن يعملوا لآخرتهم وكانهم ميتون قدا ، وعلى الرغم من صعوبة هذا الجمع عند الكثيرين لتقلب العنصر المادى عليهم ، أو لتعلقهم بالروحانيات تعلقا اعمى ، الا ان الحياة العملية تثبت ان الاسلام كان على حق فى جمعه بين الجوهريين .

ويبدو من الصعب تبرير خيانة طلحة والزبير الظاهرة لعل بن أبي طالب بعد أن ظلا يتعاونان معه كرفاق وزملاء في تقديم النصيح والمشورة لعمر وعثمان طيلة أربعة وعشرين عاما ، وبعد أن كانا قبل أقل من ثلاثة أشهر قد بايعاه بالخلافة . أما بالنسبة الى ما اتهم به علي من تواطؤ مع قتلة عثمان ، فانهما لا يفضلان عليا في موقفه هذا ، اذ كانا في المدينة أيضا عندما فرض الحصار على منزل الخليفة ، « ولم يقوما بأى عمل لمساعدته وانقاذه » . ولقد علق أحد المشتركين في هذه الفتن بقوله « ان لث اللامة في مصرع عثمان يقع على عاتق علي ، في حين يقع الثلثان الباقيان على الزبير وطلحة وعائشة » .

ولما نمت الى مسامع «علي» سير من سار الى البصرة من أمثال الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة ، قرر أن يدركهم قبل أن يصلوا اليها ولكنه وجد صعوبة كبرى في حشد قوة لهذه الغاية . فقبل ثلاثة أشهر ليس الا كان الصحابة وأهل المدينة قد اختلفوا عليه في قبول الخلافة . أما الآن فليس ثمة من يؤيده الا القليلون . وان كان الزبير وطلحة المتقلبان قد تمكنا من جمع ثلاثة آلاف رجل من أهل مكة والقبائل المجاورة لها (١) ولا ريب في أن السبب في هذا التبدل يعود الى انتشار تيار الدعوة القائلة بأن عليا قد حرّض سرا على مقتل عثمان . وأخيرا ، وبعد أربعة أشهر من مصرع عثمان خرج «علي» في أكتوبر (تشرين الاول) عام ١٦٥٦

(١) أخطأ المؤلف بمض الخطأ في تعليقه أسباب التفاف الناس حول الزبير وطلحة وانفضاضهم عن علي ، وعلى الرغم من أن تقاسم علي من الأخذ بثأر عثمان من قاتليه كان سببا أساسيا الا أن السبب الجوهرى هو وجود عائشة أم المؤمنين في الصف المادى لعل ، فلقد كان لها منزلة عظيمة رهيبة لانها ابنة رسول الله وزوجه التى انتقل الى الرليق الاملى في حجرتها . وكانت عائشة رضي الله عنها من الخطيبات البليغات المؤثرات فقد خطبت الناس في المسجد الحرام تحرضهم على الخروج مع الزبير وطلحة وقالت . . ان الفوضىء من أهل الامصار وأهل الياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا . ان عاب الفوضىء على هذا المقتول بالامس الارب . واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل استئناهم قبلة . ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم . وهى امور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم منها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عدرا خلجوا وبادروا بالعدوان ونبا قولهم من فعلهم ، نسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لاصبح عثمان خير من طباق الارض امثالهم . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى يتكل بهم قيرهم ويشرد من بدمهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه ، كما يخلص الذهب من خبئه أو الثوب من دونه إذ ماحبوه كايصاص الثوب بالماء . »

يطلب الحاق بالزبير وطلحة ولم يكن معه أكثر من سبعمائة رجل ، وأحس بضعف قوته وعجزه عن السير ، فربط على بئر في صحراء نجد . (١) وبلغته الأنباء وهو هناك بأن خصومه قد وصلوا الى البصرة وبعد أن استراح بضعة أيام أوفد محمد بن أبي بكر الى الكوفة لاقناع الجنود في قاعدتها بالانضمام اليه في زحفه على البصرة .

وكان الزبير وطلحة قد وصلا في غضون ذلك الى خارج البصرة ويذكر القارئ أن عليا كان قد أوفد أميرا اليها تسلم زمام الأمور باسمه فيها من عامل عثمان . وراح هذا الأمير يقابل الآن جماعة المنشقين وقوتهم عند مدخل المدينة . ودار نقاش حاد ، واثم البعض الزبير وطلحة بالردة عن البيعة والثورة على من بايعاه . فردا بحجتين أولاهما انهما أجبرا على بيعة على ، وثانيتهما أنه لم يتبين لهما اصرار «على» على رفض الثار لدم عثمان من قتلته الا بعد بيعته . واضافا أن الدولة الاسلامية لا يمكن أن تبقى وتعيش اذا كان يسمح ببقاء الجنود العصاة الذين يقتلون خليفة رسول الله دون عقاب . وتطور النقاش الى قتال لم يتوقف الا عند حلول الظلام . ويبدو أن جماعة الناقمين تمكنت أثناء الليل من التوغل داخل المدينة ، واستؤنف القتال عند الفجر فلما حلت الليلة الثانية كانت شوارع المدينة قد امتلأت بالقتلى والجرحى من الفريقين المتحاربين رغم اشتراكهما في الاسلام . وتم أخيرا الوصول الى هدنة وافق الفريقان على أن يبعثا برسول محايد الى المدينة يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير ويتثبت من الحقائق . فان عاد بأن الرجلين قد بايعا كرها غدت المدينة من حقهما . وان عاد ليقول العكس وانهما قد بايعا عليا ، طائعين مختارين ثم نكثا بيعتهما ، تحتم عليهما أن يفادرا المدينة ويخليها لعامل «على» ووصل الرجل في الموعد المناسب الى المدينة وكان الناس يؤدون صلاة الجمعة في مسجد الرسول . ونادى « يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أتيا طائعين ؟ وكانت النتيجة وقوع شغب في المسجد وارتفع صراخ البعض بنعم والبعض الآخر بلا (٢) .

(١) يسمى هذا الموقع موقع الربرة في نجد

(٢) تختلف رواية المؤلف من روايات المؤرخين المسلمين ، فقد ذكروا ان أحدا من أهل المدينة لم يرد على سؤال رسول البصرة الا ما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال .. «اللهم انهما لم يبايعا الا وهما كارهان» . فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يقتلونه لولا أن قام فخلصه من أيديهم عدد من الصحابة ، ومنهم محمد بن مسلمة

وكانت الهدنة القلقة مستمرة في غضون ذلك في البصرة فلما عاد الرسول دون أن يحمل ردا واضحا استؤنف القتال، ومنيت جماعة «على» بالهزيمة. وأخرج عامل «على» من المدينة بعد أن أسيئت معاملته، وابتستب الامر للثائرين . وأراد هؤلاء أن يثبتوا الدليل على اخلاصهم لعثمان فقتلوا جميع من اشترك من أهل البصرة في عملية حصار عثمان وقتله .



وبينما كانت هذه الاحداث دائرة في البصرة، كان «على» قد اجتاز الصحراء حتى وصل الى ذى قار ، الواقعة عند الفرات والتي شهدت انتصار بنى بكر على الفرس أيام الجاهلية . وكان رسل غلى المتوالون على الكوفة قد فشلوا في حشد أى نفر من رجالها لنصرة «على» بسبب معارضة أميرها أبى موسى الاشعري ، الذى أصر على انه سمع رسول الله نفسه يقول . . بأن على المسلمين اذا ما رأوا فتنة الا ينضموا اليها (١) .

وقد ضم رسل على محمد بن أبى بكر الذى اشترك فعلا في قتل عثمان وعبدالله بن عباس بن عم النبى ، ومالكا الاشر المحرض الاول على

== وقال له احد متقليه : أما سمعت ما وسعنا من السكوت . وعند ذلك رجع الرسول الى البصرة لينقل الى أهلها ما سمعه وما رآه . (العرب)

(١) يبدو أن المؤلف أراد أن يقول على لسان أبى موسى الاشعري ما لم يقله ، وأن ينسب الى النبى قولاً لم يقله . إذ نقل المؤرخون المسلمون عن أبى موسى قوله «وإذا كان ما كان فانها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القائم والقاعد غير من القائم، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جثومة من جراثيم السرب فافقدوا السيوف وانصلوا الاسنة ، واقطعوا الاوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلى هذه الفتنة » . فتكلمت رسل على ، وافلظت لآبى موسى القول الى ان هب الحسن بن على ، وكان ممن أرسل في هذه الوفاة فقال . يا أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا الى اخواتكم . فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه ، والله لان ياتيه اولو النهى مثل في العاجلة وخير في العاقبة فاجيئوا دعوتنا وأمنونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا رضوانه . وقال لهم الحسن انى غاد فمن شاء منكم ان يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء » ، ففقر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر ، وأخذ بعضهم الماء وقابلته الجنود البرية بلدى قار فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا مقنا اخواننا من أهل البصرة . فان يرجعوا فذلك ما نريد وان يلحوا داويناهم بالرفق وبإيثارهم حتى يبدوا بظلم ، ولن ندع أمراً قبيلاً صلاح الا آثرنا على ما فيه الفساد ان شاء الله .

(العرب)

الفتنة في الكوفة ، وقائد العصاة الذين ذهبوا منها الى المدينة . ولا ريب في ان اختيار علي لقتلة عثمان قادة لقواته ، قد عزز الاتهام الموجه اليه بالتواطؤ وهو الاتهام الرئيسى الذى تعرض له . وسرعان ما أصدر «علي» أمره بعزل أبى موسى من منصبه ، وعين أميراً جديداً للكوفة يتولى القيادة فيها . والسحب هذا الجندي العجوز دون اعتراض ، وربما دون أسف اذ علق بقوله : انه صرف ثلاثين حولا يقاتل أعداء الله والكفار . ولكنه لم يقتل مسلماً واحداً في حياته . ومهما كانت المطامع المتنافسة عند القادة في صراعهم على السلطان فليس نعمة من شك في أن الحيرة قد استبدت بالكثيرين من أبطال الحروب ذوى العواطف الدينية العميقة الجذور . فقد حز الأمل العميق في نفوس هؤلاء من رؤيتهم هذا الانهيار البين لوشائج الاخوة الدينية التي كانت لهم وحيهم الدائم في حياتهم والتي وثقوا من انها ستتمكنهم من السيطرة على العالم بأسره واخضاع الجنس البشرى كله لطاعة الله . أما الآن فقد ظهرت ثلاث شيع في الميدان تتنافس على الخلافة ، أولاها شيعة علي ومعه حفنة من الاتباع في ذى قار ، وثانيها شيعة طلحة والزبير ومقامها في البصرة . وثالثها شيعة معاوية الذى كان يحاول كسب الوقت في دمشق . أما أعداء الله من فرس وروم فقد نسيهم الناس .

وعندما سمع «علي» أن رسله الأول الى الكوفة منوا بالفشل، أوفد ولده الأكبر الحسن الى المدينة بينما ظل هو مرابطاً عند ذى قار ، ولقد كان الحسن والحسين سبطى رسول الله ، والقريين الى فؤاده ، ولم يكن يعمل قط من اللعب معهما ، وقد رآهما عدد كبير من الصحابة يجلسان في حجره أو يتسلقان على كتفيه ، وهو يبتسم ، وادى وصول الحسن الى الكوفة الى تحول التيار . فقد تأثر كثيرون من صحابة الرسول تأثراً عميقاً من رؤيتهم سبطه وهو يناشداهم العون ، وسرعان ما تجمع نحو عشرة آلاف رجل خرجوا من الكوفة للانضمام الى علي .

وعندما اقترب جيش الخليفة من البصرة خرج الزبير وطلحة علي رأس قواتهما للقائه ولم يكن كل من في البصرة معهما . وانضم بنو بكر، وهى قبيلة المثنى الباسل الى جيش علي . أما بنو تميم فقد قرروا البقاء على الحياد . وبات جيش «علي» الآن ، وهو الأقوى وكانت سنة أهل الجاهلية أن تركب النساء هوداجهن ويصحبن رجالهن الى المعارك لتشجيع المحاربين وحضهم على القتال ، وها هى ذى أم المؤمنين عائشة تستقل الآن هودجها لمرافقة جيش طلحة والزبير .

لكن عليا كان راغبا عن القتال فتوقف على مسيرة من خصومه وأوفد اليهم القعقاع ذا العزيمة المتقدة الذى أبلى أحسن البلاء فى الفتوحات الاولى يحضهم على التفاوض ، وقال لهم ان الخليفة الجديد لا ينكر ضرورة معاقبة قتلة عثمان . ولكنه ينشد الوقت لأداء هذه المهمة . وكان عدد كبير من هؤلاء الرجال من الجنود الذين عملوا تحت قيادته أيام الفتوحات ، وأضاف ان قتلهم بالجملة لن يؤدي الا الى المزيد من المنازعات ، فمن الواجب أولا إعادة الامن والنظام الى نصاييهما ، ومن ثم تصبح الفرصة متاحة لمحاكمة القتلة بطريقة شرعية ونظامية ، وكان عرض القعقاع معقولا ، كما كانت حجته مقنعة ، وأخذ الناس يراجعون عقولهم فلعل عليا برىء حقا من تهمة التواطؤ . واذا كان الخلاف لا يعدو مسألة التفضيل فى الاسبقية الزمنية ، وهل يكون عقاب القتلة أولا أو إعادة الامن والنظام الى الامبراطورية ، فان فى الامكان التفاوض وبحث هذا الموضوع وقد وافق طلحة والزبير على مبدأ التفاوض .

وسر «على» غاية السرور من احتمال التفاوض بدلا من الحرب الاهلية، وسارع يقترب بمعسكره من معسكر خصومه ، ليسهل أمر الاتصال بين المعسكرين ، ولكن كان معه فى جيشه القادم من الكوفة جميع العصاة السابقين من جنود تلك المدينة الذين اشتركوا فى قتل عثمان ، وهم الذين يطالب طلحة والزبير بعقابهم ، ولهذا فقد أمر هؤلاء بالبقاء بعيدين فى الصحراء حتى ينتهى من أمر المفاوضات ، وظل معهم هناك مالك الاشر أشد الثائرين خصومة لبنى أمية .

وبدأت المفاوضات حثيثة آنذاك بين على من جهة وطلحة والزبير من الجهة الاخرى وخرج على من صفوف جيشه ممطيا جواده ليلقاه بين الجيشين طلحة والزبير . وأعرب الرجلان عن تصميمهما على معاقبة قتلة عثمان . ورد على بأنه متفق تماما معهما فى رأى وأنزل لعنة الله على قتلة عثمان . وأضاف ان الطريقة المثلى للثار من القتلة لا يمكن أن تتبع فى هذه اللحظة وكل ما ينشده هو كسب الوقت .

وكان الزبير قريبا لرسول الله ، فهو ابن عمته ، وابن عمه على فى الوقت نفسه وكان الرجلان قد عرفا بعضهما تمام المعرفة منذ عهد بعيد واشتركت حياتهما فى الكثير من الامور وعندما التقيا الآن بين جيشيهما ، اخذ على يذكر الزبير بذكرياتهما المشتركة فى فتوتهما وشبابهما ، عندما كان الايمان يعمر قلوبيهما ، ويتقدان حماسة وغيره على الدين ، وحبا لرسول الله ، وزاح يتلو على مسامعه ما قال لهما رسول الله ، مرة ، ومارد

به «على» أو الزبير تلك المرة . يا لها من أيام رائعة ! وتفجر الدمع في عيني الزبير وراح يقسم بالله على ألا يحارب عليا أبدا . ومما يجدر ذكره ان عليا كان معروفا ببلاغته في القول وقوة حجته .

ولاحث تباشير الخير في نتائج المفاوضات ، وخفت حدة التوتر ، وانصرف الجيشان الى الراحة والنوم في تلك الليلة ، وقد تخليا عن شيء من الحذر والحيلة اللذين كانا موضوع مراسهما حتى تلك الليلة ، لكن آخر ما يرغب فيه قتلة عثمان هو أن يعقد الصلح ويتم التفاهم بين الفريقين ، اذ ان هذا التفاهم لا يعني الا ان عليا وعد خصميه بعقابهم . وعلى الرغم من تخلفهم بعيدا في الصحراء الا ان لهم عيسونا ورفاقا في الجيش كانوا ينقلون اليهم سير المفاوضات وتطورها . واجتمع هؤلاء القتلة في الليل ليتدبروا أمرهم ويقرروا الاجراء الذي يجب عليهم اتباعه ، واتفقت كلمتهم على ان التفاهم بين علي وبين طلحة والزبير سيؤدي الى القضاء عليهم . وحزموا أمرهم على ان سبيلهم الوحيد للبقاء والحياة ، هو في أن ينشب القتال بأي شكل من الاشكال بين الفريقين . وانصرم الليل بطوله في مثل هذا النقاش وراحوا قبيل الفجر يمتطون جيادهم ويتفرقون بهدوء تحت جناح الظلام . وكان قتلة عثمان من مختلف القبائل كما كانت هذه القبائل نفسها ممثلة في جيش البصرة والكوفة ، وهكذا قرر هؤلاء المتعصبون أن ينسلوا بهدوء كل الى صفوف وحدته القبلية التي تحارب الى هذا الجانب أو ذاك (١) .

ولم تكد تطل خيوط الفجر الاولى ، حتى عم الضجيج الجيشين ، وارتفعت الصيحات من كل جانب مطالبة بالاستعداد للقتال ، « لان العدو قد داهمنا في غلس الليل ناكثا بعهده » . وعندما هرع الزبير وطلحة الى رجالهما يسألان عما حدث ارتفعت الاصوات قائلة : « لقد أطرقنا أهل الكوفة ليلا . ولقد عزم «على» على ابادتنا في بحر من الدماء ، ولم تكن مفاوضات الامس الا خدعة » . وعندما هب «على» من نومه يسأل عن السبب في الضجة ، كان هناك رجل يقف الى جانبه ليقول له . . لقد دهمنا

(١) يصر جلوب هنا على اخفاء الدور الذي لعبه الثوريون وفي مقدمتهم اليهودي عبد الله بن سبا واتباعه في هذه المعركة ، فهو ينسب الخدمة التي أدت الى القتال الى قتلة عثمان من رجال جيش علي ، بينما يجمع مؤرخو المسلمين على أن البسائيين هم الذين لعبوا هذا الدور القدر ، تحقيقا لخطتهم في تمزيق وحدة العرب والمسلمين .»

اهل البصرة ، وقد عزم طلحة والزبير على ذبحنا . لقد تعرضنا للخديعة ، وظلت هذه الصيحات تعلو في الجيشين وتتناقلها الاصوات ، بينما سارع الجنود في حمى الذعر الى ارتداء دروعهم وانتضياء سيوفهم . وضاعت صيحات «على» الى رجاله بأن يصمدوا وان في الأمر خدعة فلا شيء قد حدث، في غمرة حمى الذعر التي انتابت المعسكر كله . لقد فات الأوان، ولم يعد هناك سبيل لتدبير ، وتطايرت السهام من كل جانب، وسرعان ما احتدم القتال بين الطرفين ودارت رحاه بعنف أحال المعركة الى اضطراب وفوضى . فلقد خيل لطلحة والزبير ان عليا قد خدعهما، وتصور رجال علي ان طلحة والزبير قد خدعاهم ولم يطلع النهار في ذلك اليوم الا وكانت المعركة قد دارت على أشدها . وضاعت جهود «علي» لوقف القتال عبثا . وأدى احساس كل من الجيشين بخديعة الجانب الآخر الى احتدام أوار المعركة . وكان الصراع الآن ، كما هو شأنه في كل حرب أهلية ، أشد هولا ومرارة منه أيام الحروب مع الكفرة والمشركين . ولم تكن المعركة الآن صراعا بين عربي وعربي أو مسلم ومسلم ، وانما وجد أبناء القبيلة الواحدة انهم يتذابحون الآن ، اذ أن القبائل نفسها كانت قد تقسمت اiban الحروب مع الفرس ، فاقام بعض أفرادها في البصرة بينسا اقام البعض الآخر في الكوفة .

وعندما بدأت المعركة انسحب منها الزبير تنفيذا للقسم الذي أقسمه في اليوم الفائت ألا يحارب عليا ، وراح يتجول في واد قريب من ميدان القتال فلقبه على ما يبدو عابر سبيل مسلح ، فقاتله وقتله . وهكذا مات هذا البطل العظيم من أبطال المسلمين الاوائل مثل هذه الميته المغمورة التي لا جدوى منها (١) . وأصيب طلحة في غضون ذلك بسهم فنقل جريحا الى البصرة حيث توفاه الله فيها بعد قليل ، وعندما افتقد جيش الثائرين قائديه بدأ يضعف ويتخلى عن مواقعه .

وكان القوم قد دفعوا بالهجين الذي يحمل أم المؤمنين عائشة في هودجها الى قلب المعركة . حيث أخذت تحض الرجال على القتال للثأر من قتلة عثمان . وعندما بدأ جيش الثوار في التراجع أصبحت عائشة في

(١) يقول المؤرخون العرب ان الزبير ترك ارض المعركة واراد اللحاق بالمدينة ، فلم يسيره عمرو بن جرموز فاتبه حتى اذا كان في وادي السباع قاتله وقتله .

هودجها وراء صفوفهم تواجه جيش على المتقدم • قارتفت الصنيحة بأن أم المؤمنين في خطر ، والتف حول اليهودج جماعة من شجعان أهل البصرة ندبوا أنفسهم للدفاع عنها ، ولو كلفهم هذا الدفاع أرواحهم • وسرعان ما استعر أوار القتال من جديد ، بعد أن كان قد بدأ في الخفوت ، وارتفعت راية إلى جانب الجمل ، وهب البواسل إلى الامام يذبون عنه ويمسكون بخطامه • وهكذا عاد الحب الشديد الذي طالما استعر في قلوب هؤلاء الناس لرسول الله ، والذي كان قد بدأ في الخفوت ، إلى الانتقاد بقوة ضارمة ثانية عندما منعه هؤلاء الناس أن يوجه الاثير في خطر • وانتظمت الصفوف من جديد حول جمل أم المؤمنين • وسقط أكثر من سبعين من شجعان العرب قتلى أمام الجمل وهم يذبون عنه ويمسكون بخطامه ، وأدرك على أن الجمل هو حافز جيش البصرة على الصمود ، فأوقد رجلا ليعقره من خلفه • وسقط الجمل سقطة مريعة وهو يصرخ صرخة هائلة ، وانقلب اليهودج ، وتحطمت صفوف المدافعين عنه ، وانهزم الجيش المغلوب إلى البصرة • وتقول روايات العرب التي لا أشك في مبالفتها أن مئات السهام أصابت اليهودج دون أن تصاب صاحبتة بأذى (١) •

ويذكر المؤرخون العرب أرقاما مريسة عن قتلى هذه المعركة التي عرفت عندهم بمعركة « الجمل » • ولم يكن هؤلاء العرب قد عرفوا معنى الهزيمة مرة واحدة طيلة الخمسة والعشرين عاما الماضية • وكانوا قد تعودوا على النصر تماما كما تعودت جيوش الاسكندرية من قبلهم أو جيوش نابليون من بعدهم • وهاهم الآن لأول مرة منذ جاء محمد مبشرا برسالتة •

(١) يقول مؤرخو العرب ان أهل البصرة ظلوا يقاتلون حول الجمل وداجزهم يقول : «

نحن بنى ضبة اصلا ب الجمل

ننمى ابن عفان باطراف الاسل'

الموت احدى منسدا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجمل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل ، وان الناس لا تسلمه أبدا وفيهم ميين لطرف نادي :

امقروا الجمل ، فجاهه انسان من خلفه ومقره ، فسقط وسقط اليهودج وكأنه قنفل مما رمى فيه من النبل ، فجاه محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر ، فقطعا مرفعة الرجل واحتملا اليهودج فنجياها من القتل ، وخرج بها محمد حتى ادخلها البصرة •
(العرب)

يقاتل المسلم منهم أخاه ويقتله ، وهم لا يخشون الموت . فقد ألفوه وتعودوا عليه ولقد سمعنا عن قصص كثيرة ، رويت عن أناس نذروا أنفسهم للاستشهاد قبيل المعركة وراحوا عامدين متعمدين يبحثون عن الموت ويطلبونه ، وجرت عادة الذين يصابون بجراح خطيرة منهم ، على أن يزحفوا الى اتون المعركة يطلبون سرعة الاستشهاد فيها لكن هذه الروح انما نشأت ونمت في الحروب مع المشركين والكفرة ، ذلك لان الوعد الفوري بدخول الجنة انما يطبق على من يستشهد في قتال غير المسلمين . وقد نص القرآن من الناحية الاخرى على ان الجحيم مصير كل من يقتل مسلما عامدا متعمدا ، لكن العادة التي ألفها هؤلاء مدة ربع قرن ، لم يكن من السهل تبديلها ، ولهذا فان كثيرين ممن قتلوا في هذه الحرب الاهلية ماتوا وعبرة « الفردوس » على شفاههم .

وقد دارت معركة « الجمل » في ديسمبر (كانون الاول) من عام ٦٥٦ وعندما تراجع العدو الى البصرة ، أمر «علي» رجاله بوقف المطاردة، وبوقف أية عملية من عمليات القتل فورا . ومن المحتمل أن يكون عدد من اشترك في المعركة خمسة عشر ألفا في كل جانب وأن يكون عدد قتلاها ستة آلاف دفنوا في أرض المعركة (١) . وعندما جرى الى «علي» بسيف الزبير ، بكاه وصب اللعنات على رأس من قتله ، وأخذ يذكر الناس بالاعمال البطولية الخارقة التي قام بها الزبير في حياته اعلاء لكلمة الله . وتقوم الآن بلدة الزبير في المكان الذي قتل فيه وقد أطلق عليها هذا الاسم تخليدا لذكره . وبذل «علي» جهد طاقته عند دخوله البصرة لاحلال الوفاق بين جميع الفرقاء ، وتمكن مروان وغيره من الامويين من الفرار فمضى بعضهم الى المدينة التي وقفت حتى ذلك الحين موقف الحياد وبعضهم الى معاوية في سوريا ، واذا ما استثنينا هؤلاء الامويين فان من تبقى من الجيش المهزوم في البصرة عومل معاملة متسامحة ، وحض «علي» الناس على نسيان ما فات بما عرف عنه من لين وتسامح، وماتميزت به طبيعته من يسر ورفق ، فقد حزم أمره على توحيد الامبراطورية لا على الانتقام من أعدائه .

وبعد أن قضى على قرابة اسبوعين في البصرة ، انتدب لامارتها

(١) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ان عدد القتلى بلغ في هذه المعركة ثلاثة

ابن عمه عبد الله بن عباس ، ثم زحف بجيشه على الكوفة ، وأكرم قبل رحيله وفادة أم المؤمنين عائشة وعاملها بكل اجلال واحترام ، ثم أعادها الى المدينة يصحبها أخوها محمد بن أبى بكر ، وتقوم على حراستها ثلة من الرجال والخدم . وقدر لها أن تعيش بعد هذه المعركة زهاء عشرين عاما أخرى ، اعتزلت ابانها السياسة وانصرفت الى التأملات الطويلة والتعبد الى جانب ضريح الرسول، ويبدو أنها كانت تكثر الحديث فتروى لزائريها أو للحجاج الذين يقدون لزيارة قبر رسول الله ، القصص الكثيرة عن حياته .

ودخل على الكوفة فى شهر يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٧ ، أى بعد ثمانية أشهر من مقتل عثمان ، واتخذ منها عاصمة لخلافته .

كان السبب الظاهرى للثورة على عثمان ، النقرة على مانسب اليه من محسوبية والى عماله من رشوة وقساد ، ولكن هذه الثورة لم تكن مجرد انتفاض على الأمويين . إذ أن ابن القبيلة العربى كان ولا يزال ديموقراطى النزعة والطبيعة . وينظر البدوى نظرة التجارة لاسرة الشيخ ولكنه يميل على الرغم من اعترافه بسلطان الشيخ الى تحديه وغصيان أمره دائما فهو لا يولع باحترام الالقباب والامتيازات . وينظر نظرة الامتهان لكل من يعيش فى المدر والمدينة وقد ثار هؤلاء البدو على ارسنقراطية الامويين لان الامويين كانوا فى الحكم ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى استبدال الهاشميين بالامويين وها هم يرون عليا الآن يعين ابن عمه عبد الله بن عباس لامارة البصرة ، ويشهدون بنى هاشم يحيطون به من كل جانب .

وبالاضافة الى هذا العنصر من ازدهار البدو لكل من يتكبر ويتغطرسن ، وجعلت هنالك أيضا قوة أكثر خطورة واثرا ، وهى قوة الاشتراكية الدينية العميقة التى ينادى بها بعض المتعصبين من أمثال مالك الاشتر ، ولايتشيع هؤلاء المتعصبون لأحد ، لا لبنى أمية ولا لبنى هاشم ، وانما هم يحملون بقيام دولة يحكمها الله ، ويكون فيها أولياؤه ، هم الحاكمون المطلقون . ولا ريب فى ان القارىء الانجليزى يذكر قيام فئة فى الجيش أطلقت على نفسها اسم دعاة المساواة (Levellers) أو اشياع الملكية الخامسة ، وذلك بعد اعدام شارل الاول ، وكان توماس هاريسون قائد هذه الشيعة مخاربا باسلا ، يريد من انجلترا أن يحكمها الله ، عن طريق وسطائه ،

الذين لا يتجاوز عددهم سبعين من الصالحين اسوة بمجلس «السانهدريم» عند قدامى العبرانيين ، وكان يرى ان هؤلاء الصالحين هم الذين يقيمون حكم الله والقديسين . وسرعان ما نظر هؤلاء الناس الى اوليفر كرومويل (١) نظرتهم الى الطاغوت أو اله الخطيئة . ولا ريب في ان هؤلاء المتعصبين المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الخوارج . أخذوا ينظرون الى على، نظرة الانجليز من دعاة المساواة الى اوليفر كرومويل .

وكانت الفتنة قد أخذت تختمر في غضون ذلك في مصر . وعندما خرج العصاة من الفسطاط الى المدينة في العام الفاتت أى في مستهل عام ٦٥٦ لحصار عثمان ، خرج رجل يدعى محمد بن أبى حذيفة فاغتصب السلطة في مصر مستغلا فرصة هروب أميرها ابن أبى سرح ، الى فلسطين وعندما نودى بعلى خليفة على المسلمين فر ابن أبى حذيفة الى الشام ، واختار على محمد بن أبى بكر ، بعد واقعة الجمل أميرا على مصر . وكان محمد من الذين اشتركوا في قتل عثمان ، فأدى تعيينه لهذا المنصب الى تصديق الناس لدعوى معاوية من ان عليا نفسه قد رتب خطة القتل ، ليتسلم زمام الحكم .

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر ، يعيش في المدينة منذ اقالة عثمان من منصبه ، وكان من أشد ناقدى الخليفة الشيع وشائثيه . ولكن عندما وصل العصاة الى المدينة وحاصروا دار عثمان ، انسل عمرو من المدينة ، الى مزرعة يملكها في منطقة بشر السبع وحزم أمره بما عرف عنه من دهاء وسعة حيلة ، على أن يظل بعيدا عن الخلاف والأذى الى أن يتضح الجانب الفائز في المعركة ، وعندما وصل اليه نبأ مبايعة على خليفة للمسلمين استشار ولديه فيما يجب عليه أن يفعله ، فأوصى أحدهما بأن يظل في عزله في مزرعته ، بينما نصحه الثانى بأن يمضى الى معاوية في دمشق . ويقال ان عمرا رد على ولديه بأن السبيل الاول هو مايفرضه الدين ، وان السبيل الثانى هو ما يتطلع اليه الطموح الدنيوى ، ويكفى أن نقول ، بأن عمرا مضى الى معاوية في الشام ليربط مصيره بمصيره

(١) دب الصراع بين الملك شارل الاول وبين البرلمان في عام ١٦٤٢ واختار البرلمان اوليفر كرومويل لقيادة جيشه الذى أطلقوا عليه اسم « ذوى الرموس المستديرة » وقد تمكن كرومويل من هزيمة جيش الملك بعد مباركة دامية واسره ، ثم حاكمه وأسلمه وأصبح كرومويل حاكما مطلقا في انجلترا حتى عام ١٦٥٩ ، عندما مات ، لتعود الملكية بعد فترة وجيزة .

عندما بلغته انباء معركة الجمل وزحف «على» على الكوفة . ومن المحتمل ان يكون عمرو كارها لعل ، لسبب نجهله ولا نعرفه .

ولكن النقطة المهمة في الموضوع ان عمرا كان رجلا ذا دهاء وحدة ملاحظة ، وانه كان يسعى الى اعلاء مركزه الشخصي . واني لاكاد أجزم بأنه ما كان لينضم الى صفوف أعداء على ، بعد أن فاز هذا بمعركة ضخمة كمعركة الجمل ، لولا انه أدرك بثاقب بصره ان معاوية هو الفائز في النهاية . ويبدو لي ، انه كانت هناك نواح في شخصية على ، حملت الدهاة من الناس على توقع فشله ، ولا أستطيع أن أفترض شيئا سوى ان نواحى الضعف في هذه الشخصية تمثلت في التردد ، والميل الى المهادنة ، والميل الى الاستكانة وان عليا كان يقتدر الى الحيوية القاسية التي يحتاج اليها كل الاحتياج لتذليل هذه العواصف الهائجة في المجتمع المضطرب الذي كان يتطلع الى قيادته .

وجريا مع رغبته في تجنب الحرب مع معاوية بعث اليه على برسالة أخرى ، من الكوفة هذه المرة يطلب اليه فيها عدم الخروج على اجماع الامصار ، والاعتراف بخلافته ، ورد معاوية بأنه لن يبايع عليا الا بعد معاقبته لقتله عثمان . وأدرك على الآن ان المفاوضات لم تعد مجدية ، فخرج من الكوفة على رأس جيش قوامه خمسون ألفا من الرجال ومضى يسير صعدا مع نهر دجلة ، فاجتاز المدائن الى الموصل ثم اتجه غربا الى سنجار ومنها الى الرقة على نهر الفرات . وصعد مع النهر بعد أن عبره، ماشيا على ضفته الغربية الى أن التقى بجيش معاوية في صفين الى الشمال الغربي من الرقة .

يجري الفرات في هذه المنطقة في واد تحيط به تلال رملية منخفضة والوادي ضيق في معظم الاماكن . وقد لا يتسع عرضه أحيانا عن بضعة مئات من الياردات ولكنه يتسع أحيانا أخرى ، تاركا مساحة من الاراضى المنبسطة على هذا الجانب أو ذاك .

وهكذا التقى الجيشان في شهر ابريل (نيسان) أو شهر مايو (ايار) من عام ٦٥٧ في مثل هذه الارض المنبسطة على شاطئ النهر ، تحيط بها الصحارى الرملية من الجانبين وتقول الروايات التي لا تخلو من المبالغة المألوفة ان كلا من الجيشين كان يعد خمسين ألفا .

وبدأ على ، كمسا فعل قبيل موقعة الجمل يعرض للتفاوض على خصومه ، وكان معاوية في مزاجه أكثر ميلا للحذر والحيلة من على بن أبى

طالب ، ولذا فقد كان عزوفا عن أن يجازف بكل شيء فى معركة واحدة ثابتة . واكتفى بأن يطلب معاقبة قتلة عثمان وكان على قد قطع شوطا بعيدا فى طريق استحالة تحقيق هذا الهدف . فقد أوفد محمد بن أبى بكر ليكون أميرا على مصر . وكان الخارجى المتعصب مالك الاشتر أحد كبار القادة المسئولين فى جيشه . ولا تعنى أية محاولة لالقاء القبض على الاشتر الا قيام فتنة فى جيش الكوفة الذى يؤلف الشطر الاكبر من قوات على . وبدا ان ليس ثمة خلاص له من هذه الورطة . وحرى بنا ان نتذكر دائما بأن الثأر العائلى كان ولا يزال يعتبر بالنسبة الى العرب واجبا مقدسا . وحتى النبى نفسه بما عرف عنه من تسامح ولين وميل الى الصلح قد أقر شرعية الثأر(١) . وأنا لا أود أن أوحى هنا بأن معاوية لم يكن مدفوعا بطموحه الشخصى ، ولكننى أود أن أقول ان انصاره كانوا يصدقونه ويعتقدون انه على حق فى اصراره على الثأر . وانهم كانوا لا بد أن يتخلوا عنه متهمينه بالجبين لو انه أظهر ميلا الى التفاهم .

وعندما وصلت المفاوضات الى هذه المرحلة من الجمود تحدى «على» معاوية على أن يسويا القضية بمبارزة شخصية بينهما تكون نتيجتها الحكم الفاصل بينهما . ولقد كان على من أعظم فرسان المسلمين فى حروب النبى ، وكان لا يزال يفكر فى هذه الناحية على الرغم من ان منظر الرجلين كان لا بد وان يبدو قريبا عند المبارزة ، لانهما كانا قد ترهلا ووصلا الى أوسط العمر ، يضاف الى هذا ان التحدى كان يفتقر على الرغم من انسجامه مع فروسية عهد الجاهلية القديم ، الى الحكمة وسداد الراى من الناحية السياسية . فقضية على تقوم على الحقيقة الواقعة وهى انه الخليفة الشرعى ، ومن هنا كان مما يجفو المنطق أن يحمل صراعه طابع الصراع الشخصى ، وأن يظل على انه صراع بين الدنيا والآخرة . على أى حال رفض معاوية وهو السياسى الهادى البارد الدم قبول تحدى خصمه معتبرا عن المبارزة .

وكانت المناوشات البسيطة والمبارزات الفردية مستمرة فى غضون ذلك ، ولعل من الغريب كل الغرابة ان عدد الصحابة الى جانب معاوية

(١) اعتقد ان المؤلف اسماء فهم كلمة «القصاص» في الدين الاسلامى والواردة في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب » فالتقاص لا يبنى الثأر الشخصى وانما يبنى العقوبة العامة ، وشتان بينهما ، وليس ثمة من شك في أن الاسلام اعتبر الثأر نزعة من نزعات الجاهلية .

كان أكبر منه الى جانب على الذى تألفت قواته على الغالب من البدو ، وهكذا تحدى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، الذى كان يحارب الى جانب معاوية محمدا بن على الذى يحارب الى جانب أبيه . على أى حال كانت الخسائر طفيفة طيلة شهرى مايو (ايار) ويونيو (حزيران) عندما كان الجيشان متقابلين فى ساحة المعركة .

ولا ريب فى ان هذا نجم عن الحقيقة الواقعة وهى ان أبناء القبيلة الواحدة بل أبناء الاسرة الواحدة كانوا موزعين على الجيشين المتحاربين . فالجنود المتقاتلون لا ينتمون الى أقوام مختلفة معادية . ولا حتى الى السوريين والعراقيين ، بل الى فيالق مختلفة فى جيش واحد ، فمعظمهم ان لم يكونوا كلهم ، ينتمون الى الجزيرة العربية اذ على الرغم من ان كثيرين منهم قد تزوجوا بنساء من فارس أو سوريا أو الروم ، الا ان الوقت الذى انقضى منذ وقعت الفتوحات لم يكن كافيا لشوء طبقة جديدة من المولدين .

وبدأت السنة الهجرية الجديدة فى أواسط يونيو وكان شهر محرم ، من الاشهر التى يحرم القتال فيها منذ أيام الجاهلية . واهتبل الجيشان العازقان عن القتال هذه الفرصة ليتخذوا منها مبررا لتأجيل الالتحام . ولكن القتال عاد الى الاستمرار بعد انتهاء محرم أى فى أواسط يوليو (تموز) عام ٦٥٧ ، ووقف الجيشان أخيرا متقابلين ليخوضا معركة حاسمة . وانقضى اليوم الاول فى قتال غير حاسم ، وأن فار فيه دم الجنود بحيث شرعوا يقاتلون فى اليوم الثانى بعزيمة هائلة . ووقف «على» فى وسط جيشه يحيط به لفيف من الرجال الذين جاءوا معه فى المدينة . ووقف جيش الكوفة الى اليمين وجيش البصرة الى اليسار . وتقدم عمرو ابن العاص فاتح مصر ، صفوف جيش معاوية وأجبر رجال الكوفة على التراجع فى حالة من الاضطراب والفوضى ووقف «على» مشرعا سيفه فى يده منتظما صفوف جيشه ، وهو يبدى من الشجاعة ضروبا تشبه تلك التى أبرزته قبل ثلاثين عاما فى معركة بدر واحد .

ولكن مالك الاشتر زعيم الخوارج كان بطل الميدان ، وظل يخوض المعركة بقوة فى الطليعة ، لاندري سببها ، وهل كان الدافع اليها حماسته الدينية أو خوفه من انتصار معاوية الذى يعنى قتله بوصفه أحد قتلة عثمان . وهجم بأربعمائة من رجاله المتعصبين الذين يحفظون القرآن غيبا يشق صفوف الاعداء حتى كاد يمسك بمعاوية نفسه وعاد جيش سوريا فنظم صفوفه ، وأعاد الوضع الى نصابه ، واستمرت المذبحة المتبادلة

وسط الغبار ووهج ذلك اليوم الطويل المحرق من أيام يوليو (تموز) .
ويذكر القاريء ولا شك عمار بن ياسر الذي كان عمر بن الخطاب قد أوفده أميرا على الكوفة . وكان هذا الرجل المعتبر من المسلمين الاول قد طعن في السن الآن ، وقبل ثلاثين عاما جاءت قريش مع أحلافها تريد غزو المدينة . وقام المسلمون الاول ، وبينهم عمار تلبية لامر النبي بحفر الخندق حولها . ورأى النبي عمارا وهو يحمل كيسا ثقيلا مليئا بالتراب على ظهره فخف لمساعدته ، وأخذ عنه حملة ، وقض عن رأسه وملابسه التراب وراح يقول له بذلك الحنسان الابوى الدمث الذي كان من أهم أسباب حب اتباعه له « ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية » ومن المحتمل أن يكون النبي قال قولته هذه مازحا ، موجها اللوم الى صحابته لاثقالهم العمل على عمار المتفاني في خدمة الرسول . ولكن هذا القول ظل بمثابة نبوءة (١) وقد قتل عمار في هذه المعركة الآن وفي يومها الثاني ، وهو يحارب من أجل «علي» ويهتف بصوت عال « يا للفردوس ما أدناها مني » ولا ريب في أن الفريقين كانا يجعلان ذكرى الرسول كل الاجلال ، اذ ان مقتل عمار أثار حمية رجال «علي»، وأنزل اليأس في قلوب رجال معاوية ، وذلك لان قول النبي عنى أن قتلة عمار كانوا يحاربون دفاعا عن قضية غير عادلة . وسارع عمرو بن العاص يعلن في الناس ان عليا هو الذي قتل عمارا لانه سمح له ، وهو الرجل العجوز بأن يقا تل دفاعا عنه .

وانتهى اليوم الثاني من القتال بصورة غير حاسمة أيضا ، واستمرت الحرب الى ما بعد حلول الظلام . وقد أطلق العرب على هذه الليلة أيضا اسم ليلة الهرير تشبيها لها بالقادسية . وكان مالك الاشتر يقا تل بكل ما عرف عن المتعصبين المتزمطين من حماسة واندفاع . ويرغم جيش معاوية على التراجع عن أرضه شبرا شبرا . ولاحت فكرة عبقرية أخرى في ذهن عمرو بن العاص من أفكاره العبقرية الكثر في صباح اليوم الثالث ،

(١) خلط المؤلف بين حادثي حفر الخندق وبناء مسجد الرسول . فلقد تحدث النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الحديث كما تروى سيرة ابن هشام عند بناء المسجد في المدينة لا عند حفر الخندق فيها « ثم قال .. فدخل عمار بن يسر وقد اقلوه باللبن فقال : يا رسول الله قتلوني، يحملون على ما لا يحملون . قالت أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) فرايت رسول الله ينفض وفرته بيده ، وكان رجلا جسدا وهو يقول ' ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك انما تقتلك الفئة الباغية » . (العرب)

فاقترح على معاوية أن يحمل الفرسسان القرآن الكريم على رماحهم .
وأضاف أن تنفيذ هذا الاقتراح سيخلق البلبلة على الأقل في صفوف
جيش على ، إذ أن بعضهم سيؤيد فكرة وقف القتال ، بينما سيطالب
البعض الآخر باستمراره . أما إذا نجحت الفكرة فستؤدي على الغالب إلى
إنهاء المعركة التي أخذ النصر يتجه فيها بوضوح إلى جانب على ، وأدرك
معاوية على الفور قيمة هذه الخدعة ، فأصدر أمره إلى قوة من رجاله بأن
تتقدم إلى الامام وقد حملت القرآن على رموس الاسنة . وسرعان ما ارتفعت
المصاحف ، وسمع قائل يقول : « هذا كتاب الله عز وجل ، يحكم بيننا
وبينكم ، من لغفور الشام بعد أهل الشام ، ومن لغفور العراق بعد أهل
العراق » .

ولما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ، واستمعوا إلى نداء المنادين
قالوا «نحيب إلى كتاب الله» . ودوى الصوت من الجيشين يقول : الحکم
لله وحده . وكان أشد المنادين عزما وأعلام صوتا ، حفظة القرآن من
الأتقياء . وهتف «على» برجاله ، أن في الأمر خدعة ودهاء ومكيدة واحتج
مالك بن الأشتر على نداء القراء ، وكان النصر قد أصبح في متناول يده .
وعلا الضجيج من كل مكان جريا على ما ألفه العرب . وصرخ الأشتر
بالقراء متهما إياهم بالجبن ، فردوا عليه قائلين أن لابد من الاستماع إلى
كلمة الله . وأخذ المنادون بوقف القتال من جيش على ، يدفعونه ويهددونه،
واتضح أخيرا أن جيش على بات عازفا عن القتال . وبعث على إلى معاوية
يسأله عما يريد ويقترح ، فرد هذا بقوله : «نرجع نحن وانتم إلى ما أمر
الله به في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه ، وتبعث منا رجلا ، ثم نأخذ
عليهما عهدا بأن يعملوا بكتاب الله لا يعدوانه ثم نتيح ما يتفقان عليه» .

ووجد «على» نفسه مرغما على قبول الاقتراح ، وذلك لأن رجاله باتوا
غير راغبين في القتال . وراح الناس يصرخون بأنهم يريدون أبا موسى
الاشعري ممثلا لهم أي لجيش على ، ويذكر القراء ولاشك أن أبا موسى
كان يحارب في فارس منذ أمد طويل ، وأنه كان أميرا للكوفة قبيل
معركة الجمل ، فلما أراد منه على أن يحشد ألجند في الكوفة ، رفض
الاذعان والاشتراك في هذه الحروب الأهلية التي يقاتل فيها المسلم أخاه
مما حمل عليا على عزله ، ويبدو أن هذا الرجل كان محبوبا من رجال
الكوفة . واحتج «على» على اختياره بحجة أنه خذله في الماضي ولم يؤيده .
فلا يصلح ممثلا له ، واقترح أن يختار عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي،
أو مالك الأشتر ، ولكن الجنود وقد ألفوا الآن عصيانه ، عصوه ثانية

وأصروا على اختيار أبي موسى الاشعري . أما معاوية فقد اختار عمرو بن العاص ، الواسع الحيلة والدهاء ، وصاحب فكرة رفع القرآن الكريم على الرماح .

وهكذا انتهت معركة صفين ، دون أن يتحقق فيها النصر لأي من الجيشين المتحاربين .



سبق لي ان ذكرت اننا مفتقرون الى المعلومات التاريخية الصحيحة عن الاساليب التعبوية التي اتبعها الفاتحون العرب الاول . ولكن المؤرخين العرب يلمحون بعض التلميحات الخفية أثناء حديثهم عن الحروب بين علي ومعاوية هنا وهناك ، مما يلقي ضسوءا ضعيفا غابرا يستطيع المؤلف استغلاله مع شيء من التقدير والعرفان للجميل . فقد روى هؤلاء المؤرخون على سبيل المثال ان عليا أوصى رجاله ولا سيما من المشاة قبيل معركة صفين ، بأن يقفوا صامدين كالطود الشامخ ، وذكر المؤرخون في جوانب أخرى في كتبهم ان المشاة كانوا ينظمون عادة في ثمانية صفوف أو أحد عشر صفًا . وكانت الرماح هي سلاح بعض هذه الصفوف ، بينما كانت الاقواس والسهام سلاح البعض الآخر . وعلى الرغم من أن وصف هؤلاء المؤرخين للمبارزات الفردية . والاشتباكات الصغيرة يوحى بأن هذه المبارزات والاشتباكات كانت لا تزال تحتل المكانة الاولى في المعارك ، الا انني لا أشك مطلقا في ان نظاما تعبويا مقيدا يفرض الانضباط والتدريب ، كان قد طبق الآن . ولم نعد نرى الآن قطعانا فظة من أبناء القبائل تندفع الى الامام سعيا وراء النصر أو الشنهادة . بل عدنا نرى وجود جيوش منضبطة ثابتة ، ذاتية الاعتماد على نفسها أو سريعة الانكلال على ذاتها ، بعد أن ألفت النصر وتعودته .

تواريخ بارزة

١٧ يونيو (حزيران) ٦٥٦	مقتل الخليفة عثمان
٢٣ يونيو (حزيران) ٦٥٦	التخاب على للخلافة
ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦	موقعة الجمل
من مايو الى يوليو (ايار حتى تموز) ٦٥٦	معركة صفين

شخصيات مشهورة

المطالبون بالخلافة :

على ابن أبى طالب	تولى الخلافة فى المدينة
الزبير بن العوام	قتل فى موقعة الجمل
طلحة بن عبيد الله	قتل فى موقعة الجمل
معاوية بن أبى سفيان	أمير سوريا
عائشة أم المؤمنين	زوجة النبى
أبو موسى الأشعري	محارب مخضرم ، أمير الكوفة ، رفض الانضمام الى الحرب الاهلية
مالك بن الاشتر	متزمت متعصب ، وأحد العصاة الذين قتلوا عثمان وبات الآن من مؤيدى على
عمرو بن العاص	فاتح مصر ، أخرجه عثمان وبات الآن من أقوى أنصار معاوية
محمد بن أبى بكر	ابن الخليفة الأول ، وأحد القادة الذين تولوا قتل عثمان ، اختاره على أميراً على مصر



الهرطقة والخلافات

« تكون الشرور النابعة من اضطراع المطامح محصورة عادة في الأزمنة والبلاد التي يقوم فيها هذا الاضطراع لكن الخلاف الدينى الذى نشأ بين محبى على وخصومه، ظل يتجدد في كل عصر . . لكن هذه المحنة كانت من الضخامة بحيث هددت بالافساد أكثر الفضائل صلابة . ولم يعد المرشح الطموح ، قانعا بالسلطان في الجزيرة العربية الفاحلة ، اذ ان ممالك فارس وسوريا ومصر الوفرة الثراء تفتت الارث الشروع للخلفاء وأمرء المؤمنين » .

جيبون - انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها .

« لم يكن ثمة مؤمن صادق يشك في ان خليفة رسول الله هو الحاكم الشرعى للعالم بأسره ، لكن الخلاف في الراى يتسع حول من هو الخليفة الشرعى » .

فريمان - تاريخ العرب

وصل عمرو بن العاص ، ممثلا معاوية الى معسكر الخليفة بعد وقف القتال يحمل فكرة الوصول الى اتفاق خطي ، وعندما شرع ممثل على في اعداد مسودة الاتفاق ، بدأه بقوله : « هذا ما اتفق عليه أمير المؤمنين و ٠٠٠ » ولكن عمرا احتج جهارا بأن عليا أمير على جيشه لا على جيش سوريا . وكانت أهم نقطة ضعف في قضية على ، هي عدم وجود اجراء رسمي لاختيار الخليفة . فلقد اختير أبو بكر وعمر وعثمان بموافقة غالبية أهل المدينة ، وتم اختيار على بنفس الاسلوب أيضا . ولكن ليس ثمة في القرآن الكريم أية آية أو في سنة الرسول أي حديث أو إشارة يوضحان شرعية هذا الاجراء ، ولهذا فعندما رفض عمرو بن العاص توقيع أية وثيقة تنص على أن عليا هو ٠٠ أمير المؤمنين ، اضطر ممثل على الى الازعان والقبول . وهكذا نص على أن الاتفاق تم بين على ومعاوية على أن ينزل الطرفان عند حكم الله عز وجل في كتابه ان وجد . فان لم يوجد فسنة رسوله الله العادلة الجامعة غير المفرقة . وأضاف ان على جميع المعنيين أن يرضوا بما يصدره المتقاضيان من حكم ، مع تعهد الحكمين بمراعاة العدل ، وقرر الاتفاق وقف القتال الى أن يصدر القاضيان حكمهما ، وقد رفض مالك الاشتهر رفضا باتا التوقيع على هذه الوثيقة .

ولعل من المضحك أن يجد على نفسه، وقد كان قبل يوم أو بضعة يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر النهائي الكامل قد حرم من ثمرة نصره ، كما أجبر وهو الخليفة الشرعي المنتخب ، بإرادة الله ، على أن يقبل وضع المساواة مع معاوية بن أبي سفيان . وكان من سوء طالعها أيضا ، أن تكون هذه المناورة كلها ثمرة دهاء عمرو بن العاص ممثل معاوية في التحكيم ، وان يكون مثله هو فيه ، أبا موسى الاشعري الرجل الذي أعلن موقفه الحيادي جهارا . وكان أبو موسى على أي حال رجلا ذا روح تقيية ورعة وطبيعة عسكرية بسيطة ، لا معرفة له بشئون الجدل والنقاش ، ولا براعة في حلبة السياسة وكان هذا التصددع ثمرة الانضباط في جيش على ، اذ توقف هذا الجيش عن القتال عندما ارتفعت المصاحف على رءوس الرماح ، واذا أصر على اختيار قائده العجوز السابق الورع ممثلا له في هيئة التحكيم . ولكن هذا الافتقار الى الانضباط انما نشأ في الاصل عن موقف على نفسه ، اذ انه كان الى حد كبير مستولا عما وقع من فوضى

بإسماعه للعصاة بقتل عثمان ، وكان هذا القتل سبباً في اختفاء حالة القداسة التي كانت تحيط بمركز الخليفة حتى ذلك الحين . ومن المحتمل أن علياً لم يكن قادراً على انقاذ عثمان ، والعصاة مسيطرون على المدينة ، ولكنه لم يكن في حاجة إلى تعريض نفسه إلى مزيد من النقد باستخدامه قتل عثمان كعيبه محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ، ومالك الأشتر وصحبه قادة في جيشه . وإذا ما ضربنا صفحا عن شخصيتي المتنافسين نرى من الصعب علينا أن نتجنب الاقتناع بأن ثمرة ما وقع كانت مفاجئة للإسلام والمسلمين ، ولو قلدر لجيش على أن يواصل حربه حتى النصر النهائي في صفين . لا تخفى بنو أمية في زوايا النسيان ، ولظل المسلمون كتلة واحدة غير مجزأة فقد أثبتت الأيام أن الخلاف بينهم وبين بني هاشم قد فرق الوحدة الإسلامية من قممها إلى قاعدتها ، وما زالت ثمرة هذا التصدع ماثلة أمامنا حتى يومنا هذا .



وعاد على بعد توقيع الاتفاق إلى الكوفة ، كما عاد معاوية بنوهر إلى دمشق . وكانت الخسائر التي منى بها الفريقان في اليومين الأولين من القتال العنيف في صفين ثقيلة للغاية ، وارتفعت إشارات الحداد على كل بيت في كل من الكوفة ودمشق ، واشتد استياء أهل الكوفة من الحقيقة الواقعة ، وهي أن علياً قد هزم من الناحية السياسية أن لم يكن من الناحية العسكرية . وكان في مكنتهم أن يحتملوا خسارة مثل هذا العدد الضخم من الرجال لو أن النصر قد تحقق لهم ، حاملاً معه السلام . أما الآن فما زال كل شيء في أتون الانهيار وقد سمح الجنود لأنفسهم في خضم الحماس الذي أوجدهته الظروف ، بأن يخلعوا بما حمله شعار « الحكم لله » من آثاره . أما الآن فقد تبين لهم أن التحكيم لا يعنى سوى تقرير موضوع الخلافة وهل تكون لعلى أو لمعاوية ؟ وإذا تمت الخلافة لعلى فسيحكمهم بنو هاشم . أما إذا تمت لمعاوية فسيحكمهم بنو أمية . ولا يرى البدوي العادي أو الجندي كبير فرق بين هؤلاء أو أولئك . ولقد سمعوا من النبي وقرأوا في كتابهم أن المسلمين أخوة . ومع ذلك فقد غدت الامبراطورية العربية التي فتحوها بسيفهم مزرعة خاصة بقريش التي يحتكر قادتها مناصب الامارة في المصار فيظلمون ويستغلون ويبتلعون أمة محمد . وهم لم يقتلوا عثمان إلا ليحطموا هذه الامبراطورية الدنيوية التي أقامتها قريش . وما يبحثون

عنه هو اقامة جمهورية دينية يتساوى فيها جميع المسلمين تنفيذا لكلمة الله (١) .

كان رجال الكوفة يتناقشون في مثل هذه المواضيع ، وهم في طريق عودتهم كاسفى البال الى قاعدتهم من صفين . وادى هذا الوضع الى انفصال نحو من اثني عشر الفا من جيش على ، وهم ثلث هذا الجيش تقريبا ، وخروجهم عنه اذ ظلوا يسرون في خط مواز لسيّر بقية الجيش . فلما وصل الجيش الى الكوفة ، رابطوا هم على بعد بضعة أميال منها في مكان يدعى حروراء . وراحوا يعربون عن ندمهم لانهم قبلوا التحكيم الذي لا يمكن أن يؤدي مهما كانت نتيجته ، الا الى ظهور طاغية جديد من طغاة قريش يحيط به جماعة من أقربائه الطامعين في الملك والجاه . وحزموا أمرهم على أن يعملوا لاقامة دولة دينية : الحكم فيها لله وحده . وأوفد على اليهم أحد كبار أنصاره وهو عبد الله بن عباس ، ابن عم النبي . لاقناعهم

(١) لو صح تحليل المؤلف للموقف على انه نعمة من العرب على سلطان قريش لتحتم أن يقف العرب في جيش معاوية حين هذا الموقف الذي وقفه العرب في جيش على كما يبنى المؤلف ويبدو لى أن المؤلف يريد أن يتجاهل تأثير العوامل الشعبية التي كانت تطمح الى تحطيم الدولة الاسلامية ثارا منها لقومياتها التي أذمنت للعرب . فهو يصور هذه الدوافع الشعبية على انها دوافع مربية ، وأن القتالين بها هم البدو نعمة منهم على أهل الحضرة عامة وقريش خاصة . لكن الحقيقة كل الحقيقة انها كانت دوافع شعبية ينادى بها الشمويون وأغلبهم من الفرس الذين وجدوا لهم في أرض الكوفة مرما خصباً .

وأود أن أضيف الى هذه الدوافع الشعبية اثر العامل الشخصي في النزاع . فلتقد كان على ومعاوية على تباين تام . فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقربة ما ليس لغيره في اخصاخ قريش فكيف يراه لمعاوية الذي ينظر اليه على انه من الطلقاء اولاد الطلقاء الذين حاربوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعادوه . وكلم يدخلوا الاسلام الا كرها وهو يرى أن الناس قد بايوه خليفة على المسلمين وأن هذا حقه عاد اليه بعد أن سلبه اياه عثمان وأن معه نصف الامة بينما كان معاوية يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش لانه ابن شيخها ابي سفيان ولأن النبي وخلفاءه الثلاثة قد وثقوا به قولوه امانة الشام . وقد تقم على على تماليه عليه ، وعزله اياه . ورأى أن حق على في الخلافة قابل للمناقشة لأن الكثيرين من الصحابة رفضوا بيعته . ولأن قتلة عثمان هم الذين نذبوه للخلافة ثم آواهم في جيشه ولم يقتص منهم .

ومن هنا يتبين وجود الدوافع الشخصية في النزاع بالإضافة الى اثر العوامل الشعبية ، وليس للاسلام شأن به كما يحاول المؤلف أن يوحي الى قرانه بصورة خفية .

(العرب)

بالعودة الى الجيش . وقد رضى بعضهم بالعودة ولكن غالبيتهم رفضتها واختارت لها زعيما منها . وذهب على آخرها بنفسه الى حروراء حيث ناقش الناقمين ، وأقنع جلهم ولو مؤقتا بالعودة الى أهلهم فى الكوفة .

واجتمع الحكماء فى أزرع الواقعة فى شرق الاردن والتي تبعد ثلاثين ميلا الى الشمال الغربى من معان فى يناير (كانون الثانى) عام ٦٥٨ أى بعد ستة أشهر من توقيع اتفاق صفين . وكان مع كل منهما أربعمائة رجل من جماعته . كما شهد التحكيم عدد من الصحابة وفضلاء القوم كمرقبين وكشهود بينهم عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وهما ولدنا قتيل معركة الجمل والزبير وطلحة .

استهلت أعمال التحكيم باجتماع خاص عقده الحكماء عمرو بن العاص ممثلا معاوية وأبو موسى الأشعرى ممثلا عليا . ويمكن لنا أن نستخلص من الروايات المقتضبة التى أوردها المؤرخون العرب الحقائق التالية راح أبو موسى الجندى التقى الساذج المؤمن بالحياد يلحف على ضرورة الوحدة بين المسلمين ويؤكد مسئولية الحكمين فى وضع نهاية للحرب الاهلية ، وهى عواطف أیده عمرو فيها كل التأكيد ، وراحا بعد ذلك يبحثان فيما اذا لم يكن من الخير بالنظر الى العداء المستحكم بين علي ومعاوية أن يتفق الحكماء على خلعهما معا، واختيار خليفة جديد للمسلمين . واقتربت أسماء عدة، ولكن بعض الاعتراضات أليرت على كل اسم، وكانت كافية لاسـتبعاده . ويقال ان أبا موسى اقترح بعد ذلك خلع كل من علي ومعاوية . وترك أمر اختيار الخليفة شورى بين المسلمين دون أن يبين كما يقول المؤرخون العرب الطريقة التى يتم فيها هذا الاختيار . وسرعان ما أيد عمرو هذا الاقتراح الحكيم الذى تقدم به زميله . ويبدو من الواضح أن عمرو الداهية كان يحاول خداع رفيقه السليم النية ، مؤجلا دائما ابداء رأيه ، ومقدما زميله وهو متاهب لاغتنام فرصة أى خطأ قد يقع فيه .

وبعد أن اتفق الحكماء على خلع كل من علي ومعاوية ، والسماح للشعب باختيار خليفته الجديد ، خرجا من الخيمة التى كانا يعتقدان الاجتماعات فيها الى المكان الذى كان الناس مجتمعين فيه يرتقبون النتيجة بانفاس تكاد تنقطع لهفة على معرفتها وأعلن أبو موسى بصوت جهورى ان الحكمين قد اتفقا على قرار واحد ، وأيده عمرو فى قوله ثم تنحى جانبا . راجيا من أبى موسى بوصفه أكبرهما سنا وأرفعهما مقاما أن يتكلم أولا ، وخدع الرجل الطيب بما أبداه له عمرو من الاحترام والاجلال . اذ كان

ينظر الى الحياة نظرة بريئة من المكر • فانطلق بصوته الجمهورى يعلن ان الطريقة المثلى لاعادة السلام الى صفوف الساعين تتمثل فى خلع على معاوية • وسيكون من حق المسلمين أن يختاروا بعد ذلك من يجدونه صالحا للخلافة ، وأكد انه وافق على عزل من يمثله ، وهو على بن أبى طالب •

وتراجع أبو موسى ليحل محله عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان هذا قال ماقد سمعتم ، وخلق صاحبه وأنا أخلق صاحبه كما خلعه • وأثبت صاحبى معاوية فهو لى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه •

وهكذا كسب غمرو بحيلة ماكره معيبة نقطة أخرى فى الصراع لمعاوية وأحاط أنصار على بأبى موسى يصيحون فى وجهه معربين عن سخطهم ونقمتهم ، فيرد عليهم الجندى الشيخ قائلا : «ماعسأى أفعل • لقد وعد بأن يعلن ماأعلنه ثم نكث بوعده» وانهال اللوم على الشيخ من كل جانب ففر الى مكة حيث قضى أيامه الاخيرة بعد عمر طويل صرفه فى الجهاد فى سبيل الله ورسوله فى التجهذ والعبادة وحياة النسيان •

ولم يؤد هذا التحكيم الشاذ الى أية نتيجة سوى توسيع شقة الخلاف والمزيد من توتر العلاقات ، فقد رفض على وأصحابه بالطبع نتيجة التحكيم ، التى لم تعد فى جوهرها أن تكون خدعة شقوية ضعيفة ، وان دفعت معاوية فى دمشق الى اشهار رغبته فى الخلافة ، وحمله الناس على بيعته خليفة للمسلمين ، وأخذ المصلون فى مسجد الكوفة يلعنون بعد ذلك اليوم معاوية وعمرو بن العاص ورفاقهما ، بينما أخذ الناس فى مسجد دمشق بعد ذلك اليوم يحملون على على وعلى سليل رسول الله الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين النبى محمد •



ولم تكد تعلن نتيجة التحكيم حتى عاد الخوارج فى الكوفة الى عصيانهم وأعلن هؤلاء تقززهم من هذا الاضطراب فى سبيل السلطة الدنيوية بين أمراء اعمتهم شهوات الدنيا وراحوا يشهرون أنهم لا يقبلون الا حكم الله ، فقدأ شعارهم منذ ذلك اليوم «لا حكم الا لله» • وحاول على بما عرف عنه من صبر أن يتفاهم معهم عن طريق الاقتناع ولكن محاولاته باءت بالفشل وأخذوا بعد نحو من شهر من اعلان نتيجة التحكيم يتسللون من بيوتهم واحدا اثر آخر ، من قاعدتى الكوفة والبصرة ، ليلتقوا على

• موعد ضربوه وليختاروا أميرا لهم • وكانت غايتهم أن يقيموا مجتمعا ينفذ فيه حكم الله ، وان اتفقوا لادارة الاعمال اليومية على اختيار مجلس من الرجال الصالحين • وفشلت محاولة لهم للسيطرة على المدائن • فراحوا يمشون صعدا مع نهر دجلة الى أن وصلوا الى موقع يدعى النهروان على مقربة من مكان بغداد الحديثة حيث التقى أربعة آلاف منهم •

وقرر على الآن في شهر مارس (اذار) من عام ٦٥٨ حشد جيش جديد ينقل عن طريقه الحرب الى سوريا من جديد • ولكن الخوارج كانوا في هذه الآونة قد بدأوا يعتمدون على المناطق المجاورة • وأصبح من المتعذر أن يمضى على في تنفيذ خطته بالزحف على سوريا تاركا مؤخرته في العراق عرضة لاجتياح الهراطقة وأعمال سلبهم ولهذا توجه بجيشه أولا لحربهم ، فهزمهم بسهولة عند النهروان. لأن جيشه كان يفوقهم عددا بنسبة عشرة الى واحد • وقتل من الخوارج في المعركة نحو من ألفين • دون أن يخسر جيش على أية خسائر ، وكان الخوارج يهتفون «الجنة ، الجنة» وهم يندفعون بصدورهم لمقابلة رماح المسلمين •

• وعاد الجيش الى الكوفة بعد أن زال خطر حشد الخوارج في الكوفة • وكانت الغاية من العودة في الظاهر اعداد الترتيبات الاخيرة لغزو سوريا • ولكن لحق الفتور حماسة الناس لقضية علي ابان فترة الانتظار الطويلة • وراح عدد كبير من الجنود يفرون من الجيش عائدين الى بيوتهم • ولم تعد خطب على ونداءاته تؤثر عليهم وتحملهم على الاستجابة وعندما رأى في النهاية ان الناس لا يلبيون نداءه قنع بقضاء الله وقدره • وتخلي عن فكرة الحملة كلها • وظل معاوية الحاكم المطلق الذي لا ينازعه أحد سلطانه في سوريا ، بينما ظل على يحكم العراق حيث يقض عليه الخوارج مضجعه ، وحيث فتر حب الجنود المزيفين له من أهل الكوفة والبصرة •

وكان على قد أوفد في غضون ذلك محمد بن أبي بكر ليتولى امارة مصر • وكانت صورة الخليفتين المتحاربين في سبيل الحكم قد حطمت أمام الناس مثالية الاسلام المقدسة واضعفت من احترامهم لسلطة الخليفة • وكان العرب في مصر منقسمين في ولائهم فبعضهم يؤيد عليا • والبعض الآخر يميل الى معاوية ويطالب بالثار من قتلة عثمان ولا ريب في ان عليا تنكب سبيل الحكمة ، عندما عين لامارة مصر في هذه الظروف أحد المتهمين بقتل عثمان • ومع ذلك لو أظهر محمد هذا شيئا من التعقل والفطنة لسارت الامور على خير ما يرام • ولكنه سارع الى البطش ، فأوفد

جنوده لعقاب كل من يشتبه في عطفهم على معاوية ، وهزم هؤلاء الجنود في معركة مع اشياع معاوية . وهكذا أثار الامير الجديد كراهية الشعب دون أن يوحى له باحترام السلطة .

وعندما أدرك على عجز محمد بن أبى بكر عن إعادة النظام الى البلاد دفعه يأسه الى ايفاد مالك بن الأشتر الشديد التعصب والقوى الشخصية والباسل الروح لتولى زمام الامارة في مصر . ولكنه ما كاد يعبر الحدود الى مصر حتى مات ميتة غامضة عند القلزم (السويس) ، وقيل ان رسولا من معاوية قد دس له السم في طعامه . وكان معاوية قد وصل في تلك الآونة الى فلسطين حيث حمل الناس على اعلانه خليفة للمسلمين في القدس .

وكان معاوية أكثر اهتماما بمصر منه بسيطرة على العراق وفارس . وكان يرى انه اذا وقفت مصر قوية وراء على بن أبى طالب ، فانها تصبح قاعدة له يستخدمها في غزو فلسطين وسوريا . يضاف الى هذا ان موارد مصر هي من الضخامة بحيث ان ايا من الخيفتين المتنافسين يضع يده عليها يكسب ميزة هائلة على خصمه واتاح سوء ادارة محمد بن أبى بكر للبلاد الفرصة المواتية لمعاوية . فعهد الى عمر بن العاص باحتلال مصر للمرة الثالثة على رأس قوة قوامها ستة آلاف جندي . وكان عمرو قد احتل مصر مرتين من الروم وها هو ذا يعد لاستخلاصها مرة ثالثة ولكن من اخوانه المسلمين .

ووصلت أنباء الغزو المتوقع الى محمد بن أبى بكر . فبعث وهو فزع الى على بن جراح السرعة يناشده ارسال المعونة السريعة . ودعا الخليفة الناس الى اجتماع عام في مسجد الكوفة . وقرأ عليهم رسالة أمير مصر ، ناشدهم جمع جيش في الارض الفسيحة خارج الكوفة في الصباح التالي ليسير الى مصر . ولكن عندما مضى على في اليوم التالي الى مكان الاجتماع لتسجيل المتطوعين . لم يجد متطوعا واحدا يتقدم اليه وانتظر وحيدا بضع ساعات ثم عاد الخليفة البائس الى منزله . ودعا كبراء الكوفة لزيارته وتحدث اليهم بمراة عميقة والاسى يحز في نفسه ، برما بهذا التقاعس الواضح عن نصرة المسلمين له . وراح يعرب عن دهشته من أن تستمع الدهماء لمعاوية وتلبى نداءه عندما يدعوها الى القيام بحملتين أو ثلاث حملات في السنة . مع انه لا يعنى بها ولا يدفع لها دعما طيبا وان يتقاعسوا عن تلبية نداءه مع أنه يحسن معاملتهم . ولا ريب في أن عليا كان محقا في دهشته . فتقاعس الناس عن تأييده

• أمر يثير الحيرة حقاً ، فهو أحق بالخلافة من معاوية • وكان يبرزه في الاسلام ويفوقه علماً وتقياً ووعياً وميلاً الى التفاهم والعقل واجتناباً لسفك دماء المسلمين • ولكن كل هذه الفضائل كانت تفتقر كما يبدو الى ما يكملها من لمح العبقرية ، ومن مغناطيسية القيادة وهى أمور يحتاجها القائد فى تلك الايام الحاشدة بالجيشان رغم ما فيها من بطولات •

وكان عمرو بن العاص قد غزا مصر فى غضون ذلك بستة آلاف رجل • ولم يكن فى وسع محمد بن أبى بكر أن يحشد أكثر من ألفى رجل من مؤيدى على ، قادهم بنفسه لمواجهة الغزاة ولكنهم هزموا وتفرقوا بدون قتال تقريباً مخلفينه وحده فى الميدان ، وفر محمد ماشياً وحاول أن يجد له مأوى أميناً فى قرية خربة ، ولكنهم سرعان ما عثروا عليه وجروه منها جراً • وكان أنصار معاوية ساخطين أشد السخط على محمد ابن أبى بكر اذ كان الرجل الاول فعلاً فى مهاجمة عثمان الشهيد • وبعد ان ألرغوا جام نقيمتهم على ضحيتهم المسكينه بتعذيبه قطعوا رأسه وربطوا جثته بجلد حمار ثم ألقوا بها فى نار مشتعلة • ووطد عمرو بن العاص أقدامه ثانية فى مصر أميراً لها معترفاً بسيادة معاوية على انه أمير المؤمنين •

وهكذا أخذت قضية على تسير نحو التدهور فى كل مكان • تلىقت نشبت ثورة حتى فى البصرة تأييداً لمعاوية • ولم تخمد الا بعد قتال محلى عنيف ، ورفضت جماعة من الخوارج راية الثورة فى فارس ، لا تأييداً لمعاوية وانما مطالبة بحكم الله • وكان الفرس آخر من اذعن قبل بضع سنوات لحكم العرب • وعلى الرغم من أن الفرس لم يكونوا من المسلمين الا أنهم أيدوا الخوارج فى ثورتهم ضد الفاتحين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد مشقة هائلة ، ولكن هذا الاخمد كان جزئياً ، وسرعان ما انفجرت الثورة من جديد فى كرمان • ولقد سبق لى أنا أوردت اسسم زياد ووصفته بأنه من أكثر الاداريين كفاية • وكان زياد هو الشاهد الرابع فى قضية الزنا التى اتهم فيها المغيرة بن شعبه • ولكنه عاد عن أداء الشهادة • وقد ولد زياد عن سمية وهى امرأة من الطائف كانت زوجاً شرعية لمولى من الروم • ولكن الشبهات كانت تلوك سمعتها فى مكة فى الجاهلية • ولنا فقد ولد زياد وهو لا يعرف له أباً ، فأطلق الناس عليه اسم زياد بن أبيه • وقد عينه على الآن أميراً لفارس وكرمان • وسرعان ما أعاد النظام اليهما ، وأقام مركزه فى

اصطخر ، مدينة برسيبوليس القديمة . حيث حكم منها الاقسام .
الجنوبية ، بشكل لا يقل كفاية عن حكم معاوية لسورية .

ونقلت موازين معاوية الآن بالنسبة الى موازين على . وتحول
معاوية الى الهجوم ووقعت عدة غارات من سوريا في النصف الثاني من
عام ٦٥٨ وفي عام ٦٥٩ هددت سيطرة على العراق نفسه . ووصلت
بعض هذه الغارات الى عين التمر والانبار ، التي لا تبعد أكثر من (١٧٠)
ميلا عن شمال الكوفة وغنم رجال معاوية الكثير من الغنائم وأخذوا عددا
من الاسرى . ولم يستطع على اتخاذ أى اجراء مضاد لان رجال الكوفة
كانوا راغبين عن القتال وقاد معاوية بنفسه غارة عبر بها الجزيرة من
الرقعة حتى الموصل دون أن يلقى أية مقاومة ، ووقع ما هو أسوأ من هذا .
في عام ٦٦٠ فقد زحف جيش من سوريا على الحجاز ، واحتل مكة
والمدينة واتجه الى اليمن أيضا . وارغم الناس ارغاما في كل مكان
تحت وطأة التهديد بالسيف على البيعة لمعاوية . وتخلى عامل على في
اليمن عن منصبه وفر الى الكوفة . ولكن لم يكن جيش الشام يعود الى
دمشق ، حتى وصلت قوة من الكوفة تعد أربعة آلاف رجل وارغمت
الاهلين على نقض بيعه معاوية والعودة لبيعة على ، ومع ذلك فقد أخذ
ضعف على يتضح يوما بعد آخر .

لكن أسوأ النكبات كان لا يزال طى الغيب . فلقد سبق لي أن ذكرت
ان عبد الله بن عباس ، ابن غم النبي وعلى ، هو أكثر الناس صلة بعلي ،
واقربهم الى ثقته وقد اختاره أميرا على البصرة . وحدث أن وجه اليه
على سؤالاً عن بعض تصرفات شكوا الناس منها اثناء ادارته للبصرة .
فاستاء عبد الله وفارق مركزه وترك البصرة متجها الى مكة . وانتقلت
العدوى الى أهل على نفسه ، اذ تخلى عنه أخوه عقيـل بن أبى طالب
والتحق بمعاوية .

وقد قدر لبنى أمية بعد سنوات طويلة أن يختفوا من الوجود
تقريبا ، كما قدر لاتباع على وأحفاد العباس أن يحكموا لقرون عدة .
ويوصف التاريخ عادة بأنه دعاية الفريق المنتصر أو الفريق الذى يبقى
على الأقل . وكان بنو أمية قد اختفوا من عالم الوجود عندما اتبع
للامبراطورية العربية أن تصل الى تلك المرحلة من النضج التى تصبح
فيها الامة مهتمة بشئون الماضي بحيث تخلف المؤرخين وتلهمهم . وأدت
هذه الحقيقة الى أن يصور التاريخ العربى عامة عليا على انه قديس من

القديسين أو أنه على الأقل رجل يفوق معاوية ديناً وعلماً وخلقاً . وإذا ما قبلنا هذه التواريخ على علاقتها ، صعب علينا أن نفسر الأسباب التي دعت معظم الناس الى التخلي عن علي وتأييد معاوية . ونجد أنفسنا مرغمين على قبول أحد تفسيرين أولهما ان شخصيتي الرجلين قد صورتا على غير حقيقتهما . وثانيهما أن طبيعة البدوي العربي المتميزة بالعنف والجيشان لا تتأثر الا بالقوة . ونحن لا ننكر أن عليا كان تقياً ومخلصاً ، وكان ميالاً الى قبول الحلول الوسط وتجنب سفك الدماء . ولكن هذه الصفات نفسها جعلته ميالاً الى التردد والضعف وكانت شخصية معاوية الحازم وذا الكفاية وشخصية عمرو بن العاص القوية والمفتقرة الى الاستقامة أكثر تقبلاً للناس في ذلك العصر . ولا ريب في أن الرجلين كانا يملكان القدرة الخفية على القيادة بينما لم يكن في وسع علي أن يعمل شيئاً سوى المناقشة والرجاء .

وأدى تبادل الرسائل بين الخيفتين المتنافسين الى عقد نوع من أنواع الهدنة وذلك في نهاية عام ٦٦٠ ، وتوقفت المناوشات الفعلية بينهما . وظل علي مسيطرًا على العراق وفارس بينما امتدت سيطرة معاوية الى سوريا ومصر . ولعل من الغريب أن الحد الذي فصلهما عن بعضهما كان عين الحد الذي فصل في الماضي بين بيزنطة وفارس . وبات معاوية خليفة قيصر بينما لبس على لباس الأكاسرة .



وعلى الرغم من أن هذا الحل الدنيوي قد يكون مريضاً للحاكمين المتنافسين الا أنه لا يستطيع بأي حاله من الاحوال أن يرضى المسلمين الشديدي التعصب لاسلامهم فلقد فرق هذا الحل الامبراطورية . وأوقف مدى الفتوحات العربية لا سيما وقد تحولت سيوف المسلمين لضرب المسلمين . ولعل ما هو أسوأ من هذا أن معاوية رغبة منه في أن يكون مطلق الحرية في مواجهة خصمه على ومضمون المؤخرة عقد اتفاقاً مع امبراطور الروم اقر فيه بدفع جزية سنوية الى الامبراطور . وإذا كان بعض المسلمين الصادقين قد قنعوا بالانسحاب من مثل هذه الصورة المحزنة وآثروا عليها العيش بهدوء في التهجيد والعبادة والدرس ، كما فعل أبو موسى الأشعري مثلاً ، فإن الخوارج كانوا من معدن أكثر صلابة وقوة ، وقد حزموا أمرهم الآن على انتهاء هذه الخصومات بالقوة .

وقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج في مكة أواخر عام ٦٦٠

وكانوا يتبادلون الشكوى من هذا الوضع الذى وصل اليه الاسلام عندما اقترح أحدهم مخرجا ، وهو أن توضع نهاية للأئمة الثلاثة المسئولين عما نزل بالمسلمين من نكبات • وتعهد كل واحد من هؤلاء الثلاثة بقتل الرجل الذى أوكل اليه قتله • وهكذا وعد عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي و وعد البرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص ، وتقرر أن تتم عملية القتل الثلاثية الاطراف بعد صلاة الجمعة فى الرابع عشر من رمضان للسنة الأربعين من الهجرة الموافق للعشرين من يناير (كانون الثانى) عام ٦٦١ • وبعد أن تعاهد الرجال الثلاثة على تنفيذ القرار ، وغمس كل منهم سيفه فى السهم خرج المتعصبون من مكة كل منهم فى طريق لتنفيذ القرار • وفى اليوم المقرر شهد ابن بكر صلاة الظهر فى جامع القسطنطين ، وهى صلاة يؤمها الامير فى كل بلد اسلامي • وشهد الخارجى على الرجل الذى يؤم المسلمين فى الصلاة فقتله لتوّه • ولكن حدث فى ذلك اليوم لحسن طالع عمرو بن العاص انه تخلف عن الصلاة لمرضه ، وعهد الى شخص آخر بأن يؤم الناس فى الصلاة . وعندما ساقه الناس الى عمرو ، قال الخارجى له بكل جرأة . لقد كنت انت المقصود بضربة سيفي • فرد عمرو • «أردت قتلى ، وأراد الله قتلك (١)» وأمر باعدامه على الفور • وفى دمشق أصاب سيف البرك معاوية بجراح ، ولكن الضربة لم تقتله (٢)

وعندما أذن المؤذن للصلاة فى اليوم الموعد فى الكوفة ، خرج على من منزله يقصد المسجد • وعندما مر ببابه فاجأه ابن ملجم بسيفه على رأسه فشقق جمجمته واعتقل القاتل وأعدم ثم أحرقت جثته . وعاش على حتى عشية اليوم التالى ثم توفاه الله (٣) •

(١) يبدو أن المؤلف قد أخطأ فى فهم الرواية العربية إذ ذكرت كتب التاريخ العربى ان خاروجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو بن العاص هو الذى قتل فى ذلك اليوم إذ كان يؤم المسلمين نيابة عن عمرو ، ولذا فقد قيل ... أراد عمرا وإراد الله خاروجة .

(٢) تقول الروايات الاسلامية ان البرك قدم لمعاوية فى ذلك اليوم فلم يخرج شدة عليه السيف فوقع السيف فى البيت وعولج من الضربة • وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد .

(٣) تقول الروايات الاسلامية ان قتل على وقع ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان عند صلاة الصبح لا صلاة الظهر كما يقول المؤلف . وقد عاش رحمه الله بعد الضربة يومى السبت والاحد وتوفي ليلة الأحد السابع عشر من رمضان ، لا عشية اليوم التالى كما يقول المؤلف .

« العرب »

وقد أضافت الروايات لمسة عاطفية الى قصة هذه الجريمة الفظيعة .
 عُقد قيل ان ابن ملجم عشق امرأة من الخوارج تدعى قطام ، قتل على
 أبائها وأخاها يوم النهروان فلما خطبها ابن ملجم ، طلبت مهرها ثلاثة
 آلاف درهم وقتل على بن أبي طالب . وقد قال فيها الفرزدق شاعر بني
 تميم ، التي ينتمى اليها كثيرون من الخوارج في الكوفة مخلدا ذكر
 الجريمة .

فلم أر مهرا ساقه ذو سمحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
 ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم
 فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)
 كان على في الستين من عمره عندما قتل (٢) ، ولا يعرف على وجه
 التحقيق المكان الذي دفن فيه (٣) ، ويقول البعض ان أتباعه دفنوه سرا
 مخافة أن ينبش الخوارج عليه . وكان قد بنى في فتوة بفاطمة الزهراء
 ابنة النبي . ولم يتزوج عليها حتى توفاه الله . وقد ولدت له الحسن
 والحسين الطفلين اللذين كان رسول الله يحب أن يلعب معهما ويضحك ،
 وقد توفيت فاطمة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة فتزوج على بعدها عدة
 نساء ، ولدن له أحد عشر ولداً وخمس عشرة ابنة . ويقول السيوطي
 انه خلف عند وفاته تسع عشرة سرية بالإضافة الى زوجاته ولا ريب في

(١) يبدو ان المؤلف قد اخطأ لهم ما قصده الفرزدق . فالشاعر العربي الفرزدق
 كان حزيناً على مقتل على لا فرحاً كما يحاول المؤلف أن يوحي لقراءه ، والمعروف أن
 الفرزدق كان من المتهمين عند الخلفاء الأمويين بالتشيع لعلى وآله . وقد قال في مدحهم
 عدة قصائد مشهورة .

(العرب)

(٢) يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء انه كان لعلى حين قتل ثلاث
 وستون سنة ، وقيل أربع وستون وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل
 ثمان وخمسون .

(٣) قال أبو بكر بن عياش ، عمي قبر على ثلاثاً ينبشه الخوارج ، وقال شريك :
 نقله ابنه الحسن الى المدينة ، وقال المبرد . . اول من حول من قبر الى قبر على رضي
 الله عنه . وقال ابن عساكر . . لما قتل على رضي الله عنه ، حملوه ليدفنوه مع النبي
 عليه الصلاة والسلام . فبينما هم في مسيرهم ليلاً اذ ند الجمل الذي هو عليه فلم يعرف
 أحد أين ذهب ؟ ولذلك يقول أهل العراق : هو في السحاب وقال غيره : ان البعير وقع
 في بلاد طيء ، فأخذوه فدفنوه .

(العرب)

أن عليا لطبيعته الدمثة اللطيفة لم يكن صالحا للعيش في الأوقات العصيبة التي مر بها .



وهكذا حقق سيف ابن ملجم المسموم ما عجزت الجيوش العربية كلها عن تحقيقه إذ وحد الامبراطورية العربية تحت حكم خليفة واحد . على أي حال ، ماكاد على يقتل حتى سارع أهل الكوفة الى مبايعة ابنه البكر ، الحسن ، سبط رسول الله من ابنته فاطمة الزهراء وكان في السابعة والثلاثين من عمره عندما اغتيل أبوه . وتقول الروايات العربية انه كان يشبه الرسول قُبَّ هيئته وتقاطيعه ، ولقد سبق لي أن تحدثت عن حب النبي الشديد لحفيديه . وكان هذا الحب موضوع الحديث في روايات كثيرة . وروى بعض شهود العيان ان النبي كان يحمل الحسن على عاتقه وهو يقول « اللهم اني أحبه فأحبه » وروى ان النبي أقبل ذات مرة وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقبه رجل فقال : نعم الراكب ركبت يا غلام . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو . وتقول رواية أخرى ان النبي كان يضع الحسن في حبوته ويقول : « من أحبني فليحبه ، وليبلغ الشاهد الغائب » .

وقد ورث الحسن عن النبي كل فضائله ، دون أن يرث عنه عزمه واحتماله المكاره وشجاعته الأدبية ، فلقد كان حليما ذا سكينة ووقار وحشمة وأنفة ، جوادا ممدوحا يكره الفتن والسيف . تزوج كثيرا ، والاسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربعة في آن واحد ، ولكنه لا يضع حدا للمرات التي يستطيع فيها المرء أن يطلق فيها نساءه ، ويقال ان الحسن تزوج في حياته أكثر من تسعين مرة ، ليشبع رغبته في المعرفة الى أكبر عدد من النساء (١) . ولعل من الغريب اذا صدقت الروايات أن جميع أزواجه أحببته أشد الحب وظللن على الوفاء له والحديث عنه بالحيرة حتى بعد طلاقهن منه . وأقول على سبيل المقارنة ان النبي لم يطلق امرأة من نساءه في حياته مطلقا على الرغم من أن بعضهم كن مصدر تعب وازعاج له .

وكان الحسن متدينا ويقال بأنه حج الى مكة خمسا وعشرين مرة .

(١) اجمع المؤرخون على أن الحسين كان مزوجا مطلقا الا انهم لم يذكروا هذا العدد الضخم الذي اشار اليه المؤلف ، ولا ندري من أين جاء به .

• وانه كان يقطع المسافة بين مكة والمدينة والتي تبلغ نحواً من مائتين وخمسين ميلاً على قدميه لينال المزيد من الثواب جازاً وراه خيوله • وكان محدثاً ساحراً ، وما سمعت عنه كلمة فحش قط ، وعندما أفحش له رجل في القول ذات يوم اكتفى بقوله أنه لن يرد عليه بنفس لهجته بل سيلقاه يوماً بين يدي الله والله شديد العقاب (١) •

ولم يكن معاوية ، ذلك الرجل الذي يضيع مثل هذه الفرصة ، فراح يعد جيشاً جديداً بكل ما لديه من طاقة على السرعة ، ليفزو به العراق • وعندما وصلت الأنباء الى الكوفة تقدم رجالها الى الحسن يعربون طائعين مختارين عن عزمهم على نصرته • بخلاف ما كانوا يعملون مع أبيه ، ولعل تأثرهم باغتيال أبيه ، أو عطفهم الطبيعي على أمير شاب وبرئ كالحسن كان الحافز لهم على استنفاز عواطفهم بعض الوقت • وليس ثمة من ريب في أن الشعور بالمنافسة مع سوريا قد دفعهم أيضاً الى هذا الموقف الجديد • ولعل القاري يذكر انه عندما اجتمع جيشا العراق وسوريا مرة ابان العمليات الحربية في ارمينيا • تبين ان التعاون متعذر بينهما مما دفع الرتلين الى الافتراق ، لينصرف كل منهما الى عملياته الخاصة •

ولعل من التضليل أن نعبر عنهما بالنسبة الى هذه المرحلة في عام ٦٦١ بأهل سوريا وأهل العراق • فلم يكن الاختلاط حتى ذلك التاريخ قد جرى مع أهل البلاد وكان الجيشان حتى ذلك الحين ينتميان الى قبائل الجزيرة العربية ، على أي حال ، وقف جيش قوامه أربعون ألفاً على قدم الاستعداد في الكوفة • وبعث المسئولون عنه بقوة تفطيه الى الشمال للحصول على المعلومات المتعلقة بتحركات جيش معاوية ، وللحيلولة دون تقدم هذا الجيش •

ولكن على الرغم من أن أنصار الحسن كانوا يستعدون لحوض

(١) اعتقد أن المؤلف قصد هنا ما روى من أن مروان بن الحكم وكان أميراً على الحجاز أيام معاوية • كان يسب علياً كل جمعة على المنبر • والحسن يسمع فلا يرد شيئاً ، ثم أرسل اليه يقول له : بلى وبلى وبلى وبكى وبكى ، وما وجدت منك الا مثل البغلة يقال لها من أبوك فنقول : أمي الفرس ، فقال له الحسن ، ارجع اليه قتل له : إني والله لا أمحو منك شيئاً مما قلت بأن أسبك ولكن موعدى وموعدك الله ، فان كنت صادقاً جزاك الله بصدقك ، وان كنت كاذباً فالله أشد ثمة •

(العرب)

القتال - الا ان الحسن نفسه كان عازفا عن الدخول في معركة . وعندما عبره بعضهم بقولهم : يا عار المؤمنين قال . العار ولا النار . وقال في مرة أخرى انه تخلى عن مطامع الدنيا « ابتغاء وجه الله » وحقن دماء أمة محمد عليه الصلاة والسلام . وسواء أكان عزوف الحسن عن القتال راجعا الى جبن وضعف ، أو الى رغبة في حقن الدماء الا أن روحه هذه فشلت في التأثير على جنوده الذين تاهبوا لنصرته والدفاع عنه والذين أظهروا الآن بعض الأدلة على عصيانهم ارادته . ولا ريب في أن العرب الميالين الى العنف والقتال ، ما كانوا ليرتاحوا لمثل هذه الروح البعيدة عن مطامع الدنيا والمتصفة بالوداعة واللين .

وكان الحسن نفسه هو الذي وضع حدا لهذه الازمة بالكتابة الى معاوية عارضا عليه التنازل شريطة أن يسمح له بنقل مائتي بيت مال الكوفة من أموال ، وإن يدفع له مال الخراج من فارس بقية حياته كتقاعد له . وتقول روايات أخرى انه اشترط أيضا العفو عن كل من نصر أباه عليا ضد معاوية (١) . وقد قبل هذا جميع الشروط التي طلبها الحسن فارتحل هذا مع أخيه الأصغر الحسين ، من الكوفة الى المدينة . وعلى الاثر دخل معاوية الكوفة وتلقى مبايعة أهلها ، واختفى الحسن منذ ذلك اليوم في صفحات التاريخ العربي الجياش بالاضطراب . أذ عاش في المدينة متقاعدا مع زوجاته وسراياه . ولكنه لم ينعم بالراحة الداخلية كما نعم بالراحة السياسية ، اذ توفي بعد ثمانى سنوات نتيجة سم دس اليه من إحدى زوجاته ، بسبب غيرة تسوية على الغالب ، ويقول أعداء الامويين أن معاوية أو ولده يزيد ، أقنعا المرأة بقتل الحسن . لكنني أرى أن هذه التهمة بعيدة عن العقل لان الحسن نفسه رفض منافسة

(١) لا أدري من أين جاء المؤلف ببعض هذه الشروط . ولماذا أهمل شروطا أخرى. اذ يقول السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » ان الحسن بعث الى معاوية يذلل له تسليم الامر اليه . على أن تكون الخلافة له من بعده . وعلى أن لا يطالب معاوية أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه . وعلى أن يتضي عنه ديونه ، فأجابه معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك فظهرت المعجزة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم « يصلح الله به بين فئتين من المسلمين » ونزل له من الخلافة . وقد استدل البلقيني بنزوله من الخلافة التي هي أعظم المناصب على جواز النزول عن الوظائف . وكان نزوله منها في سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الاول وقبيل الآخر . وقيل في جمادى الأولى .

معاوية على السلطان ولم يظهر أية اشارة الى ندمه على قراره لكن هذا الاتهام كان كافيا على أى حال ، لحمل أشياعه على الباسه نوب .
الشهادة (١) .

يذكر القارئ ولا شك أن معاوية الخليفة الجديد الذى بايعه المسلمون جميعا هو نجل أبى سفيان ، وزوجته المنتقمة هند . وكان معاوية وأبوه قد حاربا الرسول أشد الحرب ولم ينضما اليه الا عند فتح مكة . ولكن معاوية مالبث بعد أيام من اسلامه ان حارب الى جانب المسلمين فى حنين . وكان النبى جد تواق بعد فتح مكة لمصالحة زعمائها وقادتها . وجريا على هذه الخطة التى اختطها ، فقد اختار معاوية كاتما لسره ، وأخذ معه الى المدينة ، مما يشير الى أن الرجل كان فوق المستوى من ناحية تعليمه . ويقول أحد الرواة انه سمع محمدا يقول : « اللهم هلم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب » . ولا ريب فى أن الشرط الاول من الدعاء قد تحقق اذ أنه كان من أكثر الإداريين كفاية .

كان معاوية كما يصفه المؤرخون رجلا طويلا ، أبيض ، جميلا ، مهيبا ، ويروى أن عمر بن الخطاب كان ينظر اليه فيقول : « هذا كسرى العرب » . ولا ريب فى أن عمر كان يقصد أن معاوية مهيب فى طبعه كالكاسرة ولكن نبوءته تحققت فعلا ، اذ أصبح أول حاكم.

(١) وقع المؤلف فى خطأ كبير فى استنتاجه بسبب خطأ كبير اقترفه فى سرد الحقائق . فهو يقول ان تسميم الحسن من احدى زوجاته كان ناجما من غيرة نسوية ، ثم راح ينفى ان المرأة قد فعلت ذلك بتحريض من معاوية أو ولده يزيد ، وذلك لان الحسن تنازل من الخلافة راضيا ولم يكن له مطمح فيها .

ولو عاد المؤلف الى أحد الشروط التى اشترطها الحسن على معاوية لتنازله من الخلافة . وهو أن تكون الخلافة له بعد معاوية ، لتبين له خطأ استنتاجه باستبعاد التحريض ، وهو تحريض أخته أكثر من رواية ، اذ يقول السيوطى ان زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث هى التى سمت زوجها بعد أن دس اليها يزيد بن معاوية أن تسمه ليتزوجها ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت الى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها . فقال : انا لم نرشدك للحسن ، أفترشاك لانفسنا ؟

ومن هذا يتبين أن يزيد كان يخشى منافسة الحسن بعد وفاة أبيه معاوية وأن معاوية كان مرتبطا بوعد بالخلافة للحسن بعده . ومن هنا يتبين وجود الدافع الذى لم يستطع المؤلف قبله .

(العرب)

«دينوى للعرب ، لا تقوم دعواه على احساس التفوق الدينى . وتقول رواية أخرى ان أحدهم قال : تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية ؟ ومع ذلك لم يكن معاوية ذلك الحاكم الطاغية المستبد المتعجرف ، بل كان أقل استبدادا برأيه من عمر بن الخطاب ، التقى الورع الذى كانت كلمته دائما هى العليا . وكان معاوية حاكما دنيويا أكثر منه خليفة على المسلمين . ومع ذلك فلم يتوان عن اللجوء الى الدين دائما وباستمرار للحفاظ على حكمه . وكان دائما كما سيبدو قيما بعد دائب النشاط فى محاربة غير المسلمين . وليس ثمة من ينكر ان كبرياء العنصر العربى كانت قد أصبحت عاملا قويا فى الامبراطورية حتى منذ أيام عمر بن الخطاب . فلقد كان عمر هو الواضع لسياسة عزل الفاتحين العرب كطبقة عسكرية خاصة تعيش على ما ينتجه كدح الشعوب المحتلة . وكان عمر ايضا هو الذى قرر الا يباع عربى قط عبدا . ولا ريب فى أن هذه الكبرياء العربية ما كانت لتتفق كل الاتفاق مع الاسلام الذى اشترط المساواة بين المسلمين . ومع ذلك فلقد كان الشعور الدينى طاغيا فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان طغيانا ظاهرا بحيث مضت المشاعر العنصرية دون أن يلحظها أحد . وكل ما يمكن قوله عن عهد معاوية ان المشاعر العربية القومية أصبحت أكثر نفوذا وأثرا من المشاعر الدينيه المجردة ، ولكن هذا التبدل لم يكن كبيرا بعد ، بل كان محدودا . إذ كان التأثيران القومى والدينى يعملان عملهما منذ أيام أبى بكر ، وظلا يعملان كذلك أيام معاوية .

ولكن عروبة معاوية لم تكن ذات اتصال بالعلاقات مع الشعوب غير العربية أو الديانات غير الاسلامية فحسب ، بل اتصلت بما طرأ على الاوضاع الداخلية من تبدل أيضا . ولقد كان الخلفاء الاول يطاعون طاعة عمياء لمجرد انهم خلفاء الرسول . ولكن قناعة المنصب تأثرت تأثرا كبيرا بمقتل عثمان والحرب الاهلية بين على ومعاوية . وكان من الواضح ان معاوية اضحى خليفة لانه كان أقوى رجال عهده شخصية وأكثرهم كفاية فى ميدان القيادة . فعلى الرغم من ميل العرب الفطرى الى الفوضى ، إلا انهم كانوا دائما على استعداد للعمل تحت قيادة أى انسان يروونه أهلا للقيادة . ولم يكونوا قط على استعداد لتوفير الابهة أو الرتبة أو الامتيازات الوراثية أو الالقب . ولكنهم اذا ما رأوا أمامهم رجلا حق الرجولة استكانوا له لا بدافع الخوف بل بدافع الاعجاب المقرون بالحماسة ولا ريب فى أن ولاهم لمعاوية كان من هذا الطراز .

واتبع معاوية بدوره سبيل الحاكم العربى الديموقراطى الذى .
 يشبه شيخ القبيلة التقليدى فى كل شيء بوصفه الاول بين عدد من
 الكبراء ليس الا . وكثيرا ما دهش أبناء الاجيال المتلاحقة الذين نشأوا
 على توقع الميل الى الابهة والخطرسنة المعروفة عن الطغاة الشرقيين من
 الطريقة التى كان الناس من أبناء الرعية يحدثون بها خليفتهم معاوية .
 ويقول الرواة انه ما لبث ان تبوأ منصب الخلافة حتى جاءه أحدهم
 يقول . . « والله لتستقيم بنا يا معاوية أو لنقومنك » فتساءل معاوية .
 « وبماذا ؟ » فقال الرجل « بالخشب » فرد معاوية وقد ابتسم « اذن
 نستقيم » ولا ريب فى أن هذه الصراحة التى لا تخلو من المزاح رغم
 قسوتها هى الطابع الذى يطبع أواسط الجزيرة العربية حتى يومنا
 هذا . ولا ريب أيضا فى ان كل من تعامل مع عرب الجزيرة تعاملًا وثيقًا
 يدرك أن الصورة التى رسمها المؤرخون العرب لبدو تلك الايام تنطبق
 تمام الانطباق على بدو اليوم على الرغم من انقضاء ألف ومائتى عام .
 ولعل مما يثير الاهتمام أيضا أن هذه الصراحة الجهرية تقف تمامًا على
 النقيض من تصرفات أهل المدر فى سوريا ولبنان اليوم كما كانت فى
 عهد الروم ، فالسورى المثقف يفوق أى انسان آخر دماثة ومجاملة
 ولا ريب فى ان مجاملاته هذه تخجل الاوروبى لا سيما اذا كان يقدم
 اليه منحنيًا معقدًا ليجلس عليه مرددا أسئلته الكثر عن صحته وسعادته .
 ولعل من المذهل حقا أنه على الرغم من انقضاء اثنى عشر قرنًا ما زال
 السوريون يعرضون ما عرف عن الروم من مجاملة بينما يعرض البنو
 ما عرف عن الفاتحين العرب من ديموقراطية جافة .
 وكان استقبال صحابة رسول الله من مهاجرين وأنصار من المعمرين
 لمعاوية عندما زار المدينة للمرة الاولى يعد بيعته فى منتهى الفثور والبرود .
 ويروى انه قال لجماعة منهم جلسوا اليه فى المدينة . « تلقانى الناس
 كلهم غيركم يا معشر الانصار » فقال له احدهم « لم يكن لنا دواب »
 فرد معاوية وكان يعرف المدينة خير معرفة عندما كان كاتبًا لرسول الله
 . . وابن النواضح ؟ (يعنى الابل السريعة المشى) فقال الرجل « عقرناها
 فى طلبك وطلب أبوك يوم بدر » وليس فى وسع الانسان أن يتصور
 ردا أقسى ولا أكثر استفزازًا من هذا الرد . ومضى الانصارى يواصل
 حديثه وعلى محياه سيماء الالم « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لنا
 « انكم سترون بعدى أثره (يعنى مصيبة) » فقال معاوية « فما أمركم »

قال الانصارى : « أمرنا أن نصبر » فرد معاوية وعلى وجهه - كما
أصور - ابتسامة ... « اذن فاصبروا » .

وهكذا أقنع كبراء المدينة أنفسهم، وقد وجدها عاجزة عن الوقوف
في وجه قوة معاوية العسكرية وأمام ذكائه اللامح ، بأن حكم معاوية باق
الى أن يموت . وقد أعرب عن هذه الفكرة شاعر المدينة (يعنى حسان بن
ثابت) بقوله :

ألا ابلغ معاوية بن حرب أمير المؤمنين نبا كلامي
فانا صابرون ومنظروكم الى يوم التغابن والخصام

وروى أخيرا عن رجل عاصر معاوية من شيوخ العرب قوله : صحبت
معاوية ، فما رأيت رجلا أثقل حلما ، ولا أبطأ جهلا ، ولا أبعد أناة منه .

ولعل أصدق شهادة على ديموقراطية معاوية جاءت من مؤرخ يونانى
معاصر لعهد هو تيوفينس Theophanes اذ وصفه بأنه الوزير الاول
للعرب ، لا الملك أو الامبراطور . ولقد رأينا فى عصرنا هذا عددا من
الديكتاتوريين . ومع ذلك فاننا لم نر الا القليلين منهم ان وجدوا قادرين
على الاجتماع الى شعوبهم ، والجلوس اليهم ، والدخول معهم فى مناقشات
صريحة على قدم المساواة ، لا مع الناس فحسب بل مع الخصوم السياسيين
أيضا ، والرد على عباراتهم الساخرة التى تبلغ أحيانا حد الاساءة ، بروح
مرحة هادئة . ولعل هذا هو السبب الذى جعل من معاوية الخليفة الوحيد
الذى لم تقم فى عهده أية ثورة أو أى عصيان منذ تبوأ الخلافة .

ولقد سبق لى أن ذكرت أن معاوية عين عمرو بن العاص ، أميرا لمصر
قبل وفاة على وكان عمرو كما قلت أيضا صاحب الفضل فى فتح مصر .
باقتراحه فتحها وتولييه عملية الفتح أيضا . ولكن عمرا لم يقدر له أن
يعيش طويلا لينعم بثمار جهوده وكده . فلقد توفى عام ٦٦٣ . أى بعد
سنتين من خلافة معاوية . ومن الصعب على المؤلف تقويم شخصية عمرو
هذا ، وإن كان غزوه الناجح لمصر على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة من
البدو ليس الا خير دليل على شجاعته وجراته . ويبدو لى أن ادارته
اللاحقة لهذه البلاد المحتلة ، كانت أكثر تفتحا من خطة رئيسه عمر بن
الخطاب . فلقد خصص نسبة معينة منتظمة من خراجها السنوى لاصلاح
أجهزة الرى فى البلاد وتطويرها . كما عمل جهده لحماية الاقباط من
ابتزاز الضرائب، وأعاد أيضا حفر قناة تبراغان التى كان روم القسطنطينية

قد أهملوها حتى سدتها الرمال - ويمكن بعمله هذا البواخر القادمة من البحر الأحمر من الإبحار حتى الفسطاط والنيل لتسير فيه حتى البحر المتوسط . وكانت له شهرة وافية في عالم السياسة والدبلوماسية منذ أيام سفارته مندوبا عن قريش الى نجاشي الحبشة ، حتى مناوراته الأخيرة . تأييدا لمعاوية على علي بن أبي طالب ، ومع ذلك فقد كان سلوكه في عملية التحكيم في أخرج خادعا . كما يشك في أنه كان فاسدا من الناحية المالية . ونحن نعرف أيضا أنه كان شاعرا ، وذلك من الأسطر النثرية القليلة المتميزة بالروح الشاعرية والتي كتبها الى عمر بن الخطاب يصف له فيها أرض مصر والحياة فيها . وثبتت الروايات الكثيرة عن ذكائه سرعة بديته . ولطف نكتته . ولعل أصدق وصف لشخصيته ، ورد على لسان شخص . كان على اتصال وثيق بجميع شخصيات تلك الايام المثيرة فقد أجمل تصويره لشخصية عمرو في العبارة المقتضبة التالية : لم أجد في حياتي رفيقا أرق من عمرو .

ويذكر القاري ولاشك أن العصاة كانوا يطالبون عثمان قبل قتله . وأثناء الحصار الذي فرضوه عليه بتسليمهم مروان الكروه الذي وجد . الملجأ له في دار الخليفة . وقد فر مروان هذا بعد قتل عثمان بعد أن أصيب بجراح برفقة الزبير وطلحة الى البصرة حيث حارب عليا في معركة الجمل . ولجأ مروان الى حمى معاوية بعد انتصار علي في تلك المعركة . وعندما أنهى مقتل علي كل معارضة لمعاوية عين الخليفة المنتصر مروان الكروه هذا أميرا على المدينة كاجراء عقابي لمقتل عثمان . ولكن السلطان كان قد انتقل من المدينة الى الأبد . وان ظلت بقية الصحابة وذراريهم تعيش فيها بعيدا عن التدخل في هذا الصراع المجنون . وكان بعضهم يقضي أيامه في التهجد والعبادة . وبعضهم في ترف الثراء الذي حققته لهم الفتوحات العظيمة وما ينطوي عليه هذا الترف من رخاء وملذات ، ونسى الناس تدريجا أيام بدر . وأحد الردة البطولية .

واختار معاوية اول ما اختار لامارة الكوفة وقيادة جندها الجائشين . بالفتنة المغيرة بن شعبة أمير البصرة المغزول . ولقد كان هذا الفارس المغوار بطلا من أبطال الحروب في فارس ، وفقد احلى غينية في معركة اليرموك ، كما امتاز بالقامة الفارعة ، والرغبة في المغامرة والشعر الفاحم والعود الرياضي . وكان قد حكم الكوفة من قبل في أواخر عهد عمر ثم عزله عثمان ليفسح المجال لتعيين أحد الامويين خلفا له . وقد عرف عنه انه قليل الحياء ، لا يخجل من شيء متجلد العاطفة ، وافر الشجاعة كثير

«الدهاء واسع الحيلة • وقد بات الآن مسئولا عن الكوفة وأواسط العراق
وشمال فارس ولم تكن مهمته بالهيئة أو المريحة ، ففي العراق يواصل
«الخوارج تأمرهم لتحقيق هدفهم في الجمهورية الدينية ، واستأنف من
الفتوحات في شمال فارس اندفاعه متخذاً من الكوفة قاعدة له •

ولكن زياد بن أبيه كان أبرز عمال معاوية ، وقد سبق لنا أن
أشرنا اليه أكثر من مرة ، وكان زياد هذا أميراً لعل على جنوب فارس
عندما رسم سيف بن ملجم النهاية لحياة سيدة ، ومع ذلك فقد كانت
سيطرته كاملة في مركزه « اصطخر » الى الحد الذي مكّنه من الاحتفاظ
باستقلاله في حكم الإمارة أكثر من عام بعد تولي معاوية الخلافة • ويذكر
القاري أيضاً ان المغيرة بن شعبة نجا من الموت رجماً بتهمة الزنا في
البصرة بفضل زياد بن أبيه الذي تراجع في اللحظة الأخيرة عن الشهادة
ضده •

ولم ينس المغيرة جميل زياد فراح يعمل وسيطاً ليحصل له
على عفو معاوية ، ومضى المغيرة بموافقة معاوية الى مدينة اصطخر التي
كانت في يوم ما عاصمة كورش ودارا والتي يحكمها زياد الآن ، حيث
استصحب زيادا معه الى دمشق بعد أن أعطاه الامان على حياته. ولم
يكن الخليفة الجديد بالرجل الذي يكسب عداء مثل هذا الأمير الذي
أثبت كفاية منقطعة النظر في إدارته • ولذا فقد استقبله استقبالا
ينطوي على الاكرام وأعادته أميراً على ولايته •

وسرعان ما وقع حادث ضخم كل الضخامة • ويذكر القاري ان
زيادا كان ابن سمية الجارية ذات السمعة المشبوهة في الطائف ومكة ،
ولم يكن يعرف له أبا • وفجأة أعلن معاوية إعلاناً أثار فزع المتدينين
وتقززهم • وهو ان زيادا هو ابن أبي سفيان والد معاوية من الجارية
سمية • وانه أي زياد أخ له • وليس ثمة من شك في ان العلاقة
اللاشرعية قامت بين أبي سفيان وسمية قبل تحول الرجل العجوز
الى الاسلام • ولقد كان من المؤلف في صدر الاسلام ألا يحاسب
المسلم على ما اقترفه من خطايا في عهد الجاهلية • ولكن بالإضافة الى
الناحية الدينية لم يرض عدد من الأمويين المتكبرين أن يضموا الى أسرهم
شخصاً مشبوه الاصل والولادة • ولا ريب في ان اعتراف معاوية بعلاقة
أبيه بامرأة مشبوهة الخلق ، كان عملاً بارعاً من أعمال السياسة وكسب
الاعداء السياسيين • ولم يكن تقدير معاوية السياسي خاطئاً أو في غير

موضعه . فلقده أصبح زياد بن أبيه ، زياد بن أبي سفيان وأصبحت
مصلحته مرتبطة ارتباطا وثيقا بحكم الامويين . ولقد عينه معاوية الآن
أميرا على البصرة وتمتد سلطاته لتشمل كل الاقسام الجنوبية من فارس .
حتى نهر السند في الباكستان الحديثة . وظل المغيرة أميرا على الكوفة ،
حتى مات ، فخلفه فيها زياد الذي أصبح يحكم الكوفة والبصرة . وأضحى
صورة لمعاوية في حكمه للنصف الشرقي من الامبراطورية كله . ولقد
أضفى على نفسه هالة الملك فأصبح يسير والحرص من أمامه وخلفه ،
وأبواق الجند تعلن وصوله .

وكانت أمارتا البصرة والكوفة لا تزالان تعجان بالخلافات الداخلية .
وواصل الخوارج تأمرهم . على الرغم من أن المغيرة أعدم ثلاثمائة منهم
في يوم واحد ، ولكن المصدر الرئيسي للفتنة وما يحز من مرارات في
نفوس اتباع معاوية وشيعة «على» الشهيد ظل باقيا . وعلى الرغم من أن
زيادا كان حتى عهد قريب عاملا لعل ، الا انه كرس الآن جميع جهوده
لنصرة الامويين ويقال بأنه حدد فن الحكم باستعمال اللين بدون ضعف .
والشدة من غير عنف . ولكن لما كانت الروايات قد نقلت عنه انه أحرق أحد
اتباع على وهو على قيد الحياة ، فقد بات من الصعب علينا حقا أن
نحدد ما عناء « بالشدة في غير عنف » .

وكان الاعتقال يتناول الاشخاص المتهمين بعدم الولاء فيسألهم عن
رأيهم في علي وعثمان . وكان الموت جزاء الذين يجيبون بأن عليا رجل
صالح ، وأن عهد عثمان اتسم بالظلم ، لانهم جهروا برأيهم . وكانت
الخطوة لدى معاوية ، تتطلب أن يشتم الانسان عليا وأن يمدح عثمان
الشهيد . وكانت الرحمة لا تعرف لها طريقا الى قلب زياد عند حبسه
للخوارج أو اعدامهم . وكان يساوى في معاملته هذه بين الخوارج وبين
شيعة علي ، على الرغم من حصول الكثيرين من الذين يتمكنون من الوصول
الى معاوية لرفع ظلامتهم اليه ، على العفو من الخليفة .

وعلى الرغم من شدة الاساليب التي اتبعها زياد بن أبيه مع اهل
الكوفة ، فان السلوك القائم على الفتن والزيف الذي اتبعه الكوفيون
مع علي الوديع المتسامح عندما كان حاكما لهم ، يوحى بانهم كانوا
يستحقون هذه الشدة التي طالما شكوا منها في المغيرة وزياد . فلقده
ساد الاضطراب جميع أرجاء العراق الجنوبية والقسم الاكبر من فارس .
في عهد علي ، وكانت الطرق غير مأمونة ، والحدود معرضة لغزو الكفرة

- والمشركون • وما كاد زياد يتسلم الحكم ، ويوطد أقدامه فيه حتى •
- همدت الفتن ، واستقر الأمن واستتب النظام وعاد المسلمون يشقون •
- طريقهم تحت راياتهم الظافرة لفتح الهند وبلاد ما وراء النهر •
- وتوحى سياسة العنف وعدم الملاينة التى اتبعها كل من معاوية
- وزياد بمنتهى البراعة والكفاية بأنهما حقا اخوان وان أبا سفيان لم يلد
- سياسيا عبقريا واحدا بل سياسيين عبقرين •

تواريخ بارزة

- انتصار على على الخوارج عند النهروان مارس (آذار) ٦٥٨
- عمرو بن العاص يستولى على مصر يوليو (تموز) ٦٥٨
- مقتل على بن أبى طالب ٢٠ يناير (كانون الثانى) ٦٦١
- تنازل الحسن عن الخلافة يوليو (تموز) ٦٦١

شخصيات مشهورة

- معاوية خليفة المسلمين فى الشام
- على بن أبى طالب خليفة المسلمين فى الكوفة
- عمرو بن العاص أمير مصر
- أبو موسى الاشعري فاتح فارس
- عبدالرحمن بن ملجم قاتل على
- الحسن بن على سبط الرسول
- المغيرة بن شعبه أمير الكوفة ثانية فى عهد معاوية
- زياد بن أبيه أمير البصرة والكوفة فيما بعد
- وزير زياد بن أبى سفيان



العودة إلى الفتح

« قد يكون من المعقول أن يعهد بالخلافة الى أكثر المسلمين صلاحا . وقد يكون من المعقول أن تكون وراثية في آل البيت ، أما أن تصبح وراثية في أسرة أشد أعداء النبي فهذا أمر لم يكن محمد قد تصوره . قط »

فريمان - تاريخ العرب -

« كان الموقف يعرض صعوبات عدة ، عند ارتقاء معاوية سدة الخلافة . فلقد أدى مصرع عثمان الى تحطيم تلك الآصرة الدينية التي ربطت الخلفاء الأول الى الناس . وبات لزاما على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية . . وكان الحل الذي وجده هو التحول من الدولة الدينية الاسلامية الى الدولة العلمانية العربية . . ولم يكن معاوية دائم القيادة لقومه ولكنه كان بارعا في ادارتهم عن طريق الاقتناع والكفاية الشخصية والمكانة »

الاستاذ بيرنارد لويس - العرب في التاريخ

العودة الى الفتح

ما كادت الفتن تهدأ ، ويستتب الأمر لمعاوية فى الخلافة ، حتى استأنف العرب حروبهم لتوسيع حدود امبراطوريتهم . وكان معاوية ابان انصرافه الى الحرب الاهلية مع على ، قد عقد هدنة مع القسطنطينية ، وافق فيها على أن يدفع جزية سنوية لامبراطورها مقابل الحصول منه على عدد من الرهائن لضمان احترام الروم للهدنة . فلما استتب له الامر الآن اعاد الرهائن الى الروم واستأنف الحرب معهم .

يقوم سهل أضنه عند السفح الشرقى لجبال طوروس وقد قدر لهذا السهل أن يكون مسرح أحداث وحروب لا تنتهى عدة قرون ، تماما كوضع حدود الهند الشمالية الغربية ، ابان حكم الانجليز للهند . وتمتد الحدود من هذه المنطقة باتجاه الشمال الشرقى الى مرعش ومنها الى ملاطية فارمينا وجورجيا والقفقاس . وكان المضيق الجبلى المعروف منذ أقدم العصور ببوابة كيليكية ينتهى الى سهل طرسوس ولكن سهولة الدفاع عنه جعلت العرب يعزفون عن استخدامه لغزو بيزنطة . وقد نقل الينا الرواة ان معاوية ادراكا منه لهذا الواقع قد استخدم ملاطية ككثير أمامى متقدم للاغارة على أراضى الروم كما نقل الينا الرواة أيضا انه أعاد بناء مرعش وحصنها كل التحصين .

ويبدو أن معاوية أراد تفنيد ما يحيط بسمعته الدينية من شبهات يثيرها أشياخ «على» وصحابة المدينة . ولذا فقد قضى العشرين سنة من حكمه أى بين عامى ٦٦١ و ٦٨٠ فى القيام بعمليات حربية لا يكل منها ولا يعمل ضد الروم . ويبدو أيضا انه أراد التكفير عن الجزية التى دفعها اليهم فى سنوات انشغاله بالقتال مع اخوانه المسلمين . ولم يسترح العرب الى قر الاناضول القارص فى أيام الشتاء . ولذا كانوا يوقتون غزواتهم عادة فى الصيف ليعودوا فينسحبوا فى الخريف ، قبل حلول برد الشتاء القارص . وكان معاوية أيضا اول من فكر ببدل جهود حفظها لنا التاريخ لتنظيم وحدات عسكرية نظامية . ولا ريب فى أن القارىء يذكر أن العرب ظلوا منذ عهد النبى يحاربون على أساس قبلى ، اذ تؤلف كل قبيلة وحدة خاصة بها ، ويكون شيخ هذه القبيلة هو قائد هذه الوحدة . وكانت رواتب الجند تصرف من الغنائم التى تقع فى أيدي الجيوش عند الحملات العسكرية بعد أن يقتطع منها الخمس لارساله الى بيت المال فى المدينة،

• وكان عمر بن الخطاب أول من فكر في تنظيم دفع الرواتب للجنود على أساس ثابت ، ولكن قوائم مستحقيها ظلت تعتمد على الأسس القبلية .

وأدى وجود حدود ثابتة الى حد ما بين الامبراطورية العربية وامبراطورية الروم الى ضرورة وضع أساليب جديدة ومنظمة • وكان تأمين الحاميات للثغور والحصون عملية خطيرة ومتعبة . كما ان القائمين عليها كانوا يتطلبون رواتب أعلى من المعتاد . يضاف الى هذا ان الجنود لم يعودوا من العنصر العربي وحده • وبتنا نسمع الآن عن وحدات من خراسان أو عن نقل الخراسانيين مع أسرهم الى المناطق الجبلية في الشمال الغربي • ولعل هؤلاء الخراسانيين كانوا أكثر قدرة على احتمال الاشتاء الباردة وأجواء المناطق الجبلية من العرب •

لكن العمليات لم تقتصر على أى حال على الغارات الصيفية الرتيبة • فلقد عقد الخليفة عزمه على مهاجمة القسطنطينية نفسها ، عاصمة امبراطورية الروم • ويذكر القارىء ، ولا شك ان معاوية منذ أصبح اميرا على سوريا فى عام ٦٣٩ أدرك القيمة الهائلة للقوة البحرية • وكان عمر ابن الخطاب بما عرف عنه من حرص وحذر قد رفض الموافقة على انشاء قوة بحرية ، ولكن عثمان أراد أن يقتنع بالاقترح ، وكانت نتيجة تنفيذه استيلاء معاوية على قبرص والانتصار على أسطول الروم في معركتين بحريتين هزم فيهما الاسطول هزيمة ماحقة تبدد شمله على الرهماء . وانتقلت السيادة البحرية فى المتوسط الشرقى الى أيدي العرب • وأبحر أسطول عربى ضخم فى عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ ، اذ أن التواريخ غامضة بالرغم من خطورة الاحداث ؛ يمتد عباب هذا البحر ويدخل مضائق الدردنيل دون معارضة • وهبط العرب الى البر على بعد سبعة أميال من مدينة القسطنطينية ، وزحفوا فورا يهاجمون عاصمة الامبراطورية •

• وكان العرب قد برعوا فى هذه الايام فى حروب الحصار وكانوا مجهزين بالمجانيق والمعدات الأخرى اللازمة لتخطيط الاسوار والابواب وقذف المدن المحاصرة • وقد تعلموا طريقة تشكيل المظلات الواقية بجمع الدروع بعضها الى بعض فوق الرؤوس لحماية الرجال من القذائف التى يطلقها المدافعون عن الاسوار ، كما تعلموا الابتكارات الأخرى الحديثة لمهاجمة الحصون • وعلى الرغم من اتقانهم لكل هذه الأساليب الا ان هذا الطراز من الحرب لم يكن من النوع الذى يبرزون فيه خصومهم ، ولقد سبق لنا أن رأينا أسوار بيزنطة تصمد أمام شجاعة الهون والمغول • وتمتنع على جيوش كسرى المنظمة وعملياتها الحربية الفنية • فلقد كانت

أبراجها وقلاعها شاهقة الارتفاع ، متينة البنيان . كما أن البيزنطيين لم يعودوا يشغلون أنفسهم في عمليات عسكرية في مناطق نائية ونصف معادية وإنما يدافعون عن آخر ما تبقى لهم، عن بلادهم ودينهم ونسائهم وأطفالهم . وظلت صفوف المهاجمين العرب تضرب رءوسها يوما بعد آخر في أسوار المدينة العالية تماما كما يضرب الموج الهائج الصخور الشاهقة على ساحل جبلي فيتحطم عليها . ولكن يبدو أن النار الاغريقية المشهورة كانت السلاح الرئيسي الذي أعان المدافعين وأنزل الفزع بالمهاجمين . ولا ريب في أن شبكات المخابرات وأنظمتها لم تكن قد تطورت تطورا كبيرا في تلك الايام بالنسبة الى تطورهما الحال والى ما استطاع الروم أن يحتفظوا بسر هذا السلاح الرهيب هذه القرون الطويلة وهو سلاح يتمثل في قاذفة للنار ، ظهرت لنا صور جديدة منها في عصرنا هذا في ميادين القتال .

وعجز العرب عن اقتحام أسوار المدينة العظيمة ، ولكنهم استطاعوا نهب المناطق المحيطة بها على الساحلين الآسيوي والأوربي وأحالتها الى قاع صفصف . فلما حل الخريف تخاوا عن خطتهم لاقتحام الاسوار وانسحبوا عنها الى جزيرة سيزيكوس الصغيرة في بحر مرمرة والتي تقع على بعد ثمانين ميلا من القسطنطينية . وظل العرب يحاصرون عاصمة الروم سبع سنوات متوالية ، ولكن جهودهم كلها ذهبت أدراج الرياح الى أن اضطرهم خسائرهم الفادحة في الرجال والسفن والمعدات الى التخلي عن المحاولة . وقد يكون من الاعجاز حقا أن بيزنطة التي بدت تلفظ أنفاسها الاخيرة في القرن السابع قد استطاعت أن تعمر سبعة قرون أخرى ، وأن تبقى رغم قدمها وشيخوختها الى ما بعد زوال هذه الامبراطورية العربية الجديدة التي كانت تقرر بجيوشها أبواب عاصمتها .

ولقد أغدقت أوروبا منذ عصر النهضة الحديثة اعجابها على الجمهورية الرومانية القديمة . وإن كانت لم تنس أن تذكر بشيء من الاعجاب الامبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية فلقد غيرت المقاومة العنيدة التي أبدتها هذه الامبراطورية في آخر خط دفاعي لها في القرن السابع ، سير التاريخ الأوربي وقررت مصيره حتى أيامنا هذه . فلو سقطت القسطنطينية في أيدي العرب في عام ٦٧٠ لاجتاح هؤلاء اليونان وايطاليا وفرنسا ، ولما تمكنت قوة مساوية لقوتهم من الوقوف امامهم ، ولم يقدر للقسطنطينية أن تسقط في أيدي المسلمين حتى عام ١٤٥٣ . عندما استولى عليها الاتراك العثمانيون وكانت أوروبا قد أفادت في غضون ذلك من سباتها في العصور الوسطى المظلمة . وباتت قادرة على الصمود

صمودا ناجحا امامهم ، وان وصلت جيحافلهم الى أبواب فيينا فى أكثر من مرة ، ويبدو أن المسيحية لم تقر بعد اقرارا كافيا بما للبيزنطيين عليها من دين .

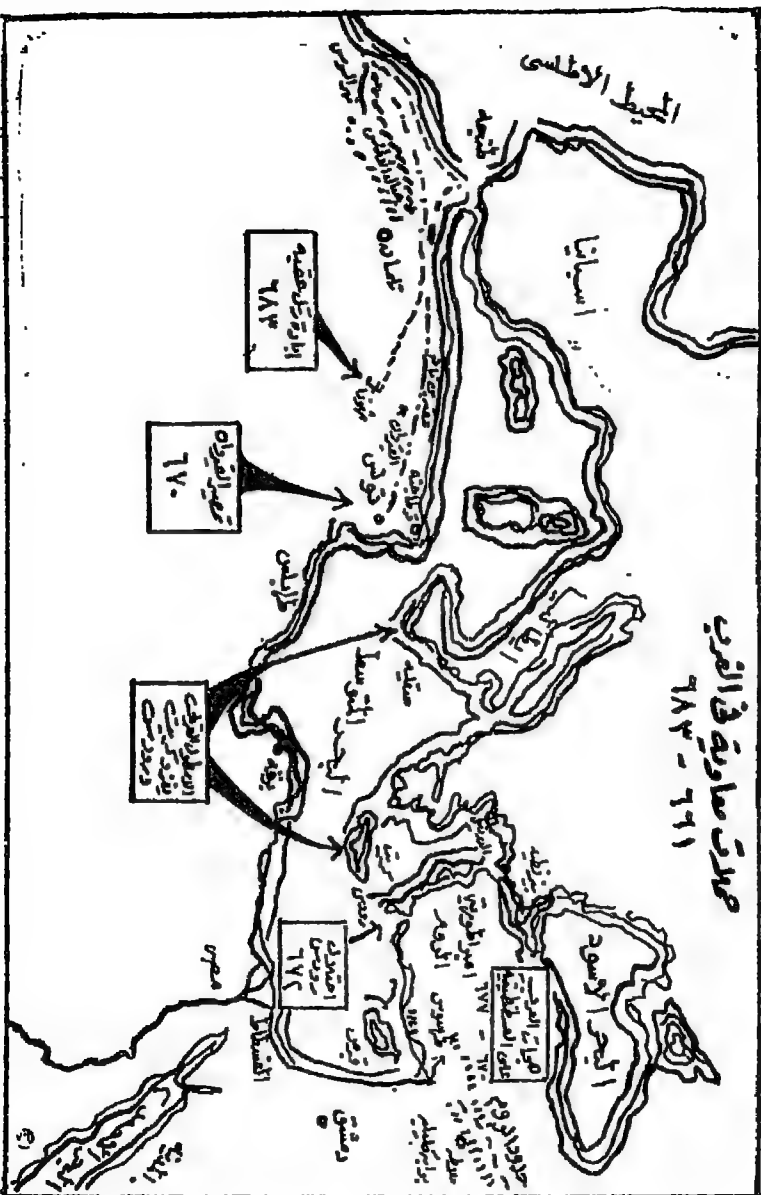
وأدى فشل معاوية فى هجومه العظيم على القسطنطينية الى انعاش المكانة الذاتية لامبراطورية الروم ، الى التخفيف من حدة الرعب الذى كان ينشره اسم العرب فى كل مكان . وقد قدر للحرب الاهلية أن يستعر أولها مرة ثانية بعد وفاة معاوية التى حدثت بعد فترة قصيرة من هذه الوقائع ، وذلك بين البطون المتنافسة من قريش كما قدر لوطاة القوة العربية المقاتلة ، ان تتحول من جديد عن الفتوحات الخارجية الى الصراع بين الاخوة والاشقاء .



لقد جانبنا السياق التاريخى المتزمت فى حديثنا عن العمليات العربية الحربية ضد القسطنطينية فى عهد معاوية . فلقد بدأت خلافة معاوية فى عام ٦٦١ واستمر حصار القسطنطينية من عام ٦٦٨ أو ٦٧٠ حتى عام ٦٧٧ تقريبا ، ثم توفى معاوية فى عام ٦٨٠ ، وأرى أن نعود الآن الى بداية عهده ، لندرس الحملات الفعالة الاخرى التى شنت ابان خلافته التى استطلت عشرين عاما .

واجه معاوية فى بداية حكمه المشكلة التى واجهت أكثر من مرة فى غضون الخمسين عاما المنصرمة واضعى الخطط السوقية البريطانية . وتمثل هذه المشكلة فى الصراع بين أنصار الجبهة الرئيسية وبين أنصار المارك الجانبية . أو الصراع بين خط العمل المباشر واللامباشر . ففي اصول السوقية والتبعية يميل الجندى دائما الى المغامرة بكل شئ فى الهجوم على الموقع الرئيسى للعدو ، لان احتلال هذا الموقع يؤدى الى انهاء الحرب بضربة واحدة قاضية . ولكن لما كانت الحقيقة تنص على أن خسارة هذا الموقع ستعنى الكارثة بالنسبة الى العدو فان المفروض أن تكون مقاومته عنيفة الى حد اليأس ، يضاف الى هذا أن المهاجم اذا قام بكل شئ فى هجومه على هذا الموقع ، ثم لم يقدر له النجاح فانه قد لا يجد بعد ذلك القوة اللازمة للهجوم ثانية ، اذ أنه يفقد الحافز على هجومه ويضيع الامل بالنصر الى الأبد ، مع دفعه ثمنا باهظا من الخسائر . أما اذا اتبع السبيل الثانى ووضع قوة تغطية امام الموقع الرئيسى للعدو ، ثم حول جهوده الى الأجنحة والى عدة مشاريع فرعية . فانه يستطيع على المدى الطويل أن ينهك طاقة العدو على المقاومة . على أى حال ، لن يؤدى صد

7-12-41



لدى من هذه العمليات الفرعية الى وقف الهجوم . وقد تؤدي هذه الهجمات التى يقصد منها سبر أغوار قوة العدو اذا نجحت الى استفلال ناجح لها . ويمكن الافادة من المزية التى تتحقق عن طريق اظهار نقاط الضعف عند العدو لتحطيمه .

وهكذا لو أن الجهود والدروع التى صرفت فى هذه الهجمات الجراف التى شنها العرب على أسوار القسطنطينية قد صرفت فى مكان آخر ، لكانت كافية لاحتلال ايطاليا وأسبانيا وفرنسا أيضا . وصحيح أن العرب قد تمكنوا من احتلال أسبانيا بعد نحو من أربعين عاما الا أن الحماسة الفطرية العربية كانت قد ضعفت فى ذلك الحين ، ولم يعد اسم العرب يرعب العالم ، أما فى عام ٦٦١ فان شهرتهم كانت لاتزال مرعبة ، ولم يكونوا قد هزموا بعد فى أية معركة ، ولو احتل العرب فى ذلك الحين ايطاليا وأسبانيا وفرنسا فان القسطنطينية ماكانت لتستطيع الصمود والبقاء .

ويذكر القارىء أيضا أن عمرو بن العاص كان قد أوفد عندما احتل مصر أول مرة ابن اخته عقبة بن نافع الى الجنوب للاغارة على بلاد النوبة والسودان حيث لم يحقق الا نجاحا ضئيلا . وعندما ذهب عمرو الى مصر أميرا لها فى عهد معاوية فى يوليو (تموز) عام ٦٥٨ أخذ معه اليها عقبة ثانية . وكان هذا فارسا مغوارا وبطلا مقداما . لا يترك وسيلة الا واتبعها بحثا عن مغامرة جديدة تكون أكثر خطورة من سابقتها . وتوفى عمرو فى مصر عام ٦٦٣ ، ولكن عقبة ظل يلحف على السلاط ان تبعث به فى حملة تمكنه كما يقول الاصطلاح العسكرى الحديث من القيام بخدمة عسكرية فعلية ، ويبدو أن معاوية قد وافق أخيرا على تعيين عقبة قائدا للجيش فى شمال افريقيا ، وكان الروم لا يزالون يحتلون قرطاجنة بينما كانت حدود السيطرة العربية الفعلية تنتهى فى برقة ، وتقدم عقبة حتى وصل الى تونس التى تبعد نحو من ألف وخمسمائة ميل عن قاعدة العرب الاساسية فى الفسطاط . وكانت جيوش العرب قد وصلت الى هذه المنطقة فى المرة الماضية ، ولكن افتقارهم الى قاعدة أقرب من الفسطاط فى مصر كان يضطرهم فى كل مرة الى التخلي عن فتوحاتهم (١) . وقد

(١) يذكرنا هذا المد والجزر قبل توطيد أقدام الحكم العربى فى شمال افريقيا بصعوبة المواصلات التى عاينها فيها ابان الحرب العالمية الثانية . فلقد اعتمد الجيش البريطانى كجيش عقبة على قاعدة مصر ، ثم تقدم الى برقة ليضعفه طول المواصلات مما شجع الالان على شن هجومهم المضاد واخراج الالان منها ، وتقدم رومل الى العلمين متخذًا من طرابلس قاعدة له لطالت مواصلاته وهرم لعين السبب أيضا . المؤلف

أدرك عقبة وكان محقا في ادراكه ، أن توطيد أقدام العرب في افريقيا ، لن يتم الا اذا اقيمت قاعدة عسكرية صالحة في المنطقة وفي وسع الارتال والسرايا أن تخرج من قاعدة كهذه لغرض الاستقرار في المناطق المجاورة كما تكون هذه القاعدة مركزا لحكم اقليمي ثابت الدعائم .

واختار عقبة تحقيقا لهذه الغاية في عام ٦٧٠ منطقة صحراوية تقع الى الجنوب من قرطاجنة ، ورسم فيها مسجدا ومنزلا للأمير الحاكم ، وأقام حولها قاعدة للجيش وهكذا بنيت القيروان القاعدة الجديدة التي قدر لها أن تغدو فيما بعد مدينة عظيمة ومشهورة ، وتقع القاعدة الجديدة على بعد بضعة أميال من الساحل . ولهذا كانت بالنسبة الى العقل العربي أكثر صلاحا من قرطاجنة الواقعة على شواطئ البحر المتوسط والمعرضة دائما للغارات البحرية . وهكذا أصبحت القيروان قاعدة جديدة كالفسطاط والكوفة والبصرة تعتمد عليها الجيوش العربية في السيطرة على المناطق المجاورة .

وكان عقبة رجلا مستقيما فصيح القول محبوبا من رجاله نزيها شريفا، ولكنه كان يفتقر الى الكياسة والدبلوماسية، وكان البربر لا أفراد الحاميات البيزنطية المعزولة هنا وهناك هم المدافعون حقا عن افريقيا ، وكان هؤلاء الناس يظهرون استعدادهم لاعتناق الاسلام في كل مرة يظهر فيها العرب اقوياء . ولكن في كل مرة كان العرب ينسحبون أو يمضون في طريقهم ، يعدل البربر عن اسلامهم ويرتدون . ونحن نذكر أن النبي كان يلين مع المشركين ولكنه يقسو على المرتدين ويعتبرهم جديرين بالموت . وكان عقبة بعقله البسيط الساذج يرى هذا الرأي نفسه بالنسبة الى البربر ويبدى عزمه على عقاب المرتدين بالموت .

ولا تحدثنا السير والتواريخ عن الاسباب التي دعت معاوية الى عزل عقبة بعد انشائه القيروان ، والى اعادة الحاق برقة التي كانت قد غدت امارة قائمة بذاتها في عهده بمصر ، ولا يسعنا الا أن نفترض بأن بعض التقارير غير المرضية ، وصلت الى معاوية عن طريق عقبة في ادارة البلاد، وكان معاوية قد عين مسلمة بن مخلد أميرا لمصر . وقد أرسل هذا مولى له يدعى أبو المهاجر ليتسلم الزمام من عقبة . ومن المحتمل أن يكون عقبة الذي استنير قد رفض تسليم منصبه الى أبي المهاجر ، ومن المحتمل أيضا أن يكون معاوية نفسه هو الذي أصدر أوامره بعزل عقبة . وكل ما نعرفه أن أبا المهاجر ، أودع عقبة السجن عند وصوله ، ولا ريب في أن هذه التحول الفجائي من قائد عام الى سجين في القيود يشبه الى حد ما عمليات

التطهير الشيوعية في عصرنا الحاضر . (١)

وقد دار الصراع كما قلت سابقا بين ثلاثة عناصر في شمال افريقيا .
اولها الروم وثانيها البربر وثالثها العرب ، وكان كل منها يؤلف مجموعة
قائمة بذاتها . ويقال ان اساليب عقبة الاستبدادية في الحكم اثارت البربر
ودفعتهم الى التحالف مع الروم . فلما جاء أبو المهاجر ، اتبع سياسة
التقرب اليهم والتحالف معهم ضد الروم ، وقد حقق في سياسته هذه
نجاحا كبيرا ولاسيما في قضية كسيلة زعيم البربر الكبير . وتمكن
أبو المهاجر بمساعدة البربر من احتلال القسم الأكبر من المنطقة المحيطة
بقرطاجنة . دون أن يتمكن من احتلال المدينة نفسها التي استبسل الروم
في الدفاع عنها . وعندما تأكد القائد العربي من سلامة مواصلاته بفضل
تحالفه مع البربر راح يتقدم بقواته حتى وصل الى تلمسان القريبة من
الحدود الحالية بين الجزائر والمغرب .

وهكذا تتضح لنا تمام الوضوح الصورة العامة للعمليات الحربية
في شمال افريقيا في هذه الآونة . فلقد كان الروم يحتلون عدة نقاط
على الساحل ويتلقون العون لها من القسطنطينية عن طريق البحر . ولم
يكن في وسع هؤلاء أن يقاتلوا العرب في معركة مكشوفة الا اذا ضمنوا
معاونة البربر لهم . وكان في وسع العرب عادة اذا بعثوا بجيش الى
المنطقة أن ينتصروا على الروم والبربر معا في أية معركة . ولكن مشكلة
العرب لم تكن في كسب المعارك ، بل في استتباب الأمن في البلاد .
ويبدو أن عقبة قد فشل في حل هذه المشكلة . والمسافات طويلة للغاية
في افريقيا بحيث عندما تمضي الجيوش العربية قدما في زحفها الى

(١) تشبيه في منتهى السخف ، وليس له أي داع ، الا الرغبة الكارثية السائدة
مند كثيرين بالتهام الناس بالشيوعية . ولو كانت هناك شيوعية قبل معاوية بن أبي سفيان
لا تورع المؤلف عن اتهامه بالشيوعية . ولا أدري من أين جاء المؤلف بقصة « سوء
ادارة » عقبة فليس في تواريخ العرب ما يدل على ذلك ، بل هناك ما يدل على العكس ،
فقد روى الواقدي ما نصه : « وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة ، فلما ربه
فأذهب ذلك كله . حتى ان السباع لتحمل اولادها هاربة بها » ولا يمكن للرجل الصالح
أن يتهم بسوء الإدارة ولعل التفسير الصحيح لمرور عقبة هو أن مسلمة بن مخلد ، أمير
مصر الجديد أراد أن يعين مولاة أبا المهاجر في منصب كبير ، فلم يجد الا اماراة افريقيا
التي تابعة له فمرر عقبة عنها وولى أبا المهاجر ، ولعل خير ما يؤيد هذا الاستنتاج عودة
عقبة الى الشام واتباعه لمعاوية من معاملة أبي المهاجر ، واعتذر معاوية ووعده بإعادته
الى منصبه ، وهو وعد لم يتحقق لان معاوية توفي بعده بقليل .

(العرب)

الامام ، تتاح الفرصة للبربر للثورة فى مؤخرتها وقطع مواصلاتها ،
ويبدو أن عقبة اتبع طريق العنف والغارات الثارية لمعالجة هذا الوضع
بينما جاء خلقه أبو المهاجر فاتبع طريق التفاهم . والبربر شعبت عتيده
ومازالوا حتى يومنا هذا وعلى الرغم من انقضاء ألف وثلاثمائة عام على
أيام عقبة ، وأبى المهاجر ، يحتفظون بطابعهم الخاص ولغتهم . (١)

وكان عقبة قد عاد فى غضون ذلك الى دمشق ، وتوفى معاوية عام
٦٨٠ ليخلفه ولده الطائش يزيد ، وقد أفتنع هذا باعادة عقبة الى اماره
افريقيا واعاده اليها فى عام ٦٨١ . والثأر عند العرب للاساءه امر
مستملح . وقد ذاق عقبة حلاوته بوضع الاصفاذ فى يدى أبى المهاجر ،
وجره منها وراءه حيثما ذهب . وسرعان ما اختفى كسيلة زعيم البربر
الذى تعاون مع أبى المهاجر ، فى بطن الصحراء بينما اتجه عقبة على رأس
جيشه انسياقا منه وراء طبيعة المحاربة الى الغرب . فاجتاز منطقة
الجزائر كلها ، ودخل منطقة المغرب (مراكش) التى كانت تعرف آنذاك
باسمها الرومانى «موريتانيا» واحتل طنجة ، ولم تكفه فتوحاته هذه بل
نزل مع الساحل المغربى على الاطلسى حتى وصل الى السوس التى تلتقى
مع المحيط عند ميناء أغادير الحديث .

ومهما اتصف عقبة بالطرسة والبعد عن الكياسة فى الشئون
السياسة الا ان مزاياه كجندى محارب تفرض الاحترام ، ويبدو أنه
زحف مسافة الالف والخمسمائة ميل من القيروان الى أغادير ، دون أن
يجرؤ أحد على مقاومته ، ولا ريب فى أن هذه العملية التى كانت تفتقر الى
الموصلات المنظمة والى التموين والى القاعدة العسكرية هى أقرب الى الفارة
البدوية الضخمة منها الى الفتح الاقليمى ، لكن التوغل مسافة ألف

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على المألوف الاستعماري اظهار الفرقه بين السرب
والبربر فى المغرب العربى ، وهى فرقه غلداها الاستعمار الفرنسي طيلة وجوده فى افكار
المغرب الثلاثة ، ان حاول أن يجعل من البربر أقلية مميزة . وعلى الرغم من انصياع
بعض الزعماء الانقطاعيين الربطيين بالاستعمار الفرنسي الى رغبته وتعاونهم معه . كما
تعاون الزعماء الانقطاعيون وممثلوا الرجعية فى المشرق العربى مع زميله الاستعمار
البريطانى الا أن جماهير البربر فى افريقيا كانت شديدة الضراوة فى مقاومة الاستعمار
كأخوانهم الآخرين يضاف الى هذا أن التاريخ اثبت أن البربر هم من العرب . وقد
جاءوا من قبائل عربية هاجرت الى الشمال الأفريقى قبل الاسلام بقرون طوال ، ولعل
جزءهم من العرب هذه القرون قبل الفتح الاسلامى هى التى اوجدت الفروق اللغوية
التي يشير اليها المؤلف -

(العرب)

وخمسائة ميل فى أرض مجهولة معادية لم يكن بالعمل المفتقر الى الشجاعة ، والاحتمال . وتقول الروايات ان عقبة ركب حصانه عندما وصل الى ساحل الاطلسى ومضى يخوض الماء ويقول وسيقه مشرع فى يده «يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك » .

ويبدو ان النصر العظيم الذى حققه هذا القائد بمغامرته الجريئة ، قد جعلت منه انسانا مغرقا فى الثقة بنفسه ، فقد شرع الآن فى العودة الى الشرق ، وقد تولد لديه الانطباع بأنه قضى على كل مقاومة ، ولذا فقد جزأ جيشه الى عدة ارتال أخفت تدرع الارض نهبا وسلبا ، وغايتها فرض النظام على البلاد ، وهى مهمة كان من الواجب عليه أن يقوم بها قبل التوغل مثل هذه المسافة البعيدة . ويحتمل أن يكون افتقاره الى العطف على البربر قد جعل من المتعذر عليه الحصول على أية معلومات عن حركات البربر أو أن يكون اعتداده المبالغى بنفسه قد حمله على اهمال هذه الناحية .

ويكفى أن نقول ان البربر نصبوا للقوة الصغيرة التى كان يقودها بنفسه كميناً عند تهودا القريبة من مدينة بسكرة الحالية ، وذلك بقيادة كسيلة زعيم البربر ، وظل عقبة ورجاله يحاربون حتى قتلوا عن بكرة أبيهم ، وبينهم أيضا أبو المهاجر المسكين ، الذى قتل وهو فى أصفاده ؛ وقد حدثت هذه التلكسة المفجعة فى عام ٦٨٣ (١) .

وما كادت أنباء الكارثة تذايع ، حتى نشبت ثورة عامة اشترك فيها البربر فى كل مكان واضطر العرب الى الجلاء عن جميع المناطق التى

(١) يتجاهل المؤلف هنا قصة تشير الى اخلاص العرب لقضيتهم وإيمانهم بها برغم كل شيء فلقد ذكر المؤرخون العرب ان عقبة وصل الى تهودا على رأس ثغر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه . فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقتلوه وهو يدموهم الى الاسلام فلم يقلوا منه . وكان في الجيش كبير في البربر اسمه كسيلة ، كان قد أسلم في أيام أبا المهاجر . فلما جاء عقبة ، وأساه الى أبى المهاجر ، استخف بكسيلة هذا وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر (برغم ما لحقه من سوء) أوثق الرجل فإني أخافه عليك منه ، فنهاون به عقبة . فلما رأى الروم قلة من مع عقبة ، راسلوا كسيلة في أن ينضم اليهم ، فقبل وجمع أهله وبنى عمه . وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر ، حاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة على كسيلة ، فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ، ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوه جميعا ، وكان في القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة لعقبة . فأراد القتال فلم يطمه الجيش . فاضطر الى مبارحة القيروان والسير الى برقة والمقام بها . أما كسيلة فانه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الانتفال والدراري من المسلمين واستولى على افريقية .

(العرب)

فتحها عقبة وبينها القيروان أيضا • وعادت برقة الحد الفاصل للسيطرة العربية في افريقيا ، ولكن عقبة جعل من فتح العرب لافريقيا شيئا محتوما ، اذ أن التاريخ أقام الدليل المرة تلو المرة ، على أن مثل هذه النكسات لا تؤثر على قوة عسكرية مازالت في دور النمو والحيوية • فالتصميم على استعادة الهيبة التي تفقد في النكسات ، يجعل من إعادة الاحتلال أمرا حتميا •

سبق لى ان ذكرت ان الاسطول العربى فى عهد معاوية ، أغار أكثر من مرة على جزيرة صقلية ، وتقول رواية عربية أن المغيرين حملوا معهم ذات مرة • «أصناما» من الذهب والفضة مرسعة بالآلآء • ولعل من المهم أن نشير الى ما طرأ على العقلية العربية من تغيير بأن نقول ان الخليفة بدلا من أن يحطم هذه الأوثان بعث بها الى الهند حيث ظن أن بيعها هناك قد يأتى له بثمن أفضل من أى مكان آخر •

واستولى أسطول عربى فى عام ٦٧٢ على جزيرة رودوس وأمر الخليفة بإقامة جالية عربية فى الجزيرة ، التى استعملها العرب قاعدة أمامية للهجوم على القسطنطينية ، وكذلك قاعدة تهاجم منها المراكب العربية تجارة الروم فى البحار ، وظلت الجزيرة فى أيدي العرب ثمانى سنوات ثم عادوا فتحلوا عنها بعد وفاة معاوية ، وشن العرب كذلك غارة على جزيرة كريت ، ولاريب فى انها كانت جزءا من العمليات الحربية ضد الروم •

وعلى الرغم من اتساع العمليات التى جرت فى عهد معاوية فى الغرب ، ومن عمق أهدافها الا ان معظم مآحقته من تقدم كان موقوتا اذ ضاعت معظم المكاسب عند وفاته • ولاريب فى ان هذه النكسات انما نجمت عن اتساع الميادين وعن فشل الحملة على القسطنطينية • ولو استخدمت القوة التى استنزفت فى القسطنطينية فى مكان آخر بعناية وحرص ، لكان فى امكان العرب أن يثبتوا أقدامهم فى شمال افريقيا ، وكذلك كما سبق لى ان ذكرت فى ايطاليا واسبانيا • ومع ذلك كان العرب البدائيون قد تمكنوا قبل عشرين عاما وفى خلافة عمر بن الخطاب من تحطيم امبراطوريتى الروم والفرس فى ان واحد • وهكذا فان التقدم على جميع الجبهات أصبح شيئا مألوا لديهم ، ولم يعد العرب فى أيام معاوية قطعانا من البدو الألفاظ بل أصبحوا يحكمون امبراطورية ذات

حضارة ، لكن الحماس الطاغى الذى شهدته سنوات الفتح الاولى لم يعد يقودهم اما الى النصر أو الى الجنة .

وهناك سبب آخر أدى الى عدم الافادة من عمليات معاوية الحربية فى الغرب . فلقد أسفرت الغارات الكثر التى شنت فى عهده فى البر والبحر الى اضعاف كل مقاومة . فهما حدث من نكسات فى افريقيا ، فقد كان فى مكنة العرب أن يعيشوا بقوات جديدة وأن يستعيدوا كل مايفقدونه من أراض . ولو عاش معاوية أطول مما عاش لاحتفظ العرب برودس ولاحتلوا صقلية احتلالا نهائيا . ولكن قدر للعرب أن يعودوا الى التفرق بعد وفاته وإلى محاربة بعضهم بعضا فى حرب أهلية دامت اثني عشر عاما ، توقف ابانها كل توسع نحو الغرب ، وهكذا ضاعت ثمرة عمليات معاوية الحربية قبل أن يستأنف الهجوم فى عام ٦٩٠ .

واذا كانت عمليات معاوية الواسعة فى الغرب قد انتهت الى نتائج غير ملموسة فان هذا لا يصدق بالنسبة الى عملياته فى الشرق . فلقد كان له فى العراق قائدان عظيمان أولهما المغيرة بن شعبة ، القائد الخشن المتميز بالحيوية والشخصية القوية ، ولم يكتف كأمير للكوفة فى عهد معاوية بفرض الامن والاستقرار فى ذلك المجتمع الكثير الفوارق بل دفع جيوشه الى فتوحات جديدة فى شمال فارس . أما القائد الثانى فزياد بن أبيه الذى أصبح يدعى الآن زياد بن أبى سفيان ، وهو الأمير الذى اختاره معاوية للبصرة والذى امتاز بالذكاء الذى يفوق ذكاء المغيرة ، وقد تولى زياد قيادة الجيوش العربية فى جنوب فارس ، وتعاون القائدان تعاونا وثيقا ورائعا ، ومات المغيرة عام ٦٧٠ ، وكان معاوية قد قضى نصف الوقت المقدر له خليفة على المسلمين ، وعندما اختار الخليفة زيادا لامارة الكوفة بالاضافة الى البصرة ، نقل هذا مقر قيادته اليها وأصبح مسئولا عن جميع العمليات فى فارس كلها .

وكان العرب قد وصلوا الى كرش (هندكوش) أيام خلافة عثمان . ولكن حكمهم فى تلك المنطقة التى أسماها العرب سجستان لم يستقر مطلقا ولكنهم عادوا الى التقدم شرقا فى عهد معاوية فوصلوا الى كابل التى حاصروها ، وتمكن العرب عن طريق مجساتيقهم من فتح ثغرة فى الاسوار ، اندفعوا منها يشنون هجوما على المدينة لاقتحامها ولكنهم فشلوا فى تحقيق غايتهم . وعندما طلع صباح اليوم التالى تشجع حماة المدينة بدحرهم للهجوم العربى فى اليوم السابق ، ففتحوا أحد الابواب

وخرجوا منه يشنون هجوما مضادا على العرب يتقدمهم أحد الفيلة الذي أصابه فارس عربي بجراح . وقد فشل الهجوم المضاد واضطر حامية المدينة الى الانسحاب ، ولكن الفيل الجريح سقط فى بوابة المدينة مما أدى الى تعذر اغلاقها والى اقتحام العرب للمدينة فوق جثة الفيل ، وقد ثارت كابل مرتين فى عهد معاوية ، ولكن الثورة كانت تخمد فى كل مرة ، ويعود العرب الى تثبيت أقدامهم فيها ، وقد أقامت جاليات عربية فى أنحاء متفرقة من خراسان وسجستان ، كما جند الخراسانيون كمتطوعين للدفاع عن المضائق الجبلية فى جبال طوروس ضد الروم .

ومات زياد بن أبيه عام ٦٧٣ واختار معاوية ولده البالغ الخامسة والعشرين من سنه ، عبيد الله بن زياد أميرا على خراسان . وعبر عبد الله نهر سيحون فى عام ٦٧٤ على رأس قوة قوامها أربعة وعشرون ألفا ، حاصر بها مدينة بخارى التى كانت تحكمها خاتون زوجة خاقان الترك الكبير ، واضطرت خاتون الى مصالحة عبيد الله مقابل دفع الجزية ، ونقل عبيد الله فى عام ٦٧٦ أميرا على البصرة ، وخلفه فى اماره خراسان سعيد ابن عثمان بن عفان . ونقضت بخارى العهد وثار على العرب . ولكن سعيدا عاد فقطع نهر سيحون من جديد على رأس جيش أعاد احتلال المدينة لينتقل منها الى سمرقند ، ودارت معركة عنيفة خسر فيها سعيد إحدى عينيه ، ولكنه تمكن من اخضاع المدينة وفرض الجزية عليها .

وتخلص حكم العرب وراء النهر ابان فترة الحروب الاهلية التى تلت وفاة معاوية تماما كما حدث فى الغرب . ولكن العرب عادوا الى التوسع من جديد بعد انتهاء هذه الحروب ، وهكذا انتشر الاسلام الى تركستان واوزبكستان اللتين تؤلفان الآن جمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفياتى ، وقد أثمرت هذه الفتوحات وجود نحو من عشرين مليوناً من المسلمين فى روسيا السوفياتية .

ووصل العرب فى الجنوب الى منطقة تقع حول البنة ولاهور (بانو ولاهور) وهى فى منتصف الطريق بين كابل وملتان (مولتان) واحتلوا فى الوقت نفسه قندهار ، وكانت سرية استطلاع عربية قد وصلت فى أيام خلافة عثمان بعد عبورها مكران الى حدود الهند ، ويبدو أن قائد السرية قد حمل صورة سيئة عن تلك البلاد اذ وصفها للخليفة عثمان الذى سأل عن أحوالها بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل . ولصها بطل . ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » وأدى هذا الوصف الى تحريم عثمان على الجيوش العربية أى تقسم عبر صحراء مكران



التي يسميها العرب بلاد القيقان ، وعندما جاء معاوية ألغى ذلك الامر فوصلت جيوش العرب في امارة زياد بن أبيه الى السند والى دلتا النهر فيها . لكن فتح السند لم يكن قد كمل عندما توفي معاوية ، وقد قدر للحروب الاهلية العربية أن تضع نهاية لاي توسع لعدة سنوات قادمة .

ويتبين من هذا ان السنوات العشرين التي قضاها معاوية خليفة المسلمين امتازت بالنشاط الحربي الواسع ، وكانت هذه الفترة أيضا مرحلة انتقالية ، ففي خلافتي أبي بكر وعمر لم يكن هنالك تخطيط عسكري من مقر القيادة العليا في المدينة . وصحيح ان الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة الى الامام ، ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة ، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل في كل منطقة من المناطق هي التي تضيغ مطالبة بالاندفاع والزحف . ولكن كثيرا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون ، يضاف الى هذا أن الخليفين الأولين لم يكونا مرغبين مطلقا على تأمين المال أو السلاح اللازمين للحرب ، بل كانا يطلبان من الجيوش المحاربة أن تبعث لهما بالمال ، وكانت كل حملة من الحملات تؤمن من الغنائم ما يكفي لاعداد الحملة المقبلة بالاضافة الى مبلغ محترم يرسل الى المدينة .

ولكن عندما جاء معاوية الى الحكم كان قد انقضى على وفاة النبي نحو ثلاثين عاما ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة من الصحابة الا نفر قليل طعن في السن . وكان حماس الايام الاولى العنيف والعاظمي قد أخذ يسير في طريق الذبول ، وأدى مصرع عثمان وماتبعه من حرب أهلية بين علي ومعاوية الى الكثير من خيبة الامل . يضاف الى هذا ان جمع المال والرقيق والجواري أدى الى انحلال في الاخلاق وضعف في النشاط والحيوية . وقد ترهل فرسان العرب الفارعو الاعواد والصلبو الشكيمة ، وأصبحت لمعظمهم كروش كبيرة ، وأضحى معاوية في أخريات أيامه مترهلا بحيث وجد نفسه مضطرا الى الجلوس على المنبر عندما كان يخطب الناس .

ولقد كان وقع الفتوحات العظيمة هائلا الى الحد الذي دفع الفاتحين الى اجتياح كل ما أمامهم دون مقاومة ، ودون تنظيم أو راتب أو خطط أو حتى أوامر . . . ولاريب في ان هذه الفتوحات تعتبر نذيرا للشعوب المتقدمة تقنيا في عصرنا هذا والتي تعتمد في الدفاع عن أنفسها على التقدم العلمي بدلا من المعنوية الانسانية ، أما وقد أقيمت الامبراطورية العظيمة ، فقد أصبحت في حاجة ماسة الى التنظيم . ولم يكن عدد العرب

الأقحاح القادمين من الجزيرة العربية كافيا لاجتياح العالم ، وأصبح من الضروري تجنيد غير العرب ، كإبناء خراسان مثلا للقتال في الغرب ، وتحتم استخدام نصارى الشام وأقباط مصر في الأعمال الحكومية ، ونقل الهنود مع جواميسهم من السند الى دلتا الفرات ودجله . ونقل الفرس من مقاطعة فارس الى انطاكية ، ولم يكن في وسع امبراطورية متعددة الأجناس يدين رعاياها بديانات مختلفة أن تؤلف شعبا واحدا منسجما ومخلصا له معنوياته القوية كالشعب الذي اندفع من الجزيرة العربية قبل نحو من ربيع قرن .

وهنا أخذ معاوية على عاتقه مهمة تنظيم هذه الامبراطورية . ونحن نسمع في عهده لأول مرة عن وجود قوات للشرطة في الكوفة والبصرة ، مما يشير عادة الى وجود ادارة متحضرة ، وأصبح القضاة ومديرو الخزنة وقادة الشرطة يعينون الآن في الامصار تماما كما يعين الامراء ، ودشن معاوية في عهده أول خدمة للبريد . كما حاول تنظيم الشؤون المالية . وان لقي في هذا الامر صعوبة فائقة من جراء الحقيقة الواقعة وهي ان موظفي الخزنة في مصر كانوا يكتبون حساباتهم بالقبطية ، وفي سوريا بالاغريقية وفي المناطق الفارسية القديمة بالفارسية ، وغدت مشكلة اللغة فعلا مشكلة ملحة . ولعل من أهم الأسباب التي أدت الى نجاح زياد ابن أبيه في عمله كأمير للعراق تحمله عناء تعلم الفارسية . فلقد أصبح لزاما على العرب اذا أرادوا الاحتفاظ بالسيطرة المطلقة على شئون امبراطوريتهم العظيمة أن يتعلموا . لكن يبدو ظلوا ينظرون الى التعليم على أنه شيء مخنت للنساء لا للرجال ، فمثلهم العليا في الرجولة تتجسد في الضرب بالسيف والرمح ، وفي الجود ، وأكرام الضيوف وإغاثة المحتاجين ، وكانوا يرددون دائما وهم على حق ، ان مزاياهم هذه هي التي فتحت هذه البلاد الشاسعة التي تؤلف الامبراطورية .

ولكن بينما كان الخليفة يواجه جميع هذه المشاكل كان عامة العرب يرفضون الاعتراف بان الاحتفاظ بالحماسة العنيفة التي حققت الفتوحات العظيمة بات متعذرا . وهكذا نرى عقبة بن نافع يندفع مسافة ألف وخمسمائة ميل مجتاحا الشمال الافريقي كله ليصل الى ساحل المحيط ، فيندفع فيه بفرسه . وكان هذا القائد يرى متجاهلا أصول الدبلوماسية أو قواعد التنظيم أو الادارة والشؤون المالية ، ان مهمة العربي اعلاء كلمة الله ونشرها في عالم مشرك ، بقوة السيف ، أو سلطة الرمح ، مستخدما في مهمته هذه الجمال أو الخيل ، وظلت موجة المد الخارجى مندفعة عبر

نهر سيمحون الى سهوب آسيا الوسطى وعبر المعرات الجبلية في سلاسل هندوكوش الى الهند حاملة معها هتاف «الله أكبر» دون أن تدرك أن الزمن قد تغير ، وأن الحفاظ على الفتوحات التي تحققت يتطلب التنظيم والادارة والجهازين القضائي والمالى ، وقد أدى الانتقال الى مثل هذا الانساق التنظيمى الى ضياع هذه الفتوحات المرة تلو المرة ، دون أن تتوطلد اقدام العرب فيها الا بعد أن تم لهم بناء الجهاز الحكومى الفعال .

وكان عهد معاوية فترة انتقال من ناحية أخرى أيضا ، ولعل القارىء يذكر أن الهدف الذى وضعه عمر بن الخطاب نصب عينه ، إقامة عنصر عربى متفوق متخصص فى الحكم والحرب يعيش منعزلا فى القواعد العسكرية الكبيرة التى أقيمت له فى مختلف الامصار بعيدا عن الاختلاط بالشعوب المحلية . وكان دور الشعوب المحتلة فى هذه الامبراطورية العربية العمل وتأمين الدخل اللازم لنفقة الحكومة ونفقات الجيوش العربية . وقد حظر عمر على العرب امتلاك الارض رغبة منه فى الحفاظ على هذا النظام (١) .

وعندما جاء معاوية الى الحكم فى عام ٦٦٠ ، أخذ النظام الذى وضعه عمر يسير فى طريق الزوال شيئا فشيئا ، فلقد شرع العرب فى تملك الاراضى الواسعة فى منطقة البصرة أو فى مناطق فارس . ولقد سبق لى أن أشرت الى أن عمرو بن العاص كان يملك مزرعة فى منطقة بئر السبع . ومن المحتمل أن يكون عدد العرب الذين استوطنوا مصر أقل منهم فى

(١) رسم المؤلف هنا صورة مضللة كل التضليل للحكم العربى في عهد الخلفاء الراشدين إذ صور هذا الحكم تصويرا نازيا يمثل « النظام الجديد » الذى اختاره هتلر لأوربا فالعرب شعب سيد ومتفوق وواجب الشعوب المحتلة لتأمين الغذاء والمال للشعب السيد وحكومته . حقا انها صورة مضللة كل التضليل فعمرو بن الخطاب سار فى حكمه كما يعترف المؤلف نفسه على هدى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله (مسلم) وكان متمسكا اشد التمسك بأحكامهما . والدين الاسلامى يقول صراحة ، ودون اية مواربة : « أن لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ومن هنا يقدم ادعاء التفوق العنصرى ، وانما هناك تفوق فى التقوى والصلاح والتدين : وكان فى مكتبة غير المسلمين من أبناء سورية أو العراق أو مصر أو فارس من غير العرب طبعا أن يخلصوا من الجزية اذا اعتنقوا الاسلام وبذلك لا يبقى هناك تمييز للعرب عليهم . يضاف الى ذلك أن الجزية لم تكن تفرض على غير العرب بل على غير المسلمين . ومن هنا يتبين انها فرضت على القبائل العربية التى تدين بالنصرانية فى سورية والعراق كبنى تميم والخبين والفساسنة ، وعلى هذا تكون الصورة التى رسمها المؤلف مضللة كل التضليل .

(العرب)

أى مكان آخر ، نظرا لأن ما امتازت به منطقة الدلتا من رطوبة لا يتفق مع أحوالهم الصحية لكن عدد الاقباط الذين تحولوا الى الاسلام أخذ في التزايد ، مع مضي السنين ، وكان هؤلاء يصبحون بعد اسلامهم مساوين للعرب فاخذوا يحاوان ، تحقيقا لمطامحهم الاجتماعية ، أن يفدوا عربا في كل شيء ، الى أن أصبح اسم الاقباط لا يطلق الا على المسيحيين . ومن هنا يصح القول بأن فكرة العرب كعنصر حاكم فاتح أخذت تضعف في جميع أرجاء الامبراطورية شيئا فشيئا ، ولا سيما في الامبراطورية المختلفة الاجناس التى حكمها الخلفاء والسلاطين (١)

وعلى الرغم من الخدمات العظيمة التى حققها معاوية للعرب فإنه فشل فشلا ذريعا فى اختيار خليفة صالح لهم يقبلونه جميعا . وكانت مسألة الخلافة من المشاكل المعقدة للغاية التى واجهت الاسلام منذ البداية ، وكان المبدأ الوحيد الذى أقرببه العرب الى حد ما فى البداية هو أن يختار الخليفة بإجماع أهل المدينة . لكن عاصمة الامبراطورية انتقلت الآن من المدينة الى دمشق ، وتحولت الاولى الى مجرد بلدة اقليمية ، وهكذا لم تعد السابقة الوحيدة المعروفة والمقبولة سهلة التطبيق .

وإذا كان ثمة من نظام معروف عند العرب ، فهو أن يختار الحاكم من أكثر أعضاء الاسرة الحاكمة كفاية ، فقد كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى اختيار رأس القبيلة ، ولكنها كانت تؤدي أيضا وفي أحيان كثيرة الى خصومات وصدامات مسلحة ، يضاف الى هذا أن الصراع الدامى بين بنى هاشم وبنى أمية كان لا يزال فى أوجه ، بحيث أن أية محاولة لاختيار خليفة من قريش كلها كانت ستؤدي حتما الى حرب أهلية . وكان من الواضح أن اتباع الاسلوب العصرى فى انتخاب على مستوى الامة كلها مستحيل فى مجتمع تسوده الامية ويتفرق ابنؤه على مثل هذه المنطقة الواسعة . على أية حال ، اعتقد أن الانتخابات العامة لا تصلح للعرب حتى اليوم لأنهم انفراديو الشخصية لا يخضعون طوعية حتى لقرارات الاكثرية فالديمقراطية الغربية لا تصلح مطلقا كشكل من أشكال الحكم

(١) رسم المؤلف صورة مضللة هنا ، إذ أراد أن يظهر أن كل من اعتنق الاسلام كان بدافع الانتهاز والتقرب من الحاكمين والتساوى بهم وهو قول خطأ كل الخطأ إذ لو صح دافع الانتهاز ، لانتقل المسلمون على دينهم في البلاد التى خضعت لغير الاسلام ، أو لتحول جميع الاقباط الى مسلمين طيلة ثلاثة عشر قرنا من الحكم الاسلامى .
(العرب)

لشعب يصر على التمتع بحريته الشخصية بل تصالح للشعب المستعد للتضحية بجزء من حريته لمصلحة المجموع والنظام .

يضاف الى كل هذه التعقيدات ، أن معاوية كان يخشى ولا شك من أن يؤدي اختيار هاشمي للخلافة بعده ، الى أن يستهل هذا الهاشمي حكمه بإزالة كل مرشح محتمل من الأمويين من الوجود . ولهذا رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصورا في بني أمية ، بشرط أن يظهر اختياره بأنه اختار أفضل مرشح من قريش ولكنه اختار بدلا من ذلك ولده يزيد المعروف بالطيش والتكر للدين .

وكان لهذا الاختيار سيئات عدة من وجهة النظر العربية . وأول هذه السيئات أن هذا الاختيار ، وعدهم بحاكم عاجز ، إذ أن شخصية يزيد كانت معروفة لهم جميعا ، وثانية هذه السيئات أن اختيار يزيد يهدد العرب بإقامة نظام الملكية الوراثية وهو نظام يتناقض مع الروح العربية القديمة ومع الاحاسيس الدينية الاسلامية . وكان لعوامل الغيرة الجغرافية أثرها أيضا . فلقد نعت المدينة على الحكم بسبب نقل العاصمة الى دمشق . وكان فيها المرشحون الصالحون الذين يستطيعون إقامة مركز الخلافة في مدينة الرسول ثانية . وكان على في عهده القصير قد جعل من الكوفة عاصمة له وكانت هذه المدينة المتقلبة الجياشة بالفتن لا تزال تحلم بأن تصبح عاصمة الامبراطورية . وأخيرا كان المسلمون الصادقون الواعون لا يزالون يعتبرون الخليفة أمر المؤمنين والخطيفة المقدس لرسول الله ، ولذا كانوا يطلبون منه أن يكون متفوقا على جميع المسلمين في دينه وتقاه ، وبدلا لهم اختيار شاب متلاف فاسق كيزيد ، نشأ في أحضان الترف وفي ربوع دمشق اللاهية شيئا يقرب من الكفر .

وكان معاوية مدركا كل الادراك للعقبات التي تقف في طريق ولده لتولى الخلافة ، فعزم على التغلب عليها بأقصى ما يستطيع من جهد ، وراح يتشاور سرا مع عماله في الأمصار والأقاليم . ويحاول بما تسميه اليوم بوسائل الدعاية والاعلام تحسين سمعة يزيد عند عامة الناس ، وتحقيقا لهذه الغاية أوفده الى الجيش الذي يحاصر القسطنطينية رغبة منه في أن ينال فضل الاشتراك في الجهاد . وقدم معاوية في بعض الحالات رشواي نقدية لتخفيف حدة المعارضة لولاية يزيد ، وأخيرا صدرت التعليمات الى أمراء الأمصار في عام ٦٧٦ بأن يؤلفوا وفودا كل في منطقته تصل الى دمشق لتطلب في الظاهر من الخليفة اختيار ولده وليا لعهد ، وعندما وصلت الوفود الى العاصمة ، وافق معاوية على تلبية طلبهم وأعلن ولده يزيد وليا لعهد .

وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر مدن الامبراطورية معارضة -
 لخلافة يزيد . فقرر معاوية تبعا لذلك أن يعطى بنفسه إليها ليضمن عن
 طريق شخصيته ومكانته تحقيق النجاح في اختيار ولده لولاية العهد .
 ووصل أخيرا الى المدينة تحيط به ثلة من الحرس تضم ألف فارس ،
 وسرعان ما وجد أن قادة المعارضة أنفسهم يطعمون جميعا في الخلافة .
 وكان الحسين بن علي أول هؤلاء ، إذ أن أخاه الحسن كان قد انتقل
 الى رحمة الله . وكان هناك أيضا عبد الله بن الزبير الذي استشهد ابوه
 في معركة الجمل بعد أن كان ينافس عليا على الخلافة وكان هناك أيضا
 عبد الرحمن النجل الأكبر الباقي على قيد الحياة لأبي بكر ، وكذلك
 عبد الله بن عمر بن الخطاب . وماكاد معاوية يصل الى المدينة حتى كان
 هؤلاء المعارضون جميعا يغادرونها الى مكة ، أما من تبقى من أهل المدينة
 فيها فقد بايعوا يزيد .

وتلدرع معاوية برغبته في أداء العمرة فسافر الى مكة حيث حاول
 أن يقنع الناس هناك بالموافقة علىبيعة يزيد . وعند ما اتصل بعبد الله
 ابن عمر بن الخطاب ، رد هذا بأنه كان ثمة خلفاء قبل معاوية ، وكان
 لكل منهم أبناء . لا يقاؤون فضلا عن أبناء معاوية ولكن آباءهم لم يختاروهم
 لخلافتهم . وكان رد عبد الرحمن بن أبي بكر أكثر عنفا وشدة ، إذ
 أعلن بصراحة معارضته لبيعة يزيد وذلك لأن اختيار الخليفة قضية تتطلب
 أقرار عامة المسلمين . وكان عبد الله بن الزبير أشد عنفا في رفضه البيعة
 ليزيد . واضطر الخليفة أخيرا الى العودة الى دمشق دون أن يأخذ
 البيعة ليزيد من منافسيه . (١)

(١) اختصر المؤلف أشد الاختصار قصة بيعة يزيد وقد دفعه اختصاره هذا على
 الغالب الى مخالفة الروايات الصحيحة . وأرى أن أسرد هنا الرواية مختصرة كما وردت
 في التواريخ الاسلامية :

كان الفخيرة بن شعبة أول من اقترح بيعة يزيد ، إذ دخل على يزيد فقال : « لقد ذهب
 ايمان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وانما بقي
 ابنائهم وأفلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة . ولا أدري ما يمنع أمير
 المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال يزيد : أو ترى ذلك يتم ؟ قال نعم . فأخبر يزيد آباءه
 بما قال الفخيرة فاحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال : قد رأيت ما كان من سفك
 الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف ، فامقد له فإن حدث بك حادث كان
 كهذا للناس وظلما منك ولا تسفك دماء ولا تكون لتنة . قال ومن لي بذلك ؟ قال أكفيك
 أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصيرين أحد يخالفك . قال :
 فارجع الى عمك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى وترى .
 وجاء ولد الكوفة الى دمشق أول من جاء ودين الولد لمعاوية بيعة يزيد فقال :

توفي معاوية عام ٦٨٠ ، وكان قد احتفظ لمدة تزيد على الخمسين

لا تجعلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجوا وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد وارسل الى زياد أمير البصرة ليستشيره ، فأشار عليه هذا بالتؤدة وعدم العجلة ، فقبل منه معاوية فلما مات زياد ، عزم معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب الى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له : اني كبرت سنن ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الامة من بعدى وقد رايت ان اتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت ان أقطع أمرا دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك ، فقسام مروان في الناس فأخبرهم ، فقالوا : أصابه وفق ، وقد أجبنا أن نتخير لنا فلا يالو ، فكتب مروان الى معاوية بذلك فأعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال : ان أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يال ، وقد استخلف ابنه يزيد فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال : ما الخيال أردت لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل ، قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير فكتب مروان الى معاوية بذلك .

وتبكي معاوية من ضمان البيعة لولده من اهل العراق والشام ثم سار الى الحجاز في ألف فارس ، فلما دخل المدينة خطب الناس . فذكر يزيد فمدحه وقال : من أحق منه بالخلافة في فضله ومثله وموضعه وما أظن قوما بمتبعين حتى تصيبهم بوائق تجتأ اصولهم وقد اندثرت ان اغنت النثر .

وكان المعارضون قد تحركوا المدينة الى مكة فخرج معاوية وقفي بها نسكه ثم جميعهم وكانوا قد اتفقوا على ان يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية : قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأحبابكم وحملتي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت ان تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تمزلون وتأمرون وتحيون المال وتقسمونه لايعارضكم في شيء من ذلك فقال ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال . قال عرضها قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف احدا فارتضى الناس أبا بكر ، قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر قال عبد الله وانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية : هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال : فاني أجببت ان اتقدم اليكم انه قد اعد من انذر ، اني كنت أخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رموس الناس فأحمل ذلك فأصطح قائم بقالة فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يقنع رجل الا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرته فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بامر دونهم ولا يقضي الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبأيوا ليزيد فأيوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتريصون ببيعة هؤلاء النفر ثم ركب واصلته وانصرف الى المدينة ثم الى الشام وبرى ان ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أن ادخل فيما تجتمع عليه الامة فوالله لو اجتمعت على جيش لدخلت معها .

(العرب)

عاما ببعض شعرات النبي وقلامة اظافره ، وعندما شعر بدنو اجله اوصى بأن تجعل في فمه وعينه وأن يلبس عباءة كان رسول الله قد أعطاه اياها ثم قال : افعلوا ذلك وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين .



وهكذا انتهى عصر الفتوحات العربية العظيمة ، ففي أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم امبراطورية عرفها العالم آن ذاك ومن أعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ . ولم تسبق لاية امبراطورية بمثل هذه الضخامة ، وذاك الاتساع ان أقيمت في مثل الوقت القصير باستثناء امبراطورية الاسكندر الكبير التي ما لبثت أن تمزقت عند موته ، أما الامبراطورية العربية فقد قدر لها أن تعمّر وهي كاملة زهاء قرنين ونصف القرن وأن تطول مدة تقلصها زهاء سبعة قرون .

ولعل من الطريف أن نעقد مقارنة بينها وبين امبراطورية الاسكندر التي كانت تشغل تقريبا البلاد التي شغلتها امبراطورية العرب ، فهناك من ناحية واحدة على الأقل مفارقة غريبة كل الغرابة ، إذ أن امبراطورية الاسكندر مدينة بوجودها الى شخصية رجل واحد ، تعتبر فوق المستوى العادي للانسان . ولقد قيل من الناحية الاخرى : ان العرب أقاموا امبراطوريتهم لا بفضل قادتهم بل على الرغم منهم . (١)

وكانت الفتوح العربية فريدة في نوعها من ناحية أخرى فقبل ان تبدأ هذه الامبراطورية كانت الدولتان العظيمتان في العالم آن ذاك تنظران الى العرب نظرة الازدراء . ولقد عاشت اليمن فترة مستعمرة حبشية ثم عادت فأصبحت مستعمرة فارسية .

(١) انا لا افهم معنى هذا التعبير مطلقا ، ولا أستطيع أن أقبل هذه المقارنة على النحو الذي صيغت فيه فكما ان امبراطورية الاسكندر ، مدينة بوجودها الى شخصية رجل فرد هو الاسكندر فان الامبراطورية العربية مدينة بوجودها الى شخصية النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم اذ تمكن من توحيد العرب وجمع شملهم تحت راية الاسلام وابدلهم بنور الايمان اشخاصا آخرين حملوا كلمة الله لينشروها في العالم . فكانت تلك الفتوح العظيمة التي لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل . ولعل الفرق الجوهري الذي فات المؤلف أن يذكره ، هو ان امبراطورية الاسكندر انهارت فور موته لانه لم يحل للعالم رسالة كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أما امبراطورية العرب فقد ظلت قرونا طويلة لانها اتصلت برسالة (محمد) وكانت تجسيدا لها ولم تضعف هذه الامبراطورية وتصب بالانهيار الا بعد أن ضعف الاسلام في قلوب المسلمين .
(العرب)

وكان الاميران العربيان الوحيدان اللذان يستحقان حملَ هذا الاسم في الجاهلية خاضعين بدورهما لامبراطوريتي الروم والفرس ، ولم يكن العرب شأن يذكر في ميدان الحرب في أيام الجاهلية ، وكان الروم من الناحية الاخرى أشهر مقاتلين في تلك الايام . وترجع شهرتهم حتى الى الايام التي سبقت مجيء الاسكندر وفتوحه العظيمة . ولقد تطلب بناء الامبراطورية الرومانية قرونا طويلة من عمر الزمن ، وكانت فرنسا أقوى الدول الاوربية قبل مجيء نابليون بأمد طويل . أما العرب فكانوا فريدين في هذه السرعة التي تشبه سرعة العواصف والتي سار فيها مد فتوحهم بادئا من لاشيء .

ولقد غيرت السنوات الخمسون التي انصرفت بين عامي ٦٣٠ و ٦٨٠ خريطة العالم حقا . ولم يبق على هذه الخريطة من المعالم القديمة شيء . ولقد وصف البحر المتوسط في العهد القديمة بأنه حوض روماني ، اذ كان قلب امبراطورية الرومان ومركزها الحساس وكان الوسط الذي يرتحل فيه الرومان من مصر الى مصر ، ومن اقليم الى اقليم . وكان الساحل الشمالى لافريقية جزءا من العالم الذي يضم فرنسا واسبانيا وايطاليا . وكان الشرق يبدأ عند الحدود الفاصلة بين رومة وفارس وهي الحدود التي تقوم الآن بين سورية والعراق . وجاءت الفتوح العربية فجزأت البحر المتوسط الى جزاين شمالى وجنوبى ، وعلى الرغم من أن بلدان الامبراطورية العربية لم تكن مأهولة بشعب واحد وعلى الرغم من أن الشمال الافريقى يختلف اليوم اختلافا كبيرا عن الجزيرة العربية ، فإن الفتوح العربية فرضت كشكل ظاهرى على الأقل طريقة الحياة نفسها على جميع البلاد الممتدة من فارس وحتى من الهند الى مراكش، وهي الطريقة التي ندعوها اليوم بالطريقة الشرقية . وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك أن شعبا واحدا كان يسكن الجزائر ومراكش في قارة افريقية ، واسبانيا وايطاليا ، في اوربا (١) .

(١) نحن نختلف مع المؤلف تام الاختلاف في موضوع ما يقوم بين الجزيرة العربية والشمال الافريقى من فروق أو بباينات . فهو يصفها بأنها كبيرة للغاية ، ولكننا لا نرى انها تزيد بآية حال على الفروق التي تقوم بين اهل اسكتلندة مثلا وأهل ويلز أو بين اهل ولاية نيويورك وولاية شيكاغو أو بين بافاريا وبروسيا في ألمانيا قالفة واحدة والمادات واحدة تقريبا ، والتاريخ واحد الى حد كبير بالإضافة الى وسائل الدين والدم والامانى والاهداف . وما قول المؤلف الا صورة من صور محاولات الاستعمار لايجاد الفرة بين أبناء الشعب العربى الواحد .

(العرب)

وهناك ظلال عدة من المعانى لكلمة « عظيم » الا اننا على العموم نربط بين هذه الصفة وبين شيء اكثر من مجرد الحجم ، ونحن نتحرى دائما عن المزايا الروحية ، او المعنوية التى فى انسان أو فى عمل نود ان نطلق عليه صفة العظمة ، وقد قدر للمسلمين بعد انتهاء الحروب الاهلية، ان يستأنفوا فتوحهم وأن يوطدوا أقدامهم فى الشمال الافريقى ثم يحتلوا اسبانيا ويفزوا فرنسا وإيطاليا ويسيطروا على مالطة وصقلية لكن هذه العمليات العسكرية لم تعد كما كانت عمليات عربية صرفة . فلقد أصبحت الامبراطورية متعددة الاجناس والعناصر . ولم تعد صفة العظمة تطلق على هذه العمليات ، لانها لم تعد مستوحاة من ذلك الاخلاص العاطفى العميق العنيف الذى رافق فتوح العرب فى الخمسين سنة الاولى

تواريخ بارزة

٦٦١	استتباب الامر لمعاوية
٦٦٣	وفاة عمرو بن العاص
٦٧٠	وفاة المغيرة بن شعبه
٦٧٠	انشاء مدينة القيروان على يدى عقبة بن نافع
٦٧٠	هجوم العرب على القسطنطينية
٦٧٢	احتلال رودس
٦٧٣	وفاة زياد بن أبيه
٦٧٤	حملة عبيد الله بن زياد على بخارى
٦٧٦	تعيين عبيد الله أميرا على البصرة
٦٧٦	اعلان ولاية العهد ليزيد
٦٧٧	العدول عن حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

شخصيات مشهورة

خليفة المسلمين	معاوية بن أبى سفيان
فاتح شمالى افريقية حتى الاطلسى	عقبة بن نافع
أمير الكوفة وشمالى فارس	المغيرة بن شعبه
أمير البصرة وجنوبى فارس ، ثم أمير العراق وفارس كلها .	زياد بن أبيه

أمير خراسان ثم أمير البصرة
أمير خراسان
ابن معاوية وولى عهده

عبد الله بن زياد
سميد بن عثمان بن عفان
يزيد
الحسين بن على بن أبى طالب

منافسو يزيد على الخلافة

عبد الله بن الزبير
عبد الرحمن بن أبى بكر
عبد الله بن عمر بن الخطاب

ذیل

لن يستطيع انفسان أن ينكر أن الاحداث التي شرحتها في هذا الكتاب قد بدلت تاريخ العالم ، ولقد اثرت أيضا تأثيرا عميقا على حياتنا وما زالت تؤثر مثل هذا التأثير حتى يومنا هذا . ولقد أدى اهمالنا لتاريخ هذه الاحداث الى الحيلولة دون تفهمنا ومن ثم دون معالجتنا معالجة حكيمة لعلاقتنا مع العرب خاصة ومع المسلمين عامة ، ولهذا فان من المجدي ان نلخص بعض العبر التي نستقيها من هذه الاحداث ومن رواية تاريخها .

تستمد الطريقة الاسلامية في الحياة جذورها من مصدرين رئيسيين أولهما رسالة محمد نفسه ، والآخر عادات العرب في القرن السابع ولعل أسهل طريقة نتبعها في تحقيقنا هذا أن نبحث في الموضوعات المختلفة وأن نتفحص كيف تأثر كل موضوع منها بهذين المصدرين اللذين ذكرتهما .

العلاقات الاجتماعية :

يبدو لنا بصورة عامة أن النبي كان انسانا كريما ، ولقد أثر بعطفه على الفقراء والمحتاجين والضعفاء وبانصرافه عن المال وحبسه للأطفال وحرصه على النظافة وحنه الناس عليها على الطريقة الاسلامية في الحياة تأثيرا كبيرا ، فهناك في المجتمع العربي شعور بالرقه والحنان والعطف لا يفهمه المجتمع الأوربي .

وكانت طريقة العرب في الحياة في القرن السابع من الناحية الأخرى قاسية قد تصل في قسوتها حدود الفظاعة . وقد أدى الافتقار الى أى شكل من أشكال الحكم المركزى الى أن يتولى اقرباء المجنى عليه أو المجنى عليه نفسه عقاب الجناة ولعل الثارات الدموية أكثر أمثلة هذا الشكل من أشكال القضايا بروزا وظهورا . فلم تكن هناك شرطة أو قوانين أو قضاة يتولون معاقبة القتلة . ولهذا كان اقرباء القتيل يحاولون أن يثأروا بقتل القاتل فان تعذر عليهم الوصول اليه فيقتل أحد اقربائه . وينطبق القانون نفسه على الجنائيات الصغرى والجنح كالاصابات بالجراح أو بالضرب أو السرقات . وقد أدى هذا النظام من الثأر الى الكثير من الاعمال الوحشية الفظيعة كما سبق لنا أن رأينا في أحداث هذا الكتاب .

• وقد اقامت معظم الدول الاسلامية منذ القرن السابع ، وفي مختلف العهود أنظمة قضائية فعالة ونظمت فرق الشرطة . مما أفقد عمليات الثأر الشخصي ضرورتها ، ولكن فكرة الثأر لا تموت بسهولة ، وإذا شئنا التوسع في القول أمكننا القول بأن حق الثأر أو واجبه على الأصح قد بقى برغم جميع الاصلاحات الحديثة اذ أنه بات ، نتيجة جميع هذه الجذور القديمة ، مبدأ اخلاقيا يعترف به . ولعل هذه الناحية ، كما يبدو لى ، هى احدى نواحي التوجيه التى تختلف فيها المسيحية اختلافا بينا عن الاسلام ، فليس ثمة من توجيه للمسيحيين بأن يقابوا الاساءة بالاساءة . أما فى الاسلام ، فان حق الثأر مشروع بل انه يعتبر فى بعض الحالات واجبا اخلاقيا (١) .

• وقد سبق لى ان قلت ان النبى كان فى حياته اكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية (٢) يضاف الى هذا ، ان عرب القرن السابع كانوا ولا شك يعيشون فى الاوضاع الاجتماعية التى عاش فيها العبرانيون أيام العهد القديم « من التوراة » .

ولقد كان ابراهيم وموسى النبيين المحترمين عندهم . وكان احترامهما يعادل ان لم يفق احترامهم ليعسى . والعهد القديم يضم الأفكار التى آمن بها العرب كالعين بالعين والسن بالسن أو واجب قتل الكفرة والمشركين . وكانت محبة الجار وكراهية العدو قاعدتين اخلاقيتين مقبولتين عند العبرانيين القدامى وعند عرب القرن السابع للميلاد .

(١) لا ادرى من اين استقى المؤلف هذا الانطباع الخاطئ اذ من القواعد الاسلامية التى يتعلمها المسلم منذ نعومة اظفاره الحظ على مقابلة الاساءة بالاحسان لا بالاساءة كما يرمم المؤلف . والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف مملوءان بالآيات والاحاديث التى تحض المسلمين على العفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسان ولا حاجة بى الى تعدادها أو البحث فيها ، لان هذا المجال ليس مجالها . ومن الخصال الكريمة التى يحض عليها الاسلام العفو عند المقدرة . وهو أعظم ضروب العفو ، ومقابلة الاساءة بالاحسان .

(٢) اخطأ المؤلف أشد الخطأ فى قوله هذا . فالاسلام جاء مكملًا للرسالات السماوية ومبشرا ونذيرا . والمسيحية هى آخر هذه الرسالات قبل الاسلام ولذا لا يجوز القول بأن النبى كان اكثر تأثرا باليهودية منه بالنصرانية ، ولا سيما أن المسيحية نفسها تعتبر العهد القديم (التوراة) جزءا من اساسها الدينى . ولعل خطأ المؤلف يظهر أوضح ظهور فى قوله تعالى « ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا » الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين وراهبا « كما أن ما ورد فى القرآن الكريم عن عيسى بن مريم عليه السلام لا يقل ان لم يرد مما ورد من موسى أو ابراهيم عليهما السلام . فكلم من الانبياء والمرسلين الذين يجعلهم الاسلام ويحترمهم كل احترام » (الحرب)

وقد أوحى المجتمع العربى فى القرن السابع للمسلمين أيضا بمشاعر قوية من الالتزام العائلى ، وهو رأى له حسناته وسيئاته وأن كان غربيا كل الغربة على الغرب المعاصر . فعلى الاسر فى المجتمع الإسلامى أن تعنى دائما بالعجزة من رجالها وباليتمامى والمعتوهين وحتى بالفقائلين والخائبلين .

ويفتلف المجتمع الإسلامى فى هذه الناحية اختلافا بينا عن المجتمع الغربى الحديث الذى ينظر الى الاقارب عادة نظرتة الى معارف غير محبوبين والذى يترك العجزة أو المصاببلن عادة الى أقدارهم أو الى رعاية المؤسسات العامة . وإذا لم يكن المجتمع الإسلامى قائما على أساس الدولة التى تعنى بالخير العام للناس فإنه قائم على الأقل على نظام الأسرة التى تعنى بخير أفرادها ، التى ترعاهم حتى لو لم يكونوا يستحقون هذه الرعاية . لكن الوفاء للأسرة ينطوى على بعض السبلات اذ يفرى موظف الدولة على سرقتها أو على قبول الرشا ليومن مثلا لأطفاله تعللما صالحا أو لىضمن لأمه العجزو العناية الطبية اللازمة (١) .

وكان النبى مىالا الى النساء (٢) ولذا فقد سمح الإسلام لاتباهم بالزواج على الاتعمدى الرلجات اربعا كما سمح باقتناء الجوارى ولما كان عدد الذكور يعادل عدد الاناث فى كل مجتمع فإن من المستحيل بحكم الواقع أن يتمكن غالبية الرجال من الزواج بأكثر من واحدة ، وإزاء هذا التسامح كان النبى صارما كل الصرامة فى عقاب العلاقات الجنسية غير المشروعة . فعقوبة الزنا عادة هى الموت ، وهناك عقوبات أخرى وضعت للفرل غير المشروع والتهتك . ولا ريب فى أن هذا الاسترخاء الراهن فى العلاقات الجنسية فى العالم المسيحى يثير فقرز المسلمين الصالحين

(١) حقا انها فكرة فى متنبى السخف فالرشوة أو السرقة تملقان بأخلاق الموظف الشخصية لا بأى شىء آخر وأن كانت الدوافع المادية تترك أثرا . ولكن المؤلف كما يبدو نمى أن هناك أموال الركاة التى نص عليها الإسلام ، وأن هذه الاموال تنفق على المحتاجين والمساكين سواء أكانت العلاقات العائلية تفرض التزامها أم لا يفرضها ولعل سخف رأى المؤلف يبدو من الحقيقة الواقعة وهى أن السرقات والرشا توجد حتى فى أكثر البلاد تنظيما لشنون اشتراكية الطب والتعليم ، ولا يخلو منهما أى مجتمع من المجتمعات مهما كان عظيما فى تقدمه .

(العرب)

(٢) سبق لى أن دحضت هذا الزعم الغربى بالمؤلف فى تعليق سابق بينت فيه اسباب تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .

(العرب)

ورعهم . ومن هنا يتبين ان اتباع كلتا الديانتين ينظرون الى الآخرين نظرة الاتهام باللاخلقية فى الناحية الجنسية (١) .

الحكم :

سبق لى أن بينت ان حقيقة جمع النبى بين السلطتين المدنية والدينية ، قد أدت الى خلاف جوهري بين الدولتين الاسلامية والمسيحية ولقد ظل الحكام المسلمون طيلة التاريخ الاسلامى ، والى ما قبل اربعين عاما فقط يجمعون عادة بين هاتين السلطتين وقد أدى هذا النظام الى تجنب الصراع بين السلطتين ولكنه فى الوقت نفسه مكن الحاكم من ان يستخدم ضد خصومه السياسيين تلك العقوبات التى وضعها النبى للمرتدين ، ولعل من أعقد المشاكل التى تواجه غير المسلمين عند تفكيرهم بأوضاع البلاد الاسلامية ان النبى لجأ الى استخدام الاغتيال ضد أعدائه . ولما كان كل ما فعله النبى يعتبر سنة صحيحة فان بعض الساسة يجدون المبرر للخلاص من خصومهم بهذا الاسلوب نفسه (٢) .

ولم يكن محمد كما رأينا نبى قومه فحسب بل كان حاكمهم أيضا وقد قضى القسم الاكبر من حياته فى صراع مبرر سعيا وراء البقاء ، فى مختلف الميادين الاخلاقية والسياسية والعسكرية . وكان اتباعه يطيعونه فى مثل هذه الظروف الخطرة الرجاجة طاعة عمياء ، لانهم

(١) يبدو ان المؤلف لم يفهم حقيقة النص على تعدد الزوجات فى الاسلام ، فالدين لا يبيح هذا التمدد بصورة اطلاقية ، حرة من كل قيد أو التزام ، فهو يبيح للمسلمين الزواج بأربع بشرط العدل بين الزوجات فى كل شيء وهو يحدد الزواج بواحدة ان تعدل العدل وهو متعذر بالنسبة الى أغلبية الناس بحكم الغريزة والعاطفة . وقد أباح الاسلام هذا التعدد لمعالجة كثير من المشاكل الاجتماعية والحالات الجنسية الشاذة التى لا أريد الغوص فيها الآن . ولا اظن ان المؤلف يختلف معنا فى أن الزواج بأكثر من واحدة فى حالات مقيدة ومشروطة خير لمنفعة المجتمع وكيان الأسرة من العلاقات الجنسية غير المشروعة . اما بالنسبة الى الجوارى وهن الأسيرات فى أيام الحروب فان السماح بالعلاقات المشروعة منهن بالنسبة الى تلك الأيام أحفظ لسلامة المجتمع من تقييدها شرعا . لتنتقل الفرائز التى لا سبيل الى التحكم فيها حرة بصورة غير مشروعة . (العرب)

(٢) مغالطة واضحة من المؤلف اذ يتهم النبى (صلم) بسماحة بالاغتيال السياسى ناسيا أو متناسيا ، ان النبى كان «القافى» الاكبر» للمسلمين فاذا كان قد أمر اتباعه بقتل هذا أو ذاك من المرتدين أو المشركين أو أعداء المسلمين فان أمره هذا حكم قضائى وتنفيذ لا يعتبر اغتيالا وانما هو ايقاع لعقوبة أو قصاص . ومن هنا لا يكون من حق الحاكم ان يفعل ما فعله رسول الله ولا سيما اذا لم يكن الحكم اسلاميا فى كل شيء .

(العرب)

يعتقدون ان كل ما يقوله أو يفعله إنما هو من عند الله . وقد حاول خلفاؤه الأوائل ، كما سبق لنا أن رأينا ، كل ما فى وسعهم لاتباع سنته سواء فى أسلوب حكمه أو فى طريقة حياته الخاصة ونتيجة لهذه السابقة الاولى . ظل الحكم الاسلامى مفردا كما كان الوضع فى أيام النبى وخلفائه الأوائل (١) ولكن على الرغم من أن أبا بكر وعمر كانا حاكمين مفردين ، فإنهما لم يكونا من الطفاة المتكبرين الذين يعيشون فى عزلة عن رعاياهم فلقد كان من السهل كل السهولة الوصول اليهما وكانا ديمقراطيين ينظران الى الرعية نظرة الأب الى أولاده . وعلى هذا فالحاكم الاسلامى مفرد ولكنه ممنوع من الاستبداد ، بتقليد قوى من مشاعر العطف والابوة .

وقد سبق لى أن اشرت الى الصعوبات التى واجهها المسلمون فى اختيار خلفاء رسول الله . ولم يكن العرب يعترفون قط بالوراثة اساسا كافيها للخلافة فهم عند اختيارهم لشييوخهم القبليين العاديين يراعون ان يكون الشيخ عادة أكثر أبناء الأسرة الحاكمة كفاية وقدرة . أما فى اختيار الخليفة فقد اتبعوا الطريقة الطبيعية جدا فى الاختيار ، وهى ان يكون أكثر المسلمين صلاحا للمنصب ، وقد روعيت هذه الطريقة ولو من ناحية نظرية فى اختيار الخلفاء الاربعة الأوائل . وادت صعوبة اختيار الاصلح فى الواقع وما نجم عن هذه الطريقة من تهديد بالحرب الاهلية الى اتباع طريقة اختيار البكر فى الاسر الاسلامية الحاكمة الاخيرة لكن العرب على أية حال لم يقبلوا قط مبدأ خلافة الابن البكر لأبيه خلافة رتيبة (أوتوماتيكية) .

ولعل من الغريب ان لا سابقة لفكرة تولى مجموعات من الرجال الحكم سواء كانت هذه المجموعات وزارات أو برلمانات أو لجانا فى التاريخ العربى ، لفكرة الحكم عندهم تتجسد دائما فى رجل واحد . ومن الواجب أن يكون هذا الحاكم دائما متواضعا خيرا تقيا كريما ويسهل الوصول اليه . ولا يسمح العرب بظهور طفاة مستبدين متعجرفين ولكن السلطة التنفيذية يجب ان تكون على أية حال فى يد رجل واحد . ويمكن تتبع جذور هذه التقاليد كلها والمودة بها الى القرن السابع .

(١) لم يكن الحكم الاسلامى مفردا قط وإنما كان شورى دائما سواء فى عهد النبى أو فى عهد خلفائه الأوائل . ولم يكن النبى أو أبو بكر أو عمر يستأثرون بالقرارات التى تتناول الشؤون العسكرية أو السياسية أو القضائية وإنما يشاورون فيها أهل الشورى . ولذا لا يمكن أن نطلق على الحكم الاسلامى صفة « الاوتوقراطية » التى يطلقها المؤلف عليه .

(العرب)

وقد عملت الحكومات الغربية منذ عام ١٩١٨ وفى اوقات مختلفة
جهد طاقتها لاقامة انظمة انتخابية ديمقراطية فى بلاد الشرق الاوسط
ولكن الدساتير التى تنص على هذه الانظمة ما لبثت فى جميع الحالات أن
انهارت لتقوم مقامها حكومات عسكرية ، وعلى المرء الا يستغرب هذا
لان الحكم المسكرى اقرب الى تقاليد العرب العريقة من نظم الديمقراطية
الغربية . (١)

الحرب :

كان العرب فى القرن السابع للميلاد يؤلفون شعبا محاربا للغاية
ولكن اساليبهم فى القتال كانت بدائية ليس الا . وكانوا يعتمدون على
روحهم الحربية وعلى شجاعاتهم الشخصية الفردية أكثر من اعتمادهم
على علم الحرب وفنها . وقد عاشت هذه التقاليد حتى يومنا هذا
وكثيرا ماكلفتم المسلمين ثمنا غاليا فى الصراعات مع القتل المحترفين الذين
يحاربون بقصد الفوز . فكل طفل مسلم ينشأ وقد امتلا عقله بقصص
حياة الرسول وقصص الفتوح العربية التى تقوم على أساس الشجاعة
الشخصية مع اهمال المهارة أو الفن ، وقد عاشت هذه القصص حتى
يومنا هذا فى البلاد الاسلامية النائية وان كانت مطبقة اصلا فى الجزيرة
العربية وحدها .

ومن واجبا أن ندرك أن الجيوش البيزنطية والفارسية كانت أعظم
القوات العسكرية فى ذلك العهد ، وكان ضباط تلك الجيوش يدرسون
المؤلفات عن التاريخ المسكرى وفنون الحرب ، وكانت لكل من الجيوش
تقاليدها العسكرية الخاصة بها والتى تبلغ فى عمرها عدة قرون وكان
سلاحها من أحدث الأسلحة تقنية . ولم تكن تنظر الى الشعوب المتخلفة
كالشعب العربى الا بعين الزرارية والامتهان ، ولهذا فان الفتوح العربية

(١) ان هذه النظم الديمقراطية التى يتحدث عنها المؤلف والتى اقامها الغرب
كما اعترف هو فى معظم بلاد الشرق الاوسط كانت صورة مزيفة للديمقراطية اذ انها
كانت فى الواقع تجسيدا لديكتاتورية رأس المال والاقطاع وسيطرتهما على الحكم فالبرلمانات
الراققة التى خبرتها معظم البلاد العربية فى ظل النظام الديموقراطى المويف لم تكن فى
الواقع الا التجسيد المملى لحكم رأس المال والاقطاع التماوتين مع الاستعمار والمربطين
فى وجودهما ومصالحهما معه اذ ان معظم أعضاء هذه المجالس كانوا فى كل انتخاب يمثلون
مصالح رأس المال المستغل والاقطاع التحكم . ولهذا فلا يمكن الحكم القائم على مثل هذه
البرلمانات الراققة أن يسمى بالحكم الديموقراطى .

العظيمة تنطوى على كثير من الدروس التي يجب علينا أن نتعلمها ، واحدها أن من الخطأ الاعتماد كلياً على التفوق التقني لكسب الحروب ، وكان الاجتهاد من الحروب قد نال من الفرس والروم ماناله ، بالإضافة الى مامتاز به هؤلاء من ادعاء وغرور واستخفاف بالآخرين . وكان الكثيرون من رعاياهم غير مخلصين لهم ، وكانوا يكرهون الحروب كما كان تشككهم في الفائدة منها قد حطم معنوياتهم ، أما العرب فكانوا على النقيض من ذلك ؛ بسطاء متحمسين وراغبين في الموت ، ونحن نميل الى تناسي أن هذه المزايا ، لا العلم ، هو الأساس في بناء الجندى .

وهناك التباس ضخم اليوم حول ما للعرب من قيمة عسكرية ، فالمعروف أن الفساحين العرب الأوائل لم يقوموا بأية محاولة وإن قاموا فبمحاولات لا شأن لها لتحويل الشعوب المحتلة الى الاسلام . وكان اصرارهم الوحيد هو أن تدفع هذه الشعوب الخاضعة ضرائب اضافية وقد هبطت الشعوب المهزومة من الناحية الاجتماعية الى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية على حد تعبير المصطلحات الحديثة . ولكن المسلمين لم يطلبوا اليهم اعتناق الاسلام . أما اذا تحولوا الى الاسلام على أية حال . فإن هؤلاء سرعان ما يصبحون أندادا للفاتحين ، ويفقدون قادرين على الاختلاط بهم والتزاوج معهم . ولا يمضى طويل وقت حتى يصبح هؤلاء « عرباً » ، حتى لو لم تكن هناك كما هي الحالة بالنسبة الى كثيرين منهم نقطة واحدة من الدم العربى تسرى فى عروقهم ، وهكذا أصبحت كلمتا العربى والمسلم مترادفتين وترمزان الى شيء واحد .

ومع ذلك هناك ولا ريب تشابه ظاهرى بين جميع الشعوب الناطقة بالعربية من حدود فارس حتى مراكش (١) . ومن واجبتنا ألا نرد هذا التشابه الى الجذور العنصرية بل الى تأثير الثقافة والدين ، ولم ينطو قبول غير العرب مع العرب على أساس المساواة الاجتماعية على التحول الى الاسلام فحسب بل انطوى أيضاً على تبنى اللغة العربية كلغة قومية للجميع مما أدى الى قيام أدب مشترك وتعليم مشترك أيضاً .

(١) أن تعبير « الشعوب الناطقة بالعربية » تعبير استعماري مكرر يقصد منه تجزئة الأمة العربية الواحدة الى مجموعة من الشعوب تشارك في لغة واحدة هي العربية مع أن الشعوب العربية القيمة بين فارس ومراكش شعب عربى واحد تؤلف اللغة المشتركة إحدى خصائصه بالإضافة الى الاشتراك في التقاليد والتاريخ والمادات والواقع المادى وامانى المستقبل الواحد .

(العرب)

ولا تختلف العلاقة القائمة بين الشعوب الناطقة بالعربية اليوم عن تلك القائمة بين الشعوب الأوروبية . فقد يبدو لنا نحن البريطانيون أن اليونانيين أو النرويجيين غرباء عنا . كما أنهم غرباء بعضهم عن بعض ، ولكن بالنسبة الى الآسيويين تبدو شعوب أوربا وأمريكا الشمالية كلها متشابهة لأنها تشترك في تراث المسيحية المشترك . ومع ذلك فإن السلوك الذي يسلكه النرويجيون في أزمت الحياة يختلف عن سلوك اليونانيين ولا يكون التراث الدينى والثقافى المشترك بينهم حافزا قويا وكافيا لازالة الخصائص العنصرية لكل منهما . وهكذا فإن اطلاق تعبير العرب على جميع الشعوب التى تعيش بين فارس ومراكش يشبه الى حد ما اطلاق تعبير الأوربيين على مجموعة الشعوب التى تشترك فى تراث دينى ثقافى واحد ، وإن اختلفت فى خصائصها العنصرية اختلافا كبيرا (١) .

وربما لا يكون البحث فى معنى كلمة عربى « أكاديميا » فحسب بل ينطوى أيضا على نواح سياسية مهمة . فلو هاجم بلد عربى بلدا عربيا آخر وغزاه فقد يدعى هذا البلد أن جميع العرب يمتون الى أمة واحدة وإن عمله يجب أن يعتبر على هذا الأساس داخليا ومن شئون العرب المحليه لا حق للأمم المتحدة ولا لأية منظمة غير عربية أخرى بالتدخل فيه ، أما اذا اعتبرنا من الناحية الأخرى أن العلاقات بين البلاد العربية تشبه تلك التى تقوم بين شعوب أوربا الغربية فإن غزو أى بلد عربى لبلد كآخر يصبح عدوانا دوليا يفترض من الأمم المتحدة أن تحول دونه ، وهذا مثل آخر ولا ريب على علاقة التاريخ بالشئون الراهنة .

وتكشف قصة الخمسين سنة الأولى من الفتوح العربية بعض المزايا الخاصة التى لاتزال تنطبق على حياة أبناء الجزيرة العربية اليوم، إذ أن هؤلاء ظلوا على حالهم لم يطرأ عليهم أى تبدل منذ أيام النبى ، فهم بما عرف عنهم من صلابة واستقلال ووفرة فى الفضائل العسكرية مازالوا يعتمدون على الشجاعة أكثر من اعتمادهم على العلم . ولو أتاحت لهم المستويات نفسها فى التدريب والمعدات فقد يضاهون أعظم جنود فى

(١) تشبيه سخيف من المؤلف فالشعوب العربية من المحيط الى الخليج لاتشبه فى العلاقات القائمة بينها الشعوب الأوروبية كما يقول المؤلف ، وإنما تشبه مايقوم بين الشعب الأوروبي الواحد كالإلاتى مثلا أو الإنجليزى من علاقات وارتباطات . وصرب الجزائر مثلا لا يختلفون عن عرب مصر أو عرب العراق الا كما يختلف البافاريون عن الإسكسنيين أو البروسيين أو كما يختلف أهل باريس من أهل نورماندى أو ديجون أو بريتانى .
(العرب)

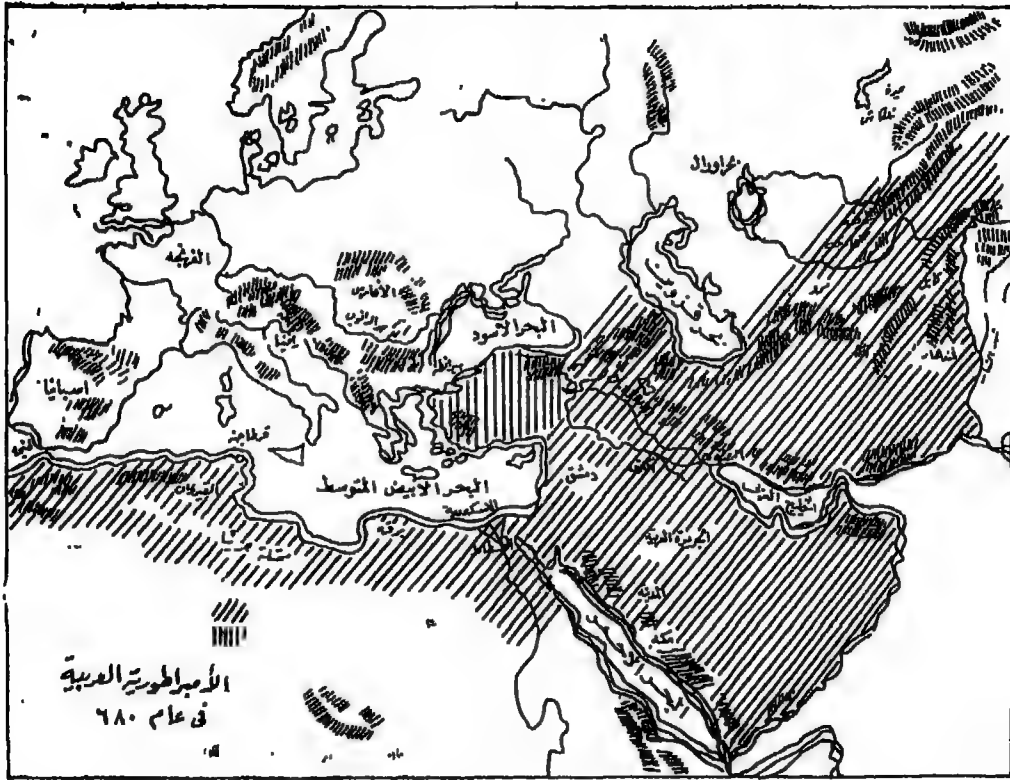
العالم ، والاسلام أساساً دين الجندية اذ أنه انبثق عن هذا الشعب المحارب الصلب ومع ذلك فان الشعوب الباقية الناطقة بالعربية حتى يومنا هذا تختلف اختلافا جوهريا فى خصائصها العسكرية بحيث يستحيل التصميم بالنسبة اليهم كما يحاول البعض أن يفعلوا .

ومن خصائص ابن الجزيرة العربية البارزة أيضا صراحته ونظرته المستقيمة الى الحياة ، وحديثه بسيط ومباشر لا يتضمن التفخيم أو تعابير الكياسة المنمقة . فالعدو عدو بالنسبة اليه ، وهو يميل الى معاملته على مقاييس العنف البدنى ولا ريب فى أن السوريين واللبنانيين واليونانيين يختلفون عنه أوسع اختلاف اذ انهم يعتمدون على الادراك والمجاملة والدهاء وهم يميلون بدافع الغريزة الى الخلاص من أعدائهم بأساليب أكثر التواء من مجرد الضرب على الرأس بفأس أو بآلة حادة . ولما كانوا يعيشون فى عالم يمتاز بالفكر والادراك فانهم لا يميلون الى قبول أية حلول معدة وغير مصقولة بدلا من الحلول الصحيحة نظريا للمشاكل التى يواجهونها ، ولعل هذه الأمثلة القليلة كافية لايضاح هذه الخصائص العنصرية المختلفة أحيانا والمتعارضة تعارضا عموديا أحيانا أخرى والتى تميز الشعوب المختلفة التى تشترك فى لغة عربية واحدة ودين اسلامي واحد (١) .

وتستحق العلاقات بين الاسلام والمسيحية فى هذه الايام شيئا من التعليق . ولقد سبق للنبي أن أعلن أن اليهودية والمسيحية والاسلام ديانات ثلاث مرتبطة بعضها ببعض ولو درسنا كل واحدة منها على حدة لتبين لنا أن ما بينها من خلافاً عميق كل العمق . ولكننا اذا قارناها مع الهندوكية البوذية أو الالحادية الشيعية فانها تبدو على سبيل المقارنة مترابطة بعضها مع بعض ، ولكن هناك كثيرين يعتبرون الاسلام والمسيحية دينين متنافسين أشد التنافس وانى لاعتقد أن ههنا الرأى الخاطىء يستمد جذوره من الاسباب السياسية لا الدوافع الدينية .

ولقد سبق لى أن اوضحت أن الفساحطين العرب الأوائل اعتبروا بيزنطة عدوهم الرئيسى الاول . ولقد اتجهت حروب المسلمين فى الفتوح اللاحقة فى شىمالى أفريقية والأندلس وفى الحروب الصليبية وغزو

(١) انا لاأعتقد أن الأمثلة التى ضربها المؤلف كالملة لأنتاج أى انسان بوجودخلافاً كالتى يشرح اليها المؤلف بين العرب الذين يصر على تسميتهم بالشعوب الناطقة بالعربية ، لهم أمثلة واهية لاتنطوى على أية قوى اتنامية ناهيك بما فيها من تضليل .



الأتراك العثمانيين للميلقان ومعاركهم الطويلة المستمرة مع روسيا القيصرية لمحاربة للمسيحيين ، أما الصراعات بين المسلمين والهندوس فى الهند فكانت على نطاق أضيق . كما أن المسلمين لم يشتركوا فى حروب ضد اليهود الا فيما ندر فى الماضى ، وفى الأربعين سنة الأخيرة فى فلسطين (١) .

ولا ريب فى ان هذه المنافسة الطويلة بين النصارى والمسلمين ترجع الى الاحداث السياسية العارضة والمصادفات الجغرافية أكثر من رجوعها الى خلافات دينية أساسية . أما وقد شرعت الالحادية المادية اليوم فى تحدى القيم الروحية فان فى وسع الديانتين الكبيرتين أن تشاركوا معا فى محاربة أولئك الذين ينكرون وجود الله كلية ، وانى لاعتقد بوجود مجال فسيح للتعاون بين الديانتين .



وقد عاد العالم الناطق بالعربية بعد أربعة قرون من حياة الظلام والنسيان الى مسرح التاريخ يؤدى دوره، وأرى أن من واجبنا ومن مصلحتنا أيضا أن ندرس دراسة متعمقة تاريخ هذه المجموعة من الأقوام وعقليتها ولا سيما ان لهذه المجموعة سجلا تاريخيا مملوءا بالامجاد والقضائل .

تم الكتاب

(١) يحاول المؤلف هنا جريا على ما ألفناه من الاستعمار البريطانى طيلة وجوده فى فلسطين ان يصور النزاع فى فلسطين على انه نزاع دينى بين العرب واليهود وهى الصورة التى ظلت العرب مدة طويلة وخدمت مصالح الاستعمار ومكنته من أن يقيم قاعدته اسرائيل فى قلب الوطن العربى مع أن مشكلة فلسطين مشكلة استعمارية لا طائفة ولا شأن للدين فيها ، فهى صراع من أجل التحرر بين العرب والاستعمار الذى خلق اسرائيل ومازال يدعم وجودها حتى اليوم .

(العرب)

الأحداث التاريخية

سنة

٥٧٠	ولادة النبي محمد
٥٧٠	عام الفيل وهجوم الاحباش على مكة
٥٧٤	احتلال الفرس لليمن
٥٨١	الروم يلقون دولة الفساسنة في الشام
٥٩٥	زواج النبي بخديجة
٦٠٢	كسرى الفرس يغزو امبراطورية الروم
٦٠٢	الفرس يلقون دولة المناذرة في الحيرة
٦١٠	هرقل يعلن امبراطورا
٦١٠	نزول الوحي على محمد
٦٢٢	هجرة النبي الى المدينة
٦٢٢	ابحار هرقل من القسطنطينية لتطويق مؤخرة الفرس
٦٢٤	معركة بدر
٦٢٥	معركة أحد
٦٢٧	حصار المدينة ومعركة الخندق
٦٢٨	اغتيال كسرى - الصلح بين الروم والفرس
٦٢٨	صلح الحديبية
٦٢٩	معركة مؤتة
٦٣٠	فتح مكة
٦٣٢	رفاة النبي
٦٣٣ - ٦٣٢	حروب الردة
٦٣٢	يزدجر يعتلي عرش الاكاسرة
٦٣٣	احتلال الحيرة
٦٣٤ - ٦٣٣	غزو فلسطين والأردن
٦٣٤	مسيرة خالد عبر الصحراء
٦٣٤	معركة بابل في العراق

٦٣٤	معركة اجنادين فى فلسطين
٦٣٤	وفاة ابنى بكر
٦٣٤	معركة اليرموك الاولى
٦٣٤	معركة الجسر فى العراق
٦٣٥	فتح دمشق
٦٣٥	معركة البويب فى العراق
٦٣٦	معركة اليرموك الثانية
٦٣٧	معركة القادسية
٦٣٨	احتلال المدائن
٦٣٩	تمصير الكوفة
٦٤٠	غزو مصر
٦٤١	موت هرقل
٦٤١	استسلام حصن بابلليون
٦٤٢	فتح الاسكندرية
٦٤٢	معركة نهاوند
٦٤٤	اغتيال عمر بن الخطاب
٦٤٩	فتح قبرص
٦٥٢	موت يزيدجورد
٦٥٦	مقتل عثمان
٦٥٦	معركة الجمل
٦٥٧	معركة صفين
٦٦١	اغتيال على
٦٧٠	تمصير القبروان
٦٧٧- ٦٧٠	حصار القسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم العرب	٥
مقدمة	١١
ايضاح للمؤلف	١٩
الجاهلية	٢٣
قريش	٤٩
دلو البئر	٧٧
الردة	١٥٧
سوقية القرصان	١٨٧
بداية الانتصارات	٢١٥
المعركة تتأرجح	٢٢٧
اليرموك	٢٦١
القادسية والمدائن	٢٨٣
تثبيت الاقدام	٣١٣
بابل العظيمة	٣٣٩
استسلام مصر	٣٥٩
فتح الفتوح	٣٨١
أبو لؤلؤة	٤٠٤
عثمان	٤٢١
النار تحت الرماد	٤٤٧
الحكم لله	٤٦٩
الهرطقة والخلافات	٥٠١
العودة الى الفتح	٥٢٥
ذيل	٥٥٣
الاحداث التاريخية	٥٦٧

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية - الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثين جنيها..

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .



الدار القومية للطباعة والنشر
« فرع الساحل »

THE GREAT AR CONQUEST

JOHN BAGOT GLUB

العدد ٨٤
السنة ٦٥ غرش



0248617

